

قراءة في
تاريخ الوجود
من الانفطار الأول إلى النفخة الأخيرة
تأليف
د. أحمد محمد كنعان
عضو الجمعية الدولية لتاريخ الطب الإسلامي
تقديم
د. خالص جلبي
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
www.iqra.ahlamontada.com
منتدى إقرأ الثقافي
للكتب (كوردى . عربي . فارسي)


قراءة في
تاريخ الوجود
من الانفطار الأول إلى النفخة الأخيرة

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

كنعان، أحمد محمد.
قراءة في تاريخ الوجود من الانفطار الأول إلى النفخة الأخيرة / تأليف أحمد محمد كنعان. - ط ١. - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٨.
٥٩٢ ص ؛ ٢٤سم.
تدمك ٧ ٦٤٦ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - الإسلام والفلسفة.
٢ - الإسلام وأصل الكون.
أ - العنوان
٢١٤,١

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م، ٢٠٠٠م، ٢٠٠١م هي عقد الجائزة تقديرًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة: القاهرة: ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع الأزهر: ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف: ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع مدينة نصر: ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف: ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع الإسكندرية: ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا: القاهرة: ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني: info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت: www.dar-alsalam.com

قراءة في

تاريخ الوجود

من الانفطار الأول إلى النفخة الأخيرة

تأليف

د. أحمد محمد كنعان

عضو الجمعية الدولية لتاريخ الطب الإسلامي

تقديم

د. خالص جلبي

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾

[آل عمران : ١٤٠]

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾

[الروم : ٤٢]

الفهرس

الإهداء ..

إلى الذين يصنعون التاريخ

ولا يجدون الوقت لكتابته !

أقوال في التاريخ

التاريخ .. كلمة تختزل باستدارة حروفها حكاية الوجود كله .

التاريخ .. عتيق مثل الصَّخر ، لكنه متدَفّق متغير كالبحر .

التاريخ .. له قدرة عجيبة على مخادَعَة أشد المؤرخين إيمانًا به .

التاريخ .. أبجدية مفتوحة يمكن أن نصوغ منها الحكاية التي نريد .

التاريخ .. ينطوي دومًا على أحلام وردية ، لكنها قلّما تثمر .

التاريخ .. له ذاكرة حديدية لا يفوتها شيء ، وخزانة حديدية مليئة بالمنسيات .

التاريخ .. أخطر ما أبدعه الفكر البشري .

التاريخ .. لا يعنينا بشيء إلّا بمقدار ما نتعلم منه بناء مستقبل أفضل .

التاريخ .. هو علم الحوادث الميتة التي توقفت عن الفعل والانفعال .

التاريخ .. هو ما نقوله نحن عنه .

التاريخ .. يكتبه المنتصرون ، ويثرثر به المنهزمون .

تَقـْدِيم

د. خالص جلبي

حِرْفَةُ الكتابةِ خطيرةٌ ، ومليئةٌ بالتحدّي ، وعامرةٌ بالألغازِ ، وغيرُ مربحةٍ عمومًا ؛ والمفكرونَ في العادةِ فقراءُ مفلسونَ ، والكاتبُ يتعاملُ مع أخطرِ الكائناتِ .. الكلمة .. التي اخترعَها البشرُ ، والكلمةُ في الأصلِ بريئةٌ ، نحنُ الذينَ نشحنُها بالمعنى ، وتتحوّلُ الكلماتُ أحيانًا إلى مشانقَ ، وتحتَ السطورِ يتموّجُ المعنى ، وقد يسبحُ أحيانًا فوقَ لغمٍ مخيفٍ ، والدكتور أحمد كنعان اختارَ هذا الطريقَ الصّعبَ والخطيرَ منذ فترةٍ طويلةٍ ، وهو في كتابهِ الجديدِ هذا فَرَضَ على نفسهِ تحديًا أخلاقيًا وعلميًا ليس بالقليل !

الكاتبُ الذي يُترجم أحاسيسَ النَّاسِ يتفاعلونَ معهُ ، والذي يُبْهِمُ في كلماتِهِ ليس فيلسوفًا بل يتحوَّلُ إلى ساحر .. الساحرُ يُغَمْغِمُ بكلماتٍ هي من قاموسٍ كلماتنا لكن دون معنى إلا عنده هو ، لا تَمنحُ الكلمةُ أسرارَها إلا بالمعاناة ، ومهما خرجتْ فليست سوى صورة باهتة للمعنى المتوهِّجِ في الدماغ .. أحيانًا يحدثُ العكس ، فقد يُولَدُ مع دَفْقِ الكلماتِ دُرَّةٌ تتألّقُ يجب اصطيادُها بسرعة ، وتحريرُها من شرنقتها ، ودَفْعها بأجنحةِ الكلامِ المتاحِ للخروجِ إلى عالَمِ التعبير .

جرت العادةُ أنَّ المتابَعَةَ والحَفْرَ المعرفيَّ المستمرَّ يقودُ في النهايةِ إلى الإنجازاتِ العملاقةِ ، فالانتصارُ الأعظمُ تتابُعٌ لتحقيقاتٍ بسيطةٍ ، والجبلُ مكوَّنٌ من ملايين الحصى والأحجارِ الصغيرةِ ، وشخصيتنا تقفُ في اللحظةِ الواحدةِ على حصيلةِ كَمٍّ مذهلٍ من الجهدِ المتراكِمِ الواعي عبرَ وحداتِ الزمنِ المتدفقةِ التي انصرمت ودَلَفَتْ إلى مستودعاتِ النسيانِ .. والإنجازُ الجديدُ بين أيدينا للدكتور أحمد كنعان يشيرُ إلى مقدارِ الجهدِ الذي صُبَّ فيه لإخراجِ موسوعةٍ تضمُّ أخبارَ الأولينَ والآخِرينَ .

كلُّ حَدَثٍ يتمُّ في الوجودِ هو نتيجةُ تفاعلٍ فلكي من تراكماتٍ وتفاعلاتِ الأحداثِ المولودةِ من رحمِ التّاريخِ ، وهو في علاقةٍ جدليّةٍ بين سلسلة تتابُعِ الأحداثِ ، فهو نتيجةٌ لما قبله ، كما هو سببٌ لما سيأتي بعده ، فلا توجدُ حادثةٌ معلقةٌ في فراغ ، والدكتور أحمد كنعان دأبَ منذ فترة طويلة على إتحافِ قُرّائهِ بأعمال تتطلبُ عزيمة فريقٍ من العلماء كما حصل في كتابه الفريد (الموسوعة الطبية الفقهية) .

تُشَكِّلُ الكتابةُ تحديًا أخلاقيًّا من نوعٍ متفرِّدٍ ، أن لا ينامَ الإنسانُ على أمجادِهِ ، وَيَرْكَنَ إلى الراحةِ وهدوءِ البالِ ، أو يَقَعَ في مَطَبِّ اجترارِ الأفكارِ ، وعدمِ الانتباهِ إلى روحِ الإبداعِ والتجديدِ بِنَهَمٍ لا يعرفُ الشبعَ ، والتَّعَب المضني لتحصيل المعرفة آناءَ اللّيل وأطرافَ النّهار ، وإنني أتعجَّبُ من الدكتور أحمد كنعان كيف يتابعُ نشاطَهُ وإنتاجَهُ في بيئةٍ خانقةٍ ، ولعلَّ سرَّ هذا هو الانسلاخُ عن المحيطِ ، وأن يعيشَ المفكِّرُ بديناميةٍ خاصةٍ في وَسَطٍ يصنعُهُ هو بنفسه .

ليس أخطرَ من الوقوعِ في مطبِّي الغرور و الكسل فكلاهما داءان وبيلان يصابُ بهما الكاتبُ من حيثُ لا يشعرُ ، فيعيدُ ويكرِّرُ ما أنتجَ دون إضافات ؛ أو تأكلُهُ العفويَّةُ والاستخفافُ فيتحنَّطُ ويتجاوزُهُ التاريخُ من حيث لا يشعر .

يجب أن نُمَرِّنَ أدمغتَنا على الحركةِ بأشدَّ من المفاصلِ الكسيحةِ ، وتَيَبُّسُ المفاصلِ الفكريَّةِ أقربُ إلينا من حبلِ الوريدِ ، وفي العلومِ العصبيَّةِ تبيَّنَ أنَّ الاستهلاكَ المفرطَ لقنواتٍ عصبيةٍ مُعَيَّنةٍ يُتْلِفُها كما تتلف الطرقُ التي تستخدمُها السياراتُ بكثافة .

الدماغُ يُعَلِّمُنا الاندفاعَ نحو العبقريَّةِ والإبداعِ من رحمِ تعقيدِهِ البيولوجيِّ ؛ فيجب ارتيادُ طرق جديدة دومًا ، وحتى يمكن معرفةُ أنَّ الكاتبَ يتطورُ أم لا ؟ علينا تَفَقُّدُ مصادره ، وتقليبُ كتابهِ مقلوبًا من الخلفِ للأمامِ ؛ فطبيعةُ المعرفةِ تراكميةٌ ناميةٌ ، وكلُّ مَن يقفُ عند مرحلةٍ يكونُ قد خَتَمَ صيرورتَهُ وماتَ قبل الموت ، والدكتور أحمد كنعان في إصرار عنيد يحاولُ بثَّ الروحِ في مفاصلِ الحياة الإسلاميَّة بغزارة إنتاج يُهنأ عليها .

بطاريةُ السيارةِ تفرغُ إنْ لم يكنْ هناك (دينمو) يملؤها بانتظام ، وبطاريةُ الفكرِ لا بُدَّ لها من دينمو شحن وتغذية دون انقطاع ، ودومًا بكهرباء فكرية جديدة ، وهي تأتي من حركة فكرية مُحَلِّقَة عبرَ فضاءات معرفيَّة متجدِّدَة دومًا بالسير في وديان من المعرفة لا تنضبُ ، وتحليق في سماء التاريخ وقوانينه لاستنطاق روحه ، تمامًا كما تفعلُ السيارةُ وهي تجولُ وتدورُ ؛ فيبعثُ عزمُ الموتور عبر حزام الحركة بالكهرباء إلى الدينمو الذي يَشحنُ البطاريةَ التي تقولُ هل من مزيد ؟! والفكرُ يعملُ بنفس هذا النَّهَم والحركة وينمو دون حدود ، ومن اشتغلَ عنده موتور الفكر وَقَعَ في ورطة من نوع خاص ، وطافتْ به الأفكارُ حتى في الأحلام ، عبر طيوف لا تهدأ ، فقد تأتيه فكرة رائعة وهو في الحمّام ، وقد يلمعُ ويمضي معنًى خفي وهو في مكان لا يملكُ ورقةً وقلمًا ، فكيف يقنصُ صيدَ الخاطر هنا ؟!

لا غرابة إذًا أنْ كَتَبَ أحدُ العلماءِ كتابًا بعنوان (صيد الخاطر) ؛ لأنَّ الأفكارَ لا تأتي دومًا كما يريدُ الكاتبُ ، فهي فيوضٌ رحمانيَّةٌ بنوعٍ من الإلهام الخاصّ ، وانهمارٌ للأفكار لحظيٌّ .

عجيبٌ عملُ الدِّماغِ ، رائعٌ هذا الكمبيوتر الكونيُّ داخل تجاويفِ عظامِ قِحْفِنا ، وإنني أهنئ الدكتور أحمد كنعان على إنجازه ، وأنا شخصيًّا أقرأ دومًا في موسوعاتٍ ألمانيةٍ مزودةٍ بالصُّوَر وتمنيتُ أنْ يُولَدَ مشروعٌ للوجود عن التاريخ الإسلاميِّ من هذا النوع ، وأتمنَّى على الدكتور أحمد كنعان أن يبدأ به ، فإن كتابه هذا الذي بين أيدينا يدل على أنه أهل لمثل هذه المهمة الصعبة .

د.خالص جلبي

●●●

مُقَــدِّمَة

• هذه رحلة ممتعة ، نتخلص فيها من المصباح الشحيح الذي تعودنا أن نحمله معنا ولا يضيء لنا سوى جزء محدود مما حولنا ، لنستبدل به بصيرتنا القادرة على رؤية العالم من أقصاه إلى أقصاه ، من لحظة الولادة إلى لحظة الوداع !

إنَّ الحَمْدَ لله ، مُقَدِّر الأسباب ، مُسيِّر الأحداث ، الذي أنزل القرآن الكريم وقَصَّ فيه من تاريخ الأمم الغابرة ما فيه موعظة وبلاغ لقوم يتفكَّرون ، والصَّلاة والسَّلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صاحب الرِّسالة الخاتمة التي شكلت نقلة متميِّزة في تاريخ العالم .

أما بعد .. فإن القرآن الكريم يدعونا مرارًا وتكرارًا في آيات عديدات إلى التفكُّر بمسيرة هذا الوجود ، كيف بدأ ؟ وإلى أين يسير ؟ وما الذي جرى فيه من أحداث منذ بدء الخليقة وحتى عصرنا الراهن .. بل إلى آخر الدهر ؟ لأن ذلك من دواعي الإيمان بخالق هذا الوجود ، واستشعار قُدْرَته وسَعَة علمه ، ولأن التفكر بمسيرة الوجود يمنحنا المعرفة الصحيحة بسنن التاريخ ، وَيُعِيننا على القيام بأمانة الاستخلاف في هذا العالم على الوجه الذي شرعه الخالقُ ﷻ ، والذي يمكن أن يحقق لنا السعادة الحقيقية ، ليس في الدنيا وحدها بل في الآخرة أيضًا .

وكم كنت في لحظات التأمُّل والتفكُّر والتدبُّر أسرح بخيالي في ملكوت الله الواسع ، وأتجول في مسارب التاريخ ، فأرى الكون في لحظات تَشَكُّله الأولى ، وأرى تدفُّق الحياة عبر الأيام والسَّنوات والعصور ، وأرى فعل الإنسان في هذه الدنيا ، فيأخذني العَجَب العجاب وأنا أتفكَّر بذلك كلِّه ، وبخاصة حين عرفتُ أنَّ هذا الكون الشاسع بما فيه من ذرات ومجرَّات ومخلوقات لا تعدُّ ولا تحصى قد بدأ من نقطة ضئيلة جدًّا هي أقرب إلى العَدَم ، بل هي العدم نفسه ، ثم راح بأمر الله ﷻ يتشكَّل وينمو ويتطور ويتوسَّع حتى صار إلى الصُّورة المذهلة العظيمة التي هو عليها اليوم ، والتي لا يمكن أن تحيط بها العقول !

وإن مما زاد إيماني بقدرة الخالق العظيم ، وضاعف دهشتي وأنا أتأمل تفاصيل هذا الكون الذي يبدو بلا حدود ، أنه على عظمته واتساعه يتكون من أبجديات بسيطة جدًّا ،

فعند التحليل النهائي نجد أن كل ما في هذا الكون يرجع إلى أبجدية أساسية لا تزيد عن ثلاثة حروف (الإلكترونات ، البروتونات ، النيترونات) وهي المكونات الأساسية للذرة ، ومن هذه الحروف يتكون (١٠٦ عناصر كيميائية) تبدأ بالهيدروجين [١] وتنتهي بالنبتونيوم [٢] ، ومن هذه العناصر المحدودة في عددها يتكون كل ما نعرفه في هذا العالم من مخلوقات وظواهر ، من الذرة إلى المجرة ، ومن الفيروس إلى الجرثومة ، إلى النبات ، إلى الحيوان .. إلى الإنسان .

أما المخلوقات الحية التي تدبُّ فوق هذه الأرض ويزيد عدد أنواعها عن (٣٠ مليون نوع) حسب تقدير علماء الحياة فلا تزيد أبجديتها عن بضع وعشرين حامضًا أمينيًّا (*Amino Acids*) فقط ، ومن هذه الأحماض البسيطة في تركيبها وفي عددها تكوَّن المادة الأساسية للحياة ، وهي البروتينات (*Proteins*) التي منها تتكون أجسام سائر المخلوقات الحية من نبات وحيوان وإنسان .. من أصغر فيروس .. إلى أكبر ديناصور .. وأضخم شجرة .. وأذكى إنسان [٣] .

أما ألسِنَةُ البشر أو لغاتهم التي تزيد عن عشرات الآلاف فتتكون فقط من بضع وعشرين إشارة صوتية أو حرفًا ، ومن هذه الأصوات أو الحروف المحدودة تتألف سائر اللغات واللهجات ، وتشتق أعداد لا تتناهى من الكلمات والجمل والتعبيرات التي يتواصل البشر من خلالها ، والتي أبدع البشر بها روائع الأدب والفكر والفن والفلسفة [٤] .

وأما الإنجازات العظيمة التي أنجزها البشر عبر تاريخهم الطويل فقد جرت على أيدي عدد ضئيل جدًّا من العباقرة الأفذاذ الذين قد لا يزيد عددهم عن عدد العناصر الكيميائية في الطبيعة ، أي نحو مائة فقط أو يزيدون قليلًا ، وهم الذين وهبهم الخالق ﷻ مواهب

---

(١) الهيدروجين (H_2) : أبسط العناصر الكيميائية ، ذرته تتكون من نواة فيها بروتون واحد يحمل شحنة موجبة ويدور حولها إلكترون واحد يحمل شحنة سالبة ، والهيدروجين غاز عديم اللون والرائحة سريع الاشتعال ، وهو أخف الغازات وأكثرها تواجدًا في الكون ، ويوجد في كل المركبات العضوية والمخلوقات الحية ، وباتحاده مع الأكسجين يشكل الماء الذي يعد المادة الأساسية في تكوين المخلوقات الحية .

(٢) النبتونيوم (Np) : عنصر مشع ، وزنه الذري (٢٣٧) ، ذرته أكبر الذرات على الإطلاق ، وهو أحد العناصر الترابية النادرة في الطبيعة .

(٣) (انظر : تاريخ الحياة) .

(٤) (انظر : تاريخ الكلمة) .

عقلية متميزة ، فوهبوا البشرية تلك الإنجازات التي كانت وراء كل الحضارات التي شهدها التاريخ ، وكل التطورات التي نعمت بها البشرية ، والمآسي التي لا تكاد فترة من فترات التاريخ أن تنجو من ضرباتها الموجعة !

وإن من يتتبع مسيرة هذا العالم عبر العصور ، وما جرى فيه من أحداث ، وما أبدعته عبقرية الإنسان من أعمال ، وما اقترفته يداه من آثام ، ليلاحظ عدة ملاحظات مدهشة تأخذ بالألباب ، في مقدمتها أن الله ﷻ خلق كلَّ شيء في هذا العالم ، وقدَّره تقديرًا دقيقًا مُحكمًا ، وجعله يمضي على نهج من السنن الثابتة المُطَّردة التي لا تتبدَّل ولا تتحوَّل ، ضمن برنامج زمني دقيق لا يتقدم لحظة واحدة .. ولا يتأخَّر .

وفي كل يوم تطالعنا الكشوف العلمية ، في شتى حقول المعرفة ، بأخبار تؤكد هذه الحقائق الكونية بالمعادلات والأرقام والإحصائيات ، وكلها تشهد بأن هذا الكون ما كان له أن يقوم من دون خالق ، وهذا ما اعترف به جهابذة العلم على مدار التاريخ ؛ منهم على سبيل المثال العالم البريطاني (نورمان بريل)[1] الذي كتب يقول : « وإننا كلما رأينا - أو تصورنا أننا رأينا - خطة شاملة للكون كله ، فإن أفكارنا تتجه في الحال إلى أنه لا بد من وجود خالق لهذا الكون ، وأنه هو الذي وضع هذه الخطة ، وأن العقل البشري مدفوع لاكتشاف أسرار هذا الكون ، وخاصة ما يتفق مع طبيعته ، وإننا كلما تغلغلنا في أسرار الطبيعة غمرنا الضياء ، وازددنا إدراكًا لقدرة الله وعظمته ، ويؤيد ذلك المتصوِّفون من كل دين ، وفي كل عصر ؛ لأنهم ساروا عدة خطوات أكثر من غيرهم ، ويلوح لي أن نتائج مشاهداتهم وخبراتهم لها أثر بالغ عليهم ، وأن هذه المشاهدات والخبرات تضم الفكر والعاطفة في كلٍّ لا يتجزأ ، وتقرِّب العقل من الحقيقة النهائية ، أو الذات الإلهية »[2] .

وفي إطار هذه الرؤية الشاملة للوجود تدور فصول هذا الكتاب الذي تعود فكرته إلى العام ١٩٩٠م ، فبعد أن نشرت كتابي (أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق)[3] ،

---

(١) نورمان ج . بريل (١٩٠٣ - ١٩٧٢م) : عالم بريطاني ، حصل على دكتوراه في الفلسفة ، ودكتوراه في العلوم من جامعة لندن ، كان زميلًا لمعمل البحرية البيولوجي في بلايموث ، وعمل أستاذًا مساعدًا في علم الحيوان بجامعة لندن ، ومحاضرًا في علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) المقارن بجامعة ليدز .

(٢) نورمان بريل : بزوغ العقل البشري ، (ص ٣١٣) ، ترجمة د.إسماعيل حقي ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة ونيويورك (١٩٦٤م) .

(٣) د.أحمد محمد كنعان : أزمتنا الحضارية ، مركز الدراسات والبحوث ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، قطر =

أيقنت وأنا أتفكر بالسنن الإلهية التي تُنَظِّمُ حركة هذا الوجود أن اكتشاف هذه السُّنن وفهمها فهمًا دقيقًا صحيحًا ، ومعرفة كيفية عملها ، ومن ثم كيفية تسخيرها ، يتطلب منا نظرة شاملة لتاريخ هذا الوجود ، وما جرى فيه من أحداث ، وما كان فيه من وقائع ، من بدء الخليقة ، وحتى اللحظة الراهنة ، بل وإلى المستقبل .. إلى نهاية التاريخ .

وهكذا ولدت في ذهني فكرة هذا الكتاب ، الذي لا يطمح أن يكون استقراءً مفصلًا لتاريخ الوجود ، فتلك مهمة أكبر من أن يقوم بها فريق متخصص من علماء التاريخ ، ناهيك عن أن يقوم بها باحث واحد مثلي ، وغاية ما يرجوه هذا الكتاب أن يكون مرشدًا عامًا لخارطة الوجود ، يترسَّم تضاريسه الأساسية ، ولا يحفل بالحدود المصطنعة بين أحداثه ووقائعه ، حتى لا تغيب رؤيتنا لسنن التاريخ في خضم الأحداث والوقائع الهامشية الصغيرة ، والتزامًا مني بهذا المنهج فقد انصبَّ اهتمامي على الأحداث الكونية الكبرى التي شكَّلت المفاصل الأساسية لتاريخ هذا الوجود ، ولم أحفل بالأحداث الفرعية إلا ما وجدت ضرورة لذكره من أجل تسليط المزيد من الأضواء على الأحداث الرئيسة ، وقد حرصت بالمقابل على التوسع قدر الإمكان بالهوامش التي وجدت أنها تثري الموضوع ، وتقدم مادة إضافية للباحثين الذين يرغبون بالمزيد من التفاصيل .

وقد حرصت أن أورد من نصوص القرآن الكريم ، والسُّنة النبوية ، وآيات الآفاق والأنفس ، ما يؤيد أو يبيِّن أو يُفَصِّل ملامح السنن الإلهية التي تحكم مسيرة هذا الوجود ، وأكثرت من ضرب الأمثلة ، وأوردت العديد من الإحصائيات والجداول والبيانات ، رغبة مني بتحقيق المزيد من الفائدة ، وتوقفت في أكثر من موضع للحديث عن المستقبل لاستكمال صورة الوجود وتقديم قراءة شاملة لتاريخ هذا الوجود من مبتداه إلى منتهاه .

وقد افتتحت فصول الكتاب بفصل حول مفهوم التاريخ عرضت فيه الفوارق المهمة ما بين مصطلح التاريخ الذي هو مجموعة الأحداث التي وقعت فعلًا عبر العصور ، وبين عملية التأريخ التي يتولاها المؤرخ وتتأثر ببعض أهوائه أو معتقداته أو نزعاته الشخصية فتغيِّر صورة الأحداث قليلًا أو كثيرًا عن الصورة التي حدثت بها فعلًا .

= والمغرب ومصر (١٩٩٠م) ، ودار النفائس بيروت (١٩٩٦م) .

وفي الفصل الثاني قدمت نبذة عن خصائص السنن أو القوانين الإلهية التي تحكم مسيرة هذا الوجود ، وبينت أن هذه السنن تتصف بالثبات ، فهي لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول ، وهي سنن مطَّردة ترتبط مقدماتها بنتائجها ارتباطًا عضويًا لا ينفصم إلى يوم القيامة ، وهذه السنن تشمل كافة المخلوقات والظواهر الكونية بلا استثناء ، من الذرة إلى المجرة ، من أدنى مخلوق إلى أعظم مخلوق ، ومن حياة الأفراد إلى حياة الأمم والمجتمعات .. إلى نشأة الحضارات واندثارها .

وفي الفصل الثالث انتقلت للحديث عن الملامح العامة لتاريخ العالم ، وفي مقدمتها تشابك الأحداث وارتباط بعضها ببعض ، وبينت أن أحداث التاريخ كلها تبدو وكأنها تشكل معًا حدثًا واحدًا ممتدًا من بداية الوجود وحتى اللحظة الراهنة ، ثم تحدثت عن السمة الثانية من سمات هذا العالم وهي سمة التطور التي يخضع لتحولاتها كل ما في هذا الوجود من مخلوقات وظواهر حية وغير حية ، ثم تحدثت عن السمة الثالثة من السمات التي تطبع هذا العالم بطابعها وهي سمة التسارع التي جعلت أحداث الوجود تجري باستمرار وفق إيقاع متسارع ، يومًا بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، وعصرًا بعد عصر ، وقد كان من نتيجة هذه السمات التي طبعت تاريخ العالم بطابعها أن كان الكون كله في تغير مستمر لا يتوقف لحظة واحدة ، وهذه هي السمة الرابعة من سمات هذا الوجود .

وبعد هذه المقدمات العامة لأبرز مظاهر الوجود ، رحت أتجوَّل في مسارب التاريخ ، بادئًا بذكر بواكير الأحداث الكونية ، مبتدئًا من الانفطار العظيم الذي تمخض عن نشأة الكون وما فيه من مجرات ونجوم وكواكب وأقمار وتوابع ، ثم تحدثت عن تاريخ الحياة أو نفخة الروح التي تمخضت عن نشأة الأنواع المختلفة من المخلوقات الحية التي ظهرت في الأرض وتُوِّجت آخر المطاف بنشأة الإنسان ، واستعرضت بعد ذلك تاريخ الإنسان منذ نشأته الأولى ، وحتى نفخة الروح فيه ، وحمله الأمانة ، واستخلافه في الأرض ، وحاولت استشراف مستقبله في هذا الوجود وما يُنتظر منه أن يحققه في المستقبل البعيد الذي يبدو أنه سوف يمتد لعصور قادمة طويلة جدًّا !

ثم انتقلت للحديث عن تاريخ الكلمة أو اللغات ، وعن تعددها ودورها في التواصل بين البشر ، ثم تناولت أهم ظاهرة رافقت البشرية منذ فجرها الأول وهي النزعة إلى الإيمان بالغيب والبحث عن الإله ، فاستعرضت تاريخ الأديان ، وانتهيت إلى أن الدين

كان حاضرًا منذ اللحظة الأولى لخلق الإنسان الذي حمل الأمانة ، واستخلف في الأرض . وفنَّدتُ دعاوى أصحاب المذهب الطبيعي الذين يزعمون أن الدين ظهر في حياة البشر ردًا على الظواهر الطبيعية الشرسة التي واجهت الإنسان في الأرض أول وجوده فيها ، كما استعرضت أهم المراحل التاريخية التي مرت بها الأديان السماوية الثلاثة الرئيسة (اليهودية ، المسيحية ، الإسلام) التي كتب الله لها البقاء حتى اليوم وكان لها على مدار التاريخ أكبر حضور وتأثير في الأحداث العالمية .. وما زال .

وقد قادني الحديث عن ظاهرة الأديان في التاريخ البشري إلى الحديث عن ظاهرة مبكرة أخرى في تاريخ الفكر البشري ، ألا وهي الفلسفة التي تعد بشكل أو بآخر دين من لا دين له ، ورجحت من خلال استقراء (تاريخ الفلسفة) أن هذه النزعة إلى الفلسفة قد واكبت نشأة الأديان منذ بدايات التاريخ البشري ، وأن الفلسفة جاءت وليدة الرسالات السماوية وما ورد في هذه الرسالات من حقائق عن هذا الوجود ، ودعوة الأديان إلى التفكر بخلق السماوات والأرض ، وقد ترجَّح لديَّ أن الآراء الفلسفية المختلفة التي عرفها تاريخ الفلسفة لم تأتِ عفو الخاطر ، ولم تكن حصيلة تأملات بشرية خالصة ، بل كان الدافع الأول لها هو الدين ، لكنها مع مرور الزمن اتخذت لها طريقًا مستقلًا عن الدين حتى أصبحت من أبرز الإنجازات الفكرية في التاريخ البشري .

ثم تناولت تاريخ الأدب الذي يعد مع الفلسفة من أهم الإنجازات الفكرية في التاريخ البشري ، فقد أثرى الأدب المخيلة البشرية بالكثير من الأفكار ، وخلق من خلال القصص والروايات والأشعار التي تمخض عنها عالمًا جميلًا استطاع من خلاله تصوير أعمق ما يختلج في النفس البشرية من مشاعر وعواطف وأحاسيس وأحلام وأماني ، وعندما يسر الله للبشرية وسائل التقنية الحديثة من تلفزيون وسينما وقنوات فضائية أصبح الأدب هو العنصر الأساسي في توفير المادة الفكرية والثقافية للعالم .

ومن خلال الحديث عن الفلسفة والأدب ولدت ظاهرة أخرى تكمل هذا الثلاثي الفريد ، ألا وهي ظاهرة الفن ؛ ولهذا استعرضت تاريخ الفن وما أبدعه عبر تاريخه في مختلف ضروب الفن من رسم ونحت وتصوير وموسيقى ومسرح وغيره ، وناقشت الدور الذي أداه الفن في حياة البشر ، وكيف أضفى على حياتنا مسحة روحية خلَّابة !

ثم تناولت تاريخ الصِّراع بين البشر ، الذي بدأ من اللحظات الأولى لظهور الإنسان في هذا الوجود حين صرخ قابيل بوجه أخيه هابيل : ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ [المائدة : ٢٧] ، ولم يلبث أن قتله ، وبينت أن هذا الصراع كان هو الدافع الأهم لظهور فكرة القانون في المجتمع البشري ، وأن نشأة القانون جاءت بهدف توفير الأمن والأمان والسلام للمجتمعات البشرية على مر العصور ، وقد تمخض عن نشأة القانون ظاهرة أخرى كان لها تأثير حاسم في التاريخ البشري ، ألا وهي (السياسة) ؛ ولهذا تحدثت عن نشأة الفكر السياسي في التاريخ ، وبينت دور السياسة في ظهور الزعماء والحكومات والدول والحضارات ، وكيف تحول الصراع من إطاره الفردي إلى إطار دولي واسع كان السبب في حروب عالمية مدمرة ؟!

وفي فصل لاحق استعرضتُ تاريخ الحضارة ، وذكرت أهم الحضارات التي ظهرت عبر التاريخ البشري ، وناقشت دور الدين في نشأة هذه الحضارات ، وكيف أن سنة الله في خلقه اقتضت تداول قيادة هذه الحضارات بين الأمم على مدار التاريخ ، وعدم تركيزها في أمة واحدة مهما بلغت من العلم أو الغنى أو القوة والجبروت .

ونظرًا للعلاقة الوثيقة ما بين الصراع والحروب والسياسة ، وما أدت إليه من استعباد البشر بعضهم لبعض ، فقد خصصتُ فصلًا للحديث عن نشأة مفهوم (الحرية) في الفكر البشري ، وبينت كيف ترسخ هذا المفهوم عبر عصور طويلة من الكفاح والنضال ، على أمل الخلاص من نير العبودية والرق والظلم ، حتى استؤصلت فكرة العبودية والرق من الفكر البشري استئصالًا تامًّا ولم يعد أحد من أهل الأرض يستسيغ اليوم هذه الفكرة على الإطلاق .

ثم تطرقت لنشأة مفهوم (العلم) في التاريخ البشري ، وبينت أن أول العلماء هو آدم عليه السلام الذي علَّمه ربُّه الأسماءَ كلَّها ، فكان هذا التعليم بمثابة المصطلحات الأولى التي انطلقت منها مسيرة العلم عبر العصور ، ثم استعرضت تاريخ العلوم وتطورها ، وعلاقة العلم ببعض المفاهيم الأخرى كالحرية والأخلاق والدين ، وتوقفت أخيرًا عند العتبة التي وصل إليها العلم اليوم ، وما حققه من إنجازات كبيرة تبشر بمستقبل للبشرية يختلف اختلافًا جذريًّا عن ماضيها .

وبعد ذلك توقفت وقفة طويلة عند أحداث القرن العشرين الذي تركزت فيه خلاصة التاريخ الماضي كله ، والذي بشهادة المؤرخين والمحللين والمراقبين شكَّل نقلة متميزة ، بل حاسمة في التاريخ البشري لكثرة ما شهده من إنجازات علمية عظيمة ، وما حصل فيه

من ثورات اجتماعية وسياسية واسعة غيرت خريطة العالم ، وقد رجحتُ أن أصداء هذا القرن ورزاه سوف تبقى طويلًا في ذاكرة التاريخ ، وهذا ما جعلني أخصُّه بفصل منفرد .

وفي الفصل التالي انتقلت للحديث عن توحيد العالم في إطار النزعة إلى العولمة التي وضعت البشر أمام الاختيار الصعب ، بأن ينضووا كلهم تحت مظلة نظام عالمي واحد ، تقوده بعض القوى العظمى التي تحاول كل منها جاهدة أن تنفرد بالقيادة ، وأن تفرض سيطرتها على الجميع !

وفي الفصل الأخير حاولت استشراف آفاق المستقبل مبينًا أهمية هذه المحاولة لاستكمال صورة الوجود ، ووضع الخطط والبرامج المستقبلية التي يمكن أن تساعدنا في التعامل البنَّاء مع ما سيأتي به الغد من أحداث وتطورات ؛ وذلك لأن الذي ينظر إلى اللحظة الراهنة إنما يرى صورة واحدة فقط من الفيلم الطويل الذي يمثل حكاية هذا الوجود ، ومن نظر إلى الماضي والحاضر دون المستقبل غاب عن بصره الجزء الأكبر والأهم من هذا الفيلم الشيق . ومما لا شك فيه أن التنبؤ ببقية الحكاية أمر مثير جدًّا يعرفه الذين أدمنوا مثلنا في فترة من فترات حياتهم على مشاهدة أفلام الإثارة ، ناهيك عن أن هذا التنبؤ سوف يفيدنا في التحضير الواعي لبقية الأحداث التي يخبئها لنا المستقبل .

وبما أن محاولتنا للتنبؤ بما سيأتي به الغد تظل قاصرة عن رؤية هذا الغد بالوضوح المقبول الذي يمكن أن نبني على أساسه خططًا وبرامج للمستقبل البعيد ، فإن غاية ما نأمل فيه هو استشراف الآفاق المستقبلية القريبة في حدود قرن من الزمان لكي نكون أقرب إلى الواقعية وأبعد عن الأخطاء القاتلة ، وبناءً على هذا حاولت في الفصل الأخير استشراف آفاق التحولات القادمة في حدود قرن واحد من الزمان ، في شتى المجالات والحقول الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية ، مع بيان أوضاع العالم الإسلامي على خارطة العصر وما يمكن أن تؤول إليه هذه الأوضاع خلال هذا القرن الذي دخلنا بوابته منذ قليل .

وفي المحصلة الأخيرة فإن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون خطوة يسيرة على الطريق نحو قراءة جديدة لمسيرة هذا الوجود ، بهدف معرفة السنن الإلهية التي تحكم هذه المسيرة ، والاقتراب أكثر فأكثر من قراءة ما تبقى من الصفحات ، على أمل أن نصبح أكثر قدرة على القيام بأمانة الاستخلاف في هذا العالم ، ولا غرو بأن هذا الهدف البعيد الذي تتطلع إليه البشرية قاطبةً يتطلب الكثير من جهود المتخصصين في مختلف العلوم الإنسانية ، ولا سيما

منهم علماء التاريخ وعلماء الاجتماع الذين نأمل منهم التركيز على استنباط سنن التاريخ والاجتماع البشري ، واستشراف المستقبل ، بدلًا من تركيزهم على سرد الوقائع سردًا خارجيًا دون الخوض في أعماقها ، والبحث عن السنن الإلهية التي تحكمها ، وحسبنا في هذا الكتاب أننا رسمنا بعض الخطوط الأساسية في هذه الطريق الطويلة الشائكة تاركين للأجيال القادمة استكمال المسيرة .. والله ولي التوفيق .

د. أحمد محمد كنعان

***

الفصل الأول

بين التاريخ والتأريخ

- إن الحقائق الخفية تفوق الحقائق المتعارف عليها .

الفنان التشكيلي بول كلي

- لا توجد حقائق تاريخية دون تأويلات .
- كلنا نحب أن نرى الجانب المضيء من تاريخنا ولو كان ذلك على حساب الحقيقة !
- ليس هناك تاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة ، هناك فقط سير شخصية .

الأديب الفيلسوف رالف إمرسن

التاريخ .. هو الماضي ، هو كل ما حصل قبل اللحظة التي كتبت فيها هذه الكلمات ، بل قبل اللحظة التي تقرأ فيها - عزيزي القارئ - هذه الكلمات ، فحتى كتابي هذا أصبح الآن جزءًا من الماضي ، جزءًا من التاريخ .. فما الذي يعنيه هذا ؟ إنه يعني أن الفاصل ما بين الحاضر وتاريخه ما هو إلا فاصل وهمي ، فما يكاد الحدث يظهر إلى الوجود حتى تطويه سجلات التاريخ بين سطورها إلى غير رجعة .

ومادام الحاضر هو حياتنا الفعلية ، وما دام يتسرب من بين أيدينا بهذه السهولة ليغدو جزءًا من الماضي .. من التاريخ .. فلا غرابة أن يهتم الإنسان بتاريخه ، ويحرص على تدوينه ليرجع إليه بين الحين والآخر ، ربما ليستعيد لحظات حياته الهاربة ويوهم نفسه بتوقف الزمن والاستمرارية والخلود !

ومما لا شك فيه أن للتاريخ وقعًا خاصًا في مشاعرنا ، فإن كلًّا منا يحس بالحنين إلى الماضي ، ونتمنى من أعماقنا لو عادت بنا الحياة إلى أفياء الأيام الخوالي ، ومع تسليمنا بأن هذا الإحساس إحساس إنساني مبرر ومفهوم ؛ لأنه يُشبع فينا رغبة دفينة إلى الخلود ، فإننا لا يصح أن نكون ماضويين بتفكيرنا وتصرفاتنا ؛ لأن الحاضر هو الحقل الذي نستطيع التأثير فيه ، أما الماضي فإن بيننا وبينه برزخًا وحجرًا محجورًا يحول بيننا وبين التأثير فيه .

وهذه الحقيقة لا تعني انفصالنا التام عن الماضي وعدم الاستفادة منه ، فليس ثمة ماضٍ خالٍ من الإضافة إلى الحاضر ، لكن المهم أن نلتقط من الماضي ما يخدم الحاضر ويعيننا على بناء مستقبل أفضل ، أما ما يمثله الماضي من إشكاليات وملابسات فنحن في غنى عنها .

الفارق بين التاريخ والتأريخ :

والحديث عن التاريخ يعيدنا إلى البدايات ، ولكن قبل هذه العودة ، وقبل أن نخوض في مسارب التاريخ ودهاليزه ومتاهاته الملتبسة ، يجدر بنا أن نميز بين مصطلحين كثيرًا ما يختلط أحدهما بالآخر ، أولهما : مصطلح التاريخ (*History*) الذي يعني مجموعة الأحداث التي وقعت فعلًا منذ بدء الخليقة وحتى اللحظة الراهنة ، وثانيهما : التأريخ (*Historiography*) ويعني العملية التي يمارسها المؤرخ لتدوين تلك الأحداث ويستعين فيها بالأخبار والآثار والروايات والسجلات والمذكرات والوثائق ؛ ليستخرج منها المادة التاريخية التي يعمل على تدوينها .

التاريخ إذًا هو وقائع موضوعية وقعت فعلًا في الماضي ، أما التأريخ فهو عمل بشري يمارسه المؤرخ في الحاضر ، فيسجل تلك الوقائع تسجيلًا قد يطابق تلك الوقائع ، وقد لا يطابقها ، كما نبين بعد قليل .

ولم يرد مصطلح (التاريخ) في القرآن الكريم ، وإنما وردت مصطلحات مقابلة له للتعبير عن أحداث الماضي ، منها (أساطير الأولين ، قصص الأولين ، أنباء الرسل ، أنباء القرى ، القرون الأولى ، الصحف الأولى ... إلخ) ، وهي كما نرى معان تشابه معنى التاريخ في اللغات الأخرى التي تعبر عن التاريخ بألفاظ تعني القصة أو الحكاية .

ويطلق المؤرخون مصطلح ما قبل التاريخ (*Prehistoric*) على الأزمنة الغابرة التي سبقت وجود أية مدونات أو رسوم أو كتابات تؤرخ لحياة الإنسان ، ويطلقون مصطلح ما قبل الميلاد الذي يختصرونه بالحرفين (ق.م) وبالإنكليزية (BC) اختصارًا من جملة (*Before Christ*) للدلالة على الفترات من حياة الإنسان منذ بدأ يترك آثارًا تدل على تاريخه القديم وإلى ما قبل ميلاد السيد المسيح ﷺ . وارتباط هذا المصطلح بالسيد المسيح يدل على أن المؤرخين المسيحيين هم الذين وضعوا هذا المصطلح الذي شاع فيما بعد عند مختلف المؤرخين في العالم ، وهو مصطلح ينفع في التأريخ للوقائع القريبة نسبيًّا التي وقعت في القرون القليلة التي سبقت ميلاد السيد المسيح ، لا للعصور الغابرة التي يستخدم للدلالة عليها مصطلح (ما قبل التاريخ) كما أشرنا آنفًا .



(لقد بدأ الإنسان تدوين تاريخه منذ وقت مبكر ، وكأنه بذلك كان ينشد الخلود)

وقد بدأ البشر قبل الميلاد بزمن طويل يمارسون عملية التأريخ ، وكانوا يمارسونها بصورة شفوية في البداية ، فكانوا يتناقلون أخبار آبائهم وأجدادهم وأقوامهم جيلًا بعد جيل ، إلى أن عرفوا الكتابة والقراءة فبدؤوا يدونون تاريخهم بصورة بدائية غير منظمة ، وقد وجدت بالفعل سجلات تاريخية مكتوبة تعود إلى ما قبل الميلاد في كل من مصر القديمة وبابل والصين ، إلا أن تلك السجلات كانت تفتقر إلى التنظيم والدقة والترابط والترتيب ، وقد بقي حال التأريخ هكذا حتى جاء المؤرخ الإغريقي الشهير هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٢٥ق.م) [1] ، الذي يعده المؤرخون أبا التأريخ ؛ لأنه أول من دوّن الحوادث التاريخية تدوينًا منظمًا ، ورجع في تأريخه إلى أقدم العصور التي وصلته أخبارها ، ودوّنها في كتابه تاريخ هيرودوت الذي لم يتوقف فيه عند سرد الأحداث السياسية فحسب ، بل دوّن فيه أيضًا تاريخ الأساطير والعادات والتقاليد ، ما أضفى على كتابه مسحة موسوعية تدعو للإعجاب حقًا .

---

[1] هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٢٥ق.م) : مؤرخ إغريقي ، ولد في بلدة هليكرنلسوس ، وحين بلغ العشرين من عمره نفي إلى جزيرة ساموس لتورطه بانقلاب فاشل ضد الأسرة الحاكمة ، ويبدو أنه لم يعد إلى بلدته بعد ذلك رغم اعتقاده الشديد بانتسابه لها ، وبعد نفيه بدأ رحلاته التي وصفها في تاريخه ، وفي عام (٤٤٤ ق.م) انتقل إلى مستعمرة يونانية جنوب إيطاليا ، وبدأ بكتابة تاريخه في تسع مجلدات ، وهو مؤلفه الوحيد الذي وصلنا كاملًا .



(تمثال المؤرخ الإغريقي هيرودوت .. أبو التأريخ)

أما العرب فقد اهتموا بالتأريخ اهتمامًا بالغًا منذ العصر الجاهلي قبل الإسلام ، فقد اشتهروا بحفظ الأنساب ، وأخبار الأمم المعاصرة والغابرة ، وكانت لهم روايات كثيرة سارت بها الركبان ، إلا أنها لم تكن روايات موثقة ، ولم تخل من مسحة أسطورية اختلط فيها الخيال بالواقع ، حتى إذا جاء الإسلام وجدوا لزامًا عليهم تحرِّي الدقة الشديدة في الروايات لما لها من مكانة في التشريع الإسلامي ، وبخاصة عند تدوينهم لحديث رسول الله ﷺ الذي يعد المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم ، وقد بلغت عنايتهم بالروايات حدًّا جعلهم يؤسسون علمًا جديدًا لم يعرفه المؤرخون من قبل ، أطلقوا عليه وصف (الجَرْح والتَّعديل) وهو العلم الذي ميزوا به بين الرواة الثقات ، والرواة الضعفاء ، والرواة الوضَّاعين الذين وضعوا الكثير من الروايات الكاذبة التي لا أساس لها في الواقع ، وقيَّموا به أيضًا متن الروايات من حيث القوة والضعف .. وبهذا سبق المؤرخون المسلمون غيرهم من الأمم بتمحيص الروايات وتدقيقها ونقدها والحرص الشديد على صحتها ، وكان حياد المؤرخين المسلمين وموضوعيتهم العلمية سمتين تستحقان التقدير والإعجاب ، وقد بلغ من عناية المؤرخين المسلمين أنهم كانوا يؤرخون الوقائع بالسنة والشهر واليوم ، وهو عمل لم يسبقهم إليه أحد من المؤرخين ، حتى إن المؤرخ الشهير باكل صرَّح أن هذا العمل الدقيق الذي أسسه المسلمون لم يحدث مثله في أوروبا إلا في عام (١٥٩٧ م) ، أي بعد أن درج عليه المؤرخون المسلمون بقرون طويلة [1] .

---

(١) انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، (ص ٤٨٠) وما بعدها .

وبالمقابل ، في أوروبا إبان العصور الوسطى ، نجد أن الروح الناقدة لدى المؤرخين قد كبتت كبتًا شديدًا تحت سطوة أرباب الكنيسة ؛ لأن التعليم وقتئذ اقتصر على رجال الدين ، وحصرت عملية التأريخ بهؤلاء الرجال الذين بطبيعة تعليمهم الكنسي انحازوا إلى تعاليم الكنيسة وإلى الملوك والأشخاص الذين ناصرتهم الكنيسة ، وهذا ما نلاحظه مثلًا عند (القديس أوغسطين)[1] ولا سيما في كتابه (مدينة الله) الذي نشره في عام ٤٢٠م .

وبسبب هذه النزعة غير المحايدة التي وسمت كتابات مؤرخي العصور الوسطى عامة فقد ثار مؤرخو عصر النهضة الأوروبية[2] على المؤلفات التاريخية التي دوِّنت في تلك الحقبة ، ووجدوا أن لا مندوحة من إعادة كتابتها لتصحيح ما انطوت عليه من مغالطات تاريخية فادحة ، وقد شرعوا بهذه المراجعة في مطلع القرن السابع عشر ، فجمعوا المصادر التاريخية القديمة ، وراحوا يفحصونها ويمحِّصون ما جاء فيها من أخبار ، مفتتحين بهذا العمل عصر التأريخ الحديث[3] .

---

(1) القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م) : ولد في شمال أفريقيا ، وتلقى تعليمه في روما ، وتعمَّد في ميلانو ، وهو من الشخصيات المؤثرة في تاريخ المسيحية الغربية ، تعتبره الكنيستان الكاثوليكية والأنجليكانية قديسًا وواحدًا من أبرز باباوات الكنيسة ، ويعتبره بعض البروتستانت - وخاصة الكالفنيون - أحد المنابع اللاهوتية لتعاليم الإصلاح البروتستانتي ، وتعتبره بعض الكنائس الأرثوذكسية مثل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قديسًا ، بينما يعتبره بعضهم هرطقيًا بسبب آرائه حول مسألة الفيض (*Emanation*) في خلق العالم ، مؤلفاته بما فيها (الاعترافات) التي تعد أول سيرة ذاتية في الغرب ما زالت مقروءة في كثير من بلدان العالم .

(2) عصر النهضة الأوروبية : هو الفترة ما بين القرن (١٤) إلى القرن (١٦) ميلادي ، وهي فترة انتقال أوروبا من العصور الوسطى (*Middle Ages*) إلى العصور الحديثة (*Modern Ages*) ويؤرخ له بسقوط القسطنطينية في يد المسلمين وإعلانها عاصمة للخلافة الإسلامية ، ما أدى لهجرة العلماء إلى إيطاليا وهم يحملون تراث الحضارتين الرومانية واليونانية ؛ ولهذا بدأت بوادر النهضة في إيطاليا ومنها انتشرت إلى بقية أنحاء أوروبا ، وكان من عوامل النهضة تدعيمها بالمال الوفير من الأسر الأوروبية الثرية مثل أسرة ميديتشي في فلورنسا ، والبابوات في روما ، وكان لعصر النهضة تأثير واسع بانتعاش الفنون المختلفة ، وانتشار الأفكار الفلسفية الرائدة ، وظهور المستكشفين الرواد الذين اكتشفوا بلدانًا جديدة مثل أمريكا وغيرها .

(3) الموسوعة العربية الميسرة ، مصدر سابق .



(القديس أوغسطين)

وهكذا ، مع دخول العصور الحديثة ، أخذ علم التأريخ يقترب أكثر فأكثر من الصبغة الموضوعية ، وفي أواخر القرن الثامن عشر ظهر عِلْمان جديدان ساندا علم التأريخ مساندة قوية ؛ هما علم الأحافير (*Paleontology*) [١] ، وعلم أصول اللغات (*Linguistics*) اللذان ساهما مساهمة كبيرة في نقد الروايات التاريخية ، ودراسة التاريخ دراسة أكثر موضوعية .

ومع مطلع القرن العشرين ظهرت مدارس تاريخية جديدة ، وتخصصات تاريخية عديدة ، تساندها علوم أخرى عديدة ، وبخاصة منها العلوم الإنسانية ؛ مثل علم البشريات (*Anthropology*) [٢] ، وعلم النفس (*Psychology*) ، وعلم الاجتماع (*Sociology*) ، وبهذا غدت عملية التأريخ عملية معقدة تحتاج إلى فريق عمل يضم إلى جانب المؤرخين علماء آخرين متخصصين في بقية العلوم ذات الصلة .

---

(١) علم الأحافير (*Paleontology*) : هو العلم الذي يهتم بدراسة بقايا الأحياء القديمة من نبات وحيوان وبشر ، والأحافير يمكن أن تكون عظامًا أو انطباعات على الصخور للنباتات أو الحشرات أو الأصداف أو آثار الأقدام ، ويفيدنا علم الأحافير في تقصي سيرة الحياة منذ سالف الأزمان ، وينقسم إلى علم الأحافير النباتية (*Paleobotany*) ، وعلم الأحافير الحيوانية (*Paleozoology*) .

(٢) علم البشريات : علم يبحث في صفات الإنسان التي تميزه عن مختلف أفراد المملكة الحيوانية ، كما يبحث في أعراق الإنسان المختلفة وحضاراته وإنجازاته وتاريخه .



(لقد ساهم علم الأحافير مساهمة كبيرة في معرفتنا بتاريخ الوجود الموغل بالقدم)

إعادة كتابة التاريخ :

ومما يسترعي الانتباه في تاريخ المؤرخين أن أكثرهم لم يتوقف عند التأريخ لعصورهم فحسب ؛ بل اهتموا اهتمامًا ملفتًا للنظر بالتأريخ لهذا الوجود من مبتداه وحتى منتهاه . وتزخر رفوف المكتبات القديمة منها والحديثة بأعداد لا تحصى من الكتب التي انتهجت هذا المبدأ ، ولعل من أشهر هذه الكتب في التراث العالمي القديم ما تركه لنا المؤرخ الإغريقي هيرودوت الذي أشرنا إليه آنفًا .

أما في تراثنا العربي فإن المدونات التاريخية لم تظهر إلا مع النهضة التي أحدثها الإسلام في حياة العرب ؛ لأن العرب قبل الإسلام كانوا يتداولون الأخبار شفاهة ، وتعود بواكير المدونات التاريخية الإسلامية إلى أواسط القرن الأول الهجري ، ولعل أولها كتاب (الملوك وأخبار الماضي) لعبيد بن شريه (ت ٧٠هـ) ، ثم جاء من بعده لفيف من المؤرخين الذين تركوا العديد من المدونات التاريخية القيمة ، ويعد كتاب (البداية والنهاية) للعلامة المؤرِّخ (ابن كثير) [١] أول وأشمل ما كتبه العرب حول تاريخ الوجود من مبتداه وحتى عصر الكاتب نفسه ، وقد قسَّم ابن كثير كتابه إلى ثلاثة أقسام فتناول في القسم الأول بدء الخليقة من لدن أبي البشرية آدم ﷺ وَلَمَحًا من تاريخ الأمم الغابرة إلى عصر الجاهلية عند العرب ، ثم نشأة النبي محمد بن عبد الله ﷺ والبعثة النبوية حتى الهجرة إلى المدينة المنورة ، وفي هذا القسم اعتمد ابن كثير في الحصول على معلوماته على ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وما دَوَّنه كبار المؤرخين الذين سبقوه ، منهم (محمد بن عمر الواقدي) [٢]

---

[١] عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ) : دمشقي ، مفسر ومؤرخ وراوية للحديث ، مؤلف موسوعي ولا سيما في كتابه (البداية والنهاية) ، ومن مصنفاته الشهيرة أيضًا (تفسير القرآن الكريم) .

[٢] محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي (ت ٢٠٧ هـ) ولد في المدينة المنورة وتوفي ببغداد ، من أوائل =

الذي يعد أول المؤرخين في العصر الإسلامي ، والإمام المؤرخ المفسر (محمد بن جرير الطبري)[1] ، والصحابي الجليل (عبد الله بن عمر)[2] ، وغيرهم من أصحاب التأريخ والسِّيَر ، وفي القسم الثاني أرّخ ابن كثير لعصر الخلفاء الراشدين ، فالدولة الأموية ، فالدولة العباسية وما تفرع عنها من ممالك ودويلات أيام انحطاطها وتدهورها ثم قضاء المغول عليها ، وهكذا حتى وفاة ابن كثير نفسه رحمه الله تعالى (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) . أما القسم الثالث فقد أفرده للحديث عن الآخرة ومظاهر قرب الساعة وعلاماتها ، فكأنه بهذه الإضافة إلى تاريخه أراد استكمال قراءة تاريخ الوجود حتى النهاية .

ويبدو لي أن اشتغال بعض المؤرخين في كل عصر بتدوين تاريخ الوجود - من أوله وحتى نهايته المنتظرة - يدلُّ دلالة واضحة على الحاجة المتجددة في كل عصر لإعادة قراءة تاريخ العالم مرة بعد مرة ، إما لتصحيح المعلومات التي لم يدوّنها السابقون بالدقة العلمية الكافية ، وإما لإضافة ما استجد من حوادث ، وإما لأغراض أخرى علمية أو سياسية ، مبررة أو غير مبررة .

ولا غرو بأن هذه الحاجة المتجددة لإعادة كتابة التاريخ ، وهذا التعديل المتواصل في سجلات المؤرخين ، يدل دلالة واضحة على ما يعتري العمل البشري عادةً من قصور وعلل ، ويدل كذلك على أن العلم البشري مهما حقق من قفزات علمية واسعة فإنه يبقى علمًا قاصرًا عن تحقيق الكمال ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] ، وربما كانت عملية التأريخ من أكثر الأنشطة البشرية عرضة لمثل هذا القصور وتلك العلل .

التأريخ في العصر الحديث :

تعود بداية التأريخ في العصر الحديث إلى منتصف القرن السابع عشر ، حين بدأ تدوين وجمع مجموعات ضخمة من مصادر التاريخ ، وبدأ المؤرخون يكشفون عن المصادر القديمة ،

= المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم ، كان من حفاظ الحديث ، من تصانيفه (المغازي النبوية) و (فتح أفريقيا) و (فتح العجم) و (فتح مصر) و (تفسير القرآن الكريم) .

(١) محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ولد في طبرستان وعاش في بغداد وتوفي فيها ، من مصنفاته (أخبار الرسل والملوك) الذي يعرف باسم تاريخ الطبري ، و (جامع البيان في تفسير آي القرآن) .

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب (١٠ ـ ٧٣ هـ) نشأ في الإسلام ، وصاحَب رسول الله ﷺ ، وشهد معه معظم الغزوات ، وظل يفتي الناس ستين طويلة حتى وفاته ، وكان من المكثرين لرواية الحديث النبوي .

ويفحصونها ويدققون فيها ، ومن هؤلاء الفيلسوف الإيطالي جيوفاني باتيستا فيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤م) صاحب النظرة الكلية للتاريخ ، الذي حاول تطبيق المنهج العلمي على دراسة التاريخ ، وذهب إلى أن تطور الحضارة البشرية مرَّ بثلاث مراحل ؛ هي : المرحلة الدينية أو الثيوقراطية ، والمرحلة الأرستقراطية ، والمرحلة الديمقراطية ، وأن كل مرحلة كانت تحمل في طياتها عناصر انحلالها ، وقد كان لهذا الفيلسوف تأثير عميق في معظم المؤرخين الذين أتوا من بعده .

ثم جاء الفيلسوف (مونتسكيو) [1] الذي نشر كتاب (الملكية العالمية) في عام (١٧٣٤م) وقسَّم فيه الشعوب إلى شمالية وجنوبية ، وادَّعى أن الفرق في المناخ هو السبب الأساسي للاختلاف بين شعوب الشمال وشعوب الجنوب ، وقد حازت نظرياته على كثير من المؤيدين في أوروبا ثم في بقية أنحاء العالم ، وجاء في نفس الفترة تقريبًا الفيلسوف الفرنسي (فولتير) [2] الذي عني عناية خاصة بالدقة في كتبه التاريخية .

أما المؤرخ الألماني ليوبولد فون رانكا (١٧٩٥ - ١٨٨٦م) فقد أسس المدرسة التاريخية الحديثة ، وحاول إعادة عرض وتركيب الأحداث التاريخية كما حدثت فعلًا متجنبًا وضع النتائج قبل دراسة الأحداث دراسة علمية نزيهة ، وقد تناولت كتاباته تاريخ جميع الأمم الأوروبية ، وبلغت أربعة وخمسين كتابًا ضخمًا كل منها يقع في عدة مجلدات ، وآخرها « تاريخ العالم » الذي يقع في تسعة مجلدات ، وقد أسس رانكا وخلفاؤه مبادئ جديدة في نقد المناهج التاريخية ، منهم الفيلسوف الألماني (هيجل) [3] صاحب التفسير المثالي للتاريخ ،

---

(١) شارل مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥م) فيلسوف فرنسي ، تعلَّم الحقوق ، وأصبح عضو برلمان عام (١٧١٤م) ، ونشر العديد من الكتب التي تميزت بالعمق ، ونالت أفكاره الكثير من التقدير والانتشار في مختلف أنحاء العالم .

(٢) فرانسوا فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨م) : فيلسوف وأديب فرنسي ، نال شهرة واسعة بعد أن نشر مسرحيته (أوديب) ، لكنه أدين وسجن في الباستيل ؛ لأنه أهان أحد النبلاء ، وعندما أطلق سراحه ارتحل إلى إنكلترا حيث قضى عامين أعجب خلالهما بحرية الفكر هناك ، وكرَّس حياته للدفاع عن ضحايا الاستبداد الديني والسياسي ، وأصبح ذا نزعة دينية ، لكنها غير مرتبطة بأية ديانة ؛ لاعتقاده بأن المبادئ الأخلاقية التي جاءت بها المسيحية هي في جوهرها نفس المبادئ الموجودة في سائر الأديان ؛ ولهذا دعا للتسامح في العقائد ونبذ التعصب .

(٣) جورج فلهلم فريدريك هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١م) : فيلسوف ألماني ، مال إلى الفلسفة المثالية المطلقة ، وكان لأفكاره تأثير واسع في مختلف الفلسفات والاتجاهات الفكرية التي ظهرت بعده ، فعلى أساس هذه الفلسفة قامت الفلسفة السياسية الألمانية بعدئذ ، وعلى أساس منطقه الجدلي قام مذهب المادية الجدلية عند كارل ماركس .

والمؤرخ الألماني تيودور ممسن (١٨١٧ ـ ١٩٠٣م) ، والفيلسوف الألماني (اشبنجلر) [1] ، الذين أسسوا ما أطلق عليه المدرسة الألمانية التي جعلت كتابة التاريخ مهنة يتفرغ لها الأساتذة المؤرخون .

وفي أواخر القرن الثامن عشر بدأ علماء الحفريات وأصول اللغات يساهمون إسهامات كبيرة بتطوير الكتابات التاريخية التي بلغت أَوْجَ ازدهارها في القرن التاسع عشر ، ولا سيما مع مدونات المؤرخ الألماني كارل لامبرخت (١٨٥٦ ـ ١٩١٥م) الذي ذهب إلى ضرورة كتابة التاريخ وفق منهج جديد يقوم على الاتجاهات الاجتماعية والثقافية والنفسية ، من أهم مؤلفاته مجموعة من المقالات نشرت عام (١٩٠٥م) بعنوان (ما هو التاريخ ؟) .

وفي أوائل القرن العشرين برز اسم المؤرخ البريطاني (أرنولد جوزيف توينبي) [2] الذي عرض في كتابه (دراسة في التاريخ) وجهة نظره في نمو الحضارات وتطورها وانحلالها ، وتناول مشكلات التاريخ على أسس من تاريخ الطوائف الثقافية والخلقية أكثر من بحثه في التاريخ المجرد ، وقد حاول تفسير التاريخ على أساس ما سماه (التحدي والاستجابة) ، وأنكر جريان التاريخ على فلسفة قدرية ، وذهب إلى أن التاريخ تضبطه وتسيِّره قوى نفسية أكثر منها قوى مادية .. وأن ظاهرة الحضارة العليا وجدت منذ بداية التاريخ وحتى الآن ، وأنه في جميع الأحوال ساد نفس قانون توالي الحضارات ، وأصبح ينظر إلى التاريخ العالمي على أنه مؤلف من وحدات أو حضارات أو دوائر حضارية .

---

(١) إزفولد اشبنجلر (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦م) : فيلسوف ألماني ، تناول بالدراسة موضوعات كثيرة في الفلسفة والرياضة والعلوم والتاريخ والفن ، ذهب في مؤلفه الرئيسي (تدهور الغرب) الذي نشره عام (١٩١٨م) إلى أن كل ثقافة تمر بثلاث مراحل : الشباب ، فالنضج ، فالشيخوخة المفضية إلى الموت ، ورأى أن الثقافة الغربية هي الآن في مرحلة التدهور ، وقرر أنها سوف تهزم أمام حضارة الجنس الأصفر القادمة .

(٢) أرنولد جوزيف توينبي (١٨٨٩ ـ ١٩٧٥م) : مؤرخ بريطاني ، أحرز شهرة عالمية بعد نشر كتابه (دراسة في التاريخ) الذي أنفق في تأليفه ٤١ عامًا ، وذهب إلى أن التاريخ البشري شهد ٢١ مجتمعًا حضاريًّا اندثر معظمها ولم يبق منها اليوم سوى (الحضارة الأرثوذكسية المسيحية البيزنطية ، والأرثوذكسية الروسية ، والإسلامية ، والهندوكية ، والصينية ، والكورية اليابانية ، والغربية) .



(المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي)

وما زال المؤرخون في كل جيل وفي كل عصر يضيفون ويحذفون ويعدِّلون ، مؤكدين بهذه الممارسات أن عملية التأريخ لن تصل في يوم من الأيام إلى الكمال ، وأنها عملية محفوفة بكثير من العلل التي ستكون مدار حديثنا التالي .

علل التأريخ :

ويعترف المؤرخون قبل غيرهم أن كتب التاريخ - على اختلاف مواضيعها وتَنَوُّع مناهجها ومدارسها ومشاربها - لا يكاد يخلو واحد منها من بعض الروايات الضعيفة ، أو الأخبار الملفقة التي لا أساس لها من الصحة ، أو الأساطير والحكايات والروايات الخرافية التي تناقلتها الأمم جيلًا بعد جيل دون تمحيص حتى أمست جزءًا لا يتجزأ من تراث التاريخ البشري .

ولعل هذه العلل وأمثالها مما يعتري عملية التأريخ هي التي دفعت واحدًا من أبرز فلاسفة المسلمين المهتمين بالتاريخ وهو (ابن خلدون) [1] لإفراد فصل كامل في المقدمة للحديث عما يعرض للمؤرخين من المغالط ، ومما كتبه حول هذه الإشكالية : « لأن الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرَّد النقل ، ولم تُحَكَّم أصول العادة ، وقواعد السياسة ، وطبيعة

---

[1] أبو زيد ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) مؤرخ فقيه ، وفيلسوف اجتماعي ، ولد في تونس وتنقل في بلاد المغرب والأندلس ، ثم لرتحل إلى مصر حيث تولى القضاء في عهد السلطان برقوق ، من أهم مصنفاته (العبر وديوان المبتدأ والخبر) الذي كان لمقدمته أثر كبير في نقد وفلسفة التاريخ والعمران ، وقد اشتهرت مقدمة أكثر من الكتاب نفسه ، واعتبرت أول عمل علمي دقيق لتمحيص الأحداث التاريخية ، وما زالت إلى اليوم مرجعًا مهمًّا في هذا الباب ، وربما يعد ابن خلدون مؤسسًا لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع .

العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يُؤْمَن فيها من العثور ومَزَلَّة القدم، والحَيْد عن جادة الصدق، وكثيرًا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع؛ لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًّا أو سمينًا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فَضَلُّوا عن الحقّ وتاهوا في بيداء الوَهْم والغَلَط ..»[1]، وقد عاب ابن خلدون على المؤرخين الكثير من المثالب التي تتخلل مصنفاتهم، ودعاهم للتزود بالعلم الواسع الذي يمكنهم من تدوين وقائع التاريخ تدوينًا أمينًا يقوم على أساس قوي من النقل والعقل، والابتعاد عن التشهير والتضليل والتزوير؛ لأن مهمة المؤرخ في نظره هي كشف الحقائق وإرشاد الناس وليس انتقاصهم.



(تمثال المؤرخ الفيلسوف العربي ابن خلدون، في قرطبة)

ومن الملاحظات التي ينبغي التوقف عندها طويلًا أن صور الوقائع التي نجدها مدونة في كتب التاريخ هي في الأعمّ الأغلب غير الوقائع التي وقعت فعلًا عبر التاريخ، ولا سيما منها ما يتعلق بالتاريخ البشري؛ وذلك لأن عملية التأريخ تنفذ في العادة من خلال الوثائق والأخبار والروايات والشواهد التي تصل إلى المؤرخ، وتبدأ إشكالية التأريخ في اللحظة التي يصطحب فيها المؤرخ هذه المعطيات إلى منزله حيث يطبخها بالطريقة التي تروق له، ويرشّ عليها ما يحلو له من بهارات فكره، ومعتقداته، وميوله، ونزعاته

(١) ابن خلدون: المقدمة (ص ١٦)، تحقيق د.درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت (٢٠٠٢م).

شخصية ، وربما شطحات خياله أيضًا ، ليقدِّمها لنا آخر المطاف في حُلَّة جديدة لا يكاد يجمع بينها وبين الأصل في معظم الحالات إلا العناوين ، وهذا ما دفع واحدًا من أشهر الصحفيين المعاصرين المهتمين بالتاريخ وهو : س.ب.سكوت (*C.B.Scott*) إلى القول : (إن الحقائق تتكلم فقط عندما يطلب المؤرخ منها ذلك ، فهو الذي يقرر نوع الحقائق التي ستعطى حقَّ الكلام ، وسياق هذا الكلام)[1] .

وأكاد أزعم - عن معرفة لصيقة - أن كتب التاريخ ليست أكثر من صورة للأمزجة البشرية المتقلبة ، والمؤرخ عندما ينوي الكتابة لا يدخر وسعًا في أن يخفي صوت مزاجه لكي يظهر لقرائه في ثوب الموضوعية والتجرد والحياد ، وهو يحاول جاهدًا أن ينظم آراءه في إطار متماسك من المقدمات والنتائج ، لكي يخفي نوازعه الشخصية التي يخشى أن تفضح نواياه .

وبتعبير آخر .. فإن المؤرخ يظل رهن مزاجه الشخصي ، وعن هذا المزاج تصدر مختلف آرائه وأحكامه ومصنفاته ، وهو يرنو غالبًا لتقديم صورة للتاريخ تعبِّر عن رغباته الدفينة أن يكون التاريخ قد سار بموجبها ، أكثر من أن تعبر عما جرى فعلًا .

وتؤكد الدراسات التاريخية المقارنة (*Comparative Historical Studies*) أن هذه العلة مستحكمة في معظم المؤرخين ، ونادرًا ما ينجو منها واحد منهم ؛ لأن المؤرخ غالبًا ما ينطلق في تدوينه للتاريخ من موقف فكريٍّ أو عقائديٍّ مسبق ، فنراه يتخير من وقائع التاريخ ما يؤيد موقفه الشخصي أو يبرِّره ، وبهذا يتحوَّل التاريخ بين يدي المؤرخ إلى أبجدية مفتوحة تتيح له أن يصوغ منها الحكاية التي يريد ، وبهذا تغيم الرؤية ، وتضيع الحقيقة ، ويتعذَّر علينا فهم مسيرة التاريخ فهمًا صحيحًا .

وقد سبق للمؤرخ والباحث اللساني الأمريكي المعاصر (مارتن برنال) أن وقف على كبير وأضخم عملية اختلاق في التاريخ الحديث ، في كتابه (أثينا السوداء)[2] الذي عرى فيه عملية اختلاق وفبركة الثقافة الغربية الحديثة لتاريخها الممتد من اليونان القديمة ، ذلك التاريخ الملفَّق الذي لم يتأتَّ للغرب إلا بإقصاء الجذور الأفروآسيوية للحضارة الإغريقية

---

(١) إدوارد كار : ما هو التاريخ ؟ (ص ١٠) ، ترجمة ماهر الكيالي وبيار عقل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت (١٩٨٦م) .

(٢) مارتن برنال : أثينا السوداء ، الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية ، ترجمة وتحقيق مجموعة من المترجمين ، تحرير ومراجعة أحمد عثمان ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة (١٩٨٧م) .

القديمة لتكون اليونان أوروبية النشأة والثقافة والحضارة ، ولتكون أوروبا - موطن الجنس الأبيض - هي الأحق بالسيادة والتفوق منذ القدم !

وفي عام (١٩٨٣م) ظهر كتاب قيم للمؤرخين البريطانيين (أريك هوبزباوم) [١] (وتيرينس رينغر) بعنوان (اختراع التراث) تناولا فيه الطريقة التي سلكتها السلطات السياسية البريطانية منذ العام (١٨٥٠م) لاختراع واختلاق شعائر ومواقف وهويات زعمت أنها قديمة قدم الدهر ؛ وذلك من أجل تسويغ كل تراث الاستعمار الذي جرى تبريره عبر سَرْدِيَّة تُقرِّر أن الاستعمار لم يكن إلا أداة للتغيير والتحديث [٢] .. فأين هي الموضوعية التاريخية التي يتشدق بها كثير من المؤرخين الذين لا يفتؤون في مقدمات كتبهم عن الادعاء بأنهم قد التزموا أقصى درجات الدقة العلمية والموضوعية والحياد والنزاهة .. إلى آخر هذه الأوصاف التي يبدو أن لا رصيد لها إلا في عقل المؤرخ .

وإن من يتفحص سجلات التاريخ يجدها حافلة بمثل هذه العمليات الملفقة التي تختلق وقائع لم تقع إلا في خيال المؤرخين الكَذَبة ؛ ولهذا يرى المؤرخ اليهودي الأمريكي (كيث وايتلام) رئيس قسم الدراسات الدينية في جامعة إستيرلنج في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة) [٣] ، أن عملية التأريخ عملية في غاية الصعوبة ، لا لقلة الوثائق ؛ بل لأن عملية التأريخ عملية سياسية بالدرجة الأولى .

ويرى المؤرخ الفيلسوف البلغاري (تزفيتان تودوروف) [١] في كتابه (فتح أمريكا) أن

---

(١) هوبزباوم (١٩١٧م) : مؤرخ بريطاني معاصر ، هو صاحب الثلاثية التاريخية الشهيرة (عصر الثورة ، عصر رأس المال ، عصر الإمبراطورية) أنجز دراسات مختلفة عن الكتابات الشيوعية ، لكنه لم يكن كأقرانه الشيوعيين الذين يحملون كتاباتهم نصوصًا أيديولوجية للتدليل على واقعة أو ظاهرة تاريخية ، بل كان يستعمل الأدوات والمفاهيم الماركسية في إطار موضوعي إلى حد ما .

(٢) مرايا : إعادة كتابة التاريخ ، (ص ٢٠ ، ٢٢) ، مؤسسة الأيام للنشر ، مملكة البحرين ، (٢٠٠٣م) .

(٣) أثار الكتاب جدلًا كبيرًا في الأوساط الإعلامية والأكاديمية منذ صدور نسخته الإنكليزية عام (١٩٩٦م) ، وتراوحت الردود على الكتاب ما بين التأييد والنقد المنهجي إلى التهجم على المؤلِّف والتشكيك بأهليته ودوافعه كما ذكر وايتلام نفسه في المقدمة التي كتبها للطبعة العربية التي ترجمها ممدوح عدوان ، وأصدرتها دار قَدْمُس في دمشق بعنوان (تلفيق إسرائيل التوراتية ، طمس التاريخ الفلسطيني) ، ونشرت ترجمة أخرى بالعربية بعنوان (اختلاق إسرائيل القديمة ، إسكات التاريخ الفلسطيني) ضمن سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٢٤٩ ، ترجمة د.سحر الهنيدي ، الكويت (١٩٩٩م) .

(١) تزفيتان تودوروف : فيلسوف بلغاري معاصر ، وُلد عام (١٩٣٩م) في مدينة صوفيا ، وعاش في فرنسا منذ (١٩٦٣م) ، وكتب عن النظرية الأدبية ، وتاريخ الفكر ، ونظرية الثقافة .

مأساة التاريخ لا تكمن فقط في شطب صفحات منه ، بل أيضًا بالتلاعب به ، وإعادة صياغته وتأويله أو إساءة تأويله عن قصد ، ونقطة الانطلاق لكل تاريخ - بحسب تودوروف وهايدن من قبله - هي أشكال الحذف والإزاحة والإسقاط والتحوير لكومة الأحداث والمواقف التي تكوِّن ما يسمى بالتاريخ [1] .





(من اليمين : أريك هوبزباوم ، كيث وايتلام ، تزفيتان تودوروف مؤرخون معاصرون فضحوا العديد من الكتابات التاريخية وأظهروا ما فيها من دسٍّ وتزوير وتضليل)

علل التأريخ إذًا كثيرة باعتراف أساتذة التاريخ أنفسهم ، ولعل من علله أيضًا إصرار المؤرخ على قراءة التاريخ في ضوء مصباحه الخاص ، والمؤرخ إذ يفعل هذا فإنه لا يجد حرجًا باستغلال مواهبه الفنية بالتصوير ، فتراه يسلط الضوء على بعض المناطق المظلمة محوِّلًا إياها إلى بقع مضيئة زاهية الألوان ، بينما يحجب الضوء عن مناطق أخرى تاركًا إياها غارقة بالعتمة ، وبهذا يجبرنا المؤرخ على أن نرى من الصورة ما يريد هو أن نراه . وهذا السلوك من المؤرخ يشبه عمل البستاني الذي لا يفتأ يشذِّب الأشجار بمنشاره الحاد لكي تبدو حديقته أكثر نضارةً وبهاءً ، فكذلك المؤرخ المنحاز لا يفتأ يستخدم منشاره القاطع فيحذف من هنا ويضيف من هناك ، ليقدم لنا في النهاية قطعة تاريخية قد تكون في غاية الجمال والبهاء ، ولكنها للأسف الشديد قطعة مزيفة ، تخون الحقيقة ، وتفتقر إلى الصدق والأمانة .

وقد يخيل إلينا اليوم أن التقدم العلمي الهائل في وقتنا الراهن الذي وفَّر لنا وسائل التوثيق الحديثة (مسجلات صوت ، كاميرات تصوير ، كمبيوتر ، تلفزة فضائية مباشرة ، وسائل اتصال فوري كالجوالات والإنترنت ..) قد جعل عملية التأريخ أكثر دقة وأقرب إلى الموضوعية (*Objectivity*) وأبعد عن الذاتية (*Subjectivity*) وهذا الظن غير صحيح على الإطلاق ، فإن الكلمة الأولى والأخيرة في عملية التأريخ تظل للعامل

---

[1] المصدر السابق ، (ص ٣٦) .

البشري ، أي للمؤرخ ، الذي يمكن أن يُسَخِّر هذه الوسائل التقنية القيِّمة بقدر كبير من الحياد كما يمكنه بالمقابل أن يحرِّفها أو يعدِّلها لتظهر على النحو الذي يريد ، ولسنا مبالغين إذا قلنا : إن الوسائل الحديثة قد أتاحت للمؤرخ غير النزيه فرصة أكبر للتزوير بما وفرته من إمكانيات هائلة للتلاعب بالصوت والصورة والوثائق ، على نحو يمكن أن يقلب الحقائق رأسًا على عقب .

وثمة علة أخرى من علل التاريخ ، لا يكاد يتفطن لها كثير من الدارسين والمؤرخين ، وهي أن المؤرخ يبقى ابن عصره وبيئته ، وتظل القضايا التي تشغل بال عصره هي شغله الشاغل ، وهذا ما يُفقِد أغلب كتب التاريخ قيمتها بعد فترة من الزمن ، عندما يتغير العصر وتتبدل الأحوال وتمسي روايات التاريخ مجرد حكايات مسلية لا علاقة لها ألبتة بقضايا الواقع الجديد .

ولا تنتهي علل التأريخ عند هذا الحد ، بل هناك علل أخرى لا تقل خطرًا عمَّا سبق ؛ منها اهتمام المؤرخين إجمالًا بالتأريخ لحياة الملوك والزعماء والشخصيات الدينية والأبطال القوميين ، وإهمالهم تأريخ الشعوب والأمم وما كابدته من مشكلات ومآسٍ ونكبات ، وترجع هذه النزعة غالبًا إلى رغبة الملوك والزعماء بتخليد ذكراهم وإنجازاتهم التي كثيرًا ما يبالغ المؤرخون المقربون من أولئك الملوك والزعماء بتضخيمها طمعًا بالحصول على المزيد من العطايا والهِبات ، وقد ترجع هذه النزعة عند مؤرخين آخرين إلى إعجاب المؤرخ نفسه ببعض الزعماء أو الشخصيات الدينية أو الأبطال القوميين ، فيلجأ إلى تلميع الصورة وتضخيم الإنجازات ، ويغضُّ النظر عن النقائص والأخطاء والشرور والعيوب ، ويضفي كافة السجايا الحسنة على من يحب !

وما دامت عملية التأريخ تنفذ في الغالب على هذه الصورة من الإغراء حينًا ، والطمع حينًا آخر ، والإعجاب الشديد أحيانًا أخرى ، فلا عجب أن تفتقر معظم كتب التاريخ إلى الموضوعية ، ولا غرابة أيضًا في أن يخالطها الكثير من المبالغات والافتراءات والمزاعم والمواقف التي لا تمتُّ إلى الحقيقة إلا بخيوط أوهى من بيت العنكبوت .

ويكفي للدلالة على هذه العلة أن تقرأ مثلًا ما كتبه أحد المؤرخين عن البطل الذي يحب لترى كيف أضفى عليه كل الخصال الحميدة ، وجعله قادرًا على فعل المعجزات ، ورفعه إلى مرتبة دونها مرتبة الملائكة والأنبياء ، فإذا انتقلت بعد ذلك لقراءة ما كتبه مؤرخ آخر مناوئ لذلك البطل فإنك سوف ترى صورة البطل نفسه وقد انقلبت رأسًا على عقب ،

من جرّاء ما خلع عليه المؤرخ المتاري من نقائص نزلت به إلى أسفل سافلين ، حتى بدا وكأنه شيطان رجيم .. وهذه مفارقة عجيبة يعرفها كل من كانت له صلة حميمة بكتب التاريخ .

واضح إذًا أن علل التأريخ كثيرة يتعذر حصرها في هذا البحث الموجز ، ولكن ثمة علة أخرى - وليست أخيرة - لا بد من الإشارة إليها هنا لما لها من أهمية كبيرة في موضوعنا ، ولأنها قلما يتوقف عندها نقاد التاريخ ، وهي علة لا تتعلق بالتاريخ نفسه ، ولا بالمؤرخين ، ولا بعملية التأريخ ، بل تتعلق بنا نحن - قراء التاريخ - ، فربما كان تجنينا على التاريخ أكبر من تجني المؤرخين أنفسهم ؛ فقد يقلب أحدنا حقائق التاريخ رأسًا على عقب دون أن يشعر ؛ وذلك لأننا حين نقرأ التاريخ فإن كلًّا منا يقرؤه على ضوء معتقداته الخاصة والمسلمات التي يؤمن بها ؛ ولهذا ترانا عندما نقرأ التاريخ فإننا نعيد إنتاجه بصورة جديدة لا دخل للأحداث ولا للمؤرخ فيها ، وعندئذ تأخذ الوقائع التاريخية مسارها الخاص في أذهاننا ، وتتطور إلى حقائق أو أوهام أو مغالطات ، وهذا ما يستدعي وقوفنا طويلًا أمام العلاقة الجدلية ما بين كتابة التاريخ وقراءة التاريخ ، وهي علاقة يعتريها الكثير من الإشكاليات ، ولا مخرج منها في رأينا إلا بأن ننتقل في عملية التأريخ من تفاصيل الوقائع إلى القوانين أو السنن التي تتحكم بتلك الوقائع ، وهذا هو مدار حديثنا التالي حول طريقة القرآن الكريم الفريدة في التأريخ .

منهج القرآن الكريم في التأريخ :

لقد حفل القرآن الكريم بالكثير من الوقائع التاريخية التي تناولت حياة العديد من الشخصيات والأمم الغابرة ، المؤمنة منها والكافرة ، ويشكل التاريخ محورًا أساسيًّا في كثير من سور القرآن الكريم ؛ وذلك لأن التاريخ بمنظور القرآن الكريم هو المختبر الحقيقي لصواب الفعل البشري ، فمن أراد أن يتجنب أخطاء الماضي فليعد إلى صفحات التاريخ ، ومن أراد أن يتعلم سنن النهوض الحضاري فليعد إلى سجلات التاريخ ، وهذا ما يوحي به قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ [الروم : ٤٢] .

فالقرآن الكريم يَعُد التاريخ مرجعية للتصويب الحضاري ، وما من شك بأن هذه المرجعية لا يمكن أن تفيدنا إلا إذا تعاملنا معها تعاملًا موضوعيًّا صحيحًا ؛ ولهذا يسلك بنا القرآن الكريم طريقة تأريخية موضوعية فريدة ، فهو أولًا - وقبل كل شيء - يدعونا للنزاهة والحياد والإنصاف في تقييم الآخرين ، وتسجيل مواقفهم كما وقعت فعلًا ، مهما

كانت مواقفنا منهم ، أو مواقفهم منا ، ومن ذلك مثلًا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

وَيُحذِّرُنَا القرآن الكريم كذلك من الظنّ والوَهْم والهوى وكل ما من شأنه أن ينأى بنا عن رؤية الواقع على حقيقته ، فيقول تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٣٦] ، فالقرآن الكريم يريد منا أن نقرأ التاريخ كما جرى فعلًا ، لا كما نتمنى لو أنه جرى ، وهذه مسألة حساسة تستحق منا الكثير من التأمل ؛ لأننا حين نقرأ التاريخ كما جرى فعلًا فإننا نستطيع استنباط السنن التي تحكم مسيرة التاريخ ، وبهذا نكتسب المزيد من القدرة على توجيه الأحداث القادمة وفق أهدافنا ، أما حين نقرأ التاريخ كما نتمنى لو أنه جرى فإن الفائدة الوحيدة التي نجنيها من هذه القراءة الموهومة أنها تجعلنا نحقد على التاريخ لأنه لم يجر كما نريد .

ومن سمات المنهج القرآني في التأريخ أيضًا أنه لا يكتفي بالتوجيهات النظرية التي تحذّر من علل التأريخ ، بل يقدّم لنا من خلال قصصه المختلفة شواهد واقعية على منهجه الفريد بالتزام الموضوعية ، فنراه يصوِّر لحظات الضعف البشري التي انتابت بعض الأنبياء عليهم السلام في مناسبات عديدة ؛ وذلك حرصًا من القرآن الكريم على تقديم الوقائع كما جرت فعلًا ، حتى وإن كانت تتعلق بأفضل الخلق ، وبهذا المنهج الإلهي الفريد قدّم لنا القرآنُ الكريمُ المثَلَ الأعلى في الموضوعية التاريخية .

ومن الأمثلة على هذا المنهج القرآني الفريد بالتزام الموضوعية تلك الآيات التي تضمنت العتاب لرسول الله ﷺ على بعض تصرفاته ، مثل تصرفه مع مولاه زيد الذي كان يرغب بتطليق زوجته بينما ظل النبي يمنعه ويخفي عنه الأمر الإلهي بأن يطلقها منه ويتزوجها هو : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، ومن الأمثلة أيضًا عتاب القرآن الكريم للنبي ﷺ لقبوله الفداء في أسرى بدر : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧] ، ومنها أيضًا عتابه للنبي ﷺ بشأن الصحابي الأعمى الذي جاء يسأله عن الإسلام ، فأعرض عنه النبي ﷺ لانشغاله بدعوة زعماء قريش الكبار ، فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ

فَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس : ١ ـ ١١] ، والشواهد في القرآن الكريم على هذا المنهج الفريد في تأريخ الأحداث تأريخًا دقيقًا أمينًا كثيرة جدًّا .

ومن الملاحظات الجديرة بالملاحظة أيضًا حول طريقة القرآن الكريم في التأريخ أنه عندما يروي واقعة تاريخية ما فإنه لا يحفل كثيرًا بذكر التفاصيل التي قد تشوش الرؤية ؛ بل يكتفي بذكر ما يخدم باستنباط سنن التاريخ ، ويعطي العبرة ، فهو في الغالب لا يذكر تاريخ الواقعة ، ولا اسم المكان الذي وقعت فيه ، ولا يصرح بالأسماء الصريحة للأشخاص الذين شاركوا فيها ، بل يركِّز على ذكر الخطوط العريضة للواقعة حتى يصوغها في النهاية على شكل معادلة رياضية تصلح للتطبيق على الوقائع المماثلة ، في أي زمان وأي مكان ، وبهذا المنهج القرآني الدقيق تغدو عملية التأريخ علمًا كالرياضيات والكيمياء والفيزياء ؛ لأنها تقدم لنا التاريخ بصورة قوانين قابلة للتطبيق ، وبهذا نكتسب القدرة على تسخير الأحداث وتوجيهها على النحو الذي نريد ، ويكسبنا كذلك القدرة على صناعة المستقبل الذي نريد .

ومن الأمثلة على هذا المنهج القرآني الفريد في التأريخ حديثُ القرآن الكريم عن الفتية أصحاب الكهف ، فمن هم أولئك الفتية ؟ ومتى وقعت قصتهم ؟ وأين يقع الكهف الذي آواهم ؟ وكم كان عددهم ؟ ومن هو الملك الظالم الذي فروا بدينهم منه ؟ إن هذه الأسئلة وأمثالها لا يتوقف القرآن الكريم عندها بل يمضي لبيان العبرة من القصة ، دون أن يحفل بالتفاصيل التي لا تقدم ولا تؤخر .

ومن الأمثلة على هذا المنهج الفريد أيضًا حديث القرآن الكريم عن ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] ، فمن هو الذي مر ؟ وما اسم القرية التي مرَّ عليها ؟ ومتى كان مروره ؟ إن هذه التفاصيل وأمثالها لا يحفل القرآن الكريم بها ، بل يتوجه لذكر الخطوط الرئيسية للواقعة من أجل إظهار السنن الإلهية التي تحكمها ، والعبرة التي ترمي إليها .

ومن خلال هذه الأمثلة وغيرها يظهر لنا الفارق الأهم ما بين المنهج القرآني في التأريخ ومنهج المؤرخين الذين يكتفون عادة بسرد الوقائع ، ويسهبون في ذكر التفاصيل ، ولا يحفلون من قريب ولا من بعيد ببيان السنن الإلهية التي تحكم مسيرة الأحداث ، وبهذا يضيع على قارئ التاريخ الغاية الأهم التي يفترض أن يجنيها من مطالعة كتب التاريخ .

ومن الملاحظات الجديرة بالتوقف عندها مليًّا ـ ونحن نستعرض الطريقة الفريدة التي ينتهجها القرآن الكريم في التأريخ ـ أنه لا يكتفي بذكر الوقائع مجردة عن الظلال الموحية التي تتعلق بها ؛ بل يستهل السرد بافتتاحية يمهد فيها للحديث عن الواقعة ، ثم (يرسم الحركة التي وقعت بكل تفاصيلها ويرسم معها المشاعر الظاهرة والباطنة ، ويسلِّط عليها الأضواء التي تكشف زواياها وخباياها ، ثم يقول للمؤمنين حُكْمَه على ما وقع ، ونقده لما فيه من خطأ وانحراف ، وثناءه على ما فيه من صواب واستقامة ، وتوجيهه لتدارك الخطأ والانحراف ، وتنمية الصواب والاستقامة ، وربط هذا كله بقَدَر الله وإرادته وعلمه ونهجه المستقيم ، وبفطرة النفس ، ونواميس الوجود ..) [1] .

وذلك لأن التاريخ بمنظور القرآن الكريم ليس مجرد أقاصيص تحكى للتسلية وتمضية الوقت ، ولا هو مجرد تسجيل للوقائع والأحداث ، وإنما هو وجبة تربوية دسمة تتلقاها للدراسة والعبرة والموعظة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف : ١١١] ، ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٦] ، وقد تنبهت أمم الأرض إلى هذه السمة في التاريخ ، فأصبحت تعد دراسة التاريخ من دروس التربية للأمة ، فنجدها تصوغه بحيث يؤدي مهمة تربوية في حياتها [2] .

وأخذ العبرة من التاريخ ، وتوظيفه في تربية الأمة ، لا يعني أبدًا تزييف تاريخ الأمة وتقديمه في غير صورته الحقيقية ، أو الاكتفاء منه بالصور المضيئة التي تخدِّر أعصابنا وتخيِّل لنا أننا بخير ، وأننا خير أمة على وجه الأرض ، لمجرد أن في تاريخنا بعض النقاط المضيئة ؛ لأن هذا التصرف بالتاريخ ، وهذا الاصطفاء للأحداث والوقائع ، سوف يعوقان الأمة عن تسطير تاريخ جديد يسمو بها إلى الآفاق البعيدة التي ترنو لها ، ومن أجمل ما قرأت في هذا السياق كلمات للشاعر المعروف (نزار قباني) [3] التي سطرها في سيرته الذاتية ، يقول فيها : (إنني أحترم التاريخ حين يكون شرارة تضيء المستقبل ، ولكنني أرفضه بعنف حين يتحول إلى نصب تذكاري ، أو إلى برشامة كتب على غلافها الخارجي ليس في الإمكان أبدع مما كان) [4] .

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٢٠) ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة (١٩٨٢م) .

(٢) محمد قطب : كيف نكتب التاريخ الإسلامي (ص ٢٣) ، دار الوطن للنشر ، الرياض (١٩٩٢م) .

(٣) انظر ترجمته في فصل : تاريخ الأدب .

(٤) نزار قباني : قصتي مع الشعر ، منشورات نزار قباني ، بيروت (٢٠٠٠م) .

من هنا تبدو - بجلاء - أهمية الالتزام بالموضوعية والحياد والدقة في عملية التأريخ ، على النحو الذي علمنا إياه القرآن الكريم ، وبهذا يمكن أن نجني من قراءة التاريخ فائدتين ثمينتين :

- الفائدة الأولى : فهم السنن التي تحكم مسيرة التاريخ .
- الفائدة الثانية : اكتساب القدرة على التعامل مع الأحداث تعاملًا إيجابيًّا مثمرًا .

وقد حاولت جهدي في الفصول القادمة من هذا الكتاب أن أستلهم طريقة القرآن الكريم في التأريخ لعلّي أستطيع تقديم قراءة لتاريخ الوجود تقترب من الموضوعية قدر المستطاع ، وتبرز أهم السنن الإلهية التي تحكم مسيرة هذا الوجود ، راجيًا أن أكون قد وفقت بهذه القراءة ، مؤكدًا من جديد أن الهدف الأخير من هذا الكتاب ليس تكرار الحديث عما وقع عبر التاريخ من أحداث ، ولا إضافة معلومات تاريخية جديدة إلى سجلات التاريخ ، بل هدفي الأساسي من هذا الكتاب أن أقدم صورة شاملة (*Panorama*) لمسيرة التاريخ ، لعلنا نتعلم منها التفكير بشكل تاريخي صحيح ، ونكتسب القدرة على التعامل الإيجابي مع الأحداث والمستجدات ، ونساهم ببناء مستقبل أفضل للبشرية .

وبعبارة أخرى ، فإن الهدف الأخير من قراءتنا للتاريخ ليس استحضار الماضي ؛ بل استجلاء كيفية أدائه في الحاضر ، وبهذا تغدو قراءتنا للتاريخ دعوة لاستخدام مخزون الذاكرة من أجل رؤية مستقبلية أفضل .

التاريخ والزمن :

من الوجهة الزمنية يمكن أن نقسم التاريخ إلى مراحل ثلاث : ماضٍ ، وحاضر ، ومستقبل ، وهذا التقسيم هو في الواقع تقسيم خادع إلى حد بعيد (وتنشأ الصورة الخادعة من أننا نعيش في الحاضر ، والحقيقة هي أن الحاضر لا وجود له ، ففي اللحظة التي تفرغ فيها من قراءة هذه الجملة تشعر بأن ما كنت تعتبره حاضرًا قد أصبح جزءًا من الماضي ، وأن المستقبل أصبح حاضرًا ، وأنه لن يلبث هو الآخر أن يصبح جزءًا من الماضي)[1] ، وهذا يعني أن مراحل التاريخ الزمنية ليست سوى سلسلة متصلة ، يتداخل فيها الماضي بالحاضر بالمستقبل ، على نحو يتعذر فيه الفصل ما بين هذه الأزمنة المختلفة .

---

[1] نورمان بريل : بزوغ العقل البشري ، (ص ٣١٥) ، ترجمة إسماعيل حقي ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة ، نيويورك (١٩٦٤م) .

إلّا أننا بالرغم من هذه الحقيقة نجد أنفسنا مضطرين للأخذ بالتقسيم ما بين الماضي والحاضر والمستقبل من قبيل التبسيط ، وتسهيلًا على الدارسين للتاريخ الذين يتفاوت اهتمامهم بمراحل التاريخ وفقًا للغايات التي يأمل كل منهم تحقيقها ؛ فالمؤرخون يهتمون بالماضي أكثر من اهتمامهم بالحاضر والمستقبل ، وكم يسعد المؤرخ أن يحول الماضي - بما فيه من شخصيات وأحداث وأمكنة وأزمنة - إلى كتب ومجلدات أنيقة لتحتل مكانها اللائق على الرفوف .

أما السياسيون فإن الحاضر يبقى هو شغلهم الشاغل ؛ لأنهم لا يؤمنون إلّا باللحظة الراهنة وما يجب أن يفعلوه (الآن) لكي يبقوا على رأس السلطة .

وأما الأثرياء والمستثمرون ورجال الأعمال وأصحاب الشركات الكبرى فإنهم مع اهتمامهم الكبير بالحاضر الذي يشكل سوقهم اليومية ، فإنهم لا يغفلون المستقبل ؛ تحسبًا من أن يباغتهم ببعض المفاجآت فيقلب مشاريعهم رأسًا على عقب .

وهكذا يبدو التفاوت واضحًا بين اهتمام فئة من الناس بالتاريخ واهتمام الفئات الأخرى ، تبعًا لمصالح كل منهم ، ويبدو لي أن هذا التفاوت يعبر عن نوع من قصر النظر الذي يطبع السلوك البشري عامة بطابعه ، هذا السلوك الذي يركز الاهتمام على فترة معينة من التاريخ ويذهل عن علاقتها بالفترات السابقة والفترات اللاحقة .

ومن هنا ندرك عظمة القرآن الكريم الذي لم يتوقف عند سرد وقائع الماضي وحده ، ولم يقتصر على معالجة الحاضر فحسب ؛ بل خصَّص إلى جانب ذلك مساحات واسعة للحديث عن مستقبل هذا الوجود وما سوف يجري فيه من أحداث ؛ وذلك لوضع البشر في إطار الصورة الشاملة لمسيرة الوجود ، وحضهم على الاستفادة من دروس الماضي ، لتجنب أخطاء الحاضر ، والتخطيط الصحيح للمستقبل الذي لا ينتهي بانتهاء هذه الدنيا ؛ بل يمتد ليتواصل مع الحياة الآخرة التي ستفضي بنا إلى الخلود في إحدى الدارين ، الجنة أو النار .

وممَّا تجدر ملاحظته هنا أن النصوص التي وردت في القرآن الكريم عن مستقبل هذا الوجود جاءت بصيغ عامة غير صريحة الدلالة ، فنهاية هذا الوجود كما تصورها النصوص غير معلومة الزمان ولا معلومة الكيفية ، كما أن العلامات الصغرى والعلامات الكبرى التي تسبق تلك النهاية أو تنذر بها (النار ، الدابة ، الدجال ، طلوع الشمس من مغربها ..) غير صريحة الأوصاف ولا معلومة الزمان ولا المكان ، ونعتقد أن هذا الإبهام من جهة

الوحي يرمي إلى ترك باب المستقبل مفتوحًا للاجتهاد البشري حتى آخر لحظة من لحظات هذا الوجود ، ونلمح مثل هذا المقصد في بعض الأحاديث التي تحضنا على مواصلة العمل حتى آخر لحظة من لحظات هذا الوجود ؛ وذلك كسبًا للوقت الذي هو أثمن ما يملكه الإنسان في حياته الدنيا ، ومن ذلك قول النبي ﷺ : « إذا قامت الساعة ، وبيَدِ أحَدِكُم فَسِيلَةٌ ، فَإنِ اسْتَطَاعَ ألا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَها فَلْيَفْعَلْ » [1] ؛ ولهذا جعلت التشريعات الإسلامية للزمن مكانة خاصة ، فهي إلى جانب توزيعها للعبادات توزيعًا زمنيًا دقيقًا ، فإنها تحضُّ المؤمن على الاستفادة من الوقت المقدَّر له في هذه الدنيا إلى أقصى حد ممكن حتى لا يضيع منه دقيقة واحدة بغير عمل ، ويكسب المزيد من الرصيد عند الله ﷻ ، مما يرشِّحه للخلود في دار النعيم .

أمَّا الملاحظة الأخرى التي نود التوقف عندها ، ونحن في معرض الحديث عن التاريخ وعلاقته بالزمن ، فهي أن ما يقع في زمن معين من أحداث ينبغي ألَّا نصدر عليه حكمًا نهائيًا مبرمًا بأنه خطأ أو صواب ، خير أو شر ، إلَّا بعد مضي فترة كافية وظهور مؤشرات أكيدة على اختتام الحدث وعدم بقاء أية متعلقات به ؛ وذلك لأن الحدث أشبه بالصوت الذي قد لا يصلنا صداه إلَّا بعد فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر ، وكذلك هي معظم أحداث التاريخ فقد لا تظهر نتائجها النهائية إلَّا بعد أمَدٍ قد يستغرق أجيالًا طويلة ، وإن من يرجع إلى سجلات التاريخ يجد جعبته مليئة بمثل هذه الأحداث .

وعلى سبيل المثال فإن بوادر انهيار الخلافة العثمانية [2] ، بدأت قبل قرنين من سقوطها الفعلي في عام (١٩٢٤م) ، وكذلك (الاتحاد السوفياتي) [3] لاحت بوادر سقوطه قبل عشرين عامًا على الأقل من إعلان سقوطه الرسمي في أوائل التسعينيات من القرن العشرين ، وجَسد نبي الله سليمان ﷺ بقي فترة طويلة من الزمن قبل أن ينهار ويخر إلى

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٧٩) ، وأحمد في المسند (٣/ ١٨٣) ، من حديث أنس رضي الله تعالى عنه .

(٢) العثمانيون : هم سلالة السلاطين الأتراك ، سميت دولتهم باسم مؤسسها (عثمان الأول) ، وقد تولوا الإمارة في الفترة من (١٣٢٦م - ١٥١٦م) ثم آلت إليهم الخلافة في الفترة من (١٥١٦م - ١٩٢٤م) .

(٣) الاتحاد السوفياتي (١٩١٧ - ١٩٩١م) : نشأ من اتحاد الجمهوريات داخل مناطق الإمبراطورية الروسية التي أطاحت بها الثورة البلشفية بقيادة الحزب الشيوعي في عام (١٩١٧م) ، وامتد في شمال آسيا وشرق أوروبا ومناطق من وسط آسيا وأصبح بعد الحرب العالمية الثانية وحتى انهياره قوة عظمى في العالم إلى جانب الولايات المتحدة .

الأرض ويكتشف الجن أنه فارق الحياة [1] ، وهكذا هي جولات التاريخ ، فإن نهاية الحدث قد تتأخر كثيرًا أو قليلًا عن بدايته .

ويعلِّمنا التاريخ أيضًا أن لا نتعجل بالحكم على رجاحة بعض القرارات التاريخية أو فشلها ، بل نعطيها ما تستحقه من الزمن قبل إصدار الحكم عليها ، فكم من قرارات اتخذت في وقت من الأوقات فأيدها الناس أشد التأييد ، وتحمسوا لها غاية الحماسة ، ولكنها بعد حين من الزمن عادت بأفدح الخسائر والنكبات ، وكم ـ بالمقابل ـ من قرارات عارضها الناس في حينها معارضة شديدة أو حكموا عليها بالفشل الذريع ، ولكنها بعد حين من الزمن أثمرت أفضل النتائج ، وليس (صلح الحديبية) الذي أبرمه النبي محمد ﷺ مع قريش (٧هـ / ٦٢٨م) إلا مثالًا واحدًا على ما نقول ، فقد عارض الصحابة رضوان الله عليهم هذا الصلح بشدة لما رأوا فيه من غمط لحقوقهم ، لكن الأيام أثبتت أن الصلح كان فتحًا كبيرًا للإسلام والمسلمين ، فقد أظهر الصلح أن المسلمين ليسوا دعاة حرب وقتل ودمار ، بل دعاة سلام وخير ومحبة ، كما هيأ الصلح جوًّا من الهدوء والأمان بين الطرفين جعل الكثيرين ممن لم يكونوا قد دخلوا الإسلام يراجعون مواقفهم ، ثم لم يلبثوا أن أسلموا ، وبهذا قويت شوكة المسلمين ، وتوسعت دائرته ، ولم يمض عامان على الصلح حتى فتح الله على المسلمين مكة سلمًا دون حرب ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا .

وهكذا .. فإن ما يتراءى لنا في اللحظة الراهنة أنه انتصار كبير قد يكون على المدى البعيد هزيمة منكرة ، وما يلوح لنا في الحاضر أنه هزيمة مخزية قد يثبت بعد حين أنه هو الانتصار الحقيقي ، وهذه السمة تدل دلالة دامغة على أن التاريخ لا يسير بصورة عشوائية ، بل ترعاه العناية الإلهية التي لها وحدها القدرة على التحكم بالنتائج والنهايات ، والتي يبدو جليًّا أنها وضعت للتاريخ مسارًا محددًا لا يخرج عنه قيد أنملة ، ولعل أجمل ما قرأت في التعبير عن هذه السمة في التاريخ ما كتبه الأديب الروسي (ليو تولستوي) [2] ، في

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد : مدة طويلة نحوًا من سنة [ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣/ ٦٩٣) ، مؤسسة الريان بيروت ، دار اليقين مصر] .

(٢) ليو تولستوي (١٨٢٨م ـ ١٩١٠م) : من أشهر الروائيين الروس ، التحق بالجيش وخاض عدة معارك أمدته بمادة غنية صاغ منها رائعته الفريدة (الحرب والسلام) التي عرض فيها فلسفته ، مركزًا على دور القدر الإلهي في مسيرة التاريخ ، ومقللًا من شأن الدور الذي يلعبه الفرد في الحياة ، وقد كان للقيم الأخلاقية والاجتماعية مكانة كبيرة في مؤلفات تولستوي ، وبالرغم من أنه ينحدر من أسرة غنية واسعة الثراء فقد ناصر الفقراء والفلاحين والكادحين من أجل تخليصهم من سطوة الإقطاع والطغيان .

روايته الشهيرة (الحرب والسلام) إذ كتب يقول : (إن الأفراد ليسوا سوى أدوات طيِّعة في يد التاريخ ، ينفذون الأهداف المخفية عنهم .. والعناية الإلهية تدفع هؤلاء الناس ، كلًّا منهم على حدة ، لكي يصلوا إلى غاياتهم الشخصية ، لكن هذه الغايات المتفرقة تجتمع بعضها مع بعض لكي تحقق غاية عظيمة جدًّا تختلف عن كل توقعاتهم) !



(الأديب الروسي ليو تولستوي)

ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن الأحداث الكبرى - ناهيك عن الأحداث الصغرى - التي شهدها التاريخ لم تغيِّر من المسار الذي رسمته يد العناية الإلهية مقدار شعرة .. نعم .. ربما أحدثت بعض الأحداث الكبرى صخبًا شديدًا في حينها ، حتى ظن الناس أن تلك الأحداث قد غيرت مجرى التاريخ فعلًا ، إلا أن صخب تلك الأحداث لم يلبث أن خَفَتَ بعد حين ، ولم يبقَ من آثارها شيء ، وتابع التاريخ مساره المقدَّر له من الخالق العظيم سبحانه .

ومن الغريب أن معظم الناس - بل وكثير من المؤرخين المتمرسين أيضًا - لا يلتفتون إلى هذه السمة التي تطبع حقب التاريخ المختلفة بطابعها المميز ، مع أن التاريخ يمدنا بالكثير من الوقائع التي تظهر هذه السمة بوضوح ، وتبين وجود تخطيط مسبق ، أو برنامج زمني خفي يحكم مسيرة التاريخ ، ويجعل أفعال البشر المتفرقة تصب في مجراه العام ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه السمة في مواضع عديدة ؛ منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٥ - ١٧] ، وقوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٢ - ١٨٣] ، فقد يقرر بعض الناس قرارًا ويعملون بكل طاقتهم على تنفيذه ، إلا أن تنفيذ هذا القرار يبقى رهنًا بمشيئة

الله تعالى الذي إن شاء أنفذه ، وإن شاء لم ينفذه ، وهذا لا يتعارض مع الحرية الفردية كما قد يتراءى للوهلة الأولى ، فإن الحرية الفردية مقررة شرعًا بصريح الكتاب والسنة ، وهي مناط التكليف للإنسان ، إلا أن هذه الحرية الفردية ليست مطلقة ، بل هي مقيدة بالحدود التي تتيح للإنسان القيام بأمانة الاستخلاف بحُرية تامة ، ولكن دون أن يتجاوز الحدود ليغير مسار التاريخ عن الوجهة التي رسمتها يد العناية الإلهية .

وما قصة نبي الله يوسف عليه السلام مع إخوته إلا مثال ناصع على هذه الحقيقة ، فقد تحايل إخوة يوسف على أبيهم لكي يرسله معهم في رحلتهم إلى مصر ، بحجة الحصول على المزيد من التجارة والربح ، وكانوا قد أضمروا في أنفسهم التخلص من يوسف الذي كانوا يحسدونه أشد الحسد على قربه من أبيهم وحبه الكبير له ، وبالفعل ذهبوا به وألقوه في غيابة الجُبِّ ، واعتقدوا أنهم تخلصوا منه إلى غير رجعة ، ولم يَدُر في خلدهم أن فعلتهم هذه سوف تنقلب ضدهم ، وأنهم قد وضعوا يوسف عليه السلام على أول الطريق إلى المجد !

وهذا لا يعني أن العباد غير مسؤولين عن أفعالهم ، بل هم مسؤولون عن الأفعال التي تدخل في نطاق تكليفهم ، كما هي حال إخوة يوسف الذين هم دون ريب مسؤولون عمَّا فعلوه بأخيهم ، وأمَّا ما حصل بعد ذلك مع هذا الأخ المظلوم وما ناله من مكانة عالية فإنه يندرج في إطار البرنامج الإلهي الشامل لهذا الوجود ، وهذا ما أشار إليه يوسف عليه السلام حين التقى بأبيه وأمه وإخوته بعد فراق طويل حين قال : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، واللطف هنا يعني أن قَدَر الله تعالى يجري بصورة لطيفة خفية لا يشعر بها أحد ، ولا تخطر على بال ، حتى إذا اكتملت عناصر الحدث جاءت النتيجة النهائية مزلزلة ، كما تزلزل إخوة يوسف عندما رؤوا أخاهم الذي ارتكبوا بحقه تلك الأفعال الشنيعة وقد رفعه الله تعالى إلى أعلى المناصب !

فلسفة التاريخ :

وفلسفة التاريخ ترمي إلى استجلاء مسار التاريخ وغاياته ومآلاته ، ويُرجع بعض الباحثين الفضل بإنشاء فلسفة التاريخ إلى ابن خلدون [١] الذي كان أول من حاول تقديم رؤية فلسفية شاملة لمجريات التاريخ ، بينما ينسب باحثون آخرون نشأة فلسفة التاريخ إلى الفيلسوف الفرنسي فولتير [٢] ، وينطلق الفيلسوف عادة في فلسفته للتاريخ من المبادئ التي

(١) سبقت ترجمته .

(٢) سبقت ترجمته .

يؤمن بها ، ويستهدف من هذه الرؤية بيان العلاقات السببية التي تربط مجريات التاريخ بعضها ببعض ، واستشراف الاتجاه العام لتلك المجريات ، واستنباط الغاية التي يروم التاريخ تحقيقها .

ولعل أكثر ما يشغل بال فلاسفة التاريخ ظاهرة السببية ، أي محاولة فهم العلاقة ما بين مقدمات الحوادث ونتائجها ، وما إذا كانت تلك العلاقة علاقة حتمية أم اعتباطية ، كما يهتم فلاسفة التاريخ بمحاولة فهم القوانين أو السنن التي تحكم مسيرة التاريخ ، وبما أن كل واحد من فلاسفة التاريخ ينطلق في إجابته على هذه الإشكاليات من ما يؤمن به من مذاهب وآراء فإننا نجد تباينًا واضحًا في النظر إلى التاريخ ما بين فيلسوف وآخر ، وينتهي كل منهم إلى رؤية مغايرة لمسار التاريخ وغاياته ومآلاته .

فالفلسفة الإسلامية للتاريخ تقوم على أساس أن لهذا الكون خالقًا مدبرًا عليمًا خبيرًا حكيمًا بصيرًا ، قدَّر كل شيء في هذا الوجود تقديرًا محكمًا دقيقًا ، ووضع فيه القوانين الكونية التي تضبط حركاته ، واستخلف فيه الإنسان ، وأنزل عليه الشرائع السماوية وأمره أن يسير على ضوئها إذا هو أراد القيام بأمانة الاستخلاف على وجهها الصحيح ، وترك له بعد ذلك حرية الاختيار ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] ولكنه سبحانه حذَّر الإنسان من مغبة مخالفة هذه الشرائع ؛ لأن مخالفتها تفضي إلى الخسران المبين في الدنيا والآخرة ، فكما أن مخالفة السنن الكونية تفضي إلى الفشل بالتعامل مع مخلوقات هذه الدنيا فكذلك مخالفة شرائع الله تفضي إلى الخسران المبين ليس في الدنيا وحدها وإنما في الدنيا والآخرة .

وهكذا نرى أن الفلسفة الإسلامية للتاريخ تختلف اختلافًا جوهريًا عن بقية الفلسفات المادية التي لا ترى في التاريخ سوى سلسلة من الأحداث التي لا ضابط لها ولا معنى ولا هدف ، مع أن كل الدلائل العلمية تشير إلى أن هذا الكون ما كان له أن يقوم من دون خالق مدبِّر حكيم (انظر فصل : تاريخ الكون) .

أضف إلى هذا أن أصحاب الفلسفات المادية يعتقدون أن التاريخ لا يعدو فترة حياتهم الدنيا التي هي في زعمهم كل شيء ، ثم لا شيء بعد ذلك ، فلا بعث بعد الموت ولا حساب ولا عتاب ، ولسان حالهم يقول : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣٧] ، الجواب يأتيهم صاعقًا مجلجلًا : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ

ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧] ، وربا سعد من أدرك هذه الحقائق ، وعرف حكمة الله ﷻ مِنْ خَلْقِهِ ، إذ قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

* * *

الفَصْلُ الثَّانِي
سُنَنُ الوجود

• ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] .

• إن الطبيعة كلها موزونة ، من خفقان الحرارة إلى اهتزاز أوتار الكمان ، ومن تموجات الضوء والحرارة والصوت إلى حركة المد والجزر في البحار ، ومن تعاقب الليل والنهار إلى تعاقب الفصول وتغيرات المناخ ، ومن تذبذب الذرة إلى نشأة وسقوط الشعوب والأمم ومولد وفناء النجوم !

(الفيلسوف الإنكليزي هربرت سبنسر)

إن التأمل العميق في تكوين هذا الوجود وما فيه من مخلوقات ، وما جرى فيه من أحداث ، من لحظة ولادته الأولى وحتى اللحظة الراهنة ، لَيَدُلُّ دلالة واضحة على أن الخالق العظيم قد أبدع هذا الوجود على نهج من السنن (= القوانين) المُطَّردة التي لا تتغير ولا تتبدَّل ولا تتحوَّل كما وصفها سبحانه فقال تعالى : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر : ٤٣] ، وليست العلوم المختلفة ـ في حقيقتها ـ غير اكتشاف لهذه السنن الإلهية ، ثم وضعها بصيغة معادلات وقوانين رياضية يمكن استخدامها في تسخير تلك المخلوقات والظواهر .

وقد انتهى العلماء أخيرًا إلى أن أعظم ما في هذا الوجود وأكثر ما يدل على وجود الخالق العظيم هي هذه السنن الإلهية التي تنظم حركة الوجود ، ونذكر من هؤلاء العلماء الفيزيائي البريطاني المُقعد المشلول (ستيفن هوكنغ)[1] ، الذي يعد من أبرز علماء الفلك والرياضيات في عصرنا الحاضر فقد صرح قائلًا : (لقد كشف العلم أخيرًا مجموعة من القوانين التي تدلنا ضمن الحدود التي رسمها مبدأ الارتياب "*Uncertainty Principle*" كيف

(١) ستيفن هوكنغ (١٩٤٢م ـ) : عالم فيزياء بريطاني معاصر ، شغل منصب الأستاذية في الفيزياء النظرية بجامعة كمبردج ، ويعد اليوم في طليعة علماء الفلك ومن ألمع الفيزيائيين النظريين منذ أينشتاين ، أصيب في عام (١٩٦٢م) بشلل عصبي أقعده عن الحركة ، لكن ذلك لم يمنعه من مواصلة بحوثه مستعينًا بكمبيوتر خاص يستخدمه في الكتابة والتواصل مع الآخرين ، وهو يعمل اليوم على أكبر المسائل الفيزيائية والفلكية وأشدها تعقيدًا فهو يحاول وضع نظرية موحدة تجمع ما بين النسبية العامة وميكانيكا الكم ، ومن المتوقع أن تفسر هذه النظرية الكثير من الأسرار التي مازلنا نجهلها عن نشأة الكون ونهايته .

سيتطور الكون مع الزمن لو عرفنا وضعه في زمن معين ، وهذه القوانين مرسومة من قبل الله الذي اختار هذه الصورة الأولية للكون لأسباب لا يمكن أن نأمل في فهمها ، فذلك ولا شك ، في المقدور الكلي للقدرة) [1] ، أي إن الله ﷻ هو وحده الذي يعلم أسرار صياغة هذه القوانين على هذه الصورة التي لا أمل لنا على الإطلاق في أن ندرك علة كونها على هذه الصورة التي هي عليها ، ولكن حسبنا أن ندرك وجودها ، وأن نفهم آليات عملها لكي نتمكن من تسخيرها على الوجه الصحيح .



(العالم البريطاني ستيفن هوكنغ)

وترجع أهمية البحث في سنن التاريخ إلى أن كشف هذه السنن ، ومعرفة شروط عملها ، يجعلنا أقدر على فهم مسيرة التاريخ والتعامل الإيجابي مع الأحداث ، وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلًا عمليًا بقصة الفاتح العسكري الشهير (ذي القرنين) [2] ، لكي ندرك من خلال قصته كيف يمكن أن تُذلَّل معرفتنا بالسنن العقبات التي قد تعترضنا في هذا الوجود ، فقد استطاع ذو القرنين أن يحقِّق في حقبة قصيرة جدًا من عمر الزمان فتوحات عسكرية واسعة ، في مشارق الأرض ومغاربها ، لم يحققها قبله ولا بعده أي فاتح آخر في

---

(١) ستيفن هوكنغ : موجز في تاريخ الزمان ، (ص ١٤٧) ، أكاديميا ، بيروت (١٩٩٩م) .

(٢) ذو القرنين : أطلق هذا اللقب على كثيرين في التاريخ ؛ منهم المنذر الأكبر ، وتُبّع الأقرن ملك اليمن ، وورد ذكر ذي القرنين في القرآن الكريم في سورة الكهف ، وربما يراد به الإسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م) ، أو قورش العظيم (٥٥٧ ـ ٥٢٨ ق.م) أحد ملوك فارس ، والقرنان كناية عن السلطان العظيم الذي أحرزه ، وقد وصلت فتوحاته إلى بلخ فكان ذلك بمثابة وصوله إلى نهاية المشرق ، وإلى جبال القوقاز حيث بنى سدًا عظيمًا للحيلولة دون تدفق القبائل الهمجية التي كانت تقطن في السهول الشمالية .

التاريخ ؛ وذلك بفضل ما أعطاه الله ﷻ من علم بالأسباب كما جاء في التعبير القرآني البليغ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٣- ٨٥] ونستشف من خلال قوله تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ أن من جملة هذا العطاء الرباني الكريم تفهيم ذي القرنين بعض السنن الإلهية التي أتاحت له تحقيق تلك الانتصارات العظيمة .

ونظرًا لما في معرفة السنن الإلهية من أهمية كبيرة من أجل القيام بعمارة الأرض نجد القرآن الكريم يحضُّنا مرارًا وتكرارًا على السير في الأرض ، والتفكر بآيات الله المبثوثة في هذا الوجود ، لكي يلفت عقولنا إلى نظام السنن البديع الذي ينظم حركة كل شيء فيه ، لعلنا نعمل على كشف هذه السنن ونسخرها للقيام بأمانة الاستخلاف وعمارة الأرض كما أمرنا الخالق العظيم سبحانه .

وقد حقَّق البشر من خلال كشفهم لبعض السنن الكونية انتصارات وفتوحات علمية عظيمة كان لها تأثير كبير في تطوير الحياة البشرية ، نذكر منها على سبيل المثال تلك السنة التي تنبه لها العالم الرياضي الإنكليزي الشهير (إسحاق نيوتن)[1] ، وصاغها في (قانون الفعل ورد الفعل) ، فقد تمكن الإنسان بعد أن يسَّر الله له الظروف والإمكانيات المواتية أن يستفيد من خصائص هذه السنة في مجالات عدة ، من أبرزها اختراع المحركات النفاثة التي ساهمت مساهمة أساسية في تقدم علوم الطيران ، وصناعة الطائرات والصواريخ ، وأوصلت الإنسان آخر المطاف إلى سطح القمر (عام ١٩٦٩م الولايات المتحدة) بعد أن ظل لأحقاب طويلة يتغزل به عن بعد .

وهكذا .. فإن المعرفة الصحيحة بسنن الله في الخلق تمنحنا قدرات باهرة تعيننا على عمارة الأرض ، وتحقيق أهدافنا القريبة والبعيدة .

---

(١) إسحاق نيوتن (١٦٤٣م - ١٧٢٧م) : رياضي إنكليزي ، يعد من أعظم علماء القرن ١٨ ، شغل منصب رئيس الجمعية الملكية بإنكلترا تقديرًا لأعماله العلمية العديدة في دراسة الضوء والتوفيق بين النظرية الجسيمية والنظرية الموجية لتفسير الظواهر الضوئية المختلفة ، وضع قوانين الحركة الثلاثة الشهيرة ، ووضع قانون الجاذبية العام الذي ساهم بتفسير حركة الأجرام السماوية .



(العالم البريطاني إسحاق نيوتن)

خصائص السنن الإلهية :

وتتصف السنن التي قدَّرها الخالق ﷻ لتنظم مسيرة هذا الوجود بثلاث خصائص أساسية ؛ هي : الشمولية ، والثبات ، والاطراد .

١- شمولية السنن : تدل الشواهد العلمية المختلفة على أن السنن الإلهية لا تحكم العالم المادي وحده بل تحكم كل ما في الوجود من خلائق ، سواءً كانت مادية كالذرة والكهرباء والحرارة ، أم كانت معنوية كالعواطف الإنسانية ، والسلوك الاجتماعي ، وقيام الحضارات واندثارها ، وإن مما يدل دلالة واضحة على شمولية سنن الله لجميع المخلوقات قوله تعالى :﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] ، فالكل خاضع لسنن الله دون استثناء ، وكما أن الماء يطفئ النار ، وكما أن المعدن يتمدد بالحرارة وينقلص بالبرودة ، وكما أنَّ رَمْيَ الحَجَر في الفضاء يجعله يسقط إلى الأرض بفعل الجاذبية ، وكما أن التقاء النطفة بالبويضة يولد الجنين ، وهذه كلها سنن مادية مُشَاهَدة ومعروفة ، فكذلك هي انفعالات النفس البشرية ، وحياة المجتمعات ، ومسيرة الحضارات ، وتاريخ الوجود ، كلها ظواهر محكومة بسنن إلهية دون استثناء .

وقد ورد في القرآن الكريم آيات عديدة تشير إلى بعض السنن التي تحكم تفاعلات النفس البشرية ؛ منها قوله تعالى :﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ

مَنُوعًا ﴾ [المعارج : ١٩ ـ ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٤] ، وقوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] ، كما ورد العديد من القصص التي تتضمن الإشارة إلى بعض السنن التي تحكم مسيرة المجتمعات وقيام الحضارات واندثارها[1] .

ويبدي بعض الباحثين تحفظهم تجاه شمولية السنن ؛ إذ يعتقدون أن المادة وحدها تخضع لسنن صارمة يمكن أن تصاغ صياغة رياضية دقيقة ، أمّا لواعج النفس البشرية وسلوك الأفراد وحياة المجتمعات والأمم وقيام الحضارات وسقوطها فلا يخضع ـ في ظن هؤلاء الباحثين ـ لمثل هذه الصرامة ، بل يذهب بعضهم إلى ما هو أغرب وأبعد ، فيزعمون أن التغيرات النفسية والاجتماعية والتاريخية تجري في حياة البشر بطريقة غيبية غامضة الأسباب؟!

وقد عمّق هذا الظنَّ الخاطئ في الأذهان ما هو حاصل من فارق كبير بين تقدم العلوم الرياضية المادية وتخلف العلوم الاجتماعية والنفسية عن مواكبة هذه العلوم ، فقد قطعت العلوم المادية حتى الآن شوطًا بعيد المدى ، وقدمت إنجازات علمية هائلة ، وأثبتت جدارتها ومصداقيتها في معظم الأحوال والمجالات ، وطردت إلى غير رجعة كل الأساطير والأوهام والخيالات التي كان الناس يحسبونها من العلم ، وما هي في الحقيقة من العلم في شيء .

أمّا علم النفس وعلم الاجتماع وبقية العلوم الإنسانية الأخرى فما زالت تعاني من بعض الآفات ، فما زالت دراساتها العلمية عند البدايات ، ولم تعطَ حتى الآن الاهتمام الكافي الذي أعطي للعلوم المادية ، وهذا ما جعل معظم العلوم الإنسانية متخلفة بمراحل واسعة عن العلوم المادية ، وهذا ما يفسر أيضًا الظن الخاطئ بأن النفس والمجتمع والتاريخ والحضارات لا تخضع للسنن الإلهية الصارمة كما تخضع المادة .

ونورد فيما يلي هذا المثال لنبين مدى الشقة الواسعة التي باتت اليوم تفصل ما بين العلوم المادية التي حققت الكثير ، وبين العلوم الإنسانية التي ما زالت عند البدايات ، فلو أننا استحضرنا إلى عصرنا الراهن اثنين من عباقرة الفلاسفة والعلوم القدامى ، وليكن أحدهما (أفلاطون)[2] ، أبو الفلسفة ، ....

---

(١) للمزيد من التوسع في هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتابنا (أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق) .

(٢) أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م) : فيلسوف إغريقي ، أسس أكاديمية أثينا التي ظل يدرّس فيها حتى آخر أيامه ، مؤلفاته محاورات فلسفية في ثلاث مجموعات ؛ الأولى : تضم المحاورات السقراطية التي خصصها للدفاع أستاذه سقراط عن نفسه أمام المحكمة التي قضت بإعدامه ، والثانية : تتحدث عن البلاغة ، والصواب والخطأ ، وصعوبة ـ

والآخر (فيثاغورث)[1] ، أبو الرياضيات ، فنرى أن المفارقة تظهر جلية عندما ندخل أفلاطون إلى كلية من كليات العلوم الإنسانية في واحدة من جامعتنا المعاصرة ، وندخل فيثاغورث إلى كلية من كليات العلوم الرياضية ، فما الذي نتوقع أن يحدث ؟ من المؤكد أن النتيجة سوف تدهشنا كثيرًا ؛ لأننا سنجد أفلاطون كما كان في الماضي أستاذًا متمرسًا ، يناقش مختلف القضايا الفلسفية المطروحة اليوم على بساط البحث بكل جدارة وعمق ، أمَّا فيثاغورث فسوف نراه يجلس في القاعة ، مثل : (الأطرش في الزفة) غير قادر على فهم شيء مما يقال عن النظريات الرياضية الحديثة ، والمصطلحات الجديدة ، وأنَّى له مثلًا أن يفهم ما هي نظرية النسبية التي صاغها (آينشتاين)[2] ، ؟ وما هي (الثقوب السوداء)[3] ، ؟ وما هي (نظرية الكَم)[4] ؟ وما هو (الليزر)[5] ؟ وغير ذلك من النظريات والمفاهيم العلمية الحديثة التي نسفت معظم النظريات والمفاهيم القديمة !

= تحصيل المعرفة ، والمفاضلة بين حكم القلة وحكم الكثرة وطبيعة السماء ، والثالثة : تتحدث عن حب الجمال وخلود الروح والوسطية باعتبارها غاية الأخلاق ، والجمهورية في الدولة المثل التي تقوم على العدل .

(١) فيثاغورث (٥٨٢ ـ ٥٠٧ ق.م) : فيلسوف رياضي إغريقي ، كان يرى أن جوهر الأشياء والعلاقات هو العدد ، أي إن الجانب الكمي هو لب الحقيقة في هذا الوجود ، وله نظرية رياضية تحمل اسمه .

(٢) ألبرت آينشتاين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥م) : عالم فيزياء ، ولد في ألمانيا ثم هاجر إلى الولايات المتحدة ، أجرى بحوثًا مستفيضة حول طبيعة الضوء ، وفسر علاقته بالكهرباء وصاغها في (النظرية الكهروضوئية) التي نال عليها جائزة نوبل في الفيزياء عام (١٩٢١م) ، من أشهر أعماله نظرية النسبية التي غيرت الكثير من المفاهيم الرياضية التقليدية كما صاغ المعادلة الشهيرة التي تحكم العلاقة ما بين الكتلة والطاقة والتي مهدت لتفجير الذرة في عام (١٩٤٥م) .

(٣) الثقب الأسود (*Black Hall*) : نجم عملاق انهار على نفسه إلى الداخل فتضاعفت كثافته إلى حد هائل وتضاعفت جاذبيته إلى درجة لا تسمح للضوء بمغادرته ؛ ولهذا يبدو في السماء مثل الثقب ، والثقوب السوداء تدور حول نفسها بسرعة عظيمة ، وتحكمها قوانين يعتقد العلماء أنها تختلف عن القوانين التي نعرفها ، ويعتقدون أن عبور ثقب أسود يؤدي إلى مناطق أخرى وأزمنة أخرى تختلف عن عالمنا وزماننا !

(٤) نظرية الكم (*Quantum Theory*) : نظرية صاغها العالم الألماني ماكس بلانك (١٨٥٨م ـ ١٩٤٧م) مؤداها أن الضوء أو غيره من الظواهر ذات الصفة الموجية يصدر في كميات منفردة تتناسب طاقتها مع ترددها ، وقد أسفرت هذه النظرية عن الكثير من الإنجازات العلمية العظيمة ، ونال عليها جائزة نوبل عام (١٩١٨م) .

(٥) الليزر (*LASER*) : كلمة مشتقة من الأحرف الأولى لفكرة عمل الليزر (*Amplification by Stimulated Emission of Radiation*) ، وتعني تكبير الضوء بواسطة الانبعاث الاستحثاثي للإشعاع الكهرومغناطيسي ، وقد تنبأ آينشتاين في عام (١٩١٧م) بوجود الليزر ووضع الأساس النظري له ، وفي عام (١٩٥٨م) وضع الأمريكيان (تاونس ، شاولو) نظرية الليزر موضع التطبيق العملي ، وفي عام (١٩٦٠م) صنع الأمريكي (ت.ميمان) أول جهاز ليزر ، وأصبح لأجهزة الليزر استخدامات حربية وسلمية كثيرة جدًا .



(الفيلسوف اليوناني أفلاطون)



(عالم الرياضيات اليوناني فيثاغورث)

إن هذا المثال يظهر لنا بوضوح تلك الهوة العميقة التي ما زالت تفصل بين العلوم المادية التي بلغت شأوًا عظيمًا وبين العلوم الإنسانية التي ما زالت عند البدايات ، ونعتقد أن هذه الهوة تعود بالدرجة الأولى إلى أن التطورات التي تطرأ على النفس البشرية والسلوك الاجتماعي هي تطورات ضئيلة وبطيئة جدًّا ، وهذا ما يجعل فيلسوفًا قديمًا مثل أفلاطون قادرًا حتى اليوم على مناقشة مقولات العلوم الإنسانية التي لم يكد يطرأ عليها جديد منذ عصر الإغريق وحتى اليوم ، بينما تتّسم العلوم المادية بالتطورات السريعة والتغيرات الجذرية مما يجعل رياضيًّا كبيرًا مثل فيثاغورث في وضع لا يحسد عليه فيما لو حضر بيننا اليوم .

ويكفي للدلالة على هذه الحقيقة ملاحظة أن الحجر الذي استخدمه الإنسان البدائي في العصور الغابرة لدفع الوحوش عن نفسه أو اصطياد الفرائس قد تطور مع الزمن فأصبح خنجرًا ، ثم رمحًا ، فسيفًا ، فسهمًا ، فمدفعًا ، فصاروخًا عابرًا للقارات قادرًا على إفناء البشرية في لمح البصر !

أما على المستوى الاجتماعي فما زالت القضايا التي شغلت بال الإنسان البدائي هي نفس القضايا التي ما زالت تشغل بالنا نحن أهل القرن الحادي والعشرين !

وهناك في الواقع سبب عملي وجيه لا يجوز إغفاله يمكن أن يفسر تخلف العلوم الإنسانية عن بقية العلوم المادية ، وهو أن المادة يمكن أن تخضع للتجربة في المختبر بسهولة ويسر ، وهذا ما يتيح لنا خلال زمن قياسي قصير أن نعرف نتائجها النهائية والقوانين التي تحكمها ، أما التجارب النفسية والسلوكية والاجتماعية والتاريخية والحضارية فهي تتطلب فترات رصد طويلة الأمد تستغرق أجيالًا عديدة ، كما أن إجراء التجارب على الأفراد والمجتمعات ليس بسهولة التجارب على المادة ، ناهيك عما تمرّ به الظواهر النفسية والاجتماعية والحضارية من عقبات أو تحولات أو انتكاسات خلال مسيرتها الطويلة ، فتتداخل العوامل المتعلقة بها وتتشابك ، وتختلط علينا رؤية السنن التي تحكمها .

ولهذا نجد أن النتائج التي انتهت إليها العلوم الإنسانية حتى اليوم ما زالت غير نهائية ، وما زالت القواعد الاجتماعية والنفسية التي يقول بها الباحثون في الدراسات الإنسانية بحاجة إلى المزيد من الدراسة والبحث ، وهذا لا يعني بحال من الأحوال أن النفس البشرية أو السلوك البشري خارج عن نطاق العلم ، أو أنه لا يخضع لسنن إلهية صارمة ، لا ، أبدًا ، فليس في مخلوقات الله ﷻ من شيء لا تحكمه سنة إلهية .

أمَّا ما توصل إليه الباحثون من اكتشافات حتى اليوم في حقول العلوم الإنسانية فما زال عرضة للصواب والخطأ بمقدار ما يقترب أو يبتعد عن فهم السنن التي تحكم المجال موضوع الدراسة ، وفي الواقع فإن هذا القصور البشري لا ينحصر بالعلوم الإنسانية وحدها ، بل هو مشاهد أيضًا ـ ولكن بدرجات أقل كثيرًا ـ في العلوم الرياضية التي توصف عادة بالصرامة والدقة ، فكم من نظرية رياضية ظلت محلَّ قداسة وتقدير لدهور طويلة ثم نقضت من أساسها ، وظهر بطلانها وحلَّ محلها نظريات أخرى جديدة .

والحاصل أن العلوم الإنسانية ما زالت إلى اليوم مأزومة وغير قادرة على التعبير تعبيرًا دقيقًا عن طبيعة السنن التي تحكم الظواهر الإنسانية المختلفة ، ويمكن أن نرجع هذه الأزمة إلى عوامل عديدة ، نذكر منها :

- أن الاهتمام بالدراسات الإنسانية على مدار التاريخ كان أقل بكثير من الاهتمام بالدراسات المادية الأخرى ، وهذا ما جعل الدراسات الإنسانية تتخلف بمراحل عن بقية الدراسات .

- أن الظواهر الاجتماعية والنفسية والتاريخية شديدة التعقيد وتتداخل فيها عوامل شتى يتعذر حصرها ، ومن ثم تتعذر مراقبتها بصورة وافية .

- أن العامل البشري كثيرًا ما يتدخَّل في تفسير الظواهر الاجتماعية والنفسية والتاريخية فينأى بها عن الموضوعية في كثير من الأحوال كما أسلفنا من قبل .

- أن المنهج السائد حتى اليوم في البحوث الإنسانية يحتاج إلى إعادة نظر وتقويم ، ففي كثير من الحالات يعتمد هذا المنهج على تجارب تجرى على الحيوان ثم تعمَّم نتائجها على الإنسان ، للاعتقاد بأن السنن التي تحكم سلوك الحيوان هي السنن ذاتها التي تحكم سلوك الإنسان أيضًا .

والواقع أن هذين العالمين وإن اتفقا في بعض الصفات الحيوية فإن بينهما اختلافات جذرية لا يستطيع أحد أن ينكرها ، وبخاصة منها تلك الاختلافات النفسية والعاطفية والعقلية والسلوكية التي تميز الإنسان عن الحيوان ، وهذا ما يجعل تعميم التجارب الحيوانية على الإنسان خطأ فاحشًا يؤدي بالضرورة إلى أحكام تجانب الحقيقة .

ولا نريد أن نستطرد أكثر من هذا في تفنيد مشكلات العلوم الإنسانية ، ولكننا نريد التأكيد على الحقيقة التالية ، وهي أننا إذا ما توصلنا يومًا ما لمعرفة سنة اجتماعية أو نفسية أو تاريخية معرفةً يقينيةً فإننا سنجدها لا تختلف عن أية سنة مادية أخرى ، بشمولها وصرامتها واطّرادها ، وسوف نجد كذلك أننا نستطيع صياغة هذه السنة الاجتماعية أو النفسية صياغة رياضية دقيقة كما نصوغ أية معادلة رياضية ، وهذا ما أثبتته نظرية الشواش أو (نظرية الفوضى)[1]، التي تعد واحدة من أهم النظريات الرياضية في العصر الحديث ، فإن (هذه النظرية على النقيض مما يوحي به اسمها قد كشفت عن النظام البديع والدقة المتناهية المختبئين وراء الكثير من ظواهر الطبيعة التي تبدو في أعيننا عشوائية للوهلة الأولى ، فقد أثبتت لنا هذه النظرية أن عدم قدرتنا ـ نحن البشر ـ على معرفة مسار الأشياء لا يعني أنها تمضي بصورة عشوائية ، أو أنها لا تخضع لنظام أو سنن ، بل إن عدم قدرتنا هذه تعكس فقط عجزنا عن الإحاطة بظروفها ومعطياتها الأولية)[2] ، وبتعبير آخر فإن هذه النظرية تفضح عجزنا عن إدراك السنن الإلهية التي تحكم هذا الوجود ، ولا تعني على الإطلاق أن الكون غير محكوم بسنن إلهية صارمة .

٢- ثبات السنن واطرادها : وتتصف السنن الإلهية التي تحكم هذا الوجود بالثبات والاطراد ، والثبات يعني أن هذه السنن لا يطرأ عليها تعديل ولا تبديل ولا تحويل ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣] ، وأما اطراد السنة فيعني تكرار نتائجها كلما توافرت مقدماتها كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧] ، فكلما انتصر المؤمنون لله حقق الله لهم النصر على أعدائهم ، وهذه سنة مطردة شهد التاريخ وقوعها مرارًا وتكرارًا .

---

[1] يعزى اكتشاف الظواهر التي قادت إلى نظرية الفوضى (*Chaos Theory*) للعالم الرياضي بوينكير (*Pioncare*) في عام (١٩٠٣م) ، إلا أن تسليط الضوء عليها من جديد ، وإعادة البحث فيها يرجع إلى عالم الأرصاد إدوارد لورنز (*Edward Lorenz*) الذي أعاد اكتشافها وتفصيلها في العام (١٩٦١م) .

[2] رابطة العالم الإسلامي : مجلة الإعجاز العلمي ، العدد (٥) (ص ٢٣) ، يناير (٢٠٠٠م) .

ومن الدلائل الدامغة على ثبات السنن الإلهية واطرادها دعوة القرآن الكريم المتكررة للنظر في تاريخ المجتمعات البشرية وأحوال الأمم الغابرة ، ومنها قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] ، فما كان القرآن الكريم ليدعونا إلى النظر والتفكر والاعتبار بقصص الأمم الغابرة لو لم تكن السنن التي تحكم حياة الأفراد والمجتمعات سننًا ثابتة مطردة تتكرر نتائجها كلما توافرت شروطها وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها .

السنن والمصادفة :

ورب معترض يرفض هذه النتيجة التي انتهينا إليها ، محتجًا بأن سجلات التاريخ حافلة بالوقائع التي تدل دلالة واضحة على دور المصادفة في تسيير هذا الوجود ، وبخاصة منه التاريخ البشري الذي لا يفتأ بين الحين والآخر ، يفاجئنا بحوادث غير متوقعة ، تحرف التاريخ عن مساره وتغير مجرى الأحداث تغيرًا جذريًا ، وقد تعجل حصول بعض النتائج ، أو تؤخر حصول بعضها الآخر .. فأين هي تلك السنن الصارمة التي تزعمون أنها تنتظم مسيرة الوجود ؟

وعند التدقيق في هذا الاعتراض نجد أنه في الحقيقة لا يقوم على أساس من العلم ، فالقول بتغيير مجرى التاريخ ليس سوى ظنٍّ ووهم ، فمن أدرانا أن التاريخ كان يفترض أن يسير على هذا النحو أو ذاك ؟ إن هذه المسألة غيب لا يعلمه علم اليقين إلَّا الله ﷻ ، وتقدم لنا سجلات التاريخ الدليل تلو الدليل على أن لمسيرة التاريخ منطقًا آخر لا يطابق في كثير من الأحيان توقعاتنا أو تصوراتنا .. وقد ذكرت كتب التاريخ وقائع طريفة جدًّا عن حوادث عرضية تافهة أدت إلى نتائج عجيبة غريبة فاقت كل التوقعات ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أنه (حينما امتنع القائد العسكري *Bajazet* بسبب إصابته بالنقرس عن السير إلى وسط أوروبا ، فإن المؤرخ جيبون[1] لاحظ أن مزاجًا حادًّا يصيب شخصًا ما قد يمنع أو يؤخر بؤس أمم عديدة ، وحين توفي الإسكندر اليوناني نتيجة عضة من قرد مدلَّل فإن تلك الحادثة افتتحت سلسلة من الأحداث دفعت السير ونستون

---

(١) إدوارد جيبون (١٧٣٧م - ١٧٩٤م) : مؤرخ إنجليزي ، صاحب كتاب (تاريخ أفول وسقوط الدولة الرومانية) الذي يعد من أهم المراجع في موضوعه ، وفيه يُرجع سقوط روما إلى هجمات البرابرة ، وتفشي المسيحية ، ويُرجع أسباب انتصار المسيحية وغلبة فيها إلى مسائل نفسية وفلسفية ، وينفي السبب الديني الذي يقول إن انتصار المسيحية كان ؛ لأن الله أراد لدينه الانتصار على الوثنية .

تشرشل [1] ، إلى القول : إن ربع مليون إنسان ماتوا نتيجة عضة القرد تلك . أو لنأخذ تعليق الزعيم الروسي تروتسكي [2] ، على الحمى التي أصابته حين كان يصطاد البطَّ البريَّ وقد أصابته في لحظة حاسمة من نزاعه مع زينوفيف [3] وكامنيف [4] وستالين [5] في خريف (١٩٢٣م) ، فقد علق قائلًا : بوسع المرء أن يتنبأ بثورة أو بحرب ، ولكن يستحيل عليه أن يتنبأ بعواقب رحلة خريفية لصيد البط البري) [6] .

فهذه الحوادث وأمثالها لا تدل على أن المصادفة هي التي توجه مسيرة الوجود ، بل تدل على قصور رؤيتنا لمسار التاريخ ومآلاته النهائية التي قد لا تظهر إلا بعد زمن طويل ، وخير دليل على هذا بعض قصص القرآن الكريم ، فهل كان مثلًا إلقاء نبي الله يوسف ﷺ في الجُبِّ ، ثم التقاطه من قبل بعض المسافرين العابرين ، ثم شراؤه من قبل امرأة العزيز في مصر ، ووصوله إلى أعلى المناصب .. هل كان ذلك كله مجرد مصادفات لا ضابط لها ؟ وهل كان إلقاء موسى ﷺ في اليَمِّ ، ثم التقاطه من قبل آل فرعون لكي يتربى في حِجْر عدوِّه فرعون ، ويقضي على ملكه آخر المطاف ، هل كان ذلك كله مجرد مصادفات عشوائية لا طائل من وراءها ؟

---

[1] ونستون ليونارد سبنسر تشرشل (١٨٧٤م - ١٩٦٥م) : رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية كان خطيبًا مفوهًا وقائدًا إستراتيجيًّا ، رفع معنويات شعبه أثناء الحرب ، وهو أول من أشار بعلامة النصر بواسطة لأصبعين السبابة والوسطى ، نال جائزة نوبل في الآداب سنة (١٩٥٤م) لمؤلفاته في التاريخ الإنجليزي والعالمي

[2] ليون دافيدوفيتش تروتسكي (١٨٧٩م - ١٩٤٠م) زعيم شيوعي روسي ، كان سياسيًّا مؤثرًا في بدايات الاتحاد السوفيتي ، ثم أصبح مؤسسًا وقائدًا للجيش الأحمر ، ومؤسسًا وعضوًا في المكتب السياسي السوفيتي ، وكانت أفكاره نواة للنظرية الشيوعية المعروفة باسم التروتسكية ، دخل في الصراع العنيف على السلطة مع ستالين انتهى بطرده من الحزب الشيوعي ونفيه إلى خارج البلاد ، ثم اغتياله .

[3] جريجوري يفسييفتش زينوفييف (١٨٨٣م - ١٩٣٦م) : زعيم شيوعي روسي ، تعاون مع ستالين ثم انقلب عليه وانضم إلى المعارضة فطرد من الحزب الشيوعي ، اتهم بمحاولة اغتيال أحد أعضاء الحزب فحوكم وأعدم .

[4] ليف بوريسوفيتش كامنيف (١٨٨٣م - ١٩٣٦م) : زعيم شيوعي روسي ، كان أحد أعضاء حكومة ستالين لكنه انقلب عليه وعارضه ، فاتهم بالخيانة وأعدم .

[5] جوزيف ستالين (١٨٧٩م - ١٩٥٣م) : الأمين العام للحزب الشيوعي الروسي بعد وفاة لينين عام (١٩٢٤م) قاد حملة تطهير واسعة في الثلاثينات لتصفية خصومه السياسيين ، وقد كلَّف البلاد ملايين الأرواح ، وكَبَت الحريات ، وكَمَّم الأفواه ، وحكم البلاد بالحديد والنار ، وكان حكمه دكتاتوريًّا مطلقًا ، وجعل نفسه المفسر الأوحد للماركسية ، وبهذا ابتدع مذهبًا ماركسيًّا عرف باسمه الستالينية .

[6] إدوارد كار : ما هو التاريخ ؟ (ص ١٠٩) ، مصدر سابق .

لا .. أبدًا .. فإن هذه الشواهد ـ وأمثالها كثيرة في القرآن الكريم وفي سجلات التاريخ ـ تدل دلالة قاطعة على أن وراء الأحداث مدبرًا قادرًا حكيمًا هو الذي ينظم حركة الوجود وفق سنن ثابتة مطردة لا تتبدل ولا تتحول ، ربَّما أدركنا بعضها ، ولكن ما زلنا نجهل الكثير ، وهذه السنن التي نجهلها تحتاج منا الكثير من التفكير والجهد والبحث حتى نستطيع اكتشافها وتسخيرها ، وكلَّما اكتشفنا واحدة منها ازدادت مساحة تمكيننا في الأرض ، وازدادت معها قدرتنا على التنبؤ بالمستقبل وتوظيف أحداثه في صالحنا (انظر فصل : آفاق المستقبل) .



(رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل : إن نصف مليون إنسان ماتوا بسبب عضة قرد !)

والخلاصة ، فإن القول بالمصادفة في نظام هذا الوجود ما هو إلا تعبير عن عجزنا عن فهم هذا النظام والسنن التي تحكمه ، والذين لا يؤمنون بهذا النظام وهذه السنن ، ويستسلمون إلى وَهْم المصادفة والعشوائية ، إنَّما يُلقون بمصائرهم في مهب الريح ، ويرتكبون بحق أنفسهم ، قبل غيرهم ، خطأ جسيمًا سوف يدفعون ضريبته مستقبلهم كله .. والويل لمن يفرِّط بمستقبله !

نظام كوني متكامل :

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن السنن التي تحكم هذا الوجود لا تعمل منفردة ، كل واحدة على هواها ، بل هي تعمل معًا بانسجام تام ، وتشكل فيما بينها نظامًا واحدًا مترابطًا يدل بانسجامه وتكامله على وحدانية الصانع سبحانه ، ومما يدل على هذا التكامل والتداخل والترابط بين السنن قول النبي ﷺ : « لم تظهر الفاحشةُ في قوم قَطّ حتى يُعلنوا بها إلا فَشَا فيهم الأوجاعُ التي لم تكنْ في أسلافهم ، ولم يَمْنَعوا زكاةَ أموالهم إلا مُنِعُوا القَطْرَ

من النساءِ ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا، ولم يَنْقُضوا عهدَ الله وعهدَ رسولِهِ إلا سُلِّطَ عليهم عدوٌّ من غيرهم فيأخُذَ بعضَ ما في أيديهم ، وما لم تَحْكُم أئمَّتُهم بكتابِ الله إلا جُعل بأسُهم بينهم »[1] ، ففي هذا البيان النبوي البليغ دلالة واضحة على ارتباط السنن بعضها ببعض ، ومنها ارتباط ظهور أوبئة جديدة بتفشي الفواحش في المجتمع ، وما ظهور داء (الإيدز)[2] ، في أواخر السبعينيات من القرن العشرين إلا دليل دامغ على هذا الارتباط الذي يمثل سنة ـخية مطردة ، فقد جاء هذا الداء القاتل نتيجة حتمية لتلك الموجة العارمة من الإباحية جنسية التي تفشت في أعقاب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م - ١٩٤٥م) ، ووصل لأمر بمروجيها أنهم أباحوا رسميًّا الزواج المثلي (*Homosexuality*) بين الرجل والرجل ، والمرأة والمرأة ، ورخصوا رسميًّا لنوادي العراة ، ونقابات الشاذين والشاذات !



(فيروس الإيدز القاتل ، تفشى بين الذين يمارسون الجنس الحرام والجنس الشاذ ، وقضى على ملايين منهم في غضون سنوات معدودات)

ومن الدلائل على تكامل هذا النظام السنني أيضًا ما أشار إليه النبي ﷺ من ارتباط نزول المطر بإخراج الزكاة ، بالرغم من أن هطول المطر ظاهرة مناخية تتطلب درجة معينة من الضغط الجوي والحرارة والرياح ، أمَّا الزكاة فهي فعل اجتماعي محض ، وكذلك

---

[1] أخرجه ابن ماجه ، والبزار ، والبيهقي واللفظ له .

[2] الإيدز (*AIDS*) : أو متلازمة نقصان المناعة المكتسب (*Acquired Immune Deficiency Syndrome*) مرض فيروسي قاتل ، ظهرت الحالات الأولى منه في سبعينيات القرن العشرين بين مجموعة من الرجال الشاذين جنسيًّا في مدينة سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة ، ثم انتشر بين غيرهم من الرجال والنساء ممن يمارسون الجنس الحرام ، وقد بلغ عدد المصابين به حتى نهاية القرن العشرين أكثر من (٤٠ مليون شخص) مات أكثر من نصفهم في غضون سنوات قليلة [انظر : منظمة الصحة العالمية ، اليوم العالمي للإيدز ، ٢٠٠٠م].

الارتباط ما بين تبعية المؤمنين لأعدائهم وبين الحيدة عن منهج الله ، وتفشي النزاعات في المجتمع عندما لا يحتكم ولاة الأمر إلى كتاب الله !

وهكذا نجد الدليل تلو الدليل على تكامل السنن الإلهية التي تنظم مسيرة هذا الوجود ، وهذا ما أثبته العلم أخيرًا بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ ، فقد عرف العلماء في غضون القرنين التاسع عشر والعشرين أن الكون كله ـ بما فيه من ذرات وكواكب ونجوم ومجرات ومخلوقات وظواهر ـ محكوم بقوى رئيسية أربع ؛ هي (الكهربائية ، والمغناطيسية ، والنووية ، والجاذبية) ، وظلَّ العلماء حتى عهد قريب يظنون أن هذه القوى لا علاقة بينها ألبتة ، إلى أن أثبتت المشاهدات العلمية الدقيقة والتجارب العملية أن هذه القوى المتباينة في ظاهرها يمكن توحيدها أو إرجاعها إلى أصل واحد ، وقد بدأت مسيرة التوحيد هذه مع عالم الرياضيات (إسحاق نيوتن)[1] ، الذي وحد بين ظاهرتي الجاذبية الأرضية والجاذبية بين الأجرام السماوية الأخرى ، وصاغ قانون الجاذبية العام .. ثم جاء عالم الفيزياء الإسكتلندي جيمس ماكسويل (١٨٣١م ـ ١٨٧٩م) فوحَّد بين ظاهرتي الكهرباء والمغناطيسية في ظاهرة واحدة سماها (الكهرومغناطيسية) وصاغ لها المعادلات الشهيرة التي ما زالت تحمل اسمه حتى اليوم ، وقد أثمرت هذه النظرية حتى الآن الكثير من الاختراعات ؛ منها اللاسلكي والمذياع والهاتف وغيرها من الاختراعات التي انتقلت بالبشرية نقلة واسعة إلى رحاب عصر الاتصالات الحديثة .

وفي عام (١٩٢٧م) عممت نظرية ماكسويل في النظرية التي عرفت باسم نظرية الإلكتروديناميك الكوانتية أو نظرية الكم (*Quantum Theory*) التي صاغها في مطلع القرن العشرين الفيزيائي الألماني (ماكس بلانك)[2] ، وقد أسفرت هذه النظرية أيضًا عن عدد هائل من المخترعات الباهرة ، في مقدمتها اختراع الترانزستور (*Transistor*) عام (١٩٤٧م) على أيدي العلماء الأمريكيين (والتر براتن ، جون باردين ، وليام شكولي) الذين نالوا عليه جائزة نوبل في الفيزياء عام (١٩٥٦م) ، وسرعان ما أصبح الترانزستور

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) ماكس بلانك (١٨٥٨ ـ ١٩٤٧م) فيزيائي ألماني ، اشتغل بدراسة الديناميكا الحرارية ، ووضع نظرية الكم الشهيرة التي أحدثت ثورة واسعة قلبت الكثير من المفاهيم الفيزيائية التقليدية ، ونال عليها جائزة نوبل في الفيزياء عام (١٩١٨م) .

ـس الأجهزة الإلكترونية الحديثة على اختلاف أنواعها ، فأحدث بذلك ثورة علمية . سعة في دنيا الإلكترونيات !

. في أواخر القرن العشرين أيضًا ، نجح نخبة من العلماء منهم العالم الفيزيائي الباكستاني محمد عبد السلام)[1] بتوحيد القوة الكهرومغناطيسية والقوة النووية الضعيفة في نظرية . حدة أطلق عليها اسم النظرية الكهروضعيفة .



(أشكال مختلفة من الترانزستور ، الذي أصبح أساس الثورة الإلكترونية الحديثة)

وفي أعقاب هذا النجاح الكبير ازداد أمل العلماء بإمكانية جمع ظاهرة التفاعلات ـووية القوية في إطار هذه النظرية المأمولة ، وأطلقوا على النظرية المرشحة لذلك اسم ـظرية الموحدة الكبرى (*Grand Unification Theory*) أو نظرية كل شيء (*Theory Of Everything, TOE*) ، ويفترض في هذه النظرية حين إنجازها أن تمثل ـتعبير الموحد والرائع رياضيًّا عن كل القوى الفاعلة في الكون ، من القوى التي تحافظ على بقاء الأرض في مدار منتظم حول الشمس ، إلى القوى التي تقي نوى الذرات من الانفجار الداخلي على نفسها ، ووفقًا لمقولات فيزيائيين كثيرين فإن هذه القوة العليا

محمد عبد السلام (١٩٢٦م - ١٩٩٦م) : عالم فيزياء باكستاني ، حصل على الماجستير في الرياضيات من جامعة ـاهور ، ودبلومين في الرياضيات المتقدمة والفيزياء من جامعة كامبريدج ، منح أوسمة عالية ومراكز فخرية من ـعين جامعة عالمية ، واختير عضوًا في معهد الدراسات العليا في برنستون الذي لا يعطى عضويته إلا كبار العلماء ، . في عام (١٩٧٩م) حصل على جائزة نوبل في الفيزياء مشاركة مع العالمين ستيف واينبرج وجلاشو .

الموحدة ستكون حسب تعبير أحد المزاولين المتميزين (منبع الوجود كله) [١] ، وهكذا يبدو جليًّا أن السنن الإلهية التي تنتظم الوجود كله تشكل حلقة واحدة تحركها يد الخالق العظيم .





(من اليمين : جيمس ماكسويل ، ماكس بلانك ، محمد عبد السلام ، من أوائل علماء الفيزياء النظرية الذين عملوا على توحيد القوانين التي تحكم القوى الأساسية في الطبيعة)

ونظرًا لأن الإنسان هو الخليفة وحامل الأمانة في هذا الوجود فقد أودع اللهُ ﷻ في أبي البشرية آدم ﷺ العِلْمَ بحقائق هذا الوجود من غير تحديد ولا تعيين ، كما نستشف من قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] ، وقد ورث البشر هذا الاستعداد الفطري للعلم والتعلم عن أبيهم آدم ﷺ ، وراحوا بهذا الاستعداد يكتشفون من أسرار الوجود وسننه ما مَكَّنَهُم من السيطرة على الكثير من مخلوقاته وظواهره ، ولولا أن جعل الله فيهم هذا الاستعداد الفطري لظلوا عاطلين عن الفعل الحضاري ، ولما كان حالهم اليوم بأحسن من حال بقية المخلوقات الحية الكثيرة التي تشاطرهم العيش في هذا الوجود ولكنها لم تستطع على مدار تاريخها الطويل الذي يبلغ ملايين السنين أن تغير شيئًا من أحوالها ، بينما استطاع البشر أن يغيِّروا وجه الأرض ، وراحوا يستعدون بِهِمَّةٍ ونشاطٍ لتغيير وجه الكواكب والنجوم والمجرات البعيدة على الرغم من أنهم أتوا هذا الوجود في آخر القافلة .. ولله في خلقه شؤون !

● ● ●

(١) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب : الثقافة العالمية ، (ص ١٩٣) ، العدد (١١٦) ، الكويت (٢٠٠٣م)

الفَصلُ الثَالِثُ

سمات التاريخ

- **التاريخ هو الترجمة الفعلية لسنن الله في الخلق .**

ذكرنا في الفصل السابق أن القرآن الكريم كان سباقًا إلى بيان أن مسيرة هذا الوجود تخضع لنظام سنن إلهي صارم ، وقد قدَّم لنا القرآن الكريم خلاصة وافية عن أهم السنن التي تحكم مفردات هذا الوجود ، ومن ثم تحكم مسار التاريخ ، وما دام الأمر كذلك فليس غريبًا إذًا أن يكون الباحثون المسلمون هم أول من تنبه لهذه الظاهرة وعرضوها عرضًا مستفيضًا في العديد من مصنفاتهم ، ويأتي في مقدمة هؤلاء الرواد العلامة ابن خلدون الذي أسس (علم التاريخ) من خلال إبحاره العميق في رحاب القرآن الكريم ، ومطالعاته الواسعة في كتب التاريخ والروايات والسِّير ، وقد أتحف مكتبة الفكر التاريخي والاجتماعي برائعته الفريدة (المقدمة) التي عرض فيها الكثير من السنن التي تحكم التاريخ عرضًا مفصلًا يدل على إدراك عميق لهذه الظاهرة ، أمَّا الباحثون الغربيون فلم يبدؤوا الحديث عن هذه الظاهرة إلا في القرن التاسع عشر ، أي بعد ابن خلدون بأكثر من خمسة قرون [1] .

لقد كانت كتب التاريخ قبل ابن خلدون تضم جملة من الروايات التي لا رابط بينها ، فلما جاء ابن خلدون رتب هذه الروايات ترتيبًا جديدًا ، وراح يبحث عمَّا يربط بينها من علاقات ، وأخذ يناقشها مناقشة عقلية ناقدة ، فخرج من ذلك كله بفهم جديد للتاريخ والاجتماع البشري لم يسبقه إليه أحد ، وبهذا كان ابن خلدون هو المؤسس الحقيقي لكل من علم التاريخ وعلم الاجتماع ، وممَّا لا ريب فيه أن الفضل الأول في تحقيق هذا الإنجاز العظيم يعود للقرآن الكريم الذي تتلمذ ابن خلدون على قصصه التاريخية ، واستقى منه طريقته الفريدة في التأريخ التي أشرنا إلى جوانب منها في الفصل الأول من هذا الكتاب .

وليس هذا فحسب ، فقد كان لتركيز القرآن الكريم على مفهوم السنن أثر عميق في نشأة الحضارة الإسلامية الأولى وتميزها عن مختلف الحضارات التي سبقتها ، فإن أولئك العرب الذين لم يكن لهم علم ولا معرفة بالسنن الكونية ، جاء القرآن الكريم فدعاهم

---

[1] انظر : د. عماد الدين خليل (التفسير الإسلامي للتاريخ) (ص ١٠٩) ، دار العلم للملايين ، بيروت (١٩٨١م) .

للتفكر في آيات الله المبثوثة في أرجاء هذا الكون البديع في السماوات ، وفي الأرض ، وفي كل مكان ، وقدَّم لهم تلخيصًا وافيًا عن السنن الأساسية التي تحكم مسيرة هذا الوجود ، حتى إذا استوعبوا الدرس وأدركوا أنهم لن يستطيعوا التمكين في هذا العالم إلا من خلال معرفتهم بالسنن التي تحكمه ، تغيرت نظرتهم للكون والحياة تغيرًا جذريًّا ، وأصبحت لديهم قدرة باهرة على تسخير ما في أيديهم ـ على قلة ما كان في أيديهم ـ فانطلقوا في أرجاء الأرض ينشرون رسالة الهدى والتوحيد والرحمة والعدل ، وقد تم لهم هذا الفتح المبين في سنوات معدودات لا تعد شيئًا في عمر الزمان .

وهكذا ، حين يتعمق العقل البشري في فهم سنن الله في الخلق فإنه يصبح أقدر على فهم العالم وتسخيره لصالحه ، وإن من يراقب الأوضاع المختلفة في أرجاء العالم ليدرك دون عناء السبب الحقيقي الذي جعل الدول الصناعية المتقدمة اليوم في مركز الصدارة والقيادة والسيطرة التي يظن معظمنا أنها ترجع إلى امتلاك تلك الدول قوى عسكرية ضاربة ، وموارد اقتصادية طائلة ، وهو ظنٌّ مبني على فهمٍ خاطئ لسنن التاريخ والواقع ، فما كان لتلك الدول أن تحوز القوة العسكرية الضاربة والغنى الاقتصادي الفاحش بغير العلم ، وأول ما يعنيه العلم في هذا السياق هو المعرفة العميقة بسنن الله في خلقه ، وتسخيرها على الوجه الصحيح لتحقيق الأهداف المرجوة .

الملامح الأساسية لتاريخ الوجود :

رأينا في الفصل الماضي أن السنن الإلهية التي تحكم مسيرة هذا الوجود تشكل فيما بينها منظومة متكاملة متداخلة تجعل كل ما في الوجود في تفاعل متبادل مستمر يضفي على تاريخ الوجود ملامح خاصة ، من أبرزها : تشابك الأحداث ، وتطورها المستمر وتغيرها ، وتسارعها المتواصل ، عصرًا بعد عصرٍ ، ويومًا بعد يومٍ ، ولحظةٍ بعد لحظةٍ ، على النحو الذي نفصله الآن :

١ - **تشابك الأحداث** : حين نتأمل أحداث هذا الوجود ، وما جرى فيه عبر تاريخه الطويل نجد أن من أبرز ملامحه تلك العلاقة الوثيقة التي تربط الأحداث بعضها ببعض ، وإنك مهما بحثتَ أو نقَّبت أو فتَّشتَ فلن تجد في هذا الوجود حدثًا منفردًا جرى بمعزل عن بقية الأحداث ، وكأنَّ كل ما جرى منذ بدء الخليقة وحتى اللحظة الراهنة لا يعدو أن يكون حدثًا واحدًا متواصلًا ، بدأ بكلمة الخالق العظيم : « كُنْ » فكان هذا التفاعل المتسلسل

تتواصل من الأحداث التي ظل بعضها يأخذ برقاب بعض على مدار الأيام والسنوات والدهور، حتى صحَّ قول القائلين: (إن الحاضرَ غَرْسُ الماضي والمستقبل جَنْيُ الحاضر) فكلُّ حدث من الأحداث التي شهدها هذا الوجود على مدار التاريخ جاء نتيجة للحدث الذي سبقه، وكان في الوقت نفسه مقدمة للحدث الذي يليه، ولعل هذا ما دفع أحد أكبر الفيزيائيين المعاصرين وهو العالم البريطاني (ستيفن هوكنغ)[1]، إلى القول: (إن حدثًا هيِّنًا في أحد الأماكن قد يسبب تغيرًا رئيسيًّا في مكان آخر، فعندما تخفق فراشة بأجنحتها في طوكيو فإنها يمكن أن تسبب مطرًا في منتزه سنترال بارك في نيويورك)[2].

وعلى هذه الصورة راحت الأحداث تتلاحق عبر الزمان والمكان، حدثًا في إثر حدث، وكأنها انفجار ذري متسلسل راح ينتشر في كل الاتجاهات، ولو قُدِّر لنا أن نرى في وقت واحد كل ما جرى على ظهر هذه البسيطة من أحداث، منذ القِدَم وحتى يومنا الحاضر، لرأينا تلك الشبكة الخفية المعقدة من العلاقات التي تربط الأحداث بعضها ببعض، وعندئذ سوف يتراءى لنا تاريخ البشرية كشجرة عملاقة متشابكة الفروع والأغصان والأوراق، نبتت من تلك الحبة الشهية التي أكلها آدم وحواء في لحظة فريدة من لحظات الضعف البشري .. تلك الحبة التي مازلنا نسدد ثمنها حتى اليوم.

وانطلاقًا من ذلك الحدث الأول راحت الأحداث تمضي قُدُمًا في تفاعل متواصل ظلَّ ينتج المزيد والمزيد من الأحداث الجديدة التي لا تعرف التراجع ولا التكرار، وهذا يعني أن العبارة الشهيرة التي تقول: (إن التاريخ يعيد نفسه) ليست أكثر من عبارة شاعرية لا تَمُتُّ إلى طبيعة التاريخ بأية صلة، اللهم إلَّا إذا أريد بها السنن الإلهية التي تتحكم بمسيرة الأحداث، فما من شك بأن كلَّ ما يجري في هذا الوجود من أحداث يخضع لسنن صارمة لا تتبدل ولا تتحول كما أسلفنا، وهذه السنن قد تتيح الفرصة لوقوع أحداث تتشابه في خطوطها العريضة، وأمَّا الحدث نفسه فلا يمكن أن يستعاد أبدًا؛ لأنه بمجرد أن يقع يكون قد عبر بوابة الحاضر إلى الماضي وأمسى خبرًا في سجلات التاريخ.

---

[1] سبقت ترجمته

[2] ستيفن هوكنج: الكون في قشرة جوز، (ص ٩٩)، ترجمة د.مصطفى إبراهيم فهمي، عالم المعرفة، العدد (٢٩١)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت (٢٠٠٣م).

٢- التَّطوُّر : وتلك السمة من تشابك الأحداث وتفاعلها عبر العصور يضفي على الوجود سمة أخرى هي سمة التطور المستمر الذي لا يعرف التوقف ولا التراجع ، بل يمضي قدمًا إلى الأمام في خط صاعد ، ففي كل يوم ، بل في كل لحظة ، تتغير صورة الوجود ، ويتطور من حال إلى حال ، فالسماوات في بداية خلقها ظهرت في صورة غازية (دخان ، بتعبير القرآن) ثم صارت نجومًا وكواكب وتوابع وأقمارًا ومجرات ، وكذلك مجموعتنا الشمسية وأرضنا التي مرت بتطورات عديدة متلاحقة حتى صارت إلى الصورة التي هي عليها اليوم ، وكذلك الحياة والأحياء التي ظهرت في الأرض ، فقد بدأت جميعها من خلية واحدة (نفس واحدة ، بتعبير القرآن) ثم تناسلت وتوالدت بأمر الله ﷻ ، ونشأ منها أنواع كثيرة لا تعد ولا تحصى من المخلوقات .. وهكذا مضى كل شيء في هذا الوجود على نهج من التطور عبر الأيام والسنين والدهور .

وظاهرة التطور هذه لا تنحصر في العالم المادي وحده ، ولا في الجمادات وحدها ، ولا في ظاهرة الحياة والأحياء فحسب ، بل تمتد لتشمل تطور المجتمع البشري أيضًا ، فهذا المجتمع الذي بدأ برجل وامرأة (آدم وحواء) لم يلبث أن تطور مع الأيام فتشكلت منه العائلة الصغيرة الأولى ، ثم تكونت الأُسَر الكثيرة ، فالعشائر ، فالقبائل ، فالأمم ، حتى أصبح المجتمع البشري اليوم يضم مليارات الأنفس وأكثر من مائتي دولة .

ولم يتوقف المجتمع البشري عند هذا الحد من التطور العددي ، بل دخل في القرن العشرين مرحلة متميزة من التطور الإداري والقانوني والتنظيم العالمي لم يشهد له التاريخ مثيلًا ، وربَّما تعود بداية هذه المرحلة الجديدة إلى العام (١٩١٩م) الذي شهد تأسيس عصبة الأمم (*League of Nations*) في أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م ـ ١٩١٨م) بهدف تنمية روح التفاهم والتعاون بين الأمم ، والحفاظ على السلام والأمن في العالم .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م ـ ١٩٤٥م) تطورت الفكرة فأنشئت هيئة الأمم المتحدة (*United Nations*) في عام (١٩٤٥م) ، بهدف لَمِّ شمل المجتمع البشري كله تحت سقف نظام عالمي واحد بعد أن تفرقت به السبل عبر التاريخ ، وقد أصبح لهذه المسيرة من التطور البشري نحو العالمية (*Universality*) دور لا ينكر في الاستقرار العالمي ، وفي تنظيم العلاقات بين الدول .

ولا يغيِّر من هذه الحقيقة ما يطرأ على هذه المسيرة بين الحين والآخر من انتكاسات أو انكسارات، فالمحصلة الأخيرة تبقى آخر الأمر إيجابية، ويبقى التوجه نحو العالمية أظهر وأقوى من محاولات التشتت والتمزق، ولا يستطيع منصف أن ينكر ما أحرزته البشرية حتى اليوم من تحسن ملموس في التنظيم الإداري والقانوني والسياسي على المستويين المحلي والدولي .. نعم .. ما زالت هناك حروب ومآسٍ وحماقات بشرية ترتكب بين الحين والآخر، هنا أو هناك، إلا أننا حين نقارن الوضع الحالي للمجتمع البشري بالأوضاع التي كان عليها في العصور الماضية، وحتى عهد قريب، نجده قد أحرز تحسنًا كبيرًا يستحق التأييد والمواصلة، وما من شكٍّ بأن هذا التحسن يعود بالدرجة الأولى إلى تلك الدروس البليغة التي أملاها علينا وما زال يمليها هذا المعلم الأكبر .. التاريخ .. على الرغم من أن وعينا بتلك الدروس جاء متأخرًا عدة القرون .. ولنا عودة أخرى لمناقشة مسألة التطور نحو العالمية بالتفصيل في فصل لاحق إن شاء الله تعالى (انظر فصل : آفاق المستقبل).

٣- التسارع : ومن سمات هذا الوجود أيضًا أن الأحداث فيه ظلت تمضي عبر الأيام والسنين والدهور بإيقاع متسارع، يومًا بعد يوم، وعصرًا بعد عصر، ومرحلة بعد مرحلة، وإن من يتتبع الأحداث على مدار التاريخ ليلاحظ هذه الظاهرة بوضوح، سواء منها الأحداث التي تتعلق بالعصور الجيولوجية الموغلة في القِدَم، أو ما يتعلق منها بالتطورات الحيوية (*Biological Developments*) التي تفتقت عنها البذرة الأولى للحياة واستمرت تتطور حتى أثمرت هذا التنوع الهائل من المخلوقات الحية التي تشاطرنا العيش فوق هذا الكوكب، أو ما يتعلق منها بفعل الإنسان نفسه عبر التاريخ، وما أنجزه حتى الآن من وسائل أعانته على تسريع الأحداث، لقد ظلت الأحداث على مرّ العصور تجري بسرعة أكبر فأكبر كما نلاحظ في (الجدول-١).

وقد وردت إشارات صريحة لظاهرة التسارع بطبيعة الكون في أحاديث عديدة منها قول النبي ﷺ : « لا تَقُومُ السَّاعةُ حتَّى يَتَقارَبَ الزَّمانُ، وتكون السَّنةُ كالشَّهرِ، والشَّهرُ كالجمعةِ، وتكون الجمعةُ كاليومِ، ويكون اليومُ كالسَّاعةِ، وتكون السَّاعةُ كالضَّرْمَةِ بالنار »[1].

---

[1] صحيح الترمذي للألباني (١٩٠١)، وصحيح الجامع (٧٤٢٢)، وأخرجه الإمام أحمد بلفظ (كاحتراق السعفة).

(الجدول ـ ١) تسارع الفترات الزمنية للأحقاب التي مر بها الوجود

العصر	تاريخ البداية	الامتداد الزمني (سنوات)
ما قبل الكمبري .	(٢٠٠٠ مليون ق.م)	(٥٠٠ مليون)
الحياة القديمة (عصر اللافقاريات) .	(٥٢٠ مليون ق.م)	(٣٢٠ مليون)
الحياة الوسطى (عصر الزواحف) .	(٢٠٠ مليون ق.م)	(١٣٠ مليون)
الحياة الحديثة .	(٦٥ مليون ق.م)	(٦٠ مليون)
العصر الحجري .	(٢ مليون ق.م)	(٢ مليون)
عصر الحديد .	(٩٠٠٠ ق.م)	(٥٠٠٠)
الثورة الصناعية .	(١٧٦٠م)	(٢٠٠)
الكهرباء .	(١٩٠٠م)	
الذرة .	(١٩٤٥م)	في عام (١٩٦٣م) عصر استخدام الطاقة الذرية في الأغراض السلمية .
عصر الكمبيوتر والذكاء الاصطناعي .	(١٩٨٠م)	؟
عصر القنوات الفضائية .	(١٩٩٥م)	؟
؟	؟	؟

وربَّما كان التسارع الذي حققه الإنسان في وسائل مواصلاته خير شاهد على ظاهرة التسارع التي نتحدث عنها ، فقد بقي الإنسان يتنقل فوق هذه الأرض بسرعات بطيئة إلى وقت قريب ، ثم بدأ خط التسارع يرتفع بحدة إلى الأعلى حتى وصل اليوم إلى سرعات مذهلة ما كان الإنسان ليحلم بالوصول إليها كما نرى في (الجدول ـ ٢).

وقد بلغ هذا التسارع في أواخر القرن العشرين حدًّا مذهلًا أصاب الكثيرين بالدوار ، وأصاب آخرين بصدمة نفسية عنيفة شلت تفكيرهم ، وعطلتهم عن الحركة ، وأخرجتهم من الحلبة إلى مقاعد المتفرجين ، وبخاصة منه ذلك التسارع المحموم في ميادين العلم المختلفة الذي راح مع كل طلعة شمس يفاجئنا بالجديد والغريب والعجيب !

وقد أجبر هذا التسارع المحموم مراكز البحث العلمي والشركات الكبرى وأصحاب القرار أن يتحولوا بأبصارهم إلى المستقبل خشية أن تفاجئهم الأحداث المقبلة بما لم يكن في الحسبان ، فتفشل برامجهم ، وتنقلب مشاريعهم رأسًا على عقب ، وبخاصة منهم أولئك الذين وعوا الدرس الأهم من دروس التاريخ ، وهو أنك بمقدار ما تتمتع به من بُعد نظر

وتخلص مستقبلي دقيق بمقدار ما تجيد توظيف المستقبل لصالحك وتتجنب كوارثه المدمرة الآتية إليك على عجل ، على النقيض من الذين يتجاهلون المستقبل ويُؤْثِرون القيلولة في ظلال الماضي على أمل الفوز ببعض أحلامه التي لن تتحقق ، فإن الضريبة التي سوف يدفعونها هم وذراريهم من بعدهم سوف تتضاعف أضعافًا كثيرة ، وذاكرة التاريخ حافلة بقصص هؤلاء الحالمين الذين يعيشون الماضي في الحاضر ويرفضون التفاعل مع إيقاع العصر ، ثم يكتشفون الحقيقة المُرَّة ، ولكن بعد فوات الأوان .. بعد أن يكون القطار قد فاتهم إلى غير رجعة !

(الجدول ـ ٢) تطور وسائل المواصلات عبر التاريخ

التاريخ	الوسيلة	السرعة (ميل / ساعة)
(٦٠٠٠ ق.م)	الجمال والبغال والحمير .	(٨)
(١٦٠٠ ق.م)	العربة ذات العجلات .	(٢٠)
(١٨٨٠م)	القطار البخاري .	(١٠٠)
(١٩٣٨م)	الطائرة التوربينية ذات المراوح .	(٤٠٠)
(١٩٤٧م)	الطائرة النفاثة .	(٧٠٠)
(١٩٦٥٧م)	مركبات الفضاء .	(١٨,٠٠٠)
(١٩٧٦م)	الصواريخ المعدة للسفر بين الكواكب .	(١٥٠,٠٠٠)

نعم .. إن للماضي سحرًا خاصًا ، وتأثيرًا طاغيًا يجعلنا نَحِنُّ للرجوع إلى ظلاله الوارفة ، بغض النظر عما كان في ذلك الماضي من خير أو شر ، أو سعادة أو شقاء ، وهذه نزعة فطرية مغروسة في الطبيعة البشرية لا ننكرها ولا نستغربها ، بل نعتقد أن لا قدرة للإنسان على الفكاك التام من أسرها ، لكننا نرى في الوقت نفسه أن نزعة الحنين إلى الماضي لا يجوز أن تتوقف بنا عند الحنين وحده ولا يجوز أن تغرقنا بأحلام اليقظة التي تُخَيِّل لنا أن الزمن يمكن أن يتوقف عند لحظة معينة ، أو أن الماضي يمكن أن يعود إلينا أو نعود إليه ، فذلك ماضٍ قد مضى وانقضى وأمسى خبرًا في ذمة التاريخ ، ولن يفيدنا في شيء إلّا بمقدار ما يمنحنا من نفحة روحية قوية تساعدنا على المواصلة نحو مستقبل أفضل (انظر فصل : آفاق المستقبل) .

٤- التغير : وهو يعني أن السمات الثلاث التي ذكرناها للوجود ، من تشابك الأحداث وتطورها وتسارعها ، لا تعمل منفصلة بعضها عن بعض ، بل هي في تفاعل مستمر يشبه التفاعلات الكيميائية النشطة التي تبدأ باختلاط عناصر بسيطة وتنتهي بإنتاج مركبات في غاية التعقيد ، فكذلك بدأ هذا الوجود بأمر الله ﷻ من عناصر بسيطة جدًّا هي البروتونات والنترونات والإلكترونات ، ثم الدخان والماء ، وانتهى إلى هذا التنوع المذهل في المخلوقات والظواهر العظيمة التي تحيِّر الألباب !

وهذا التفاعل النشيط ما بين السمات الثلاث هو الذي يضفي على الوجود سمة الحياة ، ويجعله أشبه بالجسد الذي يمور بالحياة والنمو والتجدد والتغير والتطور ، وقد وصلت معدلات النمو والتجدد والتغير في هذا الجسد الكوني خلال العقود القليلة الماضية إلى حد مذهل من التسارع بات يهدد بانقراض كل الذين فقدوا القدرة على التكيف مع هذه التغيرات ، وتنبئنا سجلات التاريخ أن كل الذين حاولوا في الماضي العصيان أو التمرد على سنة التغيير قد حُنِّطوا وأُرسلوا إلى متاحف التاريخ حيث الظلمة والبرودة والنسيان ؛ ولهذا السبب نجد القرآن الكريم ينحي باللائمة على الذين رفضوا التغير والتكيف مع العصر الجديد حتى وإن كان في صالحهم ، متذرعين بالمحافظة على تراث الآباء والأجداد رافعين شعارهم المفضل ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

ويذكرنا القرآن الكريم في أكثر من آية أنَّ سنة التغير هي إحدى السنن الإلهية المطردة في هذا الوجود ، وأنَّ من عاندها كسرته وإن كان مؤمنًا ، وهذا ما يحتم علينا أن نعي طبيعة العصر الذي نعيش فيه ، وأن نتفاعل معه تفاعلًا إيجابيًّا مستجيبين لتغيراته ، وإلَّا كان مصيرنا الكسر ، وبخاصة بعد هذه التغيرات العميقة المتسارعة التي طرأت على الدنيا في العقود الأخيرة ووضعت العالم على مفترق طريقين لا ثالث لهما ، أحدهما ينتهي بالخروج من حلبة التاريخ إلى غير رجعة ، والآخر يتجه بقوة نحو المستقبل بكل ما ينطوي عليه المستقبل من تحديات ومفاجآت وأحلام ، وربَّما كنا ـ نحن المسلمين ـ أحوج أهل الأرض اليوم لأن نعي هذه الحقيقة قبل فوات الأوان ، فقد باتت الشقة بيننا وبين العصر أوسع بكثير مِمَّا نظن ، وإنَّ أخشى ما نخشاه أن يأتي علينا يومٌ ننفصل فيه عن العالم ، نحن المكلفين بالشهادة عليه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وحتى لا نقع في هذا المأزق المصيري يجدر بنا أن نكون واعين تمامًا لمهمتنا في هذه الحياة ، مدركين تمام الإدراك طبيعة العصر الذي نعيش فيه ، علمًا بأن الإشكالية هنا لا تنحصر فقط بحجم التغير الذي طرأ على العالم في القرن الأخير ، بل ترتبط أيضًا بتسارع هذا التغير ، فقد أكدت مختلف البحوث التي أجريت في ميادين العلم المختلفة أن جيلنا الحالي قد شهد من التغيرات ما يعادل أو يفوق كل التغيرات التي طرأت على الدنيا منذ بدء تاريخ البشري وحتى ولادة جيلنا الحاضر ، وكأن جيلنا قد ولد في منتصف التاريخ ، وهذا ما يحتم علينا التفاعل الإيجابي مع روح العصر ، والتخطيط بعقلية بعيدة النظر لمواجهة التحديات المستقبلية الكبيرة التي لن تلبث أن تفاجئنا على الأبواب ، وهذا ما سوف نعود للحديث عنه بالتفصيل في فصل آفاق المستقبل .

***

الفصل الرابع

تاريخ الكون

- في كتاب أسرار الطبيعة اللانهائية بإمكاني قراءة القليل !

شكسبير (أنطونيو وكليوباترا)

- إن الكون يبدو مثل التربة الغنية التي تنتشر في كل ما حولنا جاهزة لبذرة العقل حتى تبرعم وتنمو !

عالم الفيزياء الأمريكي فرايمان دايسون (اللانهائية في كل الاتجاهات)

- كل شخص يأخذ الحدود التي يراها في الأفق باعتبارها حدود العالم بأكمله .

الفيلسوف الألماني شوبنهاور

بعد تأمل طويل ، ورحلة تأملية علمية غنية في رحاب هذا الكون الشاسع ، كتب الفيلسوف الفيزيائي الفرنسي (جان غيتون)[1] ، معبرًا عن دهشته العظيمة مما رأى ، بلغة شعرية ترتقي إلى درجة الاندماج الصوفي بأعماق الكون ، فقال : (إن الكون ليس فقط أكثر غرابة مما نظن ، بل هو أغرب بكثير مما يمكن أن نظن ، ثم .. لماذا هناك شيء بدلًا من لا شيء ؟ ولماذا وجد الكون ؟ ماذا حدث في مستهل الأزمنة حتى ولد كل ما هو موجود اليوم ؟ كل هذه الأشجار ، هذه الأزهار ، هؤلاء المارة الذين يسيرون في الشارع كأن شيئًا لم يكن ؟ ما القوة التي منحت العالم الأشكال والصور التي يرتديها اليوم ؟)[2] .

وكم تمنيتُ لو أن هذا الفيلسوف قد اطلع على ما ورد في القرآن العظيم عن مكنونات هذا الكون ليجد الأجوبة الشافية عن الأسئلة التي حيرته ، والمشاهد التي أدهشته ، فالقرآن الكريم يقرر في العديد من آياته أن الكون الذي نعيش فيه ليس مخلوقًا أزليًّا كما يزعم أصحاب النظريات الفلسفية المادية ، وكما يدعي الملحدون في الماضي والحاضر ، بل الكون مخلوق ظهر إلى الوجود في لحظة محددة قبل أحقاب من الزمان بعيدة جدًّا.. فكيف

---

[1] جان غيتون : فيلسوف فرنسي ، ولد في مطلع القرن العشرين ، تتلمذ على الفيلسوف برغسون ، ويعد من أشهر الفلاسفة المسيحيين في العصر الحديث ، عمل مدرسًا في الأكاديمية الفرنسية لسنوات طويلة ، واشتغل بصورة خاصة بقضية الحياة والموت ، وقضايا الوجود .

[2] انظر كتابه (الله والعلم) تعريب د. خليل أحمد خليل ، دار عويدات الدولية ، بيروت ، باريس (١٩٩٢م) .

ظهر هذا الكون إلى الوجود أول مرة ؟ وكيف كانت بدايته ؟ وكيف ستكون نهايته إن كان ثمة نهاية ؟ وهل تعني نهايته عبثية وجوده ؟ أم هناك حياة أخرى وكون آخر سيظهر إلى الوجود بعد اندثار الكون الأول ؟ أم ماذا ؟!

ولادة الكون :

ويُصَوِّر القرآنُ الكريم في آيات عديدة ، وبكثير من التفصيل الدقيق ، تلك الطريقة الطويلة التي مرَّ بها الكون من العدم حتى صار على الصورة التي هو عليها اليوم ، ويصور القرآن الكريم أن الكون في البداية كان على هيئة دخان أو غاز لا شكل له ، ثم أخذ يتشكل شيئًا فشيئًا ممتثلًا لأمر الله ﷻ الذي وصف تلك اللحظات الحاسمة بقوله تعالى عن نفسه العَليَّة : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١] ، وهكذا بدأت تظهر النجوم والكواكب والمجموعات الشمسية والمجرّات والمخلوقات الحية وغير الحية .

ويقدِّر العلماء أن هذه الأحداث الكونية الحاسمة بدأت قبل (١٥ ـ ٢٠ مليار سنة)[١] ، بانفطار عظيم (*Big Bang*) أعلن بصوت مجلجل عن ولادة الكون من نقطة ما ، في مكان ما ، من هذا الوجود ، بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا ، أي أنَّ الكون بنص القرآن الكريم قد خلق من العدم ، وما دام قد خلق من العدم فلا بد أن يكون له خالق مدبِّر هو الذي أصدر أمره بخلقه وظهوره على هذه الصورة ، وقد اعترف العديد من العلماء بعد بحوث طويلة وتأملات عميقة أن الكون بدأ فعلًا من العدم !

ومن العلماء الذين حاولوا تصوير لحظة التكوين الأولى عالم الفيزياء الفرنسي جان غيتون الذي كتب يقول : (ولو تمكن شخص ما من مشاهدة الكون في تلك اللحظة لرأى أن تلك النقطة لم تكن سوى حقل قوي لا يشتمل بَعْدُ على أدنى جزيء مادي)[٢] .

ومنهم أيضًا عالم الفيزياء النظرية البريطاني (فرانك كلوز) الذي كتب يقول : (لقد انبثق الكون من لا مكان فيما يسمى الانفجار الكبير ، منذ ما يقرب من ١٠ ـ ٢٠ بليون

---

(١) انظر مقالة (*How Old Is It ?*) في مجلة الجغرافيا العالمية (*National Geographic, Sep 2001*) وأيضًا موسوعة (*Guinness*) ترجمة مؤسسة نوفل ، بيروت (١٩٨٧م) ، (ص ٧١) . وانظر كتاب : قصة نشوء الكون ، (ص ٤٥ - ٤٩) ، د. مخلص الريس ، د.علي موسى ، دار دمشق للطباعة والصحافة والنشر (١٩٩٠م) .

(٢) جان غيتون : الله والعلم ، (ص ٣١) ، مصدر سابق .

سنة ، والمادة التي تملأ السموات الآن ، وتمتد إلى أبعد من أي حدود يمكن أن تصل إليها قوى التليسكوبات التي حدقنا من خلالها حتى الآن ، هذه المادة كانت في تلك اللحظات الأولى محتواة في كرة صغيرة جدًّا حتى إنه يمكنك أن تتصور أنها كانت كلها مضغوطة خلال النقطة التي في نهاية هذه الجملة)"[1] .

وليس لدى الفيزيائيين حتى اليوم أدنى فكرة عما يمكن به تفسير ظهور الكون من العدم ، وغاية ما أمكنهم الرجوع إليه هو الجزء الأول من الثانية الأولى للخلق ، وهذا الجزء الذي استطاع العلماء أن يرجعوا إليه من خلال دراساتهم ومعادلاتهم الرياضية النظرية يقترب من لحظة الصفر فهو لا يزيد عن (١٠ ‾ ⁴³ ثانية) أي جزء من الثانية مقسومًا على الرقم واحد وإلى يمينه (٤٣ صفرًا) وهو بلا ريب زمن قصير جدًّا لا يمكن للعقل البشري أن يتصور مدى ضآلته !



(صورة متخيلة للانفطار العظيم الذي أسفر عن ولادة الكون)

وقد اعترف العلماء أنهم مهما حاولوا فإنهم لن يستطيعوا أن يتصوروا أو يتخيلوا ما الذي كان موجودًا أو ما الذي حدث قبل هذا (الزمن الصفر) ؛ ولهذا افترضوا وجود حاجز وهمي يحجبهم عما حدث في لحظة الخلق الأولى ، وأطلقوا على هذا الحاجز الوهمي اسم (جدار بلانك) نسبة للعالم الفيزيائي (ماكس بلانك)"[2] ، الذي صاغ هذه الفكرة بعد أن عجز عن تفسير ما حدث قبل تلك اللحظة عندما كانت قوة الجاذبية بين

---

(1) فرانك كلوز : النهاية .. الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون ، (ص ٢٣٩) ، ترجمة د.مصطفى إبراهيم فهمي المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (١٩١) ، الكويت (١٩٩٤م) .

(2) سبقت ترجمته .

الجسيمات الأولية على أشدها ، ويعترف العلماء بكثير من الحسرة والعجز أنهم لا يدرون ولا أمل عندهم أن يدروا شيئًا عن القوانين التي كانت سائدة وقتذاك لأنها قطعًا غير القوانين التي سرت في الكون بعد ذلك ، وقد اعترف بلانك بنبرة مهزومة كسيرة أمام حقيقة الخلق المعجز ، فكتب يقول : (إنَّ وراء ذلك الجدار يَسُود السِّرُّ الكُلِّيُّ)[1] ، وهذا بلا ريب اعتراف ضمني من هذا العالم الكبير بوجود الخالق الذي أصدر في تلك اللحظة الحاسمة أمره للكون ، فكان ، وذلك بفعل (قوانين الخلق) التي يتفرَّد بها الخالق ﷻ ، ويعجز العلماء لا عن معرفتها فحسب ، بل أيضًا عن مجرد تصورها .. فتأمل !

ومن الطريف أن نقرأ هنا هذه السطور للعالم الفيزيائي والفيلسوف الفرنسي جان غيتون لنرى كيف يراوغ بعضهم فيهرب إلى اللغة والرموز في محاولة مكشوفة للهروب من الاعتراف بحقيقة أن هذا الكون ما كان له أن يقوم على هذه الصورة المعجزة من غير خالق ، يقول غيتون : (قبل زمن بلانك ، لم يكن يوجد شيء ، أو بالأحرى كان هناك عهد الكل اللازمني ، عهد الكمال التام ، التوازي المطلق ، وحدة المبدأ الأصلي كان هناك ، في العدم ، قوة لا متناهية ، لا محدودة ، بلا بداية ولا نهاية ، وفي تلك اللحظة الأولى ربَّما لم يكن في نية تلك القوة الخارقة القادرة المفردة بذاتها ، قوة التآلف والكمال ، أن تخلق أيَّ شيء كان ، إنها قوة تكفي ذاتها بذاتها)[2] .

وهذه الأوصاف التي ذكرها غيتون ويذكرها كثيرون غيره من العلماء تحمل في ثناياها الكثير من التلميحات ، والإشارات التي تقترب قليلًا أو كثيرًا ممَّا وَصَفَ اللهُ ﷻ به ذاته العلية في كثير من الآيات « هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ .. والظَّاهِرُ والبَاطِنُ .. له مقاليد السموات والأرض.. المُهَيْمِنُ.. الجَبَّارُ .. الخالِقُ.. البارئُ.. المصوِّرُ.. الغنيُّ.. وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ .. » إلى آخر الأوصاف العلية التي تليق بجلاله وعظمته سبحانه .

وهذا التقارب بالأوصاف بين ما توصل إليه العلم وبين ما جاء في القرآن الكريم يدل دلالة قاطعة على أن كبار العلماء لم يجدوا مفرًّا في النهاية من الإقرار بوجود خالق لهذا الكون ، هو الذي قدَّر ظهوره على هذه الصورة ، وفي هذا الزمن ، وضمن هذه المواصفات

---

(١) جان غيتون : الله والعلم ، (ص ٣٤) ، مصدر سابق .

(٢) المصدر السابق .

والمتواقين ، وفي هذا أيضًا دليل دامغ على أن كل الدعاوى السابقة التي قال بها (الدهريون)[1] عن قِدَم العالم (Eternity) وأزلية الكون ، وإنكار وجود الخالق العظيم ، ما هي إلا أوهام وحجج واهية لا تقوم على أي دليل علمي صحيح .

ونعود إلى قصة خلق الكون ، فنجد أن ذلك الانفطار العظيم الذي أعلن عن ولادة الكون قد أعقبه أحداث كونية عنيفة متقلبة متلاحقة سريعة ، يعجز العقل البشري عن إدراك عظمتها ، لا سيما وأنها جرت في زمن قياسي ضئيل جدًّا لا يكاد يساوي شيئًا في عمر الزمان كما قدمنا ، وقد صوَّر القرآن الكريم تلك الأحداث المذهلة أبلغ تصوير بقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، ولا نجد تعبيرًا أبلغ ولا أدق ولا أصدق من هذا التعبير القرآني عن حالة (الفتق) الرهيبة التي مرَّ بها الكون في لحظات مخاضه الأول ، فإنه بعد أن كان عدمًا تحقق فجأة وامتد وتباعدت أجزاؤه بعضها عن بعض حتى بلغ امتداده أبعادًا سحيقة جدًّا في الفضاء خلال زمن قصير مثل لمح البصر ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] ، وقد قدَّر العلماء سرعة التوسع هذه بأكثر من مليون المليون مرة من سرعة الضوء ، فهل هناك أبلغُ أو أدقُّ من التعبير بالفتق عن هذه الحالة ؟ (الجدول ـ ٣) .

وتؤكد آيات القرآن الكريم كما يؤكد علماء الفلك أن لحظة الفتق تلك ما زالت ماضية بلا توقف حتى يومنا الحاضر ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] ، فالكون ما زال يتوسع ويكبر ويمتد في جميع الاتجاهات ، ويقدِّر علماء الفلك أن الكون يمتد حاليًا لأكثر من ١٠٠ مليار سنة ضوئية ، علمًا بأن الضوء يقطع في الثانية الواحدة مسافة (٣٠٠,٠٠٠ كلم) أي إن السنة الضوئية تساوي مسافة (٩,٦ مليون المليون كلم) ، وهذا يعني أن قطر الكون الحالي لا يقل عن ($١٠^{٣٠}$ م) أي الرقم واحد وإلى يمينه ثلاثون صفرًا ، وهو امتداد شاسع جدًّا يعجز العقل البشري عن تصوره ، ناهيك عن الإحاطة به .

---

(١) الدهريون (Atheists) : هم الذين يقولون بقِدَم الدهر ، ويزعمون أن العالم لم يزل موجودًا من الأزل ، وأنه أوجد نفسه بنفسه من دون صانع مدبر عالم قادر ، وقد أطلق وصف (الدهرية) في العصر الحديث على المذاهب الفلسفية المادية الإلحادية التي لا تؤمن بالخالق سبحانه وتعالى .

ويقدر العلماء أن الكون المرئي يشكل فقط (٤٪) مما خلفه الانفطار ، أمّا ما تبقى ليشكل (٢٦٪) منه من مادة سوداء باردة ، و (٧٠٪) طاقة معتمة تتكون من الجسيم الأولي الذي يسمى نترينو (*Neutrino*) ذي قوة الاختراق الهائلة ، فهو قادر على اختراق كوكب الأرض من طرفه إلى الطرف الآخر بسهولة تامة [١].

ويقدِّر العلماء أيضًا أن في الكون حاليًا أكثر من (١٠٠) مليار مجرة ، في كل منها (١٠٠ - ٢٥٠ مليار نجم) ، أي إن هناك في الكون أكثر من (١٠ ^٢٢^ نجمًا) أي الرقم واحد وإلى يمينه اثنان وعشرون صفرًا ، منها نجوم عملاقة جدًا لا تعد شمسنا على عظمتها شيئًا مذكورًا أمامها ؛ إذ يصدر بعضها مقدارًا هائلًا من الضوء والطاقة والحرارة يعادل ما تشعه المجرة بأكملها [٢] ، وكأن هذه النجوم مولدات كونية هائلة تمد الكون بما يحتاج إليه من طاقة لكي يواصل رحلة الحياة ، وفي مقابل هذه المولدات الكونية توجد ثقوب سوداء (*Black Holes*) هي أشبه شيء بالقبور التي يدفن فيها الحطام الكوني ، فهي في الحقيقة ليست ثقوبًا فارغة ، بل هي نجوم عملاقة انهارت مادتها إلى الداخل فتكاثفت مكوناتها إلى درجة هائلة ، وتعاظمت جاذبيتها إلى درجة أنها لم تعد تسمح للضوء أن يغادرها ؛ ولهذا تبدو في السماء مظلمة وكأنها ثقوب سوداء ، وهي بسبب كثافتها الهائلة تبتلع كل ما يقع في نطاق جاذبيتها من حطام كوني ، فكلما تحطم نجم أو انهار كوكب أو تفتت قمر ساقته الأقدار إلى تلك القبور ليدفن فيها [٣] .

وليس هذا هو المظهر الوحيد من مظاهر العظمة في خلق الكون ، فما زالت عملية الخلق فيه ماضية على قدم وساق ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص : ٦٨] و ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [فاطر : ١] ، وما زالت تظهر بين الحين والآخر نجوم وكواكب جديدة ، هنا أو هناك ، ففي مجرتنا (درب التبانة) يولد في كل عام ثلاثة نجوم على أقل تقدير [٤] ، فما بالك بمائة مليار مجرة ؟ وكم من النجوم الجديدة تولد كل يوم في هذه المجرات ؟

---

(١) عالم الفكر ، المجلد ٣٥ ، أكتوبر / ديسمبر (٢٠٠٦م) ، (ص ٩٩) .

(٢) انظر كتاب ستيفن هوكنغ : موجز في تاريخ الزمان ، (ص ١٢٠) ، مصدر سابق

(٣) المصدر السابق .

(٤) رزق وجلبي : الإيمان والتقدم العلمي ، (ص ١٤) ، دار الفكر ، بيروت ودمشق (٢٠٠٠م) .

وليس هذا هو كل شيء أيضًا ، فالعلماء يؤكدون أن كوننا المرئي ليس هو كل ما في هذا الوجود ، بل هناك إلى جانب الكون المرئي كون آخر غير مرئي يطلق عليه العلماء وصف المادة المظلمة (*Dark Matter*) وهو يشكل (٩٠٪) من الكتلة الإجمالية لهذا الوجود ، وما زال هذا الكون الخفي يشكل لغزًا غامضًا لعلماء الفلك الذين يؤكدون أن كوننا المرئي لا يمكن له أن يقوم في غياب ذلك الكون الخفي ، وهذا يعني أن العالم الذي نعيش في كنفه أوسع بكثير جدًّا مما يمكن أن نتصور ، وأن ما غاب عنا منه أكبر بكثير مما هو واقع تحت إدراكنا ، فهل أدركنا ونحن نطالع هذه الحقائق التي توصل إليها العلم مؤخرًا لماذا خصص القرآن الكريم حيزًا واسعًا من آياته للحديث عن عالم الغيب ؟ وهل أدركنا عظمة ما أقسم به الخالق العظيم ﷻ حين قال تعالى :﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة : ٣٨ ، ٣٩] .

ومن حكمة الله ﷻ أن هذا الكون العظيم على رحابته وما فيه من مخلوقات قد سخره كله للإنسان ، هذا المخلوق الضعيف الذي لا يعد شيئًا مذكورًا بالقياس إلى بقية مخلوقات الله العظيمة ، من مجرات هائلة ، ونجوم عملاقة ، وجبال راسيات ، وبحار متلاطمة لا يُدرك غورها ، وحيوانات أشد منه قوة .. وأكثر عددًا !

فما الذي جعلَ الإنسان موضع هذه الحفاوة الإلهية ؟ وما الذي أهله لهذه المهمة التي أثبتت الأيام أنه كان جديرًا بها دون سائر المخلوقات ؟ هذا ما سوف نعرفه بالتفصيل في فصل قادم بإذن الله تعالى (انظر فصل : تاريخ الإنسان) .

نهاية الكون :

إن نهاية الكون ، أو القيامة الكبرى ، مسألة طالما شغلت بال البشر في كل عصر ، وفي كل مصر ، ويكاد معظم الذين تكلموا في هذه المسألة يجمعون على أن للكون نهاية لا بد منها مهما طال به البقاء بينما يذهب قلة من الفلاسفة الماديين إلى أن الكون أزلي أبدي ماضٍ إلى ما لا نهاية !

أمّا آيات القرآن الكريم وكذلك آيات الآفاق التي رصدها العلماء حتى الآن فإنها تدل بصورة قاطعة على أن نمو الكون وتوسعه وامتداده وعمليات الولادة والخلق والتجدد فيه لن تستمر إلى ما لا نهاية ، فقد مضت سنة الله في خلقه أن كل ما في هذا الوجود من مخلوقات صائر إلى الموت والاندثار مهما طال بها المقام مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ

وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٨٨] .

وسوف يأتي على الكون يوم ، قريب أو بعيد ، يكفُّ فيه عن النمو والتوسع والامتداد ، لتطويه كفُّ القَدَر وتعيده إلى ما كان عليه قبل لحظة الخلق الأولى ، كما أخبرنا الخالق العظيم فقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] ، وقد أقرَّت الكشوف العلمية الحديثة بهذه الحقيقة القرآنية وفصَّلتها بالمعادلات والأرقام ، وانتهت إلى أن الكون ما دامت له بداية معروفة ومحددة الزمان فلا بد أن تكون له نهاية ، وأنه كما بدأ بانفطار عظيم (***Big Bang***) فسوف ينتهي بانسحاق عظيم (***Big Crunch***) فيتقلص الفضاء والمادة ليعودا إلى نقطة البداية[1] ، كما عبرت عن هذا الحدث الكوني الفريد الآية المتقدمة من سورة الأنبياء : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ .

وما دام الكون ليس أزليًا بل حادثًا ، فلا بد أن يكون له خالق مدبِّر ، هو الذي قدَّر خَلْقَه وظهوره في ذلك الزمن البعيد على هذه الصورة المعجزة ، وبهذا بَطَلت إلى غير رجعة تُرَّهات الفلاسفة والملحدين والدهريين الذين زعموا أن الكون هو الذي أوجد نفسه بنفسه من غير خالق ، وأن الكون أزليٌّ قديمٌ .. وإنهم ليقولون مُنكَرًا من القول وزورًا .

الزمن المتبقي من عمر الكون :

أما الزمن المتبقي على نهاية الكون فإنه بتقدير علماء الفلك أبعد من أن يستطيع العقل البشري تصوره ، فإذا ما سارت الأمور بسلام ، وتابع الكون مسيرته على النحو المشاهد حاليًا ، واستمر في تمدده ، فإن كل ما في الكون من نجوم سوف تنطفئ في غضون (١٠٠ ألف مليار سنة) أي أضعاف مضاعفة للمدة التي انقضت منذ ولادة الكون وحتى الآن ، وعندئذ تمسي السماء حالكة السواد ، وتمسي المجرات مقابر شاسعة لجثث النجوم ، وبعد حين ستسقط معظم هذه الجثث في قلب المجرة لتغذي ثقبًا أسود مركزيًا هائلًا تفوق كتلته كتلة شمسنا بأكثر من مليار مرة ، بينما تفلت بعض تلك الجثث من سطوة هذا الثقب الرهيب لتتوارى في الظلام الدامس الذي لا يعرف نهايته إلَّا الخالق سبحانه !

---

(١) ستيفن هوكنج : الكون قشرة جوز ، (ص ١٨١) ، مصدر سابق .

وبعد مضي مليار المليار سنة (10^{20} عام) ستكون كل المجرات قد تبخرت ، وحتى نكون فكرة عن هذا الزمن البعيد جدًّا للنهاية المحتملة لهذا الكون دعونا نمثل الـ (١٥) مليار سنة التي انقضت منذ ولادة الكون وحتى اليوم بـ (١ملم) على محور الزمن ، وعندئذ نجد أن نهاية الكون واندثاره عبر الثقوب السوداء تقع على مسافة (١٠,٠٠٠) كلم على محور الزمن ، أي ما يزيد عن المسافة التي تفصل دمشق عن نيويورك .. فتأمل !

وفي غضون (10^{66} سنة) سوف تتبخر جثث النجوم ، وبعد (10^{100} سنة) ستلحق بها الثقوب السوداء نفسها وتتبخر بعد أن تطلق وميضًا هائلًا هو أشبه بزفرة النزع الأخير ، ولا ريب بأن هذا المقياس للزمن بعيد حتى عن أكثر العقول البشرية قدرة على التخيل !

ولكن .. هل تنتهي الحكاية عند هذا الحد ؟ علماء الفلك يقولون : لا ؛ لأن كل ما في الكون من مادة يتكون من ذرات ، وهذه الذرات تتكون من بروتونات ونيترونات والكترونات ، وهي ليست جسيمات أولية ، بل تتكون من جسيمات أولية أصغر منها ، وفي نهاية مرحلة التبخر الكوني لن يحتوي الكون إلا على خليط من هذه الجسيمات الأولية ، مع إشعاعات ذات موجات منخفضة الطول ، وقد تبقى في خضم هذه التحولات بعض الكواكب والكويكبات !

ونظرًا لتمدد الكون فإن متوسط المسافة التي ستفصل بين هذه الأجسام ستكون أكبر بمليارات مليارات المرات من الحجم الكوني الحالي ، وسوف تستمر حرارة الكون وطاقته بالانخفاض دون هوادة ، فتتحول ذرات هذه الأجسام الصغيرة الباردة إلى أشكال أكثر استقرارًا ، وبعد مدة تقدر بـ (10^{1500} سنة) سوف تتحول إلى ذرات حديد ، ثم يعاد تركيبها في شبكات بلورية من النيوترونات ، وهي الحالة الأكثر استقرارًا بينها جميعًا ، ووفقًا لحسابات العالم (فريمان دايسون)[1] سوف تستغرق هذه العملية الكونية (10^{10})^{26} سنة ، وهذا هو أكبر رقم يمكن أن يرد ذكره في علم الفيزياء ، بل ربما في مختلف العلوم ، وفي ذلك الزمن السحيق سوف تتحول تلك الشبكات البلورية إلى ثقوب سوداء صغيرة تتبخر فيما بعد[2].

---

(١) فريمان دايسون : عالم أمريكي معاصر ، متخصص في الفيزياء النظرية ، أستاذ فخري بمعهد الدراسات المتقدمة في جامعة برنستون.

(٢) انظر : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب : الثقافة العالمية ، العدد ١٢٦ ، مقالة (نهاية العالم ، متى ، كيف ، لماذا ؟) (ص ٩) وما بعدها ، الكويت (٢٠٠٣م).

وإننا مع اعتقادنا بأن هذه النهاية التي يصورها العلماء للكون ليست سوى توقعات نظرية ، فإننا نرى في الوقت نفسه أن العلماء ما زالوا يقتربون يومًا بعد يوم من تلك الصور التي رسمها القرآن الكريم لنهاية الكون ؛ ومنها : أن تأتي السماء بِدُخَانٍ مبين يغشى الناس ، وينخسف القمر ، وتتكور الشمس ، وتجمع مع القمر ، وتنفرج السماء ، وتكشط ، وتنشق ، حتى تبدو وردة كالدهان ، ثم تكون كالمهل ، أي المعادن المنصهرة من شدة الحرارة ، وتنكدر النجوم وتطمس وتهوي ، إلى غير ذلك من صور (الانهيار العظيم) الذي سوف يضع حدًا لمسيرة هذا الكون ، ويطوي صفحته للمرة الأخيرة ، ويستبدل الله به كونًا آخر هو أعلم بتفاصيله وبالقوانين التي تحكمه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] ، ويومئذٍ يقضي الله ﷻ بين الخلائق ، ويفتح لهم دار البقاء والخلود ، فإما إلى جنة ونعيم مقيم ، وإما إلى نار وعذاب مقيم ، ويومئذ تبدأ المرحلة الأهم في تاريخ هذا الوجود .

مسيرة الوجود من مبتداه إلى منتهاه
ولادة الكون ← خلق الحياة ← خلق الإنسان ← خطيئة إبليس
← خطيئة آدم ← الطرد من الجنة ← عمارة الأرض
← استعمار الإنسان للأجرام السماوية ← القيامة وخلود البشر في الدار الآخرة.

الحكمة من خلق الكون :

بعد هذه الصورة التي عرضناها لمسيرة الكون ، رُبَّ متسائل يسأل عن الحكمة الإلهية من خلق هذا الكون وما فيه من مخلوقات ما دام مآله في النهاية إلى الموت والاندثار ؟ والجواب نجده في نصوص الكتاب والسنة التي تشير إلى أن الخالق ﷻ قد قدَّر خلق هذا الكون ؛ لكي تتعرف المخلوقات المختلفة على ربِّها الذي خلقها ، وأبدعها ، وصوَّرها ، وتؤدي له واجب الطاعة ، كما قال تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وقال تعالى :﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ

تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، وقاله أيضًا : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [الرعد :١٥] .

وقد أرسل الله ﷻ الرسل والأنبياء إلى الناس مبشرين ومنذرين ؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وأنزل عليهم الشرائع ، وبين لهم القاعدة الأساسية في الاستخلاف في هذا الكون الآيل إلى الزوال ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨ ، ٣٩] ، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها (انظر فصل : تاريخ الأديان) .

(الجدول ـ ٣) المراحل الرئيسة التي مر بها الكون
من لحظة الخلق الأولى حتى اللحظة الأخيرة

الزمن	الحدث	ملاحظات
(10^{-43} ثانية)	الانفطار العظيم .	درجة الحرارة (10^{32} درجة مئوية) .
(١ ثانية)	بدأت الطاقة تتحول إلى مادة وولدت القوى الرئيسة (الجاذبية ، الكهرومغناطيسية ، النووية الضعيفة ، النووية القوية) .	حجم الكون أكبر قليلًا من الحجم الحالي للمجموعة الشمسية .
(١٠٠ ثانية)	تكونت نوى الهيدروجين والهليوم وبعض نوى المعادن الخفيفة .	تباطأت الأحداث كثيرًا .
(٣٠٠٠ عام)	اكتمل تكوين العناصر الكيميائية ، وانتشر الركام الكوني وظهرت بذور المجرات الأولى .	استمرت الحالة الغازية (دخان) ملايين السنين استحم الكون خلالها بإشعاعات عنيفة عاصفة .
(١ مليار عام)	اكتمل تكوين المجرات .	حرارة الكون (٢.٧° درجة مطلقة) وأضحى حجم الكون أصغر قليلًا من حجمه الحالي .
(٨,٤ مليار عام)	ولدت المجموعة الشمسية .	٩ كواكب + ٦١ قمرًا .
(٩ مليار عام)	تعرضت الأرض للرجم بأمطار من الشهب والنيازك والكتل الصخرية - تجمد ما على الأرض لضعف حرارة الشمس - عواصف الأكسجين السام .	أصبح عمر الأرض ٦٠٠ مليون عام .

(٩,٢ مليار عام)	نشأت الحياة من الصلصال .	عمر الأرض ٨٠٠ مليون عام .
(١٢,٩ مليار عام)	ظهرت السلالات الأولى من الإنسان .	عمر الأرض ٤,٦ مليار عام .
(١٠٠ ألف مليار عام)	انطفأت النجوم وكفت عن اللمعان .	السماء حالكة السواد ، والمجرات تبتلع النجوم .
($١٠^{٢٠}$ عام)	تبددت المجرات .	
($١٠^{٦٦}$ عام)	تبخرت جثث النجوم في الثقوب السوداء .	
($١٠^{١٠٠}$ عام)	تبخرت الثقوب السوداء .	يطلق كل منها عند تبخره وميضًا هائلًا هو أشبه بزفرة النزع الأخير .
($١٠^{١٥٠٠}$ عام)	ما تبقى من الحطام الكوني تحول إلى ذرات حديد ، ثم يعاد تركيبها في شبكات بلورية من النيوترونات ، تتحول لاحقًا إلى ثقوب سوداء صغيرة تتبخر فيما بعد .	
($(١٠^{١٠})^{٧٦}$ عام)	النهاية	؟

* * *

الفصل الخامس

تاريخ الحياة

• ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك : ١ ، ٢] .

• وهل يعقل أن تنشأ الحياة مصادفة ؟ إن الدقة التي بها نشأت الحياة أشبه بأن يرسل لاعب الغولف كرته بضربة واحدة عبر الفضاء السحيق لتسقط بالضبط في حفرة محددة على سطح المريخ !

الفيزيائي الفيلسوف إيغور بوغدانوف

• الفناء الحقيقي هو الخوف من الحياة لا الموت .

الروائي نجيب محفوظ (ثرثرة فوق النيل)

لقد كان حديثنا في الفصل الماضي عن نشأة أول ظاهرة في هذا الوجود ، وهي خلق الكون بمجراته ، وشموسه ، ونجومه ، وكواكبه ، وأقماره ، وتوابعه ، وننتقل الآن للحديث عن نشأة الظاهرة الكونية الثانية ، وهي نفخة الروح التي أضفت على الكون صفة الحياة ، وقسمت الوجود إلى حقلين متمايزين ، هما : حقل الجمادات ، وحقل الأحياء .

- فمتى دبت الحياة في هذا الوجود لأول مرة ؟
- وكيف نشأت من الجماد ؟
- وكيف تنوعت المخلوقات الحية كل هذا التنوع المذهل ؟
- وهل الحياة ظاهرة خاصة يتفرد بها كوكب الأرض دون بقية الأجرام السماوية ؟
- أم هناك مخلوقات حية أخرى تشاطرنا العيش في مكان ما من هذا الوجود ؟
- وما هي علاقة الحياة بالموت ؟
- وما هي الحكمة من ذلك كله ؟!

تشير الدراسات الجيولوجية والفلكية الحديثة إلى أن أرضنا التي نعيش عليها ظهرت في الوجود قبل حوالي (٤,٦ مليار سنة) ، لكنها ظلت جلداء قاحلة لا أثر فيها للحياة (٩٠٠ مليون سنة) قبل أن تظهر فيها البوادر الأولى للحياة ، وعلى مدى ملايين أخرى متطاولة من السنين انتشرت فيها مختلف المخلوقات الحية من نبات وحيوان ، وفي نهاية

المطاف توّجت هذه العملية الحيوية بظهور طلائع البشر قبل حوالي (٧ ملايين سنة) من الآن وفق أحدث التقديرات العلمية (انظر فصل : تاريخ الإنسان) .

وهذا يعني أن نشأة الحياة في هذا الوجود حديثة جدًّا إذا ما قورنت بعمر الكون (ولو شبَّهنا مدى الزمان من الانفجار الكبير حتى الوقت الحالي بسنة واحدة فإن الحياة البشرية تكون قد نشأت أثناء آخر نصف ساعة في ليلة رأس السنة الجديدة ، وكل الجنس الذي نحن في قمته قد بدأ فحسب خلال فترة بعد الظهيرة الأخيرة ، وأول الثدييات الرئيسة لم تصل إلا خلال آخر يوم ، وأول الثدييات بعامة نشأت أثناء الأسبوع الأخير ، وأول الحشرات بدأت فحسب أثناء الأسبوعين الأخيرين ، ولم تكن هناك أية حياة في الأرض على الإطلاق أثناء كل الربيع والصيف والخريف ، وأول مخلوق حي من خلية واحدة بدأ ينشأ فحسب في نوفمبر من تلك السنة ، ثم حدث في الأيام الأخيرة من الشتاء تفجر المخلوقات في طبقات وأشكال ، وحين ننظر إلى الكون في هذا الإطار الزمني المضغوط فإننا نرى بصورة درامية كيف نشأت البنيات البيولوجية المعقدة نشأةً سريعةً سرعةً قصوى)[1] .

نشأة الحياة وطبيعتها :

وبالرغم من صعوبة تعريف الحياة وتحديد مميزاتها بشكل دقيق إلا أن سر الحياة يكمن في الهيولى الأولية (*Protoplasm*) التي تعد المادة الأساسية في تكوين الخلية الحية ، وتتركب الهيولى من مركبات عضوية عديدة ، أهمها الأحماض النووية (*Nucleic Acids*) ، والبروتينات (*Proteins*) ، والسكريات أو الكربوهيدرات (*Carbohydrate*) ، والدهون (*Fats*) ، ومن أبرز الصفات التي تميز المخلوقات الحية عن الجمادات مقدرتها على القيام بالعمليات الحيوية (التغذية ، التنفس ، النمو والتكاثر ، الحركة ، الاستجابة للمؤثرات الخارجية ..)[2] .

وقد أخبرنا الله ﷻ في كتابه الكريم أن الماء هو أصل الحياة فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، وقال أيضًا : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [النور : ٤٥] ، وقد دلَّت الشواهدُ العلميَّةُ المؤكدة على أن الماء والحياة صنفان لا يفترقان أبدًا ، فإذا انعدم

(١) فرانك كلوز : النهاية ، الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون ، (ص ٣٠٨) ، مصدر سابق .

(٢) انظر : د.إحسان محاسنة (العلوم الحياتية) ١/ ٢٥ ، دار الشروق ، عمان (١٩٩٢م) .

منه تطعمت الحياة ، ولم يخبرنا الله ﷻ عن الزمن الذي ظهرت فيه الحياة لأول مرة في الأرض ، ولا عن الكيفية التي ظهرت بها ، ولكنه دعانا للبحث فيه فقال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

وقد سار علماء الطبيعة في الأرض ، وبحثوا ونقبوا ودرسوا وعاينوا وقارنوا ، فاكتشفوا أن أنواعًا كثيرة جدًّا من المخلوقات الحية قد ظهرت في الأرض قبل أن يظهر الإنسان بآماد سحيقة ، ووضعوا عدة نظريات لتفسير نشأة الحياة في الأرض نوجزها فيما يأتي [1] :

١- نظرية التوالد الذاتي (*Spontaneous Generation Theory*) : وهي نظرية تزعم أن الحياة نشأت في الكون وما زالت تنشأ بصورة متكررة من مواد غير حية ، واستشهدوا على هذا بما شاهدوه من توالد بعض الحشرات كالذباب وغيره من بعض المواد العضوية كاللحم الفاسد ولكن بعد اكتشاف الجراثيم المجهرية من قبل العالم الفرنسي (لويس باستور) [2] ، في أواخر القرن التاسع عشر ظهر بطلان هذه النظرية بطلانًا نهائيًّا ، فقد أثبت باستور أن الجراثيم تتولد من جراثيم مثلها ، وأن سائر المخلوقات الحية تتولد من مخلوقات حية مثلها ، وأمّا إذا أردنا بالتوالد الذاتي تولد الحياة لأول مرة من الجمادات فهذا صحيح ، وهو ما سوف نُفَصِّلُهُ في النظرية الرابعة (نظرية الخلق) .



(الطبيب الفرنسي لويس باستور ، صاحب الاكتشاف الذي غير نظرتنا لعالم الحياة والأحياء)

---

(١) نقلناها بتصرف عن د. أحمد نبيل أبو خطوة : موسوعة أبو خطوة لعلوم الأحياء والكيمياء الحيوية ، (ص ١٠٠٤) ، وانظر : الثقافة العالمية ، العدد ٩١ (ص ٧٢) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت (١٩٩٩م) .

(٢) لويس باستور (١٨٢٢م - ١٨٩٥م) : عالم فرنسي تخصص في علم الأحياء الدقيقة ، وذاع صيته في العالم لاكتشافه الجراثيم ، وابتكاره طريقة البسترة المسماة باسمه ، وقد قادت تجاربه على الجراثيم إلى اكتشاف دورها في إحداث المرض ، وإلى نبذ نظرية التوالد الذاتي (*Autogenesis*) التي كانت سائدة لقرون طويلة .

٢- النظرية الكونية (*Cosmogonic Theory*) : وهي نظرية تزعم أن الحياة أتت إلى الأرض من كوكب آخر محمولة على أحد النيازك التي ضربت الأرض منذ آماد سحيقة .. إلا أن هذه النظرية لا تصمد أمام النقد العلمي ، وهي غير مقبولة لأسباب كثيرة من أهمها أنَّ المادة الحيَّةَ أثناء رحلتها عبر الفضاء تتعرَّض للدمار بتأثير الأشعة الكونية القاتلة وتقلبات الحرارة الشديدة ، كما أن هذه النظرية لا تفسر كيف نشأت الحياة أصلًا على الكوكب الآخر قبل أن تجيء إلى الأرض محمولة على نيزك .

٣- النظرية الفيزياكيميائية (*Chemical – Physico Theory*) : وهي نظرية تزعم أن الأرض قبل (٢٠٠٠ مليون سنة) كانت محاطةً بجوٍّ مشبعٍ بغازات عضوية ، منها الهيدروجين والأمونيا والميثان وبخار الماء ، وكانت هناك كميات هائلة من الطاقة تتولد من البرق الناتج عن التفريغ الكهربائي بين السحب العظيمة التي كانت تحيط بالأرض ، إلى جانب كميات هائلة من الطاقة التي تتولد من أشعة الشمس ، وقد تضافرت هذه الظروف فيما بينها فنتج عنها مركباتٌ عضويَّةٌ بسيطةٌ كانت هي أصل الحياةِ فيما بعد .. وقد ثبت بطلانُ هذه النظرية أيضًا على أسسٍ رياضيةٍ مفحمةٍ ، فمن المعلوم أن البروتينات هي المركبات الأساسية في مختلف الخلايا الحية ، وتتكون من خمسة عناصر (الكربون ، الهيدروجين ، النتروجين ، الأكسجين ، الكبريت) ويضم كل جزيء بروتيني نحو (٤٠,٠٠٠ ذرة) ولما كان عدد العناصر الكيميائية في الطبيعة حوالي (١٠٣ عنصرًا) فإن العلم الحديث يفند النظريات المادية التي تقول بانضمام العناصر الخمسة المذكورة مصادفةً لتكوين جزيء البروتين ، وحتى إذا تجاهلنا كيف وجدت هذه العناصر الخمسة ابتداءً (؟) ، فإنَّ لنا أن نتساءل ما هي المدة التي تحتاجها هذه العناصر من أجل تركيب جزيء البروتين مصادفة ؟

وقد أجرى العالِمُ الرياضيُّ السويسري (تشارلز يوجين جاي) حسابات معقدة لحساب احتمالات تشكيل جزيء واحدٍ من أبسط البروتينات فتوصل إلى استحالة أن يتشكل هذا الجزيء بالمصادفة على الصورة التي تقول بها هذه النظرية ؛ لأن احتمالات تجمع جزيئات هذا البروتين مصادفة لا تزيد عن فرصةٍ واحدةٍ من عددٍ هائلٍ جدًّا من الفرص يكاد يكون لا نهائيًا ، كما أن حجم المادة اللازمة لتشكيل ذلك الجزيء بطريقة المصادفة يزيد عن حجم الكون كله مليارات المرات ، أما الزمن اللازم لتفاعل الذرات وتشكيل ذلك الجزيء

خفيٌّ بطريق المصادفة ، فهو أطول من عمر الكَون الحالي بمليارات المرات [1] ، وقد قُدِّرَ هذا الزمن بأكثر من (١٠^١٠ سنة) أي أطول من عمر الكون بنحو (١٠٠ ألف مرة) [2] ، فكيف يمكن أن تكون الحياة قد وجدت مصادفة خلال (٤,٦ بليون سنة) التي هي عمر الأرض ؟! ناهيك عن تكوين بقية المركبات المعقدة جدًّا التي تتكون منها الحياة ؟! وناهيك أيضًا عن ملايين الأنواع من المخلوقات الحية التي وجدت في هذه الأرض !

وقد أعاد هذه الحسابات علماء آخرون مرات عديدة ، منهم العالم الألماني (مانفرد إيجن) الحاصل على جائزة نوبل في الكيمياء عام (١٩٦٨م) ، فأثبت أن جميع المياه على كوكبنا غير كافية لتنتج بالمصادفة جزيئًا بروتينيًّا واحدًا ، وحتى لو كان الكون كله مليئًا بمواد كيميائية تتفاعل معًا بصفةٍ دائمةٍ ، فإن عمر الكون (١٣,٥ مليار سنة) لا يكفي لإنتاج أي نوع من البروتين ؛ لأن إنتاجه يحتاج إلى أضعاف مضاعفة من عمر الكون !

وقد حَسَبَ العالم الإنكليزي (ليبتز) [3] ، الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات لتكوين جزيء واحد بسيط من البروتينات ، فوجد أن عددها يبلغ الرقم ١٠ وإلى يمينه ٤٨ صفرًا وهذا يعني استحالة أن تتآزر كل هذه المصادفات لتبني جزيئًا بروتينيًّا واحدًا ، فكيف يمكن أن تؤدي المصادفة لبناء كل هذه الأشكال الحية المعقدة التي ظهرت في الأرض ؟!

وقال العالم الروسي ألكسندر إيفانوفتش بلاندين :

لو أن مليون معمل على الأرض عملت لبضعة ملايين من السنين لتركيب العناصر الكيميائية ، فإن احتمال خلق حياة في أنبوبة الاختبار أمر مستحيل ، وقد حاول هذا العالم على مدى سنوات طويلة (١٩٢٢ ـ ١٩٥٦م) أن يحضر خلية واحدة حية في المختبر فلم يفلح ، واعترف أخيرًا فقال : (لا يمكن أن نخرج حياة إلا من حياة سابقة ، ولا

---

(١) د.خالص جلبي : الطب محراب للإيمان . مؤسسة الرسالة ، بيروت (١٩٨٤م) ، (ص ١٩) (بتصرف) ، وانظر أيضًا كتاب أورخان محمد علي : نظرية التطور ليست ثابتة ، (ص ١٠ ـ ٢٠) ، مطبعة الحوادث (١٩٨٧م) .

(٢) جان غيتون : الله والعلم ، (ص ٥١) ، مصدر سابق .

(٣) جوتفريد ويلهلم ليبتز (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) : فيلسوف وعالم رياضي ألماني ، تتلخص فلسفته بالانسجام الكلي بين عناصر الكون ، وأن فيه وحدة وتعددًا في آن واحد ، وقد سادت في مؤلفاته فكرة التناسق والتفاضل ، ووصف الطبيعة بأنها ساعة الله ، ووصف فعل الخالق ﷻ ـ ولله المثل الأعلى ـ بفعل الساعاتي الحصيف الماهر ، لما رآه من تنظيم دقيق وتوازن محكم في عناصر الوجود المختلفة ، لم يترك ليبتز كتبًا مستقلة ، لكنه ترك الكثير من المقالات والرسائل التي كان يتبادلها مع أصدقائه .

يمكن إخراج الحي إلا من الحي ؛ ولهذا فإنني أعلن عجزي بالرغم من بحثي المستمر خلال ٣٠ عامًا وأنا متفرغ لهذه الغاية) !

وفي عام (١٩٢٩م) صرح كل من العالم لويس دى بروجلى (*Louis de Brogle*) وعالم الطبيعة الفرنسي نوبل لوريت (*Nobel Laureate*) قائلين : إننا لا نستطيع أن نفسر الحياة من خلال معرفتنا الراهنة في علمي الكيمياء والطبيعة .

وقال عالم الأحياء السويسري جانيو (*Guynot*) :

إن على علماء الطبيعة أن يدركوا أننا نحن علماء الحياة قد اجتهدنا في تفسير الحياة بصورة منظمة ، على مدى سنوات طويلة ، إلّا أننا فشلنا ، ونحن بصراحة نواجه قدرة على البناء لا يمكن تفسيرها بواسطة علم الطبيعة ولا علم الكيمياء !

أمّا العالم البريطاني فرانسيس كريك (*Francis Crick*) [1] ، وهو أحد مكتشفي التركيب الكيميائي للحامض النووي (*DNA*) المسؤول عن الصفات الوراثية في الأحياء ، فقد صرح قائلًا :

(يتعين على كل إنسانٍ نزيهٍ مسلّح بكلِّ ما بين أيدينا اليوم من معرفة أن يعلن أنَّ أصل الحياة إعجازٌ متفرِّد ، نظرًا لكثرة الشرائط التي ينبغي توافرها لإبداع الحياة وصنعها) [2] .



(العالم البريطاني فرانسيس كريك)

(١) فرانسيس كريك (١٩١٦م - ٢٠٠٤م) : عالم أحياء بريطاني ، عمل أستاذًا في جامعة كامبردج ، ساهم مع العالم الأمريكي جيمس واطسون في عام (١٩٥٣م) بوضع التركيب الكيميائي للحامض النووي (*DNA*) وهي المادة العضوية المسؤولة عن الصفات الوراثية للمخلوقات الحية ، وقد حاز العالمان على جائزة نوبل في الطب عام (١٩٦٢م) بالاشتراك مع العالم موريس ويلكنز ، كما ساهم كريك باكتشاف الشفرة الوراثية (**Codon**) المكونة من تتابع ٣ نيوكليوتيدات المسؤولة عن بناء حامض أميني معين .

(٢) جان غيترن : الله والعلم ، (ص ٤٨ - ٤٩) ، مصدر سابق .

وهكذا أعلن أساطين العلم الحديث بكل صراحة ووضوح ، وبالمعادلات ، والأرقام ، أن ظاهرة الحياة إعجازٌ متفرّدٌ لا بد له من خالق ، وإذا ما أردنا التمثيل للدقة التي نشأت بموجبها الحياة ، ونشأ الكون ـ ولله ﷻ المثل الأعلى ـ فإن هذه الدقة أشبه بأن يرسل لاعب الغولف كرته ، بضربة واحدة ، عبر الفضاء السحيق لتسقط بالضبط في حفرة محددة على سطح المريخ ، وهذا بلا ريب ضربٌ من المستحيل كما يقول الفيزيائي الفيلسوف المعاصر فيتور بوغدانوف .. فتأمل !

4- نظرية الخلق (*Creation Theory*) : وهي النظرية التي تقول بها كافة الأديان السماوية ، وقد سلّمت بها أخيرًا كافة المشاهدات والدراسات والبحوث العلمية ، ومفاد هذه النظرية أن الحياة لم تنشأ مصادفة كما زعمت النظريات المادية التي أشرنا إليها ، بل نشأت بتقدير الله ﷻ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ [الملك : ٢] ، وفي عام (١٩٥٠م) سأل العالم (أندريه جورج) علماء البيولوجيا والأطباء وعلماء الطبيعة : ما هي الحياة ؟ وكانت جميع الإجابات التي تلقاها حذرة وغير محددة ، ولم تعط جوابًا وافيًا عن ماهية الحياة ، فقد قال العالم بيير لابان (*Pierre Lapin*) : إن نقص معلوماتنا لجعل كل تفسير للحياة أقل وضوحًا في معرفتنا الغريزية بها ، وأجاب العالم جان روستاند (*Jean Rostand*) قائلًا : حتى الآن لا نعرف على وجه التحديد ماهية الحياة ، ونحن لا نستطيع حتى الآن تقديم تعريف كامل دقيق لظاهرة الحياة [1] .

وهكذا نصل إلى الحقيقة التي لا يسع أي عالم منصف أن ينكرها ، وهي أن الحياة واحدة من أسرار الخلق العظيمة التي استأثر الخالق ﷻ بها ، وأنه سبحانه قدّر للحياة أن تنشأ من الجماد ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : ٥] ، وقد شاءت عناية الخالق ﷻ بعد خلق الحياة الأولى من الجماد أن يتوالد الأحياء من الأحياء ، كما هو مشاهد ومعلوم ، وهذا لا ينفي قدرة الله ﷻ أن ينشئ الحياة ثانية من الموات ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : ١٩] ، لكن الظاهر لنا أن المخلوقات الحية بعد أن نشأت لأول مرة من الجماد لم تعد تتوالد وتتكاثر إلّا من مخلوقات حية مثلها ، أما البعث وإعادة الحياة للأموات يوم

---

(١) انظر : علي عزت بيجوفيتش (الإسلام بين الشرق والغرب) .

القيامة فتلك مسألة أخرى لا ريب فيها ، وهي تختلف عن قضية الخلق من العدم التي نحن بصدد الحديث عنها .

تطور الأحياء :

لقد لاحظ العلماء المشتغلون بنشأة الحياة منذ عصور مبكرة أن هناك علاقة وثيقة بين مختلف المخلوقات الحية التي ظهرت في الأرض ، ومال كثير من العلماء للاعتقاد بأن هذه المخلوقات قد نشأت من أصل واحد ثم تفرع فأعطى مختلف أنواع النبات ، والحيوان ، والإنسان ، وقد وضع العلماء نظريات عديدة لتفسير كيفية نشوء هذه المخلوقات بعضها من بعض ، ومن أشهر تلك النظريات نظرية النشوء والارتقاء (*Theory of Evolution*) ، التي شاعت بصورة خاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وهي نظرية لا تبحث في نشأة الحياة نفسها بل تبحث في (كيفية) نشوء المخلوقات الحية بعضها من بعض .

وتزعم نظرية النشوء والارتقاء هذه أنَّ مختلف أنواع المخلوقات الحية ـ ومنها الإنسان ـ قد نشأت عن خلية أصلية واحدة ، ثم أخذت هذه الخلية تتكاثر وتتوالد وينشأ عنها مخلوقات متشابهة أول الأمر ، ومع تعاقب الأجيال بدأت تطرأ على بعض هذه المخلوقات تغيُّرات عضويَّة ، وهذه التغيرات أخذت تتراكم جيلًا بعد جيلٍ عبر عمليات التوارث ، حتى ازدادت الفوارق بين الأصول والفروع ، وبدأت تظهر مخلوقات جديدة أعلى تطورًا من سابقاتها في سُلَّمِ التطور ، وعلى هذا المنوال من النشوء والتغير والتطور والارتقاء ظهرت مختلف أنواع المخلوقات الحية التي كان آخرها وأكثرها رقيًّا وأحسنها خَلْقًا (الإنسان) الذي وصفه خالقه ﷻ فقال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] .

وقد يظن كثير من الناس أن فكرة التطور أو النشوء والارتقاء فكرة مستجدة ظهرت في العصور الحديثة التي شهدت ميلاد عدد من العلوم الحديثة ، مثل علوم الطبيعة والحياة والطب والسلالات البشرية أو الأنثروبولوجيا [1] ، وغيرها من العلوم المعاصرة ، والحقيقة أن الحديث عن التطور العضوي في المخلوقات الحية قديمٌ جدًّا تعود بداياته إلى وقت مبكر

---

(١) الأنثروبولوجيا (*Anthropology*) : علم يدرس الجنس البشري ، وهو علم ينقسم إلى ثلاثة أقسام : أنثروبولوجيا طبيعية تدرس النمو الجسماني للإنسان من ناحية التطور وتشمل علم الأحافير البشرية ، وعلم الأجناس البشرية ، أما الأنثروبولوجيا الاجتماعية فتدرس النظم البشرية الاجتماعية دراسة مقارنة ولا سيما منها المجتمعات البدائية والمتخلفة ، أما الأنثروبولوجيا الثقافية فتدرس عادات الشعوب وتقاليدها وثقافاتها .

جدًّا من تاريخ الفكر البشري ، أي إلى ما قبل ظهور هذه العلوم بآلاف السنين ، وهذا ما يجعلنا نرجِّح أن الذين خاضوا في مسألة التطور ، ولا سيما منهم الفلاسفة القدماء ، قد تنبهوا لهذه الظاهرة من خلال بعض الرسالات السماوية القديمة التي لا نستبعد أبدًا أنها تعرضت للحديث عن هذه الظاهرة أو ألمحت إليها في بعض الكتب السماوية التي لم تصل إلينا .

ولعل من أوائل الذين قالوا بفكرة التطور هم الفلاسفة الإغريق ، ومنهم أمبدوكليس [1] ، وأفلاطون [2] ، وأرسطو [3] ، وغيرهم (فعندما كان أرسطو يطوف ويتجول في حديقته الحيوانية اقتنع بأن من الممكن ترتيب التنوع غير المتناهي في الحياة في سلسلة مستمرة ، لا تختلف حلقة فيها في الأغلب عن الثانية ، ففي كل ناحية سواء في البناء أو نمط الحياة ، والتناسل ، أو التربية ، أو الإحساس والشعور ، يوجد تدرج دقيق وارتقاء من أحطِّ الأنظمة العضوية إلى أسماها ، ومن الصعب أن نفصل في درجات السلم الدنيا بين الحي والميِّت ، ففي الطبيعة نجد أن الانتقال من الحالة الميتة إلى الحالة الحية غامض مريب .. والكثير من الأنواع لا نستطيع أن نطلق عليها اسم نبات أو حيوان ، كما أن من المستحيل تعيين هذه الأنظمة العضوية الدنيا إلى نوعها وفصيلتها ؛ لأنها متشابهةٌ جدًّا .. والحياة قد تطورت باستمرار في تعقيد وقوة ، والطيور والزواحف متقاربة في البناء والتركيب .. والقرد في شكله وسط بين الحيوان والإنسان ..) [4] .

ونلاحظ من خلال هذا العرض المفصل الذي قال به الفلاسفة قديمًا وكأن علماء التطور المعاصرين لم يأتوا في مسألة التطور بأي جديد غير إعادة صياغة النظرية من جديد وتقديم بعض الشواهد المادية عليها !

---

[1] أمبدوكليس (٥٠٠ ـ ٤٣٠ ق.م) : فيلسوف وطبيب وسياسي يوناني ، اشتهر بخفة العقل ، اعتقد أن كل شيء مكون من التراب والهواء والماء والنار ، وأن هذه العناصر ينجذب بعضها إلى بعض بفعل الحب وتتنافر بفعل البغض مما يفضي إلى الحركة الدائمة والتطور في هذا العالم ، ومن طريف ما يروى عن هذا الفيلسوف أنه قفز داخل بركان " أتنا " ليثبت أنه إله ، لكن التاريخ لم يسجل كيف كان هذا الفعل الأحمق سيشكل إثباتًا لادعائه !

[2] سبقت ترجمته .

[3] أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) : فيلسوف يوناني ، أسس مدرسة اللوقيون ، وكان يحاضر ماشيًا فسمي هو وأتباعه (المشاؤون) ، ألف كتبًا كثيرة شكلت دائرة معارف لعصره ، وينسب له تأسيس علم المنطق ، وفلسفة العلم ، وعلم الأخلاق ، والفلسفة السياسية ، وعلم الجمال ، ونظرية البلاغة ، وتصنيف الحيوانات والنباتات ، وعلم الكون ، وعلم الأحوال الجوية ، وعلم الديناميكا ، وعلم السوائل الراكدة ، ونظرية الرياضيات ، والاقتصاد المنزلي ، ما يدل على أنه كان شخصية فريدة ، فلا غرابة أنه كان موضع احترام كبير من معاصريه ، حتى أصبحت فلسفته ينبوع الحقيقة ، وأصبح الناس ينظرون إلى أي شيء يخالفها على أنه ضلال ! .

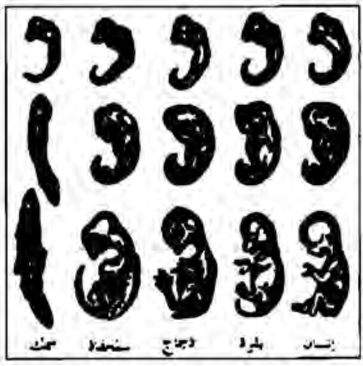
[4] ويل ديورانت : قصة الفلسفة ، (ص ١٠٨) .



(الفيلسوف اليوناني أرسطوطاليس من أوائل الفلاسفة الذين قالوا بالتطور الحيوي)

أما الطرح العلمي الحديث لفكرة التطور العضوي فقد بدأ في أواسط القرن السادس عشر ، نتيجة الدراسات العلمية العديدة التي أجراها العلماء المتخصصون بعلم الأجنة (*Embryology*) ، وعلم تصنيف الأحياء الهرمي (*Hierarchical Classification*) الذي أسسه عالم النبات السويدي كارل لينوس (١٧٠٧م ـ ١٧٧٨م) صاحب التسمية الثنائية للنبات والحيوان ، أي الجنس (*Genus*) والنوع (*Species*) ، فقد أثبت لينوس حدوث تغيرات عضوية طارئة بين أفراد النوع الواحد خلال عمليات التكاثر المتوالية ، ثم جاء عالم الطبيعة الفرنسي جورج لويس بوفون (١٧٠٧م ـ ١٧٨٨م) الذي أثبت من خلال دراساته في التشريح المقارن للفقاريات أنّ استعمال الحيوان لبعض الأعضاء أو إهماله لها يؤدي مع مرور الزمن إلى تغييرات ثابتة في هذه الأعضاء ، وأن هذه التغيرات تتوارثها الأجيال التالية عن آبائها وأجدادها .

ثم جاء عالم الأحياء الفرنسي جين بابتيست لامارك (١٧٤٤م ـ ١٨٢٩م) صاحب أول نظرية حديثة واضحة في التطور عند الحيوانات اللافقارية ، فقال بتوارث الصفات المكتسبة ، أي إن المخلوق يمكن أن يكتسب بعض الصفات الجديدة تحت تأثير عوامل البيئة المحيطة به ، وأن هذه الصفات المكتسبة تنتقل فيما بعد إلى ذريته بالتوارث .



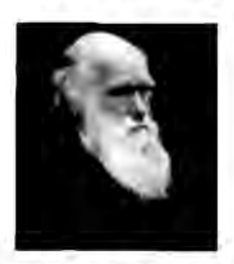
(صور تبين تشابه التطور لبعض الفقاريات والثدييات ومنها الإنسان خلال فترة الحمل ، ويوحي هذا التشابه الكبير في مراحل التطور بأن نشأة هذه المخلوقات المختلفة يمكن أن تكون واحدة)

ثم جاء الشاعر الألماني يوهان فولفانج فون جوته (١٧٤٩م ـ ١٨٣٢م) الذي أولع بالعلوم الطبيعية بعد أن قدم روائعه الشعرية المعروفة ، فاكتشف عَظْمة في جسم الإنسان لم تكن معروفة لدى المشرحين حتى ذلك الوقت ، هي (العظمة البيحكمية) التي يوجد مثيل لها في بعض الحيوانات الفقارية القريبة من الإنسان في تكوينها التشريحي ، فدعم بهذا الكشف نظرية التطور ، كما أنه من خلال مشاهداته وملاحظاته وتجاربه على تكاثر النباتات المزهرة قدَّم تفسيرًا جيدًا حول كيفية تطور الأجزاء الزهرية من أوراق النبات ، ولم يلبث عالم النبات النمساوي جريجور جوهانز ماندل (١٨٢٢م ـ ١٨٨٤م) أن قدم دلائل عملية أخرى على توارث الصفات الوراثية الطارئة بين الأجيال المتعاقبة من خلال تجاربه المستفيضة على نبات البازلاء ، وبهذا اكتملت قوانين التوارث الطبيعي التي سميت فيما بعد باسم (قوانين ماندل) تقديرًا لأعمال هذا العالم الكبير .

وأخيرًا جاء عالم الطبيعة البريطاني (تشارلز داروين)[1] ، الذي وضع أول نظرية

[1] تشارلز روبرت داروين (١٨٠٩ – ١٨٨٢) : عالم طبيعة إنكليزي ، هو حفيد العالم أرازموس داروين ، وابن الطبيب روبرت داروين الذي دفعه لدراسة الطب على الرغم من عدم ميله لهذه المهنة ؛ ولهذا فإنه ما أن أنهى دراسة الطب حتى انحاز لدراسة العلوم في كمبردج ، وشغف بالتاريخ الطبيعي ، وسنحت له الفرصة للقيام برحلة علمية دامت خمس سنوات على متن الباخرة (بيجل) فكانت سببًا في بداية الاكتشافات التي قادته لوضع نظريته في التطور ونشرها في كتابيه (أصل الأنواع ، ١٨٥٩م) ، و (أصل الإنسان ، ١٨٧١م) ، ثم أتبعها في بقية أعماله ،

حديثة في النشوء ، والارتقاء عرفت باسم الداروينية (*Darwinism*) نسبة إليه ، وقد نشرها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، في كتابيه (**أصل الأنواع**) و (**أصل الإنسان**) ، وفحوى النظرية أن المخلوقات الحية المختلفة قد نشأت عن أصل واحد مشترك ، على العكس مما كان الاعتقاد في الماضي بأن كل نوع من المخلوقات الحية قد خلق خلقًا مستقلًا عن غيره ، وقد أقام داروين نظريته على عدة مبادئ ، خلاصتها أن هناك صراعًا من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد ، وهناك أيضًا تغير فردي داخل النوع نفسه ، فالأفراد الذين يحظون بتغيُّرٍ أكثر ملاءمة للبيئة يكونون أصلح للبقاء ودوام النوع ، وأن هذه التغيرات تنتقل من السَّلف إلى الخلف عبر عمليات التوارث المتوالية ، وهذا هو مبدأ الانتخاب الطبيعي (*Natural Selection*) الذي يعدُّ حَجَرُ الزاوية في نظرية داروين .



(عالم الطبيعة البريطاني تشارلز داروين)

وقد لقيت الداروينية في حينها رواجًا واسعًا لدى كثير من الأوساط العلمية ، والفكرية والفلسفية ، وعارضها بالمقابل نفر من علماء الطبيعة ؛ لأنها في رأيهم لم تقدم تفسيرًا علميًّا مقبولًا للكيفية التي تحمل التغيرات الجديدة التي يكتسبها المخلوق الحي بتأثير العوامل البيئية تتحول إلى صفات ثابتة قابلة للتوارث .

وكان للنظرية أيضًا تأثير واسع في الفكر البشري عامةً ، وعمد بعضهم إلى توظيفها توظيفًا ماكرًا ضد الأديان ، بحجَّة أن المخلوقات الحية ما دامت قد ظهرت إلى الوجود بعضها من بعض ، ونشأت وتطورت وارتقت بالتدريج بتأثير عوامل الطبيعة ، فإن هذا

ومنها كتابه « أصل الإنسان والانتخاب بالنسبة للجنس ، ١٨٧١م » ، وكتابه « تنوع النباتات والحيوانات تحت الاستئناس ، ١٨٦٧م ».

يعني - في زعمهم - أنها خُلقت مصادفةً من غير خالق [1] ، وهذه بلا جدال مغالطة ظاهرة البطلان ، كما نبين بعد قليل .

وبالرغم من أن علماء البَشَرِيَّات يكادون يتفقون جميعًا على أن التطور هو من خصائص عالم الحياة ، وأن المخلوقات الحية جميعها من نبات وحيوان وإنسان قد نشأت من أصل واحد مشترك ، عبر أزمنة متطاولة ، إلا أن هؤلاء العلماء أنفسهم ما زالوا مختلفين حول الكيفية (*Mode*) التي حصل بها هذا التطور ؛ ولهذا عاد لفيف منهم فأجروا دراسات أخرى في محاولة منهم لمعرفة الكيفية التي حصل بها التطور ، وجمعوا أدلة جديدة تقدم تفسيرًا آخر للتطور ، وبناءً على هذه الأدلة وضعوا نظرية معدَّلة عن نظرية داروين أطلقوا عليها اسم الداروينية الحديثة (*Neo Darwinism*) ولعل أول من أطلق عليها هذا الاسم في عام (١٨٧٦م) هو العالم الألماني أوجست وايزمان (١٨٣٤م - ١٩١٤م) .

والداروينية الحديثة في حقيقتها ليست من إنتاج عالم واحد ، ولم تظهر على الساحة العلمية دفعة واحدة بصورتها المتكاملة ، بل تكاملت ببطء عبر أجيال عديدة من العلماء ، وما زالت حتى اليوم تخضع للتعديل والحذف والإضافة بين الحين والآخر ، ولعل الإضافة الأساسية التي أضافتها الداروينية الحديثة إلى الداروينية القديمة هي القول بحصول طفرات (*Mutations*) أو تغيرات طارئة تصيب التركيب الوراثي للمخلوق الحي ، بين الحين والآخر ، وأن هذه الطفرات تتراكم في بعض الأفراد واحدة تلو الأخرى ، وتنتقل إلى الأجيال اللاحقة بالتوارث ، فتؤدي مع مرور الزمن لظهور أنواع جديدة من المخلوقات الحية [2] .

وقد دعم هذا الرأي في أواخر القرن العشرين من خلال أعمال العالمة الأمريكية باربارا ماكلينتوك (*Barbara McClintock*) الحائزة على جائزة نوبل في الكيمياء ، التي أثبتت أن التكوين الوراثي للمخلوقات الحية ليس تكوينًا جامدًا ، بل هو تكوين حيوي قابل للتأثر والاستجابة والتفاعل مع عوامل البيئة المحيطة ، وهذا ما جعلها تقول بنظرية جديدة أطلقت عليها اسم : الطبيعة الوثابة للمورثات (*Jumping Genes*) [3] .

---

(١) انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، (ص ٥٢٩) ، (ص ٧٧٤) . وانظر : د. أحمد نبيل أبو خطوة : موسوعة أبو خطوة ، (ص ١٠٠١) وانظر : شمس الدين آق بلوق : داروين ونظرية التطور .

(٢) د . أحمد نبيل أبو خطوة : موسوعة أبو خطوة ، (ص ٢٦٦ و ٩٢٤) .

(٣) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب : الثقافة العالمية ، (ص ١٩٥) ، العدد (١١٦) ، يناير (٢٠٠٣م) ، الكويت .

ومع كل هذه الشواهد فإن النظريات التي طرحت حتى الآن لتفسير (كيفية) حصول التطور العضوي في المخلوقات الحية ما زالت بين أخذٍ وردٍّ ، ومؤيدٍ ومعارضٍ ، فالعالم الفرنسي (ب.ب.غراسيه) الذي ظل ثلاثين عامًا يشغل منصب رئيس قسم دراسات التطور في السوربون يعتقد بشدة النظرية الداروينية ، ولكنه في الوقت نفسه يصرح في كتابه « الإنسان متهمًا »[1] قائلًا : (إن حقيقة التطور لا يرقى إليها شك ، ولكن هناك ثغرات كبيرة في معرفتنا بالطريقة التي تجري بها) ، كما أن الفيلسوف الألماني هانز ريشنباخ (١٨٩١م - ١٩٥٣م) الذي شغل منصب أستاذ الفلسفة بجامعة كاليفورنيا حتى وفاته كتب يقول : (لقد دارت مناقشات مستفيضة ، وأجريت تعديلات كثيرة على نظرية النشوء والارتقاء ، ولكن أسسها لم تتزعزع أبدًا)[2] .

ونعتقد أنه سوف يمضي وقت طويل قبل الوصول إلى كلمة الفصل في هذه القضية الشائكة المحيرة ، وقد لا يُفصل فيها نهائيًّا ؛ لما يعتريها من إشكاليات معقدة ؛ ولأنها تتناول ظاهرة كونية موغلة جدًّا في القدم ، لكن النظرية مع كل هذا شاعت وانتشرت في مختلف أنحاء العالم ، وأصبح تدريسها أمرًا مسلمًا به في معظم المدارس والجامعات ، وربَّما كان المدرس (ج.سكوبس)[3] ، هو أول من بادر إلى تدريس النظرية لطلابه في الولايات المتحدة عام (١٩٢٥م) ، مما عرَّضه لاتهامات شديدة ، ووجهت له رسميًّا تهمة الهرطقة ومخالفة الكتاب المقدس ، وأحيل إلى القضاء ، وخضع لمحاكمة شاقة طويلة كسب في نهايتها الدعوى ، وحصل على موافقة رسمية لإجازة تدريس هذه النظرية في المدارس والجامعات لأول مرة ، بعد أن ظلت النظرية عرضة للهجوم الحاد من أرباب الكنيسة على مدى سنوات طويلة ، وبهذا كثر مؤيدو النظرية وشاعت وانتشرت في العالم .

---

(١) *L.Homme en ecdusation* (1980) Albin Miche, Paris.

(٢) هانز فريشباخ : نشأة الفلسفة ، (ص ١٧٨) .

(٣) في ١٣ آذار (١٩٢٥م) أصدر المجلس التشريعي لولاية تنسي قانونًا يمنع تدريس نظرية تشارلز داروين في المدارس الحكومية ، ويعاقب على ذلك بالغرامة أو السجن أو كليهما ، وفي أيار من العام نفسه أقدم مدرس علم الأحياء جون سكوبس على تدريس تلاميذه هذه النظرية في مدينة دايتون ، فرفع المدعي العام قضية ضده لخرقه القانون ، ودعي سكوبس للمحاكمة التي عرفت باسم (محاكمة القرد) واعتبر سكوبس فيها مذنبًا وحكم عليه بغرامة ، لكن الصراع حول تدريس النظرية استمر حتى عام (١٩٦٧م) حين ألغت ولاية تنسي القانون الذي يمنع تدريسها ، وما زالت هناك ولايتان تمنعان تدريسها حتى اليوم هما أركنسا ، ومسيسبي .

وهكذا نرى أن نقطة الخلاف الجوهرية بين علماء التطور تتمحور حول (كيفية) حصول التطور العضوي في المخلوقات الحية ، وليس حول (ظاهرة التطور) نفسها التي يكاد علماء الطبيعة يُجمعون على التسليم بها ، وهذه نقطة جوهرية كثيرًا ما تختلط على الذين يعارضون فكرة التطور ؛ إذ يظنون أن العلماء المعارضين للتطور ينفون ظاهرة التطور من أساسها ، وهذا غير صحيح ، فالعلماء المعارضون لنظريات التطور إنَّما يعارضون التفسيرات التي قدمت للكيفية التي حصل بها التطور العضوي ، وأما حصول التطور نفسه فلا يكادون يختلفون عليه .



(محاكمة الأمريكي جون سكوبس الذي أقدم في عام (١٩٢٥م) على تدريس نظرية التطور لطلابه متحديًا قانون الولايات المتحدة الذي يحظر تدريسها)

ومن جهة أخرى نجد أن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية توحي بأن التطوُّر ـ بمعنى التدرج والترقي في الخلق ـ هو سُنَّةٌ من سنن الله في هذا الوجود ، فهناك آيات عديدات تشير إلى أنَّ خَلْقَ السماوات والأرض لم يحصل دفعةً واحدةً ، بل حصل عبر أطوار متلاحقة استغرقت آمادًا طويلة جدًّا ، ذكر القرآن الكريم أنها ستَّة أيام ، كما ورد في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ ﴾ [السجدة : ٤] ، ومن المعلوم أن اليوم عند الله ﷻ ليس كأيامنا نحن أهل الأرض ، فقد يعدل اليوم الواحد عند الله ﷻ ألف سنة من سنوات أرضنا كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] ، وقد يعدل اليوم عنده خمسين ألف سنة : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤] ، وربما يعدل أكثر من هذا بآماد سحيقة !

وقد سلَّم علماءُ الفلك أخيرًا بهذه الحقيقة التي بيَّنها اللهُ ﷻ في كتابه الكريم قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان ، وأقرُّوا بأنَّ الكونَ قد مرَّ بمراحل طويلة جدًّا حتى صار إلى ما هو

عليه اليوم ، وقدَّروا عمر الكون منذ نَشْأته الأولى وحتى الآن بنحو (٢٠ مليار سنة) من سنوات كوكبنا الأرضي كما أشرنا من قبل ، وهكذا التقى العلم مع الحقيقة القرآنية في أن السماوات والأرض قد مرَّت بأطوار وتغيرات عميقة واسعة بدأت من المرحلة الغازية (= الدخان) التي تبعتها تطورات كونية هائلة انتهت بالكون إلى صورته الراهنة .

وهناك أحاديث نبوية عديدة تشير بوضوح أيضًا إلى أنَّ الكون وما فيه من مخلوقات حية وغير حية لم يظهر إلى الوجود دفعةً واحدةً ، بل ظهر على مراحلٍ مديدة جدًا شهدت تطورات واسعة وعميقة في مختلف المخلوقات الحية وغير الحية ، ومن ذلك قول النبيِّ ﷺ : « خَلَقَ اللهُ ﷻ التربةَ يومَ السبت ، وخَلَقَ فيها الجبالَ يومَ الأحد ، وخَلَقَ الشَّجَرَ يومَ الاثنين ، وخَلَقَ المكروهَ يومَ الثلاثاء ، وخَلَقَ النُّورَ يومَ الأربعاء ، وبثَّ فيها الدوابَّ يومَ الخميس ، وخَلَقَ آدمَ ﷺ بعد العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل »[1] .

وربَّما حرَّضت مثل هذه النصوص التي وردت في الكتاب والسنة بعض علمائنا الأوائل على الخوض في هذه المسألة ، فأشار بعضهم إلى ظاهرة التطور العضوي وغير العضوي إشارات صريحة مفصلة سبقوا بها علماء الغرب المُحْدَثين بقرون طويلة ، منهم على سبيل المثال لا الحصر (أبو علي أحمد بن مسكويه الخازن)[2] ، في كتابيه « الفوز الأصغر » ، و (تهذيب الأخلاق) ، ومنهم أيضًا العلامة الأندلسي (ابن خلدون)[3] ، في (المقدمة) الذي نقتبس منه هذا النص المتفرد الذي كتب فيه يقول : (اعلم أرشدنا اللهُ وإياك ، أنَّا نُشاهِدُ هذا العالمَ بما فيه من المخلوقات كلِّها على هيئة من الترتيب والإحكام ، ورَبْطِ الأسباب بالمسبَّباتِ ، واتِّصالِ الأكوانِ بالأكوان ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لا تنقضي عجائبُهُ في ذلك ، ولا تنتهي غاياتُهُ ، وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني ، وأولًا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدًا من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار ، متصلًا بعضها ببعض ، وكلُّ واحدٍ منها مستعدٌّ إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعدًا

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٤٩٩٧) ، وأحمد في المسند (٧٩٩١) ، من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

(٢) أبو علي الخازن ابن مسكويه (ت ١٠٣٠م) ويلقب بـ (مسكويه) وهي لفظة أعجمية مركبة معناها رائحة المسك ، كان فيلسوفًا أديبًا مؤرخًا عالمًا بالكيمياء ، خدم ابن العميد وتولى أمر مكتبته ، له مصنفات عديدة في التاريخ والأدب والأخلاق ، حاول فيها التوفيق بين الشريعة والفلسفة ولا سيما في مجال الأخلاق .

(٣) سبقت ترجمته .

وهابطًا ، والصَّاعِدُ منها ألطفُ مما قبله ، إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكلّ ، على طبقاتٍ اتَّصَلَ بعضُها ببعض على هيئة لا يُدْرِكُ الحِسُّ منها إلا الحركات فقط ، وبها يهتدي بعضُهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها ، وما بعد ذلك من وجودِ الذَّوات التي لها هذه الآثارُ فيها ، ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثُمَّ النبات ثم الحيوان ، على هيئة بديعة من التَّدريج ، آخرُ أفُقِ المعادنِ مُتَّصِلٌ بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بِذْرَ لَهُ ، وآخرُ أفقِ النباتِ مثل النَّخل والكَرْم مُتَّصِلٌ بأوَّلِ أفق الحيوان مثل الحَلَزون والصَّدَفِ ، ولم يوجد لهما إلا قوَّةُ اللمسِ فقط ، ومعنى الاتِّصال في هذه المكونات أنَّ آخرَ أفقٍ منها مستعدٌّ بالاستعداد الغريب لأن يصير أولَ أفقِ الذي بعدَهُ ، واتَّسَعَ عالمُ الحيوان ، وتعدَّدَتْ أنواعُهُ ، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرَّوِيَّة ، ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ، ولم ينتهِ إلى الفكر والروية بالفعل ، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده ، وهذا غاية شهودنا) [1] .

علمًا بأن لفظ (القدرة) الذي ورد في نهاية هذا النص قد ورد في بعض نسخ المقدمة بصيغة (القردة) كما هو ممثلًا في النسخة التي حققتها (لجنة البيان العربي) وهو لفظ ينسجم مع السياق أكثر من لفظ القدرة كما نرى ، وهذا ما ذكره الأستاذ (ساطع الحصري) [2] ، في كتابه (دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، ط القاهرة ١٩٥٣ م) فإذا صحَّ هذا فإن ابن خلدون يكون قد سبق علماء التطور بقرون طويلةٍ إلى هذه الإشكالية التي ما زالت بين أخذٍ وردٍّ بين علماء الطبيعة من جهة ، وأهل الأديان من جهة أخرى ، مع ملاحظة أن ابن خلدون وهو من هو في الفقه والعلم والقضاء ، لم يجد غضاضةً في الخوض بهذا الموضوع الشائك ، ولو أنه وجد فيه ما يعارض معلومًا من الدين بالضرورة لما خاض فيه أو لكان - على أقل تقدير - عارَضه وبيَّن رأي الدين فيه .

---

(١) ابن خلدون : المقدّمة ، (ص ٩٣) .

(٢) ساطع الحصري (١٨٨٠م - ١٩٦٨م) : عالم بالتربية والتاريخ ، وهو من أصل سوري لكنه ولد في اليمن حيث كان والده قاضيًا هناك ، تقلد ساطع عدة وظائف تربوية وإدارية في تركيا ، وانضم إلى الحركة العربية التي نادت باستقلال العرب عن تركيا وتحقيق وحدتهم العربية ، له مؤلفات عديدة من أهمها (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) ، و (القومية العربية) و (حوليات في التربية والثقافة) .

وهناك نصٌّ آخر للفيلسوف الأندلسي (ابن طفيل) [(١)] ، أورده في حكايته الفلسفية الشهيرة (حيٌّ بن يقظان) التي صوَّر فيها كيف تطور الإنسان ابتداءً من الطين ، ومما جاء في هذه الحكاية : (.. وقالوا إن بطنًا من أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مرِّ السنين ، حتى امتزج فيها الحار بالبارد ، والرطب باليابس ، امتزاجَ تكافؤٍ وتعادلٍ في القوى ، وكانت هذه الطينة المتخمِّرة كبيرة يَفْضُل بعضها بعضًا في اعتدال المزاج والتهيؤ لتكوين الأمشاج ، وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمها مشابهةً بمزاج الإنسان ، فتمخضت تلك الطينة ، وحدث فيها شبه نفاخات الغليان ، وحدث في وسطها نفاخة صغيرة منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ، ممتلئة بجسم لطيف هوائي في غاية من الاعتدال اللائق به ، فتعلق به عند ذلك الروح الذي هو من أمر الله ، وتشبث به تشبثًا يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل .. فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة خضعت له جميع القوى ، فتكوَّن بإزاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمة إلى ثلاث قرارات ، بينها حجب لطيفة ..) [(٢)] ، ويمضي فيلسوفنا العربي ابن طفيل في بيان كيفية خلق سائر الأعضاء ، من قلبٍ ودماغٍ وكبدٍ ، حتى اكتمل خَلْقُ الإنسان ، وصار في أحسن تقويم .

وهكذا نجد لدينا الكثير من الآيات والأحاديث ، والعديد من الآثار التي دوَّنها علماؤنا الأوائل ، وكلها تقرر أنَّ التَّطَوُّرَ في الخلق هو سُنَّةٌ من سنن الله الجارية في الكون ، وهذا لا ينفي قدرةَ الله ﷻ ، كما يتوهَّم الذين يرون في ظاهرة التطور دليلًا على النقص أو الضعف أو عدم القدرة على الخلق السويِّ من أول مرة ، فكما أن الله ﷻ قادرٌ على خلق السماوات والأرض وما فيهن من مخلوقات متنوِّعة دفعةً واحدةً ، فإنه سبحانه وتعالى قادر على خلقها بالتدريج على نهج من التطور ، فليس هناك خلق أهون على الله من خلق آخر ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : ١٩ ، ٢٠] .

---

(١) ابن طفيل (١١١٠م - ١١٨٥م) : ولد في قرطبة بالأندلس ، ودرس الفلسفة والفقه والطب والفلك ، وعمل قاضيًا ووزيرًا لسلطان الموحدين أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي القيسي ، وله مصنفات كثيرة أشهرها قصته (حي بن يقظان) التي حاول فيها التوفيق فلسفيًا بين المعرفة العقلية والمعرفة الدينية ، وقد أثرت هذه القصة الطريفة تأثيرًا كبيرًا في الفلاسفة والمفكرين الذين جاؤوا من بعده ، واستلهمها عدد من الأدباء الذين نسجوا رواياتٍ على منوالها .

(٢) د . عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة ، (١/ ٧١) ، مصدر سابق .

أما قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] ، وقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] ، فهو لا يعني تفاوت القدرة الإلهية تجاه هذه المخلوقات ، وإنما يضرب الله هذا المثل لتقريب المسألة إلى الأذهان القاصرة التي تنكر البعث والنشور يوم القيامة ، فإن العقل السليم لا يجادل بأن إعادة الخلق مرة أخرى أهون من الخلق لأول مرة من العدم ، ولا يجادل العقل السليم كذلك بأن خلق السماوات والأرض بهذه الرحابة والعظمة أكبر من خلق الإنسان ، هذا المخلوق الضعيف الذي لا يكاد يساوي شيئًا في خِضَمِّ الكون الهائل .

وأمَّا ما يدعيه الملحدون من أنَّ الكون قد تطور على هذه الصورة مصادفةً من تلقاء نفسه من دون خالق ، فتلك مسألة أخرى ، وادِعاء ظاهر البطلان : فمن أين لمادة الكون الصماء أن تفكِّر أو تخطِّط لهذا البرنامج الكونيِّ العظيم الذي انتهى إلى هذا التنوع المُعْجِز في المخلوقات ؟ وكيف يمكن للذرَّات غير العاقلة التي تتخبط في غياهب اليَمِّ أن تتجمع من تلقاء نفسها لتشكل الخلية الأولى ؟ ومن الذي قاد الخلايا بعد ذلك لتجتمع في مجموعات ، فيعطي بعضها نباتًا ؟ ويعطي بعضها حيوانًا ؟ ويعطي بعضها إنسانًا ؟ ومن الذي وضع في الذرَّات تلك القوانين . والاستعدادات ؛ لكي تتفاعل بعضها مع بعض وتنتج هذه المخلوقات كلها ؟ وقبل هذا وذاك .. من الذي جعل صفات الهيدروجين غير صفات الأكسجين ، وأودع في هذين العنصرين تلك القابلية لتشكيل الماء الذي هو أصل الحياة ؟

تلك هي بعض الأسئلة الكثيرة المفحمة التي لا يملك العقل السليم أمامها إلَّا التسليم بوجود خالق مدبِّر لهذا الكون ، هو الذي خلقه من العدم ، وهو الذي قدَّر له أن يسير وفق هذا البرنامج الدقيق من التدرج في الخلق ، وهو الذي هدى كلَّ مخلوق فيه إلى طريقه الصحيح لكي يؤدي الوظيفة التي كُلِفَ بها في عمارة الكون ، على الصورة التي أرادها الخالق العظيم ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : ٢ ، ٣] .

ونعتقد أنه آن الأوان لكي ننظر إلى ظاهرة التطور نظرة أكثر موضوعية ، وأن نعزلها عن إشكالية (الكفر / الإيمان) ، لأنها كبقية الظواهر الكونية الأخرى قد يرى فيها بعضهم دلائل على الإيمان بالخالق العظيم ، الذي شاءت عنايته أن يبدع العالم على هذه الصورة المتدرجة التي توَّجها بخلق الإنسان .. الخليفة .

وقد يتذرع آخرون بظاهرة التطور للطعن بالأديان كافة ، بحجة أن التطور الذي انتهى إلى خلق الإنسان قد جرى مصادفة من غير خالق مدبر ، وأن خلق الإنسان لم يكن سوى احتمال من احتمالات كثيرة تمخضت عنها مسيرة الكون !

وهكذا نرى أن اختلاف زاوية النظر إلى ظاهرة التطور ـ وغيرها من الظواهر الكونية ـ هي التي تحدد موقفنا من الظاهرة ، ونعتقد أن هذا الاختلاف لا يمكن أن يزول إلّا إذا احتكمنا للمعايير العلمية الدقيقة ، وعندئذ تصبح المسألة قابلة للإثبات أو النقض .

الحياة خارج الأرض :

إن كل ما قدمناه عن نشأة الحياة كان يدور حول نشأة الحياة في الأرض ، فهل هناك حياة أو مخلوقات حية أخرى تشاطرنا العيش في هذا الكون الفسيح ؟ أجل إن الأمر كذلك فعلًا ، فقد أشار القرآن الكريم كما أشار النبي ﷺ إلى وجود الملائكة والجن ، والإيمان بهؤلاء هو من المعلوم من الدين بالضرورة ، فلا يجوز لمؤمنٍ أن ينكر وجودهم ، وهم محجوبون عنا فلا نراهم ولكنهم يروننا ، والملائكة مخلوقات نورانية كلهم مؤمنون طائعون لله ﷻ ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] ، وأمَّا الجن فقد خلقهم الله ﷻ من مارج من نار ، منهم المؤمنون ، ومنهم الكافرون .

ووجود عالم آخر ومخلوقات أخرى غير مرئية إلى جانب عالمنا المرئي هذا لم يعد مجرد خبر غيبي ، ولم يعد التأكيد على وجوده وقفًا على الكتب السماوية وإخبار الأنبياء عنه ، فإن العلم الحديث أصبح يؤكد وجوده أيضًا بالأدلة العلمية القاطعة ، وهذا ما تطرحه أحدث النظريات الفيزيائية اليوم ، وهي نظرية الأوتار الفائقة (*String Theory*) التي باتت تؤكد بالمعادلات والأرقام أن هناك كونًا كاملًا مظلمًا (أي غير مرئي لنا) يعمل بالتوازي مع الكون الذي يقع تحت أبصارنا ، وعلى الرغم من أننا لا نستطيع رؤية هذا الكون الظل فإننا يمكن أن نشعر به بواسطة أدوات الرصد المتطورة ، ونحس به من خلال جاذبيته التي تؤثر في مسارات المجرات والنجوم ..

والعجيب في أمر هذا الكون الخفي أننا لا نعرف عنه شيئًا آخر سوى أنه موجود هناك في العتمة اللانهائية ، وما عدا هذا فإننا لا نعرف عنه شيئًا [1] .

---

(١) انظر : فرانك كلوز (النهاية ، الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون) (ص ٢٣١ و ٢٧٠) ، مصدر سابق .



(يتكون الوجود كله من أوتار دقيقة من الطاقة ، مما يتيح وجود عوالم أخرى عديدة غير مرئية ، يطلق عليها العلماء اسم المادة المظلمة ، ويسميها المؤمنون عالم الغيب)

يقول العالم الفيزيائي الأمريكي المعاصر ألان غوث (*Alan Guth*) بما أن الكون ولد من العدم ، وبما أن العدم يمتد إلى مسافات غير متناهية ، فمن المتوقع نشوء أكوان غير متناهية في أجزاء مختلفة من العدم ، ويؤكد هذه الحقيقة العالم مارتن ريز(*Martin Rees*) المتخصص بعلم الكونيات في جامعة كامبرج ، ومرصد الفلك الملكي في بريطانيا فيقول : بما أنه توجد عوالم مختلفة وعديدة ، فمن المتوقع وجود عالم كعالمنا ، ويضرب مثلًا على ذلك أننا إذا دخلنا إلى متجر لبيع الثياب ؛ حيث توجد ثياب بمقاييس مختلفة ، فليس من المستغرب حينئذٍ أن نجد ثوبًا بمقاسنا ؛ لذا ليس من المستغرب وجود عالم كعالمنا ؛ لأنه توجد عوالم عدة ومختلفة .

أمّا وجود مخلوقات حية أخرى في الكون تشبهنا أو تشبه بقية المخلوقات الحية التي نعرفها من نبات أو حيوان ، فلم يستبعده كثير من الباحثين ، أو على الأقل وجود بدايات للحياة على بعض الكواكب الأخرى غير أرضنا ، وقد قدَّم بعض العلماء دلائل على وجود حياة وأحياء على بعض تلك الكواكب ، من خلال الرحلات الفضائية التي أرسلها العلماء حتى الآن إلى كواكب مجموعتنا الشمسية ، واكتشفوا من خلالها بعض المؤشّرات على وجود مخلوقات بدائية (مثل الجراثيم والنباتات ونحوها) على بعض هذه الكواكب ، إلا أن هذه الدلائل ما زالت بين أخذ وردٌ بين العلماء ، ولم تثبت بصورة قطعية حتى الآن .

أمّا نصوص الكتاب والسنة فليس فيها ما ينفي وجود مخلوقات حية تشبه مخلوقات الأرض على بعض الأجرام السماوية الأخرى ، بل تكاد بعض النصوص أن تصرِّح بوجود

مثل هذه المخلوقات ، وقد (أوضح الشيخ صالح بن سعد اللحيدان الأمين العام للبحث العلمي في وزارة العدل السعودية أن أقوى دليل يدل على وجود أحياء ما في غير الأرض قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٩] ، فهذا النص دالٌّ على خلقٍ آخر غير الإنسان في السماوات والأرض وما بينهما ، وقد دلت الآية الكريمة على كثرة هذه الدابة وأنها مبثوثة ، والدَّابَّةُ هي ما يدبُّ على الأرض اصطلاحًا ، لكن تعريف الدَّابَّة الخَلْقي أعمُّ من ذلك ، فيصحُّ على الطير والحشرات كافة ، كما يصح على الإنسان والحيوان ، ويفهم من الآية أنه ﷻ بثَّ فيهما ، وكلمة (في) هنا ظرفية مكانية ، وقد انتهى الإمام الزمخشري في تفسيره لهذه الآية إلى مثل هذه النتيجة ، فقال رحمه الله تعالى : (يجوز أن يخلق الله في السماوات حيوانات تمشي فيها مَشْيَها في الأرض)[1] .

فاحتمال وجود مخلوقات حية على كواكب أخرى غير مستبعد ، ومن المتوقع خلال السنوات القليلة القادمة أن نعرف ما إذا كانت أرضنا هي الجرم الوحيد الذي يحمل بذرة الحياة ، أم هناك عوالم أخرى قد تكون أكثر منا تقدمًا ورقيًا ومدنية وحضارة ؟! ولا يستبعد أن تجمعنا بهم قدرة الله تعالى كما صرحت الآية السابقة بكل وضوح ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ .

ومن خلال حساب رياضي بسيط نجد أن هذا الاحتمال كبير وغير مستبعد ، ففي مجرتنا درب التَّبَّانَةِ (*Milky Way*) يوجد ما يربو على ٢٥٠ مليار نجم ، فإذا افترضنا أن من بين هذا العدد الهائل من النجوم يوجد فقط ٥٠ مليار شمس مثل شمسنا باستقرارها وعمرها وظروفها ، ولنفترض أن مليارًا واحدًا فقط من هذه الشموس لديها كواكب مثل كواكب مجموعتنا الشمسية ، أفلا يحتمل أن يوجد على عدد ولو قليل من هذه الكواكب أشكال من الحياة ولو بدائية ؟! إن الكثيرين من علماء الفلك اليوم يعتقدون جازمين بهذا الاحتمال بل إن وكالة الفضاء الأمريكية ناسا (NASA) قد نفذت فعلًا مشروع ستي (*SETI*) الفضائي للبحث عن الحياة والأحياء خارج الأرض ، وخصصت له ميزانية خاصة[2] .

---

(١) جريدة الشرق الأوسط ، (ص ٢٠) ، العدد (٧٤١٩) ، الاثنين (٢٢/ ٣/ ١٩٩٩م) .

(٢) أدريان بيري : الخمسمائة عام القادمة ، (ص ٢٣٥) .

وقد حصل العلماء حتى الآن على معلومات قيمة يكاد بعضها يؤكد هذا الاحتمال ، ومن يدري .. فقد تكشف لنا السنوات القليلة القادمة أننا بالفعل لسنا وحدنا في هذا العالم الرحيب ، وأن لدينا جيران كثيرون هنا أو هناك ، وقد نجد منهم أناسًا ما زالوا يعيشون مرحلة الحياة البدائية التي عاشها أجدادنا الأوائل قبل ملايين السنين ، وقد نجد منهم أناسًا سبقونا بأشواط بعيدة جدًّا في الميادين المختلفة ، ولو قُدِّر وجود هؤلاء الجيران متقدمين علينا ، ولو قدر لهم أن يكتشفونا في يوم ما من الأيام ، فإنهم حتمًا سيكونون في غاية الدهشة والمفاجأة ، وسينظرون إلينا على أننا أمم بدائية تستحق الشفقة ، وتشكل مادة طريفة للدراسة ، وكأننا مستحاثات (*Fossils*) حجرية قديمة يعثر عليها باحث شغوف بالتاريخ !

ظاهرة الموت :

وقبل ختام حديثنا عن ظاهرة الحياة لا بد أن نتوقف عند ظاهرة أخرى مألوفة تلازم ظاهرة الحياة ولا تنفك عنها أبدًا ، ألا وهي ظاهرة (الموت) فقد أثبتت المشاهدات اليومية أن كل شيء حي في هذا الوجود صائر إلى نهاية حتمية هي الموت ، بل إن التدقيق في ظواهر هذا الوجود المختلفة يدل على أن ظاهرة الموت أشمل وأعمُّ من ظاهرة الحياة ؛ لأن الحياة تنحصر في المخلوقات الحية فحسب ، أمَّا ظاهرة الموت فلا ينجو منها شيء من المخلوقات ، سواء في ذلك الحية منها والجامدة ، ودليل هذا قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] ، أي إن كل ما في هذا الوجود صائر إلى الموت لا محالة .

وهناك في الواقع نوعان من الموت : موت الأفراد ، وموت الأنواع ، فكل فرد منا مآله إلى الموت ، أمَّا الجنس البشري فهو باقٍ إلى ما شاء الله تعالى ، وكذلك بقية المخلوقات الحية فإن أفرادها يموتون أما أنواعها فباقية ، ومع هذا فإن تاريخ الحياة فوق هذه الأرض قد سجل فيما مضى انقراض أنواع عديدة من المخلوقات الحية ؛ مثل الديناصورات التي عمرت الأرض لفترة طويلة من الزمن بلغت ملايين السنين ، ثم بادت وانقرضت عن بكرة أبيها قبل حوالي ٦٥ مليون سنة من الآن ، إلَّا أن الموت أو الفناء يظل هو النهاية المحتومة لكل الأفراد والأنواع والمخلوقات كما ذكرنا .



(لقد سبقت الإنسان إلى هذه الأرض أنواع كثيرة جدًا من المخلوقات الحية ، وعاشت فيها ملايين السنين ، لكنها انقرضت عن بكرة أبيها ، وطواها الموت بقبضته التي لن ينجو منها مخلوق)

والموت ليس بالضرورة نقيض الحياة ، فهو نقيض الحياة فقط في المخلوقات الحية ، أما بقية المخلوقات فبالرغم من أنها ليست حية فإنها تموت كذلك ، وموتها يعني تغيرها وتبدلها من حال إلى حال فتمسي شيئًا آخر غير ما كانت عليه من قبل ، وهذه ظاهرة معروفة مألوفة في كل شيء ، فالأرض والجبال والصخور والبحار والكواكب والنجوم ، من أصغر مخلوق إلى أكبر مخلوق ، كلها إلى تبدُّلٍ وتغيُّرٍ وتحوُّلٍ ، وهذا هو موتها .

وكذلك ما يسميه العلماء (فناء المادة) الذي لا يعني اندثارها وانعدامها بل يعني تحولها إلى طاقة ، أي إلى شكل آخر من أشكال الوجود ، فقد أظهرت المشاهدات الكيميائية والفيزيائية الدقيقة أن الفناء لا يطرأ على شيء من مخلوقات هذا الوجود ، بما في ذلك جسد الإنسان وأجساد مختلف المخلوقات ، وإنما يطرأ عليها التحول والتبدل والتغير ، وعلى سبيل المثال حين نأكل دجاجة فإن أجسامنا تهضمها وتبدل تركيبها الكيميائي وتحوله إلى مركبات جديدة تناسب تركيب أجسامنا البشرية ، فالمواد التي يتركب منها جسد الدجاجة لم تفنى ولكنها تحولت إلى أشكال أخرى ، وهكذا بقية المخلوقات .

وهكذا نحن البشر أيضًا ، فإننا حين نموت فإن ذرات أجسادنا تتحلل وتتفرق في الأرض وتعود ترابًا ، ولا تفنى ، بل تدخل في دورة كونية جديدة فتكون جزءًا من نبات أو حيوان أو خلق آخر الله أعلم به ، وهذا التحول يختلف عن تناسخ الأرواح (*Transmigration of Souls*) الذي تقول به بعض الطوائف الدينية التي تدعي أن الروح بمجرد الموت تنتقل من الإنسان الذي مات لتحل في مخلوق آخر قد يكون حيوانًا

تُو تِبـاتًا أو غيره ، وهذا اعتقاد فاسدٌ لا يقوم على دليل ، فقد دلَّ الكتاب والسنة على أن الروح مخلوق مستقل عن الجسد ، وأن لكل مخلوق حي روح خاصة به ، والروح بمجرد الموت تغادر الجسد لتدخل عالم البرزخ الذي لن تخرج منه إلى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠] ، وقد دلَّ القرآن الكريم كذلك على أن الروح عند الموت تُمسَك ولا تُبثُّ في مخلوق آخر : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] ، وما الجسد إلا قالب تظهر من خلاله تجلِّيات الروح ، وهو عرضة للبلى والاضمحلال على العكس من الروح فهي باقية [1] .

الموت إذًا لا يعني فناء المواد الأساسية التي تتكون منها أجساد المخلوقات الحية ، بل يعني تحول تلك المواد من حال إلى حال ، وهذا ما نفهمه من القانون الشهير الذي صاغه الكيميائي الفرنسي (لافوازييه) [2] ، ومؤداه أن (لا شيء يُخلَق ، ولا شيء يَفنى) وكثيرًا ما يساء فهم هذا القانون الكيميائي العظيم ، بسبب الظن أنه ينفي قدرة الله ﷻ على الخلق من العدم ، وهذا فهم قاصر للقانون الذي تحدث عن التفاعلات الكيميائية وليس عن قضية الخلق من العدم ، فقد لاحظ لافوازييه أن نواتج التفاعلات تساوي تمامًا المواد الأولية التي اشتركت في التفاعل ، وقد حلَّ هذا القانون الكثير من غوامض الكيمياء ، وكان بمثابة قفزةٍ هائلةٍ في تطور علم الكيمياء فيما بعد !

هذه هي حقيقة الموت كما تثبتها آيات الآفاق والأنفس وآيات الكتاب ، ولا ريب أن في الموت حكمة إلهية بالغة ، فلولا الموت لظلت المخلوقات الحية تتكاثر وتتزايد لتنتهي إلى كثرة محققة ، لا سيما وأن بعضها سريع التوالد جدًّا ، كما هي حال الجراثيم والفيروسات

---

[1] انظر : د. أحمد محمد كنعان (الموسوعة الطبية الفقهية) دار النفائس ، بيروت (٢٠٠١م) .

[2] أنطوان لورينت لافوازييه (١٧٤٣م ـ ١٧٩٤م) : كيميائي فرنسي ، قاد ثورة ضد الغموض وعدم الدقة في الفكر والتجريب ، وكان يرى أن النظرية العلمية السليمة لا بد أن ترتكز على نتائج قابلة للتحقق منها ، وأن تكون قد حصلنا عليها بطرق علمية موثوقة ، يعده المؤرخون أبا الكيمياء الحديثة ، نشر أول كتاب في الكيمياء عام ١٧٨٩م) ، اكتشف عنصر الأكسجين ، وأثبت أن أجسام المخلوقات الحية تتركب من العناصر نفسها التي تتكون منها المواد غير الحية ، وتخضع مثلها للقوانين نفسها ، وقد حوكم لافوازييه من قبل قادة الثورة الفرنسية ، وأُعدم بالمقصلة ، بدعوى أن الجمهورية لا تحتاج إلى علماء !

وكثير من الحشرات التي تشكل نسبة كبيرة جدًّا بين المخلوقات الحية ، ولولا الموت لتراكمت هذه المخلوقات وأدت في غضون أيام معدودات لاختلال التوازن الحيوي على نحو يجعل الحياة في الأرض مستحيلة ، وعلى سبيل المثال : لو أن الذباب لا يموت واستمر في توالده وتكاثره شهرًا واحدًا فقط ، فإن أعداده حينئذ تشكل طبقة كثيفة تغطي وجه الأرض كلها ببحارها وجبالها وسهولها إلى ارتفاع عشرات الأمتار ، وكذلك النبات فلو أن كل بذرة في الأرض تُحْيَتْ لها الحياة وتحولت إلى نبتة ، لَغَطَّى النبات وجه الأرض في أشهر معدودات ، وإذًا لاستحالت حياة بقية المخلوقات ، وهكذا تبدو ظاهرتي الحياة والموت أشبه بكفتي ميزان ، لو اختلت إحداهما لاختلت الأخرى ، فتبارك الذي خلق الموت والحياة ووضع الميزان .



(العالم الفرنسي لافوازيه ، واضع قانون (لا شيء يخلق ولا شيء يفنى) الذي أحدث ثورة في العلم)

نهاية الحياة في الأرض :

إذا ما سارت الأمور بسلام ، ولم تُصَبْ أرضُنا بإحدى الكوارث المدَمرة التي قد تقضي على الحياة فيها قبل الأوان ، سواء منها الكوارث الكونية التي لا دخل للبشر فيها ، أو الكوارث التي قد يجترحها البشر أنفسهم ضد كوكبهم ، فإن علماء الفلك يتوقعون حدوث تحولات واسعة وعميقة على الشمس تنتهي بانطفائها في غضون (٧ مليارات سنة) من الآن ، وخلال تلك التحولات ستكون الحياة في الأرض قد لفظت آخر أنفاس الحياة ، أما البشر فربما يكونون قد هجروها منذ أمد بعيد ، واستعمروا كوكبًا آخر في المجرة ، وراحوا من هناك يراقبون نهاية الكوكب العزيز الذي شهد مولد أجدادهم وفناءهم .

ويقدم علماء الفلك صورًا شتى لما يمكن أن يحدث خلال هذه التحولات الكونية الصاخبة ، فَيُقَدِّرُونَ أن معدل ثاني أكسيد الكربون في جو الأرض سوف ينخفض في

غضون ٥٠٠ مليون سنة من الآن إلى (١٥٠ جزءًا بالمليون) وهو الحد الأدنى الذي من دونه لا تستطيع غالبية النباتات تأمين التمثيل الضوئي ، ما يعني موت الغطاء النباتي للأرض ، ومع موت هذا الغطاء ستكون معظم أشكال الحياة في الأرض قد اختفت ، بما فيها البشر الذين لم تسعفهم الفرصة ليهاجروا بعيدًا عن الكارثة ، وبعد ٩٠٠ مليون سنة ، سوف ينخفض ثاني أكسيد الكربون إلى ما دون (١٠ أجزاء بالمليون) وعندها ستختفي بقية النباتات ، ولن يبقى سوى بعض المخلوقات العضوية المائية المجهرية ، وبعد مليار سنة من الآن ، سوف ترتفع درجة الحرارة على نحو أسرع لتدمر آخر أشكال الحياة ، وبعد ١.٦ مليار سنة سوف تصل درجة الحرارة إلى (١٠٠ درجة مئوية) فتتبخر المحيطات ، وفي غضون ٢.٥ مليار سنة لن يكون هناك أثر لبخار الماء في جو الأرض ، وتمسي الأرض قاحلة بصورة نهائية [١] .

البعث بعد الموت :

وهكذا تبدو ظاهرة الموت ظاهرة عامة لن ينجو من قبضتها أحد من مخلوقات الله ﷻ ، غير أن الإنسان يمتاز عن غيره من مخلوقات الله بأنه بعد الموت ، سوف تُنْفَخُ فيه الروح مرة أخرى ويعود للحياة من جديد ليحيا حياةً أخرى ليست كحياته في هذه الدنيا ، بل هي حياةٌ خالدةٌ لا موت بعدها ، يقضيها المؤمن في جنات النعيم خالدًا فيها أبدًا ، ويقضيها الكافر في نار الجحيم إلى ما شاء الله تعالى .

وقد جادل الدهريون والملحدون طويلًا في أمر البعث ، وصوَّر لهم تفكيرهم السقيم أن إعادة الخلق مرة أخرى أمر مستحيل ، حتى تساءلوا مستنكرين : ﴿ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨] ، فردَّ اللهُ ﷻ عليهم بالحُجَّة القاطعة : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٩] ، فإن التفكير السليم لا يمكن أن يجادل بأن الذي أنشأ الحياة من العدم أول مرة قادر على إعادتها للحياة مرة أخرى ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٨١ ـ ٨٣] ، فما بال الجدل الطويل ؟!

---

[١] المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب : الثقافة العالمية ، العدد (١٢١) ، (ص ٩) ، الكويت (٢٠٠٣م) (بتصرف) .

(الجدول ـ ٤) أبرز مراحل نشأة الحياة في الأرض مع التوقعات المحتملة لنهايتها

الزمن	الحدث	ملاحظات
(قبل ٤,٥ مليار سنة)	ولادة للمجموعة الشمسية .	لا حياة ، جفاف وحرارة عالية جدًا وعواصف مشبعة بالنتروجين والهليوم مع قصف متواصل من الرعد والبراكين العنيفة في كل مكان .
(قبل ٤ مليارات سنة)	ظهرت المياه في الأرض وهي أول علامات الحياة .	بردت قشرة الأرض وتشكلت الصخور وبدأت المياه تملأ البحار والمحيطات .
(قبل ٣,٨ مليار سنة)	تشكل الحساء البدئي للحياة من حامض السيانيد ، والفورمالدهيد والفوسفات .	في مياه المحيطات والبحيرات والمستنقعات .
(قبل ٣,٧ مليار سنة ق.م)	ظهرت (الخلايا بدائيات النوى) التي تضم في نواها المورثات والصبغيات البدائية .	في قيعان المحيطات والبحيرات ، واستغرقت هذه الخلية زهاء ملياري سنة قبل أن يتشكل البرنامج الوراثي في نواتها .
(قبل ١,٣ مليار سنة)	ظهرت طلائع النباتات والحيوانات .	بدأ التباين يظهر جليًا ما بين مخلوقات المملكة الحيوانية ومخلوقات المملكة النباتية .
(قبل ٦٠٠ مليون سنة)	حصل انفجار حيوي واسع في شتى أنواع المخلوقات الحية .	تزامن مع اضطراب شديد في درجة حرارة الأرض ، وجفاف شديد لمساحات شاسعة من التجمعات المائية ، فتراجعت شواطئ البحار عن مساحات شاسعة من اليابسة وبدأت تظهر طلائع الحيوانات .
(قبل ٥٢٠ ـ ٤٣٠ مليون سنة) (العصر الكمبري)	ظهر المرجان والحيوانات اللافقارية في مياه البحار والمحيطات ، وظهرت الحيوانات ثلاثيات الفصوص *Trilobite* وبعض النباتات	

الفترة	الأحداث	ملاحظات
(قبل ٤٣٠ مليون سنة)	لتقضي على أكثر من (٩٥٪) من أشكال الحياة.	سلّطت الأشعة الكونية على الأرض فمزّقت غلاف الأوزون وطوّقت الأرض في طوفان من الأشعة فوق البنفسجية أهلك الزرع والضرع.
(قبل ٤٢٠ ـ ٣٦٠ مليون سنة) (العصر الأردوفيشي)	ظهرت أنواع النباتات المعروفة حالياً، ازدهرت اللافقاريات، وظهرت الأشنيات Lichens والأسماك عديمة الفك في البحار.	
(قبل ٣٦٠ ـ ٣٢٠ مليون سنة) (العصر السيلوري)	انتشرت الأسماك عديمة الفك وظهرت طلائع البرمائيات *Amphibians* واللافقاريات المتقدمة بتركيبها وبدأ ظهور الأسماك الفكية.	
(قبل ٣٢٠ ـ ٢٨٠ مليون سنة) (العصر الديفوني)	ازدهرت جميع رتب الأسماك وظهرت الحشرات المجنحة وانتشرت النباتات السرخسية (*Fern*) في المستنقعات وانتشرت البرمائيات.	
(قبل ٢٨٠ ـ ٢٥٠ مليون سنة) (العصر المسيسبي)	تزداد انتشار البرمائيات وتكوّن الفحم الحجري في المستنقعات المنخفضة.	تشكل زهاء نصف أنواع مخلوقات المملكة الحيوانية في هذه الفترة.
(قبل ٢٥٠ ـ ٢٣٠ مليون سنة) (العصر البنسلفاني)	استمر تطور البرمائيات، وظهرت النباتات السرخسية الضخمة، وبدأ ظهور الزواحف.	في بداية هذا العصر هلك ٩٦٪ من الأنواع الحية التي ظهرت في الأرض لكن الحياة استمرت بالنمو.
(قبل ٢٣٠ ـ ٢٠٠ مليون سنة) (العصر البرمي)	انتشرت النباتات المخروطية من نوع الصنوبر في المناطق الجافة التي تسلطت عليها الزواحف، وتسلطت البرمائيات على المناطق الرطبة.	

(قبل ٢٠٠ ـ ١٦٥ مليون سنة) (العصر الترياسي)	بدأ ظهور الثدييات .	اختفت أنواع بأسرها من البرمائيات والزواحف القديمة .
(قبل ١٦٥ ـ ١٣٠ مليون سنة) (العصر الجوراسي)	سيطرت الزواحف العملاقة ومنها الديناصورات ، وبدأ ظهور الطيور .	في نهاية هذه الفترة انقرضت الطيور ذوات الأسنان والديناصورات والزواحف الطائرة العملاقة .
(قبل ١٣٠ ـ ٧٠ مليون سنة) (العصر الكريتاسي أو الطباشيري)	ظهرت النباتات المزهرة على اليابسة ، واستمرت سيادة الزواحف متناهية التخصص ، وظهرت أول الثدييات الكيسية وأول الثدييات الحقيقية ذوات الرحم .	انتهى العصر باكتمال الجبال وزوال الزواحف العملاقة .
(قبل ٧٠ ـ ٥٥ مليون سنة) (العصر الباليوسيني)	بدأ ظهور الرئيسات شبيهة الإنسان (*Primates*) وأوائل القوارض .	تزامن ظهور الرئيسات مع هلاك نصف الأجناس الحية التي كانت تعيش في الأرض بما فيها الزواحف البحرية والطائرة ، والحيوانات والنباتات المجهرية الطافية ، وبقايا الزواحف العملاقة .
(قبل ٥٥ ـ ٣٦ مليون سنة) (العصر الأيوسيني)	ظهرت أنواع جديدة من الثدييات ، ومنها الثدييات ذوات الظلف المزدوج وغير المزدوج وآكلات اللحوم الراقية .	
(قبل ٣٦ ـ ٢٦ مليون سنة) (العصر الأوليجوسيني)	حلت فصائل جديدة من الثدييات محل الأنواع المنقرضة وظهرت القرود .	
(قبل ٢٦ ـ ١١ مليون سنة) (العصر الميوسيني)	ظهرت سلالات القرود قريبة الشبه بالبشر .	

(قبل ٦ـ٧ ملايين سنة)	ظهرت أقدم السلالات البشرية .	اكتشف أقدم أثر منها عام ٢٠٠١م في كينيا .
الزمن الحاضر		
المستقبل ↓		
بعد (٥٠٠) مليون سنة	تنخفض CO_2 في جو الأرض إلى (١٥٠ جزءًا / بالمليون)	مات الغطاء النباتي للأرض ، اختفت معظم أشكال الحياة بما فيها البشر
بعد (٩٠٠) مليون سنة	تنخفض CO_2 إلى (١٠ أجزاء/ بالمليون) .	لم يبق سوى بعض المخلوقات المائية المجهرية .
بعد (مليار) سنة	ارتفاع سريع بدرجة حرارة الأرض .	دمرت آخر أشكال الحياة .
بعد (١,٦) مليار سنة	حرارة الأرض ١٠٠ درجة مئوية .	تبخرت المحيطات .
بعد (٢,٥) مليار سنة	لا أثر لبخار الماء في جو الأرض .	الأرض قاحلة تمامًا .

●●●

الفَصْلُ السَّادِسُ

تاريخ الإنسان

• ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] .

• إذا قارنا بين تاريخنا نحن البشر وتاريخ الكون فنحن في الحقيقة معاصرون لأبينا آدم ﷺ .

• على الرغم من أن عمر الإنسان وسط بين أعمار بعض المخلوقات ، بل قصير جدًّا مقابل أعمار بعضها ، فقد منحه الخالق العظيم قدرةً نادرةً على التخيل واستيعاب الزمن كله حتى كأن حياته تمتد من الأزل إلى الأبد .

لقد خلق الله ﷻ السماوات والأرض ، وبثَّ فيها أنواعًا لا تُعدُّ ولا تحصى من المخلوقات الحية التي قد يزيد عدد أنواعها عن (٣٠ مليون نوع) حسب تقديرات خبير الأحياء الأسترالي (ستيفن إروين) [1]، وقد اختار اللهُ ﷻ من بين هذه المخلوقات جميعًا الإنسانَ فكرَّمه ، وأسجد له الملائكة ، وسخَّر له كل ما في هذا الوجود من مخلوقات حية وغير حية ، وجعله سيد هذه المخلوقات ، وآتاه من صنوف النِّعَم والخيرات ما لا يعد ولا يحصى ، وشرَّفه بنعمة العقل الذي أهَّله به لتحصيل العلم والمعرفة وحمل الأمانة والاستخلاف في هذا الوجود .

• فلماذا اختار الخالقُ ﷻ الإنسانَ من بين سائر المخلوقات ليستخلفه في هذا الوجود ؟

• وكيف ظهر الإنسان إلى الوجود أول مرة ؟

• وهل خُلق الإنسان خلقًا مستقلًّا ؟ أم تطور عن غيره من المخلوقات الحية كما تقول نظريات التطور ؟

• وكم مضى على ظهور الإنسان في الأرض حتى الآن ؟

---

(١) ستيفن روبرت إروين (١٩٦٢م - ٢٠٠٦م) : خبير بالطبيعة ، اشتهر ببرنامجه التلفزيوني الوثائقي عن الحياة البرية (صائد التماسيح) الذي تقدمه زوجته ، وبرنامج (المخطر الأفاعي) ، عمل مديرًا لحديقة أستراليا للحيوانات في مدينة بيروا ، وكان محبًّا للطبيعة ومتحمسًا للحفاظ على البيئة ، ولم يكن يقدم للناس النصائح بالكلام فقط ، بل عمل جاهدًا لحماية الأنواع المهددة بالانقراض ، أسَّس مؤسسة محاربي الحياة البريَّة حول العالم (*Wildlife Warriors Worldwide*) واكتشف نوعًا جديدًا من السلاحف النهاشة يحمل اسمه (*Elseya Irwin*) .

- وكم بقي له من فسحة في هذه الدنيا ؟
- وهل ينتهي تاريخه بانتهاء هذه الفسحة ؟ أم أنَّ هناك حياة أخرى سوف يبعث من جديد لكي يحياها ؟

وأول ما يلفت النظر في تاريخ الإنسان هو ذلك الإعلان الإلهي على الملأ الأعلى عن خلقه وجعله خليفة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، مما يوحي بأن ظهور هذا المخلوق الجديد على مسرح الأحداث لم يكن مجرد حدث عادي مثل ظهور بقية المخلوقات التي سبقته للظهور في هذا العالم، بل كان حدثًا فريدًا يمثل مرحلة جديدة في مسار الأحداث، فلأول مرة نجد الملائكة يفكرون بالعلل والأسباب عندما عَلِموا بخلق الإنسان، وذلك على غير عادة الملائكة من الإذعان والتسليم، فكان هذا الموقف منهم يقوم مقام الإرهاص بتغير جذري في الوضع الوجودي للمخلوقات[1]، ويرجع هذا التحول الجديد إلى تفرُّد الإنسان تفردًا يميزه عن سائر المخلوقات التي تشاطره الوجود في هذا العالم، وقد أثبت تاريخ الإنسان حتى الآن هذا التفرد، وحتى علماء الطبيعة الذين درجوا على تصنيف للإنسان ضمن (المملكة الحيوانية) لم يجدوا بُدًّا من فصل دراستهم للإنسان عن دراسة الحيوان، فأفردوا للإنسان فرعًا خاصًا مستقلًّا من فروع العلم أطلقوا عليه اسم علم البشريات (*Anthropology*)، وهو العلم الذي يبحث في صفات الإنسان التي تميزه عن مختلف أفراد المملكة الحيوانية، كما يبحث في أعراق الإنسان المختلفة وحضاراته وإنجازاته وتاريخه.

السلالات البشرية:

يعتقد علماء الأحافير[2] وعلماء السلالات البشرية أن الإنسان الحالي الذي نحن بعض أفراده قد سبقته إلى الظهور سلالات بشرية عديدة، لكنها انقرضت منذ زمن سحيق قبل أن يحل محلها الإنسان الحالي، وهذه السلالات يصنفها العلماء من الأقدم إلى الأحدث على النحو التالي:

---

(١) انظر: مجلة المسلم المعاصر، العدد (٧٧)، (ص ٢١)، (١٩٩٥م)، وانظر: عائشة عبد الرحمن (القرآن وقضايا الإنسان) (ص ٣٤).

(٢) سبق التعريف به.

١- إنسان الألفية (*Millennium Man*) : وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه اكتشف مع دخولنا الألفية الثالثة بعد الميلاد ، واكتشفه الفريق العلمي الفرنسي الكيني بإشراف عالمة البشريات بريجيت سينوت (*Brigitte Senut*) الخبيرة في المتحف الطبيعي بباريس ، وأعلن عنه في عاصمة كينيا في شهر كانون الأول من عام (٢٠٠٠م) ، وقدّر العلماء أن تاريخه يرجع إلى ما قبل (٦ ـ ٧ ملايين سنة) من الآن [1] .

٢- الإنسان القادم من الأرض (*Ardipithicus*) : عثر على آثاره عالم الحفريات الأمريكي تيم وايت (*Tim White*) عام (١٩٩٤م) في حوض أواش الأوسط في تنزانيا ويعود تاريخه إلى (٤,٤ مليون سنة) .

٣- إنسان الجنوب (*Australopithecus*) : اكتشفت أحافيره في الحبشة عام (١٩٧٤م) من قبل العالمين موريس طيب ، ودونالد جوهانسون ، في ترسبات أرضية يرجع عمرها إلى حوالي (٣,٦ مليون سنة) وهو هيكل لأنثى أطلقوا عليها اسم لوسي (*Lucy*) ، ووجدوا أن طول هذا النوع من البشر كان يتراوح ما بين (١ ـ ١,٢ م) ، ومتوسط العمر (٢٠سنة) ، والدماغ أصغر قليلًا من دماغ البشر الحاليين [2] .

٤- الإنسان البارع (*Homohabilis*) : اكتشفت أحافيره في تنزانيا في العام (١٩٦٤م) ، ويرجع تاريخه إلى حوالي ٢,٥ مليون سنة .

٥- الإنسان المنتصب (*Homo erectus*) : وقد جاء في أعقاب الإنسان البارع واستمر إلى ما قبل (١٥٠,٠٠٠) سنة من الآن تقريبًا .

٦- الإنسان العاقل (*Homo sapiens*) : هو النوع الحالي من البشر ويرجع تاريخه إلى ما قبل (١٥٠,٠٠٠ ـ ١٣٠,٠٠٠ سنة) [3] من الآن ، ويصنفه علماء البشريات في شعبة الحبليات (*Chordate Phylum*) طائفة الثدييات (*Mammalia Class*) رتبة الرئيسات (*Primates Ordre*) فصيلة الإنسان (*Hominid Family*) .

ويعتقد معظم علماء السلالات البشرية اعتقادًا جازمًا أن نشأة الحياة مبنية على التطور خلقًا من بعد خلق ، وأن خلق الإنسان لا يخرج عن هذه السُّنة ، وأنه ما زال يتغير ويتطور ،

---

(١) انظر : مجلة درشبيجل الألمانية ، العدد (٥٠) (٢٠٠٠م) .

(٢) د. أحمد نبيل أبو خطوة : موسوعة أبو خطوة ، (ص ٥٦٢) ، مصدر سابق .

وأنه سوف يصل في المستقبل إلى صورة أرقى وأذكى ، ودليلهم على هذه التوقعات ما شاهدوه من التطورات التي طرأت على السلالات البشرية الغابرة التي ذكرناها .

وهذه الصورة التي يرسمها العلماء عن تطور الأجناس البشرية تبدو متعارضة مع ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية عن خلق الإنسان ، فالقرآن الكريم يقرر في العديد من الآيات أن البشر قد تناسلوا من أبي البشرية آدم ﷺ ، والنبيُّ ﷺ يقول : « النَّاسُ كلُّهُمْ بَنُو آدَمَ ، وآدَمُ خُلِقَ مِن تُرابٍ » [1] ، ويوحي ظاهِرُ بعض الآيات والأحاديث أن الإنسان قد خُلِقَ خَلْقًا مستقلًا ، وأنَّ خلقه بدأ من التراب أو الطين أو الماء ، وليس من مخلوقات حيَّة أخرى سابقة عليه ، غير أن التدقيق في هذه النصوص السماوية يبين بوضوح أنها لا تتحدث عن (الطريقة) التي خلق الإنسان بها ، وإنما تتحدث عن أمور أخرى تتضح لنا حين نصنف تلك النصوص بحسب الموضوع الذي تتناوله ، وذلك على النحو الآتي :

(أ) نصوص تبيِّن العناصر الأساسية التي خلق منها الإنسان (ماء + تراب) كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : ٥] ، وقد ثبت أن الماء يشكل نحو ثلثي جسم الإنسان (٦٥٪) ، أما التراب فيشكل الثلث الآخر (٣٥٪) وهو خليط من عناصر الأرض المعروفة (الفحم ، الحديد ، الكالسيوم ، الفوسفات ، المغنزيوم ، المنغنيز ، وبعض العناصر الثمينة النادرة كالذهب والفضة وغيرها ..) .

(ب) نصوص تشير إلى المراحل الأساسية التي مرت بها عملية الخلق ونشأة الحياة حتى انتهت بظهور الإنسان في الأرض (تراب ، طين ، طين لازب ، سلالة من طين لازب ، حمإ ، حمإ مسنون ، خلقكم أطوارًا .. إنسان) .

(ج) نصوص تضمنت إشارات شبه صريحة للعلاقة التي تربط خلق الإنسان بخلق غيره من المخلوقات الحية ، أي النبات والحيوان (أنبتكم من الأرض نباتًا ، خلق الإنسان من عَلَق ، ما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ..) .

(د) نصوص تعرض مراحل نمو الجنين داخل رحم أمه (نطفة ، علقة ، مضغة ، عظام ، كسوة العظام باللحم ، التسوية ، نفخ الروح .. ثم أنشأناه خلقًا آخر) .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٩٠) وقال : حسن غريب ، وأبو داود (٤٤٥٢) ، وأحمد في مسنده (١٠٣٦٢) .

وبهذا التصنيف للنصوص تصبح مسألة خلق الإنسان أكثر وضوحًا ، ويظلُّ الباب مفتوحًا لاجتهاد العلماء في تحديد (الكيفية) التي ظهر بها الإنسان في الأرض ، علمًا بأن القرآن الكريم يدعونا لننظر كيف بدأ الخلق ، وكيف كان ، وكيف سار ، وكيف صار آخر الأمر يقول تعالى :﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] فالقرآن الكريم يترك المسألة لاجتهاد العلماء لينظروا كيف بدأ الخلق ، ولكنه في الوقت نفسه يطلب منهم (البرهان العلمي) على صدق دعواهم يقول تعالى : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل : ٦٤] ، وقد حاول كثير منهم تقديم البرهان ، ووضعوا حتى الآن نظريَّات عديدة تكاد تُجمع كلها على أنَّ الإنسان نشأ عن مخلوقات حية أخرى سابقة عليه عبر عمليات النشوء والارتقاء والتطور العضوي ، وأنه جاء في القمَّةِ من سُلَّمِ التطور ليتوِّج المملكة الحيوانية (انظر فصل : تاريخ الحياة) ومازالت بين الحين والآخر تنشر هنا وهناك بحوث علمية بعضها يؤيد فكرة تطور الإنسان وبعضها يعارضها .

وقد نشرت مجلة العالِم الجديد (*New Scientist*) البريطانية مقالة علمية ملفتة للنظر في عددها لشهر نيسان (١٩٩٩م) جاء فيها : (أن علماء الوراثة وجدوا أخيرًا أن مورثات القرود من نوع الشمبانزي تتطابق بنسبة ٩٨.٥ ٪ مع مورثات الإنسان) وهذا ما جعل العلماء يتساءلون بكثير من الحيرة والدهشة عن هذا الفارق الضئيل بين مورثات الإنسان ومورثات القرد ، وكيف أن هذا الفارق الضئيل جدًّا قد جعل الإنسان أهلًا لحمل الأمانة والاستخلاف وتغيير وجه الأرض في غضون سنوات قليلة جدًّا من عمر الزمن ؟ فيما بقي الشمبانزي على حالته البدائية الأولى بالرغم من أنه سبق الإنسان إلى الظهور في الأرض بملايين السنين .

وقد استنتج بعض العلماء من خلال هذه المشاهدات وأمثالها ، أن التشابه الكبير بين مورثات الإنسان ، ومورثات الشمبانزي ، لا يعني بالضرورة أن البشر كانوا شمبانزي من قبل ثم صاروا بشرًا ، وقد دعَّم هؤلاء العلماء وجهة نظرهم هذه بدليل طريف أخذوه من دودةٍ بدائيةٍ ضئيلةٍ جدًّا تسمى (نيماتودس) ، لا يزيد طولها عن (١ ملم) إلَّا أن مورثاتها تتطابق مع مورثات الإنسان بنسبة تزيد عن (٧٥ ٪) ولكنها بالرغم من هذا التقارب الوراثي الكبير مع بني البشر ظلت في عداد الحشرات الهامشية فيما ارتقى الإنسان لأعلى درجات الخلق والفعل والتأثير ، وهذا يدلُّ دلالة قاطعة على أن التطابق الكبير بين مورثات الإنسان ومورثات هذه الدودة ، لا يعني أبدًا أن الدودة قد قطعت ثلاثة أرباع

الطريق نحو التحوُّل إلى مخلوق بشري ، فما بين هذه الدودة الضئيلة وبين الإنسان اختلاف هائل جدًّا لا يدع مجالًا للمقارنة .

إلّا أن المسألة لا تنتهي عند هذا الحد ، بل تبقى مفتوحة للنقاش ، ففي مقابل أولئك العلماء المعارضين لفكرة التطور نجد علماء آخرين يؤيدونها من خلال تقديم أدلة علمية أيضًا ، ومنها على سبيل المثال : ذلك الاختلاف الضئيل جدًّا ما بين التكوين الوراثي لقرود الشمبانزي ، والتكوين الوراثي للإنسان ، فإن هذا الاختلاف الضئيل هو الذي جعل الإنسان إنسانًا ، وجعل القرد قردًا ، وهذا يدل على أن تطور المخلوق الحي من نوع إلى نوع آخر لا يحتاج إلى تعديل واسع في البرنامج الوراثي .

وهناك دليل آخر على هذه المفارقة نستمده من علم الوراثة ، فإن التشوهات الوراثية التي تصيب الأجنة البشرية تنتج عن خَلَلٍ طفيف في البنية الوراثية للجنين ، كأن يتغير موضع إحدى المورثات على أحد الصبغيات (*Chromosomes*) ، أو يحل حامض أميني مكان حامض آخر في إحدى المورثات ، فإن مثل هذه الاضطرابات الطفيفة جدًّا ينتج عنها تشوهات واسعة تسفر عن ولادة مخلوقات ممسوخة تبدو كأنها ليست بشرًا ، وهذه الحالات ليست نادرة ، فإن مستشفيات الولادة في شتى أنحاء العالم تشهد حالات عديدة منها كل يوم ، وكثيرًا ما يشاع بين الناس أن فلانة من النساء قد ولدت مولودًا مسخًا كأنه القرد .

وهكذا نجد أن مسألة التطور العضوي تنطوي على إشكاليات ما زالت بين أخذ وردٍّ بين العلماء الذين ما فتئ بعضهم بين الحين والآخر ، يقدمون أدلة جديدة يزعمون من خلالها أن الإنسان قد تطور فعلًا عن مخلوقات أخرى سابقة عليه ، بينما يقدم آخرون أدلة مناقضة ، ولا جدال بأن تفنيد مثل هذه الدعاوى أو التسليم بها إن صحّت لا يكون بالأقوال وحدها ، ولا بالنظريات المجرَّدة التي تفتقر إلى الشواهد المادية الملموسة ، ولا يكون أيضًا بالرجوع إلى النصوص السماوية وحدها ؛ لأن النصوص كما أسلفنا لا تقطع بهذه المسألة ، بل تكتفي بإشارات عامة تاركة للعقل البشري أن يبحث وينقب ويكتشف على طريقة القرآن الكريم : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

وبهذا المنهج القرآني القائم على البرهان يمكن أن تتكشف لنا حقائق جديدة تزيد من فهمنا للنصوص السماوية ، كما حصل لكثير من الظواهر الكونية التي اكتشفنا أسرارها

مؤخرًا وأصبحنا نفهم النصوص المتعلقة بها فهمًا جديدًا على ضوء تلك الكشوف ، وما مسألة (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية) إلّا دليلًا على هذه الحقيقة ، إذ أصبحنا نفهم بعض نصوص القرآن الكريم فهمًا جديدًا على ضوء المستجدات العلمية التي توافرت لنا في العصر الراهن .

وحسبنا أن نتذكر هنا النزاع الحاد الذي نشب في القرون الوسطى في أوروبا بين الكنيسة وعلماء الفلك حول مسألة دوران الشمس ومركزية الأرض ، فقد تذرعت الكنيسة بنصوص الكتاب المقدس في حكمها بالهرطقة على العلماء الذين قالوا إن الأرض هي التي تدور حول الشمس وليس العكس ، بينما كانت الكنيسة تظن من خلال فهمها للكتاب المقدس أن الشمس هي التي تدور ، وبناءً على هذا الفهم حكمت على العلماء بالإعدام ، وأحرقت بعضهم وهم أحياء ؛ لأنهم في زعم الكنيسة جاءوا بأفكار ونظريات تخالف نصوص الكتاب المقدس ، لكن الأيام أثبتت أن العلماء كانوا على حق وأن فهم الكنيسة لنصوص الكتاب كان خاطئًا .

وبهذا يتبيّن أن فهم بعض الظواهر الكونية من خلال النصوص السماوية وحدها دون النظر إلى الواقع والتجربة والملاحظة قد يكون مضللًا ، بل قد يورط النصوص السماوية ببعض التفاسير البشرية الخاطئة ؛ لأن النصوص (حَمَّالة أَوْجُه) كما ورد عن علي بن أبي طالب ﷺ في وصفه لنصوص القرآن الكريم ، ولهذا يحثنا القرآن الكريم في أكثر من موضع على السير في الأرض للنظر في الظواهر الكونية ودراستها وفهمها فهمًا صحيحًا ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا .. ﴾ [العنكبوت : ٢٠] ، وكأنه يقول لنا إن القطع بصحة النظريات العلمية أو خطئها لا يصح أن يعتمد على النصوص السماوية وحدها .

استخلاف الإنسان :

وتبقى بالرغم من كل ما قدمناه إشكالية تحتاج إلى بيان ، وهي تتعلق باستخلاف الإنسان في هذا العالم دون سائر المخلوقات الأخرى ، فهناك اعتقاد بأن هذا الاستخلاف يقتضي أن يكون الإنسان قد خلق خلقًا مستقلًا عن بقية المخلوقات ، وهذا اعتقاد لا يسنده دليل من الكتاب ولا من السنة ، فكما اختار الله الإنسانَ لهذه المهمة فقد كان ممكنًا أن يختار لها غيره من المخلوقات بدليل أن أمانة الاستخلاف في هذا الوجود لم تُعْرَض على الإنسان وحده بل عرضت على جميع المخلوقات ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

وهذا يدل على أن الإنسان وغيره من المخلوقات الحيّة وغير الحية كانوا سواءً أمام التخيير الإلهي ، ومن ثم فإن استخلاف الإنسان في هذا الوجود لا يقتضي بالضرورة أن يكون الإنسان قد خُلق خلقًا مستقلًا عن بقية الخلائق ، وهذا لا يعني على الإطلاق أن الإنسان مجرد مخلوق عادي ، فالشواهد الكثيرة تدل دلالة واضحة على تميُّز هذا المخلوق تميزًا كبيرًا عن بقية المخلوقات ، فقد لاحظ العلماء مثلًا (أن خط التطور البشري قد انحرف في مرحلة ما في الماضي غير الموغل في القدم ، مما جعلنا نعيش في بعد جديد أخذ فيه الزمن معنى مختلفًا ، والزمن البشري فريد وفيه إلى حد ما نوع من التناقض ، فاهتمامنا لا ينصبُّ على مقدار ما اكتسبناه من الصفات التي ميزتنا عن غيرنا بقدر ما ينصب على الوقت الذي اكتسبنا فيه هذه الصفات ، فنحن نأتي إلى هذه الدنيا ببطءٍ وننمو ببطء ، ونصل إلى كامل نضجنا متأخرين عن أي مخلوق آخر ، مما له دلالة كبرى سواء نظرنا إلى الماضي أم إلى المستقبل)[1] .

أضف إلى هذا ما يمتاز به الدماغ البشري عن أدمغة الحيوانات بما فيها الحيوانات التي يقارب تكوينها الوراثي تكوين الإنسان ، وقد قدم لنا علم التشريح المقارن (*Comparative Anatomy*) شواهد دامغة على ما يمتاز به العقل البشري من إمكانيات لا يكاد العقل نفسه أن يحيط بها ، فعندما نقارن مثلًا قشرة الدماغ عند الإنسان ـ وهي التي تقوم بأهم الأنشطة العقلية ـ وقشرة الدماغ عند غيره من الحيوانات نجد أن مساحة هذه القشرة عند الفأر مثلًا لا تزيد عن مساحة طابع بريدي صغير بينما تعادل قشرة دماغ القرد العادي مساحة الظرف الذي وضع عليه الطابع ، أما قشرة دماغ الشمبانزي الذي هو أذكى نسبيًا من القرود الأخرى فتعادل صفحة واحدة من صفحات الرسالة ، بينما تعادل قشرة دماغ الإنسان بالمقابل أربع صفحات ، وهذا كله يدل دلالة واضحة على ما يتميز به الدماغ البشري من طاقات .

ومع أن قشرة دماغ الفيل مثلًا تعادل مساحة ثماني صفحات من صفحات الرسالة فإن حظ الإنسان يبقى أكبر بكثير من حظ الفيل ؛ لأن مساحة قشرة الدماغ إذا ما قورنت بحجم الجسم فإنها عند الإنسان تعادل عشرة أضعاف ما عند الفيل ، ناهيك عن أن ما أنجزه الإنسان خلال تاريخه القصير نسبيًا قد تجاوز كل ما أنجزته بقية المخلوقات التي

---

(١) نورمان بريل : بزوغ العقل البشري (ص ١١٠) ، مصدر سابق .

سبقته إلى هذا الوجود بآماد سحيقة ، هذا إن كانت تلك المخلوقات قد أنجزت شيئًا على الإطلاق .. فتأمل [(١)] .

ومن الناحية الكمية والكيفية (إذا أردنا أن نمثل نمو عقل الحيوانات وعقل الإنسان ، برسم بياني ، نجد أن الخط البياني يبدأ من الصفر للحيوانات الدنيئة ، ثم يأخذ بالارتفاع ببطء شديد ، مارًّا باللافقاريات ، ثم الأسماك ، ثم الزواحف ، ثم الطيور ، ثم الثدييات ، ثم يرتفع الخط قليلًا عندما يصل إلى القردة العليا ، ثم يرتفع ارتفاعًا هائلًا عندما يصل إلى الإنسان ، فما سبب هذه القفزة الفجائية ؟ ولماذا ينفرد بها الإنسان دون بقية الحيوانات ؟) [(٢)] ، إن الجواب الذي يبدو أن لا جواب غيره هو أن هذه الميزات قد اختص الله ﷻ بها الإنسان دون سائر المخلوقات حتى يكون أهلًا لحمل الأمانة ، والقيام بمهمة الاستخلاف التي تتطلب قدرات متفردة تعين الإنسان على مواصلة الرحلة حتى آخر الزمان .

حداثة التاريخ البشري :

عرفنا مما سلف أن الإنسان ظهر على مسرح الوجود بعد وقت طويل جدًّا من ظهور الأرض وظهور بقية المخلوقات الحية التي تشاطره العيش على ظهر هذا الكوكب ، وهناك نصوص عديدة في الكتاب والسنة تؤكد هذه الحقيقة ، منها قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠] ، فهذا الاستفهام من الملائكة عليهم السلام يوحي بأنهم كانوا يرون في الأرض قبل الإنسان مخلوقات حية أخرى ، ونحن نستبعد أن تكون تلك المخلوقات هي الملائكة أو الجن كما ورد في بعض التفاسير ؛ لأن الدماء التي أشار إليها الملائكة لا تكون إلا في مخلوقات حيَّة يجري في عروقها الدم ، أي أنواع من الحيوانات التي نعرفها اليوم أو التي عاشت وانقرضت قبل مجيء الإنسان إلى هذه الأرض ، وقد ورد عن النبي ﷺ كما أشرنا من قبل ما يؤكد ظهور مخلوقات حية أخرى في الأرض قبل الإنسان ، وذلك في قوله : « خَلَقَ اللهُ ﷻ التربةَ يومَ السبت ، وخلقَ فيها الجبالَ يومَ الأحد ، وخلقَ الشَّجرَ يومَ الاثنين ، وخلقَ المكروهَ يومَ الثلاثاء ، وخلقَ النُّورَ يومَ الأربعاء ، وبثَّ فيها الدوابَّ يوم الخميس ، وخلقَ آدمَ ﷺ بعدَ العصرِ من يومِ الجمعة في

(١) انظر : د.أحمد محمد كنعان (الموسوعة الطبية الفقهية) مادة : عقل ، دار النفائس ، بيروت (٢٠٠٢م) .

(٢) نورمان بريل : بزوغ العقل البشري ، (ص ٢) ، مصدر سابق .

آخر الخلق ، في آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل »[1] ، فهذا الترتيب الذي ذكره النبيُّ ﷺ يدلُّ أيضًا على أن ظهور المخلوقات الحية من شجر (= نباتات) ودواب (= حيوانات) قد سبق ظهور الإنسان بفترات طويلة ، فالأيام المشار إليها في الحديث الذي تقدم ليست كأيامنا نحن أهل الأرض ، بل قد يعدل اليوم الواحد عند الله ﷻ آلاف السنين من سنوات أرضنا كما ورد في القرآن الكريم (انظر فصل: تاريخ الحياة) .

وقد سلَّمت البحوثُ والدراساتُ العلميةُ الحديثةُ بهذه الحقائق ، وأقرَّت بأنَّ ظهورَ الأحياء في الأرض قد حصل فعلًا وفق الترتيب الذي ذكره النبيُّ ﷺ ، وأنَّ الإنسانَ جاء في آخر القائمة ، ولعل من أعجب ما قرأت بهذا الصدد ذلك التعبير المطابق تمامًا لما ورد عن النبي ﷺ ، وهو ما ذكره البروفيسور فرانك كلوز الذي يعد أحد أبرز العلماء البريطانيين العاملين في حقل الفيزياء الذرية ، كما يعد مرجعًا عاليًا في فيزياء الجسيمات فقد كتب يقول : (ولو شبهنا مدى الزمان من الانفجار الكبير حتى الوقت الحالي بسنة واحدة ، فإن الحياة البشرية تكون قد نشأت أثناء آخر نصف ساعة في ليلة رأس السنة الجديدة ، وكل الجنس الذي نحن في فمته بدأ فحسب خلال فترة بعد الظهيرة الأخيرة)[2] ، وهذا يعني أننا إذا قارنا بين تاريخنا نحن البشر وتاريخ الكون فنحن في الحقيقة معاصرون لأبينا آدم ﷺ .

وأقدم الأحافير التي عثر عليها العلماء حتى الآن لهياكل تُشبه البشر لا يزيد عمرها عن (٦ ـ ٧ ملايين سنة) كما ذكرنا سابقًا ، أما الأحافير التي وجد فيها العلماءُ ملامح وصفات الإنسان الحالي كما نعرفها اليوم فقد لا يزيد عمرها عن (١٠٠ ألف ـ ١٤٠ ألف سنة) على أبعد تقدير[3] ، وهذا يعني أن تاريخ الإنسان في هذا الوجود حديثٌ جدًّا إذا ما قُورن بعمر الكون (١٥ ـ ٢٠ مليار سنة) أو عمر المجموعة الشمسية (٥ مليارات سنة) أو عمر الأرض (٤,٥ مليار سنة) أو ظهور الحياة في الأرض (٤,٢ مليار سنة) أو ظهور الفقاريات (٤٥٠ مليون سنة) التي دَرَجَ علماءُ الحياة على تصنيف الإنسان في زمرتها[4] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) فرانك كلوز : النهاية ، الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون ، (ص ٣٠٨) ، مصدر سابق .

(٣) جنس : موسوعة المعلومات العامة للأرقام القياسية ، (ص ١٦) .

(٤) ستيفن هوكنغ : موجز في تاريخ الزمن ، (ص ٢٧) ، مصدر سابق .

ولو أننا مثَّلنا عمرَ المجموعة الشمسية بسنة واحدة من سنوات أرضنا لوجدنا أنَّ أول ظهور للإنسان على مسرح الوجود كان في الساعة (١٥ : ٤) من فجر آخر يوم من أيام هذه السنة [1] ، ولو مثلنا الخمسة مليارات سنة من تاريخ الأرض بخمسين سنة الأخيرة نجد أن الحياة بدأت منذ ثلاثين سنة ، والأسماك عديمة الفك ظهرت منذ أربع سنوات ، أما نشأة الرئيسات الشبيهة بالإنسان فتصل إلى نحو ثمانية أشهر ، والإنسان نفسه يكون قد قضى على الأرض يومين فقط ، أما مدنية الإنسان التي بدأت مع استقراره في موطن خاص به ليمارس الزراعة فقد كان منذ خمس وعشرين دقيقة لا غير [2] .

وانظر معي إلى (الجدول ـ ٥) لترى أن تاريخ الإنسان في هذا الوجود لا يكاد يساوي شيئًا بالقياس إلى عمر الكون ، أو عمر الأرض ، أو عمر الحياة في الأرض ، وهذا يعني أن أحداثًا جسامًا قد جرت في غيابنا نحن البشر قبل أن نصبح شيئًا مذكورًا ، وصدق الله العظيم الذي يبين هذه الحقيقة الكونية في محكم آياته فيقول : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] .

(الجدول ـ ٥) مقارنة عمر البشرية من بدايتها وحتى الآن بأعمار الكون والأرض والحياة



(لاحظ أن عمر البشرية لا يكاد يساوي شيئًا مذكورًا)

وهذا يعني أن الإنسان ما زال عند البدايات بالرغم من ملايين السنين التي مضت من تاريخه ، وكأن القلم الذي يسطِّر تاريخ الإنسان في هذا الوجود ما زال عند السطر الأول ، بل عند الكلمة الأولى ، وكأن الإنسان عبر تاريخه الماضي كان يعيش مرحلة الحمل في رحم أمه الأرض ، وما هذا الإنجاز العظيم الذي حققه حين اخترق أجواء الفضاء ، ووطئت

(١) Guiness (1994) " *Book Of Records* " PP56.

(٢) روبرت ليرمان : الطريق الطويل إلى الإنسان ، (ص ٢٦٥) ، مصدر سابق .

قدماه لأول مرة أرض القمر (عام ١٩٦٩م ، آرمسترونغ ، الولايات المتحدة) إلا المخاض أو الإعلان الرسمي لولادته وخروجه من رحم أمه إلى ملكوت الله الواسع ، ليطأ بقَدَمه بعد أن ارتاد بخياله تلك العوالم البِكْر ، فيَعْمُر الكون ، ويُسَطِّر المزيد من صفحات التاريخ قبل أن يصل خط النهاية التي لا يعلم منتهاها إلا الله ﷻ .

وما دام عمر الجنس البشري لا يزيد عن طرفة عين إذا ما قارناه بعمر الوجود فإن هذا الظهور المتأخر على مسرح الحياة يثير في البال سؤالًا منطقيًا يبحث عن جواب : فلماذا تأخر خلق الإنسان عن بقية المخلوقات الحية طوال هذه الدهور ؟ مع أن القرآن الكريم يقرر في أكثر من آية أن السماوات والأرض خُلقت وسُخِّرَت لهذا المخلوق ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

ومما يسعفنا لمقاربة الجواب على هذا السؤال المحيِّر أن (الزمن) مفهوم نسبي كما يقرر القرآن الكريم ، وكما تقرر العلوم الرياضية أيضًا ، ومن ذلك مثلًا أن السَّنَة على أرضنا تساوي ٣٦٥ يومًا ، أما في كوكب الزُّهرة فتبلغ ٢٢٥ يومًا من أيامنا ، بينما تتجاوز على كوكب بلوتو البعيد جدًّا عن الشمس (٣١,٠٠٠ يومًا) أو ٨٥ سنة من سنوات أرضنا ، أما اليوم الذي يساوي عندنا ٢٤ ساعة فإنه لا يزيد على كوكب المشتري عن ١٠ ساعات فقطْ ، أما يوم الزُّهرة فهو طويل جدًّا ويصل إلى ٢٤٣ يومًا من أيامنا ، أي إن يوم الزُّهرة أطول من سنتها .. فتأمل .

وهناك مثال آخر .. فلو أن شخصًا سافر من دمشق إلى القاهرة بالطائرة لزيارة الآثار الفرعونية هناك فإن رحلته تستغرق أقل من (ساعتين) وهو زمن قصير نسبيًّا إذا ما قورن بعمر الإنسان ، أما عند مقارنة هذا الزمن بأعمار الفيروسات التي ترافق المسافر في رحلته وتعيش في جسمه فإنه يعادل آلاف الأجيال ؛ لأن عمر الفيروس لا يزيد عن ثوانٍ معدودات ، أي إن هذا الزمن القصير الذي لا يتيح للمسافر أكثر من تناول وجبة خفيفة من الطعام يعادل عند الفيروسات آلاف السنين التي عاشتها الحضارة الفرعونية ؛ لأن الفيروسات تكون قد توالدت آلاف المرات ، وأنجبت آلاف الأجيال .

وبناءً على هذه النسبية في الزمن يمكن أن نعيد قراءة الحقائق الكونية التي قدمناها عن تاريخ ظهور الإنسان ، فإن الدهور الطويلة جدًّا التي مضت قبل ظهور الإنسان إذا ما

قارنَّاها بالزمن القصير نسبيًّا الذي عاشه الإنسان حتى الآن فوق هذه الأرض توحي بأن هذا المخلوق الذي كرَّمه ربُّه واستخلفه، سوف يَعْمُر الكون لعصور متطاولة أخرى، هي أطول بكثير مما يخطر في بالنا عادة، فالإنسان على ما يبدو لم يأت هذا الوجود ليقول كلمة الختام ويمضي، بل جاء ليسطر الكثير من صفحات الوجود، ليس في الأرض وحدها، بل على الأرجح في الكثير من الكواكب الأخرى التي بدأ منذ قليل يقرع أبوابها.

ونحن حين نسرح بفكرنا على هذه الصورة التي تبدو للوهلة الأولى مغرقة في الخيال فإننا لا نرجم بالغيب ولا نرسم رؤيتنا من سراب، بل نستشفها من ذلك الحوار السماوي الذي جرى بين الخالق ﷻ وملائكته المقرَّبين حين أخبرهم سبحانه عن اقتراب ميلاد الإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فإن قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يوحي أن الإنسان ما زال أمامه مشوار طويل سوف يفعل فيه الكثير مما لم يخطر حتى على بال الملائكة المقربين عليهم السلام.

أضف إلى هذا أن العصور المتطاولة التي مرَّ بها الوجود وهو يتهيأ لاستقبال (الخليفة) توحي بأن إقامته في هذه (الدار) سوف تطول، وإذا ما أردنا التمثيل ـ ولله سبحانه وتعالى المثل الأعلى ـ فإن هذه الحال تشبه حال الذي يبني دارًا في عامٍ واحدٍ ليقيم فيها أعوامًا مديدة، فكذلك نعتقد أن الخالق العظيم قد قدَّر لهذا الوجود أن يُعَمِّر ويتهيأ عبر آماد طويلة من الزمن ليحتضن الإنسان آمادًا طويلة مماثلة.

(الجدول ـ ٦) مراحل نشأة السلالات البشرية في سياق نشأة الكون ونشأة الحياة

الزمن	الحدث	ملاحظات
(قبل ٢٠ مليار سنة)	ولادة الكون.	بدأت بالانفطار العظيم.
(قبل ٤,٦ مليار سنة)	ولادة الأرض والمجموعة الشمسية.	جدباء لا حياة فيها.
(قبل ٤ مليارات سنة)	ظهرت أول علامات الحياة في الأرض.	(المياه) .
(قبل ٦٥ مليون سنة)	ظهرت الرئيسات الشبيهة بالإنسان.	تزامن ظهورها مع هلاك نصف الأجناس الحية التي كانت في الأرض.

(قبل ٦ ـ ٧ ملايين سنة)	ظهرت أقدم السلالات البشرية .	اكتشفت عام ٢٠٠١م في كينيا .
(قبل ٤,٤ مليون سنة)	ظهرت سلالة الإنسان القادم من الأرض .	اكتشفت عام ١٩٩٤م في تنزانيا .
(قبل ٣,٦ مليون سنة)	ظهرت سلالة إنسان أسترالبا .	اكتشفت عام ١٩٧٤م في الحبشة .
(قبل ٢,٥ مليون سنة)	ظهرت سلالة الإنسان البارع .	اكتشفت عام ١٩٦٤م في تنزانيا .
(قبل ٢ مليون سنة)	ظهرت سلالة الإنسان القائم .	استمر إلى ما قبل ١٥٠,٠٠٠ سنة .
(قبل ٢ مليون سنة)	ظهرت سلالات الإنسان العاقل الأولى .	استخدم الإنسان الأسلحة الحجرية .
(قبل ١,٥ مليون سنة)	ظهرت سلالة الإنسان المنتصب .	أسماؤه متعددة .
(قبل ٨٠٠,٠٠٠)	بدأ الإنسان يستخدم النار ويتحكم بها .	
(قبل ١٤٠,٠٠٠ ـ ١٠٠,٠٠٠ سنة)	ظهرت سلالات إنسان كرومانيون التي انتهت إلى السلالات البشرية الحالية .	يشبه الإنسان الحالي مع ملامح بدائية تعود للإنسان المنتصب .
(قبل ٦٥,٠٠٠ سنة)	وصل الإنسان إلى المنطقة العربية .	
(قبل ٣٥,٠٠٠ سنة)	وصل الإنسان إلى أوروبا .	
(قبل ١٢,٠٠٠ سنة)	وصل الإنسان إلى القارة الأمريكية .	

ومن ثم فأنا لست أبدًا مع القائلين : (إننا قد نكون مجرد نزوة عارضة في موكب الخلق ، وقد نتلاشى كما ظهرنا ، دون أن يحسَّ بنا أحد ، ودون أن يرثي لنا أحد ، بل دون أن يدرك أحد أننا وجدنا في يوم من الأيام على ظهر هذه البسيطة)[1] ، بل أعتقد أن الجنس البشري سيواصل رحلته في هذا الوجود ليعمر الكثير من أرجائه ، بما فيها الكواكب البعيدة عن مجموعتنا الشمسية ، وربما البعيدة عن مجرتنا .. هناك في السماوات البعيدة جدًّا .. والطريق

(١) نورمان بريل : بزوغ العقل البشري ، (ص ٣٠٢) ، مصدر سابق .

إلى هذه الرحلة غير مسدود ، بل هو مفتوح لنا على مداه ، ولكن بشرط وحيد هو الذي أشار له قول الخالق ﷻ : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمن : ٣٣] .

وهنا في اعتقادنا لا يتعارض مع النصوص التي وردت في الكتاب والسنة عن اقتراب يوم القيامة ، منها قوله تعالى : ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] ، ومنها أيضًا قول النبي ﷺ : « بعثتُ أنا والسَّاعَةُ كهاتين ، وَيَقْرُنُ بين إصبعيهِ السَّبَّابَةِ والوُسْطى .. » الحديث [١] ، فقد مضى على هذا البيان الإلهي والبيان النبوي كذلك أكثر من (١٤ قرن) ولم تقم الساعة بعد ، ما يعني أن المسألة نسبية ، وأن هذه النصوص تريد من الإنسان ألا يغترّ ببعد يوم القيامة ، وأن يظلّ دومًا على أهبة الاستعداد للرحيل ؛ لأنه إذا مات انقطع عمله كما ورد في الصحيح .

ومن طريف ما قرأت في هذا السياق ما روته الأديبة السورية (غادة السمان) [٢] ، حين زارت متحف بغداد وكتبت تقول : (وقبل أن أغادر المتحف عدت لأقف ثانية أمام جمجمة وهيكل عظمي لإنسان عمره ٤٥ ألف سنة (إنسان نياندرتال) وهيكل آخر عمره ٦٠ ألف سنة ، وقد وضعا في قفصين زجاجيين متجاورين ، تخيلتهما يتحاوران بعد أن يذهب الناس والحراس ، ترى ماذا يقولان ؟ سوف يقول الأول للثاني إنه قيل له ذات يوم : ستكون نهاية العالم بعد أعوام وأبعث من جديد ، فماذا حدث ؟ وسوف يرد عليه الآخر : قيل لي قبل أن أموت أنا أيضًا إنني بعد ألف سنة سوف أبعث من جديد ! وها هما

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ١٥٣) ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه ، وقال الإمام النووي : قال القاضي يحتمل أنه تمثيل لمقاربتها وأنه ليس بينهما إصبع أخرى كما أنه لا نبي بينه وبين الساعة ، ويحتمل أنه لتقريب ما بينهما من المدة وأن التفاوت بينهما كالتفاوت بين الإصبعين تقريبًا لا تحديدًا .

(٢) غادة أحمد السمان (١٩٤٢م) : أديبة سورية معاصرة ، حصلت على الإجازة في الأدب الإنجليزي من الجامعة السورية ، وارتحلت إلى بيروت فحصلت على الماجستير في مسرح اللامعقول من الجامعة الأمريكية ، ثم سافرت إلى أوروبا فعملت مراسلة صحفية ، وقدمت رؤية أدبية خرجت بها عن الإطار التقليدي لمشكلات المرأة والحركات النسوية ، أصدرت مجموعتها القصصية الأولى (عيناك قدري) عام (١٩٦٢م) ، واعتبر النقاد مجموعتها الرابعة (رحيل المرافئ القديمة) أهم ما كتبته ؛ لأنها صورت بقالب أدبي بارع المأزق الذي يعيشه المثقف العربي والهوة السحيقة ما بين فكره وسلوكه ، وفي أواخر عام (١٩٧٤م) أصدرت روايتها (بيروت ٧٥) التي تنبأت فيها بالحرب الأهلية هناك ، ولم تلبث الحرب أن وقعت وخلفت جرحًا داميًا مزمنًا في جسد لبنان .

مسترخيان في قفصيها الزجاجيين في المتحف ، وهما ينتظران منذ (٤٥ ـ ٦٠) ألف سنة ، وينتظران ، وينتظران .. وما زالا ، ترى هل تقف فتاة بعد ٦٠ ألف سنة كما وقفت أنا اليوم أمام قفص زجاجي يضم جمجمتي أنا وهيكلي العظمي لتفكر بالشيء ذاته ؟) [١] .

إن هذا التصور لما بقي من عمر الدنيا لا ينفي البعث والقيامة ، ولكنه يؤكد نسبية الزمان في هذا العالم ، وما دام تاريخ البشرية الذي مضى حتى الآن والذي يقدر بملايين السنين لا يعد شيئًا مذكورًا قياسًا إلى عمر الكون كما ذكرنا آنفًا فإن ما تبقّى من عمر البشرية هو أقل وأقصر من أن يعد شيئًا مذكورًا حتى وإن بلغ ملايين السنين القادمة ، وقد وردت الإشارة إلى هذه الحقيقة في آيات عديدة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى في السؤال الذي يواجه به الناس يوم القيامة :﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٢ ـ ١١٤] ، ومن ثم فإن قولنا إن ما تبقى من عمر البشرية في هذا الوجود هو أطول بكثير مما يظن عامة الناس في العادة لا يتعارض مع نصوص الكتاب والسنة ، وهذا بالمقابل لا يعني أن نتراخى أو نغفل بحجة أن بيننا وبين القيامة أمدًا بعيدًا ؛ لأن الإنسان الفرد إذا مات انقطع عمله وختمت صحائفه ، وصار إلى جنة ونعيم مقيم أو إلى نار وعذاب أليم .

ولن يُغَيِّرَ من هذه الحقيقة أن يتقدم يوم القيامة أو يتأخر ، فإن فترة الموت لا يحس بها الميت إلا كلحظة عابرة لا تساوي شيئًا في حساب الزمن كما أشارت الآية التي أوردناها آنفًا ، وكما حصل للفتية الذين ناموا في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا فلما استيقظوا وتساءل أحدهم : كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يومًا أو بعض يوم (انظر سورة الكهف ، الآيات ١٩ ـ ٢٥) ، وكما حصل أيضًا للنبي (العُزَيْر) [٢] عليه السلام الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ، وسأله : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴾ [البقرة : ٢٥٩] ، والشواهد في القرآن الكريم عديدة على نسبية الزمان .

---

(١) غادة السمان : الجسد حقيبة سفر ، (ص ٣٠٥) .

(٢) العزير : نبي من أنبياء بني إسرائيل ، أمره الله عز وجل أن يذهب إلى قرية ، فلما جاءها وجدها خرابًا ليس فيها بشر ، فوقف متعجبًا كيف يرسله الله إلى قرية خراب ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، وأرسل له مَلَكًا يسأله : كم لبثتَ ؟ قال لبثتُ يومًا أو بعض يوم ، فأخبره الملك أنه لبث مائة عام ، ونظر إلى القرية التي كانت خرابًا فرآها قد عمرت وامتلأت بالناس ، فسألهم العزير : هل تعرفون عزيرًا ؟ قالوا : نعم نعرفه وقد مات منذ مائة سنة ، فقال لهم : أنا عزير ، فأنكروا عليه ذلك ، ثم جاؤوا بعجوز معمَّرة وسألوها عن أوصافه فوصفته لهم ، فتأكدوا أنه عزير وأقبلوا عليه وأحبوه وقدَّسوه للإعجاز الذي ظهر فيه حتى قالوا إنه ابن الله .. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

فإذا كان الأمر كذلك ، وهو على ما يبدو كذلك فعلًا ، وإذا ما قدِّر للبشرية أن تستمر في هذا الوجود لآماد بعيدة أخرى كما نرجح ، وإذا ما صحت توقعاتنا بأن يكون هناك بشر آخرون أو مخلوقات أخرى عاقلة تشاطرنا العيش في هذا الكون الرحيب ، فإن نظرتنا إلى هذا الوجود ينبغي أن تكون أرحب وأبعد مدى ، فالكون لا ينتهي عند حدود كوكبنا ، والتاريخ لا يتوقف عند زماننا ، والاستخلاف في هذا الوجود قد لا يكون مقتصرًا علينا نحن أهل الأرض ، فقد يكون هناك في الكواكب البعيدة أمم أخرى مستخلفة مثلنا ، فإذا ما أخذنا هذه الحقائق والتوقعات بالحسبان فإنها تحتم علينا أن نخطط لمستقبل طويل آن لنا أن نستشرف آفاقه قبل أن يفاجئنا بما لم نحتسب ، وهذا ما سوف نفصله في الفصول القادمة بإذن الله تعالى (انظر فصل : آفاق المستقبل).

علاقة الإنسان ببقية المخلوقات الحية :

ذكرنا آنفًا أن الإنسان لا يعدو أن يكون نوعًا واحدًا من حوالي (٣٠ مليون نوع) من المخلوقات الحية التي تشاطره العيش في الأرض ، وقد قسم العلماء هذه الأنواع بما فيها الإنسان إلى مملكتين رئيسين ، هما : (المملكة النباتية ، والمملكة الحيوانية) ، وصنفوا الإنسان في البداية ضمن المملكة الحيوانية لشبهه العضوي ببقية أنواع الحيوان ، إلا أنهم في النهاية عندما اكتشفوا وجود فوارق واسعة ما بين الإنسان وباقي الحيوان فَصَلُوا دراستهم للإنسان عن دراسة الحيوان وأفردوا له علمًا مستقلًا أسموه علم البشريات (*Anthropology*) وهو علم يبحث في صفات الإنسان التي تميزه عن الحيوان ، ويبحث في أعراق الإنسان المختلفة وحضاراته وتاريخه ، كما ذكرنا سابقًا .

وقد تطورت علاقة الإنسان ببقية المخلوقات الحية عبر العصور ، فبعد أن كان الإنسان يقتات على النباتات التي تجود بها الطبيعة ، وعلى الحيوانات التي يصطادها ، عرف الزراعة قبل حوالي عشرة آلاف سنة من الآن ، فبدأ يزرع ما يحتاج إليه من النبات ، ويدجِّن من الحيوانات ما يقدر على تدجينه من أجل مساعدته في أعماله الزراعية وركوبه وتنقلاته ، أو استخدامه في طعامه ، وبهذا حصل تحول عميق على أسلوب حياة الإنسان ، فقد ترك حياة الترحال وبدأ يستقر في الأرض ، وغادر الكهوف التي كانت تؤويه وبدأ يبني بيوته ، ويشيد مدنه وحضاراته العامرة .

ويذكر المؤرخ الأمريكي ريتشارد بوليت (*Richard W. Bulliet*) الأستاذ في جامعة كولومبيا ، في كتابه : الصيادون والرعاة والهامبرغر - (*Hunters, Herders, and Hamburgers*) أن علاقة الإنسان بالحيوان مرت عبر التاريخ بأربع مراحل :

١- مرحلة الانفصال : حين بدأت المخلوقات شبه البشرية تشعر أنها متميزة عن بقية أفراد المملكة الحيوانية .

٢- مرحلة ما قبل الحياة الأليفة أو العائلية : وفيها بدأ الإنسان يشعر بفوائد العيش بالقرب من الحيوان ، حتى لو لم يكن قد بدأ يربي الحيوانات .

٣- مرحلة الحياة المنزلية أو الأليفة : وفيها بدأ الإنسان يعتمد على الحيوان في غذائه .

٤- مرحلة ما بعد الحياة الأليفة : التي اتصفت بميل المجتمعات في البلدان الصناعية إلى إبعاد مواطنيها عن المزارع الحيوانية حماية للمجتمع من عدوى الأمراض التي تصيب الحيوان ، فيما أخذت هذه المجتمعات نفسها تربي الحيوانات الأليفة ؛ مثل : الكلاب والقطط ، وتدللها كما لو كانت إخوة لها في الإنسانية .

ويزعم بوليت إلى جانب ذلك أن الإنسان اقتنى الحيوانات في البداية من أجل إقامة بعض الطقوس الدينية قبل أن يستخدمها في طعامه وركوبه وتنقلاته ، إلا أن المؤرخ فيليب فرنانديز أرمستو (*Felipe Fer nandez Armesto*) في كتابه (بالقرب من ألف طاولة) الذي تحدث فيه عن تاريخ الطعام يعارض هذا التصور الذي قدمه بوليت عن التطور الزمني للعلاقة ما بين الإنسان والحيوان ، وذهب إلى أن الإنسان في مطلع تاريخه اهتم بتربية الحلزونيات والرخويات كالمحار والسيدج وليس بالحيوانات الكبيرة التي ظل لوقت طويل يخشى الاقتراب منها والتعامل معها [١] .

وبغض النظر عن صحة هاتين الفرضيتين أو خطئهما ، فمن الراجح أن علاقة الإنسان بالحيوان والنبات بدأت في وقت مبكر من التاريخ البشري ، وبخاصة بعد أن وجد الإنسان في النبات والحيوان مصدرًا أساسيًّا لغذائه ، وركوبه وتحركه في الأرض .

---

(١) شركة الزيت العربية السعودية : مجلة القافلة ، العدد (٢) ، المجلد (٥٦) ، (ص ٤٥) .

وقد ظلت علاقة الإنسان بالنبات والحيوان في هذا الإطار إلى مطالع العصور الحديثة التي طرأت فيها تغيرات عميقة على تلك العلاقة ، ولا سيما حين دخل الإنسان عصر المدنية الحديثة ، وراح يتوسع بالعمران ، ويستخدم وسائل الوقود والصناعات الحديثة الملوثة للبيئة (البترول ، الفحم ، الوقود النووي ، نفايات المصانع ..) ، ويلقي نفاياته الكيميائية والشعاعية في البيئة ، ويستخدم التقنيات الطبية الحديثة (الهندسة الوراثية ، الاستنساخ ..) من أجل تحسين أنواع النبات والحيوان وزيادة الإنتاج ، ناهيك عن استخدام المبيدات الحشرية وغيرها من الملوثات البيئية الخطيرة التي كانت لها آثار سلبية على مختلف المخلوقات الحية ، وبخاصة الإنسان .

فقد أسفرت هذه التطورات التي صاحبت انتقال الإنسان من العصور البدائية القديمة إلى العصور المدنية الحديثة عن عدد كبير من الأضرار ، وأساءت لعلاقة الإنسان ببقية المخلوقات الحية التي تشاطره سكنى هذا الكوكب ، فقد أدى التوسع العمراني ، وتلوث البيئة ، وظاهرة البيوت الخضراء (*Greenhouse Effect*) أو الانحباس الحراري [1] الناتج عن الإفراط باستخدام الوقود الأحفوري من فحم وبترول ، إلى القضاء على مساحات شاسعة من الغابات التي تشكل رئة الأرض وتعيد تنقية الهواء فيها ، وأدى إلى ذوبان الجليد في القطبين وحرمان أنواع عديدة من الحيوانات من بيئتها الطبيعية فبدأت تنقرض :

لقد غير الإنسان حتى الآن المظاهر الطبيعية لأكثر نصف الكوكب ، وخلال القرن العشرين وحده انخفض عدد الفقاريات إلى النصف ، وازداد عدد البشر بمعدل الربع ، ولا ريب بأن هذه التغيرات هائلة قياسًا إلى حجم كوكبنا المتواضع .

---

(١) الانحباس الحراري : اصطلاح يطلق على استرار سطح الأرض (*Global warming*) بسبب احتباس الأشعة ذات الموجة الطويلة بفعل الغازات ؛ مثل : ثاني أكسيد الكربون والميثان التي تمنع انعكاس الحرارة من الأرض إلى الجو ، ويشبه هذا الاحتباس احتباس الحرارة في بيت النباتات الزجاجي لتوفير الدفء للنباتات ، ويؤكد العلماء أن متوسط درجة حرارة سطح الأرض بسبب هذا الاحتباس ارتفعت بمعدل (٠,٤ ـ ٠,٨ درجة مئوية) منذ عام (١٦٠٠م) وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، وازداد الارتفاع بمعدل (٠,٢ ـ ٠,٣ درجة مئوية) خلال القرن العشرين [المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب : الصيف الطويل ، دور المناخ في تغيير الحضارة ، براين فاغان ، ترجمة د.مصطفى فهمي ، عالم المعرفة ، العدد (٣٤٠) ، (ص ١٣) ، (ص ٣٠٦) ، الكويت (٢٠٠٧م)] .



(التلوث الشديد لبيئة الأرض أصبح من أكبر المخاطر التي تهدد سلسلة الحياة في كوكبنا العزيز)

كما أسفر استخدام الهندسة الوراثية عن ظهور أنواع جديدة من النباتات والحيوانات التي لم تكن موجودة في الطبيعة وهذا قد يشكل تهديدًا مستقبليًا كبيرًا لا يدري إلا الله ﷻ إلامَ ينتهي بنا .

وأدى استخدام المبيدات الحشرية ، والمضادات الحيوية ، واللقاحات ، إلى القضاء على أنواع كثيرة جدًّا من الحشرات والفيروسات والجراثيم والطفيليات ، ولا شك بأن انقراض هذه الأنواع من المملكة الحيوانية يعد تدخلًا كبيرًا في سلسلة الحياة في الأرض ، هذه السلسلة التي تشكل معًا ما يشبه الجسد الواحد الذي إذا تعطل عضو منه وقع الجسد كله بالمرض ، وأخشى ما نخشاه أن يتفاقم المرض فتصبح سلسلة الحياة كلها مهددة بالموت ، بما فيها جنسنا البشري .. حامل الأمانة .



(ظاهرة الانحباس الحراري ، لاحظ كيف يحبس الغلاف الجوي الحرارة بعد أن أصبح مشبعًا بالغازات)

وللأسف الشديد فإن المؤشرات الأولية تشير كلها إلى أننا سائرون في هذا الاتجاه المخطر، فقد بدأنا بالفعل نشهد بوادر كوارث حيوية تنذر بالخطر، من أبرزها ظهور أمراض خطيرة كانت إلى وقت قريب محصورة بين الحيوانات، لكنها بدأت في الآونة الأخيرة تنتقل إلى الإنسان، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: مرض جنون البقر (*Mad Cow*)[1]، الذي بدأ في أواخر القرن العشرين يصيب البشر، ومنها إنفلونزا الطيور (*Avian Influenza*)[2]، التي كانت محصورة في الطيور، ثم بدأت في مطلع القرن الحادي والعشرين تنتقل إلى الإنسان، ونعتقد أن السبب في هذا التحول الخطير يعود إلى إفراطنا بالاعتماد على الحيوان في حياتنا، والتدخل في طريقة عيش هذه الحيوانات، فقد أصبحنا مثلًا نغذي الأبقار على لحوم الجيف الميتة، مع أننا نعرف بأن الأبقار ليست حيوانات لاحمة (*Carnivorous*) تأكل اللحوم وإنما هي حيوانات عاشبة (*Herbivorous*) تتغذى على الأعشاب والعلف النباتي.

أما الطيور والدجاج فقد أفرطنا في الاعتماد عليها في طعامنا ابتداءً من النصف الثاني من القرن العشرين، فكان لا بد من جرس إنذار يوقفنا عن هذا الإفراط، وهكذا ظهر مرض أنفلونزا الطيور كأنما ليوقفنا عند حدنا، وعلى هذا قس بقية الظواهر المرضية المرتبطة بعلاقتنا بالحيوان.

وليس هذا فحسب، فقد رصدت منظمة الصحة العالمية (WHO) خلال الربع الأخير من القرن العشرين ما يزيد عن ٣٠ مرضًا جديدًا (الإيدز، السارس، الإيبولا ..)، وظهور أنماط جديدة (*Serotypes*) من بعض الأمراض القديمة أشد فتكًا من سابقاتها، وأنماط

---

(١) جنون البقر: أو التهاب الدماغ الإسفنجي (*Bovine Spongiform Encephalitis*) ظهر لأول مرة عام (١٩٨٥م) في بريطانيا، وأصاب قطعان هائلة من البقر وأدى إلى موتها، وأجبر السلطات الصحية على إعدام ملايين لا تحصى من البقر للحد من انتشاره، وهو ينتقل إلى الإنسان الذي يتغذى على لحوم البقر المصابة ويسبب للمريض أعراضًا عصبية حادة تنتهي بالموت.

(٢) إنفلونزا الطيور: أحد الأمراض السارية، يسببه النوع (H5N1) من فيروسات الإنفلونزا، ويصيب أغلب أنواع الطيور الداجنة المائية والبرية، وبعض الحيوانات كالخنازير والخيول، وبعض القوارض، وينتقل إلى الإنسان من طريق الطيور المصابة، وقد تسبب حتى الآن في نفوق مئات الملايين من الدجاج والطيور، وخسائر اقتصادية فادحة، ووفاة مئات الأشخاص الذين انتقلت إليهم العدوى من الدجاج والطيور المصابة.

مقاومة للمضادات الحيوية ، ناهيك عن عودة انتشار بعض الأمراض القديمة التي ظننا أنها قد آلت نهائيًّا إلى الزوال : (السل الرئوي ، الملاريا ..)[١] .

ومن المفيد أن نذكر هنا أن العلماء اكتشفوا مؤخرًا أنواعًا من الجراثيم المتخصصة في هضم النفايات الضارة بالبيئة ، كالنفايات الكيميائية والنفايات النووية ، بل وجدوا أن بعض الجراثيم تعشق أكل المواد المشعة (مثل : مادة البلوتونيوم واليورانيوم) وأكل المتفجرات (مثل : البارود ومادة ت.ن.ت) وبعضها يعشق أكل النواتج البترولية الضارة وهضمها [٢] ، ما يجعل هذه المخلوقات أفضل صديق للبيئة ، ومن ثم للإنسان ، وهذا ينبهنا إلى ضرورة المحافظة على مختلف أنواع المخلوقات الحية ؛ لأنها قد تكون الحل الوحيد لبعض مشكلاتنا في الحاضر والمستقبل ، والتي إن قضينا عليها فقد ندفع ضريبة باهظة لا تخطر على بال .. كما اكتشف العلماء أن بعض الجراثيم قادر على تحويل المخلوقات البحرية المجهرية الدقيقة إلى بترول ، مما يعد مصدرًا مستقبليًّا مهمًّا للطاقة ، لا سيما مع ظهور بوادر على نضوب البترول من العالم في غضون قرن من الزمان أو أقل .

إن هذه المؤشرات الحيوية التي بدأنا نرصدها هنا وهناك ، مع مطلع كل شمس ، تدعونا جميعًا - نحن سكان الأرض - إلى مراجعة مواقفنا القديمة ، وإلى نبذ أساليبنا البالية في التعامل مع بقية مخلوقات الله التي تشاطرنا العيش فوق هذا الكوكب المتواضع في حجمه وإمكانياته وطاقاته ، وإلا وقعت الكارثة .

النمو البشري :

ولكي تكتمل أمامنا صورة المجتمع البشري الحالية ، وما يمكن أن نؤول إليه في المستقبل ، ينبغي أن نعرف منحنيات النمو السكاني في الأرض وإلى أين تتجه ، وقد رأينا أن الوجود البشري في هذه الأرض بدأ من نفس واحدة راحت تتكاثر وتتوالد وتتناسل وتنتشر في الأرض ، ببطءٍ أولًا ثم بتسارعٍ مطّردٍ ، ففي العصر الزراعي الأول ، أي قبل حوالي (٨٠٠٠ سنة) من ميلاد السيد المسيح عليه السلام لم يكن البشر في الأرض يتجاوزون

---

(١) انظر : موقع المنظمة على شبكة الإنترنت . وانظر : الأمراض المعدية ومستجداتها العالمية ، (ص ٢٤) ، وزارة الصحة السعودية ، الرياض ٢٠٠٦م .

(٢) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، عالم المعرفة (إبداعات النار) العدد (٢٦٦) ، (ص ٤٤٩) ، كاثي كوب ، هارولد جولد وايت ، ترجمة د.فتح الله الشيخ ، الكويت (٢٠٠١م) .

(٥ ملايين نسمة) ، وفي مطلع الميلاد بلغ تعدادهم (٢٠٠ مليون نسمة) ، ووصلوا في مطلع القرن العشرين إلى (١,٧ مليار نسمة) ، وفي منتصف القرن العشرين راحت معدلات النمو تتزايد بصورة ملحوظة حتى تجاوز التعداد في نهاية القرن (٦ مليارات نسمة)[1] ، كما هو موضح في (الجدول ـ ٧) ومن المتوقع أن يتضاعف هذا الرقم عدة مرات في غضون القرن الحادي والعشرين وفق تقديرات علماء السكان[2] .

وقد أجرى الفيزيائي البريطاني (جون فرملن) تقديرًا نظريًّا يدعو للدهشة حول الانفجار السكاني المتوقع خلال الألف عام المقبلة ، فانتهى إلى أن تعداد البشرية إذا ما استمر ينمو بمعدلاته الراهنة فسوف يتجاوز التعداد (٦٠,٠٠٠ تريليون نسمة)[3] ، أي الرقم (٦) وإلى يمينه ١٦ صفرًا (الجدول – ٨) .

ولا ريب بأن هذه الأرقام أرقام مرعبة حقًّا ؛ لأنها إذا ما تحققت فعلًا وبقي هذا الجمع الغفير من الناس في الأرض ولم يستوطنوا كواكب أخرى فإنهم سوف يضطرون للسكن في ناطحات سحاب عملاقة جدًّا ترتفع كل منها عدة كيلومترات إلى عنان السماء[4] ، وسوف ينتشرون على اليابسة وأحواض المحيطات التي لا بد من سقفها لمنع تبخر الماء ، أما طعامهم فسوف يصل إليهم عبر المواسير على شكل سوائل ، وسوف تختفي صناعة الملابس ؛ لأن البشر سوف يضطرون للاستغناء عن صناعات كثيرة توفيرًا للمساحة ، ولن يسمح لأحد بمغادرة شقته ؛ لأنه لن يجد مكانًا له خارج المنزل ، وهذه كلها بطبيعة

---

(١) ومن الجدير بالذكر أن المولود الذي أكمل الرقم العالمي إلى ٦ مليارات كان طفلة مسلمة ولدت يوم الثلاثاء ١٢/ ١٠/ ١٩٩٩م في دولة البوسنة في أوروبا .

(٢) انظر محمود المراغي : أرقام تصنع العالم ، (ص٣٤) ، وانظر مجلة المختار (ريدر دايجست) نيسان (١٩٨٢م) ، شركة النهار للمنشورات الدولية بيروت ، مقالة : الانفجار السكاني ، (ص ٤٢) (والرسم من وضعنا) .

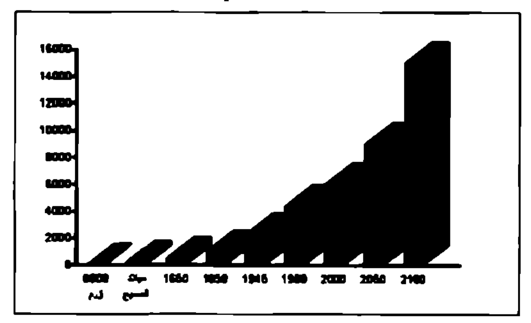
(٣) أدريان بيري : الخمسمائة عام القادمة ، (ص ٥٠) .

(٤) في عام (٢٠٠٠م) أعلن في اليابان عن البدء بتنفيذ مشروع مدن المحيط (*Ocean Cities*) يتألف من عدة ناطحات سحاب ترتفع كل منها في لجة المحيط الهادي إلى ارتفاع ٤كلم عن سطح الأمواج ، وتتسع كل عمارة منها حوالي ٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، أي ما يعادل سكان مدينة متوسطة ، وسوف تقام هذه العمارات على وسادات من الصلب تزن الواحدة منها ٥٥٠ طن لتكون في منجى من غضب الأمواج العاتية والزلازل والبراكين التي تتوقد في أعماق المحيط الذي سمي خطأ (الهادي !) ويحتاج المصعد السريع ٣٥ دقيقة لبلوغ أعلى شقة في الناطحة حيث تنخفض درجة الحرارة هناك إلى أقل من عشرة درجات مئوية تحت الصفر ، كما أن الثلوج لا تغادر القمة على مدار العام مما يجعل الناطحات أشبه بالجبال الراسيات الشاهقات .

الحال احتمالات بعيدة عن الواقع ؛ لأن مثل هذه الأعداد الغفيرة من البشر لو قدّر لها أن تبقى على سطح الأرض فإن أجسادها سوف تنفث من الحرار ما يكفي لفناء الجنس البشري عن بكرة أبيه .

(الجدول ـ ٧) معدلات النمو البشري منذ الثورة الزراعية

وحتى نهاية القرن الحادي والعشرين



وهكذا يتوقع علماء السكان أننا مقبلون على أزمة سكانية صعبة جدًّا ، عاجلًا أم آجلًا ، إذا لم يسعفنا العلم والوقت بارتياد كواكب أخرى تستوعب الزيادة السكانية المطردة ، ولكن حتى لو تمكنا من ارتياد تلك الكواكب ، فإننا سنظل عرضة لبعض المخاطر المحتملة من جراء النمو السكاني المطرد ؛ لأن هذا النمو سيظل أسرع وأكبر من قدرة البشر على الارتحال إلى الكواكب الأخرى ، وعلى سبيل المثال إذا أردنا أن نحافظ على التعداد السكاني على ما هو عليه في نهاية القرن العشرين ، فهذا يعني تصدير حوالي (٩٠ مليون نسمة / سنويًّا) إلى السماء وهو أمر مستحيل بكافة المقاييس [١] ، فكيف تكون الحال إذا بلغ العدد أضعاف ما هو عليه اليوم كما تنبأ جون فرملن ؟

---

(١) أدريان بيري : الخمس مائة عام القادمة ، (ص ٥٢) .

(الجدول ـ ٨) معدل النمو السكاني خلال الألف سنة القادمة

التاريخ	تعداد سكان الأرض (ملايين)
٨٠٠٠ ق.م	٥
١م	٢٠٠
١٩٠٠م	١٧٠٠
٢٠٠٠م	٦٠٠٠
٢٢٦٠م	٤٠٠,٠٠٠
٢٣٧٠م	٣,٠٠٠,٠٠٠
٢٤٥٠م	١٥,٠٠٠,٠٠٠
٢٦٨٠م	١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠
٢٨٠٠م	١٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠
٢٨٩٠م	٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠

ومما لا ريب فيه أن هذا التسارع المطّرد في النمو السكاني سوف يسبب لأهل الأرض مشكلاتٍ اجتماعيةٍ عديدةٍ ، منها ارتفاع معدلات البطالة ، وتفاقم الفقر ، وتفشّي الأمراض ، وانتشار الجرائم وبقية المشكلات الاجتماعية المدمرة ، وهذا ما دفع بعض الباحثين والساسة والمنظّرين الاجتماعيين لتبني الدعوة إلى تحديد النسل(*Birth Limitation*) ، بحجة أن تحديد النسل كفيل بتقليل المخاطر المحتملة .

ومع تسليمنا بأن هذا النمو السكاني المطرد سوف يؤدي إلى العديد من المشكلات الاجتماعية ، بل بدأ بالفعل يسبب بعض تلك المشكلات ، فإننا نعتقد في الوقت نفسه أن هذه المشكلات لا ترجع كلها إلى ارتفاع معدلات النمو ، بل لها عوامل أخرى عديدة ، ثقافية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وسياسية ، تساهم في تفاقم الأزمة إلى جانب النمو السكاني المطرد ، فإذا ما تأملنا مثلًا خريطة العالم الاقتصادية ، والاجتماعية اليوم ، فإننا نرى بوضوح سوء توزيع الثروات بين الأمم ، وتسلط الدول القوية على مقدّرات الشعوب المستضعفة مما يزيد هذه الدول الأخيرة فقرًا وتخلفًا ومعاناة ، إلى جانب الإساءة في إنفاق الدّول المستكبرة على حساب الدول المستضعفة .. وعلى سبيل المثال : فإنّ الإحصائيات في نهاية القرن العشرين تشير إلى حقائق مأساوية يندى لها الجبين ، منها على سبيل المثال لا الحصر [1] :

(١) انظر : تقرير التنمية البشرية لعام (١٩٩٩م) ، الصادر بتكليف من برنامج الأمم المتحدة الإنمائي .

• ينفق الأمريكيون والأوروبيون على اقتناء الروائح والعطور ومستحضرات التجميل والموضة أكثر من ٢٠ مليار دولار سنويًا ، وهو مبلغ يكفي ٣ مرات لتغطية نفقات التعليم الأساسي لكل شخص يحتاج إليه في شتى بقاع العالم .

• وينفق الأوروبيون وحدهم أكثر من ١٧ مليار دولار سنويًا على شراء غذاء لحيواناتهم المنزلية المدللة من قطط وكلاب وغيرها ، بينما يفتقر أكثر من ٤,٤ مليار نسمة من سكان الدول النامية للغذاء والسكن الصحي .

• وينفق الطفل الواحد في الدول الصناعية المتقدمة ما يعادل إنفاق ٣٠ طفلًا من أطفال الدول النامية ، والشخص الواحد في الدول الصناعية المتقدمة يتناول من اللحم ١١ مثلًا ما يتناوله الشخص الواحد في الدول النامية .

• وفي عام (١٩٧٠م) كان مستوى المعيشة في الدول المتقدمة يعادل ١٥ ضعف ما هو عليه في الدول النامية ، وقد قفز هذا الفارق قرب نهاية القرن العشرين إلى ١٧٠ ضعفًا ، ويمتلك ٣٥٨ شخصًا فقط من أغنياء العالم أموالًا طائلةً تعادل ما يملكه ٢,٥ مليار شخص من سكان العالم النامي ، ويحصل سكان الدول المتقدمة على (٨٦٪) من الاستثمارات الأجنبية المباشرة ، و (٧٤٪) من خطوط الهاتف ، أما سكان العالم الذين يعيشون في القاع فإنهم يحصلون فقط على حوالي (١٪) من كل فئة .

• وهناك (٤٠٪) من سكان العالم محرومين من الكهرباء ، و (٦٥٪) منهم لا يملكون أية وسيلة من وسائل الاتصال الحديثة وأبسطها الهاتف ، ويعيش ٦٠٠ مليون نسمة في العراء بلا مأوى يحميهم من برد الشتاء أو حر الصيف ، ولا يجد زهاء مليار شخص المياه الصالحة للاستخدام الآدمي ، وهناك أكثر من ٢٥٠ مليون طفل يضطرون للعمل في ظروف اجتماعية قاسية جدًا من أجل إعالة أسرهم ، ويحرمون من التعليم ويقعون فريسة للجهل والجريمة والضياع .

وقد عبر وزير العمل الألماني نوربرت بلوم (*Norbert Bluem*) عن هذا الوضع المأساوي الناجم عن تسلط بضعة أشخاص مترفين في العالم على مقدرات بقية البشر ، فقال : (لقد تحول العالم اليوم إلى كازينو رأسمالي ، أو صالة قمار عالمية ، يتداول فيها رجال الأعمال أكثر من تريليون دولار/ يوميًا بينما لا يوجد من قيمتها الحقيقية سوى ٥,٢٪ فقط)[1] .

---

(١) جريدة الشرق الأوسط ، الأربعاء (٤/ ٩/ ٢٠٠٢م) .

وقد تأكد هذا الوضع المأساوي في (مؤتمر القمة العالمي الأول للتنمية الاجتماعية) الذي عقد في مدينة كوبنهاجن في عام (١٩٩٥م) ، وقد نشرت خلاله حقائق مذهلة عن الأحوال الاجتماعية المتردية في أنحاء كثيرة من العالم بالرغم من التقدم الهائل الذي أحرزته البشرية في ميادين العلم المختلفة وأظهرت الإحصائيات المدعمة بالوثائق التي عرضت في هذا المؤتمر وجود فوارق اجتماعية هائلة بين البشر لا تكاد تصدق ، فعلى سبيل المثال :

• كشف المؤتمر أن (٢٠٪) من سكان الأرض يستأثرون بأكثر من (٨٠٪) من خيراتها .

• ويبلغ دخل الفرد في بعض البلدان الصناعية المتقدمة ٥٠٠ ضعف دخل الفرد في بعض الدول النامية ، ففي سويسرا مثلًا يصل الدخل إلى (٣٦ ألف دولار / سنويًا) مقابل ٨٠ دولارًا فقط في موزامبيق ، وهناك حوالي (٣٠٪) من سكان العالم لا يزيد دخل الفرد الواحد منهم عن دولار واحد يوميًا .

• نصف سكان الأرض ٣ مليارات نسمة يعيشون حياة الفقر والعوز ، منهم ١,٣ مليار نسمة يعيشون تحت خط الفقر ، أي أنَّهُ من بين كل خمسة أشخاص من سكان هذا الكوكب يعيش شخص على الأقل تحت خط الفقر ، ويموت سنويًا (١٢ ـ ١٨ مليون نسمة) بسبب الفقر ، ويعاني أكثر من مليار نسمة من سوء التغذية .

• وتزيد ديون الدول النامية للدول المتقدمة عن ١,٤ تريليون دولار ، ويبلغ عدد العاطلين عن العمل أكثر من ١٢٥ مليون نسمة ومن المنتظر أن يرتفع هذا العدد إلى مليار شخص في غضون العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين .

• والجرائم في العالم آخذة بالارتفاع بمعدل (٥٪) سنويًا ، وقد أمست جرائم منظمة وواسعة تنفذها عصابات متمرسة بالإجرام مستفيدة من التقدم التكنولوجي المعاصر .

• ومن بين كل ٢٠٠٠ امرأة في العالم تتعرض امرأة للاغتصاب ، وتتعرض (٣٥٪) من النساء للضرب المؤذي المبرح ، والمومسات اللواتي يمارسن الدعارة المرخصة رسميًا في بعض الدول تتجاوز نسبتهن (١٠٪) من مجموع النساء في هذه الدول .

• ويزيد ثمن المخدرات التي تدار في شتى أنحاء العالم عن ٥٠٠ مليار دولار .

وهذه كلها أرقام مرعبة تغني عن أي تعليق ، وهي ترسم فقط جزءًا يسيرًا من الصورة المأساوية لأحوال البشرية اليوم ، وقد حاول بعض الباحثين أن يردوا هذه المآسي كلها إلى ظاهرة النمو السكاني المتزايد في البلدان النامية فقط حيث تصل معدلات النمو إلى (٢,٩٪)

مقابل (٠,٣٪) في البلدان الصناعية الكبرى ، وهذا ما انتهى إليه المشاركون في (المؤتمر الدولي الأول للسكان والتنمية) الذي عقد في مدينة بوخارست عاصمة رومانيا في عام (١٩٧٤م) ، وقد ركزت توصياته على الحد من النمو السكاني في البلدان النامية بحجة أن هذا النمو المتزايد هو سبب المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي تعاني منها تلك البلدان النامية ، وأن هذا الوضع ينعكس سلبيًا على الدول الصناعية المتقدمة .

إلّا أن وثيقتين سريتين صدرتا عن (مجلس الأمن القومي) في الولايات المتحدة في أعقاب المؤتمر فضحتا الدوافع الحقيقية لهذه الدعوى ، وقد صدرت الوثيقة الأولى في كانون الأول من العام نفسه ، وصدرت الثانية في تشرين الثاني من العام التالي ، ونظرًا لحساسية التوصيات التي وردت في هاتين الوثيقتين فقد تكتم عليهما مجلس الأمن القومي ولكن أمرهما شاع فيما بعد مما اضطر الحكومة الأمريكية لنشرهما في عام (١٩٨٢م) فتبيَّن أنهما تنطويان على تحذيرات مشددة من تأثير النمو السكاني المتزايد في البلدان النامية على أمن الولايات المتحدة ومصالحها الإستراتيجية فيما وراء البحار على حد تعبير الوثيقتين ، وتضمنت الوثيقتان توصيات تؤكد على ضرورة تخفيض عدد السكان المتوقع في الدول النامية بحلول عام (٢٠٧٥م) ، أي في غضون مائة عام بنسبة (٣٥٪) وهي نسبة تساوي ١,٥ مليار نسمة .

وقد تعزز وجود هذه النوايا المبيتة لدى الدول الكبرى خلال (المؤتمر الدولي الثاني للسكان والتنمية) الذي عقد في مدينة نيومكسيكو في المكسيك في عام (١٩٨٤م) وتركزت توصياته أيضًا حول السبل الكفيلة بالحد من النمو السكاني في البلدان النامية ، وخصصت مساعدات من البلدان الصناعية الكبرى لهذه الدول من أجل تحقيق هذا الهدف ، وقد وصلت هذه الحملة أوجها في (المؤتمر الدولي الثالث للسكان والتنمية) الذي عقد في القاهرة عام (١٩٩٤م) وأوصى بإعطاء حرية أكبر للراغبات بالإجهاض ، وتشجيع النساء على استخدام موانع الحمل ، والسماح بالممارسات الجنسية المختلفة بحرية تامة ، ونشر الثقافة الجنسية بين الناشئين بحجة تقليل فرص الانحراف الجنسي ، والاستغناء بهذه الممارسات عن الزواج وإنجاب الأطفال .

والحديث عن النمو السكاني ليس جديدًا في التاريخ ، ولعل العلّامة ابن خلدون في (المقدمة) هو أول الباحثين الذين تحدثوا بلغةٍ علميةٍ مفصلةٍ عن علم السكان أو ما أطلق عليه ابن خلدون مصطلح (العمران) وتناول فيه الكثير من مظاهر التحولات السكانية

في المجتمعات البشرية الحضرية والريفية والبدوية والمشكلات التي تنتج عادة عن النمو السكاني المطّرد [1].

أما في العصور الحديثة فإن أول باحث تناول هذه القضية بالتفصيل هو الاقتصادي الإنكليزي الشهير (توماس روبرت مالتوس) [2]، في كتابه (بحث في مبادئ السكان) الذي نشره في عام (١٧٩٨م) ، وعرض فيه نظريته حول مؤشرات النمو السكاني ، وزعم أن عدد السكان يزيد وفق متوالية هندسية بينما يزيد الإنتاج الزراعي وفق متوالية حسابية ، مما سيؤدي إلى نقص الغذاء والسكن ، وانتهى مالتوس إلى أنه لا يمكن الخلاص من هذه الأزمة إلّا بالامتناع الاختياري عن الزواج ، أو تأخير ميعاده أو بتعبير آخر (تحديد النسل) ، وقد كان لهذا الكتاب تأثير واسع فيما بعد على مختلف الباحثين من رجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، وأدت إلى حدوث كوارث إنسانية ؛ لأنها اتخذت مبرّرًا وحجة للإبادة الجماعية لكثير من الشعوب ، وأجبر أبناء بعض العرقيات المضطهدة كالسود والهنود في أمريكا على إجراء التعقيم القسري ، وإن اتخذ صورة تعقيم اختياري في ظاهر الأمر ، وفي الاتحاد السوفياتي استحلت إبادة أعداد كبيرة من البشر (١٢ ـ ١٥ مليونًا) بحجة الحد من النمو البشري من أجل التنمية والتقدم الصناعي ، ويقول الباحث الاقتصادي آلان تشيس في كتابه (تركة مالتوس) إن أكثر من سبعين ألف شخص في الولايات المتحدة قد عقموا قسرًا ما بين عامي (١٩٠٧ ـ ١٩٦٤م) ناهيك عن مئات الآلاف من عمليات التعقيم الأخرى التي كانت طوعية في الظاهر لكنها كانت قسرية في واقع الحال ، واقتبس تشيس من القاضي الفيدرالي جيرهارد جيل قوله في عام (١٩٧٤م) في خضم قضية ترافعت فيها المحاكم لمصلحة ضحايا التعقيم القسري للفقراء : على مدى السنوات القليلة الماضية قامت الدولة والهيئات والوكالات الفيدرالية بتعقيم ما بين مائة إلى مائة وخمسين ألف شخص سنويًا من متدني الدخل الفقراء .

---

(١) انظر الكتاب الأول من (المقدمة) (ص ٤٠) وما بعدها ، الذي خصصه للحديث عن طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها ، وكذلك الفصل الحادي عشر من الباب الرابع ، (ص ٣٣٣) وما بعدها (المقدمة ، تحقيق د.درويش جويدي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ٢٠٠٢م) .

(٢) توماس روبرت مالتوس (١٧٦٦م ـ ١٨٣٤م) : راهب إنجليزي ، تلقى تعليمه في كلية اليسوع بجامعة كامبريدج وعين زميلًا لها عام (١٧٩٣م) ، ثم أستاذًا في التاريخ والاقتصاد السياسي بكلية هير علمية تابعة لشركة الهند الشرقية ، وكانت مهمته تعليم موظفي الشركة ، وغني عن الذكر استحضار التاريخ الأسود لهذه الشركة الاستعمارية التي كانت اللواء الطويل للاستعمار الإنجليزي وتاريخه الأسود .

إلَّا أن الدعوة إلى (تحديد النسل) لم توضع موضع التنفيذ العملي ولم تصبح قضية عامة تشغل الرأي العام المحلي والعالمي إلَّا بعد قرن من الزمان ، وقد بدأت هذه الدعوة العملية على يدي (آني برنت) و (تشارلز برادلو) اللذين بذلا جهودًا كبيرة لترويج كتاب (ثمار الفلسفة) وهو في الحقيقة خلاصة نشرة كان قد كتبها الأمريكي (تشارلز نولتن) عن وسائل منع الحمل ، إلا أنهما أوقفا رسميًّا في عام (١٨٧٧م) وحوكما وأدينا بحجة أن في منع الحمل انتهاكًا لنظام الطبيعة ، وأنه يفضي في النهاية لانقراض الجنس البشري .

وفي أوائل القرن العشرين تولت الممرضة الأمريكية (مارجريت سانجر) مهمة الدعوة لتحديد النسل مدعية أنه خير وسيلة للتقدم الاجتماعي وبخاصة عندما يكون الفقر متفشيًا في المجتمع ، وراحت ترسل المعلومات المتوالية عن طريق البريد لتشجيع الناس على تبني هذه الدعوة ، إلَّا أن السلطات المحلية اعتقلتها في عام (١٩١٥م) ، وأدانتها ، وأخذت عليها التعهد بالتوقف عن هذه الدعوة غير القانونية ، إلا أنها لم تتوقف ، بل واصلت دعوتها بحماس أشد ، فعادت السلطات إلى اعتقالها في العام التالي (١٩١٦م) بتهمة إدارة عيادة لتحديد النسل في حي بروكلن ، لكن ذلك كله لم يثنها عن مواصلة دعوتها لتحديد النسل ، وبإصرارها على دعوتها تمكنت تدريجيًّا من كسب الرأي العام إلى صفها ، ولم تلبث أن كسبت تأييد المحاكم التي رضخت أخيرًا للواقع تحت ضغط الرأي العام ، وسمحت بالتحدث عن هذه القضية في المحافل العامة ووسائل الإعلام والمدارس والجامعات وغيرها .

وبعد ذلك بدأت الدعوة لتحديد النسل تلاقي تجاوبًا أكبر من قِبَلِ الرأي العام المحلي ، ثم الرأي العام العالمي ، وفي عام (١٩٢١م) عقد في الولايات المتحدة الأمريكية (المؤتمر الأول لتحديد النسل) من أجل بحث هذه المسألة والاتفاق على الوسائل العملية لتحقيقها وإقناع الناس بها .

وهكذا راحت القضية تكسب المزيد من التأييد عامًا بعد عام ، نتيجة التركيز الإعلامي والرسمي عليها ، وتحت ضغط الظروف الاجتماعية والمعيشية الصعبة في معظم دول العالم ، وهذا ما يجعلنا نتوقع تباطؤ النمو السكاني بصورة ملحوظة قبيل منتصف القرن الحالي ، وبخاصة في البلدان النامية التي تمارس عليها ضغوط قوية من قبل الدول الكبرى وبعض المؤسسات ذات النفوذ العالمي ؛ مثل : صندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي ، وبعض مؤسسات هيئة الأمم المتحدة المهتمة بالأمومة والطفولة ، وذلك بهدف الحد من النمو السكاني في

هذه البلدان التي تخشى الدول الكبرى أن يؤدي تفوقها العددي إلى الإخلال بالتوازن الإستراتيجي في العالم .



(الممرضة الأمريكية مارجريت سانجر ، كانت من أبرز وأنشط الداعين لتحديد النسل)

وتدل هذه الحقائق التي عرضناها دلالة واضحة على أنَّ الأسباب التي تزيد من وطأة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في العالم لا تنحصر فقط بالنمو السكاني المطرد ، وإنما تتعداه إلى عوامل أخرى أدهى وَأَمَرّ ، وهي تتطلب من الباحثين والساسة أن يبذلوا المزيد من الجهد لبيان الأبعاد الحقيقة لمشكلات العالم المعاصرة التي ليست أزمة النمو البشري سوى واحدة منها ، وربما كان المطلوب منا نحن المسلمين أكبر مما هو مطلوب من غيرنا ؛ لأن الإسلام يحضنا على التكاثر كما ورد عن النبي ﷺ : « تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُود فإنِّي مُكاثِرٌ بكُمُ الأُمَمَ »[1] ، فهذه الدعوة للتكاثر لا بد أن تتزامن مع الحلول المناسبة لاستيعاب الأعداد المتزايدة من البشر ، وتوفير ما يحتاجونه من متطلبات كثيرة ؛ حتى يتوفر لهم العيش الكريم فوق هذا الكوكب الذي سوف يضيق بساكنيه عاجلًا أم آجلًا .

تجليات فعل الإنسان :

عندما نستعرض تاريخ الإنسان في هذا الوجود ، منذ ولادته الأولى وحتى اللحظة الراهنة فإننا نجد بانتظارنا مفاجأة عظيمة ، وهي أن الإنسان قد قضى الشطر الأكبر من حياته في هذه الأرض (٦ ملايين سنة أو تزيد) هائمًا على وجهه في الفلوات وهو يصارع

(١) أخرجه أبو داود (١٧٥٤) واللفظ له من حديث معقل بن يسار ، والنسائي (٣١٧٥) ، وابن ماجه (١٨٣٦) وأحمد في مسنده (١٣٠٨٠) ، وصححه ابن حبان .

عناصر الطبيعة ، وظواهرها الشرسة قبل أن يألفها ويستأنسها ويسخرها لخدمته ، ولم يعرف الاستقرار النسبي في حياته إلا منذ (خمسين ألف سنة) تقريبًا ، عندما اهتدى لأول مرة للمبيت داخل الكهوف .



(فترة عصيبة من تاريخ الإنسان عاشها هائمًا على وجهه في الأرض وهو يصارع أنواء الطبيعة ووحوشها المفترسة .. وبني جنسه)

ويعتقد علماء البشريات أن الإنسان الأول ظهر في شرق أفريقيا التي عاش فيها زمنًا طويلًا ، وهو يصارع بيئتها القاسية قبل أن يفكر بالرحيل عنها بحثًا عن بيئة أرحم ، وقبل (٢٠٠,٠٠٠ سنة) من الآن تحرك من هناك متبعًا مجاري الأنهار والوديان فوصل إلى المنطقة العربية (الشرق الأوسط) قبل حوالي (٦٥,٠٠٠ سنة) ثم تابع رحلته البطيئة الطويلة حتى وصل إلى أوروبا ، وقبل (١٢,٠٠٠ سنة) فقط حط رحاله في القارة الأمريكية لأول مرة .

ويذكر علماء البشريات كذلك أن الإنسان خلال هذه الرحلة الشاقة مرّ بتحولات كثيرة ، فقد عاش ردحًا طويلًا من الزمان فيما يسمى (العصر الحجري القديم) لاعتماده في هذا العصر على تشكيل أدواته من الحجارة ، ويمتد هذا العصر من بداية ظهور الإنسان إلى (٨ آلاف سنة ق.م) وكان أناس ذلك العصر من الرحل جامعي الغذاء ، الذين تعلموا استخدام اللغة ، والسيطرة على النار ، ومارسوا شكلًا بدائيًا من الطب ، كما مارسوا فن الرسم ، وفي أواخر ذلك العصر بدأ الناس يتعلمون طهي الطعام .



(بعض الأدوات التي استخدمها الإنسان في العصر الحجري)

بعد ذلك دلف الإنسان إلى (العصر الحجري الوسيط) الذي امتد ما بين (٨ آلاف ـ ٦ آلاف سنة ق.م) ، وفيه روّض الإنسان الكلاب ، وحفر جذوع الشجر لصنع قوارب بدائية غير متقنة ، كما صنع الفخار بتحميص الصلصال في الشمس ، وقد ظهر الفخار في اليابان مبكرًا سنة (١٠ آلاف ق.م) ، وفي الأمريكيتين سنة (٥ آلاف ق.م) .

أما (العصر الحجري الجديد) فقد امتد ما بين (٦ آلاف ـ ٣ آلاف ق.م) وفيه تعلم الإنسان صناعة الغذاء ، وقدح النار من الاحتكاك ، وتدجين الحيوانات ، واختراع المحراث والعجلة والشراع ، وتعلم الغزل والنسيج ، وصنع قمائن الفخار النارية ، وعرف معدن النحاس وصنع منها أدوات جديدة ساعدت ـ مع تطور الزراعة ـ في نمو المجتمعات الزراعية ، وفي لحظة ما قبل حوالي ٤ آلاف سنة من الآن بزغت الحضارة [1] .

وهكذا نلاحظ أن الإنسان لم يعرف الاستقرار الحقيقي في حياته إلا منذ فترة قريبة جدًّا قد لا تزيد عن (١٠ آلاف سنة) بدأت عندما اهتدى إلى معرفة كيف يزرع الأرض ، فحينئذ فقط بدأ يرتبط بالأرض ، ويبني أكواخه وبيوته البسيطة ، ويشرع بتشكيل مجتمعاته البدائية ، ثم قُراه الصغيرة ، وبعدها مُدُنه وحضاراته العظيمة ، وقد ضحى في سبيل ذلك بالكثير ، وخاض معارك طاحنة مؤلمة في مواجهة عناصر الطبيعة وأنوائها القاسية من جهة ، وفي مواجهة أخيه الإنسان من جهة أخرى .

---

(١) كاثي كوب ، هارولد جولد وايت : إبداعات النار ، (ص ١٥) ، ترجمة د.فتح الله الشيخ ، عالم المعرفة ، العدد (٢٦٦) ، فبراير (٢٠٠١م) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

ويقسم بعض الباحثين التاريخ البشري إلى خمسة مراحل أساسية ، هي (ما قبل التاريخ . التاريخ القديم . العصور الوسطى . العصر الحديث . والعصر ما بعد الحديث) أما الخبير الاقتصادي المستقبلي الأمريكي المعاصر ألفين توفلر فقد قسّم التاريخ البشري في كتابه (الموجة الثالثة) إلى ثلاث موجات :

الموجة الزراعيَّة : وفيها كانت الأرض المصدر الأساسي للثروة ، وكانت قوة وقدرة الأشخاص والدول تقاس بمقدار ما يملكون من مساحات أرضية فوق هذا الكوكب .

الموجة الصناعيَّة : وفيها كانت الصناعة والرأسمال هما أساس الثروة ، وكانت الدول الغربية هي السباقة في هذه المرحلة ، وفيها استطاعت صنع آلات عسكرية متطورة جدًّا . سيطرت بواسطتها على مستعمرات شاسعة امتدت على معظم الكوكب .

الموجة التكنولوجيَّة : وفيها تراجعت الأرض والرأسمال عن أن تكونا مصدرين للسلطة والقوة وذلك لصالح المعلوماتية (*Information*) ، وشاعت مفاهيم جديدة تتعلق بالسيطرة المعلوماتية ، وفي هذه الموجة حدثت الثورة في الاتصالات ، وبدا العالم وكأنه قرية صغيرة يتأثر أقصاها بما يحدث في أدناها بسرعة تكاد تكون آنية .

وهكذا انتقل الإنسان نقلة واسعة جعلت حياته المعاصرة تختلف كل الاختلاف عن حياته الماضية ، وكان في مقدمة العوامل التي ساهمت بتحقيق هذه النقلة الاكتشافات العلمية الوفيرة ، التي حصلت في العصر الحديث ، والمعلومات الجديدة عن موقع الإنسان في هذا الكون ، ومكننة الصناعة التي حولت المعرفة بالعلوم إلى تكنولوجيا ذات كفاءة عالية جدًّا قادرة على تحويل الأفكار النظرية إلى منتجات عملية بسرعة وبمواصفات عالية الجودة ، وغير ذلك من المؤثرات التي طرأت على حياة البشر ، وطرحت مفاهيم جديدة توشك أن تدمر كل قديم ، وخلقت أفكارًا واتجاهات اجتماعية وسياسية ودينية بالغة التعقيد ، وغيرت اتجاهات الصراع بين البشر ، وفصلت ملايين البشر عن تاريخهم وعاداتهم الموروثة ، وأدخلت الإنسان بقوة عصر الحداثة (*Modernity*) الذي يؤرخ بعض الباحثين بدايته في العام (١٤٣٦ م) ، أي مع اختراع الألماني جوهانس جوتنبرج آلة الطباعة . فيما يرى آخرون أن عصر الحداثة بدأ في عام (١٥٢٠م) مع ثورة الداعية الإصلاحي لوثر كنج ضد سلطة الكنيسة ، وتوجه أوروبا نحو العلمانية ، وهناك مجموعة أخرى من الباحثين تتقدم بالحداثة إلى عام (١٦٤٨م) مع نهاية (حرب الثلاثين عامًا)[1] ، ومجموعة

---

(١) حرب الثلاثين عامًا (١٦١٨م ـ ١٦٤٨م) : جرت في الأراضي الألمانية ، وتدخلت فيها معظم القوى =

خاصة تربط بين الحداثة و (الثورة الفرنسية) [١] ، التي وقعت في عام (١٧٧٦م) ، أو (الثورة الأمريكية) [٢] ، التي اشتعلت في عام (١٧٨٩م) ، وهناك قلة من المفكرين الذين يقولون إن الحداثة بدأت في عام (١٨٩٥م) مع كتابات عالم النفس سيجموند فرويد ، وانطلاق حركة الحداثة في الفنون والآداب .

وبعيدًا عن هذه الاختلافات في التأريخ للحداثة وبداية العصر الحديث للإنسان ، فإنه لا جدال بأن الإنسان في العصر الحديث قد دخل مرحلة جديدة كل الجدة من حياته ، وما زال في كل يوم يواجه الجديد والغريب والعجيب ، ومما يدل على هذا ما ذكره أيضًا الخبير الأمريكي ألفين توفلر في كتابه الشيق الآخر (صدمة المستقبل) فقد رأى أن الخمسين ألف سنة الماضية من عمر الإنسان إذا ما قسمت إلى أجيالٍ متساوية مدةُ كل منها ٦٢ عامًا ـ وهو متوسط عمر الإنسان عندما صدر الكتاب ـ فإنَّ ناتج القسمة يكون ٨٠٠ جيل ، جرت أحداثها على النحو الآتي :

- أمضى الإنسان منها زهاء (٦٥٠ جيلًا) داخل الكهوف .
- ولم يعرف الكتابة إلا منذ (٧٠ جيلًا) .
- ولم يعرف الطباعة إلا منذ (٦ أجيال) .
- ولم تتوفر له وسيلة دقيقة لقياس الوقت إلا منذ (٤ أجيال) .

= الأوروبية ، واندلعت الحرب بسبب الصراع الديني بين الكاثوليك والبروتستانت ، والتنافس بين أسرة هابسبرج والقوى المركزية الأخرى في أوروبا ، وصاحبت الحرب أوبئة ومجاعات فظيعة كانت نتائجها مدمرة ، وانتهت الحرب بصلح وستفاليا الشهير ، وعلى الرغم من أن المعارك الحربية استمرت ٣٠ عامًا فقط إلا أن الصراعات والنزاعات بقيت في القارة لمدة تزيد عن ٣٠٠ عامًا لاحقة .

(٢) الثورة الفرنسية : اندلعت عام (١٧٨٩م) ردًا على تسلط رجال الكنيسة وتدخلهم في حياة الناس ومحاربتهم للعلوم التجريبية وربطهم لها بالشعوذة ، ودعمهم للنظام الإقطاعي الذي كانت تسيطر عليه أقلية من النبلاء أصحاب الامتيازات الموروثة ، وأسفرت الثورة عن تحولات سياسية واجتماعية كبرى في فرنسا وأوروبا ، وانتهت بإلغاء الملكية المطلقة ، والامتيازات الإقطاعية ، والنفوذ الديني للكنيسة ، وأرست مفاهيم الديمقراطية وحقوق الشعب والمواطنة ، وبرزت فيها نظرية العقد الاجتماعي للفيلسوف روسو الذي يعد منظر الثورة ، وكانت أحداثها مصدر إلهام للكثير من الأدبيات ، من أشهرها رواية (قصة مدينتين) للكاتب الإنجليزي تشارلز ديكنز.

(٣) الثورة الأمريكية : وقعت أواخر القرن الثامن عشر ، وانتهت باستقلال الولايات المتحدة عن الإمبراطورية البريطانية في عام (١٧٧٦م) ، وقد ألهب الاستقلال حماسة الجماهير للمجتمع الجديد الذي ما لبث أن أصبح دولة قوية أخذت بالنمو والتوسع ، وأصبحت بعد الحرب العالمية الثانية القوة العظمى الأولى في العالم .

- ولم يعرف المحرك الكهربائي إلا في الجيلين الأخيرين .

- أما بقية الأدوات والمخترعات والأجهزة الحديثة التي ننعم بها اليوم فقد ظهرت خلال الجيل الأخير من القرن العشرين .

ويظهر لنا من خلال هذا الاستعراض الزمني للحقبة الأخيرة من التاريخ البشري أن التأثير الفعلي للإنسان في الأرض لم يبدأ إلا منذ فترة قريبة جدًّا ، وذلك حين بدأ يُسخِّر العلمَ في حياته بصورة منظمة ، ولا سيما في القرون الميلادية الثلاثة الأخيرة (١٨ ، ١٩ ، ٢٠) التي حقق فيها بعض الاكتشافات والاختراعات الأساسية التي ننعم اليوم بالكثير منها ، وفي مقدمتها اختراع المحرك البخاري ، وتسخير الطاقة الكهربائية ، ثم بقية الاكتشافات والاختراعات والإنجازات والثورات العلمية التي غيَّرت ملامح الحياة البشرية ، ليس في الأرض وحدها بل في الفضاء أيضًا ، وها هي ذي اليوم آلاف المركبات الفضائية والأقمار الصناعية والمجسات الفضائية التي صنعها الإنسان تذرع الفضاء فوق رؤوسنا ، وتقدم لنا خدمات جليلة ما كنا نحلم بشيء منها قبل قرن واحد من الزمان .

ولم يكتفِ الإنسان بكل هذه الإنجازات العظيمة ، بل ظل يرنو ببصره إلى ارتياد العوالم الأخرى البعيدة التي أصبح الأمل كبيرًا بأن يصل إليها ويستوطنها في غضون قرن من الزمان .. وليس القرن بكثير .. فقد انتظر الإنسان ملايين السنين قبل أن يتعلم كيف يزرع الأرض ، ولن يضيره أن ينتظر قرنًا من الزمان ليتعلم كيف يزرع الكواكب البعيدة (انظر فصل : آفاق المستقبل) .

عظماء التاريخ البشري :

لقد شهد تاريخ الإنسان الكثير من الشخصيات العبقرية العظيمة التي تركت أثرًا واضحًا في مسيرة الأحداث ، سواء في زمانها أو في العصور اللاحقة ، بل إن كثيرًا منها ما زال مؤثرًا في حياتنا حتى اليوم .

وقد جرت محاولات عديدة على مدار التاريخ لتخليد ذكرى هؤلاء العظماء ، واختلف المؤرخون باختيار الشخصيات التي تستحق شرف الانضمام إلى قائمة العظماء ، كما اختلفوا حول ترتيب هذه الشخصيات من حيث الأهمية ، وكثيرًا ما لعبت الأهواء الشخصية للمؤرخين بهذا الترتيب وذلك الاختيار ، أو أن بعض الظروف المحيطة بالمؤرخين أملت عليهم اختيار وترتيب هذه الشخصيات ، وربما أملت عليهم هذا الترتيب والاختيار بعض

الاعتبارات التجارية ، فيضعون في المقدمة الشخصيات التي قد تأتي لهم بالمزيد من القراء وتدرُّ عليهم المزيد من الربح .

ومن المؤرخين الذين طرقوا هذا الباب في عصرنا الراهن العالم المؤرخ الأمريكي (مايكل هارت)[1] ، صاحب كتاب : المائة الأوائل ـ

(*The 100 : A Ranking of the Most Influential Persons in History*)

الذي نشره في عام (١٩٧٨م) ولاقى رواجًا واسعًا في مختلف أنحاء العالم ، وقد أدرج فيه أسماء مائة شخصية عالمية رتبها حسب اعتقاده بأهميتها ، وراعى في الاختيار أن تكون الشخصية حقيقية قد عاشت فعلًا في فترة ما من فترات التاريخ ، وليست أسطورية أو مشكوك بوجودها ، وأن تكون الشخصية واسعة الشهرة وغير مجهولة ، فهناك عظماء مجهولو الاسم ؛ مثل : أول من اخترع الكتابة ، وأول من اخترع العجلة ، وأن يكون الشخص عميق الأثر سواء كان الأثر طيبًا أم شريرًا ، وأن يكون للشخص تأثير عالمي وليس إقليميًا ، واستبعد الذين لا زالوا على قيد الحياة حين نشر الكتاب ، وقدَّم الشخص الذي أسس حركة معينة على الشخص الذي كان له دور كبير في الحركة ؛ وانتهى من ذلك إلى القائمة المبينة في (الجدول ـ ٩) التي رأى أنها الأعظم على مدار التاريخ :

(الجدول ـ ٩) أعظم مائة شخصية على مدار التاريخ حسب اختيار ترتيب المؤرخ الأمريكي مايكل هارت

١	النبي محمد ﷺ	٤	بوذا ، مؤسس الديانة البوذية	٧	تسي أي لون ، مخترع الورق
٢	إسحاق نيوتن	٥	كونفوشيوس	٨	يوهان جوتنبرج ، مخترع الطباعة
٣	النبي عيسى عليه السلام	٦	القديس بولس	٩	كريستوفر كولمبوس ، مكتشف أمريكا

---

(١) مايكل هارت : عالم أمريكي معاصر ، حصل على عدة شهادات علمية عليا في الرياضيات والعلوم والقانون والفلك ، وعمل لسنوات طويلة في مراكز بحوث الفضاء والفيزياء التطبيقية بولاية ميريلاند الأمريكية ، وفي بعض المراصد الفلكية ، وله إلى جانب ذلك اهتمام كبير بالتاريخ ، ولا سيما تاريخ العلوم .

١٠	ألبرت آينشتاين ، صاحب نظرية النسبية	٢١	جنكيز خان ، قائد عسكري	٣٢	سيجموند فرويد ، عالم نفس
١١	كارل ماركس ، مؤسس الفلسفة الماركسية	٢٢	إقليدس ، عالم هندسة إغريقي	٣٣	الإسكندر الأكبر المقدوني ، أشهر الغزاة في التاريخ القديم
١٢	لويس باستور ، مكتشف الجراثيم	٢٣	مارتن لوثر كنج ، مصلح كنسي	٣٤	نابليون بونابرت ، إمبراطور فرنسي
١٣	جاليليو جاليلي ، عالم فلك	٢٤	نيكولاس كوبرنيكس ، عالم فلك	٣٥	أدولف هتلر ، زعيم نازي
١٤	الفيلسوف أرسطو	٢٥	جيمس واط ، مخترع الآلة البخارية	٣٦	وليام شكسبير ، أديب إنكليزي
١٥	لينين ، قائد الثورة البلشفية في روسيا	٢٦	قسطنطين الأكبر ، أول إمبراطور روماني مسيحي	٣٧	آدم سميث ، فيلسوف اقتصادي
١٦	النبي موسى [illegible]	٢٧	جورج واشنطن ، مؤسس الدستور الأمريكي	٣٨	توماس أديسون ، مخترع المصباح الكهربائي
١٧	تشارلز داروين ، صاحب نظرية التطور	٢٨	مايكل فاراداي ، مخترع الدينمو الكهربائي	٣٩	أنطوني فان ليفنهوك ، مخترع المجهر
١٨	شي هوانج تي ، إمبراطور صيني	٢٩	جيمس ماكسويل ، عالم فيزياء	٤٠	الفيلسوف أفلاطون
١٩	أغسطس قيصر ، مؤسس الإمبراطورية الرومانية	٣٠	الأخوان رايت ، مخترعي الطائرة	٤١	ماركوني ، مخترع الراديو
٢٠	ماوتسي تونغ ، الثورة الثقافية في الصين	٣١	لافوازييه ، عالم كيمياء	٤٢	الموسيقي بتهوفن

٤٣	فرنر هايزنبرج ، واضع ميكانيكا الكم	٥٣	القديس أوغسطين ، شخصية لاهوتية مسيحية	٦٣	ستالين ، زعيم روسي
٤٤	جراهام بل ، مخترع الهاتف	٥٤	ماكس بلانك ، واضع نظرية الكم في الفيزياء	٦٤	الفيلسوف ديكارت
٤٥	ألكسندر فلمنج ، مكتشف البنسلين	٥٥	جون كالفن ، لاهوتي بروتستانتي	٦٥	الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر
٤٦	سيمون بوليفار ، محرر دول أمريكا اللاتينية	٥٦	وليام مورتن ، مكتشف الغاز المخدر الذي استخدم في الجراحة	٦٦	فرانسيسكو بيسارو ، قائد إسباني ساهم في استعمار أمريكا الجنوبية
٤٧	أوليفر كرومويل ، واضع أسس الديموقراطية البرلمانية في إنكلترا	٥٧	وليام هارفي ، مكتشف الدورة الدموية الصغرى	٦٧	هرناندو كورتيس ، فاتح المكسيك
٤٨	جون لوك ، واضع أسس الديموقراطية الدستورية في إنكلترا	٥٨	أنطوان هنري بيكريل ، مكتشف النشاط الإشعاعي	٦٨	الملكة إيزابيلا الأولى ، ساعدت كولمبوس لاكتشاف أمريكا
٤٩	مايكل أنجلو ، نحات إيطالي	٥٩	جريجوري ماندل ، مؤسس علم الوراثة	٦٩	وليام الفاتح ، كان له أثر في قيام الإمبراطورية الإنكليزية
٥٠	البابا أوربان الثاني ، أثار الحروب الصليبية	٦٠	جوزيف ليستر ، مؤسس التعقيم بالطب	٧٠	توماس جيفرسون ، واضع إعلان الاستقلال الأمريكي
٥١	عمر بن الخطاب ، ثاني الخلفاء الراشدين في الإسلام	٦١	نيكولاس أوجست أوتو مخترع المحرك ذي الاحتراق الداخلي	٧١	الفيلسوف جان جاك روسو
٥٢	آشوكا ، مؤسس أول إمبراطورية كبيرة في الهند	٦٢	لوي داجير ، ساهم بتطوير التصوير الفوتوغرافي	٧٢	إدوارد جنر ، واضع أسس التطعيم ضد الأمراض السارية

٧٣	روتنجون، مكتشف الأشعة السينية	٨١	جريجوري بنكوس، طور حبوب منع الحمل	٨٩	زرادشت، مؤسس الديانة التي تحمل اسمه
٧٤	الموسيقي باخ	٨٢	سوي ون تي، إمبراطور صيني وحد الصين بعد تمزقها	٩٠	الملك مينا، أول ملوك مصر القديمة
٧٥	لاوتسو، كتاب صيني هو أساس الديانة الطاوية	٨٣	ماني، مؤسس الديانة المانوية التي استمرت زهاء ألف عام ثم انقرضت	٩١	بطرس الأكبر، أعظم القياصرة الروس
٧٦	فيرمي، مصمم أول مفاعل ذري	٨٤	فاسكو دا جاما، رحالة برتغالي اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند	٩٢	منشيوس، أهم الفلاسفة الصينيين بعد كنفوشيوس
٧٧	توماس مالتوس، الاقتصادي صاحب فكرة تحديد النسل	٨٥	الإمبراطور شارلمان، مؤسس الإمبراطورية الفرنسية المقدسة	٩٣	جون دالتون، واضع نظرية الذرة
٧٨	الفيلسوف بيكون	٨٦	كوريش العظيم، مؤسس الإمبراطورية الفارسية	٩٤	هوميروس، شاعر إغريقي صاحب أول وأشهر ملحمة شعرية في التاريخ
٧٩	الفيلسوف فولتير	٨٧	ليونارد أويلر، رياضي فيزيائي سويسري له اكتشافات عديدة ولا سيما في ديناميكا السوائل	٩٥	اليزابيث الأولى، حكمت إنكلترا ٤٥ عاماً
٨٠	جون كنيدي، الرئيس الأمريكي الذي شجع رحلات الفضاء إلى القمر	٨٨	مكيافيللي، صاحب كتاب (الأمير)	٩٦	جستنيان، صاغ القانون الروماني الذي كان له أثر في كل القوانين التي عرفت في التاريخ

٩٧	يوهانس كبلر ، واضع قوانين حركة الكواكب	١٠٠	نيلس بور ، واضع نظرية تركيب الذرة وحركة مكوناتها		
٩٨	بابلو بيكاسو ، أشهر رسامي العصر الحديث				
٩٩	ماهافيرا ، مؤسس الديانة الجينية في الهند التي مضى عليها حتى الآن ٢٥ قرنًا				

وقد لاقى تصنيف مايكل هارت لهذه الشخصيات انتقادات كثيرة لما فيها من تغليب الشخصيات الأوروبية الأمريكية ، ولا سيما منها الشخصيات العلمية ورجال الدين المسيحيين ، ونعتقد أن هذا يرجع من جهة إلى طبيعة التخصص العلمي للمصنف ، ويرجع من جهة أخرى إلى انتمائه الغربي المسيحي ، كما أن بعض الشخصيات التي اختارها تكاد تكون مجهولة تمامًا على المستوى العالمي ، وبعضها كان له تأثير محدود بعصره أو بيئته المحلية فقط ، ونلاحظ من جهة أخرى أن المصنِّف قد حرص على اختيار شخصيات من مختلف الحضارات والمذاهب والأديان والتيارات الفلسفية لكي يرضي كافة الجهات ويضمن لكتابه الرواج على أوسع نطاق عالمي ممكن .

ونرى أن الأجدر وضع الأنبياء عليهم السلام في رأس القائمة ؛ لأنهم كانوا الأعظم على مدار التاريخ ، لما تركوه من أثر طيب في ترسيخ قواعد الإيمان والتوحيد ، ودعوتهم للتحلي بالقيم الإنسانية النبيلة والأخلاق الحميدة ؛ ولأن كل المؤشرات تدل على أن أثرهم سوف يبقى دائمًا حتى آخر الزمان (انظر فصل : تاريخ الأديان) .

ويأتي بعد ذلك نخبة من العلماء العظام الذين أسسوا طرائق البحث العلمي ، وحققوا الاكتشافات والاختراعات العظيمة التي وفرت الكثير من الجهد والوقت ، وأعطت ثمارًا يانعةً ، ودفعت الحضارة البشرية دفعات قوية إلى الأمام ، وحسنت مستوى المعيشة لأهل الأرض ، وقرّبت بينهم حتى أمست الأرض أشبه بالقرية الصغيرة (انظر فصل : تاريخ العلم) .

وفي المرات التالية تأتي نخبة من الفلاسفة والأدباء والفنانين المبدعين ، الذين قدموا للبشرية عصارة فكرهم وإبداعاتهم ، فارتقوا بالعقل البشري إلى عوالم ساحرة موشّحة بألوان الفكر الحر ، والجمال الآسر الفتان ، وارتقوا بمستوى الذوق العام ، وأضفوا على الحياة مسحة جمالية أخّاذة .

وفي المحصلة الأخيرة فإن العظماء الذين تركوا أثرًا لا ينمحي على مر العصور والدهور ليسوا سوى ندرة نادرة من البشر الذين وهبهم الخالق ﷻ قدرات متميزة ، أحسنوا التصرف بها ، وبذلوا ما تستحقه من الجهد ، فحققوا تلك الإنجازات الكبيرة التي جعلتهم يستحقون بجدارة وصف العظماء .

● ● ●

الفَصلُ السَّابعُ
تاريخ الكلمة

• ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

• لقد اخترع الإنسان اللغة ليخفي مشاعره .

الأديب الأمريكي أوسكار وايلد

الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي استطاع ـ بما وهبه الخالق ﷻ من قدرات عقلية متفردة ـ أن يطور اللغة ، وأن يحولها إلى إشارات مكتوبة يمكن التواصل من خلالها مع بني جنسه ، فبعد أن تعلم الإنسان تسمية الأشياء والنطق بأسمائها اهتدى إلى التعبير عنها بإشارات أو رسوم بدأ يرسمها على جدران الكهوف ، أو لحاء الشجر ، وقد كانت هذه نقلة كبيرة في التاريخ البشري ؛ لأنها مكنت الإنسان لأول مرة في حياته من نقل تجاربه وخبراته ومعارفه إلى الأجيال اللاحقة عبر الكتابة ، ومع تراكم التراث المكتوب حفظت تلك التجارب والخبرات والمعارف وأصبحت تشكل مصدرًا أساسيًّا من مصادر المعرفة البشرية .



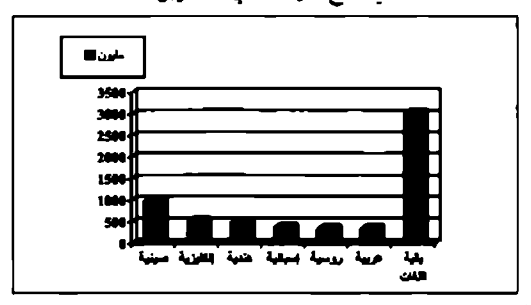
(رسوم بدائية عثر عليها داخل بعض الكهوف القديمة)

ويعتقد علماء اللغات أو اللسانيات (*Liguistics*) أن البشر أصبحوا منذ ٢٠٠,٠٠٠ سنة) قادرين على التواصل فيما بينهم من خلال التخاطب بلغة رمزية مجردة ، وربما بدأ ذلك في بلاد فارس أو منطقة ما وراء النهر التي تعرف اليوم باسم إيران ، ويقدّر علماء اللغة أنّ عدد اللغات الحيّة المتداولة في أيامنا الراهنة في شتى أنحاء العالم يربو على

(٧٠٠٠ لغة) منها حوالي (٨٤٥ لغة) في الهند وحدها ، أما اللغة التي يستعملها اليوم أكبر عدد من الناس فهي اللغة الصينية التي يتحدث بها نحو (مليار شخص) ثم اللغة الإنكليزية التي يتحدث بها نحو (نصف مليار شخص) في أنحاء متفرقة من العالم . وبخاصة بريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا .

(الجدول ـ ١٠) العدد التقديري للمتحدثين باللغات الحية في العالم

في مطلع القرن الحادي والعشرين



ويتنبأ علماء اللغات أن ما بين (٥٠ ـ ٩٠ ٪) من اللغات الحية المستعملة اليوم في العالم سوف تنقرض قبيل انصرام القرن الثاني والعشرين ، لتحلَّ محلَّها اللغات الأخرى الأكثر حيوية [١] ، وبخاصة منها اللغة الإنكليزية التي بدأت تنتشر انتشارًا واسعًا سريعًا في شتى بقاع الأرض ، وقد ازداد الإقبال عليها كثيرًا في السنوات الأخيرة بسبب اتساع نفوذ الدول الناطقة بالإنكليزية (الولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة) وسيطرتها على العالم . وتسخير وسائل الإعلام المختلفة لنشر هذه اللغة ولا سيما منها قنوات التلفزيون الفضائية . وشبكات الكومبيوتر العالمية (الإنترنت) وغيرها ، ففي إحصائية صدرت عام (٢٠٠١م) عن اليونيسكو وجد أن ٧٥ ٪ من الإنتاج الثقافي في العالم يصدر باللغة الإنكليزية عن الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ، والباقي يصدر عن بقية دول العالم ببقية اللغات . وأن ٨٨ ٪ مما ينشر على مواقع شبكة الإنترنت العالمية ينشر باللغة الإنكليزية ، و ٩٪ بالألمانية ، و ٢ ٪ بالفرنسية ، و ١ ٪ لبقية اللغات [٢] .

---

(١) انظر : جريدة الشرق الأوسط ، العدد (٨٧٥١) ، الأربعاء ١٣/ ١١/ ٢٠٠٢م .

(٢) د. بركات محمد مراد : ظاهرة العولمة ، رؤية نقدية ، (ص ٤١) .

وقد أثبتت البحوث الحديثة في علم اللسانيات أن الإنسان ليس هو المخلوق الوحيد القادر على التواصل مع بني جنسه بواسطة اللغة ، فقد اكتشف العلماء أن لكل نوع من أنواع الحيوانات المختلفة لغة خاصة به يتواصل بواسطتها مع بني جنسه [1] ، وقد بيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة قبل العلماء بأربعة عشر قرن من الزمان ، فأشار إلى منطق الطير كما ورد على لسان نبي الله سليمان عليه السلام : ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦] ، وكان سليمان عليه السلام قادرًا على التخاطب مع الحيوان كما يتخاطب البشر فيما بينهم ، ومن ذلك ما جرى بينه وبين الهُدْهُد الذي تفقّده سليمان فلم يجده بين الحيوانات التي حشرت أمامه ، فهدد بقتله إذا لم يأته بعذر يبرر غيابه ، وحين جاء الهدهد قدَّم حجته وردَّ على النبي قائلًا : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾ [النمل : ٢٢] ، وكذلك سمع سليمان حديث النملة لعشيرتها من النمل وهي تحذرهم من جحافل الجيش : ﴿ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا ﴾ [النمل : ١٨ ، ١٩] ، فهذه الشواهد القرآنية تدل على أن للطيور وللنمل ولغيرها من مخلوقات الله لغتها الخاصة التي تتفاهم بواسطتها فيما بينها .

وقد تمكن بعض المتخصصين بتدريب الحيوانات من تعليم بعضها لغة البشر ، حتى أصبحت قادرة على النطق كما ينطق البشر ، ففي منتصف شهر نيسان من عام (١٩٩٦م) عقد مؤتمر علمي كبير في مدينة تكسون (*Tucson*) بولاية أريزونا الأمريكية ، ضمَّ نخبةً كبيرةً من المتخصصين في فيزيولوجيا الأعصاب ، وعلم النفس ، والمتخصصين بسلوك الحيوان ، وقدمت فيه بحوث على درجة كبيرة من الأهمية حول تعليم الحيوانات لغة البشر ، وعرض فيه ببغاء يدعى (أليكس) يستطيع العدَّ حتى الرقم ستة ، والتفريق بين الألوان المختلفة ، كما عرض شمبانزي على درجة كبيرة من الذكاء يمتلك قاموسًا لغويًا مؤلفًا من (٢٥٦ كلمة) من كلمات البشر ، وقد أكد أحد الباحثين في المؤتمر أن الفيلة تمتلك لغة للتخاطب بأصوات تحت الصوتية لا يسمعها البشر ، تمكِّن الفيلة من التخاطب ولو كان بعضهم يبعد عن بعض (١٦ كلم) وربما أكثر ، وهذا ما يؤكد أن اللغة ظاهرة عامة ليس

---

[1] انظر مجموعة المقالات التي نشرت في مجلة (الثقافة العالمية) العدد (١١٦) ، يناير / فبراير ٢٠٠٣م ، (ص ٧) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، وهي مترجمة عن مجلة *(La Recherche, No 341, April 2001)* .

في عالم البشر وحدهم ، بل أيضًا في عالم الحيوان ، ومن يدري فقد نكتشف في يوم من الأيام أن للنباتات أيضًا لغات تتخاطب وتتواصل من خلالها .

ويعتمد نطق الإنسان على مراكز عصبية عليا في الدماغ هي المسؤولة عن قواعد اللغة وتفسير المعاني ، إلى جانب جهاز التصويت الذي تعد (الحنجرة) أهم جزء فيه ، بالإضافة إلى مجرى التنفس والفم واللسان والشفتين .

أما المراكز الدماغية فأهمها منطقة (بروكا) التي اكتشفها الجراح باول بروكا(*Paul Broca*) في القرن التاسع عشر ، وتبين أنها المسؤولة عن القواعد اللغوية ، ثم المنطقة العصبية المسماة منطقة (فيرنيكيه) التي اكتشفها الطبيب الألماني كارل فيرنيكيه(*Carl Wernike*) وهي المسؤولة عن تفسير معاني الكلمات ، وهاتان المنطقتان تتوضعان في الفص الجداري من قشرة المخ الأيسر ، أي المنطقة الحركية الحسية ، وعندما تعطب هذه المناطق بسبب المرض أو الرضوض أو النزيف أو الأورام يفقد المريض قدرته على النطق ، فتراه يهمُّ بالكلام وتحضره الكلمة ومعناها ولكن لسانه يخونه فلا يستطيع النطق بها ، أو أنه يسمع الكلمات ولكنها تمر بسمعه دون أن يدرك لها معنى .





(الجراح باول بروكا ، وتظهر في الرسم المنطقة من الدماغ المسؤولة عن الكلام)

اللغة والكتابة :

ربما كان أقدم أثر بشري مكتوب عثر عليه حتى الآن هو تلك الكتابات التي عثر عليها في منطقتي (آزياب) و (غانجي داره) في إيران ويعود تاريخها إلى حوالي (٨٥٠٠ ق.م) . أمّا أقدم الأبجديات التي عثر عليها حتى الآن فهي الأبجدية التي اكتشفت في منطقة أوغاريت بشمال سوريا ، ويعود تاريخها إلى حوالي (٨٠٠٠ ق.م) ، أمّا أول لغة مكتوبة ذات تاريخ

متواصل وما زالت مستخدمة حتى اليوم ، فقد اكتشفت آثارها في منطقة (ينغشاو) في الصين على أوعية خزفية كانت تستعمل في الزراعة وتعود إلى ما بين (٥٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ ق.م) .

وربما كان (السومريون) [1] هم أول من استخدم الإشارات التصويرية في الكتابة ، وقد استخدموا في البداية حوالي (٢٠٠٠ إشارة تصويرية) ثم أخذها عنهم الفرس والآشوريون والبابليون وطوروها ، فبدأ عدد الإشارات يتناقص بسبب تزايد ارتباطها بالأصوات ، حتى لم يبقَ من الإشارات الصوتية خلال الألف الثانية قبل الميلاد سوى (٥٠٠ إشارة) فقط ، وكانت تشبه المثلث الطويل أو شكل المسامير ولذلك أطلق عليها اسم الكتابة المسمارية (*Coneiform*) ، ثم طُوِّرت خلال عدة قرون تالية حتى أصبحت تعبّر عن أدق المفاهيم المجردة ، وأرق المشاعر والعواطف والأحاسيس الإنسانية .

وفي الوقت نفسه تقريبًا ابتكر الفراعنة في مصر الكتابة الهيروغليفية (Hieroglyphic) التي تعبر فيها الرموز عن الكلمات والمقاطع والأصوات ، ثم ظهرت الأبجدية الهندية القديمة عام (٢٥٠٠ ق.م) ، وكانت تتألف من (٢٥٠ إشارة) ، وقد وجدت منها كتابات على الحجر والخزف وألواح النحاس ، إلَّا أن العلماء ما زالوا إلى اليوم عاجزين عن قراءتها ، وقد اختفت هذه الأبجدية بشكل مفاجئ فلم يعد أحد يستخدمها ، ولم تترك أي أثر على الكتابات اللاحقة في الهند ، وحلَّت محلَّها الكتابة بالحروف الهندية المعروفة اليوم .

وفي حوالي عام (١٥٠٠ ق.م) بسَّط الفنيون والحرفيون في مدينة أوغاريت برأس شمرا بالقرب من مدينة اللاذقية بشمال سوريا الحروف المسمارية ، حتى انخفض عددها إلى (٣٢ حرفًا) فقط ، أي ما يقارب أغلب الأبجديات المعروفة اليوم ، وكان كل حرف فيها يمثل صوتًا مفردًا ، وبتجميع هذه الأحرف تتشكل الكلمات ، وتعد هذه الأبجدية أول وأكمل أبجدية قديمة ، وقد أتاحت الأبجدية للكُتَّاب كفاءة عالية وسهولة في الكتابة ، وسهلت تعلم الكتابة وتعليمها ، وكانت بحق نقلة واسعة في مسيرة العلم البشري .

---

(1) الحضارة السومرية (حوالي ٥٠٠٠ ق.م) : ظهرت في جنوب العراق ، وكان السومريون يتكلمون السامية ، وكانت حضارتهم زراعية ، وبرعوا في سبك المعادن وصناعة الفخاريات ، واهتموا بالفنون ، وابتكروا نظام الكتابة بالخط المسماري على ألواح من الطين ، ويرجع إليهم الفضل بتأسيس نظم تجارية ومصرفية ، وموازين ومكاييل قانونية ، وهم أول من سن قانونًا مدنيًا مكتوبًا ، ومازالت طريقتهم الستينية في تقسيم اليوم مستعملة حتى اليوم : ٢٤ ساعة ، ٦٠ دقيقة ، ٦٠ ثانية) وتقسيمهم للدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، وقد تفوقوا في النظم الحربية والأسلحة وكونوا ممالك متعددة ، واضمحلت حضارتهم مع نهضة حورابي (ح ٢١٠٠ ق.م) وتأسيس بابل التي انتقل الحكم إليها .

وقد تبنى الإغريق الأحرف الهجائية الأوغارتية (ح ١٠٠٠ ق.م) وطوروها إلى نوعين من الأحرف الهجائية ، هما الأحرف الإغريقية الغربية ، والأحرف الإغريقية الشرقية ، ولم يلبث الإتروريون في إيطاليا أن تبنوا الأحرف الهجائية الإغريقية الغربية (ح ٤٠٠ ق.م) التي أصبحت أساس الحروف الهجائية الرومانية التي ما زالت تستخدم في الغرب حتى اليوم ، وخلال الفترة ما بين (١٧٠٠ ـ ١٥٠٠ ق.م) عند شواطئ البحر الأبيض المتوسط أيام الفينيقيين بدأت أحرف الهجاء تحل تدريجيًا محل الصور والأشكال التي كان يستخدمها بعضهم في التعبير عن اللغات .





(في الأيمن كتابات هيروغليفية من مصر القديمة ، وإلى اليسار الكتابة المسمارية على ألواح حجرية من منطقة أوغاريت شمال سوريا)

ومع تطور أساليب الكتابة وأشكالها وأبجدياتها كانت أدوات الكتابة وطرائقها تتطور أيضًا مرحلة بعد مرحلة ، ولعل أقدم الرُّقُم أو اللوحات المكتوبة التي وصلت إلينا هي تلك التي عثر عليها في مدينة (نيبور) جنوبي العراق ، ومدينة أوروك التي ورد اسمها في التوراة (أرك) وتعود إلى العام (٣٤٠٠ ق.م) وكانت تصنع من الطين الطري ويكتب عليها بأقلام رفيعة من القصب أو الخشب ، وكانوا يستخدمون الصور للتعبير عن المعاني ، وقد شهدت أدوات الكتابة عبر التاريخ تطورًا بطيئًا بعض الشيء ، وربما كان الفراعنة في مصر أول من عمل في الألف الرابعة قبل الميلاد على استخدام أقلام الكتابة التي كانوا يصنعونها من قصبات النبات المجوفة بطول (١٦ ـ ٢٣ سم) ، وكانت تقطع بشكل مائل في أحد طرفيها ثم يبرى رأسها حتى يسمح بالكتابة بخط دقيق ، كما استخدم المصريون نوعًا من الحبر كانوا يحضّرونه من السّخام الممزوج بالماء ، وكان باللونين الأسود أو الأحمر . وكانوا ينقشون كتاباتهم على الحجارة المسطحة للمعابد وعلى المقابر ، ونادرًا ما كانوا يكتبون على المواد الطرية .

أما الإغريق فقد ابتكروا حوالي عام (١٣٠٠ ق.م) أداة مستدقّة الرأس مصنوعة من البرونز أو العظم أطلقوا عليها اسم (المِرْقَم) كانوا يكتبون بها على ألواح من الشمع ، وحوالي عام (٥٠٠ ق.م) استخدمت في أوروبا والشرق الأوسط أقلام مصنوعة من ريش الطيور ، وقد ظل هذا النوع من الأقلام أداة للكتابة مدة تزيد عن الألف عام ، وحوالي عام (٢١٥ ق.م) طور الزعيم العسكري الصيني منغ تين فرشاة من وبر الجمال تسمى (بي) للكتابة على الحرير والورق .

وحوالي عام (١٥٦٥م) ظهرت أقلام الكتابة الحديثة حين صمم السويسري ك.جسنر قلم الرصاص المصنوع من الجرافيت ، وقد اقتضى الأمر أكثر من ثلاثة قرون أخرى قبل أن يتمكن الأمريكي ك.ووترمان عام (١٨٨٤م) من صنع قلم الحبر السائل ، ثم ظهر قلم الحبر الجاف الذي اخترعه الأرجنتيني ك.بيرو عام (١٩٣٨م) وكان برأس كروي ينساب الحبر فيه على كرة فولاذية متحركة تعطي مرونة كبيرة أثناء الكتابة ، وقد طورته اليابان في خمسينات القرن العشرين إلى قلم الحبر الجاف المستخدم حاليًا في شتى أنحاء العالم .

أما ورق الكتابة فقد مر بمراحل عديدة قبل أن يصل إلى أشكاله الكثيرة المعروفة اليوم ، ولعل المصريين القدماء هم أول من استخدم ورق البردي للكتابة حوالي عام (٣٥٠٠ ق.م) وبعد بحوالي ألف عام استخدموا الورق المصنوع من لبّ القصب .

وبعد ذلك بعدة قرون عاد ورق البردي فأصبح سلعة مهمة للتصدير في كل من سوريا ثم اليونان وروما ، وظل كذلك حتى القرون الوسطى حين بدأ الورق العادي يحل محله ، وابتداءً من العام (٢٠٠ ق.م) بدأ استخدام الورق ينتشر في أنحاء عديدة من العالم ، ويستخدم إلى جانبه نوع من الورق المصنوع من الجلد الحيواني حوالي عام (١٩٠ق.م) ، وقبل الميلاد بمائة عام صنع الصينيون أول ورق عملي من دقّ الخشب والخرق والقشّ ممزوجة بالماء ، وقد بقي هذا الأسلوب للحصول على ورق الكتابة متبعًا حتى القرن التاسع عشر ، وفي أواخر القرن الثامن عشر اخترع الفرنسي ن.روبرت أول آلة لصنع الورق ما ساهم مساهمة كبيرة في تطور أنواع الورق وأشكاله حتى تفي بمختلف أغراض الكتابة والرسم والطباعة وغيرها .

الكتب :

من العسير تحديد التاريخ الذي ظهرت فيه الكتب بالشكل الذي نعرفه اليوم ، أي مجموعة من النصوص المتكاملة التي تتناول موضوعًا محددًا أو أكثر ، وقد وردت الإشارة

في القرآن الكريم إلى العديد من أشكال الكتب التي يبدو أنها كانت معروفة منذ أحقاب بعيدة ، وقد وصفها القرآن الكريم حينًا بالصحف ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٩] ، ووصفها حينًا بالألواح ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ [الأعراف : ١٥٠] ، ووصفها حينًا آخر بالكتب ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة : ٣] مما يدل على أن مفهوم الكتاب قديم إلى حد ما ، ولعل الكتب السماوية هي أول الكتب التي عرفها التاريخ البشري على الإطلاق .

أما الكتب التي حرَّرها البشر فربما كان أقدم ما نسخ منها وطرح للبيع بكميات كبيرة فهي (كتب الموتى) التي ظهرت في مصر القديمة أيام الفراعنة ، ويعود تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق.م وكانت تضم مجموعة من النصوص الدينية وشيء عن السحر ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنها توفر للميت حياة طيبة في قبره ، وكانوا يزينونها برسوم ملونة ، ولهذا فهي تعد من أقدم الكتب المصورة في التاريخ ، أما أول كتاب طبع بالحروف المقطعة فهو كتاب (مزامير متز) الذي طبعه الألماني فوست في عام (١٤٥٧م) وهو الذي موَّل جوتنبرج مخترع المطبعة الشهير ، وقد ذكر في هذا الكتاب ، لأول مرة في تاريخ الكتب ، مكان الطباعة وتاريخها وأسماء الطابعين .

وفي منتصف القرن الخامس عشر انتشرت طباعة الكتب في مدن أوروبية عديدة ، ثم في بقية أرجاء العالم ومنها البلدان العربية التي ظهرت فيها الطباعة بالأحرف العربية لأول مرة في عام (١٧٢٠م) في عهد السلطان العثماني أحمد الثالث ويرجع الفضل فيه إلى محمد جلبي وابنه سعيد ، الذي اتفق مع رجل مجري مسلم على جلب مطبعة تامة الأدوات من أوروبا ، وبدأ ينشران في البلدان العربية أمهات الكتب ما عدا الكتب الدينية منها ، وكان أول كتاب أصدروه هو (صحاح الجوهر) المنقول إلى التركية .

وقد أدى ظهور الكتابة والكتب إلى تخصيص أمكنة للألواح والكتابات القيمة ، ولعل أقدم مكتبة معروفة في التاريخ هي تلك التي وجدت في مدينة نيبور في وادي الفرات في سوريا ، ويعود تاريخها إلى الفترة ما بين (٢٧٠٠ ـ ١٩٠٠ ق.م) ولم تكن تضم كتبًا كالمكتبات المعروفة اليوم بل كانت تحتفظ بألواح من الصلصال نقشت عليها وثائق مختلفة تزيد عن (٣٠,٠٠٠ وثيقة) تتعلق بالشؤون الإدارية والآداب والقانون وأبواب أخرى عديدة من المعارف البشرية ، كما عثر على مكتبات أخرى عديدة مماثلة تعود إلى الحقبة التاريخية نفسها في مدينة أوغاريت بشمال سوريا عند رأس شمرا بالقرب من مدينة اللاذقية .

وقد عثر بعد ذلك على مكتبات أخرى في مواقع عديدة من العالم القديم ، منها مكتبة رمسيس الثاني التي أنشئت في مدينة طيبة في مصر القديمة حوالي العام (١٣٠٣ ق.م) ، ثم المكتبة التي أسسها الملك الآشوري المثقف آشور بانيبال عام (٦٥٠ ق.م) في تل كيونجيك بالقرب من الموصل في العراق ، وعثر فيها على عدد كبير من الرُّقُم الطينية (أكثر من ٢٠,٠٠٠ رقم طيني) ودلت البحوث التي أجريت على مقتنيات هذه المكتبة أن الملك آشور الذي كان مشهورًا بحملاته العسكرية الدموية ضد جيرانه كان أيضًا عالمًا كبيرًا ومحبًّا للكتب ، وهو أول من فكر بجمع كل ما أبدعته الأجيال السابقة في حقول الأدب والمعرفة في مكان واحد ، وهي مبادرة رائدة في تاريخ الفكر البشري ، أمَّا المكتبات الخاصة في البيوت فقد ظهرت لأول مرة في اليونان حوالي عام (٥٥٠ ق.م) .

أما في تاريخنا العربي الإسلامي ، فإن مكتبة (بيت الحكمة) التي أنشأها الخليفة العباسي (المأمون) [1] ، تعد من أوائل المكتبات العربية الإسلامية المنظمة ، وقد تشكلت نواتها الأولى من الكتب التي ترجمت في خلافة أبي جعفر المنصور (٧٥٢ ـ ٧٧٤م) ، وهارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٨م) الذي كلف طبيبه الخاص وكاتبه (يوحنا بن ماسويه) [2] ، بأن يتولى أمر الكتب التي غنمها خلال حروبه المختلفة في بلاد الفرنجة ، ثم جعله أمينًا على ترجمة الكتب ، فلما تولى المأمون الخلافة أنشأ بيت الحكمة ، ونظمه تنظيمًا عاليًا ، وشجع حركة الترجمة ، وبذل المال الوفير للمترجمين ، وعمل على جمع أكبر عدد ممكن من أمهات الكتب في مختلف العلوم واللغات ، مؤسسًا بهذا العمل الرائد أول مكتبة عربية منظمة في التاريخ الإسلامي .

وفي العصر الحديث ، ومع التقدم العلمي الكبير الذي حصل في الحواسيب الإلكترونية الحديثة ، أصبح بالإمكان جمع المواد العلمية والكتب والمؤلفات والمصنفات المختلفة على

---

(١) المأمون ، أبو العباس عبد الله (٧٨٦ ـ ٨٣٣م) : خليفة عباسي في الفترة ما بين (٨١٤ ـ ٨٣٣م) أناط به أبوه هارون الرشيد ولاية العهد بعد الأمين ، ولكن الأمين خلعه وأعلن البيعة لابنه موسى ، فقام بينهما نزاع انتهى بمقتل الأمين وتولي المأمون الخلافة ، شجع المأمون النهضة العلمية في عهده ، ودفع حركة الترجمة دفعة قوية ، مما كان له أثر كبير في النهضة العلمية التي عرفها العصر العباسي .

(٢) يوحنا بن ماسويه (٧٧٧ ـ ٨٣٧م) : طبيب عربي ، نشأ في جنديسابور ، خدم الرشيد والأمين والمأمون وأدرك عصر المتوكل ، ولاه الرشيد دار الحكمة ، وكلفه ترجمة الكتب اليونانية التي حصل عليها خلال حروبه في أنقرة وعمورية ، بلغت تصانيفه واحدًا وعشرين كتابًا ، ترجم بعضها إلى اللاتينية ، من مؤلفاته كتاب في الجذام وهو أول كتاب في هذا الموضوع [الموسوعة العربية الميسرة ، (ص ١٩٨٩)] .

أقراص الحواسيب المدمجة التي يتسع الواحد منها كميات هائلة من المعلومات تعادل مكتبة كاملة من المكتبات التقليدية ، وباستخدام شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) أصبح بالإمكان الحصول على مقدار هائل من المعلومات في مختلف فروع المعرفة الإنسانية ، وبهذا أتاحت المكتبات الإلكترونية للباحثين الحصول فورًا ـ بضغطة زر ـ على مختلف المعارف ، والمعلومات التي كنا في الماضي نحتاج إلى سنوات طويلة وجهود مضنية للحصول عليها ، هذا إلى جانب ما تمتاز به المكتبات الرقمية من زهيد التكاليف ، إذ يمكن الحصول على معلومات تعادل مائة كتاب بأقل من ثمن كتاب واحد من الكتب التقليدية ، علمًا بأن هناك الكثير من المكتبات الإلكترونية المجانية .

ولا بد أن نسجل هنا السبق للأمريكي (مايكل هارت) [1] ، الذي أنشأ في عام (١٩٧١م) أول مكتبة إلكترونية في التاريخ ، أطلق عليها اسم (مشروع جوتنبرج) تخليدًا لذكرى الألماني جوهانز جوتنبرج الذي ابتكر الطباعة التقليدية في القرن الخامس عشر ، منهيًا بذلك سيطرة رجال الكنيسة على إصدار ونشر الكتب ، وتمكين المواطن الأوروبي العادي من اقتناء وقراءة الكتب بأسعار زهيدة ، مما كان له أثر لا ينكر بتعجيل عصر التنوير في أوروبا .

وبالمقابل نتوقع أن يُنهي عصر المكتبات الإلكترونية عصر احتكار المعلومات ، وسوف ينهيه إلى غير رجعة سيطرة الأنظمة الحاكمة على حرية الرأي ، مما سيكون له أثر كبير على نشر ثقافة عالمية موحدة ، سوف تردم الكثير من الفوارق الفكرية التي كانت لها آثار سلبية على السلام العالمي.

وفي عام (١٩٩٣م) بدأ جون مارك أوكربلوم مدير موقع جامعة كارنيغي ميلون تأسيس فهرس يضم وصلات إلى جميع الكتب الإلكترونية الموجودة على شبكة الإنترنت ، وأطلق على مشروعه اسم صفحة الكتب الإلكترونية (*The Online Books Page*) ، وفي عام (١٩٩٨م) انتقل أوكربلوم إلى جامعة بنسلفانيا وأصبح مشروعه جزءًا من مراجع المكتبات الرقمية لدى جامعة بنسلفانيا ، وهو يضم وصلات لعشرات الألوف من الكتب الإلكترونية المجانية وغير المجانية التي سمح مؤلفوها بنشرها عبر إنترنت ، كما يضم وصلات إلى العديد من المواقع الأخرى المتخصصة بنشر الكتب الإلكترونية .

---

(١) سبقت ترجمته .

وفي عام (١٩٩٨م) أنشأ تروي وليامز موقع (questia) ، الذي يعد اليوم أكبر مكتبة رقمية ذات طابع تجاري ، وقد خصصها للكتب الرقمية المتخصصة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية ، وبدأ المشروع بخمسين ألف كتاب ، وتعاقد مع أكثر من ١٧٠ دار نشر وحصل على حقوق ترقيم آلاف الكتب وجعلها متاحة للجمهور من خلال الموقع .

وهكذا أصبح بإمكاننا في العصر الحاضر بفضل المكتبات الرقمية أن نقرأ أمهات الكتب وأصول المعرفة الإنسانية ، وأصبحت هذه المكتبات مراجع موثقة ومحكَّمة يمكن اعتمادها مراجع علمية في البحوث الأكاديمية .

الطباعة :

ظهرت الطرائق الأولى البدائية من الطباعة حوالي عام (١٣٠٠ق.م) عند الصينيين الذين استخدموا أختامًا حجرية كانوا يحفرون عليها اسم الشخص أو طبقته الاجتماعية من أجل ختم الوثائق المهمة ، وكانت المعلومة المطلوبة تحفر بالمقلوب على الحجر ، ثم يحبَّر الحجر ويضغط على الورق ، فتظهر الكتابة بالوضع الصحيح ، ويعد كتاب (محاورات بوذا الماسية) الذي يعود تاريخه إلى عام (٨٦٨ق.م) هو أول الكتب المطبوعة بأحرف بارزة ، وفي مطلع القرن الحادي عشر اخترع الصيني (ب.ب.شنغ) الطباعة بأحرف متحركة كانت تصف ضمن إطار حديدي ، وفي منتصف القرن الثاني عشر صنع الهولندي لورانس جانزون الحروف المتفرقة من الخشب ، ثم أتبعها بحروف أخرى من الرصاص والقصدير .

وكان على البشرية أن تنتظر حتى عام (١٤٥٠م) ليخترع لها الألماني جوهانس جوتنبرج أول مطبعة عملية كانت تحبَّر يدويًا ، وقد طبع بها أول كتاب أوروبي هو كتاب (قواعد اللغة اللاتينية) ، وبعد ذلك بستة أعوام اخترع الألمانيان (ج.فوست ، بيتر شوفر) الطباعة بالألوان ، ولم تلبث أن انتشرت الطباعة في مدن أوروبية عديدة ثم في بقية أرجاء العالم .

أما الآلات الكاتبة فقد سجلت أول براءة اختراع لها عام (١٧١٤م) للإنكليزي هنري مل ، غير أن أول من صنعها فعلًا هو الإيطالي بلغرين توري في عام (١٨٠٨م) لكنها كانت بدائية وغير عملية ، وفي عام (١٨٤٩م) اخترع الأمريكي وليام أوستن بيرت أول آلة كاتبة عملية ، وفي مطلع القرن العشرين ظهرت الآلة الكاتبة الكهربائية ، وفي عام (١٩٠٢م) أنتجت شركة بلكتز دورفر الأمريكية أول مطبعة كهربائية تعمل آليًا ، وفي عام (١٩٣٨م) سجل الأمريكي (هـ.كارلسون) براءة اختراع أول آلة نسخ (Photocopy) لتصوير الوثائق آليًا بطريقة ضوئية بدل إعادة طباعتها .

أما آلات الكتابة والطباعة الإلكترونية فقد ظهرت في أعقاب تطوير أجهزة الكومبيوتر ففي عام (١٩٦٤م) أنتجت شركة (*IBM*) الأمريكية أول معالج للكلمات مكوَّن من آلة طباعة مزودة بذاكرة كومبيوتر تخزن النص على شريط مغناطيسي ، مع شاشة لتدقيق النص ، وعندما يدار الشريط تتولى الآلة طباعة النصِّ آليًا ، وفي عام (١٩٦٥م) ظهر في ألمانيا أسلوب جديد للتنضيد الرقمي موجه بالكومبيوتر ، ويخزن النصَّ في ذاكرة إلكترونية ، ثم يسقط على ورق تصوير فوتوغرافي ، ويتولى شعاع الليزر مسح النصِّ ونقله ضوئيًّا إلى لوح الطباعة ليخرج في أبهى صورة ، واليوم أصبح لدينا آلات طباعة متطورة جدًّا يمكنها طباعة آلاف النسخ في الدقيقة الواحدة .

التعليم :

ورد في القرآن الكريم أن تعليم البشر بدأ من اللحظات الأولى لخلق أبي البشرية آدم عليه السلام ، وكان معلمه هو ربُّه وخالقه ﷻ الذي قال تعالى عن نفسه : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] ، أمَّا التعليم المنظم فقد بدأ في وقت متأخر من تاريخ البشرية ، ولعلَّ أولَّ من خصَّص أماكن للتعليم في التاريخ هم الفراعنة في مصر القديمة ، وكانوا يطلقون على تلك الأماكن اسم (بيوت الحياة) وهي كل بيت له علاقة بالكتابة والقراءة ومختلف فروع العلوم والفنون والصناعات ، وكانت بيوت الحياة تلحق بالمعبد تعظيمًا لشأنها ، وكان المعلمون فيها هم الكهان والرهبان .

ويلاحظ من خلال تتبع تاريخ المدارس ودور التعليم أنها كانت دومًا ملحقة بدور العبادة ، فقد كانت تنشأ في معابد اليهود ، وكنائس النصارى ، ومساجد المسلمين ، مما يدل على اهتمام الأديان السماوية بمسألة التعليم ، وهذا ما يؤكد أن التعليم كان دعوة سماوية نزلت بها الشرائع السماوية في وقت مبكر من تاريخ الإنسان .

أمَّا المدارس أو الكتاتيب فإن أوَّلَ من أنشأها واعتنى بها هم (السومريون) في بلاد ما بين النهرين في منتصف الألفية الرابعة قبل الميلاد ، وقد استمر التعليم في أنحاء متفرقة من العالم يعتمد هذا الأسلوب في التعليم لزمن طويل قبل أن تؤسس المدارس النظامية والكليات والجامعات والمعاهد على الأسس العلمية المعروفة اليوم .

أما الإغريق فقد كانوا أسبق الأمم لإنشاء المدارس أو الجامعات ، وتعد (جامعة أثينا) التي أسست في بلاد اليونان في عام (٢٠٠٠ ق.م) من أقدم الجامعات المعروفة في التاريخ

البشري ، وقد تكونت من اندماج المدارس الفلسفية والخطابية التي كانت منتشرة في اليونان القديمة ، مثل : أكاديمية أفلاطون ، ولوقيون أرسطو ، وحدائق أبيقور ، ومدرسة إيزوقراطس ، وقد وضعت هذه الجامعة تحت إشراف لجنة من أعضاء مجلس الشيوخ ، وظلت لفترة طويلة مقصدًا للطلاب من كافة أنحاء العالم القديم ، وقد حرص أباطرة روما على مساندتها لتكون مركزًا للثقافة والعلم في الإمبراطورية وظلت كذلك حتى عهد الإمبراطور البيزنطي جوستنيان ، الذي أمر بإغلاقها في عام (٥٢٩ م) استجابةً لأمر الكنيسة التي كانت ترفض تعيين المدرسين للتدريس في الجامعة بحجة أنهم كفار ووثنيون .

وفي عام (٣٥٠ ق.م) أقام البطالمة في مصر (مدرسة الإسكندرية) وجعلوها مؤسسة للبحوث في الأدب والرياضة والفلك والطب ، وقد ألحقت بها في ذلك الوقت مكتبة ضخمة ضمت زهاء ٤٠٠,٠٠٠ مرجع علمي ، وهذا ما أجبر القائمين عليها أن ينقلوها إلى مبنى خاص .

أمّا في العالم الإسلامي فلم تعرف الجامعات والمدارس النظامية إلّا بعد الإسلام ، وتعد جامعة القيروان التي بنيت في مدينة فاس (مراكش) بالمغرب عام (٢٤٦هـ / ٨٥٩م) أقدم الجامعات الإسلامية التي انتظم فيها التعليم على أسس منهجية ، وقد كان للجامعات الإسلامية تأثير كبير في نشأة الجامعات الأوروبية الحديثة منذ القرن الثالث عشر الميلادي .

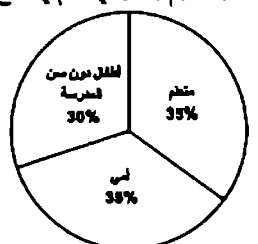
وقد بدأت الجامعات لأول الأمر بتمويل شخصي أو تحت رعاية المؤسسات الدينية (الأوقاف الإسلامية ، المساعدات الكنسية ..) ولكن بعد أن ظهر تأثيرها الكبير في تخريج قادة الفكر بدأت الحكومات تتولى إنشاءها والإشراف عليها ، وكانت معظم الجامعات في بداياتها تهتم بالعلوم النظرية ؛ مثل : الفلسفة والعلوم الدينية إلّا أنها مع التقدم العلمي بدأت تولي اهتمامًا أكبر للعلوم الأخرى ؛ مثل : الطب والهندسة والكهرباء والكيمياء .. وغيرها .

أمّا التعليم الإلزامي ، فقد بدأ لأول مرة في العالم عام (١٨١٩م) في بروسيا ، وفي عام (١٨٧٠م) أصبح إلزاميًا في بريطانيا ، وفي عام (١٩٤٨م) نصت وثيقة إعلان حقوق الإنسان التي أصدرتها الأمم المتحدة في المادة السادسة والعشرين على أن : (لكل شخص الحق في التعلم ، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الأولى والأساسية على الأقل بالمجان ، وأن يكون التعليم الأولي إلزاميًا ..) .

ومن المعلوم تاريخيًا أن الشعوب المختلفة كانت تعتني بأطفالها ، وتعمل على تلقينهم العلم في سن مبكرة ، وقد حضَّ الإسلام على تعليم الصغار ، ومن أبرز ما يذكر هنا أن النبي ﷺ اشترط لتحرير الأسرى الذين أسرهم المسلمون في أول معركة انتصروا فيها على المشركين (معركة بدر الكبرى) أن يعلِّم كل واحد من الأسرى عشرة من أولاد المسلمين ، كما أن النبي ﷺ اتخذ له كُتَّابًا للوحي لتدوين ما ينزل من القرآن الكريم .. ثم شهد التاريخ الإسلامي إنشاء (الكتاتيب) التي تولت تعليم الصغار تلاوة القرآن الكريم وحفظه وتفسيره ، ومع انتشار الإسلام ونهضة الدولة الإسلامية أصبحت المساجد أشبه بالجامعات ، فكانت تعقد فيها الحلقات الكثيرة لتدريس مختلف العلوم الدينية ثم الدنيوية .

وقد وصل التعليم اليوم إلى درجة متقدمة جدًّا في شتى أنحاء العالم ، فبات يستخدم الوسائل السمعية البصرية والأجهزة الإلكترونية المتطورة ووسائل الاتصال الحديثة للتعليم عن بُعد عبر الشبكات العالمية مثل الشبكة العالمية (الإنترنت) وغيرها من وسائل الاتصال التي بدأت تشيع في العالم ، ومن المتوقع قبيل نهاية النصف الأول من القرن الحادي والعشرين أن يستغني البشر عن أمكنة التعليم من مدارس وجامعات ومعاهد ، وأن يعتمد التعليم اعتمادًا كليًّا على وسائل الاتصال المباشر عبر شبكات الاتصال العالمية .

(الجدول - ١١) نسبة انتشار التعليم والأمية في العالم في مطلع القرن الحادي والعشرين



ولكن مع كل ما قدمناه من تطور كبير في حقول التعليم الحالية والمستقبلية ، فإن صورة التعليم الحالية في كثير من بلدان العالم لا تبعث على الارتياح ، ولا تبشِّر بالخير ، فإن نسبة الأمية ما زالت عالية جدًّا في العديد من بلدان العالم ، إذ إن عدد الأميين في العالم حاليًا يكاد يساوي أو يزيد على عدد المتعلمين (الجدول - ١١) وتشير الإحصائيات الدورية التي تصدر عن مراكز الرصد المختلفة إلى أن أزمة الأمية مازالت في تفاقم مستمر ، يومًا بعد

يوم ، وسنة بعد سنة ، ويرجع هذا التخلف المتواصل في التعليم إلى عدد كبير من الأسباب التي يأتي في مقدمتها انتشار الفقر والبطالة ، وتخصيص الميزانيات الضخمة للتسلح على حساب التعليم والبحث العلمي وبقية الأنشطة الاجتماعية ، ناهيك عن نهب الميزانيات من قبل أصحاب النفوذ ، والامتيازات ، والزعامات المزيفة ، ولا سيما في الدول النامية التي ما زالت تحكمها الديكتاتوريات العسكرية التي لا يشكل التعليم هاجسًا لها ، بل لعله على النقيض من ذلك ، بات يشكل لها كابوسًا مرعبًا ؛ لأنه يهدد مصيرها وامتيازاتها بالخطر الأكيد ، وإن نظرة متفحصة لميزانيات معظم الدول النامية اليوم تشير إلى أن وزارتي التعليم والصحة تحظيان بأقل المخصصات ، بالرغم من أنهما مسؤولتان عن أهم نشاطات المجتمع ، ونعني بها توفير الصحة التي لا بد منها ليكون الأفراد متجين ، ونشر العلم اللازم للرقي بعقل المجتمع وثقافته إلى مستوى العصر ، وتحضير الأجيال الصاعدة تحضيرًا علميًّا وثقافيًّا قويًّا قادرًا على مواجهة تحديات المستقبل .

(الجدول ـ ١٢) للمراحل الزمنية لتاريخ اللغات والكتابة والطباعة والتعليم

التاريخ	الحدث	الموقع
(٢٠٠,٠٠٠ ق.م)	بدأ البشر يتواصلون بالتخاطب .	؟
(٨٥٠٠ ق.م)	أقدم أثر مكتوب .	إيران
(٨٠٠٠ ق.م)	أقدم أبجدية .	سوريا
(٥٠٠٠ – ٤٠٠٠ ق.م)	أول لغة مكتوبة ذات تاريخ متواصل .	الصين
(٤٠٠٠ ق.م)	أقلام الكتابة من القصب .	الفراعنة (مصر)
(٣٥٠٠ ق.م)	ورق الكتابة من البردي .	الفراعنة (مصر)
(٣٤٠٠ ق.م)	أقدم اللوحات المكتوبة .	العراق
(٣٠٠٠ ق.م)	الكتابة المسمارية .	الفرس ، الأشوريون ، البابليون
(٣٠٠٠ ق.م)	الكتابة الهيروغليفية .	الفراعنة (مصر)
(٢٥٠٠ ق.م)	الأبجدية الهندية القديمة .	الهند
(٢٠٠٠ ق.م)	المدارس والجامعات .	الإغريق
(١٣٠٠ ق.م)	الأبجدية الصينية .	الصين
(١٣٠٠ ق.م)	الأختام الحجرية .	الصين

(٢٠٠م)	انتشر استخدام الورق	عالميًا
(٨٥٩م)	جامعة القيروان (أول جامعة إسلامية)	مراكش
(١٤٥٠م)	المطبعة	ألمانيا
(١٥٦٥م)	قلم الرصاص .	سويسرا
(١٥٨٣م)	أول دار نشر	أوروبا
(١٧١٤م)	الآلة الكاتبة	إنكلترا
(١٧١٩م)	الطباعة بالألوان .	ألمانيا
(١٧٩٩م)	أول آلة لصنع الورق	فرنسا
(١٨١٩م)	التعليم الإلزامي .	بروسيا
(١٨٨٤م)	قلم الحبر السائل	الولايات المتحدة
(١٩٠٢م)	أول آلة طباعة كهربائية	الولايات المتحدة
(١٩٣٨م)	قلم الحبر الجاف	الأرجنتين
(١٩٣٨م)	أول آلة نسخ (فوتوكوبي) .	الولايات المتحدة
(١٩٤٨م)	التعليم الابتدائي في العالم إلزامي .	وثيقة حقوق الإنسان (الأمم المتحدة)
(١٩٦٤م)	آلة الطباعة الإلكترونية	الولايات المتحدة
(١٩٧٠م)	الجامعات المفتوحة	عبر شبكات الاتصال الإلكتروني
(١٩٩٤م)	الكتب الإلكترونية	الولايات المتحدة

الفصل الثامن

تاريخ الأديان

• لقد عبد الإنسانُ عقلَه المحدود فأبصر الشجرة، لكنه عمي عن الغابة.

يزعم بعض الباحثين في تاريخ الأديان أن فكرة (الدين) بدأت في وقت متأخر من تاريخ البشرية، وأن الدين ظهر في حياة البشر نتيجة للصراع غير المتكافئ الذي خاضه الإنسان في مطلع وجوده على ظهر هذه البسيطة ضد قوى الطبيعة العنيفة، التي لم يكن للإنسان قدرة على مواجهتها، مثل: الرعد والبرق والزلازل والبراكين والوحوش، أو بعض المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر والنجوم، فعندما وجد الإنسان نفسه ضئيلًا ضعيفًا أمام هذه القوى بدأ يعظمها ويخشاها، في محاولة منه لدرء شرورها، ومع مرور الوقت بدأ ذلك الشعور بالتعظيم يأخذ طابع العبادة، ثم أصبحت له طقوس دينية مقدسة، ومواسم محددة.

وهذا مثلًا ما عرضه الفيلسوف الإنكليزي (توماس هوبز)[1]، في كتابه (لوياثان) الذي نشره عام (١٦٥٢م)، وزعم فيه أن الدين اخترعه الناس بسبب اعتقادهم بالأرواح الخفية، وجهلهم بالعلل والأسباب التي تكمن وراء ظواهر الطبيعة، وبخاصة منها الظواهر العنيفة، فعبدوا هذه الظواهر؛ لأنهم خافوها، واستغلَّ نفر من أصحاب المآرب الشخصية هذا الوضع، فنصَّبوا أنفسهم كهنة ورجال دين.

وقد تابع الفيلسوف الإنكليزي (هربرت سبنسر)[2]، خطى سلفه هوبز، فراح يفسر ظاهرة التدين على هذه الصورة العجيبة، وكتب يقول: (لقد كان الدين أول الأمر عبادة

---

(١) توماس هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م): فيلسوف إنكليزي، كان معلمًا للملك شارل الأول، واتجه في فلسفته إلى المنهج التجريبي الذي يرد المعلومات إلى الخبرة الحسية وما يحدث لها من روابط، وكان مغاليًا في المادية، يرى أن كل ما هو موجود فهو مادة، وعنده أن الفلسفة الأخلاقية والمدنية أو السياسية تقدر فائدتها لا بمقدار المنافع التي تجلبها لنا، بل بمقدار المصائب التي تقع من جرائها، أما مشروعه الفلسفي الرئيسي فقد نشره عام (١٦٥٨م) بعنوان (عناصر الطبيعة) وقسمه إلى ثلاثة أقسام: في الجسم، في الإنسان، في المواطن، واعتمد فيه على المعاني التي كانت رائجة في عصره، مثل: المساواة، والقانون الطبيعي، والحقوق الطبيعية للإنسان، والعقد الاجتماعي، والسيادة، والعدالة.

(٢) هربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣م) فيلسوف إنكليزي، درس الهندسة، ثم تحول لدراسة العلوم الطبيعية وعلم النفس، ذهب إلى أن الفلسفة هي حصر للمعرفة بمبدأ التطور الذي طفق يطبقه على مختلف الظواهر حتى لقبوه بفيلسوف التطور، وقد كان لهذا الفيلسوف تأثير واسع على المفكرين في العالم لفترة غير قصيرة.

طائفة من الآلهة والأرواح المتشابهة قليلًا أو كثيرًا في كل أمة ، وتطور الدين إلى فكرة إله مركزي قوي قادر على كل شيء أُتْبِع بقيةَ الآلهة له ونَسَّق أعمالها وصلاحياتها ، وقد أوحت الأحلام والأشباح على ما يحتمل لتصور أول الآلهة ، ولا زالت كلمة روح تستخدم في التعبير عن الأشباح والآلهة ، ويعتقد العقل البدائي البسيط أن الشبح أو الروح تغادر الجسم في حال الموت أو النوم أو الغيبوبة .. كما طورت طقوس الجنائز إلى عبادة ، وأخذت جميع مظاهر الاستعطاف التي تقدم للزعيم أو القائد على هذه الأرض تستخدم في الاحتفالات والصلوات والتزلُّف والتقرُّب إلى الآلهة ، وبدأ تقديم الهدايا إلى الآلهة ، وتطور الركوع أمام الملك إلى ركوع وسجود أمام محراب الربِّ ، لقد نبعت جميع الديانات من هذه العبادات القديمة .. إن الدين هو الركن الأساسي في حياة الشعوب البدائية البسيطة ، فالحياة بينهم وضيعة مزعزعة ، وهم يعيشون على أمل ما سيأتي من الأشياء ، لا في الحقائق المرئية لها)[1] .

يعرف هذا المذهب لتفسير نشأة الأديان باسم المذهب الطبيعي (*Naturalism*) ، وقد ظهر في القرن التاسع عشر ، وهو اتجاه فلسفي ينكر أصحابه وجود خالق لهذا الكون ، ويؤمنون بأن الطبيعة هي التي خلقت نفسها بنفسها ، وأن نواميسها تكفي لتعليل كافة الظواهر والحوادث .

ويرتبط هذا المذهب أيضًا باسم المستشرق الألماني (ماكس موللر)[2] الذي ذهب إلى أن الظواهر الطبيعية العنيفة (الرعد ، البرق ، الزلازل ، النار ..) وما أثارته في النفس البشرية من أحاسيس الخوف والخشية والرهبة هي التي دفعت الإنسان البدائي للتفكير بوجود قوة خارجة عن هذا الكون (= إله) ، هي التي تسبب هذه الظواهر وتحركها ، وقد أنكر موللر وجود هذه القوة ، وآمن بأن لا شيء هناك سوى الطبيعة .

وتخبرنا سيرة هذا الكاتب وأقرانه من الكتاب والفلاسفة الذين ذهبوا هذا المذهب في تفسير الأديان أنهم استقوا أفكارهم من مطالعة أساطير الشعوب القديمة ، وكتب الأديان السماوية المحرفة والأديان الوثنية ، فقد كان ماكس موللر شديد الولع بالأساطير القديمة ، بدليل أن أهم الأعمال التي أنجزها في حياته هي ترجمته ونشره لأمهات الكتب الدينية

---

(١) ويل ديورانت : قصة الفلسفة ، (ص ٤٨٢) .

(٢) ماكس موللر (١٨٢٣ ـ ١٩٠٠م) عالم لغوي ومستشرق ألماني ، وهو ابن الشاعر الغنائي الشهير (فلهلم ماكس مولر) ، تلقى العلم في ألمانيا ، ثم رحل إلى مدينة أكسفورد التي أقام فيها حتى وفاته ، من أبرز مساهماته نشر علوم اللغات والأساطير .

الشرقية الوثنية ، ويعد تحقيقه لأقدم الأسفار الهندوسية المقدسة (روح فيدا)[1] ، وتعليقاته عليه من أكثر المراجع التي عمل موللر على دراستها ، وهذا ما يفسر لنا الأسباب الحقيقية التي دفعته وأترابه من الفلاسفة الطبيعيين (*Naturalists*) إلى تفسير نشأة الأديان ذلك التفسير المتهافت ؛ وذلك لأنهم اشتغلوا بالأساطير والطقوس الوثنية بدل اشتغالهم بالأديان السماوية الصحيحة ، فأخطأوا التفسير ، وَضَلُّوا السبيل ، وانتهوا إلى نتائج تتناقض تناقضًا تامًّا مع ما قررته الرسالات السماوية قاطبة من أن الدِّين كان حاضرًا في حياة الإنسان منذ اللحظة الأولى التي وجد فيها على ظهر هذه الأرض .





(من اليمين : توماس هوبز ، هربرت سبنسر ، ماكس موللر ، أبرز الفلاسفة الذين قالوا بالمذهب الطبيعي لتفسير ظهور الأديان والتدين في المجتمعات البشرية)

وقد ظهرت على مدار التاريخ نزعات ومذاهب شتى حاولت جهدها تشكيك الناس بالأديان السماوية ، وأنكرت وجود الخالق المدبر لهذا الوجود ، كما ظهرت مذاهب أخرى أقل تطرفًا ، لم تنكر وجود الله ، لكنها أنكرت الرسالات السماوية ، ومنها على سبيل المثال النزعة المعروفة بالربوبية (*Deism*) وهي تعني الإيمان بالله ولكن دون الإيمان بديانات منزَّلة ، فالله ـ حسب أصحاب هذه النزعة ـ خَلَق العالم ثم تركه يعمل وفق قوانينه دون تدخل منه سبحانه ، ومن ثم فإن أصحاب هذه النزعة ينفون عن الله القدرة المطلقة والعلم المطلق ، بحجة أن الله لو كان قادرًا قدرة مطلقة لاستطاع أن يمنع الشرَّ ، وقد ردَّ الله ﷻ دعواهم هذه فقال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] ، فقد وضع الله في الأرض الخير والشر ، وترك للناس حرية الاختيار ، وحذرهم من مغبة سلوك طريق الشر لما فيه من عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة .

---

[1] الفيدا (Vedas) : اسم للكتب السنسكريتية المقدسة عند الهنود ، فيها الصلوات والفرائض والأناشيد الدينية ، منها أربع مجموعات منسوبة إلى (براهما) الذي هو رب الكون وخالقه في عقيدة الهندوس ، وهو يشترك مع فشنو وسيفا بتأليف الثالوث الهندوسي المقدس الذي يشبه عقيدة التثليث عند النصارى .

وأول من قال بفكرة الربوبية هو بطرس فيريه تلميذ جون كالفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م) وهو أحد رواد الإصلاح الكنسي في عصر النهضة الأوروبية الحديثة ، وقد شرح فيريه مذهبه في كتابه (التعليم المسيحي) الذي زعم فيه أن فكرة الربوبية هي حقيقة الدين ، وأن الإيمان بوجود إله لا يعني بالضرورة وجود تعاليم كنسية .. ويبدو لنا أن فيريه والذين ذهبوا مذهبه الغريب هذا في تعريفهم للدين ما هو إلا ردُّ فعلٍ على تصرفات الكنيسة ، ولا سيما في العصور الوسطى ، حين تواطأت الكنيسة مع الإقطاع في السيطرة على المجتمع ، وفرض الهيمنة عليه .

وقد كان فولتير [1] ، وروسو [2] ، ولوك [3] ، ونيوتن [4] ، وتولاند [5] ، وجيفرسون [6] ، وبنيامين فرانكلين [7] ، من أبرز الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين الذين آمنوا بفكرة الربوبية ،

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م) : فيلسوف فرنسي ، اتصل بالفيلسوف دنيس ديدرو وكتب في موسوعته الجزء الخاص بالموسيقى ، وفي عام (١٧٤٩م) فاز بالجائزة الأولى عن بحث في أكاديمية ديجون ، موضوعه : هل عَمِل تقدُّم العلوم والفنون على إفساد البشر أم إصلاحهم ؟ وكان رأيه أن الإنسان خيِّر بطبعه لكن أفسدته الحضارة ، وكان روسو قد نبذ الديانة البروتستانتية التي كان يعتنقها فلما عاد إلى جنيف رجع إلى حظيرة الدين من جديد ، وفي عام (١٧٦٢م) نشر كتابه (العقد الاجتماعي) الذي نادى فيه بتعاقد اجتماعي يجعل السيادة للمجتمع بأسره ، بهدف رفع الظلم والتسلط عن الناس .

(٣) جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م) : فيلسوف إنكليزي ، تعلم في أكسفورد وحاضر فيها ، ورحل إلى فرنسا حيث قضى عدة سنوات التقى خلالها بقادة العلم والفلسفة ، وكتب (مقالة في العقل البشري) ، واشتهر بمناصرته للحرية ، وخلاصة فلسفته أن الإنسان يولد وعقله على الفطرة ، ثم تجيء خبراته فتطبع فطرته وتكون مصدر معرفته ، ومادام الناس يولدون بلا موروثات عقلية فهم سواسية لا يفرق بينهم إلا نوع تربيتهم ، وذهب إلى أن الفضيلة تكمن في السعادة ، ودعا إلى التسامح الديني .

(٤) سبقت ترجمته .

(٥) جون تولاند (١٦٧٠ ـ ١٧٢٢م) : مفكر إنجليزي ودبلوماسي وعالم إنجيلي ، نشأ كاثوليكيًا لكنه هرب في سن السادسة عشرة ودخل الكنيسة الأنجليكانية ، كان نشيطًا في النقاشات الدينية والسياسية ، دعا إلى « الدين الطبيعي » وفسَّر معجزات العهد القديم تفسيرًا ماديًا ، وكان من أشد المدافعين عن فلسفة الربوبية التي تعد أولى حلقات علمنة العقل الغربي ، اتهم بمعاداة عقيدة التثليث وأثار قضايا تتصل بالعهد الجديد : هل نصه محرف أم لا ؟

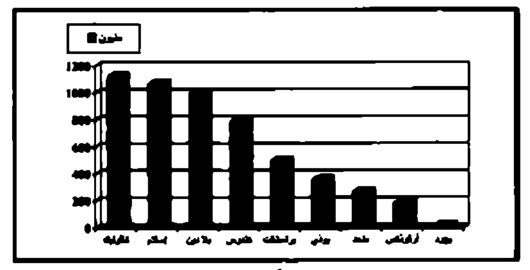
(٦) توماس جيفرسون (١٧٣٤ ـ ١٨٢٦م) : الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية ، كتب وثيقة إعلان الاستقلال الداعية للديموقراطية الزراعية ، وعندما كان عضوًا بالهيئة التشريعية في فرجينيا وضع أسس إلغاء الوقف ، وقَصْر الوراثة على الابن البكر ، وسمح بالحرية الدينية ، ونظم المدارس العامة ، آمن بأن الشعب المستنير الذي تربى تربية حرة يستطيع أن يحكم نفسه في ظل حكم ديمقراطي أفضل مما يتاح له في ظل بقية الأنظمة .

(٧) بنيامين فرانكلين (١٧٠٦ ـ ١٧٩٠م) : سياسي وناشر وعالم وكاتب وفيلسوف أمريكي ، أشتهر بآرائه الحرة

كما كان الفيلسوف الفرنسي عمانوئيل كانط [١] ربوبيًا في كتابه (الدين في حدود العقل وحده) الذي نشره في عام (١٨٠٤م) ، وشكك فيه بالعقائد السماوية قاطبة ، وزعم أن الله يمكن أن يكون موجودًا ، ويمكن أن يكون غير موجود ، وبهذا أعطى حجة عقلية ـ بزعمه ـ للمنادين بالعلمانية [٢] .

وبالرغم من كثرة هذه المذاهب التي شهدها التاريخ ، فإنها لم تستطع أن تصمد أمام تيار المتدينين الذي ظل هو التيار الغالب في شتى الأمم ، على اختلاف أديانها (الجدول ـ ١٣) ؛ وذلك لأن الدين جزءٌ لا يتجزأ من الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

(الجدول ـ ١٣) نسبة انتشار الأديان المختلفة في العالم في مطلع القرن الحادي والعشرين



لاحظ أن نسبة غير المتدينين والملحدين قليلة جدًا مقارنة بالمتدينين ، بغض النظر عن نوع الدين الذي يعتقدون به

= في الدين والسياسة ، اشترك في صياغة وتوقيع وثيقة إعلان الاستقلال ، وكانت له اهتمامات علمية ، وبرهن على الصلة بين البرق والكهرباء .

١ عمانويل كانط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م) : فيلسوف ألماني ، فنّد مذهب الشّك ، وشكلت أفكاره ثورة فكرية قلبت الكثير من المفاهيم الفلسفية القديمة ، فبعد أن كان صواب الفكرة متوقفًا على كونها مطابقة لخارج ثابت ، أصبح الواقع الخارجي نفسه يتشكل وفق ما تقتضيه مبادئ العقل ومقولاته ، من أهم مؤلفاته : نقد العقل الخالص ، ونقد العقل العملي ، ونقد الحكم ، وله مؤلفات في التربية دافع فيها عن التجريب في المسائل التربوية ، وحدد وظيفة التربية بأنها المساعدة في تنمية استعدادات الإنسان حتى يستطيع التمتع بالحرية والوصول من خلال عقله إلى تحقيق غاية وجوده .

٢ انظر : ماريا لويزا برنيري (المدينة الفاضلة عبر التاريخ) (ص ٣٠٠) .

وفوق هذا فإن الفلاسفة الذين سبق أن انجرفوا وراء تيار الحداثة العلماني وأنكروا الدين والإله تراجعوا عن هذا الموقف، وراحوا من جديد يدعون إلى العودة لأفياء الدين الظليلة، لما رأوا من آثار مدمرة للمجتمعات التي تنكرت للدين واستبعدته من حياتها، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الفيلسوف الألماني المعاصر (هانز كونغ) [١]، الذي صرَّح في مناسبات عديدة (أنه لا يريد بأي حال من الأحوال التنكر لمنجزات الحداثة، كما يفعل بعض المتهورين أو المتعصبين الرجعيين الحاقدين على الحداثة، ولكنه لا يستطيع - في الوقت نفسه - أن يهمل بعد اليوم مشكلة الدين كما يفعل معظم مفكري الحداثة من هيدغر [٢]، إلى بوبر [٣]، إلى دريدا [٤]، إلى فوكو [٥]، إلى هابرماس [٦]، فالحداثة حلَّت مشكلة الدين عن طريق

---

(١) هانز كونغ: عالم لاهوت سويسري معاصر، يعد من أشهر علماء الدين المسيحي وأكثرهم تسامحاً وانفتاحاً على الأديان الأخرى وبخاصة الإسلام، أسس معهدًا لتحقيق التقارب والسلام بين الأديان، وهو يرى أن جوهر الدين واحد يمكن لجميع الأديان أن تلتقي حوله إذا ما طرحت القشور والخلافات السطحية فيما بينها، وقد حاول أن يحدث ثورة لاهوتية داخل الفاتيكان فنقم عليه الجناح المتشدد هناك ومنعه في عام (١٩٧٩م) من مواصلة تدريس الدين المسيحي [بتصرف عن جريدة الشرق الأوسط، العدد (٩٦٤٣)، السبت ٢٣ أبريل ٢٠٠٥م].

(٢) مارتن هيدغر (١٨٨٩ - ١٩٥٣م): فيلسوف ألماني، مؤسس النزعة الوجودية الإلحادية التي تقوم على مذهبين كانا شائعين في فلسفة القرن التاسع عشر، هما ظواهرية (هوسرل) ووجودية (كيركجارد)، فمن الأول أخذ منهج الاستبطان واختبار الإنسان لذاته، ومن الثاني أخذ مأساة وجود الإنسان في عالم محدود وما يتولد عن هذا الشعور من إحساس بالقلق والعزلة والغربة والحيرة والكآبة.

(٣) كارل ريموند بوبر (١٩٠٢ - ١٩٩٤م): فيلسوف إنكليزي، ولد يهوديًا لكنه تحول إلى المسيحية، تخصص بفلسفة العلوم، وكتب بغزارة عن الفلسفة الاجتماعية والسياسية، وفي عام (١٩٢٨م) حصل على درجة الدكتوراه في مناهج علم النفس الإدراكي، وأهم سمة ميزت أعماله الفلسفية هي البحث عن معيار صادق للعقلانية العلمية، من كتبه (منطق البحث) الذي أعاد طباعته ثانية بعنوان (المشكلتان الرئيستان في النظرية المعرفية) و (المجتمع المفتوح وأعداؤه) الذي أكسبه شهرة عالمية.

(٤) جاك دريدا (١٩٣٠ - ٢٠٠٤م): فيلسوف فرنسي، زاول التدريس في عدد من أبرز الجامعات الأمريكية، اشتهر بنظريته اللغوية « تفكيك البناء » التي لقيت أصداء واسعة، كما اشتهر بإدانته المتواصلة لسياسة فرنسا الاستعمارية إبان احتلالها للجزائر.

(٥) ميشيل فوكو (١٩٢٦ - ١٩٨٤م) فيلسوف فرنسي، تأثر بالفلاسفة البنيويين، ودرس وحلل تاريخ الجنون في كتابه (تاريخ الجنون) وعالج مواضيع اجتماعية حساسة ؛ مثل: الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية في السجون، ابتكر مصطلح (أركيولوجية المعرفة) وأرّخ في كتابه (تاريخ النشاط الجنسي) للعلاقات الجنسية في الفترة من حب الغلمان عند اليونان إلى العصر الحاضر.

(٦) يورغن هابرماس (١٩٢٩م): عالم اجتماع وسياسة، ألماني معاصر، رائد الخطاب النقدي الفلسفي والسياسي. Bildunterschrift: أطروحته الفلسفية المعروفة بالخطاب النقدي الخالي من الهيمنة تبقى الأطروحة الأكثر تأثيرًا.

طرد الدين من الساحة ، وهذا حل سلبي لا يمكن أن يدوم إلى الأبد ، فعاجلًا أو آجلًا ينبغي أن نعيد الدين إلى الساحة)[1] .

موكب الأنبياء :

وقد شهد تاريخ البشرية موكبًا مباركًا طويلًا من الأنبياء والرسل الذين لكثرتهم لا يعرف عددهم على وجه الدقة ، وتتفق كافة الرسالات السماوية على أن (آدم) ﷺ هو أبو البشرية الأول ، وهو أول أنبياء الله عليهم السلام ، وأن الله ﷻ قد أخذ منه ومن ذريته من بعده الميثاق ألّا يعبدوا إلا الله الواحد الأحد : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

ولا يعرف علماء التاريخ بدقة الزمن الذي عاش فيه آدم ﷺ ، أمّا الرسالة السماوية التي أنزلت عليه ، فالراجح أنها كانت تركز على مسألة التوحيد والإيمان بالله ، ولم تتضمن أحكامًا تشريعية تفصيلية ؛ لأن المجتمع البشري آنذاك كان مجتمعًا بسيطًا مكونًا من أفراد قلائل هم آدم وزوجه حواء وأبناؤهما ، فلما تكاثر البشر وانتشروا في الأرض وبدأت العلاقات بينهم تزداد تعقيدًا، ودبّت الخلافات بينهم ، وانحرف بعضهم عن عقيدة التوحيد ، فعندئذ بدأت تتنزل عليهم الرسالات السماوية بالأحكام التفصيلية من أجل تنظيم العلاقات الاجتماعية بينهم وإعادتهم إلى دين التوحيد ، ويميل أكثر الباحثين إلى أن أول الرسالات السماوية التي تضمنت بعض الأحكام التشريعية المفصلة هي الرسالة التي أنزلت على نبي الله نوح ﷺ (ح ٣٩٠٠ ق.م) ، وبهذا يعد نوح ﷺ أول الرسل ، أما آدم ﷺ فأول الأنبياء .

ثم تعاقب موكب الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وربما تواجد في العصر نفسه أكثر من نبي وأكثر من رسول ؛ لأنّ كلّ نبي أو رسول كان يبعث إلى قومه خاصة ، وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى معاصرة بعض الأنبياء والرسل بعضهم لبعض ، ومن ذلك مثلًا

= يشدد على أن الفعل الديمقراطي التواصلي لا يستطيع أن يحصل على مشروعية حقيقية قائمة على سلطة العقل إلا في إطار خطاب نقدي خال من الإلزامات والقيود السلطوية ، كما يرى عدم إمكانية تحقيق انفتاح للذهنيات إلا من خلال تحرير العلاقات ، والتعاطي الموضوعي مع الإشكاليات القلقة .

[1] انظر : هاشم صالح (مدخل إلى التنوير الأوروبي) (ص ٢٤٣) ، دار الطليعة ، بيروت (٢٠٠٥م) .

معاصرة لوط لإبراهيم عليهما السلام ، ومعاصرة يوسف لأبيه يعقوب عليهما السلام ، ومعاصرة هارون لأخيه موسى عليهما السلام .

وقد استمر الأنبياء والرسل يتعاقبون على أهل الأرض لقرون طويلة إلى أن ختمت الديانات السماوية برسالة محمد بن عبد الله (٥٧٠ ـ ٦٣٢م) ﷺ ، وطوال هذا الزمن ما بين آدم ومحمد عليهما السلام ظهر كثير من الأنبياء والرسل ، وأنزل العديد من الرسالات السماوية ، وقد ذكر الله ﷻ في كتابه الكريم أنه لم يقصَّ علينا سيَرَ جميع الأنبياء والرسل الذين بعثوا على مدار التاريخ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ [غافر : ٧٨]. واكتفى بذكر ٢٥ نبيًّا ورسولًا فقط ، منهم أربعة من العرب (هود ، صالح ، شعيب ، محمد) ، و ١٢ نبيًّا أشار إليهم جملة ولم يذكر أسماءهم صراحة ، هم (الأسباط) أولاد يعقوب عليه السلام الذين لم يُسَمَّ إلَّا واحدًا منهم هو نبي الله (يوسف) عليه السلام[1] .

وورد في سورة الكهف ذكر عبدين صالحين مشكوك في نبوتهما ، هما (ذو القرنين والعبد الصالح) ، كما ورد ذكر (تُبَّع) في سورة الدخان الآية (٣٧) ، وسورة ق الآية (١٢) ، وورد في السنة النبوية ذكر اثنين من الأنبياء هما شيث الذي أنزل عليه خمسون صحيفة[2] ، ويوشع بن نون الذي ورد في الصحيح (أن الشمس لم تُحبس لأحد من الخلق ، إلَّا له ، ليالي سار إلى بيت المقدس)[3] ، أما تسلسل ظهور الأنبياء عليهم السلام عبر التاريخ فمن الأرجح أنه كان على النحو الذي بيناه في (الجدول ـ ١٤) .

وقد ورد في الصحيح أن أوَّل الأنبياء آدم عليه السلام خلق في آخر الخلق ، بعد العصر من يوم الجمعة : « .. وَخَلَقَ آدمَ عليه السلام بعدَ العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل »[4] ، على خلاف بين العلماء هل كان خلق آدم عليه السلام في جنة الخلد أم في جنة على الأرض[5] ، وقد أمر الله ﷻ ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام على جهة التكريم ، فسجدوا كلهم أجمعون إلَّا إبليس الذي كان من الجنِّ أبى أن يمتثل للأمر الإلهي فطرده الله من الجنة جزاء على هذه المعصية الكبيرة .

---

(١) انظر : د . عمر سليمان الأشقر : الرسل والرسالات .

(٢) البداية والنهاية (١/ ٩٩) .

(٣) أخرجه مسلم وأحمد ، وانظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (١/ ٣٢٣) .

(٤) سبق تخريجه .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية (١/ ٧٥ ـ ٧٧) .

وعندئذ طلب إبليس الإمهال واستثناءه من الموت حتى يوم القيامة ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر : ٣٦] ، وكان الخبيث قد أضمر في نفسه أمرًا ، فلما حقق الله ﷻ طلبه بالإمهال عمد إلى إغواء آدم وزوجه بأن يأكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها ، فلما أكلا منها بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وكانت نتيجة هذا العصيان من آدم وزوجه حواء أن عاقبهما ربهما كذلك بالطرد من الجنة كما فعل بإبليس ، وبهذا حقق الشيطان هدفه بطرد بني آدم وذريته من بعده من الجنة كما طرد هو ، وبهذا الفعل الخبيث تسلَّم إبليس قيادة الإفساد في الأرض والدعوة للإلحاد وفتنة الناس عن ديانة التوحيد إلى يوم القيامة .

وقد كان آدم وزوجه على دين التوحيد من أول يوم وجدا فيه ، وكذلك كان أبناؤهما وبناتهما على التوحيد ، ولكن مع مرور الزمن ، وتكاثر الناس ، وانتشارهم في الأرض ، وتباعد ديارهم بعضها عن بعض ، ظهر الشرك في الأرض ، وعندئذ بعث الله ﷻ نبيه نوحًا ﵇ يدعوهم إلى ديانة التوحيد ، فكان نوح ﵇ أول رسول يبعث إلى أهل الأرض ، وقد ذكر القرآن الكريم أنه لبث في قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا (٩٥٠ سنة) يدعوهم فيها إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان ، فلما لم يستجيبوا لدعوته وبالغوا بالكفر أرسل الله ﷻ عليهم الطوفان فأغرقهم وأنجى نوحًا ومن آمن معه ، والراجح أن الطوفان قد عَمَّ جميع الأرض في ذلك الزمان ، وأنه أهلك الكافرين عن بكرة أبيهم ولم ينجُ منهم أحد ، ولم يحصل لأحد ممن أنجي مع نوح من المؤمنين نسلًا ولا عقبًا إلَّا لنوح ﵇ فقد كانت البشرية التي جاءت من بعده كلها من نسله ، كما جاء في الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ٧٥ ـ ٨٠] ، فكلُّ من جاء بعد ذلك من البشر ينتسبون إلى أولاد نوح الثلاثة (سام وحام ويافث) .

وإذا كان نوح ﵇ هو أبو البشر الثاني بعد آدم ﵇ ، فإن إبراهيم الخليل ﵇ (١٨٦١ ـ ١٦٨٦ ق.م) هو أبو الأنبياء ، وهو جَدُّ العرب من طريق ابنه إسماعيل ﵇ ، وقد ولد إبراهيم ﵇ في بابل أرض الكلدانيين ما بين النهرين ، وكانوا يعبدون الأصنام فناظرهم إبراهيم ﵇ في عبادتهم لها ، وبيَّن لهم أن هذا الفعل شرك بالله ، لكنهم لم يصغوا لدعوته ، فكسر الأصنام ليقيم عليهم الحجة ويبين لهم أن الأصنام لا تضرُّ ولا تنفع ولا تملك الدفاع عن نفسها (انظر سورة الأنبياء ، الآيات ٥١ ـ ٧٠) فنقموا عليه ، وألقوه في

النار ليحرقوه ، لكن الله ﷻ جعلها بردًا وسلامًا وأبطل كيدهم ، وعندئذ استدعاه (النمرود) ملك بابل للمناظرة ، وكان ملكًا جبارًا شديد الكفر ، فدعاه إبراهيم إلى الإيمان بالله ، لكنه أبى ، وادَّعى فوق ذلك الربوبية لنفسه بأنه يحيي ويميت كما يفعل رب إبراهيم ، فقال له إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، وأسقط في يده ، وظهر بطلان ما ادعاه .

بعد ذلك هاجر إبراهيم عليه السلام بصحبة والده تارخ وابن أخيه لوط عليه السلام إلى بيت المقدس في فلسطين التي كانت حينذاك تحت حكم الكلدانيين عبدة الكواكب ، ثم ارتحل عن فلسطين إثر جدب أصابها ، وقصد مصر فأهدى له ملكها جارية مصرية تدعى هاجر أنجبت له إسماعيل عليه السلام (١٧٨١ ـ ١٦٢٨ق.م) فثارت غيرة زوجه الأولى سارة التي لم تكن قد أنجبت بعد ، فأمره ربه أن يرتحل بابنه وزوجه هاجر إلى مكة التي كانت صحراء قاحلة لا أثر فيها للبشر ، وليس فيها شجر ولا ماء ، فأنبع الله لهما ماء زمزم ليشربا ويرتويا ، وبعد حين مرَّ بهما قوم من بني (جُرْهُم) فنزلوا عندهما ، حتى شبَّ إسماعيل وتعلم العربية منهم وزوجوه امرأة من نسائهم .

وبعد مدة جاء إبراهيم عليه السلام ليزور ابنه وزوجه ، فوجد هاجر عليها السلام قد ماتت ، وأمره ربه أن يبني (البيت العتيق) في بكة (= مكة المكرمة) فبناه بمساعدة ابنه إسماعيل ، وكان أول بيت في الأرض يخصص لعبادة الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] ، فلما فرغا من البناء أمره ربه أن يذبح ابنه إسماعيل ، فلما همَّ أن يفعل فداه الله بذِبْحٍ عظيم ، واستقر إسماعيل نهائيًا في مكة وأنجب أبناء وذرية حتى كانت العرب المستعربة على اختلاف قبائلها من نسله عليه السلام ، ولم يبعث من ذريته أنبياء سوى محمد بن عبد الله ﷺ خاتم النبيين .

أمَّا الولد الثاني لإبراهيم عليه السلام من زوجه الأولى سارة فهو إسحاق عليه السلام (١٧٦١ ـ ١٥٨١ق.م) الذي بشرته به الملائكة وهم في طريقهم إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم دورهم لقاء ارتكابهم الفواحش ، وكانت سارة عند البشرى عاقرًا وقد تجاوزت التسعين من عمرها ، لكن قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء ، ولما شبَّ إسحاق عليه السلام تزوج امرأة ولدت له غلامين توأمين ، أحدهما عيصو الذي تسميه العرب (العيص) وهو والد الروم ، والثاني خرج من بطن أمه وهو آخذ بعقب أخيه فسموه يعقوب ، وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل ، وقد عاش في الفترة ما بين (١٧٥٠ ـ

١٦٥٢ق.م) وهو والد يوسف عليه السلام ، فلما حضرت يعقوب الوفاة جمع أبناءه ووصاهم بالثبات على ملة التوحيد ، ملة إبراهيم عليه السلام .

وهكذا هيأ الله عز وجل البدايات لأبرز ثلاث ديانات سماوية سوف تظهر لاحقًا ، هي اليهودية والمسيحية والإسلام ، وهي الديانات الرئيسة الباقية التي يعترف القرآن الكريم بأصولها السماوية ، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر بعض الديانات الوثنية ، منها المجوس الذين كانوا يعبدون النار ، والصابئة الذين كانوا يعبدون بعض ظواهر الطبيعة ، والمشركون الذين كانوا يعبدون الأصنام ؛ وذلك في معرض دعوة الجميع للدخول في سلك الإيمان والتوحيد والعمل الصالح : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٦٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : ١٧] ، ونلاحظ من خلال الإحصائيات أن معظم أهل الأرض يتبعون نوعًا ما من الدين ، مما يدل دلالة قاطعة على أن النفس البشرية تميل بفطرتها إلى التدين كما أسلفنا .

(الجدول ـ ١٤) سلسلة ظهور الأنبياء عليهم السلام

النبي	تاريخ البعثة	النبي	تاريخ البعثة
آدم	١٤٠٠٠ ق.م	أيوب	١٥٢٠ ق.م
شيث	١٣٨٠٠ ق.م	ذو الكفل	١٥١٠ ق.م
إدريس	١٣٠٠٠ ق.م	موسى	١٤٢٦ ق.م
؟		هارون	١٤٢٦ ق.م
نوح	٣٩٠٠ ق.م	داود	١٠٤٣ ق.م
هود	٢٥٠٠ ق.م	سليمان	٩٨٥ ق.م
صالح	٢٠٠٠ ق.م	إلياس	٨٩٥ ق.م
إبراهيم	١٨٦١ ق.م	اليسع	٨٨٠ ق.م
لوط	١٨٥٠ ق.م	يونس	٨٠٠ ق.م
إسماعيل	١٧٨١ ق.م	زكريا	١٠٠ ق.م
إسحاق	١٧٦١ ق.م	يحيى	١ م

يعقوب	١٧٥٠ ق.م	عيسى	١ م
يوسف	١٦١٠ ق.م	محمد	٦١٠م
شعيب	١٥٥٠ ق.م	ختم النبوات	

(لاحظ أن تواريخ الأنبياء الثلاثة آدم وشيث وإدريس عليهم السلام هي تواريخ ظنية ليس عليها دليل موثق ، ولاحظ الفجوة الزمنية ما بين إدريس ونوح عليهما السلام التي ليس لدينا أية معلومات عنها)

ومن هنا ندرك الدور العظيم الذي قام به الأنبياء عليهم السلام ، فهم الذين أرسوا قواعد الإيمان والتوحيد في المجتمع البشري ، وهم الذين تركوا أعمق الأثر في مسيرة التاريخ فإن معظم الأحداث العالمية الكبرى قد ارتبطت بشكل أو بآخر بالأنبياء وبرسالاتهم السماوية .

وبالرغم من أن عدد الأنبياء والرسل الذين تعاقبوا على مدار التاريخ كبير جدًّا كما ذكرنا فإن الأنبياء الذين كان لهم التأثير الباقي إلى اليوم هم ندرة نادرة منهم ، وفي طليعتهم الأنبياء أصحاب الديانات السماوية الثلاثة الباقية حتى اليوم (موسى ، وعيسى ، ومحمد) عليهم السلام ، فقد كان هؤلاء هم أكثر الأنبياء تأثيرًا في مسيرة الأحداث .

ولا غرابة في هذا ، فإنّ رسالة محمد ﷺ كانت منذ بدايتها رسالة عالمية ، للناس كافة . وقد استطاع المسلمون بالفعل أن ينشروا هذه الرسالة في أرجاء العالم في زمن قياسي لا يتعدى بضعة عقود من الزمان ، وما زال الدين الإسلامي من أكثر الأديان انتشارًا في العالم . وما زال هو الدين الأكثر كسبًا للمؤمنين الجدد يومًا بعد يوم ؛ لما يتمتع به من قوة فريدة في الإقناع ؛ لأنه دين يقوم على احترام العقل والعلم ؛ ولأنه الدين السماوي الوحيد الذي تكفل الله ﷻ بحفظ كتابه الكريم من التحريف الذي أصاب بقية الكتب السماوية .

وأمَّا رسالة عيسى عليه السلام فمع أنها كانت في الأصل رسالة خاصة لبني إسرائيل فإنها لم تبق محصورة فيهم ، بل انتشرت انتشارًا واسعًا عندما تبناها الأوروبيون ، وأصبحت ديانة عالمية يؤمن بها ملايين البشر في شتى أنحاء المعمورة .

وأما رسالة موسى عليه السلام التي أنزلت لبني إسرائيل خاصة ، فقد تحولت سريعًا إلى ديانة عنصرية محصورة في نسل بني إسرائيل ، الذين زعموا أنهم (شعب الله المختار) ، وأنهم مميزون عن بقية خلق الله ، ولهذا لم يعودوا يقبلون دخول أحد في دينهم ، بل إنهم لم يعودوا يعترفون بيهودية الإنسان ما لم تكن أمه يهودية ، وهكذا تحول الدين اليهودي إلى دين عنصري مغلق ، يضم عددًا قليلًا جدًّا من الأتباع لا يزيد عددهم اليوم عن بضعة عشر

طيوناً فقط ، إلَّا أن اليهود بالرغم من هذا الانغلاق ، وبالرغم من قلة عددهم على مدار التاريخ ، ظلوا أصحاب تأثير لا ينكر في معظم الأحداث التي وقعت منذ موسى ﷺ وحتى اليوم ، ويبدو أنهم سيظلون مؤثرين في الأحداث حتى آخر الزمان ، كما توحي بعض آيات القرآن الكريم ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف : ١٦٧] ، ففي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن تأثيرهم في الأحداث العالمية سوف يستمر حتى آخر الزمان ، والله تعالى أعلم .

لا إكراه في الدين :

وقد ترك الله ﷻ للناس الحرية الكاملة في الاختيار ما بين الإيمان أو الكفر : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] ، لكنه حذرهم في الوقت نفسه من عاقبة الكفر ؛ لأنه يتعارض مع الحكمة الأساسية من الخلق وهي عبادة الله ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وكان البيان القرآني واضحًا غاية الوضوح بأنَّ الدين المقبول عند الله تعالى هو فقط الدين القائم على توحيد الله وعدم الإشراك به سبحانه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] ، والإسلام هنا لا يعني فقط الدين الذي أنزل على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ ، بل الإسلام يعني الإيمان بالله وحده ، والتسليم والانقياد لأوامره من غير إشراك ، وقد كان الإسلام بهذا المعنى هو دين سائر الأنبياء من لدن آدم إلى محمد عليهم السلام .

وقد بيَّن الله ﷻ القاعدة الأساسية في التدين فقال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، ووجه نبيه ﷺ إلى عدم إكراه الناس على الإيمان ؛ لأنه سبحانه لو أراد أن يكرههم على ذلك لأكرههم من أول الخلق : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] ، ويروي الطبري في تفسيره للآية المتقدمة من سورة البقرة أن بعض نساء قبيلة الأوس في المدينة المنورة كنَّ في الجاهلية إذا أنجبت إحداهن ولدًا تنذر أن تهوِّده ، لاعتقادهن بأن ذلك يجعل عمره مديدًا ، وكانت نساء الأوس يرسلن أولادهن إلى قبيلة بني النضير اليهودية لهذا الغرض ، فعندما جاء الإسلام إلى المدينة وجرى ما جرى من خيانة اليهود وأمر رسول الله ﷺ بجلائهن عن المدينة أراد آباء الأولاد الذين تهودوا أن يجبروا أولادهن على الدخول في الإسلام فنزلت الآية مبينة أنه (لا إكراه في الدين) ، وفي هذا ما فيه من الدلالة البينة على حرية الاعتقاد في الإسلام .

والعلة في عدم الإكراه على الإيمان أن الإكراه يتعارض مع حرية الاختيار الذي هو مناط التكليف في شريعة الله تعالى، كما أن مسألة الإيمان تتعلق بالقلب وهي مسألة شخصية لا سلطة لأحد على أحد فيها، وفوق هذا فإن الإكراه على الإيمان لا يجعل الناس مؤمنين حقًّا، بل يحوّلهم إلى منافقين يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ومما لا شك فيه أن النفاق ظاهرة أشد خطرًا من الكفر نفسه، ولذلك قال الله تعالى عن مصير المنافقين: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

وأما الآيات التي تدعو إلى مواجهة الكفار فليست الغاية منها إكراههم على الإيمان، بل إشعارهم بالخطأ الفادح الذي يرتكبونه بحق أنفسهم أولًا، ثم بحق غيرهم من البشر الذين يشجعونهم على مسلك الكفر، ومن ثم فإن جهود الدعاة إلى التوحيد ينبغي أن تتوجه إلى بيان ما في الكفر من إضرار بالمجتمع البشري، ومحاولة إعادة الكفار إلى جادة الصواب، ليس بالإكراه، بل بالحسنى، على طريقة القرآن الكريم: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فإن استجابوا كان لهم ما للمؤمنين، وعليهم ما عليهم. وإن تولوا فما على المؤمنين إلا البلاغ المبين، ولا يصار إلى محاربة الكفار بالقوة إلا إذا بادروا هم إلى استخدام القوة أو حولوا كفرهم إلى برامج عمل تستهدف نشر الكفر والفساد في الأرض، فحينئذ فقط يواجهون بالوسائل المناسبة حتى وإن استدعى الأمر استخدام القوة ضدهم.

الطوائف الدينية:

ويشهد تاريخ الديانات الرئيسة الثلاث أنها جميعًا لم تَسْلَم من ظهور تيارات أو طوائف أو مذاهب أو أحزاب دينية انحرفت بها عن مبدأ التوحيد:

• فقد افترقت اليهود إلى فرق كثيرة جدًّا من أبرزها (الفريسون) أي: المتشددون - ويسمون بالأحبار أو الربانيين، و (الصدقيون) الذين اشتهروا بإنكار البعث والحساب والجنة والنار والتلمود والملائكة والمسيح! ومنهم أيضًا المتعصبون، والكتبة والنساخ - والقراؤون، والسامريون، والسبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذين دخلوا الإسلام ليدمروه من الداخل، وغيرهم كثير.

• وافترقت النصارى إلى طوائف ومذاهب كثيرة جدًّا ، إلَّا أن التيارات الرئيسية فيها هم الكاثوليك الذين يقولون بطبيعتين ومشيئتين إلهية وناسوتية للمسيح ﷺ ، والبروتستانت أتباع الكنيسة الإنجيلية وهم يستكرون حق الغفران ، ويقصرون دور الكنيسة على الوعظ والإرشاد ، والأرثوذكس أتباع الكنيسة الشرقية وهم يعتقدون أن للمسيح ﷺ طبيعة واحدة ، ومشيئة واحدة ، ولكنها إلهية .

• وافترق المسلمون إلى طوائف عدة ، أعظمها وأكثرها أتباعًا هم (أهل السنة والجماعة) وهم متواجدون في شتى أنحاء العالم ، ويشكلون غالبية سكان البلدان العربية والإسلامية ، ثم طائفة (الشيعة) الذين يشكلون حوالي ١٠٪ من المسلمين ، ويتواجدون بكثرة في دولة إيران وما حولها ، وهناك طوائف أخرى عديدة تنتسب للإسلام ولكن تتفاوت بقربها أو بعدها عن روح الإسلام ، وهي تشكل تجمعات قليلة هنا وهناك في شتى البلدان العربية والإسلامية .

تاريخ اليهودية :

واليهودية هي ديانة العبرانيين الذين ينحدرون من نسل إبراهيم الخليل ﷺ ، وقد عُرفوا بالأسباط من بني إسرائيل ، وهم اللذين أرسل إليهم موسى ﷺ (١٤٢٦ ـ ١٣١٦ ق.م) ، وقد سماهم القرآن الكريم باليهود لقولهم في مناجاة ربهم : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، أي عُدنا إليكَ والتجأنا ، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم أكثر من أيَّةُ أمةٍ أخرى نظرًا لمواقفهم المعادية لأنبيائهم الذين لم يتورعوا عن قتل كثير منهم .

وكان بنو إسرائيل قبل ظهور موسى ﷺ يتداولون بينهم أنه سوف يخرج من ذرية إبراهيم الخليل ﷺ غلام يكون خلاصهم على يديه من ظلم فرعون مصر آنذاك (رمسيس الثاني) [1] ، ولهذا احترز فرعون فأمر بقتل جميع الغلمان الذين يولدون من بني إسرائيل كي يُضعِف شوكتهم ويتخلص من ذلك الغلام ، فأوحى الله لأم موسى ﷺ أن تلقيه في اليم نكاية بفرعون ، فألقته والتقطه آل فرعون ليتربى في حجرهم ، ولمّا كان طفلًا رضيعًا فقد أحضر له فرعون امرأة لترضعه ، لكن موسى أبى أن يرضع منها ومن بقية

---

[1] رمسيس الثاني : ثالث فراعنة الأسرة التاسعة عشر ، حكم مصر ٦٦ سنة (١٢٧٩ ق.م ـ ١٢١٢ق.م) صعد إلى سدة الحكم وهو في أوائل العشرينات من عمره ، عاش زهاء تسعين عامًا ، ويعتقد بعض المؤرخين أنه الفرعون الذي لاحق نبي الله موسى ﷺ ، وأنه هو الذي أخرج بني إسرائيل من مصر .

المرضعات اللواتي جيء بهن إليه حتى جاؤوا بأمه فأقبل على ثديها ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فلما شبَّ موسى عليه السلام وكبر ، وقع بينه وبين أحد المصريين خلاف حاد وشجار عنيف فوكزه موسى في صدره فقضى عليه ، ووصل الخبر إلى فرعون فجدَّ في طلب موسى ليعاقبه . فلما علم موسى بالخبر فرَّ باتجاه بيت المقدس في فلسطين ، وفي طريقه إلى هناك توقف في مدينة (مدين) حيث تعرَّف على نبي الله شعيب عليه السلام ، وتزوج إحدى ابنتيه ، فلما ارتحل بأهله نزل عليه الوحي وهو بجانب الطور الأيمن ، وأمره ربه بالعودة إلى فرعون لتبليغه رسالة التوحيد ، وكان رمسيس الثاني قد مات ، وخلفه ابنه الفرعون منفتاح (*Menephtah*) الذي حكم مصر في الفترة ما بين (١٢٣٥ ـ ١٢٢٤ ق.م) وسار على نهج أبيه في تأليه نفسه . وأبى أن يسلم مع موسى ، وأراد القضاء عليه وعلى من معه من المؤمنين ، لكن الله نجَّاهم . وأغرق فرعون وجنوده .

وكان اليهود في الأصل كتابيين موحدين ، لكنهم انحرفوا إلى التعدد والتجسيم . وعبدوا العجل كما ورد في القرآن الكريم ، ثم عبدوا الحية ؛ لأنها في زعمهم تمثل الحكمة والدهاء ، والرب عندهم يسمونه يَهْوَه (Jehovah) ، ويعتقدون أنه إله خاص لهم دون سائر البشر ، لاعتقادهم بأنهم شعب الله المختار .

و (عزرا)[1] عندهم هو الذي عثر على توراة موسى بعد أن ضاعت ، وهو الذي أعاد بناء الهيكل ، فجعلوه ابنًا لله كما ورد في القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

وعلى الرغم من كثرة الأنبياء الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل ، وكثرة المعجزات التي أجراها الله على أيدي أنبيائهم ورأوها بأمّ أعينهم ، فإنهم ظلوا شديدي الكفر ، واشتهروا بأخلاقهم الفظة الغليظة ، فلم يتورعوا عن قتل أنبيائهم ومنهم زكريا وابنه يحيى ، وآخر من همُّوا بقتله هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، ولكن الله عز وجل نجاه من كيدهم ورفعه إليه .

---

(١) عزرا : كاهن وكاتب يهودي ، عمل على استقرار اليهود في أورشليم (= القدس) بعد أن أجلاهم ملك بختنصر عنها واحتل فلسطين وخرب أورشليم وسبى اليهود عام ٥٨٦ ق.م ، وينسب اليهود إلى عزرا الفضل في إثبات نص الشريعة اليهودية ، كما أن في التوراة التي بين أيدي اليهود اليوم سِفْر باسم عزرا كتب بعد الجلاء في القرن الخامس قبل الميلاد .

واليهود يقدسون يوم السبت ، ويعتقدون أنهم (شعب الله المختار) دون سائر الأمم والشعوب ، وأن أرواحهم جزء من الله ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ، وأما ما عداهم من البشر فيطلقون عليهم وصف الأمين (= جوييم بالعبرية) وهم يبيحون لليهودي أن يغشَّ الأمين ، وأن يسرقهم ، وأن يقرضهم بالربا ، وغير ذلك من التجاوزات التي يبيحونها في حقِّ الآخرين ويحرمونها فيما بينهم ، وهم لا يرعون عهدًا ولا ذمة ، وقد جاء في وصف هذا الطبع اللئيم عند اليهود الكثير من آيات القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٥٥] ، وبسبب هذا المسلك الشاذِّ اللئيم ضرب الله ﷻ عليهم الذِّلَّة والمَسْكَنة أينما ثقفوا ، وباؤوا بغضب من الله ، وشُرِّدوا في أصقاع الأرض ، وكانوا على مدار التاريخ موضع كراهية في مختلف المجتمعات التي عاشوا فيها بسبب سوء طويتهم ، وأخلاقهم الدنيئة ، وإساءتهم وكيدهم ومكرهم وتعصبهم وعنصريتهم التي لم يشهد التاريخ البشري لها مثيلًا .

التوراة :

وهو الكتاب الذي أنزل على نبي الله موسى عليه السلام ، ويسمونه أيضًا (العهد القديم) تميِّزًا له عن الإنجيل (العهد الجديد) الذي أنزل على عيسى عليه السلام ؛ لأن رسالة المسيح عليه السلام جاءت مكملة لرسالة موسى عليه السلام ، إلَّا أن نزعة اليهود بأنهم شعب الله المختار جعلهم يرفضون رسالة عيسى عليه السلام ، ويحولون دينهم إلى دين عنصري لا يعترف إلَّا باليهودية التي حرفوها عن أصولها ، بل وصل بهم التعصب والعنصرية إلى حد أنهم لا يعترفون بيهودية الإنسان إلَّا إذا كانت أمه يهودية أبًا عن جد .

وقد ترجم التوراة في الفترة ما بين (٢٥٠ ـ ١٠٠ ق.م) إلى اليونانية الإسكندرانية ، وسميت الترجمة السبعينية ؛ لأنها كتبت في ٧٢ يومًا من قبل ٧٢ مترجمًا بناءً على طلب بطليموس فيلادلفيوس ، وترجع أهميتها إلى أنها نقلت عن نصوص كانت قد فقدت ، وكانت تضم جميع كتب القانون الغربي ، وقد عوَّل عليها اليهود الهلنستيون والمسيحيون الذين كانوا يتكلمون اليونانية وعلى رأسهم القديس بولس الرسول ، ولا تزال الكنيسة تعول عليها حتى اليوم ، مع العلم بأن مخطوطة الترجمة الأصلية مفقودة .

وبما يذكر أن علماء الآثار عثروا في القرن العشرين في منطقة البحر الميت في فلسطين على لفائف بعضها من الجلد وبعضها من ورق البردي ، سميت (لفائف البحر الميت)[1] . يعود تاريخها إلى حوالي (٢٥٠ ـ ٢٠٠ ق.م) وتضم سِفْر الخروج وسفر صموئيل الأول . إلا أنهم تكتموا عليها ولم يعرف مصيرها حتى اليوم ، ويعتقد كثير من الباحثين أن هذا التكتم الشديد يرجع إلى ما تحتويه تلك اللفائف من معلومات قيمة تدحض الكثير من مزاعم اليهود ومنها بشارة موسى ﷺ بنبوة نبي الإسلام محمد ﷺ .

وعلى الرغم من أن التوراة هو الكتاب السماوي الذي أنزل على موسى ﷺ فإن اليهود لا يعولون عليه كثيرًا بل لديهم كتاب يسمونه (التلمود) وهم يقدسونه ويحتل عندهم مكانة تفوق مكانة التوراة ، والتلمود لفظة آرامية مأخوذة عن العبرية معناها (تَعَلُّم) . ويرجع تاريخ التلمود إلى عام (١٥٠ ق.م) ، وهو يضم مجموعة الشرائع المقرونة بتفاسير ظل الحاخامات يتناقلونها شفهيًا لفترة طويلة ، وقد أضاف يهوذا في عام (٢١٦ ق.م) بعض الزيادات والروايات الشفوية عليها ، ثم كُتب التلمود في كل من فلسطين وبابل في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، وأول من جمعه في كتاب هو الحاخام (يوضاس) . ويتألف التلمود من قسمين أولهما (المشنا) الذي يضم (٦٣) مقالة ، شرحوا منها ست وثلاثين مقالة ونصف المقالة وأضافوا عليها استطرادات وتفاصيل كثيرة ، والقسم الآخر يسمى (الجمارة) وهي تضم التفسير مع تكملة النص التلمودي ، وفي التلمود بابان أحدهما في التشريع والآخر في السياسة .

أنبياء بني إسرائيل :

وقد أرسل إلى بني إسرائيل من بعد موسى ﷺ كثير من الأنبياء ، منهم نبي الله داود ﷺ (١٠٤٣ ـ ٩٧٣ ق.م) الذي تسلم المُلك في بيت المقدس حوالي عام (١٠١٢ق.م) وقد عمل جهده على تحويل الشعب اليهودي من الحياة القبلية العصبية المنغلقة إلى الحياة المدنية الحضرية المنفتحة على الآخرين ، وأسس مملكة قوية منظمة كانت فريدة في عصره ، واحتفظت سلالته بالملك زمنًا طويلًا امتد حتى عام (٥٨٦ ق.م) ، وبعد داود ﷺ جف

---

(١) لفائف البحر الميت : عثر عليها في ربيع (١٩٤٧م) من قبل اثنين من رعاة الغنم البدو كانا يبحثان عن خروف ضاع منهما في المنطقة الشمالية الغربية من الجزيرة العربية المطلة على البحر الميت ، في خربة قمران ، على بعد ستة أميال جنوب مدينة أريحا حيث تنتشر الكهوف والتلال الصخرية ، وقد عثر عليها في أحد الكهوف ، وبعد ذلك اكتشفت لفائف أخرى عديدة في كهوف أخرى مجاورة .

ابنه سليمان ﷺ (٩٨٥ ـ ٩٣٢ ق.م) الذي سار على منوال والده في سياسة المملكة ، ودام حكمه لما زهاء أربعين عامًا (٩٧٢ ـ ٩٣٢ ق.م) وهو الذي بنى (الهيكل المقدس) [1] ، وهو الذي آتاه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده ، فقد سخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، وسخر له الجن يعملون في البر والبحر ، وآتاه ما لم يؤت أحدًا من العالمين ، وكان مع كل هذا الثراء والنعم عابدًا لربه شاكرًا لأنعمه .

زمن التيه وأرض الميعاد :

في عام (٧٢٢ ق.م) غزا القائد الآشوري (سرجون) مدينة السامرة عاصمة مملكة يهودا آنذلك ، واستولى عليها ، ونفى اليهود وشتتهم في أقطار الأرض ، وفي عام (٥٨٦ ق.م) غزا البابليون بقيادة ملكهم نبوخذ نصر فلسطين وهدموا الهيكل ، وأخذوا من بقي فيها من اليهود أسارى إلى بابل حيث ظلوا منفيين زهاء (٧٠) عامًا ، ثم سمح لهم الملك قورش العظيم بالعودة إلى فلسطين .

وبعد عدة قرون (حوالي ١٦٧ ق.م) قاد اليهود المكابيون حركة نشطة بهدف العودة إلى جبل صهيون وإعادة بناء الهيكل ، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك إلَّا في عام (٢٠ ق.م) حين بناه لهم (هيرودس) [2] ، إلا أن الرومان عادوا في عام (٧٠م) فهاجموا القدس بقيادة

---

(١) هيكل سليمان ، حسب التسمية المسيحية ، وبيت همقداش (بيت المقدس أو المعبد) حسب التسمية اليهودية ، كان معبدًا يهوديًا أقيم في القرن العاشر قبل الميلاد ، وحسب التراث المسيحي واليهودي كان الهيكل موجودًا حيث يوجد المسجد الأقصى حاليًا ، وفي الكتاب المقدس (سفر الملوك الأول ، إصحاح ٥-٦) أن نبي الله سليمان ﷺ هو الذي بناه إتمامًا لعمل أبيه داود ﷺ بأمر من الله ﷻ ، ووضع فيه تابوت العهد وشريعة موسى ﷺ ، وقد ظل الهيكل قائمًا حتى هدمه البابليون في عام (٥٨٦ ق.م) ، وبعد سبعين سنة عندما احتل الفرس بابل أعاد ملكهم كورش اليهود إلى فلسطين فأعادوا بناء الهيكل (سفر عزرا ، إصحاح ١ - ٣) لكنه دمر ثانية على يد القائد الروماني تيطس في عام (٧٠م) ، وبعد الفتح الإسلامي بني المسجد الأقصى في عصر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، الأمر الذي لا يقبله اليهود وبعض الطوائف المسيحية ، وقد بقي المسجد الأقصى على حاله التي هو عليها الآن ، وما زال الصهاينة يطمعون بهدمه وإعادة بناء الهيكل مكانه .

(٢) هيرودس : اسم لأربعة من ملوك اليهود اتسم تاريخهم جميعًا بالبطش الشديد ، الأول هو هيرودس الكبير (٧٢ ق.م ـ ٤م) : ولد في عسقلان في فلسطين ، وأصبح ملكًا على اليهود (٤٠ ـ ٤ م) وقد ساندته روما ، واتصف بالبطش الشديد ، فقتل الكثيرين من أهله ، وأمر بذبح أطفال بيت لحم . الثاني هو أنتيباتروس (٢٠ق.م ـ ٣٩م) ابن هيرودس الكبير ، وهو الذي أمر بقطع رأس النبي يحيى ﷺ ، وهو الذي حاكم السيد المسيح ﷺ وأمر بصلبه ، وقد حل عليه غضب الله في أخريات أيامه فأصيب بالجنون ، وأعدم بعض أبنائه . الثالث هو أغريبا الأول (١٠ ق.م ـ ٤٠م) كان ملكًا على اليهود (٤١ ـ ٤٤م) قتل القديس يعقوب ، وسجن بطرس . الرابع هو =

تيطوس وهدموا أبنيتها وهيكلها مرة أخرى ، وفي الفترة ما بين (١١٨ ـ ١٣٨م) قاد الزعيم اليهودي (باركو خبا) حركة نشطة أثار فيها حماسة اليهود وحثهم على التجمع في فلسطين لتأسيس دولة يهودية جديدة ، لكنه لم يتمكن من تحقيق حلمه ، وفي مطلع القرن السادس عشر تجددت هذه الدعوة مرة أخرى بتشكيل حركة دافيد روبين وتلميذه سولومون مولوخ اللذين حثا اليهود على العودة لتأسيس مملكة إسرائيل في فلسطين ، لكن جهودهما باءت بالفشل ، ولم يفلحا في تحقيق هذا الحلم .



(هيرودس الكبير يهاجم القدس ، عام ٣٦ ق.م)

المؤامرة الكبرى :

وفي الفترة ما بين (١٦٠٤ ـ ١٦٥٧م) قامت حركة (منشه بن إسرائيل) وهي النواة الأولى التي وجهت خطط الصهيونية لاستخدام بريطانيا في تحقيق أهدافها ، وفي هذه الآونة (حوالي عام ١٦٤٨م) ظهر يهود الدونمة الذين أظهروا الإسلام ولكنهم ظلوا في الحقيقة على يهوديتهم بهدف الكيد بالإسلام وأهله ، وقد أسس هذه الحركة اليهودي الإسباني سباتاي زيفي (١٦٢٦ ـ ١٦٧٥م) وهو تركي المولد والنشأة ، وقد أعلن أنه مسيح بني إسرائيل ومخلصهم الموعود ، وعندما استفحل أمره اعتقلته السلطات العثمانية . وناقشه العلماء في دعواه الباطلة ، وعندما أدرك أن إصراره على ذلك سوف ينتهي بقتله أظهر الإسلام ، ثم طلب من الدولة السماح له بالدعوة إلى الإسلام في صفوف اليهود ، فلبي

= أغريب الثاني (٢٧ ـ ١٠٠م) كان ملكًا على اليهود (٥٠ ـ ٩٣م) انضم إلى جانب الرومان في حصار تيطوس لأورشليم [انظر : الموسوعة العربية الميسرة ص ١٩٢٦ ، والمنجد في اللغة والأعلام ، ص ٧٣٦] .

سمحت له بذلك استغل الفرصة لنشر مذهبه اليهودي بين بني قومه ، وعندما اكتشفت الحكومة العثمانية خداعه نفته إلى ألبانيا حيث قضى نحبه قبل أن يخلص اليهود كما زعم .

وفي عام (١٨٨٢م) قامت في روسيا حركة صهيونية أخرى انتهجت منهج العنف والتنكيل والإرهاب ، وقد زاد من عنفها وإرهابها جهود اليهودي المتعصب هيكلر الجرماني الذي نشر كتابه الشهير (إرجاع اليهود إلى فلسطين حسب أقوال الأنبياء) ، وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهر تياران متعارضان بين اليهود ، تزعم الأول موسى مندلسون الذي دعا إلى رسالة ثقافية ، وتزعم الآخر المحامي والصحفي اليهودي النمساوي (تيودور هرتزل)[1] ، الذي بعد فشله في ممارسة المحاماة وفشله في حياته الزوجية لجأ إلى السياسة ، وبدأت تتشكل أفكاره الصهيونية ، وراح يفكر بالمشكل اليهودي باحثًا عن حل غير الاندماج بالمجتمعات الأوروبية ، وقد عبر عن آرائه في كتيب نشره عام (١٨٩٦م) بعنوان مدينة اليهود (*Der Judenstaat*) وعلى الرغم من أن الكتيب لم يجد أي صدى في حينه ؛ فإنه وضع حجر الأساس للحركة الصهيونية الحديثة ، ونجح هرتزل بعدها بالدعوة لعقد أول مؤتمر صهيوني عالمي في مدينة بال السويسرية (٢٩ ـ ٣١ أغسطس ١٨٩٦م) وانتخب رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية ، وبدأ على الفور محادثاته مع شخصيات عديدة بحثًا عن مؤيدين لمشروعه الصهيوني الذي يستهدف قيادة اليهود إلى حكم العالم انطلاقًا من إقامة دولة لهم في فلسطين ، فالتقى بالقيصر الألماني فيلهلم الثاني الذي أبدى تعاطفه مع المشروع ، ثم التقى مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي رفض المشروع رفضًا قاطعًا بالرغم من الإغراءات الكبيرة التي وعده بها هرتزل ، وعندئذ توجهت جهوده لإزاحة السلطان عبد الحميد عن عرش السلطنة ، وإلغاء الخلافة الإسلامية التي وجد أنها تشكل عقبة كبيرة في وجه مخططه العنصري ، وقد تكفل بهذه المهمة الزعيم التركي (مصطفى كمال أتاتورك)[2] ، الذي تعود أصوله إلى اليهودية .

---

(١) تيودور هرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤م) : يهودي نمساوي ، اسمه العبري بنيامين زئيف ، وحصل على الدكتوراة في القانون عام (١٨٨٤م) ، واشتغل فترة في المحاكم ثم توجه إلى الأدب والتأليف ، نشر في عام (١٨٨٥م) مجموعة من القصص الفلسفية وبعض المسرحيات التي لم تلق رواجًا ، وفي سنة (١٨٨٩م) تزوج لكنه فشل في حياته الزوجية ، فاشتغل بالصحافة وعمل في باريس مراسلًا صحفيًا ، ثم توجه إلى العمل السياسي وكرس حياته لخدمة المشروع الصهيوني .

(٢) مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨٠ ـ ١٩٣٨م) : ومعنى كلمة أتاتورك (أبو الأتراك) ينتمي إلى يهود الدونمة ، يهم الذين أوصلوه إلى السلطة بعد أن يئسوا من ولاء السلطان عبد الحميد لهم ، اشترك ضابطًا في الثورة التي ـ

وقد أعقب مؤتمر (بال) عدة مؤتمرات يهودية للغاية نفسها ، تزعمها كل من (ماكس نوردو) و (حاييم وايزمان)[1] وساهم يهود أمريكا مساهمة كبيرة في إمداد هذه المؤتمرات بالأموال الطائلة وتطلعت الحركة الصهيونية من خلال هذه المؤتمرات لتحقيق حلم اليهود القديم بأن يجعلوا فلسطين وطنًا قوميًا لها ، وبدؤوا بالفعل يشجعون على الهجرة إلى فلسطين ، ونشطت هجراتهم كثيرًا ، مما دفع النواب العرب في البرلمان العثماني إلى طرح المشكلة على البرلمان في عام (١٩٠٩م) وطالبوا الباب العالي[2] في إستانبول بإصدار فَرَمان (= قانون) يمنع اليهود من دخول فلسطين ويحظر عليهم امتلاك الأراضي فيها. لكن الباب العالي لم يعط المشكلة ما تستحقه من الاهتمام ، واستمرت الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، بل ازدادت واستفحلت .




(من اليمين : هرتزل ، وايزمان ، ترومان ، بلفور ، الزعماء الذين ساهموا بقيام دولة للصهاينة في فلسطين)

= قادها حزب تركيا الفتاة عام (١٩٠٨م) ، وخدم في ليبيا (١٩١١ ـ ١٩١٢م) ، وفي حرب البلقان الثانية (١٩١٣م) وفي الحرب العالمية الأولى في الدردنيل ، ثم في أرمينيا وفلسطين ، نظم الحزب الوطني التركي عام (١٩١٩م) ، وأصدر السلطان محمد السادس أمرًا بقتله لخروجه عن طاعته فأقام أتاتورك حكومة مناوئة في أنقرة. وفي تشرين الثاني (١٩٢٢م) أعلن إلغاء السلطنة ونفى الأسرة السلطانية ، وفي عام (١٩٢٣م) أعلن جمهورية تركيا وانتخب رئيسًا لها ، ثم أعيد انتخابه عدة مرات ، ونفذ برنامج للإصلاح الداخلي على النمط الغربي ، وألغى الخلافة الإسلامية في عام (١٩٢٤م) وفصل الدين عن الدولة ، وألغى الحرف العربي واستبدله بالحرف اللاتيني. وألغى المحاكم والمدارس الشرعية ، وفرض القانون المدني الذي يستمد مواده من القوانين الأوروبية بدل القانون السابق الذي يستمد نصوصه من الشريعة الإسلامية ، وألغى التقويم الهجري وأحل محله التقويم الميلادي ، وألغى كل ما يمت إلى الإسلام أو العروبة بأية صلة ، وقد شجع إلغاء الخلافة الطامعين بالبلاد الإسلامية على غزوها واستعمارها ؛ إذ لم تمض أعوام قليلة حتى كانت كل البلاد العربية والإسلامية تحت السيطرة الاستعمارية .

(١) حاييم وايزمان (١٨٧٤ – ١٩٥٢م) : أشهر شخصية صهيونية بعد هرتزل ، لعب الدور الأهم في استصدار وعد بلفور في شهر نوفمبر (١٩١٧م) ، ترأس المنظمة الصهيونية العالمية (١٩٢٠ ـ ١٩٤٦م) ، وانتخب رئيسًا للدولة العبرية عام (١٩٤٩م) .

(٢) الباب العالي : لقب كان يطلق على البلاط السلطاني في إستانبول أيام الخلافة العثمانية ، وابتداءً من عام (١٧١٨م) أصبح يطلق على مقر الصدر الأعظم وسائر الوزارات والدوائر الرسمية التابعة للخلافة .

وفي ظل تلك الظروف المريبة والهجرات اليهودية المتلاحقة تشكلت في عام (١٩١١م) طلائع التنظيمات السياسية العربية في كل من حيفا ويافا لمواجهة خطر هذه الهجرات، وعندئذ تدخل البريطانيون تدخلًا سافرًا لدعم اليهود، ودخلت قواتهم المدججة بالسلاح إلى القدس عام (١٩١٧م) قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى، وأعلنوا انتدابهم على فلسطين، ولم يلبث وزير الخارجية البريطاني (آرثر جيمس بلفور) [1] أن أكمل فصول المؤامرة فأصدر في العام نفسه الوعد المشؤوم الذي عرف باسمه (وعد بلفور) وفيه تعهد التاج البريطاني بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وقد أقر مجلس الوزراء البريطاني هذا الوعد بالإجماع يوم (١/ ١١/ ١٩١٧م) وكان لهذا الوعد أثر سيئ جدًّا في تأجيج الصراع العربي الصهيوني والوصول به إلى مرحلة لا عودة منها.

وللرد على هذا الوعد المؤامرة، عقدت جمعيات المعارضة العربية للهجرة اليهودية أول مؤتمر لها في عام (١٩١٩م) لمناقشة الوضع في فلسطين، وكان هذا المؤتمر هو البداية الفعلية لانطلاق الجهاد العربي الإسلامي المنظم ضد الانتداب البريطاني على فلسطين، وضد الهجرة اليهودية إليها، وقد بدأ المجاهد (عز الدين القسام) [2] في عام (١٩٢٥م) بتشكيل طلائع المقاومة ضد المهاجرين الصهاينة، وتبعه فدائيون كثيرون ممن بذلوا دماءهم

---

(١) آرثر جيمس بلفور: ولد سنة (١٨٤٨م) في ويتنغهام، وبعد أن أنهى دراسته الأولية التي درس تعاليم المعهد القديم، أكمل دراساته العليا في كلية إيتون وجامعة كمبردج بإنجلترا، انتخب نائبًا في البرلمان سنة (١٨٧٤م)، وعمل وزيرًا أولًا لإسكتلندا عام (١٨٨٧م)، ثم وزيرًا رئيسًا لشؤون إيرلندا، ثم أول رئيس للخزانة، ورئيسًا لوزراء بريطانيا وكان يعارض الهجرة اليهودية إلى شرق أوروبا خوفًا من انتقالها إلى بريطانيا، لكنه بعد فترة أعجب شخصية الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان الذي التقاه عام (١٩٠٦م) فتعامل مع الصهيونية باعتبارها قوة تستطيع التأثير في السياسة الخارجية الدولية، وحين تولى منصب وزارة الخارجية في حكومة لويد جورج أصدر وعده المعروف بوعد بلفور عام (١٩١٧م) انطلاقًا من تلك الرؤية، وزار فلسطين عام (١٩٢٥م) وشارك بافتتاح الجامعة العبرية، وعمت وقتها المظاهرات معظم الأراضي الفلسطينية احتجاجًا على وعده المشؤوم.

(٢) عز الدين القسام (١٨٨٢ ـ ١٩٣٥م): شيخ مجاهد، ولد في مدينة جبلة غرب سوريا، سافر إلى مصر فدرس في الأزهر، ثم عاد إلى جبلة عام (١٩٠٤م)، وفي عام (١٩١٩م) قاد الجهاد ضد المستعمرين الفرنسيين مع المجاهد عمر البيطار، فحكم عليه الفرنسيون بالإعدام، فهرب إلى فلسطين واستقر في قرية الياجور قرب حيفا، انضم إلى جمعية الشبان المسلمين وأصبح رئيسًا لها عام (١٩٢٨م)، وتسلم الإمامة في مسجد الاستقلال في حيفا، وأعلن الجهاد على الانتداب البريطاني والمستوطنين اليهود في تشرين الثاني من عام (١٩٣٥م)، واستشهد خلال تلك المواجهات، وكان استشهاده فاتحة الثورات الفلسطينية المتلاحقة.

رخيصة لمنع هذه المؤامرة الكبيرة ضد الأراضي المقدسة ، وتحت ضربات هؤلاء الفدائيين الموجعة ، اضطرت بريطانيا عام (١٩٤٥م) للإعلان عن وقف الهجرة إلى فلسطين ولكن بعد أن أصبح عدد اليهود يشكل خطرًا حقيقيًّا على سكانها العرب الأصليين .

وبعد عامين أعلنت بريطانيا انتهاء الانتداب على فلسطين حين اطمأنت أن اليهود قد بسطوا سيطرتهم على مناطق واسعة بما فيها بعض أحياء القدس القديمة ما عدا بيت المقدس . وفي العام نفسه (١٩٤٧م) صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار تقسيم الأراضي الفلسطينية بين العرب واليهود ، وتدويل مدينة القدس ، فعجل هذا القرار الجائر المواجهات الدامية بين الطرفين ، وتخلل تلك المواجهات عدة حروب كبيرة (الأعوام ١٩٤٨ - ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣م) إلى جانب حروب استنزاف كثيرة ومعارك طاحنة لا تكاد تنقطع ، وفي غضون ذلك ولدت حركة التحرير الفلسطينية التي أطلق عليها اسم فتح (٢٨/ ٥/ ١٩٦٤م) التي بدأت الكفاح المسلح ضد الصهاينة في فلسطين ، ولم تلبث أن أصبحت رسميًّا الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني بدعم الحكومات العربية لها . علمًا بأن حركات مقاومة كثيرة كانت قد ولدت على أرض فلسطين وخارجها ، وقدمت الكثير من الضحايا في سبيل تحرير الوطن وتخليص بيت المقدس من أيدي الصهاينة الغاصبين .



(الشيخ المجاهد عز الدين القسّام)

معاهدات السلام والانتفاضات الفلسطينية :

وفي أعقاب الحرب الأخيرة التي وقعت عام (١٩٧٣م) بين العرب والصهاينة في فلسطين أقدم الرئيس المصري (أنور السادات) على بادرة أذهلت العرب عندما زار إسرائيل للتعبير عن اعترافه العملي بها ، وبعد عامين وبالتحديد في يوم (٢٦/ ٣/ ١٩٧٧م) وقّع السادات اتفاقية الصلح مع إسرائيل (اتفاقية كامب دافيد) في واشنطون بحضور

الرئيس الأمريكي آنذاك جيمي كارتر ، ولم يلبث السادات أن دفع حياته مقابل هذه البادرة ، فقد اغتاله عناصر من الجيش المصري في عام (١٩٨١م) خلال العرض العسكري الذي أقيم للاحتفال بانتصارات أكتوبر .

وفي يوم (٧/ ١/ ١٩٨٧م) اندلعت شرارة (الانتفاضة) الشعبية الأولى في الأراضي المحتلة في أعقاب ارتكاب الجيش الصهيوني مجزرة دامية ضد الأهالي في بلدة (عيون قارة) راح ضحيتها سبعة عمال فلسطينيين ، وأتبعها بمجزرة أخرى في تشرين الأول من العام نفسه في مدينة القدس راح ضحيتها أكثر من عشرين مواطنًا آخرين ، وقد بدأت الانتفاضة بتنظيم مسيرات شعبية تندد بالاحتلال الصهيوني ، ثم تحولت إلى مظاهرات غاضبة ، ومصادمات دامية بين الطرفين ، ثم إضرابات منظمة في إطار عصيان مدني أرهق قوات الأمن الصهيونية ، وقد شارك في الانتفاضة أطفال صغار راحوا يستخدمون الحجارة ضد قوات الأمن الصهيونية ، وسريعًا ما اشتهر هؤلاء الأبطال الصغار باسم (أطفال الحجارة) وقد هيأت هذه الانتفاضة فرصة جيدة جدًّا لخروج الصراع العربي ضد الصهاينة من حالة الضعف والعجز التي سيطرت على الأمة العربية بعد توقيع اتفاقية كامب دافيد إلى حالة نشطة من المقاومة الفاعلة المؤثرة .



(من اليسار : الرئيس المصري أنور السادات ، الرئيس الأمريكي جيمي كارتر ، رئيس الوزراء الصهيوني مناحيم بيغن ، عند توقيع اتفاقية كامب دافيد في عام ١٩٧٧م)

وفي أعقاب (حرب الخليج) التي وقعت عام (١٩٩١م) ما بين العراق من جهة وقوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة من جهة أخرى ، عقد في مدينة مدريد عاصمة إسبانيا يوم (٣٠/ ١٠/ ١٩٩١) مؤتمر دولي للسلام من أجل تسوية الصراع العربي

الصهيوني على أساس قراري الأمم المتحدة (٢٤٢ ، ٣٣٨) شارك فيه ممثلون عن سوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية ولبنان والكيان الصهيوني ، وقد حرص منظمو المؤتمر على ربط الصراع العربي الصهيوني بعدد من المشكلات الإقليمية في المنطقة ، منها : الأمن القومي ، والبيئة ، وتوزيع المياه ، والأحوال الاقتصادية ، وأوضاع اللاجئين ، وذلك بغية جعل الكيان الصهيوني واقعًا لا مناص من الاعتراف به وجزءًا لا يتجزأ من التركية الجيوسياسية لمنطقة الشرق الأوسط ، وفي أعقاب هذا المؤتمر بدأت المفاوضات المباشرة في واشنطون بين أطراف الصراع .

وفي العام التالي وقعت منظمة التحرير الصلح مع إسرائيل واعترفت بها اعترافًا كاملًا بعد مفاوضات علنية بين الطرفين جرت في واشنطون ، ومفاوضات سرية جرت في مدينة (أوسلو) ، وفي عام (١٩٩٣م) وقع الصلح كذلك بين الكيان الصهيوني والأردن بعد مفاوضات مباشرة بين الطرفين في واشنطون .. وفي يوم (٤/ ٥/ ١٩٩٤م) وقع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات اتفاقية الحكم الذاتي في كل من غزة وأريحا مع رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين ، وحضور الرئيس المصري حسني مبارك وفي يوم (١/ ٧/ ١٩٩٤م) دخل الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات مدينة غزة وتسلم مقاليد الحكم الذاتي فيها .



(تقلص الأراضي الفلسطينية أمام التوسع الصهيوني منذ الاحتلال وحتى عام ٢٠٠٠م)

بعد ذلك تسارعت الأحداث ، فعقدت في العام نفسه في الدار البيضاء عاصمة المغرب العربي (القمة الاقتصادية للشرق الأوسط وشمال أفريقيا) التي شاركت فيها إسرائيل لأول مرة مشاركة رسمية ، وقد كرست هذه القمة الدولية الاعتراف الرسمي بدولة إسرائيل ، والقبول بها رسميًا في المحافل العربية .

إلَّا أن كل المحاولات لاحتواء الخلاف العربي الصهيوني لم تفلح في إطفاء نار الحرب بين الطرفين ، فاليهود متمسكون بأرض فلسطين باعتبارها أرض الميعاد التي يزعمون أن الله ﷻ قد وعدهم بها ، أمَّا المسلمون فهم يعتبرون أرض فلسطين أرضًا عربيةً إسلاميةً ، والمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، وقد وعد الله المسلمين بالنصر على اليهود آخر الأمر ، كما جاء في سورة الإسراء وكما جاء في العديد من أحاديث النبي محمد ﷺ .. وما يزال الصراع مستمرًا .

(الجدول ـ ١٥) أهم المراحل والأحداث في تاريخ اليهودية والصراع العربي الصهيوني

التاريخ	الحدث	ملاحظات
(١٧٥٠ ق.م)	النبي يعقوب .	أول من أطلق عليه اسم (إسرائيل) .
(١٤٢٦ـ١٣١٦ق.م)	النبي موسى .	خلَّص اليهود من طغيان فرعون .
(١٠٤٣ـ٩٧٣ ق.م)	النبي داود .	أسس مملكة قوية في بيت المقدس .
(٩٨٥ ق.م)	النبي سليمان .	بنى الهيكل في بيت المقدس .
(٧٢٢ ق.م)	غزا الآشوريون مدينة السامرة .	نفي اليهود وتشتيتهم الشتات الأول .
(٥٨٦ ق.م)	غزا البابليون المملكة .	هدم هيكل سليمان .
(٥١٦ ق.م)	عودة اليهود إلى فلسطين .	سمح لهم الملك قورش بالعودة .
(١٦٧ ق.م)	حركة المكابيون اليهود .	بهدف العودة إلى جبل صهيون لإعادة بناء الهيكل .
(٢٠ ق.م)	إعادة بناء الهيكل .	بناه هيرودوس .
(١ م)	النبي عيسى .	أرسل إلى اليهود ، وتعد رسالته مكملة لرسالة موسى .
(٤٣م)	الماسونية (البناؤون الأحرار) .	منظمة سرية أسسها الملك الروماني هيرودس أكريبا بمساعدة مستشارين يهود ، عملت على تنفيذ مخططات اليهود بطرق سرية لا ترعى ذمة ولا عهدًا .
(٧٠م)	هدم الهيكل .	الرومان بقيادة تيطس .
(١١٨ - ١٦٠٠م)	قامت حركات صهيونية عديدة .	بهدف تحريض اليهود على العودة إلى أرض الميعاد .
(١٦٠٤ - ١٦٥٧م)	حركة منشة بن إسرائيل .	توظيف نفوذ بريطانيا لتحقيق عودة اليهود .

(١٦٤٨م)	يهود الدونمة .	أظهروا الإسلام ولكن ظلوا على دينهم واستغلوا الفرصة لنشر فكرة العودة إلى أرض الميعاد .
(١٨٧٤م)	شهود يهوه .	منظمة يهودية عالمية سرية تعمل على إقامة دولة لليهود تسيطر على العالم .
(١٨٩٧م)	تأسيس الحركة الصهيونية الحديثة .	على يدي تيودور هرتزل .
(١٨٩٨م)	مؤتمر بال في سويسرا .	أول مؤتمر صهيوني عالمي قرر إقامة دولة لليهود في فلسطين .
(١٩٠٥م)	الروتاري .	مجموعة نواد يهودية تشكل منظمة سرية تعمل على تحقيق أهداف اليهود في السيطرة على العالم .
(١٩٠٩م)	طرح قضية هجرة اليهود المتزايدة إلى فلسطين	طرحها النواب العرب في البرلمان العثماني .
(١٩١١م)	تشكيل طلائع التنظيمات السياسية العربية المناهضة للصهاينة .	في فلسطين .
(١٩١٧م)	الليونز .	مجموعة نواد يهودية تشكل منظمة سرية تعمل على تحقيق أهداف اليهود للسيطرة على العالم .
(١٩١٧م)	الانتداب البريطاني على فلسطين .	
(١/ ١١/ ١٩١٧م)	وعد بلفور بإقامة دولة لليهود في فلسطين .	أصدره وزير الخارجية البريطاني بلفور .
(١٩١٩م)	أول مؤتمر عربي لمناقشة القضية .	كان البداية لانطلاق الجهاد ضد الانتداب البريطاني على فلسطين .
(١٩٢٥م)	انطلاق حركة عز الدين القسام .	بداية الحركات الجهادية في فلسطين .
(١٩٤٥م)	وقف هجرة اليهود إلى فلسطين .	أعلنته بريطانيا لكنه لم ينفذ عملياً .

(١٩٤٧م)	صدر قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود وتدويل مدينة القدس .	الأمم المتحدة .
(١٩٤٨م)	الحرب الأولى بين العرب واليهود .	أسفرت عن إعلان قيام دولة إسرائيل .
(١٩٥٦م)	الحرب الثلاثية ضد مصر .	في أعقاب إعلان مصر تأميم قناة السويس ، شاركت فيها (إسرائيل) إلى جانب فرنسا وبريطانيا .
(١٩٦٤م)	تأسيس حركة التحرير الفلسطينية (فتح) .	بدأت جولة جديدة من الكفاح المسلح ضد الصهاينة في فلسطين .
(١٩٦٧م)	حرب الأيام الستة .	شاركت فيها مصر وسوريا والأردن ، وأسفرت عن احتلال الصهاينة صحراء سينا ومرتفعات الجولان والضفة الغربية .
(١٩٧٣م)	حرب رمضان (حرب التحرير ، حرب تشرين) .	قادها مصر وسوريا وأسفرت عن تحرير سينا بعد مفاوضات عسيرة .
(١٩٧٩م)	اتفاقية كامب دافيد .	بين مصر وإسرائيل .
(٧/ ١/ ١٩٨٧م)	الانتفاضة الفلسطينية الأولى .	عرفت بانتفاضة أطفال الحجارة .
(١٩٩١م)	مؤتمر مدريد للسلام .	عقد في أعقاب حرب الخليج (١٩٩٠م) وشاركت فيه الدول العربية المعنية بالصراع العربي الصهيوني ، بهدف تسوية هذا الصراع .
(١٩٩٢م)	تصالح منظمة التحرير وإسرائيل .	جرت مفاوضاتها السرية في مدينة أوسلو .
(٤/ ٥/ ١٩٩٤م)	اتفاقية الحكم الذاتي في غزة وأريحا .	وفي يوم (١/ ٧/ ١٩٩٤م) دخل الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات غزة وتسلم مقاليد الحكم الذاتي .
وما زال الصراع مستمرًا		

تاريخ المسيحية

يبدأ تاريخ المسيحية بولادة نبي الله عيسى ﷺ ويسميه المسيحيون (يسوع المسيح) وهما كلمتان عبريتان تعني أولاهما (المخلّص) وتعني الثانية (المسح للتقديس) وهذ المسح كانوا يفعلونه لتكريس الأحبار وتتويج الملوك وقد ولد المسيح بمدينة (بيت لحم في فلسطين ، وبميلاده بدأ التاريخ المسيحي أو التاريخ الميلادي الذي أصبح فيما بعد تاريخ عالميًا ، وقد كانت ولادته معجزة من معجزات الله ﷻ ، إذ ولد من السيدة مريم العذر عليها السلام بغير أب ، وقد عاش المسيح فترة عصيبة من تاريخ الشعب اليهودي الذي كان يسام سوء العذاب على أيدي الحكام الرومان إبان احتلالهم لفلسطين ، ولما بُعث المسيح ﷺ رسولًا من عند الله كان في الثلاثين من عمره ، ولم تستمر دعوته سوى ثلاث سنوات ؛ لأن الرومان الوثنيين أرادوا أن يقتلوه ويتخلصوا منه ومن أتباعه ومن دعوته لدين التوحيد ، لكن الله رفعه إليه ونجاه منهم ومن كيدهم

وبالرغم من أن عيسى ﷺ هو النبي المعتبر عند المسيحيين إلّا أن هناك شخصية أخرى احتلت عندهم مكانة خاصة جدًا ، وهي شخصية (القديس بولس)الذي ولد في طرسوس بتركيا القديمة ، وعاش في الفترة ما بين (٥ ـ ٧٠م) ، ويعتبره أرباب الكنيسة من أعظم رجالات التاريخ المسيحي ، وهم يعظمونه كثيرًا ويطلقون عليه وصف (بولس الرسول) أو رسول الأمم ، واسمه الأصلي (شاؤول) ، وهو روماني الأصل ، نشأ سلالة يهودية متزمتة ، درس اللغة العبرية في شبابه وتلقى علومه في القدس متلمذًا على يد الحاخام الشهير (جاليل)



(بولس ، لوحة للفنان الهولندي رمبرانت)

وعلى الرغم من أنه زار القدس في زمن المسيح فإنه لم يلتق به ، وقد ساهم باتهام أتباع المسيح بالزندقة قبل أن يتحول هو إلى المسيحية ، وعرَّض الكثيرين منهم للتعذيب والموت ، ولهذا اختاره رئيس الكنيس اليهودي في عام (٣٥م) لمقاومة المسيحيين في دمشق ، وفي طريقه إلى هناك (كما يذكر هو في كتاباته في العهد الجديد) زعم أنه رأى يسوع المسيح الذي عاتبه على اضطهاده الشديد للمسيحيين ، ودعا عليه المسيح فأصيب بالعمى ، فكانت هذه الحادثة المزعومة نقطة تحول في حياته ، فإنه لما وصل إلى دمشق أعلن دخوله في المسيحية ، ونزل عند بعض المسيحيين وانخرط في جماعتهم ، وغير اسمه من شاؤول إلى بولس ، وأصبح من أنشط المبشرين بالمسيحية في القرون الأولى .

وبعد ذلك أخذ يطوف مع لفيف من أتباعه في المنطقة العربية واليونان واعظًا ومؤسسًا للكنائس حيث حلَّ ، مما أثار حفيظة اليهود ضده ، فقبضوا عليه في مدينة القدس (أورشليم) عام (٥٧ م) بتهمة التحريض ، وسجنوه لمدة عامين ، ثم أرسلوه إلى روما حيث سجن عامين آخرين قبل أن يحاكم ويبرَّأ من التهم التي وجهت إليه ، فلما أفرجوا عنه عاد من جديد يُبَشِّرُ بالمسيحية في جزيرة أقريطش ، لكنه لم يلبث أن قبض عليه ثانية وسيق إلى روما حيث حكم عليه بالإعدام وصلب وقطع رأسه بالسيف .

ومما هو جدير بالذكر أن بولس قد ألَّف من (العهد الجديد) أربعة عشر سفرًا ، مما كان له أثر عميق في تبديل أصول الشريعة المسيحية ، وتحريفها عن التوحيد ، فهو أول من قال بألوهية المسيح ﷺ ، وهو الذي ابتدع فكرة (المُخَلِّص) التي تزعم أن كل من آمن بألوهية عيسى فإن عيسى يشفع له ويخلصه من النار يوم القيامة ، وهكذا كان أثر بولس في المسيحية حاسمًا ، ويرى معظم الباحثين أنه هو الذي حوَّل المسيحية من مجرد طائفة يهودية إلى ديانة كبرى ، وأنه هو المسؤول الأول عن عبادة المسيح وتأليهه ، بل إن بعضهم يرون أنه هو الذي أقام المسيحية وليس المسيح .

الإنجيل :

وهو الكتاب الذي أنزل على عيسى ﷺ ، والإنجيل كلمة يونانية الأصل تعني (البشارة) ، وهناك عدد من الأناجيل التي تعترف بها الكنائس المختلفة وليس إنجيلًا واحدًا ، ويعود تاريخ تدوينها إلى فترات مختلفة من القرن الأول لميلاد السيد المسيح ﷺ ، وهي :

١- إنجيل متّى : ومتّى هو أحد حواريي السيد المسيح الإثنى عشر ، وقد دوّن هذا الإنجيل باللغة الآرامية ، إلّا أنّ أقدم نسخة عثر عليها منه وجدت مكتوبة باللغة اليونانية ، وهذا الإنجيل هو أول كتب العهد الجديد ، ويعود تاريخه إلى الثلث الثاني من القرن الأول أي إلى ما قبل السنة السبعين ، وقد حاول متّى في هذا الإنجيل إظهار يسوع ﷺ بصورة المسيح الموعود لإسرائيل ، لكنه لم يفسر معنى الأعياد والعادات اليهودية الواردة فيه ؛ لأنه افترض أن قراءه يعرفونها .

٢- إنجيل مرقس : وهو ثاني كتب العهد الجديد ، وهو أبسط وأصغر الأناجيل ، ويرى معظم المؤرخين أنه الإنجيل الأول الذي دوّن حوالي السنة السبعين ، وهو يروي حياة المسيح منذ تعميده حتى آلامه وقيامه ، ويقال إن السيد المسيح ﷺ قد اختار مرقس من بين الحواريين السبعين الذين أرسلهم لنشر المسيحية في الأمصار ، وقد نشط مرقس في أنطاكية وشمال أفريقيا ومصر وروما ثم قتل في عام (٦٢م) .

٣- إنجيل لوقا : ولوقا هو طبيب أو مصوّر من أصل يهودي ، كان مرافقًا لبولس في حله وترحاله ، وهو ليس من تلاميذ المسيح ﷺ ، وإنجيله هو الكتاب الثالث في العهد الجديد ، وقد دوّنه في أواخر القرن الأول باللغة اليونانية خِصِّيصًا للأثينيين لتعريفهم برحمة المسيح الشاملة ، وهذا الإنجيل هو الوحيد الذي يتحدث عن ولادة المسيح إلى جانب حديثه عن صلبه وبعثه ، وفيه نصوص لم ترد في الأناجيل الأخرى ، وهو يفسر ويشرح طقوس وعادات وأعياد اليهود .

٤- إنجيل يوحنا : ويوحنا أو يحيى هو من حواري عيسى ﷺ ، كان ابن صياد ، وزعم بعض المؤرخين أن المسيح ﷺ كان يحبه حبًّا جمًّا ، وزعم آخرون أنه شخصية مجهولة ، وإنجيل يوحنا هو الكتاب الرابع من العهد الجديد ، وهو يختلف عن الأناجيل السابقة في مادته وتعاليمه ، إذ يورد خطابات مطولة ؛ لأن يوحنا عمّر طويلًا ، ويبدو أنه أراد إضافة الجديد إلى ما ورد في الأناجيل التي سبقته ، وأن يوضح التأويلات الخاطئة المستمدة من التعاليم اليهودية والفلسفة اليونانية ، لكنه قال بعقيدة التثليث وألوهية المسيح في ذلك الوقت المبكر من تاريخ المسيحية .

٥- إنجيل برنابا : ويعرف برنابا هذا بابن الواعظ ، وقد اشتهر بالطهر والعفاف ، وأول نسخة اكتشفت من هذا الإنجيل في مكتبة (البابا سكتس الخامس) في روما ، ويمتاز هذا

الإنجيل بأنه أقرب الأناجيل إلى القرآن الكريم ، فهو يقول بالتوحيد ، ويبشر بنبوة محمد ، ولا يقول بصلب المسيح ، ويعتبره نبيًّا مثل بقية الأنبياء عليهم السلام .

وتوصف الأناجيل الثلاثة الأولى باسم (الأناجيل المتوازية) لتقاربها ، وتسمى مشكلة صلات هذه الأناجيل الثلاثة بعضها مع بعض (المشكلة المتوازية) ، ومؤداها أن إنجيل متى ولوقا يحويان مواد غير موجودة في إنجيل مرقس ، وقد بذلت محاولات عديدة لحل هذه المشكلة ، ولكن دون جدوى .

وهناك خلاف بين المؤرخين حول من دوَّن هذه الأناجيل ؟ ومن ترجمها ؟ وأقدم إنجيل مكتوب يوجد اليوم بين أيدينا هو المسمى (كودكس فاتيكانوس) ويعود تاريخه إلى عام (٣٥٠م) ، وقد كتب باللغة اليونانية ، وهو محفوظ حاليًّا بمتحف الفاتيكان في روما ، ويشير تعدد هذه الأناجيل واختلاف نصوصها بعضها عن بعض إلى أنها ليست من إملاء السيد المسيح ﷺ ، وليست هي الإنجيل الذي أنزل على عيسى ﷺ ، كما أن تعدد الأشخاص الذين تنسب إليهم يدل على تدخل الجهد البشري فيها واختلاط النص السماوي بالفكر البشري اختلاطًا يتعذر الفصل فيه ، ويعتبر تعدد الأناجيل سببًا من الأسباب الرئيسية لانقسام الكنائس وتعدد الطوائف المسيحية .

طبيعة المسيح :

ومع مرور الوقت ، بدأ المطارنة يأخذون المزيد من السلطة الكنسية ، وبدأت تظهر طقوس جديدة في النظام الكنسي ، وأصبح (البابا) في روما رئيسًا للكنائس كلها ، وكانت أول مشكلة واجهت المسيحية منذ القرن الثاني هي عدوى الأفكار الوثنية التي حرفت الدين المسيحي عن أصول التوحيد ، ففي عام (١٤٤م) ظهرت نزعة سميت (المارسونية) نسبة إلى مؤسسها مارسيون ، وهي نزعة ناهضت الكاثوليكية بقوة ، وقالت بالطبيعة الثنائية للمسيح التي تقول بها الكاثوليكية ، ولكنها تنكر صورة الإله التي وردت في (العهد القديم) ؛ لأن العهد القديم يصور المسيح بصورة شخص قاسي القلب عنيف لا يتورع عن البطش والتنكيل بمن حوله ، وقد غالى مارسيون بالتقشف ، واتخذ كنيسة خاصة بمذهبه اجتذب إليها عددًا كبيرًا من الأتباع من مختلف المذاهب المسيحية .

كما أثر مارسيون في نزعة أخرى هي (المانوية) حتى اندمج مذهب بمذهبها ، والمانوية أو المثانية كما ذكر (ابن النديم)[1] في كتابه (الفهرست) ، ديانة تنسب إلى ماني بن فتك المولود في عام (٢١٦م) في بابل ، وقيل إن الوحي أتاه وهو في الثانية عشر من عمره ، وقد حاول إقامة صلة بين ديانته والديانة المسيحية والبوذية والزرادشتية ؛ ولذلك فهو يعتبر كلًّا من بوذا وزرادشت ويسوع أسلافًا له ، وقد كتب ماني عدة كتب من بينها إنجيله الذي أراده أن يكون نظيرًا لإنجيل عيسى ، وأتباع المانوية هم أول من تعارف عليهم بلقب الزنادقة .

وفي القرنين الثاني والثالث ظهرت النزعة الغنوصية (*Gnosticism*) التي تعني المعرفة السريَّة لله ، التي يدَّعي أتباع هذا المذهب امتلاكها ، وقد نشأت الغنوصيَّة عن خليط من مذاهب التصوف اليهوديَّة والثنائية الزرادشتية والاتجاهات الفلسفية الأفلاطونية ، وقد أفسدت هذه الجماعات روح الديانة المسيحيَّة التي تقوم أساسًا على التوحيد ، وجوهر الغنوصية يقوم على أسطورة الخلاص من الخطيئة عن طريق المعرفة ، فتطهير النفس يحصل بمعرفة أن النفس تعود إلى أصل إلهي ، وطريق الخلاص من الخطيئة يكون بالعودة إلى ذلك ، وهذا لا يحصل بالعلم وقراءة الكتب المقدسة ، بل بالكشف الذي يضيء في قلب الإنسان فيهديه إلى طريق الخلاص .

وفي الفترة ما بين عامي (٢٥٠ ـ ٥٥٠م) انشغلت الكنيسة الشرقية بمناقشات حادة حول طبيعة المسيح اللاهوتية والناسوتية ، وعقدت عدة مجامع للبت في هذه القضية التي تمخضت عن انشقاقات كبيرة بين المسيحيين أدت إلى ظهور مذاهب شتى في المسيحية ، منها : الأريوسية والنسطورية والمونوفيسية والمونوتيلية ، كما أسفرت تلك المناظرات عن ظهور (قانون الإيمان) في مجمع نيقية الذي حدد صورة رسمية للعقيدة المسيحية ، وقد صدر هذا القانون من خلال مجمع نيقية الذي عقد بدعوة من الإمبراطور قسطنطين عام ٣٢٥

---

(١) ابن النديم ، محمد بن إسحاق بن يعقوب النديم البغدادي (الورَّاق) ، لا يعرف على وجه اليقين متى ولد ومتى توفي ، لكنه عاش في القرن الرابع الهجري ، ونشأ في بيت علم وفكر ، وكان أبوه وراقًا يتعامل مع العلماء والفلاسفة وينادمهم حتى لقب بالنديم ، وكان ابن النديم مثل أبيه حسن العِشرة كثير السهر مع الإخوان والخلان يألف ويؤلف بسرعة ، وقد اكتسب كتابه (الفهرست) أهمية كبيرة ؛ لأنه احتوى صنوف المعرفة الإنسانية التي كانت معروفة في عصره ، وهو أول عمل ببليوغرافي في اللغة العربية ، وقد قسمه إلى عشرة أقسام تحدث فيها عن اثنين وثلاثين فنًّا ؛ وبذلك يعد مرآة حقيقية على ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في ذلك العصر .

في القسطنطينية ، وشارك في هذه المجمع أكثر من ألفين من رجال الكنيسة من مختلف أنحاء الإمبراطورية ، وانتهى إلى التأكيد على ألوهية عيسى ابن مريم ﷺ ، بالرغم من أنه لا يوجد نص واحد في الإنجيل يصرح بهذه الفرية ، وبهذا دخلت الكنيسة متاهة الإشراك التي لم تعد باستطاعتها أن تخرج منها .

المجامع الكنسية :

ونظرًا للخلافات العَقَدية الحادة التي ثارت بين المسيحيين فقد تنادى أرباب الكنيسة لعقد اجتماعات للتشاور فيما بينهم لحل هذه الخلافات ، وقد سميت هذه الاجتماعات بالمجامع الكنسية ، وهي مجالس تشاور كانت تعقد بين الحين والآخر من أجل سَنّ القرارات والقوانين التي تنظم أعمال الكنسية وإصدار الفتاوى الخاصة بالعقيدة المسيحية ، وقد أصبحت القرارات التي صدرت عن تلك المجامع أساسًا للعقيدة المسيحية ، وهي قرارات لا تصبح نافذة إلَّا بعد إقرارها من بابا الفاتيكان .

وقد عقد في تاريخ الكنيسة أكثر من عشرين مجمعًا مسكونيًّا حتى الآن ، وتعترف مختلف الكنائس بقرارات هذه المجامع إلَّا الأرثوذكس فإنهم لا يعترفون إلَّا بقرارات للمجامع السبعة الأولى منها ، وكان أول تلك المجامع (مجمع نيقية) الذي انعقد عام (٣٢٥م) بدعوة من الإمبراطور قسطنطين ؛ لمواجهة ما يقول به (أريوس) [1] : من أن المسيح ليس إلهًا بل إنسانًا ، وقد حضر أريوس هذا المجمع وكان معه مؤيدون كثيرون على رأسهم أثناسيوس ، إلَّا أن المجمع في النهاية أصدر قانونًا أطلق عليه اسم (قانون الإيمان) الذي نصَّ صراحة على أن الابن مساوٍ للأب في الجوهر ، أي أن المسيح إله وليس بشرًا .. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

---

(١) أريوس (٢٥٦ ـ ٣٣٦م) : كاهن من الإسكندرية ، تلقى تعليمه اللاهوتي في أنطاكية في مدرسة لوكيانوس ، وعندما ذهب إلى الإسكندرية خدم فيها إلى جانب البابا بطرس بابا الإسكندرية ، وكان آريوس ذا موهبة في الخطابة ، فصيحًا بليغًا قادرًا على توصيل أفكاره بسلاسة إلى العامة والمفكرين ، نشر أفكاره عن المسيح مستغلًّا مركزه إلى جانب البابا ، وقد اعتقد أن المسيح ليس إلهًا لكنه مولود من الله ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ كما اعتقد أن علاقة المسيح مع الله هي علاقة بنوة وليست مساواة أو مشاركة في ذات الطبيعة الإلهية ، وعلى هذا فالمسيح ليس أزليًّا بل مخلوقًا خاضعًا لله .

وتدل الدراسات المقارنة على أن هذه العقيدة المنحرفة جاءت من الفلسفة الأفلوطينية الحديثة التي أسسها في الأصل الفيلسوف الإغريقي (أفلوطين) [١] ، وتعود جذورها إلى الفلسفة الشرقية القديمة ، وهي تقوم على نظرية (الفيض) التي تزعم أن الله فاضت عنه المخلوقات ، وأن الإنسان الكامل هو الذي يتحقق وجوده باندماجه مع الله ومعرفته لله بالشهود المباشر [٢] .

(الجدول ـ ١٦) أهم المجامع المسكونية التي عقدت في تاريخ الكنيسة

المجمع	التاريخ
نيقية .	(٣٢٥م)
القسطنطينية ١ .	(٣٨١م)
أفسس الأول .	(٤٣١م)
خلقدونية .	(٤٥١م)
القسطنطينية ٢ و ٣ .	(٥٥٣ و ٦٨٠م)
القسطنطينية ٣ .	(٦٨٠م)
نيقية الثاني .	(٧٨٧م)
القسطنطينية ٤ .	(٨٦٩م)
لاتيران ١ و٢ و٣ و ٤ .	(١١٢٣م و ١١٣٩م و ١١٧٩م و ١٢١٥م)
ليون ١ و ٢ .	(١٢٤٣ و ١٢٧٤م)
فينا .	(١٣١١م)
كونستانس .	(١٤١٤م)
بازل وفرارا .	(١٤٣١م)
فلورنسا .	(١٤٣٨م)
لاتيران ٥ .	(١٥٢٢م)

(١) أفلوطين (٢٠٥ ـ ٢٧٠م) : فيلسوف أصله إغريقي ، ولد في أسيوط بمصر ، وإليه ينسب تأسيس الأفلوطونية الجديدة ، وقد تأثر بفلسفة الهند وفارس ، وقال بنظرية (الفيض) وقد ترك مؤلفه الشهير (التاسوعات) الذي تأثر به كثير من الفلاسفة والمتصوفة المسلمين ، ولا سيما بنظريته في الفيض الإلهي .

(٢) انظر : عبد الرحمن بدوي (الموسوعة الفلسفية) (١/ ١٩٠ ـ ٢٠٩) .

ترنت .	(١٥٤٥م)
الفاتيكان .	(١٨٦٩م)
جاكرتا .	(١٩٦٧م)

وقد عقد المجمع المسكوني الأول في عام (٣٨١م) في مدينة القسطنطينية ، وقرروا فيه بأن الروح القدس (= جبريل عليه السلام) إله ، وبهذا اكتمل الثالوث النصراني (الأب ، الابن ، الروح القدس) ، ثم عادوا عام (٤٣١م) في (مجمع أفسس الأول) فقالوا : إن للمسيح طبيعتين لاهوتية (=إلهية) وناسوتية (=بشرية) ، وقرروا أن السيدة (مريم العذراء) والدة عيسى عليهما السلام يمكن أن يطلق عليها وصف (والدة الإله) بما أن المسيح هو (كلمة الله) وأكدوا ثانية على هذه الصفات للمسيح في (مجمع خلقدونية) الذي انعقد عام (٤٥١م) وقرروا فيه نهائيًا أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين .

أمَّا (مجمع ترنت) الذي عقدوه في عام (١٥٤٥م) فقد دارت محاوره الأساسية حول الإصلاح الكاثوليكي ، وإصلاح الفاتيكان وإعادته إلى حياة التقشف ، وتنظيم إدارة الكنيسة وطرق العبادة ، وتحديد الشروط العلمية والفضائل التي يجب أن يتحلى بها الكهنة ، وفي (مجمع الفاتيكان) الذي عقدوه عام (١٨٦٩م) قرروا (عصمة البابا) حين يتحدث عن شؤون العقيدة أو الأخلاق .

أمَّا (مجمع جاكرتا) الذي عقدوه عام (١٩٦٧م) في أندونيسيا فقد خصصوه لترقيع ميثاق موحد بين مختلف الطوائف المسيحية للتحالف على مواجهة المسلمين بكلمة واحدة في الاجتماعات والمحافل الدولية ، وفي عام (١٩٤٨م) وجد أرباب الكنائس ضرورة توحيد جهودهم فشكلوا (مجمع الكنائس المسكوني) الذي أعلن عنه رسميًا في مدينة أمستردام عاصمة هولندا ، وشارك فيه مندوبون يمثلون زهاء ١٥٠ طائفة بروتستانتية وكاثوليكية منتشرة في ٤٤ بلدًا .

حركات الانشقاق والإصلاح الكنسي :

لقد تميَّز في تاريخ المسيحية نوعان من الكنائس ، كنائس صار لها تقاليد على مرِّ العصور إلَّا أنها بين الحين والآخر لا تجد حرجًا من إدخال بعض التعديلات عليها ، وعلى رأسها الكنيستان الكاثوليكية والأرثوذكسية وهما أهم وأكبر كنيستين في تاريخ المسيحية وأكثرها

أتباعًا ، وهنالك بالمقابل كنائس أصولية مُصلحة تحاول العودة بأتباعها إلى ما كانت عليه المسيحية الأولى ، وتمثلها على وجه الخصوص الكنيسة البروتستانتية ، علمًا بأن معظم هذه الكنائس قد نشأ وانتشر في بلاد الغرب بعيدًا عن مصدر المسيحية الأول ، وتعد الكنيسة القبطية التي أسسها القديس مرقس في الفترة (٦٢ ـ ٨٢م) أقدم الكنائس المسيحية ، ولهذا فهي تلقب باسم (الكرازة المرقسية) نسبة إليه ، وأول أسقف لها هو (أثانيوس) الذي بنى أول كنيسة قبطية في الإسكندرية اشتهرت في القرون الثلاثة الأولى بمدرسة الإسكندرية اللاهوتية ، وإلى الكنيسة القبطية يرجع تأسيس نزعة (الرهبنة) في المسيحية ، وقد انتشرت هذه النزعة بين المسيحيين في الفترة ما بين عامي (٢٥٠ ـ ٣٠٠م) وأصبحت تقليدًا هامًّا من تقاليدهم ، وقد نظمها في الشرق القديس (باسيليوس)[1] ، وجعل لها تقاليد وطقوسًا خاصة بها ، أمّا في الغرب فقد تبناها ودعا إليها (القديس مارتان)[2] في القرن الرابع ، ولكنها لم تأخذ صورتها النهائية إلّا بعد سنوات طويلة على أيدي القديسين بنديكتوس ، وغريغوريوس الكبير .

وقد مرت الكنائس المسيحية بفترات من الاضطهاد والتنكيل من قبل الحكام ، وبخاصة في الفترة ما بين عامي (٧٥ ـ ٢٥٠م) واستشهد عدد كبير من المسيحيين بسبب رفضهم تأليه الحكام إلى أن أعلن كل من قسطنطين الأول وليكينيوس في عام (٣١٣م) التسامح الديني مع المسيحيين بإصدار (مرسوم ميلان) الذي يقضي بمنحهم الحرية في الدعوة والترخيص لديانتهم ومساواتها بغيرها من ديانات الإمبراطورية الرومانية ، وشُيِّد لهم الكنائس .

---

(١) باسليوس : واحد من أبرز القديسين الذين ظهروا في القرن السادس عشر ، ولد في روسيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر أثناء حكم الأمير إيفان فاسيليفيش ، وكرّسه والداه يعقوب وحنا لخدمة الكنيسة ، وخصصت الكنيسة الروسية له عيدًا في الثاني من آب من كل عام .

(٢) القديس مارتان : تعده الكنيسة مجد بلاد الغال ، عاش في القرن الرابع الميلادي ، كان من أهل سابارنا ***Sabaria*** إحدى مدن بانونيا ***Pannonia*** ، وكان والداه وثنيين ، وكان أبوه ضابطًا فألحقه بالجيش وهو في الخامسة عشرة من عمره ، ولما بلغ العشرين حدث هجوم من البربر على الغال ، فقال مارتان لقيصر : لقد خدمتك جنديًا فدعني الآن أخدم المسيح ، فإني جندي له ولا يليق بي أن أذهب للحرب ! فثار عليه القيصر واتهمه بالجبن وألقاه في السجن ، وبعد الحرب أطلق سراحه ، فعاد إلى بانونيا حيث عمل بالتبشير ، فقاومه الأريوسيون وجلدوه واضطروه إلى ترك المدينة ، وفي عام (٣٧١م) عين أسقفًا على أهل تور ***Tours*** ، عارض المطالبين بإعدام الهراطقة وطلب الاكتفاء بإعلان هرطقتهم وحرمانهم بواسطة أساقفتهم ، توفي سنة (٣٩٧م) .

وفي الفترة ما بين (١٣٣٨ ـ ١٤١٧م) حصل الانشقاق الكبير في الكنيسة الكاثوليكية التي دارت أحداثه في أفنيون بفرنسا في أعقاب ضغط الشعب على الكرادلة لانتخاب أوربان السادس ، إلّا أن الكرادلة لم يلبثوا أن أعلنوا أن انتخابه باطل ؛ لأنه حصل نتيجة الضغط ، واختاروا بابا آخر هرب إلى أفنيون ، فأصبحت البابوية مزدوجة ، فقد أيد فريق من النصارى بابا روما ، بينما أيد فريق آخر منهم بابا أفنيون ، ولم يلتئم هذا الصَّدع الكبير إلّا بعد انعقاد مجمع كونستانس في عام (١٤١٧م) وانتخاب مارتان الخامس بابا للكنيسة الغربية ، ويختلف هذا الانشقاق عن انشقاق الكنيسة الشرقية إلى كاثوليكية وأرثوذكسية .

وقد شهد تاريخ المسيحية حركات إصلاح عديدة بدأت منذ العام (١٣٥٠م) في أوروبا بهدف إصلاح الكنيسة الكاثوليكية بعد أن تسربت إليها آفات عديدة ، واستشرى الفساد في الزعماء الروحيين القائمين عليها ، مثل : الاتجار بالوظائف الدينية والميل إلى الدنيا وملذاتها وفساد الكهنوت ، وارتفعت أصوات عديدة ضد هذا الفساد ، إلّا أن المال والسلطان الذي كان يتمتع به أرباب الكنيسة حالا دون الإصلاح في أول الأمر .

وفي أواسط القرن الرابع عشر قاد اللاهوتي الإنكليزي جون ويكلف (١٣٢٠ – ١٣٨٤م) أولى حركات الإصلاح الديني ، فهاجم الكنيسة الكاثوليكية بمعتقداتها وممارساتها ، ودعا رجال الدين المسيحي للتخلّي عن ممتلكاتهم وأموالهم ، وأنكر سلطة البابا التي رأى أنها تتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس ، وبالرغم من أنه اتهم بالهرطقة من قبل الكنيسة فإن حركته وجدت صدى واسعًا ، وتبعه ظهور جماعات عديدة تنادي بالإصلاح ، منها حركة بزعامة جون هوص في بوهيميا ، وكان من أسباب ظهور هذه الحركات النزاع الحاد الذي بدأت بوادره ما بين الحكومات والكنيسة ، أي السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، وقد ظهر النزاع بصورة سافرة في ألمانيا بين الأمراء والإمبراطور .

وفي مطلع القرن السادس عشر ، بدأ الإصلاح بخطوات عملية على يدي الداعية مارتن لوثر كنج (١٤٨٣ـ ١٥٤٦م) الذي علق في يوم (٣١/ ١٠/ ١٥١٧م) قضاياه الخمس والتسعين على باب كنيسة ويتبرج ، ردًا على الحملة التي قادها يوهان تيتزل لبيع (صكوك الغفران) .



(داعية الإصلاح الكنسي مارتن لوثر كنج)

وفي أعقاب ذلك بدأت الحملة العلنية لمهاجمة العقائد والسلطة الكنسية ، وتتلخص دعوة لوثر على أن التبرير يعتمد على الإيمان فقط لا على الأسرار المقدسة أو وساطة الكنيسة ، وقد أدى رفض لوثر الإذعان للبابا وعجز (مجمع ورمز) عن تسوية الخلاف إلى الانفصال العلني عن الكنيسة في عام (١٥٢٠م) ، ولاقت دعوة لوثر قبولًا واسعًا ، وانتشرت دعوته في ألمانيا والبلدان المجاورة بسرعة كبيرة ، واشتد النزاع بين الطرفين ولم يهدأ بالرغم من المجامع العديدة التي عقدت من أجل ذلك .

وفي الفترة بين (١٥٢٦ ـ ١٥٥٥م) انقسم البروتستانت إلى لوثريين ومصلحين ، وبهذا ظهرت الكنيسة اللوثرية التي تتبع تعاليم مارتن لوثر ، وأهم ما فيها التبرير بالإيمان ، وأن المعمودية ضرورية للتجديد ، ولكنها لم تحدد طريقة خاصة لها ، وأما عن شكل العبادة فقد اختار لوثر بقاء المذابح ، والملابس الكهنوتية ، كما أعد نظامًا خاصًا للخدمة الكنسية يرتكز على طقس مميز يعطي مكانة مهمة للوعظ والترانيم الدينية الجماعية .

وفي عام (١٥٢٩م) جرى حوار ومجادلة في مدينة ماربورج من أجل حلّ الخلاف بين أتباع الحركة البروتستانتية التي يقودها لوثر ، ولا سيما الخلاف حول سرّ العشاء الربّاني ، وانتشرت أفكار اجتماعية ودينية متطرفة من قبل الأنابيست وبعض الزعامات الدينية أمثال كارلشتد وتوماس مونزر وجون الليدني ، ولكن دون جدوى .

وفي عام (١٥٣٦م) برزت أعظم الأمور خطورة في تاريخ المسيحية عندما غدت جنيف مركزًا لتعاليم جون كلفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م) الذي يعتبره كثير من المسيحيين من أعظم الرجال في حركة الإصلاح الكنسي ، وقد ذهب كالفن إلى عدم الاعتراف بسلطان

البابا ، وقبول فكرة التبرير بالإيمان فقط ، وتنظيم عقيدة القضاء المحتوم ، كما آمن كلفن بأن الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد لشريعة الله ونواميسه ، وأن من واجب الإنسان أن يفسر تلك الشريعة ويحافظ على النظام في العالم ، وقد كافح كلفن لتحقيق هذه المبادئ في جنيف بجعل الحكومة تعتمد على شريعة الله دون سواها وانتشرت الكلفنية على نطاق واسع ، وهي النظام المتبع في الكنائس البروتستانتية المعروفة بالكنائس المُصلحة للتمييز بينها وبين الكنائس المتمسّكة بالعقائد اللوثرية ، ولعلَّ أهمَّ ما يميِّز الكلفنية الاعتقاد بقضاء الله الأبدي ، وأن الخلاص يتم للمُختارين فقط ، وهو عطية من الله تعالى ولا يكتسب بالأعمال الصالحة .

وفي عام (١٥٣٤م) وقَّع (الملك هنري الثامن) [1] قرار السيادة الذي رفض فيه سلطة البابا ، وأوجد كنيسة إنجلترا وجعلها الكنيسة الرسمية للدولة ، وقد كان للأفكار الكلفنية والإنجيلية تأثير قوي في إنجلترا ، فقد أثرت على حركة الإصلاح هناك ، كما أن الانقسامات التي حصلت بين الكنائس البروتستانتية في أوروبا ساعدت على قيام حركات إصلاح مضادة في الكنيسة الكاثوليكية ، وفي عام (١٥٩٨م) أصدر ملك فرنسا هنري الرابع (مرسوم نانت) الذي يحدد حقوق الفرنسيين البروتستانت ، ويمنح حرية الضمير وحقَّ العبادة للجميع ، لكن هذا المرسوم أُلغي من قبل لويس الرابع عشر في عام (١٦٨٥م) .



(الملك هنري الثامن)

---

[1] هنري الثامن (١٤٩١ - ١٥٤٧م) : هو ابن الملك هنري السابع ، ينتمي إلى أسرة تيودور ذات الأصول الويلزية ، تُوج ملكًا على إنكلترا في الفترة بين (١٥٠٩ - ١٥٤٧م) وملكًا على أيرلندا في الفترة (١٥٤١ - ١٥٤٧م) وساهم حكمه المركزي القوي بترسيخ السلطة الملكية في إنكلترا .

وفي عام (١٨٤٤م) تشكل (اتحاد الكنائس العالمي) بهدف توحيد الكنائس البروتستانتية أولًا ثم المسيحيين في العالم أجمع ، وقد تمخَّض عن هذا الاتحاد تشكيل جمعية الشبان المسيحيين ، وجمعية الشابات المسيحيات ، وبعد قرن من الزمان أي في العام (١٩٤٨م) تشكل (مجمع الكنائس المسكوني) في مدينة أمستردام بهولندا ، وحضره مندوبون يمثلون (١٥٠) طائفة بروتستانتية وأرثوذوكسية في (٤٤) دولة ، وليس لهذا المجمع سلطة تشريعية على الكنائس الأعضاء فيه ، لكنه يتيح الفرصة لأعضائه كي يتعاونوا في أنشطة التنصير في شتى أنحاء العالم ، وتقديم المساعدات الكنسية المشتركة ، والبحث معًا في القضايا الدولية ، وإذكاء روح الوعي المسكوني بين الكنائس الأعضاء .

وفي عام (١٩٢٩م) وقعت (اتفاقية لاتيران) التي أعطت الحكم في الفاتيكان للبابا ، وأصبح الفاتيكان هو المرجعية الدينية الأولى والأخيرة للكنيسة الكاثوليكية ، وهو عندهم حرم مقدس ، ويقع الفاتيكان وسط مدينة روما عاصمة إيطاليا ، ويقوم على حراسة الفاتيكان حراس سويسريون ، وهو يحتل مساحة تزيد عن (١١٠ أفدنة) ويضم بضعة آلاف من السكان ، وفيه كاتدرائية القديس بطرس ، والقصور الفاتيكانية والمكاتب والبلفيدير الذي بني عام (١٤٩٠م) ويضم آثارًا وتحفًا تاريخية نادرة ، إلى جانب عدة كنائس من أبرزها كنيسة سيستين ، ويحوي العديد من المتاحف الفنية بالكنوز التاريخية الثمينة ، وفيه مكتبة تأسست في القرن الخامس عشر تعد من أنفس مكتبات العالم وتضم أكثر من خمسين ألف مخطوط .

الحروب الصليبية [1] :

هي سلسلة الحروب التي شنها الملوك الأوروبيون ما بين (١٠٧١ ـ ١٢٩١م) على المشرق العربي بحجة استعادة بيت المقدس في فلسطين من أيدي المسلمين ، ، وقد أخذت هذه الحروب اسمها من الصلبان التي كانت ترصع دروع المحاربين ، وكانت التحولات السياسية في أوروبا هي السبب الرئيس لاشتعال تلك الحروب ، فبعد أن اعتنق الفرنجة في أوروبا الديانة المسيحية واستأثرت روما بلقب البابوية راحت تتطلع للكرسي البطريركي في القسطنطينية وتطمع بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت سلطتها .

وقد لاحت بوادر الحروب الصليبية في أعقاب معركة ملاذكرد التي وقعت في آسيا الصغرى في شهر ذي القعدة (٤٦٣هـ) (أغسطس ١٠٧١م) بين جيش السلاجقة

---

(١) انظر : ميخائيل زابوروف (الصليبيون في الشرق) دار التقدم ، موسكو (١٩٨٦م) ، وأمين معلوف (الحروب الصليبية كما رآها العرب) .

للمسلمين بقيادة السلطان ألب أرسلان والروم بقيادة إمبراطورها رومانوس ديوجينس ، وقد هُزم فيها الروم هزيمة منكرة ، ووقع الإمبراطور أسيرًا بأيدي المسلمين ولم يخلّص نفسه إلّا بفدية كبيرة قدرها مليون ونصف من الدينارات ، وعقد الروم مع المسلمين صلحًا مدته خمسون عامًا ، واعترفوا بسيطرة المسلمين على المناطق التي فتحوها من بلادهم ، ومهد هذا النصر لقيام دولة إسلامية في قلب آسيا الصغرى ، وأنهى خطر الروم على البلدان الإسلامية الذي ظل يهدد المسلمين منذ صدر الإسلام .

وفي أعقاب تلك الهزيمة التي لحقت بالروم سارع البابا جريجوري السابع بإعداد حملة لحماية الدولة الشرقية التي كان يعدها سدًّا منيعًا لحماية أوروبا من وثبات الإسلام من جهة الشرق ، فاستغاث بأمراء أوروبا لكنه لم يلق تجاوبًا ، وعندما خلفه البابا أربانوس الثاني (*Urbanus II*) وجّه الدعوة من جديد للأمراء والدهماء ، وألهب مشاعر الروم بموعظة شهيرة ألقاها في مجمع كلرمونت حرّض فيها أبناء الكنيسة على محاربة المسلمين بحجة تخليص القبر المقدس منهم ، ووعد المحاربين بأن تكون حربهم هذه غفرانًا تامًّا لذنوبهم ، وطمأنهم بحماية بيوتهم خلال غيبتهم ، وجمع منهم جيشًا جرارًا سار به إلى الشام في الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥ ـ ١٠٩٩م) التي أسفرت عن احتلال أنطاكية ، ثم بيت المقدس ، وأقاموا مملكة في الشام قاعدتها القدس ، واختير جودفري بويون حاكمًا لها ، ولقب بحامي القبر المقدس .



(حصار الصليبيين لأنطاكية خلال الحملة الصليبية الأولى)

وفي الفترة (١١٤٧ ـ ١١٤٩م) وقعت الحملة الصليبية الثانية التي دعا لها سانت برنارد لكيرفو بعد أن استولى عماد الدين زنكي على الرها وبدأ سلسلة هجمات على الصليبيين انتهت بإجلائهم عن الشرق الأدنى الإسلامي ، وقاد المعارك في هذه الحقبة نور الدين محمود الذي خلف أباه على إمارة حلب ، ثم تابع القائد صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨ ـ ١١٩٣م) الهجمات على الصليبيين بعد وفاة نور الدين ، واستخلص القدس من أيدي الصليبيين في عام (١١٨٧م) بعد معركة حطين .

ثم تتابعت الحملات الصليبية على البلاد الإسلامية حتى بلغت تسع حملات ، ووقع آخرها في الفترة ما بين (١٢٧١ ـ ١٢٧٢م) وقد فشلت كلها فشلًا ذريعًا في تحقيق أهدافها . وانتهت بطرد الصليبيين من المنطقة العربية طردًا نهائيًّا فلم تقم لهم فيها بعد ذلك قائمة . وقد نال بلاد الشام من جراء هذه المواجهات خراب كبير ، أمّا الأوروبيون فقد استفادوا حضاريًّا من احتكاكهم بالمسلمين الذين كانوا حتى ذلك الحين أرقى من الأوروبيين في نظمهم الإدارية والسياسية وعلومهم المختلفة .



(نصب تذكاري للقائد صلاح الدين الأيوبي على مقربة من الجامع الأموي حيث يرقد البطل)

محاكم التفتيش :

ومع أن الدين المسيحي في أصله السماوي دين يدعو للتسامح والمحبة ، فإن بعض أرباب الكنيسة بالتواطؤ مع بعض الحكام حولوه إلى دين قمع واضطهاد وتنكيل ، وقد شهد التاريخ الكنسي في عام (١٢٣٣م) حدثًا فريدًا في التصفيات الدينية عندما أصدر البابا

أنوسنس الرابع أمره بتشكيل محاكم التفتيش (*Inquisition*) وكلف بعض الرهبان الدومينيكيين بالتحقيق في ممارسات الطائفة الألبيجنسية التي كانت تمارس شعائرها الدينية سرًا في جنوب فرنسا ، إلَّا أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد بل استمرت هذه المحاكم تمارس سلطتها حتى القرن التاسع عشر ، أي لفترة تزيد عن خمسة قرون ، واستخدمت في تحقيقاتها أساليب رهيبة من العنف والتعذيب ، وكانت تحكم بالإعدام على المتهمين بالهرطقة ، وقد أدَّى الرعب الذي أثارته هذه المحاكم إلى ضعف الضمائر ، ووشاية الناس بعضهم ضد بعض ، وتبادل الاتهامات بالهرطقة ، وانتشار الرشوة وابتزاز الأموال باسم الدين .

وقد أقيمت محاكم التفتيش مرة ثانية في عام (١٤٧٨م) في عهد ملك إسبانيا فرديناند الخامس وزوجته إيزابيلا ، وقد استقلت هذه المحاكم عن المحاكم الأولى التي عقدت بأوامر البابا وأصبحت خاضعة لإشراف ملوك إسبانيا مباشرة ، ولم يعترف البابوات بها في البداية ؛ لأنهم اعتبروها ماسة بحقوق الكنيسة ، لكنهم عادوا فوافقوا عليها ، وقد تشكلت هذه المحاكم أصلًا لمراقبة اليهود والعرب المغاربة الذين اعتنقوا المسيحية بحجة الشك بإيمانهم بالدين الذي اعتنقوه ، لكن هذه المحاكم سرعان ما غيرت أهدافها وأصبحت سيفًا مصلتًا على الحريات العامة وبخاصة منها حرية الفكر ، ولم يعد أحد يأمن بطشها وتعسفها وحكمها على المتهمين بالإعدام لأتفه الأسباب ، وقد استمرت هذه المحاكم فترة طويلة من الزمن تنكل بالبشر إلى أن ألغيت في عام (١٨٢٠م) .

وكان البابا بولس الثالث في عام (١٥٤٢م) قد حول اختصاصات محاكم التفتيش إلى إدارة حكومية سميت مجمع محاكم التفتيش أو (القلم المقدس) الذي لا يزال من حقه حتى اليوم إصدار الأحكام بشأن قضايا الاعتقاد والشؤون الأخلاقية والهرطقة وبعض قضايا الزواج ومراقبة المطبوعات الدينية ، ويقدر الفيلسوف الفرنسي فولتير أعداد الذين ماتوا تحت الآلة الجهنمية لمحاكم التفتيش بأكثر من (١٠ ملايين ضحية) بينهم أكثر من مليون امرأة لم ينج منهن سوى والدة الفلكي الشهير (يوهانز كبلر)[1] ، الذي تمكن في اللحظة الأخيرة أن ينقذها من الموت بأعجوبة .

---

(١) يوهانز كبلر (١٥٧١ ـ ١٦٣٠م) : فلكي ألماني ، هو أول من وضع القوانين التي تصف حركة الكواكب حول الشمس ، فقد اكتشف أن مسارات الكواكب إهليلجية وليست دائرية ، وأن الشمس تقع في إحدى بؤرتي الإهليج ، وقد وصفت هذه القوانين حركة الكواكب بدقة تتطابق مع الأرصاد الفلكية ، وفسرت الحركات التراجعية للكواكب دون ما حاجة إلى وجود أفلاك التدوير كما كان الاعتقاد سابقًا .



(عالم الفلك الألماني يوهانز كبلر ، نجا هو ووالدته بأعجوبة من محاكم التفتيش)

وفي عام (١٩٩٤م) اضطر البابا البولوني كارل فويتايلا الملقب باسم يوحنا بولس الثاني للاعتراف بأن على الكنيسة أن تعيد فحص الزوايا المظلمة من تاريخها ، وأن تقيّمه على ضوء ما يسمونه في العُرف المسيحي بشارة الأنبياء (*Evangelism*) استعدادًا لدخول القرن الجديد الذي لم يعد فيه البشر يحتملون السكوت عن مثل هذه الفظائع المخزية .

حركات التنصير :

في عام (١٢٦٠م) دخل تاريخ الكنيسة مرحلة جديدة في أعقاب فشل الحروب الصليبية التي قادها بعض ملوك أوروبا ضد المسلمين في الشرق ، وظهرت حركات التنصير المنظمة التي استهدفت نشر النصرانية بين شعوب العالم الثالث ولا سيما المسلمين منهم بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب .

ولعل من أوائل المنصِّرين في العالم الفيلسوف الإسباني ريمون لول (١٢٣٦ - ١٣١٥م) الذي انضم إلى رهبنة الفرنسيسكان ، وانكبَّ على دراسة اللغة العربية والثقافة الإسلامية بهدف دعوة المسلمين إلى المسيحية ، وسافر من أجل ذلك إلى شمال أفريقيا حيث لقي حتفه بعد فترة ، وقد كرَّس مؤلفاته ونشاطاته كلها لمحاربة الإسلام حتى أصبح رائدًا لعمليات التنصير في العالم الإسلامي .

ولم تُنَظَّم حركات التنصير بصورة فعلية إلَّا في عام (١٩٦٧ م) من خلال مجمع جاكرتة الذي شهد توقيع ميثاق شرف بين الطوائف المسيحية لمواجهة المسلمين بموقف موحد في الاجتماعات والمحافل الدولية ، وما زالت حركات التنصير ناشطة في الكثير من البلدان العربية والإسلامية .

تاريخ الإسلام :

بعد حوالي ستة قرون من ميلاد السيد المسيح ﷺ بُعث في أم القرى (مكة المكرمة) من أرض الجزيرة العربية النبي محمد بن عبد الله ﷺ (٥٧٠ ـ ٦٣٢م) الذي يرجع نسبه إلى نبي الله إبراهيم الخليل ﷺ ، وقد مات أبوه (عبد الله) وهو في بطن أمه (آمنة بنت وهب) ، وولد في (عام الفيل) وهو العام الذي هاجم فيه (أبرهة الحبشي) بيت الله الحرام ، فأرسل الله عليه وعلى جنده طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل أبادتهم عن بكرة أبيهم .

وفي السادسة من عمره ﷺ ماتت أمه ، فكفله عمه أبو طالب الذي رباه حتى صار صبيًّا فلما شبَّ اشتغل برعي الغنم ، واشتهر في قومه بالصدق والأمانة والسيرة الحسنة حتى لقبوه بالصادق الأمين ، وفي الخامسة والعشرين من عمره تزوج خديجة بنت خويلد (٦٨ق.هـ ـ ٣ق.هـ) رضي الله عنها التي عرفت بالعفة والعقل والحزم حتى دعاها قومها بالطاهرة ، وهي أول امرأة تزوجها الرسول ﷺ وكانت في الأربعين من عمرها ورسول الله ﷺ في الخامسة والعشرين ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت ، وكانت أحب زوجاته إليه ، وعندما بُعث النبي ﷺ كانت أول من أسلم ، فَرُزِقَ منها بأولاده كلهم (القاسم ، عبد الله ، زينب ، رقية ، أم كلثوم ، فاطمة) ما عدا إبراهيم ولده من ماريا القبطية وقد مات صغيرًا .

ولما بلغ النبي ﷺ الأربعين من عمره (عام ٦١٠م) نزل عليه الوحي وهو معتكف في غار حراء بمكة المكرمة ، وأمره ربه أن يبلغ دعوته أولًا للأقربين من أهله وعشيرته ، واستمر على ذلك فترة يسيرة من الزمان ، ثم أمره ربه أن يجهر بالدعوة في قومه ، وقد لاقى في ذلك العنت الشديد من أهل مكة الذين كانوا يعبدون الأصنام ، واستمر على هذه الحال من الاضطهاد هو ومن تبعه من المؤمنين إلى أن هيأ الله له ملاذًا آمنًا في يثرب (المدينة المنورة) فهاجر إليها وأقام فيها أول دولة للإسلام ، وبهذا بدأت مرحلة جديدة من عمر الدعوة الإسلامية ، تخللتها معارك طاحنة ضد معسكر الكفر والشرك ، وانتهت بانتصار الإسلام ، وفتح مكة المكرمة عام الفتح في السنة الثامنة من الهجرة ، وعندئذ حطم النبي ﷺ جميع الأصنام التي كانت تعبد من دون الله ، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا .

وفي عام (١٠ هـ) حجّ النبيُّ ﷺ حجة الوداع، ولما عاد إلى المدينة أصيب بالمرض. فعهد إلى أبي بكر الصديق ﷺ أن يؤم الناس في الصلاة، ولم يلبث النبي ﷺ أن انتقل إلى جوار ربه ودفن في المدينة المنورة.

وقد شهد التاريخ كله بأفضلية هذا النبي الكريم، كما شهد بفضله وتفرده بين الخلق القريب والبعيد، ومنهم المؤرخ الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون [1] الذي كتب يقول: (جمّع محمد قبل وفاته كلمة العرب، وبنى منهم أمة واحدة، خاضعة لدين واحد، مطيعة لزعيم واحد، فكانت في ذلك آيته الكبرى .. ومما لا ريب فيه أن محمدًا أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية، ولذلك كان فضله على العرب عظيمًا .. وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين منهم عن الاعتراف بفضله .. وقد استطاع محمد أن يبدع مثلًا عاليًا قويًا للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد على الخصوص .. ولم يتردد أتباعه في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى .. ولا شيء أصوب من جمع محمد لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت جزيرة العرب مجزأة، وتكمن قيمة ذلك بنتائجه، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا قبائل من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد) [2].

ومن الذين أشادوا بالنبي ووضعوه في رأس قائمة العظماء المؤرخ الأمريكي مايكل هارت [3]، الذي نشر في عام (١٩٧٨م) كتابه (المائة الأوائل) الذي سبق أن تحدثنا عنه (انظر فصل: تاريخ الإنسان) ورتب فيه أسماء مائة شخصية عالمية حسب اعتقاده بأهميتهم، واتبع باختيارهم وترتيبهم ضوابط صارمة، وقد قدَّم المؤلف النبي محمدًا ﷺ على سائر العظماء في التاريخ، من الفلاسفة والعلماء والأبطال والمصلحين والزعماء والملوك. وبرر المؤلف تقديمه للنبي على سائر العظماء بأنَّ معظم الذين غيروا التاريخ ظهروا في

---

(١) غوستاف لوبون (*Dr.G.Lebon*) طبيب ومؤرخ وفيلسوف فرنسي، ولد عام (١٨٤١م)، يعد واحدًا من كبار فلاسفة الغرب، وهو أحد الذين أنصفوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية، من كتبه (حضارة العرب) و(الحضارة المصرية) و(حضارة العرب في الأندلس) و(دين الإسلام).

(٢) انظر كتابه (دين الإسلام).

(٣) سبقت ترجمته.

قلب إحدى العواصم الحضارية أو المدن العامرة ، أمَّا النبي محمد ﷺ فقد نشأ ونشر دعوته في بلاد صحراوية جرداء لا تملك شيئًا من مقومات الحضارة ، كما أن النبي محمدًا ﷺ هو الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح نجاحًا تامًّا على المستويين الديني والدنيوي ، فهو النبي الوحيد الذي بدأ الرسالة وأتمها في حياته ، وآمنت به شعوب بأسرها ، ونشر دينًا عالميًا ، وأقام دولة بنفسه ، في حين أن غيره من الأنبياء والمصلحين والزعماء لم يتمكنوا من ذلك ، بل إنه ـ وهو الأميُّ الذي لا يقرأ ولا يكتب ـ وحّد القبائل العربية في شعب واحد ، وجعل منهم أمة واحدة متماسكة ، فمهد بهذا التوحيد لانطلاقة الحضارة العربية الإسلامية الفريدة التي تسلمت قيادة العالم كله واستمرت في أوج مجدها زهاء أربعة عشر قرنًا من الزمان .

ومن الذين أنصفوا محمدًا ﷺ المستشرق النرويجي سنرستن (١) أستاذ اللغات السامية ، الذي خصص كتابه (تاريخ حياة محمد) للحديث عن مناقب النبي ، ومما قاله : (إننا لم ننصف محمدًا ﷺ إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم الصفات وحميد الخصال .. فلقد خاض محمد ﷺ معركة الحياة الصحيحة في وجه الجهل والهمجية مصرًّا على مبادئه .. وما زال يحارب الطغاة حتى انتهى به المطاف إلى النصر المبين .. فأصبحت شريعته أكمل الشرائع .. وهو بلا جدال فوق عظماء التاريخ) .

القرآن الكريم :

وهو الكتاب الذي أنزل على النبي محمد ﷺ ويضم (١١٤) سورة ، وقد بدأ نزوله عليه في العام (٦١٠م / ١٣ق.هـ) ولم ينزل القرآن الكريم دفعة واحدة كما هي حال الكتب السماوية السابقة ، بل نزل منجَّمًا على مراحل طوال ثلاثة وعشرين عامًا ، وذلك مسايرة للحوادث التي كان يتنزل لتفصيلها وبيان الحكم فيها ، وتيسيرًا على المؤمنين لحفظه والعمل بما جاء فيه ، وتثبيتًا لقلب النبي ﷺ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان : ٣٢] .

---

(١) سنرستن الآسوجي : ولد عام (١٨٦٦م) ، أستاذ اللغات السامية ، مستشرق ساهم في تحرير دائرة المعارف ، جمع للمخطوطات الشرقية ، عمل محررًا في مجلة (العالم الشرقي) ، له عدة مؤلفات منها (القرآن الإنجيل المحمدي) و (تاريخ حياة محمد) .

وقد نزلت بعض سور القرآن في مكة المكرمة وتسمى (السور المكية) ونزل بعضها في المدينة المنورة (السور المدنية) بعد هجرة النبي ﷺ إليها ، وقد كلف النبي ﷺ عددًا من الصحابة الذين يجيدون الكتابة والحفظ بكتابة القرآن الكريم ، وهم كُتّاب الوحي ، أمثال زيد بن ثابت ، أُبيّ بن كعب ، وكانوا يكتبونه على الجلود والأخشاب والعظام والأحجار وجريد النخل والنسيج ، وكان كلما نزلت آية أو آيات أمرهم ﷺ بكتابتها ، ثم أرشدهم إلى موضعها من القرآن ، وكان جبريل ﷺ في شهر رمضان من كل عام ينزل فيدارس النبي القرآن الكريم ، حتى إذا كان رمضان الأخير من آخر سنة توفي فيها رسول الله ﷺ دارسه القرآن مرتين .

وبهذا يتبين من الوجهة التاريخية الموثقة أن القرآن الكريم قد دوِّن تدوينًا كاملًا في حياة النبي ﷺ الذي كان يشرف على تدوينه ، وهو الذي رتب آياته وسوره بوحي من الله ﷻ. وبهذا حُفظ القرآن الكريم من أي تدخل بشري مصداقًا لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

ومن علامات حفظ القرآن الكريم أيضًا أن تندثر كافة الكتب والصحف التي أنزلت على الأنبياء الأولين ولم يصل إلينا منها إلّا كتب الرسالات الثلاث الأخيرة (اليهودية ، المسيحية ، الإسلام) ومن بين هذه الكتب فإن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي دوِّن وحفظ في عهد صاحب الرسالة محمد ﷺ وتحت توجيهاته ، ولم يخالطه أي نص بشري [1] .

وفي عام (٦٣٢م - ١١هـ) بعد وقعة اليمامة التي قتل فيها عدد كبير من حفاظ القرآن الكريم ، اقترح عمر بن الخطاب ﷺ على الخليفة أبي بكر ﷺ أن يجمع الصحف التي كتب فيها القرآن الكريم ، فاستحسن أبو بكر رأيه وأمر زيد بن ثابت بجمعه كتابة ، وقد بقيت الصحف التي كتبها زيد محفوظة لدى أبي بكر ﷺ ، ثم انتقلت إلى عمر ﷺ ، ثم أودعت في بيت حفصة بنت عمر زوج النبي .

وعندما توسعت الفتوحات الإسلامية ، وتفرق حفظة القرآن الكريم في الأمصار ، واختلطت شعوب غير عربية بالمسلمين ، أخذ الناس يقرؤون القرآن بقراءات مختلفة ، فعرض عثمان بن عفان ﷺ على الصحابة في عام (٦٤٤م) أن ينسخ القرآن الكريم نسخة

(١) انظر البحث القيم الذي أصدرته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (أيسيسكو) تحت عنوان : لغات الرسل وأصول الرسالات ، عام (٢٠٠٢م) .

موحدة يبعث بها إلى الأمصار لتكون مرجعًا موحدًا للمسلمين ، فأقروه على ذلك ، وعهد بهذه المهمة الجليلة إلى عدد من الحفظة جعل على رأسهم زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه (١١ق.هـ ـ ٤٥هـ) ، وقد عولوا في نسخه على الصحف التي كانت عند حفصة رضي الله عنها ، فنسخوا منها عدة نسخ عرفت باسم (مصحف عثمان) أرسلت إلى الأمصار واحتفظ عثمان ﷺ بنسخة منها عرفت باسم (المصحف الإمام) ، وفي عام (٨٨٠م) ابتكر اللغوي الشهير أبو الأسود الدؤلي [1] (٦٠٥ ـ ٦٨٨م) طريقة لتشكيل القرآن الكريم وضبطه بالنقط ، فوضع على الحرف المفتوح نقطة من فوقه ، والمكسور نقطة من تحته ، والمضموم نقطة بين يديه ، والمنوّن نقطتين من تحته أو من فوقه أو من بين يديه بحسب موضعه من الإعراب .

أما أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم فقد صدرت في فرنسا بطلب من بطرس المبجل راهب دير كلوني حوالي (١١٤١ ـ ١١٤٣م) وكانت باللغة اللاتينية ، وقد ترجمه الإنكليزي روبرت الرتيني ، والألماني هرمان الدلماشي ، وراهب إسباني عربي إلّا أن هذه الترجمة لم تنشر إلّا بعد أربعة قرون ، وبعد ذلك توالت الترجمات ، فصدرت في عام (١٦١٦م) الترجمة الألمانية (المترجم : شفيجر النورمبرجي) ، وفي عام (١٦٤٧م) الترجمة الفرنسية (المترجم : سيور دوريز) ، وفي عام (١٦٤٩م) الترجمة الإنكليزية بواسطة أحد قساوسة كانتربروك ، وفي عام (١٧٧٦م) الترجمة الروسية في سانت بطرسبرج (لينغراد) ، وفي عام (١٩١٤م) ترجم القرآن الكريم بلغة الإسبرانتو .

انتشار الإسلام :

بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى أصبح هَمُّ المسلمين نشر الإسلام في العالم ، فانطلقت جحافل الدولة الإسلامية في كل اتجاه تنشر راية العدالة والسلام على العالمين ، وتفتح البلدان واحدة بعد الأخرى ، وما هي إلّا سنوات معدودات حتى كانت راية الإسلام تخفق في كل مكان من العالم القديم ، وقد أثمرت هذه الفتوحات ازدهارًا اقتصاديًا واجتماعيًا للدولة الإسلامية التي أصبحت بين عشية وضحاها القوة الوحيدة في العالم ، ومركزًا

---

[1] أبو الأسود الدؤلي ، هو ظالم بن عمرو بن سفيان ولد في الكوفة قبل الهجرة بستة عشر عامًا وتوفي بالبصرة سنة ٦٩هـ ، دخل الإسلام بعد فتح مكة ، وقدم المدينة فأقام فيها ، كان من سادات التابعين ، وهو أول من وضع علم النحو ، وشكّل المصحف ، ووضع النقاط على الأحرف العربية ، وضبط قواعد النحو ، فوضع باب الفاعل ، المفعول به ، المضاف ، وحروف النصب والرفع والجر والجزم .

ثقافيًا نشيطًا يشع العلم والفكر والثقافة على العالمين ، وبدأت تبرز أسماء الكبار من العلماء والفقهاء والفلاسفة والمبدعين ، وأصبحت اللغة العربية هي لسان العالم أجمع ، حتى إن بعض الدول التي لم تكن تتكلم العربية سابقًا استعرب لسانها ، وأصبح أهلها ينطقون العربية ويكتبون بالعربية .

وخلال فترة وجيزة من الزمان لا تزيد عن بضع سنوات كان الإسلام قد انتشر في بلاد الروم البيزنطيين ، والفرس الساسانيين ، والشام ومصر والعراق ، وانتشر في كل مكان حتى نودي بكلمة : (الله أكبر ، حي على الفلاح) على جبال السند ، وفي ربوع الهند ، وفي مدن أوروبا العريقة وأوديتها وجبالها ، وهو إنجاز تاريخي عظيم لم يشهد له التاريخ مثيلًا في مثل هذه البرهة القصيرة من الزمن .



(امتداد الدولة الإسلامية في غضون سنوات قليلة من عصر الخلافة الراشدة ثم الأموية)

ومما يجدر بالوقوف عنده طويلًا أن بلادًا كثيرة دانت للإسلام طواعية لما رأت من عدالة الإسلام ورحمته ، وقد شهد بهذا الخلق الإسلامي الرفيع كثير من المؤرخين المنصفين منهم الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون [1] ، الذي كتب يقول : (ما عرف التاريخ فاتحًا أرحم من العرب) [2] .

أما المؤرخ المستشرق الإنكليزي توماس أرنولد (١٨٦٤-١٩٣٠م) فيقول : (ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن ، وعسكر أبو عبيدة في بلدة فحل ، كتب الأهالي النصارى

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) انظر كتابه : دين الإسلام .

في تلك البلاد إلى العرب الفاتحين يقولون : يا معشر المسلمين ، أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، وأنتم أوفى لنا وأرأف بنا ، وأكفُّ عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا) وغلّق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق والروم وتعسفهم .

وفي موضع آخر يعلل توماس أرنولد انتشار الإسلام بين الصليبيين فيقول : (ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة ، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرًا سحريًا خاصًا ، حتى إن نفرًا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا دياناتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين ، وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية ، مثلًا ، فارس إنجليزي من فرسان المعبد ، يدعى روبرت أوف سانت أليانس سنة ١١٨٥م ، واعتنق الإسلام ، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين)[1] .

وقد ظلت الخلافة الراشدة ثلاثين عامًا (٦٣٢ ـ ٦٦١م) وكان الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ أول من أقيمت المدن الإسلامية في عهده كالكوفة والبصرة بالعراق ، والفسطاط بمصر ، وظلت المدينة المنورة عاصمة الخلافة حتى نقلها الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ﷺ إلى الكوفة ، بسبب القلاقل التي نشبت في عهد عثمان بن عفان ﷺ وانتهت باستشهاده .

وبعد مقتل علي بن أبي طالب تأسست الدولة الأموية (٦٦١ - ٧٥٠م) في دمشق واستمرت في الحكم زهاء قرن كامل من الزمان ، وامتدت من غربي الصين إلى جنوب فرنسا ، وكانت الفتوحات الإسلامية حينها تمتد من شمال أفريقيا إلى إسبانيا وجنوب فرنسا في غرب أوروبا ، وفي السند في وسط آسيا ، وفيما وراء نهري جيحون وسيحون ، وأقيمت المؤسسات الإسلامية والمساجد ، والمكتبات الكبيرة العامة التي بنيت هنا وهناك وكانت عامرة بالكتب القيمة في كل علم وفن وأدب .

أما الخلافة الأموية الثانية في بلاد الأندلس فقد استمرت فترة طويلة امتدت ما بين (٧٥٦ – ١٠٣١م) وكانت عاصمتها قرطبة التي كانت في حينها أكبر مدينة في أوروبا كلها ، وسريعًا ما أصبحت الأندلس منارة للحضارة في الغرب ، ووصل الإسلام في ظلها إلى تولوز وليون ونهر اللوار ونهر السين وبوردو وجنوب إيطاليا .

---

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، (ص ٧٣ و ١٠٧) وما بعدها .

وكانت الخلافات السياسية الحادة التي نشبت بين العباسيين (٧٥٠ - ١٢٥٨م) والأمويين السبب بتوقف الفتوحات الإسلامية غرب أوروبا ، وما بين عامي (٩١٠ - ١١٧١م) ظهر السلاجقة في المشرق والفاطميُّون في القاهرة والأيوبيِّين والمماليك في مصر والشام ، وبدأت الحملات الصليبية على الشام وفلسطين ومصر للسيطرة على القدس ، واستمرت هذه الحروب حتى عام (١١٨٧م) حين حرر القائد صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨ -١١٩٣م) بيت المقدس نهائيًّا من أيدي الصليبيين .

ثم وقع هجوم المغول التتار على بغداد في عام (١٢٥٨م) بعدما كانت عاصمة للخلافة العباسية لمدة خمسة قرون متواليات ، إلَّا أن هؤلاء الغزاة لم يلبثوا أن دخلوا في الإسلام ورجعوا إلى ديارهم مسلمين موحدين بعد أن كانوا وثنيين ، وأصبحوا دعاة للإسلام مبشرين له بين قبائلهم ، وأقاموا تحت ظلاله الإمبراطوريات والممالك الإسلامية بأفغانستان وباكستان وشبه القارة الهندية وبالملتان والبنغال وآسيا الوسطى وأذربيجان والقوقاز والشيشان وفارس وغيرها من بلدان المشرق الإسلامي .

وفي عام (١٤٥٣م) فتح السلطان العثماني محمد الفاتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (الرومية) وأطلق عليها اسم إسلام بول (إستانبول) وجعلها عاصمة للخلافة العثمانية التي استمرت ما بين (١٣٥٠ - ١٩٢٤م) وقد واصل العثمانيون الفتوحات فوصلوا إلى رومانيا والصرب والبوسنة والهرسك والمجر وفيينا .

وفي ظل الحكم الإسلامي ظهرت مدن تاريخية كثيرة ، منها الكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة ، والفسطاط ، والعسكر ، والقطائع ، والقيروان ، وفاس ، ومراكش ، والمهدية والجزائر وغيرها ، كما خلفت الحضارة الإسلامية مدنًا متحفية تعبر عن عظمة العمارة الإسلامية ، منها استانبول بمساجدها الرائعة ، والقاهرة بعمائرها الإسلامية الجميلة ، وبخارى وسمرقند ، وحيدر أباد ، وقندهار ، وبلخ ، وترمذ ، وغزنة ، وبوزجان ، وطليطلة ، وقرطبة وإشبيلية ، ومرسية ، وأصفهان ، وتبريز ، ونيقيا ، وغيرها من المدن الإسلامية العريقة التي ما زال الإسلام هو الدين السائد حتى اليوم في معظمها .

وبفضل تلك الجهود الجبارة التي بذلها المسلمون على مدى قرون طويلة أصبح الإسلام اليوم من أكثر الأديان انتشارًا في العالم أجمع ، ويقدر عدد المسلمين في العالم اليوم بأكثر من خمس سكان الأرض .

(الجدول ـ ١٧) أهم المراحل في تاريخ الإسلام

الحـــــدث	التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	موقع الحدث
مولد النبي محمد ﷺ	(٥٧٠م)	(٥٣ ق.هـ)	مكة المكرمة .
زواجه ﷺ من خديجة	(٥٩٥م)	(٢٨ ق.هـ)	مكة المكرمة ، عمره ٢٥ عامًا .
بدء بعثه ﷺ	(٦١٠م)	(١٣ ق.هـ)	مكة المكرمة .
هجرته ﷺ	(٦٢١م)	(١هـ)	من مكة إلى يثرب .
غزوة بدر الكبرى	(٦٢٤م)	(٢هـ)	منطقة بدر (المدينة المنورة) .
غزوة أحد	(٦٢٥م)	(٣هـ)	جبل أحد (المدينة المنورة) .
غزوة الخندق	(٦٢٧م)	(٥هـ)	حول المدينة المنورة .
فتح خيبر	(٦٢٨م)	(٧هـ)	المدينة المنورة ، خيبر .
صلح الحديبية	(٦٢٨م)	(٧هـ)	منطقة الحديبية .
غزوة مؤتة	(٦٢٩م)	(٨هـ)	مؤتة ، شمال الجزيرة العربية .
غزوة تبوك	(٦٣٠م)	(٩هـ)	تبوك ، شمال الجزيرة العربية .
فتح مكة ، معركة حنين	(٦٣٠م)	(٩هـ)	مكة ، حنين .
حجة الوداع	(٦٣٢م)	(١٠هـ)	مكة المكرمة .
وفاته ﷺ	(٦٣٢م)	(١١هـ)	المدينة المنورة .
الخلافة الراشدة	(٦٣٢ ـ ٦٦١م)	(١١ ـ ٤٠هـ)	أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علي .
فتح العراق	(٦٣٣ ـ ٦٣٤م)	(١٢ ـ ١٣هـ)	بقيادة خالد بن الوليد .
فتح بلاد الشام	(٦٣٤ ـ ٦٣٦م)	(١٣ ـ ١٥هـ)	بقيادة خالد بن الوليد .
فتح بلاد فارس	(٦٣٧م)	(١٦هـ)	بقيادة سعد بن أبي وقاص .
فتح مصر	(٦٣٩ ـ ٦٤١م)	(١٨ ـ ٢٠هـ)	بقيادة عمرو بن العاص .
فتح بلاد المغرب	(٦٤٣ ـ ٦٨٣م)	(٢٢ ـ ٦٤هـ)	بدأت بقيادة عمرو بن العاص .
نسخ القرآن الكريم وتوزيعه على الأمصار	(٦٥٣م)	(٣٢هـ)	في خلافة عثمان بن عفان .
الخلافة الأموية في المشرق	(٦٦١ ـ ٧٥٨م)	(٤١ ـ ١٤١هـ)	عاصمتها (دمشق) .
الخلافة الأموية في المغرب	(٧١١ ـ ١٤٩٣م)	(٩٢ ـ ٨٩٧هـ)	المغرب والأندلس .

فتح الصين	(٧١٥م)	(٩٦هـ)	الصين .
فتح غرب أوروبا	(٧١٧-٧٥٨م)	(١٠٠-١٤١هـ)	حتى جبال البيرنيه في فرنسا .
الخلافة العباسية	(٧٥٠-١٢٥٨م)	(١٣٢-٦٥٦هـ)	عاصمتها (بغداد) .
الأدارسة	(٧٨٨-٩٥٤م)	(١٧٢-٣٤٣هـ)	فاس (المغرب) .
الأغالبة	(٨٠٠-٩٠٩م)	(١٨٤-٢٩٦هـ)	القيروان (تونس) .
الطولونيون	(٨٦٨-٩٠٥م)	(٢٥٥-٢٩١هـ)	مصر .
السامانيون	(٨٧٤-٩٩٩م)	(٢٦١-٣٩٠هـ)	العراق، تركستان، خراسان.
الإخشيديون	(٩٠٥-٩٦٩م)	(٢٩٢-٣٥٩هـ)	مصر .
الفاطميون	(٩١٠-١١٧١م)	(٢٩٧-٥٦٧هـ)	مصر، سوريا .
الحمدانيون	(٩٣٠-٩٩٨م)	(٣١٨-٣٩٠هـ)	حلب (سوريا) .
البويهيون	(٩٤٥-١٠٥٥م)	(٣٣٤-٤٤٧هـ)	العراق، إيران .
السلاجقة	(٩٥٠-١١٧١م)	(٣٣٩-٥٦٧هـ)	العراق، آسيا الصغرى، كرمان، سوريا .
الغزنويون	(٩٦٢-١١٨٦م)	(٣٥١-٥٨٢هـ)	أفغانستان، الهند .
ملوك الطوائف	(١٠٢٣-١٠٩٢م)	(٤١٤-٤٨٥هـ)	الأندلس .
المرابطون	(١٠٥٣-١١٤٧م)	(٤٤٥-٥٤٢هـ)	الأندلس .
الموحدون	(١١٣٠-١٢٦٩م)	(٥٢٥-٦٦٠هـ)	الأندلس، المغرب .
المماليك	(١٢٥٠-١٥١٧م)	(٦٤٨-٩٢٥هـ)	مصر .
الغوريون	(١١٤٨-١٢١٥م)	(٥٤٣-٦١٢هـ)	أفغانستان، الهند .
الأيوبيون	(١١٦٨-١٢٥٤م)	(٥٦٤-٦٥٢هـ)	مصر، سوريا .
المرينيون	(١١٩٥-١٤٧٠م)	(٥٩٢-٨٧٥هـ)	المغرب .
الصفويون	(١٥٠١-١٧٣٧م)	(٩٠٧-١١٥٠هـ)	إيران .
الخلافة العثمانية	(١٥١٦-١٩١٨م)	(٩٢٢-١٣٣٧هـ)	عاصمتها (إستانبول) .
سقوط الخلافة الإسلامية	(١٩٢٤م)	(١٣٤٣هـ)	أعلنه كمال أتاتورك في إستانبول .

ختم الرسالات السماوية :

وبختم النبوات برسالة محمد بن عبد الله ﷺ لم يبق من الأديان السماوية المعروفة اليوم سوى ثلاث هي : (اليهودية ، المسيحية ، الإسلام) ، وقد أطلق القرآن الكريم على أتباع الديانتين اليهودية والمسيحية (أهل الكتاب) ؛ تمييزًا لهم عن غيرهم من أمم الأرض التي تزعم أنها على دين ما ، وجعل لأهل الكتاب مَيِّزَاتٍ لم يجعلها لغيرهم ممن لا يدينون بالإسلام ، فأحلَّ للمسلمين الزواجَ من نساء أهل الكتاب ، وأحل أكل طعامهم ، وأمر بالإحسان إليهم ، بل إن النبي محمدًا ﷺ عدَّهم مواطنين في أول دولة أقامها في المدينة المنورة ، فأبرم الدستور الذي عرف باسم (الصحيفة) ، وهو الدستور الذي نظَّم العلاقات داخل الدولة المسلمة بين المواطنين من شتى الديانات والقبائل والاتجاهات (انظر فصل : تاريخ السياسة) .

ولا بد هنا من كلمة حول أسباب ختم النبوات وتوقف نزول الرسالات السماوية على أهل الأرض ، فقد قيل حول هذه الظاهرة الكثير ، وهي ظاهرة مهمة تستحق الوقوف عندها طويلًا ، وفي اعتقادنا أن ختم الرسالات السماوية يأتي أمرًا طبيعيًّا في إطار سنة التطور التي قلنا إنها إحدى السمات الأساسية في هذا الوجود (انظر فصل : سنن الوجود) فقد تعاقب على الأرض أنبياء ورسل كثيرون قد يتجاوز عددهم المائة ألف ، كما ورد في حديث أبي ذرٍّ رضي الله تعالى عنه : قلتُ : يا رسولَ الله ، كَم كانت الأنبياءُ ؟ وَكَم كانَ المُرْسَلون ؟ قال : « كانت الأنبياءُ مائةَ ألفٍ وأربعةً وعشرينَ ألفَ نبي ، وكانَ المرسلون ثلاثمائةٍ وثلاثةَ عَشَرَ »[1] ، ومما يؤكد هذا الجمع الغفير من الأنبياء والمرسلين تصريح القرآن الكريم ، أنه ما من أمة إلَّا بُعث فيها نذير : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] ، وهذا يعني أن البلاغ بدين التوحيد قد عمَّ العالمين ، ولم يبق للناس من حجة على الله بعد الرسل كما قال تعالى عن رسله الذين أرسلهم للعالمين : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٥] .

وقد كان كل نبي أو رسول يرسل إلى قومه خاصة ، أمَّا صاحب الرسالة الخاتمة محمد بن عبد الله ﷺ فقد أرسل للعالمين كافة كما ورد في العديد من الآيات ، وبما أن رسالته

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، (٦ / ١٨) ، وقال القرطبي : هذا أصح حديث في هذا الباب .

كانت الخاتمة للرسالات فقد كان طبيعيًّا أن تمتاز بسمات تضفي عليها سمة العالمية والشمول والصلاحية حتى آخر الزمان، ومن أهم هذه السمات :

(١) أن الدليل على وجود الله وصدق الرسالات السماوية بما فيها هذه الرسالة الخاتمة نفسها أصبح ابتداءً من عصر هذه الرسالة دليلًا عقليًّا ينطلق من القرآن الكريم الذي تكفَّل الله بحفظه إلى يوم القيامة، والذي تشهد آيات الآفاق والأنفس بأنه حقٌّ وصدقٌ. ولم تعتمد هذه الرسالة في إثبات صدقها على المعجزات الخارقة للعادة، كما كان شأن الرسالات السابقة، فلم يعرف للنبي محمد ﷺ معجزات مادية مشهودة لإثبات صدق رسالته وإقامة الحجة على قومه، أمَّا المعجزات الكثيرة التي أجراها الله ﷻ على يديه ﷺ فقد وقعت في مناسبات لا علاقة لها بهذه المسألة، وقد ورد في القرآن ما يفيد أن عصر المعجزات قد انتهى إيذانًا بختم النبوات، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٩-٩٦].

وبدلًا من المعجزات الخارقة تضمنت هذه الرسالة الخاتمة الكثير من الدلائل المشهودة والمحسوسة التي تشهد على مصداقيتها، وما ظاهرة (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم التي بدأت تتكشف لنا آفاقها في السنوات الأخيرة إلَّا واحدًا من هذه الأدلة، فقد كشف لنا العلم كثيرًا من الحقائق التي أخبر عنها القرآن الكريم قبل قرون طويلة من الزمان ولم يتحقق منها العلم إلَّا في السنوات الأخيرة، وهذا مصداق قوله تعالى عن كتاب هذه الرسالة الخاتمة : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٧، ٨٨]، أي : لتعلمن صدق ما أخبركم به هذا القرآن بعد فترة من الزمن، وهذا ما حصل بالفعل في العصر الحديث في سياق الإعجاز العلمي، وفي هذا دليل مادي متجدد على صدق الرسالة الخاتمة. وهذه السمة المعجزة في القرآن الكريم سوف تظل متجددة على مرِّ الزمان مهما تقدم العلم ومهما كشف لنا من أسرار هذا الوجود.

(٢) بما أن هذه الرسالة الخاتمة سوف تصاحب البشرية حتى آخر الزمان ، وما يطرأ على المجتمع البشري خلال هذه الرحلة الطويلة من تغيرات وتطورات ، فإن معظم الأحكام التي قررتها هذه الرسالة جاءت في صيغ (ظنية الدلالة) تحتمل أكثر من تأويل ، وذلك لكي تفسح المجال للعقل البشري أن يجتهد ويستنبط الأحكام التي تساير الواقع المتغير ولا تتصادم معه ، ولا تكون عقبة في طريق التقدم والتطور البشري ، أمّا ما عدا ذلك من شؤون الدنيا التي لا تقبل التغير ولا التطور ، فقد جاءت أحكامها في القرآن الكريم بصيغ (قطعية الدلالة) لا تحتمل التأويل ، وهي أحكام قليلة جدًّا إذا ما قارناها بالأحكام الأولى ، وهذا ما يضفي على الرسالة الخاتمة صفة المرونة والقابلية للتجاوب مع متطلبات الواقع البشري مهما طرأت عليه من تغيُّرات أو تطوُّرات ، وهذا ما أهَّل الرسالة الخاتمة لتواكب مسيرة البشرية حتى آخر الزمان .

(٣) أن الله ﷻ قد تكفَّل بحفظ كتاب هذه الرسالة الخاتمة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، وهذا ما لم يحصل لأي من الكتب السماوية السابقة التي لم يبق منها كتاب إلَّا تعرَّض للضياع أو التحريف أو الدسّ ، حتى تكون المرجعية الدينية الأخيرة واحدة ، وفي هذا حكمة إلهية بالغة .

وقد ظهر بعد خاتم الأنبياء محمد ﷺ أشخاص كثيرون ادعوا النبوة زورًا وبهتانًا ، ولكن دعواهم كلها دحضت ، وظهر للناس بطلانها ، ولم يعرف التاريخ بعد خاتم الأنبياء محمد ﷺ نبيًّا آخر ، وصدق الله العظيم الذي بين هذه الحقيقة في كتابه الكريم ، فيقول : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، وقد عبَّر الشاعر (محمد إقبال) [1] بكتابه (تجديد الفكر الديني في الإسلام) عن فكرة ختم النبوة هذه ، فقال : (إن النبوة لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها ، وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق حكمة بالغة ، لاستحالة بقاء الوجود معتمدًا إلى الأبد على مقود يقاد منه ، وإن الإنسان لكي يحصِّل كمال معرفته

---

(١) محمد إقبال (١٨٧٣ ـ ١٩٣٨م) شاعر وفيلسوف باكستاني ، حفظ القرآن الكريم ، ودرس المحاماة في جامعة لاهور ، والفلسفة في جامعة كامبردج ، وتابع دراسته العليا في ألمانيا ، وعاد إلى وطنه فاشتغل بالمحاماة ، وقرض الشعر ، وكان شعره ممزوجًا بمسحة صوفية فلسفية متألقة ، ودعا إلى نبذ التصوف الديني التقليدي ، وبشر بالتصوف العملي الذي يدفع إلى الجد والنشاط والجهاد ، من كتبه : تجديد الفكر الديني في الإسلام ، وأسرار الذات ، ورسالة المشرق ، ومسافر ، وما ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق ، وغيرها .

بنفسه ينبغي أن يُترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو ، إن إبطال الإسلام للرهبنة ، ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام ، وإصراره على أن النظر في الكون ، والوقوف على أخبار الأولين ، هي من مصادر المعرفة الإنسانية .. كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة) .



(الشاعر الفيلسوف محمد إقبال)

وبمعنى آخر ، فإن ختم النبوات ، ومن ثم ختم المعجزات ، يحمل إلى العقل البشري رسالة في غاية الوضوح ، وهي أن عليكم من الآن فصاعدًا التعامل مع هذا الوجود من خلال السنن الإلهية التي قدَّرها الخالق العظيم لهذا الكون ، وليس من خلال الخوارق . وهي نقلة واسعة جدًّا في كيفية التعامل مع هذا الوجود ، وهي - عند التأمل العميق - نقطة البداية في طريق العلوم الكونية ، فليست العلوم المختلفة في حقيقتها سوى الكشف عن هذه السنن وتسخيرها وفق المنهج العلمي الصحيح (انظر فصل : تاريخ العلم) .

الدين والعلمانية :

والعَلْمانية ، بفتح العين وسكون اللام مصطلح محدث يعني الدنيوية أو اللادينية ، وليس له صلة بكلمة العلم ومشتقاتها ، بل هي مشتقة من كلمة العالم بمعنى الدنيا [1] ، ولعل المفكرين العرب [2] ، الذين اختاروا مصطلح (العلمانية) مقابل المصطلح الأجنبي (*Secularism*) أرادوا التلبيس على الناس ، وإيهامهم بأن العلمانية تعني الاحتكام إلى

---

(١) مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، مطبعة مصر ، (١٩٦١م) .

(٢) يرجح أن أول من طرح مصطلح (العلمانية) في الساحة الثقافية العربية هو الأديب المصري القبطي إليفس بُقطُر (١٧٨٤ - ١٨٢١م) الذي عمل مترجمًا في الجيش الفرنسي أيام حملة نابليون ، ودرَّس اللغة العربية في باريس ، وساعد العلماء الفرنسيين في وضع (وصف مصر) ، وألَّف قاموسًا (عربي / فرنسي) طبع عام (١٨٢٨م) بعد وفاته ، ثم طرح بطرس البستاني مصطلح العلمانية في معجميه اللذين ألفهما من بعده .

العلم في أمور الدنيا بدلًا من الاحتكام إلى الدين الذي لا يمكن ـ بزعمهم ـ أن يحقق للبشرية سعادتها ورقيها وتقدمها ، علمًا بأن دائرة المعارف البريطانية عرَّفت العلمانية بأنها (حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها ، ذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا ، والتأمل في الله واليوم الآخر ، ومن أجل مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ Secularism تعرض نفسها من خلال تنمية النزعات الإنسانية ، إذ بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية البشرية وبإمكانية تحقيق طموحاتهم في هذه الحياة القريبة وظل الاتجاه إلى الـ Secularism يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتباره حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية) [١] .

وقد استعمل مصطلح *Secular* لأول مرة في أوروبا مع توقيع صلح وستفاليا عام (١٦٤٨م) الذي أنهى الحروب الدينية في أوروبا ، وتزامن هذا مع ظهور الدولة القومية الحديثة ، أي الدولة العلمانية ، وفي هذا إشارة إلى علمنة الكنيسة ونقل ممتلكاتها إلى سلطة مدنية غير دينية ، وقد اتسع المجال الدلالي لكلمة العلمانية على يد جون هوليوك (١٨١٧ ـ ١٩٠٦م) الذي عرَّف العلمانية بأنها الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية ، دون التصدي لقضية الإيمان ، سواء بالقبول أو الرفض [٢] .

وهكذا نشأت النزعة العلمانية في أوروبا ثم انتشرت في بقاع العالم بتأثير الاستعمار الأوروبي وبخاصة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، وقد ظهرت العلمانية في أوروبا نتيجة للظروف التاريخية التي سبقت الثورة الفرنسية والأحداث التي أعقبتها ، إذ تحول رجال الكنيسة هناك إلى طواغيت تحت ستار الدين ، وراحوا يبيعون صكوك الغفران ، ووقفوا وقفة متشددة وغير عادلة ضد العلم والعلماء ، واتهموا الكثيرين منهم بالهرطقة والخروج على تعاليم الدين ، ولم يتورعوا عن إحراق بعض العلماء جهارًا نهارًا بحجة مخالفة الكتاب المقدس والخروج على تعاليم الكنيسة ، ومنهم على سبيل المثال الفيلسوف الإيطالي (جوردانو برونو) [٣] الذي أحرق حيًّا في إحدى ساحات روما على مشهد من الناس ،

---

(١) محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ، (ص ٤٤٥) (عن : *l.Encyc.Britanica V.IX p.19* .

(٢) د. عبد الوهاب المسيري (العلمانية) بتصرف عن مقال منشور في موقعه على شبكة الإنترنت .

(٣) جوردانو برونو (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠م) : فيلسوف إيطالي ، ذهب إلى أن لكل إنسان وجهة نظر إلى العالم خاصة به ، =

ومنهم كذلك عالم الفلك الشهير (جاليليو جاليلي)[1] ، الذي حوكم وكاد يحرق على الملأ لولا أنه تراجع في آخر لحظة عن آرائه أمام هيئة المحكمة .

ولم تكتف الكنيسة بكل هذه الفظائع التي ارتكبتها ضد العلم ، بل عمدت لعقد تحالف ظالم مع الحكام الإقطاعيين ، مما زاد من ضيق الناس وتبرمهم من الدين وأربابه ، وراحوا يبحثون عن مخرج من هذا المأزق .





(من اليمين : جوردانو برونو ، جاليليو جاليلي ، عالمان من ضحايا التفسير الخاطئ للنصوص الدينية الذي قالت به الكنيسة في القرون الوسطى)

وربما كانت البداية الحقيقية للخلاص من سلطة الكنيسة في عام (١٧٤٥م) حين أصدر الطبيب الفيلسوف الفرنسي جوليان أفروي دو لامتري (١٧٠٩-١٧٥١م) كتابه (التاريخ الطبيعي للروح) الذي فسر فيه الظواهر النفسية عند البشر تفسيرًا ماديًا ، وأرجعها إلى التغيرات الكيميائية التي تحصل في الجهاز العصبي ، وبعد عامين أصدر كتابه الثاني

= وأن الحق المطلق فوق إدراك الإنسان ، وأن العالم مكون من عناصر أولية لا يرتد بعضها إلى بعض ، بل تعمل وفق قوانين يحكمها مبدأ كوني شامل ، اتهمته الكنيسة بالزندقة ، فأصدر البابا أمرًا بإعدامه حرقًا فأحرق على مشهد من العامة في مدينة البندقية بإيطاليا .

(١) جاليليو جاليلي (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢م) : عالم إيطالي ، اشتغل بالفلك والرياضة والطبيعة ، وضع أسس العلم التجريبي الحديث ، أثبت خطأ تعليمات أرسطو عن حركة الأجسام ، ووجد أنها تسقط بنفس السرعة وبتسارع ثابت مهما كان وزنها ، وأثبت أن مسار القذيفة قطع مكافئ ، صنع أول منظار فلكي في عام (١٦٠٩م) وأظهر به أن سطح القمر جبلي ، وأن في مجرتنا (الدرب اللبنية) عدد لا يحصى من النجوم ، وفي عام (١٦١٠م) اكتشف أربعة أقمار للمشتري ، ودرس أوجه الزهرة والبقع الشمسية ، وأيد نظرية كوبرنيكوس في دوران الأرض حول الشمس ، فحوكم وأرغم على التراجع عن هذه النظرية لأنها تعارض ما تقول به الكنيسة .

(الإنسان الآلة) الذي عبَّر فيه بصورة أكثر جرأة ووضوحًا عن نزعته المعادية للدين ، وقلل فيه من شأن الإنسان معتبرًا إياه مجرد كائن مادي لا يمتاز عن غيره من الحيوانات أو بقية المخلوقات في هذا الوجود ، وقد أثارت هذه الأفكار الكثير من الغضب الشعبي ضد هذا المفكر ، وحرَّكت ضده الكنيسة فحرَّمت قراءة كتبه ، وأمرت بإحراقها على مشهد من عامة الناس .

إلَّا أن الموجة العلمانية المعادية للدين لم تتوقف عند هذا المفكر الذي يعد رائد الحركة العلمانية الحديثة ، ففي عام (١٧٧٨م) أصدر الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) [١] ، كتابه الشهير (العقد الاجتماعي) الذي دعا فيه إلى سيادة الشعب ، واستبعاد الدين من التشريعات القانونية ، وبهذا مهد روسو لقيام الثورة الفرنسية التي شكلت أول حكومة لا دينية في فرنسا عام (١٧٨٩م) ، تلك الحكومة التي راحت لأول مرة تحكم باسم الشعب لا باسم الإله .

وفي عام (١٧٩٣م) أصدر الفيلسوف والكاتب السياسي الإنكليزي وليام جودوين (١٧٥٦ ـ ١٨٣٦م) كتابه (بحث في مبادئ العدالة السياسية وأثرها في السعادة والفضيلة العامة) الذي دعا فيه بصراحة أكبر من صراحة روسو ومن سبقه إلى تبني المنهج العلماني ونبذ الدين نهائيًا ، ونتيجة هذه الدعوات المتلاحقة ازداد الاتجاه نحو العلمانية ، ولم يلبث الفيلسوف (عمانويل كانط) [٢] أن شارك في هذه النزعة العلمانية ، فأصدر في عام (١٨٠٤م) كتابه (الدين في حدود العقل وحده) الذي شكك فيه بالعقائد السماوية قاطبة ، وزعم أن الله يمكن أن يكون موجودًا أو غير موجود ، وبهذا دق إسفينًا جديدًا في الفكر الديني ، وأعطى في زعمه حجة عقلية للمنادين بالنزعة العلمانية .

وفي غضون نصف قرن من الزمان كثر المؤيدون للفكر العلماني ، ودخل بعض علماء البيولوجيا على الخط ، حتى إذا كان العام (١٨٥٩م) نشر (تشارلز داروين) [٣] كتابه الشهير (أصل الأنواع) الذي عرض فيه نظريته في التطور والنشوء والارتقاء ، وانتهى فيه إلى أن سلسلة الحياة في الأرض بدأت بخلية وحيدة راحت تتطور على مر الزمان لينشأ

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) سبقت ترجمته .

منها المخلوقات المختلفة ، من نبات وحيوان وإنسان ، وأن الإنسان لا يعدو أن يكون واحدًا من هذه المخلوقات التي ظهرت في الأرض بطريق المصادفة المحضة ، وأن الطبيعة هي التي تخلق وتبدع وتصور ، وعلى الرغم من أن نظرية التطور هذه لم تتعرض مباشرة للدين فإن بعض المفكرين استغلوها على الفور وراحوا يروجون لها ويقدمونها على أنها الدليل العلمي القاطع على خطأ فكرة الخلق والخالق التي تقول بها الأديان السماوية .

وهكذا استمرت فكرة العلمانية بالنمو والانتشار واكتساب المزيد من الفلاسفة والمفكرين المؤيدين لها ، حتى جاء الفيلسوف الألماني (فردريك نيتشة)[1] ، صاحب الصيت الذائع ، فنشر في عام (١٨٨٠م) فلسفته القائلة بأن الله قد مات (تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا) ، وأنه آن الأوان للإنسان أن يحلَّ محله في تسيير العالم .

وتبعه بعد سنوات قليلة الطبيب النفساني (سيجموند فرويد)[2] ، الذي نشر نظريته في التحليل النفسي في عام (١٨٩٠م) ، وانتهى فيها إلى أن الإنسان ليس سوى حيوان تتحكم الغريزة الجنسية بتصرفاته الشعورية وغير الشعورية ، وأن عليه إشباع هذه الغريزة إشباعًا تامًّا وعدم كبتها كما تأمر الأديان ، وإلَّا عانى من الكبت والحرمان وأصبح فريسة سهلة للأمراض النفسية ، وبهذا اكتمل الثلاثي النكد (داروين ، نيتشة ، فرويد) الذين كان لأفكارهم تأثير بعيد المدى في تشكيك الناس بالأديان ، وإغرائهم بالمنهج العلماني في الحياة .

---

(١) فردريك فلهلم نيتشة (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م) : فيلسوف وعالم نفس وعالم لغوي ألماني ، نشأ يتيمًا فربته أمه على التقوى التي ما لبثت أن انقلبت إلى ثورة عقلية جعلته غريب الأطوار ، تأثر بفلسفة شوبنهاور ، وصادق الموسيقار فاجنر ، ثم ثار عليهما وعلى بقية أصدقائه بعد أن أصيب باضطراب عصبي ومرض في عينيه أجبره على ترك التدريس والتنقل في الآفاق بحثًا عن العلاج ، وانتهى به الحال إلى مرض عقلي حاد ، وقد تميزت فلسفته بالشاعرية والرمزية . من أهم مؤلفاته (هكذا تكلم زرادشت) الذي بشر فيه بالإنسان الأعلى أو السوبرمان ، وهاجم الأخلاق المسيحية التقليدية ؛ لأنها تعادي المتازين لحساب الضعفاء وتصلح لسواد الناس ممن ينقادون وراء الأقوى ، وقد كان لفلسفته تأثير واسع في الفكر الأوروبي الحديث ، وهو يعد ملهم المدارس الوجودية وما بعد الحداثة ، واستخدمت بعض آرائه فيما بعد من قبل أيديولوجي الفاشية والنازية .

(٢) سيجموند فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩م) : طبيب نمساوي ، مؤسس مدرسة التحليل النفسي ، ذهب إلى أن الغريزة الجنسية هي محور التطور البشري وسبب شتى الاضطرابات النفسية التي يعاني منها الإنسان ، وعلى أساس هذه الفكرة بنى تفسيره لنشأة المجتمع والدين والحضارة ، مما أثار عليه سخط أطباء النفس ورجال الدين والأخلاق والإصلاح في المجتمع ، إلَّا أن نظريته أثرت تأثيرًا واسعًا في الدراسات النفسية والاجتماعية والتربية والفن والأدب .

ثم جاء الفيلسوف الإنكليزي (جوليان هكسلي) [1] وهو أحد أهم الرموز العلمانية في العصر الحديث فأوجز في كتابه : الإنسان في العالم الحديث *(Man In The Modern World)* نظرة العلمانية إلى الدين ، ونشر عدة كتب تؤيد هذه النزعة ، ومما كتبه بهذا الصدد : (لقد كان الإنسان يخضع لله بسبب الجهل والعجز ، والآن بعد أن تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان من قبل في عصر الجهل والعجز على عاتق الله ويصبح هو الله) [2] تعالى الله علوًّا كبيرًا .





(من اليمين : نيتشة ، فرويد ، جوليان هكسلي ، أبرز الفلاسفة والعلماء الذين أسسوا للفلسفة العلمانية)

وسرعان ما انتقلت هذه الأفكار العلمانية إلى الساحة العربية في أواخر القرن التاسع عشر ، وأصبحت أسماء رموزها الأوروبية متداولة بكثرة على الساحة الفكرية والإعلامية وفي المنتديات العربية ، وفي عام (١٨٣٠م) بدأ بعض المبتعثين العرب العائدين من أوروبا ترجمة كتب أعلام العلمانية الأوروبيين ؛ من أمثال فولتير وروسو ومونتسكيو ، وفي عام (١٨٦٠م) بدأت حركة التغريب والعلمنة عملها في لبنان عن طريق إرساليات التنصير ، ومن هناك امتدت إلى مصر في عهد (الخديوي إسماعيل) [3] ، الذي أعجب كثيرًا

---

(١) جوليان هكسلي (١٨٨٧ ـ ١٩٧٥م) : فيلسوف إنكليزي ، وأخصائي في علم الحيوان ، كان له دور في تأسيس منظمة (اليونسكو) وقد أثارت الوثيقة التي أصدرها بهذه المناسبة جدالات ومعارضات حامية ، وفي فترة لاحقة أصبح نائبًا لرئيس اللجنة الدولية المعنية بتاريخ التطور العلمي والثقافي للبشرية طوال عشرين عامًا (١٩٥٠ - ١٩٦٩م) ، وكان نشطًا في إنشاء منظمات مهمة غير حكومية .

(٢) محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ، (ص ٤١٠) ، مصدر سابق .

(٣) الخديوي إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا (١٨٣٠ - ١٨٨٥م) : خامس حكام مصر من الأسرة العلوية ، بدأ حكمه عام (١٨٦٣م) وحاول توجيه البلاد نحو المعاصرة فأغرقها بالديون ، وفي عام (١٨٦٦م) حصل على لقب خديوي من السلطان العثماني بموجب فرمان مقابل زيادة في الجزية ، وبموجب هذا الفرمان

بأوروبا ومنجزاتها العلمية والفكرية ، وعمل جهده على جعل مصر قطعة من أوروبا في كل شيء ، حتى إنه في عام (١٨٨٣م) أمر بالأخذ بالقانون الفرنسي في مصر فكان بهذا العمل أول من عمل على إقصاء الشريعة الإسلامية عن الحياة في العالم الإسلامي .



(الخديوي إسماعيل)

وقد تزامن هذا التوجه نحو العلمانية في البلدان العربية مع جهود أخرى كانت تجري في أوروبا بهدف علمنة الوطن العربي وإبعاده عن دينه ، ففي عام (١٨٨٥م) تأسس معهد اللغات الشرقية في باريس لجمع المعلومات عن البلدان الإسلامية ، من أجل تسهيل عملية التغريب والعلمنة بين المسلمين ، وابتداء من العام (١٩٠٥م) بدأ المستشرق الإنكليزي (مرجليوث)[1] ، إصدار مجموعة من الكتب التي تثير الشبهات حول الدين الإسلامي ، أولها كتابه (محمد ومطلع الإسلام) الذي أتبعه بكتابه (الجامعة الإسلامية ، ١٩١٢م) ، ثم كتابه (التطورات المبكرة في الإسلام ، ١٩١٣م) .

وقد كان للمستشرق مارجليوث تأثير كبير ببعض تلامذته العرب الذين تأثروا بنزعة التغريب والعلمنة وأخذوا على عاتقهم نشرها في البلدان العربية والإسلامية ،

عدلت طريقة نقل الحكم لتصبح بالوراثة ، ثم حصل على فرمان آخر لمنحه استقلالاً أكثر عن الدولة العثمانية . وفي عام (١٨٧٩م) خلعته إنجلترا وخلفه أخوه توفيق .

(١) مافيد صموئيل مرجليوث (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠م) : مستشرق إنكليزي ، تخصص بالدراسات العربية ، عمل أستاذًا للغة العربية في جامعة أكسفورد ، وعين عضوًا في المجمع العلمي بدمشق ، حقق ونشر الكثير من أمهات الكتب العربية ؛ منها (إرشاد الأريب لمعرفة الأديب) ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ، والأنساب للسمعاني ، ورسائل المعري بالإنكليزية ، وديوان الحماسة لأبي تمام ، وألف كتبًا في تاريخ الإسلام ؛ منها : محمد ومطلع الإسلام ، ونشأة الإسلام ، والتطورات المبكرة في الإسلام ، كما كتب مواد عديدة لدائرة المعارف الإسلامية [الموسوعة العربية الميسرة] .

ولم يأت العام (١٩٠٨م) حتى اتسعت هذه الحركة في ديار المسلمين ، ولا سيما بعد سقوط السلطان العثماني عبد الحميد في إستانبول وسيطرة حزب الاتحاديين على الحكم ، واستيلاء الزعيم (**مصطفى كمال أتاتورك**)[1] على السلطة ، وإلغائه نظام الخلافة الإسلامية في عام (١٩٢٤م) ، وشروعه بتوجيه تركيا نهائيًا وبقوة على طريق العلمنة بحجة اللحاق بركب الحضارة الغربية ، وهي محاولة بائسة لم تتم حتى يومنا الحاضر ، بالرغم مما قطعته تركيا من أشواط بعيدة جدًّا في مسايرة أوروبا وتحقيق كل مطالبها ، بما فيها المطالبة بإقصاء الشريعة الإسلامية .. فتأمل .



(مصطفى كمال أتاتورك)

وقد شجعت التحولات العلمانية في العالم الغربي ، وما صاحبها من تطور تقني وإنجازاتٍ علمية ، بعض المفكرين العرب والمسلمين على المضي خطوة أبعد على طريق التغريب والعلمنة ، وبدأ بعضها يسير على نهج الفلاسفة الغربيين في انتقاد الدين الإسلامي والدعوة لتطويره ، ففي عام (١٩٢٥م) وبعد عام واحد من سقوط الخلافة الإسلامية أصدر الشيخ علي عبد الرازق (١٨٨٥ ـ ١٩٤٧م) القاضي في محكمة المنصورة الشرعية الابتدائية بمصر كتابه الشهير (الإسلام ونظام الحكم) الذي شكك فيه بأصول الحكم في الإسلام ، ونفى عنها الصفة الدينية ، وانتهى فيه إلى (أن الحكومة في الدولة الإسلامية يمكن أن تكون من أي نوع ، مطلقة أو مقيدة ، فردية أو جمهورية ، استبدادية أو شورية ، ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية ، وأن الرسول ﷺ لم يكن إلّا رسولًا لدعوة دينية خالصة

---

[1] سبقت ترجمته .

للدين لا تشوبها نزعة مُلك ولا دعوة لدولة ، وأن الإسلام وحدة دينية ، وأن النبي ﷺ دعا إلى تلك الوحدة .. وأن ولاية النبي ﷺ على المؤمنين كانت ولاية رسالة غير مشوبة بشيء من الحكم)[١] .

وقد بدا كتاب الشيخ علي عبد الرازق في حينه وكأنه رجع الصدى لكتاب المستشرق البريطاني ويلفريد سكوون بلانت (١٨٤٠ ـ ١٩٢٢م) الذي نشره قبل ذلك بسنوات قليلة تحت عنوان (مستقبل الإسلام) ودعا فيه المسلمين لتبني النهج الذي سارت عليه الكنيسة من فصل الدين عن الدولة ، أو فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية ، وعلى الرغم من أن الشيخ عبد الرازق قد أدين من قِبَلِ هيئة كبار العلماء في الأزهر ، وأُخرج من زمرة العلماء ، وفُصِلَ من وظيفته ، وصودر كتابه ومنع نشره يومذاك[٢] ، إلا أن الأفكار التي أثارها وجدت لها فيما بعد مؤيدين من بعض الكتاب العرب الذين راحوا يروجون لها بأساليب مختلفة .



(الشيخ علي عبد الرازق)

غير أن معظم هؤلاء عادوا بعد فترة قصيرة من الزمن فتراجعوا عن أفكارهم حتى أدركوا طبيعة الظروف التي ألجأت أوروبا للأخذ بالمنهج العلماني ، وأدركوا الهدف الخبيث الذي يراد بالأمة العربية والإسلامية من وراء الترويج لتلك الأفكار ونشرها

---

(١) علي عبد الرازق : الإسلام وأصول الحكم ، (ص ٨٢) .

(٢) طبع الكتاب لأول مرة في مصر في شهر إبريل / نيسان (١٩٢٥م) ، ثم صودر ولم يطبع إلا في عام (١٩٦٦م) من قبل دار مكتبة الحياة في بيروت ، ثم نشرته مجلة الطليعة القاهرية في عام (١٩٧١م) ، وعلى ما نعلم لم يطبع بعد ذلك .

ولعل من أشهر هؤلاء المفكرين عميد الأدب العربي (طه حسين)[1] الذي تتلمذ على المستشرق البريطاني مرجليوث وتأثر به كثيرًا ، فقد أصدر طه حسين في عام (١٩٢٦م) كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي أثار في حينه عاصفة قوية من الاحتجاج في الأوساط الإسلامية لا تقل عن العاصفة التي أثارها كتاب الشيخ علي عبد الرازق ، فقد شكك طه حسين بتاريخ العرب قبل الإسلام ، وشكك ببعض الحقائق التاريخية التي وردت في القرآن الكريم ، ظنًّا منه بأن مثل هذا التشكيك يمكن أن يجعل الأمة الإسلامية أكثر قابلية للتفاعل مع تيار التحديث القادم من أوروبا ، لكن طه حسين عاد بعد فترة عن هذه الأفكار ، وكتب العديد من الكتب القيمة التي تنافح عن الإسلام ، وتبرز طبيعة هذا الدين وما فيه من قيم إنسانية خيرة ، وأنه دين ودنيا ، وأن اهتمام الإسلام بأمور الدنيا لا يقل عن اهتمامه بأمور الآخرة ، وأنه دين يستهدف رقي الإنسان وتحقيق كرامته الإنسانية وسعادته الدنيوية قبل سعادته الأخروية .

وإذا كان المثل الدارج يقول : (رُبَّ ضارة نافعة) فإن هذا المثل ينطبق تمامًا على ما جرى في ديار المسلمين من مواجهات ساخنة بين أصحاب التيار العلماني وللمسلمين الحريصين على دينهم ، فقد أثارت الدعوة إلى العلمانية روح الصحوة في الأمة الإسلامية ، وانبرى نفر واسع من علمائها ودعاتها للدفاع عن الإسلام ، ودحض الشبهات التي حاول العلمانيون أن يلصقوها بهذا الدين ، ولا سيما منها تلك الفِرْيَةِ التي تزعم أن الدين هو السبب الأساسي لتخلف هذه الأمة ووقوعها تحت براثن الهيمنة الأجنبية .

---

(١) طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م) : أديب مصري ، فقد بصره في السادسة من عمره ، وحفظ القرآن الكريم قبل أن يغادر قريته إلى الأزهر طلبًا للعلم ، وتتلمذ على الإمام محمد عبده الذي علمه التمرد على طرائق التفكير التقليدي ، فانتهى به الأمر إلى الطرد من الأزهر واللجوء إلى الجامعة المصرية التي حصل منها على درجة الدكتوراه الأولى في الأدب عام (١٩١٤م) ، ثم سافر إلى فرنسا فحصل على الدكتوراه من السوربون ، وعندما عاد تولى إدارة جامعة الإسكندرية في عام (١٩٤٣م) ، وأصبح وزيرًا للمعارف في عام (١٩٥٠م) ، وكان له دور كبير في تشكيل الثقافة العربية المعاصرة ، وظل يثير عواصف التجديد من حوله طوال مسيرته الفكرية ؛ من مؤلفاته : في الأدب الجاهلي ، الأيام ، دعاء الكروان ، شجرة البؤس ، المعذبون في الأرض ، على هامش السيرة ، حديث الأربعاء ، مستقبل الثقافة في مصر ، وبعض الأعمال المترجمة .



(عميد الأدب العربي الحديث طه حسين)

وفي خضم هذه المواجهات بين الطرفين ظهرت مجموعة واسعة من البحوث والدراسات الأصيلة التي تناولت التراث الإسلامي بالنقد والتمحيص ، في سبيل تجديد هذا التراث وأعادته للتفاعل الخلاق مع روح العصر ، وتهيئة الأمة الإسلامية من جديد للدخول في دورة حضارية ثانية سوف تعيدها بمشيئة الله إلى موقع الشهادة على العالمين قبل أن تغرب شمس القرن الحالي .

وللإنصاف نقول : إن ما جرى على الساحة العربية والإسلامية من حوارات ومجادلات ومواجهات بين العلمانيين والمتدينين قد جرى ما يقابله في بقية بلدان العالم ، لا سيما بعد أن تغيرت الظروف التي دعت للأخذ بالمنهج العلماني في تلك البلدان ، وبعد أن أثمرت العلمانية هناك المرّ والعلقم ، وذاقت تلك المجتمعات من جراء ابتعادها عن الدين صنوفًا لا تحتمل من الجرائم والمشكلات والكوارث الاجتماعية والنفسية ، ومع أن العودة إلى الدين هناك كانت أقل وضوحًا مما كانت في البلدان الإسلامية فإن المؤشرات تدل على أن الكثيرين هناك بدؤوا يراجعون مواقفهم من الدين ، فيما راح المدُّ العلماني بالتراجع والانحسار ، تحقيقًا لقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد : ١٧] .

ولعل الدرس المستفاد من هذه المواجهات ما بين العلمانيين الداعين لفصل الدين عن الحياة وبين المتمسكين بأهداب الدين أن التراث الديني بحاجة ماسّة لإعادة النظر فيه مرة بعد مرة ، وعصرًا بعد عصر ؛ وذلك لأن المفاهيم الدينية تختفي مع مرور الزمن خلف آراء الفقهاء ورجال الدين ، وهذا ما قد يبعدها قليلًا أو كثيرًا عن المقاصد الربّانية التي نزل الوحي لتحقيقها في حياة الناس ، وقد ورد عن النبي ﷺ أحاديث تفيد بأن التراث الديني

بحاجة ما بين فترة وأخرى لإعادة النظر فيه من أجل تجديده ، منها قول النبي ﷺ : « إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لهذه الأُمَّةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لها دينَها »[1] .

وغني عن البيان أن التجديد في الدين لا يعني تجديد أصول الدين أو تغييرها ؛ بل يعني تجديد الفهم البشري لها ، ولهذا ينبغي لنا دومًا أن نميز ما بين رسالة السماء ، أي الوحي ، وبين التراث الديني الذي يتشكل من الفقه والتفسير وغيره مما هو إنتاج بشري ، فهذا التراث وإن كان يقوم أساسًا على نصوص الوحي إلا أنه يبقى آخر الأمر اجتهادًا بشريًّا قد يحقق الفهم الصحيح لهذه النصوص وقد لا يحققه ، أو بمعنى آخر فإن هذا الاجتهاد البشري في نصوص الوحي قد يوافق مقاصد الشارع الحكيم وقد لا يوافقها ، ولهذا يلزم بين الحين والآخر إعادة النظر في التراث الديني للعودة به إلى نقائه الأول ، ومحاولة الاقتراب أكثر فأكثر من تحقيق مقاصده الأصلية .

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) ، والحاكم في المستدرك (٨٥٩٢) ، من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

الفَصْلُ التَّاسِعُ

تاريخ الصِّراع

● ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

● إن العصر النووي يحتاج إلى عقلية نووية فقد انتهى عصر المراوة والغابة .

الرئيس الروسي الأسبق جورباتشوف (بروسترويكا)

● لا شيء في التاريخ أقلّ دوامًا من النصر العسكري .

القائد العسكري الروسي نوسلايك

● الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يصنع أدوات حياته وموته .

الفيلسوف اشبنجلر

تتنوع المخلوقات في هذا الوجود تنوعًا مذهلًا يعجز العقل البشري عن الإحاطة بدقائقه وتفاصيله ، من أصغر مخلوق إلى أكبر مخلوق ، من الذرة إلى المجرة ، ومن الجماد إلى النبات إلى الحيوان .. إلى الإنسان .

وتختلف هذه المخلوقات بعضها عن بعض اختلافات واسعة بالصفات والطاقات والاستعدادات ، وتنشأ عن ظاهرة الاختلاف والتنوع هذه ظاهرة أخرى تكاد ترتبط بها ارتباطًا عضويًا ، هي ظاهرة (الصراع) الذي يجري بين هذه المخلوقات فيضفي على الوجود سمة الحيوية والحركة والنشاط ، ويثمر آخر المطاف دوام هذا الوجود ونموه وتطوره .

ويمكن أن نشبه الصراع بين هذه المخلوقات بالتفاعلات التي تحصل بين العناصر الكيميائية بسبب اختلاف خواصها وقابلياتها ، فإن التقاء هذه العناصر بعضها مع بعض يثير التفاعل بينها ، وقد يكون هذا التفاعل عنيفًا فينتج عنه مقدار هائل من الطاقة والحرارة ، وقد تتصاعد منه الأبخرة ، وقد تصدر عنه فرقعات وأصوات مدوية ، إلّا أن هذا التفاعل لا يلبث أن يهدأ شيئًا فشيئًا ، بعد أن تترابط العناصر فيما بينها بروابط قوية تسفر عن تشكيل مركبات كيميائية مستقرة .

وكذلك هي الحال بين مخلوقات هذا الوجود ، فإن اختلافها وتنوعها وتباين صفاتها واستعداداتها يجعلها قابلة للتفاعل (أو الصراع) بعضها مع بعض ، وهذا التفاعل

أو (الصراع موجود على كل المستويات ، وفي كل مكان ، فهو موجود في العالم البيولوجي حيث الصراع الفردي وصراع الأجناس جزء مهم من الصورة ، وهو موجود في عالم البشر ولذا كان موضع اهتمام ودراسة في كافة العلوم الاجتماعية ، ويتناول علمُ النفس الصراعَ داخل الفرد ، وعلم الأنثروبولوجيا الصراعَ بين الثقافات ، وعلم الاجتماع الصراعَ داخل وبين الجماعات إلى جانب الصراع العنصري والصراع الديني ، وعلم الاقتصاد الصراعَ بين المنظمات والشركات والنقابات .. إلخ ، والعلوم السياسية الصراعَ بين التنظيمات السياسية والصراعَ الدولي ، وعلم التاريخ ما هو إلا سجل كبير لظاهرة الصراع ، وحتى الجغرافيا درست الصراع اللانهائي بين الماء واليابسة ، وبين الصحراء والمناطق الزراعية ، ويشكل الصراع جزءًا كبيرًا من الدراسات المتخصصة في العلاقات الدولية ، وأية علاقات أخرى ، الأمر الذي دعا بعض العلماء للقول بنظرية عامة للصراع)[1] .

البداية المشؤومة :

ولا يخرج المجتمع البشري عن هذه القاعدة ؛ فالمجتمع البشري يتكون من أمم وسلالات وأعراق ، يختلف بعضها عن بعض ، في الجبِلّة واللسان والألوان والعادات والتقاليد والمعتقدات ، ويضم أفرادًا يختلف بعضهم عن بعض في القدرات العقلية والميول النفسية والمصالح والأهواء .. إلى غير ذلك من أوجه الاختلافات الكثيرة التي تجعل المجتمع البشري قابلًا للتفاعل والصراع بعضه مع بعض .

وبالرغم مما ينطوي عليه هذا الصراع من مخاطر ، وما ينتج عنه من أضرار ، فإنه ينطوي بالمقابل على فوائد عظيمة لا يمكن إنكارها ، فهو يحافظ على التوازن الحيوي في المجتمع بمدافعة أهل الخير لأهل الشر ، فَيَحُول بذلك دون فساد الخليقة ، كما عبَّر عن ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

وما دام الصراع في هذا الوجود سنة من سنن الله في خلقه ، فليس غريبًا أن يكون أول ظاهرة يشهدها التاريخ البشري منذ بداياته الأولى ، لقد نشب الصراع بين الخير والشر مع اللحظة الأولى التي خلق الله فيها الإنسان ، وأسجد له ملائكته المقربين تعبيرًا عن تكريم هذا المخلوق وتحضيره لحمل الأمانة والاستخلاف في الأرض فأبى الشيطان (إبليس)

---

(١) د . أحمد فؤاد رسلان : نظرية الصراع الدولي ، (ص ٧) .

أن يذعن للأمر الإلهي ، وقال معترضًا على تكريم آدم :﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦] ، ولم يتوقف إبليس عند هذا الحد المفرط من الوقاحة في رحاب الحضرة الإلهية ، بل عبَّر عن منهجه الشيطاني في إذكاء نار الصراع بين الناس : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف ١٦ ـ ١٧] .

وابتداءً من تلك اللحظة المبكرة المشؤومة دبَّ الصراع في هذا العالم ، وكان هو السبب في الإخراج من الجنة ، ولم ينحصر هذا الصراع في نطاق العلاقة بين الشيطان والإنسان ، بل سرعان ما انتقل إلى بني آدم أنفسهم ، فوقع أول صراع بين ولدي آدم ﷺ : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧ - ٣٠].

وانطلاقًا من هذه البداية المأساوية تتابع مسلسل الخلاف والنزاع والصراع بين الناس ، وبدأ التاريخ الفعلي لأخطر ظاهرة عرفتها البشرية عبر تاريخها ، وكان ذلك العصيان من إبليس وتلك البادرة الطائشة الحقودة من ولد آدم تجاه أخيه أشبه بالسُّمِّ النَّاقع الذي حُقِنَ في شرايين التاريخ البشري فلم يبرأ منه حتى اليوم ، والظاهر أنه لن يبرأ منه حتى آخر الزمان ، وليس كما زعم في الماضي فلاسفة السعادة المثاليين ، أو كما يزعم في الحاضر بعض المنظِّرين السياسيين الذين يزعمون أن الحربين العالميتين اللتين شهدهما النصف الأول من القرن العشرين كانتا (آخر الحروب) ، وأن الصراع بين الناس قد توقف أو كاد ، وأن السلام لن يلبث أن ينشر ظلاله الوارفة على العالم .

ولعل من الطريف هنا أن نورد ما كتبه المفكر العربي (عبد الرحمن الكواكبي)[1] ، في خاتمة كتابه الشهير (طبائع الاستبداد) وكان هذا المناضل قد ذاق من خصومه ألوان التعذيب والسجن والملاحقة ، لكنه بالرغم من كل هذا ظَلَّ متفائلًا على طريقة الفلاسفة

(١) عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م) مفكر سوري ، وتلقى علومه في المدرسة الكواكبية على أيدي مشاهير من علماء حلب ، عمل في المحاماة والصحافة ، وتولى بعض المناصب الرسمية لكنه بسبب أفكاره السياسية تعرض للاضطهاد والسجن مرارًا ، مما اضطره للهروب ، فطوَّف في الجزيرة العربية وشرقي أفريقيا والهند والشرق الأقصى ، ثم استقر في مصر التي توفي فيها متأثرًا بالسم الذي دُسَّ له في فنجان قهوة .

المثاليين فكتب يقول : (وإني أختم كتابي هذا بخاتمة بشرى ، وذلك أن بواسق العلم وما بلغ إليه ، تدل على أن يوم الله قريب ، ذلك اليوم الذي يقل فيه التفاوت في العلم وما يفيده من القوة ، وعندئذ تتكافأ القوات بين البشر ، فتنحلُّ السلطة ، ويرتفع التغالب ، فيسود بين الناس العدل والتوادد ، فيعيشون بشرًا لا شعوبًا ، وشركات لا دولًا ، وحينئذ يعلمون ما معنى الحياة الطيبة : هل هي حياة الجسم وحصر الهمة في خدمته ، أم هي حياة الروح وغذاؤها الفضيلة ؟ ويومئذ يتسنى للإنسان أن يعيش كأنه عالم مستقل خالد ، كأنه نجم مختص في شأنه ، مشارك في النظام ، كأنه مَلِكٌ وظيفتُه تنفيذُ أوامرِ الرحمنِ المُلهمة للوجدان)[1] ، فأين هي هذه البشرى التي تفاءل بها الكواكبي من الواقع المشهود وقد مضى عليها زهاء قرن من الزمان .

نعم .. قد تهدأ حدة الصراع بين الناس حينًا من الدهر ، حتى ليخيل إليك أن البشرية قد بلغت أخيرًا سن الرشد ، وآمنت بأن (الصلح خير) ، إلَّا أن النظرة المدققة في صفحات التاريخ تنبئك أن فترات السلام لم تكن سوى وقفات عابرة كاستراحة المحارب بين جولتين ، وقد ذكر مؤرخ الحروب السويسري (بابل) أن البشرية ظلت على مدى (٥٥٠٠ سنة) الماضية من تاريخها في حروب طاحنة متواصلة أسفرت عن مقتل ملايين لا تحصى من البشر ، وأن البشرية على مدار هذا التاريخ الطويل لم تعرف الراحة سوى (٢٩٢ سنة) فقط ، بل إن القرون الثلاثة الميلادية الأخيرة فقط (١٨، ١٩، ٢٠) شهدت (٢٨٦ حربًا) في أوروبا وحدها[2] ، أي بمعدل حرب واحدة كل عام ، ناهيك عن بقية أنحاء العالم التي اكتوت بصراعات دامية وحروب مدمرة لا تُعَدُّ ولا تُحصى .



(عبد الرحمن الكواكبي)

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي : طبائع الاستبداد ، (ص ١٥٩) .

(٢) جنس : موسوعة الأرقام القياسية ، (ص ١٤٧) .

وهكذا ظلت البشرية على مدار تاريخها تمضي (١٩سنة) في الحرب مقابل (سنة واحدة) فقط من الراحة ، وهذه الراحة في الحقيقة لم تكن راحة حقيقية ، بل كانت راحة شكلية كان الناس يمضونها بالاستعداد للحرب المقبلة ، وهذا يعني أن الحرب كانت جزءًا لا يتجزأ من التاريخ البشري ، وهي للأسف الشديد ما زالت كذلك حتى يومنا الحاضر ، إذ يقدر الخبراء العسكريون أن البشرية أصبحت تخصص في نهاية القرن العشرين مبالغ طائلة جدًا للحرب تربو على (٣,٢٪) من الناتج المحلي [1] .

أمّا السلاح الحربي الذي بدأ باستخدام العصا والحجر فقد وصل اليوم إلى القنابل الذرية والهدروجينية ، والنترونية ، والكيمياوية ، والبيولوجية ، وبعد أن كان السلاح فرديًا أصبح اليوم سلاح تدمير شامل يمكن أن يدمّر العالم بأسره ، ليس مرة واحدة بل آلاف المرات ، من خلال كبسة واحدة على الزّر ، ففي مستودعات الدول النووية اليوم عشرات الآلاف من الرؤوس النووية المدمرة التي لو وزّعت على أهل الأرض لكان نصيب كل إنسان منهم (١٠,٠٠٠كلغ) من مادة (ت.ن.ت) شديدة الانفجار [2] ، هذا الإنسان الذي تكفي بعوضة تافهة لقتله .. فتأمل .

ويصف خبير الحرب الفرنسي فيكتور فيرنر في كتابه (الخوف الكبير) هذه الحالة المخيفة فيقول : (إن الحرب وصلت إلى شكل رجل بارتفاع ناطحة سحاب ، ووزن مئات الأطنان ، يمشي في المدينة كما فعل جاليفر العملاق في مدينة ليليوت مدينة الأقزام) [3] .

---

(١) انظر : البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة عن التنمية البشرية ، عام (١٩٩٦م) .

(٢) الجنرال فيكتور فرنر : الحرب العالمية الثالثة ، (ص ٢٨٣) .

(٣) إشارة إلى رواية (رحلات جاليفر) للأديب الإنكليزي جوناثان سويفت التي تروي حكايات عن رحلات خيالية إلى بلدان نائية غريبة ، وقد استهدف المؤلف منها السخرية من نواقص المجتمع الإنكليزي في عصره (انظر فصل : تاريخ الأدب) .



(ما زال البشر عند ظن الملائكة ، فما زالوا يعتبرون الحرب أفضل طريقة للسلام ولهذا قال قائلهم : إذا أردت السلام فعليك أن تستعد للحرب !)

وقد يخيل لكثير من الناس أن الخسائر البشرية الفادحة للصراع بين الناس لا تحصل إلا في الحروب الكبيرة كالحربين العالميتين اللتين وقعتا في النصف الأول من القرن العشرين وراح ضحيتهما أكثر من (٧٠ مليون نفس) عدا ملايين لا تحصى من المشوهين والمعاقين والأرامل والثكالى ، فالإحصائيات تعطينا صورة أشد قتامة عن تلك الحروب الصغيرة والصراعات المحلية التي تحصل هنا وهناك ، ما بين الفينة والفينة ، والتي لا تحفل بها وسائل الإعلام كثيرًا ، بالرغم من أن خسائرها تفوق الحروب ضراوة .

ففي دراسة نشرت عام (١٩٨٦م) تبين أن الذين قضوا نحبهم رميًا بالرصاص أو بالقنابل خلال الأربعين سنة التي تلت الحرب العالمية الثانية فاق عدد العسكريين الذين قتلتهم الحرب وأن عدد الحروب التي وقعت بعد الحرب العالمية الثانية وحتى عام (١٩٩٢م) بلغت (٢٠٠ حرب) بمعدل (٩حروب / سنويًا) في حقبة الخمسينات . و (١٤حربًا / سنويًا) في حقبة السبعينات[1] .

وصرح الخبير العسكري الروسي (ميخائيل كالاشنكوف) مخترع البندقية الرشاش التي تحمل اسمه أنه بيع من سلاحه الفتاك هذا خلال النصف الثاني من القرن العشرين ما يزيد عن (٢٠٠ مليون قطعة) ويفاخر هذا الخبير أن سلاحه يمتاز بالفتك الشديد . وسهولة الاستعمال ، وخفة الحمل ، ورخص السعر ، وكثافة النيران ، ومخزن رصاص يتسع للكثير من الطلقات القاتلة ، وعدم سخونة السلاح على كثرة الاستعمال .

---

(١) انظر : نيل غرانت ، تركي صالح (صراعات القرن العشرين) وانظر : راسل جاكوبي (نهاية اليوتوبيا) (ص ١٩٨)



(ميخائيل كالاشنكوف مع سلاحه المدمر)

وتؤكد هذه الشواهد الماثلة أمامنا أن البشرية ما زالت عند ظن الملائكة فيها حين أخبرهم الله ﷻ عن خلق الإنسان فقالوا : ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] ، ولم تحقق البشرية حتى اليوم عِلْمَ الله تعالى فيها حين ردَّ على الملائكة بقوله تعالى : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] .

ولم يغير هذه النزعة الشريرة عند بني آدم كل جوائز السلام التي أعطيت على مدار قرن كامل من الزمان ، ففي عام (١٩٠٠م) وبعد أن رأى الكيميائي السويسري (ألفرد نوبل)[1] ما سببه اختراعه لمادة (الديناميت) من دمار فظيع خامره شعور عميق بالذنب ، وندم أشد الندم على ما اقترفت يداه ، وأراد أن يكفِّر عن فعلته فابتدع جائزته الشهيرة التي رصدها للعاملين على نبذ العنف وإقرار السلام بين البشر ، إلَّا أن جائزته بقيت مجرد طقس سنوي شكلي بعيد كل البعد عن تحقيق أمنية مؤسس الجائزة ، فبعد مرور نصف قرن من الزمان على تأسيس الجائزة ألقيت القنبلتان الذريتان على مدينتي هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين ؛ فدمرتاهما عن بكرة أبيها ، وأودتا بحياة أكثر من مائتي ألف شخص .

(١) ألفرد نوبل : كيميائي سويدي ، صنع الديناميت عام (١٨٦٧م) لمساعدة عمال المناجم في أعمال الحفر ، إلَّا أن العسكر استغلوا الاختراع في الحروب فأدى إلى نتائج مأساوية ، فلما رأى نوبل ما آل إليه اختراعه أوصى بوقف مبلغ (مليون جنيه) لتمنح من فوائده جوائز سنوية لأحسن عمل في ميادين : السلام العالمي والفيزياء والكيمياء والأدب والطب ، توزع في مدينة ستوكهولم (يوم ١٠/ ١٢) ما عدا جائزة السلام التي توزع في مدينة أوسلو ، ومن الجدير بالذكر أن نوبل خصص هذه الجائزة بتشجيع من داعية السلام التشيكية (بيرتا فون سوتنر) التي حثت أوروبا لإلقاء السلاح والتعايش السلمي فاتهموها بالجنون وفرضوا عليها الإقامة الجبرية .



(صورة ألفرد نوبل على الوجه الأول من الميدالية الذهبية التي تمنح للفائزين بجائزة نوبل)

وعندما شاهد عالم الذرة الأمريكي (أوبنهايمر) [1] ، الذي قاد المشروع الأمريكي لإنتاج تلك القنابل المدمرة خامره ذلك الشعور بالذنب الذي خامر نوبل من قبله ، فراح يدعو إلى السلام ونبذ العنف والتعايش السلمي بين بني آدم ، ولكن بعد فوات الأوان. وبعد أن أسس للدمار سلاحًا يمكن أن يقضي على البشرية عن بكرة أبيها ، بل يمكن أن يدمر الأرض نفسها إذا ما أفلت زمام الأمور من يد صناع القرار ، ولعبت برؤوس بعضهم نشوة التدمير ؛ لأن مخزون هذا السلاح الرهيب الذي بين أيديهم يكفي لتدمير الأرض لا مرة واحدة .. بل مرات كثيرة .

غير أننا مع الإقرار بهذه الحقائق المُرَّة ، وإقرارنا بمخاطر الحروب وما ينتج عنها من دمار وكوارث اجتماعية ، لا يسعنا إلَّا الإقرار أيضًا بأن الصراع بين البشر لم يعد اليوم بالشدة نفسها التي ظل عليها عبر التاريخ ، فقد أمسى البشر اليوم أقل جرأة على اجتراح الحروب ، لا لأنهم وعوا درس التاريخ جيدًا ، ولا لأنهم تعافوا من عقدة إبليس وطيش قابيل ؛ بل لأن ضريبة الحرب المعاصرة قد تضاعفت أضعافًا مضاعفة من جراء التقدم العلمي الهائل الذي أتاح لعشاق الحروب أسلحة تدمير شامل لا تبقي ولا تذر ، في ظل هذا التقارب الشديد في الزمان والمكان الذي حوَّل كوكب الأرض إلى قرية صغيرة

(١) جوليوس روبرت أوبنهايمر (١٩٠٤ - ١٩٦٧م) : فيزيائي أمريكي ، عمل أستاذًا بمعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا ثم مديرًا للجنة بحوث الطاقة الذرية الأمريكية حتى عام (١٩٥٣م) ، أدى خدمات كثيرة في مجال الطاقة الذرية للأغراض العسكرية ، لكنه بعد إسقاط القنبلة الذرية على مدينتي هيروشيما وناجازاكي في اليابان عام (١٩٤٥م) وما شاهده من دمار شامل رهيب ، أصبح من المعارضين لاستخدام الذرة في الأغراض العسكرية ، ودعا لاستخدامها في الأغراض السلمية .

سرعان ما يتحول فيها الحدث المحلي إلى حدث عالمي ، وهذا يعني أن الآثار التدميرية للأسلحة الحديثة لن تقتصر على العدو وحده ، بل سيمتد تدميرها إلى الجنس البشري كله .

أضف إلى هذا أن الحروب والصراعات ليست هي المخاطر الوحيدة التي تهدد أمن الأرض وسلامها ومصيرها ، فقد فتحت الكشوف العلمية الأخيرة أبصارنا على الحقيقة المرعبة التالية ، وهي أننا ـ نحن أهل الأرض ـ لا نزيد عن أسرة صغيرة تسافر عبر الفضاء اللانهائي على حبة رمل ضئيلة جدًّا لا تكاد تساوي شيئًا في خضم هذا الكون الرحيب الذي يضم مليارات لا تحصى من النجوم والكواكب والتوابع والمجرات ، فنحن وأرضنا لا نزيد عن حبة رمل تائهة في صحراء شاسعة لا حدود لها ، وللمقارنة نذكر أن أرضنا أصغر من شمسنا بآلاف المرات ، فكتلة الشمس تعادل (١٣٠,٠٠٠ أرض) ، ولو وضعنا الشمس في كفة ميزان فإن الكفة الأخرى تحتاج (٣٣٣,٠٠٠ أرض) لكي تعادلها[1] .

ومما يزيد مشكلاتنا تعقيدًا أنَّ سفرنا عبر المجهول على حبة الرمل هذه ينطوي على مخاطر جمة لا حصر لها ، من جملتها الاحتمال المتزايد لاصطدام الأرض بأحد الأجرام السماوية التي تمر بين الحين والآخر عبر مدارات مجموعتنا الشمسية متجهة إلى الأرض ، وقد أظهرت المشاهدات الفلكية الحديثة أن أرضنا تتعرض في كل عام آلاف المرات لمثل هذا الاصطدام المدمر لولا أن الله ﷻ يحول بينها وبينه[2] ، علمًا بأن نظامنا الشمسي محاط بسحابة عظيمة من المذنبات هي سحابة (أوورت) التي تضم زهاء (١٠٠ مليار مذنب) وتبعد عنا حوالي ٣ تريليون كلم (٢٠,٠٠٠ وحدة فلكية) ، وهي تعد مصدرًا مهمًّا من مصادر الخطر الكثيرة التي تحيط بنا[3] .

ومن المخاطر التي تزداد نذرها الخطيرة يومًا بعد يوم كذلك ، نضوب جزء كبير من (طبقة الأوزون)[4] ، التي تشكل سقفًا محفوظًا حول الأرض يحفظها من أخطار الأشعة

---

(١) انظر : الأرض والكون ، كتاب المعرفة ، شركة إنماء للنشر والتوزيع ، بيروت (١٩٨٥م) .

(٢) انظر كتاب : النهاية ، الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون . (ص ٢٤ ـ ٣٥) .

(٣) أدريان بيري : الخمسمائة عام القادمة ، (ص ٢٨٠) .

(٤) أوزون (*Ozone*) : غاز أكسجين ثلاثي الذرات (O_3) عديم اللون والرائحة ، يوجد في الجو بتركيزات متفاوتة ، ويتكون بصفة مستمرة في الهواء بتأثير أشعة الشمس فوق البنفسجية على الأكسجين (O_2) ، ويشكل الأوزون طبقة واقية ضد تسرب الإشعاعات الكونية قصيرة الموجة ، وبسبب تلوث الجو في العصر الحديث بالملوثات الصناعية اختلت طبقة الأوزون وحدثت فيها ثقوب فأصبحت بقاع من الأرض مهددة بأضرار الأشعة الكونية ، =

الشمسية والأشعة الكونية ، ومن المخاطر أيضًا تلوث بيئة الأرض الذي وصل اليوم إلى حدود الخطر الحقيقي في الكثير من بقاع الأرض[١] ، ناهيك عن الأمراض القاتلة التي بدأت تظهر في الآونة الأخيرة ، وباتت تهدد بحدوث أوبئة عالمية قد تستأصل الأخضر واليابس لتذر الأرض قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا .. وقد أجبرت هذه المعطيات المرعبة أصحاب القرار في العالم أن يعيدوا حساباتهم ، وأن يعدُّوا إلى الألف قبل أن يُقْدموا على خوض صراع أحمق ، من أجل قطرة من الماء لا تروي غليلًا ، أو شبر من الأرض لا يكفي ليكون قبرًا .



(من المخاطر المدمرة التي تتعرض لها أرضنا بين الحين والآخر الاصطدام بأحد المذنبات أو النيازك المدمرة)

أثر الصراع في التقدم البشري :

والصراع بين الناس - على ما فيه من مصائب ومخاطر واحتمالات مرعبة - فإنه في الوقت نفسه ضروري للتقدم البشري وتطور الوجود كما ألمحنا في مستهل هذا الفصل ، وهذا ما تشهد به وقائع التاريخ ويشهد به كثير من المفكرين ، فالفيلسوف الألماني عمانوئيل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤م) في كتابه (نحو السلام الشامل) ينتهي إلى أن الصراعات التي شهدها التاريخ البشري كانت سببًا رئيسيًّا لنشأة الحضارات وتنوعها وتطورها ، وأن الصراع المحموم الذي ينشب بين الناس من حين لآخر هو الذي يدفعهم للانشقاق وتشكيل تجمعات بشرية جديدة تنافس خصومها ، وتعمل جاهدة على إحراز مكانة متميزة في هذا العالم .

ما جعل العلماء منذ ثمانينيات القرن العشرين يدعون لتقليص استخدام المواد الصناعية المدمرة للأوزون ، حرصًا على سلامة الإنسان وبقية الأحياء على سطح الأرض .

(١) انظر : كارل ساجان (كوكب الأرض ، نقطة زرقاء باهتة ، رؤية لمستقبل الإنسان في الفضاء) ترجمة د.شهرت العالم ، عالم المعرفة ، العدد (٢٥٤) ، الكويت (٢٠٠٠م).

ومن أتون هذا الصراع المحموم تولد الأفكار المبدعة ، وتخرج الإنجازات الحضارية العظيمة .



(الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانط : الصراع ينشئ الحضارات)

ويذهب المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي)[1] ، إلى ما يشبه هذا الرأي ، ومع أنه لا يرد نشأة الحضارات إلى الصراع بين البشر ، فإنه يردُّها إلى صراع من نوع آخر ، وهو الصراع الذي ينشب عادة ما بين الإنسان وبيئته الجغرافية ، ففي رأيه أن حالة (التَّحَدِّي) التي يفرضها الواقع الجغرافي على الإنسان هي التي تدفعه للرد والاستجابة بفعل حضاري ، على النقيض من حال الإنسان الذي يعيش في بيئة تتوافر فيها سبل العيش والراحة والهدوء والطمأنينة ؛ فيركن إلى الدَّعة ويستسلم للحالة التي هو عليها[2] .

ويؤكد فلاسفة آخرون على دور الصراع في التقدم البشري ، فيقولون : (من الصعب تَصَوُّر كيف يمكن أن يتطوَّر العالَم لولا وجود الصِّراعات فيه ، والواقع أن محاولات التوفيق بين المصالح والحاجات والأفكار المتضاربة بين الناس يشكِّل منبعًا أساسيًّا للأفكار المُبْدعة والحلول المبتكرة ، إذ إنَّ مواقف الصِّراع تُفَجِّر مخزونًا هائلًا من الطاقة يمكن أن تكون فائدتها عظيمة لو وُجِّهت الاتجاه الصحيح)[3].

ولعل هذه من المفارقات الغريبة في تاريخ الصراعات التي دارت رحاها فوق هذا الكوكب ، فبالرغم مما جرته هذه الصراعات من ويلات ومصائب ، وبالرغم من أنها كانت أبشع الآفات التي ابتليت بها العقلية البشرية عبر تاريخها المرير ، فقد كان لهذه الصراعات بالمقابل فوائد لا تنكر ، فقد كانت الصراعات على مدار التاريخ وما زالت هي المحرك الأهم

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) انظر : كتاب أرنولد توينبي (مختصر دراسة التاريخ) فصل التحدي والاستجابة .

(٣) يجي فوت ، فولتشيخ هامان : احترام الصراع ، (ص ٢٢) .

للأحداث السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية في شتى المجتمعات ، وفي مختلف الأمم ، وعلى مدار التاريخ ، حتى إن الفيلسوف الإغريقي (هيروقليطس)[1] ، أطلق عليها وصف (أمُّ التاريخ) لأن دورها كان محوريًّا في مختلف الأحداث التي شهدها التاريخ البشري على امتداده ، وهذا ما دفع العديد من الباحثين إلى الإشادة بالصراعات ؛ ومنهم على سبيل المثال الباحث الفرنسي (غاستون بوتول)[2] ، الخبير بشؤون الحرب ؛ فقد كتب يقول : (إن الحرب هي أروع الظاهرات الاجتماعية بلا خلاف ، وإذا كان علم الاجتماع - كما قال عالم الاجتماع دوركايم ، هو التاريخ مفهومًا على صورة ما ، فإننا نقول : إن الحرب هي التي ولدت التاريخ ، فالتاريخ بدأ في الواقع بكونه تاريخ المعارك المسلحة دون غيره - ولعله سيبقى دومًا تاريخ المعارك ، ذلك بأن الحرب هي في الوقت نفسه أبرز المعالم التي نستند إليها في التأريخ ، وهي الحدود التي تدل على المنعطفات الكبرى للحوادث شئنا أم نشأ ، فبالحرب كادت كل الحضارات المعروفة تزول ، وبالحرب كادت كل الحضارات الحديثة تشق طريقها إلى الظهور ، وبالحرب تقوم أو تثبت ضروب التفوق التي تضع مجتمعًا ما على هامة البشرية زمنًا متفاوتًا في الطول .. والحرب في الوقت نفسه هي العامل الأساسي من عوامل ذلك التقليد الاجتماعي الذي يؤدي دورًا عظيمًا جدًّا في ضروب التحول الاجتماعي ، إنها تنتهي إن عاجلًا وإن آجلًا بإرغام الدول الأكثر انغلاقًا على الانفتاح ، وربما كانت الحرب هي الشكل الأقوى والأنجع في احتكاك الحضارات ، فهي تقطع سبيل العزلة النفسية بالقوة ، إنها تنشر حتى الأزياء ، فنستطيع أن نعرف الظافر الحقيقي في الحرب من خلال طرز الألبسة التي تشيع في السنوات التالية للحرب .. والحرب - بكلمة واحدة ، هي أهم أشكال تغيير الحياة الاجتماعية ، فهي صورة من صور الانتقال المعجَّل)[3] .

---

(1) هيروقليطس (٥٣٥ ـ ٤٧٥ ق.م) : فيلسوف إغريقي ، قال إن العالم واحد ومتعدد ، وأن مادته الأولى هي النار التي منها نشأ الكون ، واعتقد أن الحقيقة هي التغير ، وأن الدوام وَهْم ، وكل شيء يحمل معه ضده ، فالوجود والعدم موجودان معًا في كل شيء ، فما من شيء إلا وهو في حالة انتقال دائم [انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٨٩٥]

(2) غاستون بوتول (١٩٠٦-١٩٨٠م) : مؤسس المعهد الفرنسي لعلم الحرب الاجتماعي ، يرى أن السلطة بانغلاقها وممارساتها التقليدية تعاني قصورًا خطيرًا في مواجهة المشكلات التي باتت تهدد الجنس البشري ومستقبله - فهي لا تفتأ تقدم المبررات والأيديولوجيات التي تساهم بدوام أنظمة الحكم الشمولية وتدافع عنها ، وهمها الأول والأخير هو التوسع وفرض الهيمنة على شعوبها وجيرانها ، من مؤلفاته : ابن خلدون ، فن السياسة ، تحدي الحرب .

(3) غاستون بوتول : هذه هي الحرب ، (ص ٥) ، ترجمة مروان القنواتي ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس (١٩٨١م).

أضف إلى هذا أن الصراعات والحروب كانت هي الدافع الأهم لعجلة التطور العلمي والكشوف ومعظم الاختراعات ، فقد ظل الزعماء على مدار التاريخ يجندون خيرة العلماء والخبراء والعسكريين لتطوير آلة الحرب ، ومع تطوير هذه الآلة الرهيبة وتطوير الوسائل المضادة لها ظهرت إلى الوجود تلك المخترعات والمكتشفات التي عادت على البشرية بالكثير من الفوائد ، ودفعت عجلة العلم خطوات واسعة إلى الأمام .

وهكذا تتكشف لنا آفاق جديدة للحكمة الإلهية من خلال سنن الاختلاف والتدافع والصراع بين الناس ، فهي إلى جانب ما تحققه من دفع للشر والحد من غلوائه وأذاه ؛ فإنها تعدُّ المحرِّض الأهم على الإنجاز العلمي والفعل الحضاري .

وليست هذه دعوة منا لمواصلة الصراعات الدامية بين الناس ، بل هي دعوة للتفكُّر بآيات الله في هذا العالم ، والنظر إلى الأحداث من زواياها المختلفة في سبيل رؤية أشمل لظواهر الوجود ومسيرة التاريخ ، فإن مشكلة الصراع بين البشر منذ آلاف السنين تدور في دائرة مفرغة فحواها أن النفس البشرية تتوق فعلًا للانعتاق من أتون الصراع ، وتميل بفطرتها إلى حب السلام ، وتحلم بالأمان الذي ما زال يداعب أجفانها منذ مطلع التاريخ ، غير أنها في واقع الحال ما زالت تتمثل في أعماقها ذلك المثل الروماني القديم الذي يقول : (إذا أردت السلام فعليك أن تستعدَّ للحرب) .

إلَّا أنَّ أملنا كبير بأن تتوب البشرية آخر المطاف إلى رشدها ، وأن تؤمن حقيقةً لا مجاملة بقوله تعالى :﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء :١٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] ، لعلها بهذا الهدي الرباني الحكيم تخرج من دوامة الصراع المرير الذي كلفها وما زال يكلفها الكثير ، لتدخل مضمار التنافس الشريف الذي هو الهدف الأساسي من سنة الاختلاف ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ فإذا لم نستوعب هذه الحقيقة الإلهية البليغة ، ونفتح قلوبنا وعقولنا بصدق لكل من يشاطرنا العيش فوق هذا الكوكب ، فإن هذا الجرح التاريخي المزمن النازف في جسد البشرية سوف يستمر بلا هوادة .

ومن رحمة الله تعالى بالخلق أنه ومن بداية الخلق حدد لهم أيامًا حرَّم فيها القتال ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦] ، فإنه

سبحانه ـ رحمة منه بعباده ولعلمه بما يحصل بينهم من نزاع ـ جعل لهم فسحة تعادل ثلث العام من كل سنة حرَّم عليهم فيها سفك دمائهم ، وهي بلا ريب فترة كافية لكي يعيدوا فيها حساباتهم ، وتهدأ خواطرهم ، ويقلعوا عن الصراع والنزاع والشقاق ، ويؤوبوا إلى ظلال السلام الوارفة ، ونعتقد أن هذا الأمر الإلهي قد نزل في الرسالات السماوية السابقة على رسالة الإسلام ، وكان معروفًا في الأمم الغابرة ، بدليل أن العرب في عصر الجاهلية قبل الإسلام كانوا يعرفون هذه الأشهر الحرم ، وكانوا يضعون فيها السلاح ويتوقفون عن القتال حتى كان الرجل يصادف قاتل أبيه أو أخيه فلا يتعرض له بشيء ، أفليس غريبًا إذًا أن يلتزم الجاهليون بهذا الخلق الإنساني النبيل ولا يلتزم به الناس في عصرنا الراهن الذي يتباهون بأنه عصر العلم والنور والتقدم والحضارة .

الصراع الفكري :

بعد أن تحدثنا عن الاختلاف المادي بين الناس ، وما ينتج عنه من صراعات تتوسل بالقوى المادية المدمرة ، يجدر بنا أن نشير إلى شكل آخر من أشكال الصراع الذي ينشأ عادة عن الاختلاف بالأفكار ، لا سيما وأن (الحروب تندلع في الفكر قبل أن تندلع في ساحة المعركة) كما جاء في ديباجة ميثاق (اليونسكو)[١] ، منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم .

وقد شهد تاريخ الصراع الفكري الكثير من المآسي ، وكان حافلًا بالضحايا ، ولعل من أشد صور الصراع الفكري قتامة وظلامية تلك الصورة التي شهدتها الصين في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد ، وبالتحديد في عام (٢١٣ ق.م) إبان حكم الإمبراطور (تشين شي هوانغ تي) الذي نصحه مستشاره الأكبر (لي سوا) بحرق جميع الكتب التي في المكتبات العامة ، وفي مختلف أنحاء الإمبراطورية ، بما فيها الكتب التي يقتنيها الناس في منازلهم ، ومن فيها أيضًا كتب حكيم الصين الشهير (كونفوشيوس)[٢] ، وذلك بحجة حماية المجتمع

---

(١) يونسكو (UNESCO) : منظمة عالمية تابعة لهيئة الأمم المتحدة ، مقرها باريس ، تأسست يوم (٤/ ١١/ ١٩٤٦م) لدعم التعاون بين الأمم عن طريق التربية والعلوم والثقافة ، ويتبع اليونسكو (١٩١) دولة ، ولها أكثر من (٥٠) مكتبًا وعدة معاهد تدريسية حول العالم ، ولها خمسة برامج أساسية هي التربية والتعليم ، والعلوم الطبيعية ، والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، والثقافة ، والاتصالات والإعلام . كما تدعم اليونسكو العديد من المشاريع كمحو الأمية ، والتدريب التقني ، وبرامج تأهيل وتدريب المعلمين ، وبرامج العلوم العالمية ، والمشاريع الثقافية والتاريخية ، واتفاقيات التعاون العالمي للحفاظ على الحضارة العالمية والتراث الطبيعي وحماية حقوق الإنسان .

(٢) كونفوشيوس (٥٥١ ـ ٤٧٩ق.م) : حكيم صيني ، أقام تعاليمه على عقائد دينية غابرة ، وشغل منصبًا حكوميًا سعى من خلاله إلى وضع نظام أخلاقي وسياسي لتحقيق السلام والعدالة في المجتمع ، ثم تطورت =

الصيني من (الأفكار الضارة) وأن المجتمع الجديد على حد زعم ذلك المستشار يجب أن يتخلص من عبء الماضي ومن تأثير أفكاره المريضة ، ولم يتردد الإمبراطور الأرعن لحظةً واحدة ، بل أصدر الأوامر لزبانيته من أجل تنفيذ هذه النصيحة على الفور ، فاندفعوا يحرقون كل ما وصلت إليه أيديهم من الكتب ، في احتفال همجي رهيب لم يشهد تاريخ القمع الفكري له مثيلًا .



(الحكيم الصيني كونفوشيوس)

ولم يكتف هذا الإمبراطور الخفيف ومستشاره المأفون بهذه الجريمة النكراء ، بل أمر مع حرق الكتب بحرق (٤٧٠ كاتبًا) في احتفال كبير ، جرى على قرع الطبول ، وتصفيق الغوغاء الذين لم يدركوا أنهم بهذا التصفيق الغبي يطمسون فترة من أنصع فترات الصين الفكرية .

وقد بلغ من دهاء ذلك المستشار وحقده على أهل الفكر أنه أسَرَّ للإمبراطور ، بأن يحفظ نسخة واحدة من كل كتاب أمر بحرقه وحرق صاحبه لتكون هذه النسخ دليل اتهام وإدانة وشهادة أمام التاريخ ضد من كتبها .. ترى هل دار في خلد ذلك المستشار أن هذه النسخ نفسها ستكون دليل اتهام ضده وضد إمبراطوره ؟ وهل فكر ولو للحظة واحدة أن

= تعاليمه من خلال بعض الأعمال الأدبية الصينية من أبرزها (المنتخبات) التي تضم أقواله وأقوال بعض تلامذته ، وقد أكدت الكونفوشية على ضرورة الولاء العائلي ، ووضعت أنموذجًا عاليًا للحكومة ، ومالت إلى الوسطية ، وعملت على ترسيخ أربع مبادئ ، هي : العلم الغزير ، والسلوك الحسن ، والطبيعة السمحة ، والعزيمة القوية [انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٤٨٥] .

التاريخ سوف يلاحقه باللعنات حتى آخر الزمان ، ولن يغفر له أبدًا فعله الرعناء بحق التراث البشري وحق الحرية الفكرية .

ولم تكن هذه الحادثة المعادية للحرية فريدة في تاريخ الفكر البشري الذي شهد الكثير من الحوادث المأساوية المماثلة ، ومنها حادثة إحراق العالم والفيلسوف الإيطالي (جوردانو برونو)[1] ، الذي صدر بحقه في عام (١٦٠٠م) حكم بالإعدام حرقًا من قبل الكنيسة ، لرفضه التراجع عن بعض أفكاره التي نشرها عن كروية الأرض وموقعها في الكون ودورانها حول الشمس ، وقد نفذ فيه حكم الإعدام حرقًا وهو حي ، على الرغم من إعلانه وهو على المحرق أنه مؤمن بالله ، وأنه متمسك بديانته المسيحية ، لكن ذلك كله لم يشفع له عند أرباب الكنيسة الذين ظلوا يرسلون إلى المحرقة كل من تجرأ على مخالفة أفكارهم ؛ لأن ما يفكرون به هو ما يريده الله نفسه في زعمهم .

ومن حكمة الله ﷻ أن للتاريخ منطقًا آخر غير المنطق الذي يسلكه أعداء الفكر، فقد ظل التاريخ ينصف المفكرين المظلومين ، ولو بعد حين ، ويعيد الأمور إلى نصابها ، ومن ذلك أن بابا روما بعد عدة قرون من حرق جوردانو برونو ، أمر بإعادة الاعتبار لهذا المظلوم . وإقامة نصب تذكاري فخم له في المكان الذي أحرق فيه .

أمّا في الصين فإن اللعنات ما زالت تلاحق الإمبراطور ومستشاره غير الأمين ، بينما كونفوشيوس وغيره من حكماء الصين الذين أحرقوهم وكتبهم استعادوا مكانتهم الرفيعة . في هذا درس عظيم جدير بأن يعيه كل من فكّر بمحاربة الفكر والتضييق على الحرية الفكرية .

والواقع أن المجتمعات البشرية على اختلافها قد شهدت مثل هذه الحوادث المأساوية ضد حرية الفكر وضد المفكرين والفلاسفة والمُنظِّرين ، فليس هناك مجتمع معصوم عن مثل هذه الأخطاء ، وقد شهد تاريخ الفكر الإسلامي كذلك بعض هذه الحوادث التي وصلت في بعض الحالات إلى حد القتل والصلب والتمثيل بالجثث ، ومن هذه الحوادث نذكر على سبيل المثال إعدام العالم الصوفي الفيلسوف (السهروردي)[2] ، والصوفي

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) أبو الفتوح يحيى بن حبش السهروردي (١١٥٣ ـ ١١٩١م) : ولد بسهرورد في إيران ، درس حكمة الفرس وفلسفة اليونان ، وسلك طريق الصوفية ، وانتهى إلى تأسيس فلسفته الإشراقية التي سماها (علم الأنوار) وهي مزيج من الحكمة الفلسفية والحكمة الذوقية التي لا تقوم على برهان ، دخل في مناظرات حادة مع فقهاء عصره الذين رأوا في أفكاره خطرًا على الدين ، ووصل أمره إلى صلاح الدين الأيوبي فأمر ابنه الظاهر سلطان حلب بقتله فقتله .

الشهير (الحلاج) [1] ، الذي قتل قتلة شنيعة ، فقد ضرب بالسياط ثم صلب وقطع رأسه وأحرق ، وأما الأديب السياسي (ابن المقفع) [2] ، فقد أحرق حيًّا في فرن بمنزله على طريقة التصفيات السياسية السرية التي تمارسها المخابرات اليوم .

ولئن كانت الحجة في قتل هؤلاء وأمثالهم أنهم قالوا بأفكار صوفية ضالة وصلت إلى حد الكفر الصريح ، أو أنهم كتبوا مؤلفات سياسية لتأليب الرأي العام وإحداث فتنة داخلية ، أو غير ذلك من الحجج الجاهزة ، فما هي الحجة إذًا بسجن وتعذيب وقتل بعض العلماء الأفذاذ الذين أجمعت الأمة على علمهم وفضلهم وصلاحهم من أمثال الفيلسوف الفقيه الأندلسي (ابن رشد) [3] ، الذي حوكم علنًا على بعض أفكاره ومنع من التدريس وطرد من مسجد قرطبة ، وكاد ينفى من قرطبة نفسها ، على الرغم من علو شأنه في الفقه حتى إن بعض مؤلفاته تعد عمدة في هذا العلم ، ناهيك عن مؤلفاته الفلسفية التي كانت وما زالت تعد من المراجع المهمة في تاريخ الفلسفة ، إلى جانب مساهماته الطبية الكبيرة في عصره .

---

(١) الحسين بن المنصور الحلاج (٨٥٨ ـ ٩٢٢م) : ولد في إيران ، وتتلمذ على شيوخ الصوفية ، طاف بالبلدان الإسلامية واستقر ببغداد ، شرح مذهبه الصوفي في (كتاب الطواسين) الذي دعا فيه للاستعاضة عن فرائض الإسلام الخمس بشعائر أخرى ، وزعم وجود روح ناطقة غير مخلوقة تتحد بروح الزاهد المخلوقة ، أي حلول اللاهوت بالناسوت ، فيصبح الولي هو الدليل الحي على الله ، واشتهر بقوله عن نفسه : أنا الحق ! ولهذا اتهمه علماء عصره بالكفر ، فسجن ثماني سنوات ، ثم حوكم محاكمة استمرت سبعة شهور صدر بعدها الأمر بإعدامه ، فأعدم [الموسوعة العربية الميسرة ، ص ٧٣٢] .

(٢) ابن المقفع ، عبد الله بن دازويه (٧٢٤ ـ ٧٥٩م) : مفكر سياسي فارسي الأصل ، نشأ في البصرة وعاصر العهدين الأموي والعباسي ، نقل الكثير من الكتب الفارسية إلى العربية ، من أشهر كتبه (كليلة ودمنة) الذي تحدث فيه بلسان الحيوانات عن مسؤولية المثقف تجاه الأوضاع السياسية والاجتماعية ، وكتابه (رسالة الصحابة) الذي طرح فيه خطة سياسية إصلاحية لمؤسسات الدولة (العسكرية ، والقضاء ، والبطانة ، والإصلاح الزراعي) أثارت كتاباته حفيظة الخليفة العباسي (المنصور) فأمر واليه على العراق أن يسكته فقبض عليه وقتله .

(٣) ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد (١١٢٦ ـ ١١٩٨م) : فقيه فيلسوف طبيب ، عاش في مدينة قرطبة إبان ازدهار الإسلام في الأندلس ، عني بالفلسفة وترجمها إلى العربية وزاد عليها ، وبلغ شأوًا عاليًا في الطب ، وولي القضاء في إشبيلية ثم في قرطبة ، من كتبه (تهافت التهافت) الذي عارض فيه الإمام الغزالي في الفلسفة ، وكتابه (الكليات) في الطب الذي بقي مرجعًا طبيًّا أساسيًّا في أوروبا عدة قرون .



(نصب تذكاري للفيلسوف الفقيه ابن رشد في قرطبة ، إسبانيا)

وما القول أيضًا في شيخ الإسلام (ابن تيمية) [1] ، الذي يعد أحد كبار المجددين في تاريخ الفقه الإسلامي فقد اعتقل هذا المجدد في سجن القلعة بدمشق بحجة ضلاله وفساد عقيدته ، وبالغ سجانوه في إهانته فعزلوه ومنعوا عنه القرطاس والقلم لكي يكبتوا صوته نهائيًا . لكنه نكاية بهم راح يكتب خواطره بالفحم على جدران سجنه الذي بقي فيه حتى الموت .

وما القول كذلك بسلطان العلماء (العز بن عبد السلام) [2] ، الذي صدرت فتوى من علماء عصره بإهدار دمه ، وإدانته بالكفر لمواقف وقفها ، أو أفكار قالها ، أو مؤلفات أصدرها ، أو فتاوى ذهب إليها ولم تعجب بعضهم .

ونعتقد أن الخلاص من هذه الظاهرة ، ووقف الصراع الفكري وما يترتب عليه من ويلات ، لن يكون إلا بإعطاء هامش واسع من الحرية الفكرية ، وفتح الباب للحوار الحر .

(١) تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية (١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م) : فقيه محدّث ، ولد في حران بالشام ، يعتبر من كبار المجددين في تاريخ الفقه الإسلامي ، حفظ كتب الأحاديث الستة ، وكان حاضر البديهة شجاعًا ، لم يعرف الملق ولا التملق ، ولهذا صار له خصوم كثيرون أغروا به الحكام فسجن في مصر ثم في الشام أكثر من مرة وظل في سجن القلعة بدمشق حتى مات ، ألف عدة مصنفات قيمة من أشهرها (الفتاوى) الذي يقع في ثلاثين مجلدًا ويظهر مدى علم ابن تيمية وتبحره في كثير من العلوم الدينية والدنيوية .

(٢) العز بن عبد السلام (١١٨٠ ـ ١٢٦٠م) : فقيه مجتهد ، ولد في دمشق ، وتولى التدريس والخطابة في الجامع الأموي ، ثم انتقل إلى مصر حيث ولي القضاء والخطابة ، من تصانيفه : قواعد الأحكام في مصالح الأنام - والفتاوى ، والتفسير الكبير [انظر : الأعلام للزركلي (٤/ ١٤٥) ، وطبقات السبكي (٥/ ٨٠)] .

وقبول الرأي الآخر مهما كان مخالفًا لآرائنا ؛ لأن منع الأفكار وتكميم الأفواه والتضييق على الناس لا يولد في النهاية إلّا الانفجار ، وبهذا نستطيع نزع الفتيل وتجنب الكثير من المآسي والتضحيات المجانية ، وبهذا أيضًا نعطل الحجة التي ما زالت عبر التاريخ سيفًا مصلتًا فوق الرقاب والتي حرمتنا من أفكار مبدعة كان يمكن أن تدفعنا خطوات أوسع إلى الأمام ، لا سيما وأن سجلات التاريخ تنبئنا أنه ما من فكرة وجدت لها في حقبة من الزمن مؤيدين إلّا واستمرت فيما بعد ولو في نطاق ضيق من المؤيدين وهذا يعني أن كل محاولات الاستئصال الفكري عبر التاريخ قد باءت بالفشل .. نعم .. قد يكون من الحكمة الحد من انتشار بعض الأفكار التي تسيء إلى المجتمع وقيمه وتراثه ومعتقداته ، إلّا أن الوسيلة التي ينبغي أن تستخدم لتحقيق هذه الغاية ليست القوة والقمع والاستئصال ، بل الحوار بالتي هي أحسن على طريقة القرآن الكريم ، وبهذا نأمل أن يتوقف الصراع الفكري ليحل محله التناصح والتواصي بالحق ، ولا يُصار إلى مصادرة الفكرة بالقوة إلّا إذا عمد صاحبها إلى فرضها على الآخرين بالقوة ، وفي هذه الحال نكون في حالة ردع للقوة ، لا للفكرة .. وشتان ما بين الموقفين .

ولا يفوتنا هنا أن نلفت أصحاب الفكر والرؤى والنظريات والفلسفات إلى بعض المفارقات التي شهدها تاريخ الصراع الفكري حتى لا تتكرر مآسي هذا التاريخ ، ولعل من أبرز تلك المفارقات وأشدها غرابة أن الكثير من الأفكار التي أنتجها العقل البشري وآمن بها كثير من الناس ردحًا طويلًا من الزمان ، واعتقدوا أنها حقائق نهائية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وبذلوا في الدفاع عنها أرواحهم رخيصة ، أو قتلوا ملايين الأنفس من أجل إقناع الآخرين بها أو فَرْضها عليهم بالقوة ، لم يلبث التاريخ أن خيب ظنهم بتلك الأفكار ، وافترّ ثغره عن ضحكة عريضة شامتة تفضح زيف ما آمنوا به ، ولكَمْ شهدت البشرية في الجيل الواحد مثل هذه الصراعات الفكرية الحمقاء التي خاضها بعضهم بكل شراسة ولم يقتنعوا بخطئها أو عدم جدواها إلّا بعد فوات الأوان .

ولعل الدرس الأهم الذي نستخلصه من مثل هذا الطيش الفكري ، الذي دفعنا ضريبته باهظة عبر التاريخ أن يظل عقلنا منفتحًا دومًا على المستقبل ، مستعدًّا للمراجعة والتصويب في كل حين ، وأن تبقى أفكارنا على محك النقد الذاتي ، وإلّا كان جزاؤنا شماتة التاريخ ، والويل لمن يشمت به التاريخ .. فإن أفكارنا تبقى آخر الأمر اجتهادًا بشريًّا قابلًا للخطأ والصواب ، مهما اعتقدنا أننا نستقيها من مصادر معصومة ، وهذه الحقيقة كثيرًا ما تلتبس في أذهاننا فتوقعنا بمطبات قاتلة ، ولا سيما حين نلتجئ إلى نصوص الوحي فنحتجُّ بها

معتقدين أننا ننطق باسم السماء، ونتوهم العصمة لأفكارنا، وهذه علة مستعصية ينبغي أن نحذر منها جيدًا لأننا كثيرًا ما نضع أفكارنا الشخصية القابلة للخطأ والصواب في موضع النصوص السماوية، فينتهي بنا المطاف إلى توريط النصوص في معارك غير منصفة تضعها في موضع الاتهام، وهذه إشكالية معقدة جديرة بالتأمل الطويل [١].

ومن المفارقات الغريبة أيضًا التي نصادفها كثيرًا في تاريخ الصراع الفكري أن تغير أحوال المجتمعات نحو التقدم والحضارة أو نحو التخلف والانحطاط يتوقف على الماثلة أكثر مما يتوقف على الأفكار التي تنشغل بها نخبة المفكرين في المجتمع، فالحروب والنزاعات والصراعات وتسلط بعض الناس على رقاب بعض والمآسي التي تنتج عن ذلك كله هي التي كانت وما زالت المحرك الأهم للأحداث، وهي التي تدفع عجلة المجتمع نحو أحد طرفي المعادلة، أي نحو الارتقاء في سلم الحضارة والرخاء والرفاهية والتمكين في الأرض، أو نحو السقوط في منحدر التخلف والانحطاط والتبعية، وربما الخروج نهائيًّا من خارطة الوجود.

ولا يعني هذا أن الصراع الفكري لا قيمة له ولا دور في مسيرة الأحداث وصياغة التاريخ، فقد شكلت بعض الصراعات الفكرية منعطفات تاريخية حادة عادت بالبشرية خطوات واسعة إلى الوراء، فيما شكَّل بعضها الآخر نقلات حاسمة دفعت البشرية خطوات واسعة إلى الأمام، وبين هذه وتلك شهد تاريخ الصراع الفكري الكثير من الأفكار التي ذهبت أدراج الرياح، ومما يلفت النظر هنا أن الأفكار التي كان لها تأثير إيجابي في مسيرة التاريخ البشري هي تلك الأفكار التي جاءت بها الرسالات السماوية؛ لأنها تراعي الفطرة البشرية، وتتماشى مع سنن الله في خلقه، أمَّا الأفكار التي ابتدعها بعض المفكرين والفلاسفة والمنظِّرين والساسيين ولم يراعوا فيها تلك الفطرة وهذه السنن فقد عادت على البشرية بالكثير من الكوارث والمآسي والويلات، وتاريخ الصراع الفكري بين البشر حافل - للأسف الشديد - بمثل هذه الأفكار المدمِّرة.

وإن مما يدعو للاستغراب والدهشة، أنَّ الكثير من هذه الأفكار المدمِّرة قد ادَّعت استنادها إلى رسالات سماوية، لكننا عند التمحيص فيها نجدها مجرد قراءات خاطئة لرسالات السماء، هذه الرسالات التي جاءت أصلًا من أجل سلام البشرية وإحقاق الحق والعدل بين الناس، فكيف يسوغ لبعضهم أن يوظف هذه الرسالات في تأجيج الصراع وسفك الدماء.

● ● ●

---

(١) انظر: د. كنعان (العقلية الإسلامية) الذي ناقش هذه الإشكالية المعقدة بالتفصيل.

الفَصْلُ العَاشِرُ

تاريخ القانون

• إنَّ اللهَ يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن .

الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه

• شيئان يملآن قلبي بالخشوع : السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي ، والقانون الأخلاقي في صدري .

الفيلسوف الفرنسي كانط

• القانون هو ما سطر على القلوب أكثر منه ما كتب على الصفحات .

الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو

• إن القانون كالمسافر يجب أن يكون مستعدًا للغد ، وأن يحمل بذرة التطور في ذاته .

القاضي الأمريكي جاردوزو

إن حديثنا في الفصل الماضي عن فطرة الاختلاف في هذا العالم ، وما ينتج عنها من تدافع وصراع بين الناس ، يقودنا الآن للحديث عن (فكرة القانون) ، التي برزت في التاريخ البشري من جراء ذلك الصراع وما نتج عنه من ويلات ومآس ، وهذا ما دفع أصحاب العقول الراجحة للتواضع على بعض الأعراف الأخلاقية بهدف الحد من هذه الكوارث ، والوقوف في وجه الأشرار وما ينجم عن أفعالهم من إضرار وتخريب في المجتمع ، وقد كانت هذه الأعراف هي الجرثومة التي تولدت عنها فيما بعد فكرة القانون .

وعندما نراجع سجلات التاريخ نجد أن أمم الأرض على اختلافها قد تواضعت على الاحتكام إلى نوع أو آخر من القانون ، سواءً كان قانونًا سماويًا ، أم قانونًا أرضيًا ؛ لأن الناس وجدوا بالتجربة العملية أنهم في غياب القانون يعجزون عن المحافظة على وجودهم ، بسبب ما ينتاب النفس البشرية من دوافع الخير ونوازع الشر ، والإنسان كما هو مشاهد معلوم مركب معقد من أهواء جامحة ، وغرائز نهمة ، ورغبات لا تكاد تشبع ، مما دفع الفيلسوف الفرنسي الشهير كانط [1] ، في كتابه (فلسفة التاريخ) إلى القول :

---

(1) سبقت ترجمته .

(إنَّ لدى الإنسان مزاجًا غيرَ اجتماعي يدفعُهُ لتوجيهِ كلِّ شيءٍ على هواه)[1] ، ولو أنَّ الإنسان ترك على هذه الحال من دون قانون يردعه ويحدُّ من غلواء شهواته وغرائزه ونزواته لفسدت الأرض ، كما جاء في محكم التنزيل : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من الإشارات إلى النوازع السلبية التي تنتاب الإنسان. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٤] ، وقوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦] ، وأمثال هذا كثير في القرآن الكريم .

كما أن الجنس البشري ، حسب تعبير الفيلسوف (برجسون)[2] ، يقع من تطور المخلوقات الحية في نهاية خط تطور القوة العاقلة ، لا في نهاية خط تطور الغريزة[3] ، وهذا يعني أن للغرائز سلطانًا كبيرًا على تصرفات الإنسان وتفكيره إلى الحد الذي يجعل هذه الغرائز في كثير من الأحيان تتجاوز حكمة العقل ، وتفرض سلطانها عليه ، ومن ثَمَّ فإن الإنسان لو ترك يتصرف وفق ما يمليه عليه هواه وغرائزه لعاث في الأرض فسادًا ، ومن هنا تظهر أهمية وجود القوانين في حياة الناس ؛ لأن القانون يضطر الإنسان اضطرارًا ليقدم عقله على غرائزه خوفًا من سطوة القانون وعقوبته .

ويعتقد أصحاب المذهب الطبيعي أن الجنس البشري مرَّ بمرحلة طويلة من تاريخه لم يكن فيها قانون يحدُّ من هذه النزعات ، فكان كل إنسان يتصرف بما تمليه عليه الظروف في سبيل حماية نفسه وردع الآخرين عن الاعتداء عليه ، وبطبيعة الحال لم تكن تلك التصرفات خاضعة لمعايير الحق والباطل بل كانت ردود أفعال هدفها الدفاع عن النفس .

---

(١) جان وليام لابيار : السلطة السياسية ، (ص ١١) .

(٢) هنري لويس برجسون (١٨٥٩ ـ ١٩٤١م) فيلسوف فرنسي ، أظهر نبوغًا مبكرًا في الدراسات الكلاسيكية والرياضيات ، وحاز على جوائز عديدة ، وفي عام (١٨٨١م) حاز على الليسانس في الرياضيات وفي الآداب معًا. وفي عام (١٨٨٩م) حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة ، وفي عام (١٩٢٨م) حصل على جائزة نوبل في الأدب

(٣) السلطة السياسية ، (ص ٨٣) .

وفي هذا يقول الفيلسوف الإنكليزي (جون لوك)[١] : (ولكي يرتدع كل امرئ عن التعدي على حقوق الآخرين ، أو إيقاع الضرر بهم ، وتحترم السنة الطبيعية التي ترمي إلى إقرار السلام وبقاء النوع البشري ، فقد ترك أمر تنفيذ السنة الطبيعية هذه ، إبان ذلك الطور ، لكل امرئ بمفرده ، فكان له الحقُّ بمعاقبة الخارجين عن تلك السنة إلى حد يحول دون خرقها ، إذ لو لم يكن ثمة من يقوم على تنفيذ هذه السنة الطبيعية بحماية الأبرياء وردع العادين لكانت تلك السنة عبثًا ، شيمة سائر السنن التي تمتُّ إلى شؤون البشر في هذا العالم ، وإذا كان لأيِّ كائن في الطور الطبيعي أن يعاقب مقترف الإثم فلكل امرئ مثل هذا الحق)[٢] .

ونحن بدورنا نعتقد أن هذه الفكرة ليست دقيقة تمامًا من الوجهة التاريخية ، فنحن نعلم أن الشرائع السماوية قد رافقت البشرية من اللحظة الأولى التي بدأ فيها تاريخ الإنسان فوق هذه الأرض فقد كانت الشرائع السماوية تنزل على الناس تباعًا بالأحكام (أو القوانين) التي تتطلبها أحوالهم وما يطرأ عليها من تطورات وما يعتريها من مشكلات وتبين لهم العقوبة الدنيوية والعقوبة الأخروية لكل جُرْم .



(الفيلسوف الإنكليزي جون لوك)

أما القوانين الوضعية التي أنتجها الفكر البشري ، فيبدو أنها تأخرت كثيرًا في الظهور ، وربما كان (قانون أورنامو) الذي وضع في بلاد ما بين النهرين حوالي عام (٢٢٠٠ ق.م) هو أقدم القوانين الوضعية المعروفة ، ثم القانون الذي وضع في عصر الملك البابلي

---

[١] سبقت ترجمته

[٢] ملحم قربان : قضايا الفكر السياسي ، القانون الطبيعي ، (ص ٥٥)

حورابي (٢١٠٠ ق.م) [1] ، وكان ينمُّ عن فكر قانوني ناضج في ذلك الزمن البعيد وهذا ما يجعلنا نرجح أنه لم يكن نتاج إبداعات فكرية بشرية خالصة ، بل كان نتاج تلك التراكمات القانونية التي اقتبسها البشر من الرسالات السماوية السابقة ، وَمِنْ مَا تواضعوا عليه من قيم ومفاهيم أخلاقية عبر عصورهم الماضية ، بدليل أن قانون حورابي كان يقوم على القاعدة القانونية الشهيرة التي تضمنتها الكتب السماوية المختلفة بما فيها القرآن الكريم ، وهي قاعدة : (العينُ بالعينِ ، والسِّنُّ بالسِّنِّ ، والبادئُ أظلم) ، إلى جانب القواعد الأساسية الأخرى التي في مقدمتها التأكيد على (سيادة القانون) ، وتطبيقه على الناس أجمعين بالعدل والتساوي ، دون تمييز ولا تفضيل لبعضهم على بعض ، وكلها كما نرى قواعد معروفة في سائر الرسالات السماوية .

وعلى مدار التاريخ البشري ، ومن خلال تجربة الخطأ والصواب ، والجريمة والعقاب ، راحت تتبلور أشكال مختلفة من القوانين الوضعية ، حتى أصبح لدينا اليوم ذخيرة غنية من القوانين التي تنظم كل شيء ، فهناك على سبيل المثال (قوانين عامة) تُستمد منها القوانين الفرعية ، مثل القوانين الجنائية ، والقوانين التجارية وغيرها ، وهناك (قانون دولي عام) ينظم علاقات الدول بعضها مع بعض ، وهناك (قانون دولي خاص) يتضمن مواد قانونية تنظم وضع الأجانب أمام القانون الوطني أو المحلي .. إلخ .



(منحوتة لحمورابي)

(١) حورابي : سادس ملوك الدولة الأشورية ، كان عصره عصرًا ذهبيًّا لبابل ، اشتهر برسائله التي وصلنا منها خمس وخمسون رسالة ، وبمجموعة قوانينه التي تعد أقدم ما وصل إلينا من القوانين القديمة بصورة كاملة ، وقد اكتشفها (الباحث جاك دي مورغان) أثناء تنقيبه في مدينة سوسة عام (١٩٠١م) ، ووجدت منقوشة على قطعة كبيرة من الحجر محفوظة حاليًّا بمتحف اللوفر في باريس ، وتضم (٣٦٠٠) سطرًا بالخط المسماري [انظر الموسوعة العربية الميسرة].

قانون السماء وقانون الأرض :

وقد اقتضت حكمة الخالق ﷻ أن يخضع الوجود كله لقانون عام يتألف من مجموعة واسعة من السنن أو القوانين الكونية التي تحكم وتنظم حركة كل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود كما بيّنّا في فصل سابق (انظر فصل : سنن الوجود) وإلى جانب هذا القانون الإلهي العام نجد قانونًا إلهيًا خاصًا يتمثل بالشرائع السماوية التي أنزلها الله ﷻ على رسله عليهم السلام - عبر التاريخ ؛ ليبين للناس ما يضرهم وما ينفعهم ، وما يجوز وما لا يجوز ، وجعل للمتقين الملتزمين بقانون الله (شريعته) جزاءً الجنة ، وجعل النار للذين يتنكبون الطريق ويخالفون قانون الله ، كما أخبرنا تعالى فقال :﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

ومن حكمة الله أيضًا أنه وهب الإنسان ملكة العقل دون سائر المخلوقات ، فجعله بهذه الملكة قادرًا على التمييز بين الخير والشر ، والاختيار بين البدائل الكثيرة المتاحة أمامه ، تأكيدًا من الخالق ﷻ على حرية الإرادة التي هي مناط التكليف والمسؤولية أمام قانون الله في الدنيا والآخرة ، وقد أظهر تاريخ البشرية أن معظم البشر لا يلتزمون بقانون الله ، بل إن بعضهم لم يلتزم حتى بالقوانين الأرضية ، بل أكثر من هذا أن بعضهم دعوا جهرة إلى نبذ فكرة القانون من أساسها (ولم يزل هناك ، من لدن أفلاطون إلى ماركس ، مؤيدون متحمسون للمذهب الفوضوي حلًا لمشكلات الإنسان الشخصية والاجتماعية) [1] ، والفوضوية حركة سياسية اجتماعية معادية لكل السلطات ، انتشرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا ، واستلهمت أفكارها الرئيسة من الفيلسوفين الألمانيين (شوبنهاور) [2] ، ....

---

(١) انظر : دينيس لويد : فكرة القانون ، مصدر سابق .

(٢) آرثر شوبنهاور (١٧٨٨ - ١٨٦٠م): فيلسوف ألماني ، أخفق بأن يكون أستاذًا ، فعاش يفكر ، وأقام فلسفته على مثالية الفيلسوف (كانط) فقال إن جوهر الوجود الحقيقي قد عبر عن نفسه في الأشياء كلها ، وهو في جوهره قوة دافعة عمياء تظهر في الأفراد على صورة إرادة الحياة ، ولما كان كل فرد يطمح لتحقيق ما لم يتحقق قط تحققًا كاملًا وهو رغبات إرادته القلقة فقد نشأ عن ذلك صدام مستمر ما بين الإرادات المختلفة ، وقام العالم على حاجات لم تشبع ، ولهذا ملئ بالألم ، وما اللذة إلا انتفاء الألم ، ولهذا فإن وأد الرغبات وقتل الإرادة هو طريق الخلاص (وهذا ما يذكر بالبوذية) بيد أنه يمكن التماس طريق مؤقت للخلاص من خلال العلم والفن ، وقد ذهب شوبنهاور إلى أن التعاطف هو أساس الأخلاق ، فالإنسان حين يتعاطف مع أخيه الإنسان ويحس بآلامه تخف حدة ألمه هو ، وكان لشوبنهاور تأثير كبير في الفلسفة وعلم النفس ؛ لأنه جعل الإرادة محور البحث ، من أهم كتبه (العالم إرادة وفكرة) الذي نشره عام (١٨٨٣م) .

و (نيتشة)[1] ولكنها ارتبطت بأسماء بعض السياسيين ولا سيما منهم (شتيرنر ، وبرودون ، وباكونين ، وقد طالبت الفوضوية بإلغاء الدولة ، ورفضت كل أشكال السلطة المنظمة ، سواء كانت سلطة سياسية أو اجتماعية أو دينية ، ورأت الفوضوية أن السلطة الوحيدة الشرعية والأخلاقية هي التي يمنحها الناس لأنفسهم ، وأنَّ كل مُوَاطِن هو مشرع لنفسه [2] .

غير أن تلك الدعوات الرافضة لفكرة القانون لم تجد لها على مدار التاريخ غير نفرة نادرة من المؤيدين ، لما نتج عن تلك الدعوات من كوارث اجتماعية مدمرة ، وظل غالبية البشر يتوقون لحياة آمنة مستقرة تحت سلطة قانون يكفل لهم حقوقهم ، ويحميهم من ظلم الآخرين وشرورهم ، لا سيما وأن تاريخ الإنسان في هذه الأرض قد أظهر أن دوافع الشر إذا ما أطلق لها العنان فإنها لا تتوقف عند حد ، وأن الإنسان المنفلت من الضوابط الأخلاقية والدينية إذا أمن الوقوع في قبضة القانون فإنه مستعد لارتكاب أشد الحماقات والجرائم بشاعة ، وهذا ما يجعل الشَّرَّ أقدر من الخير على السيطرة وفرض الهيمنة ، وربما كان هذا هو السبب في تعاظم الدعوات يومًا بعد يوم للمزيد من احترام القانون وتأكيد سيادته في المجتمع ؛ لأنه صمام الأمان الذي يحول دون استشراء الفوضى وانهيار المجتمع ، بينما اختفت بالمقابل دعوات الذين أرادوا إلغاء القانون وإعادة الإنسان إلى حياته البدائية الأولى ، يوم كان يعيش على الفطرة والبراءة كما يزعمون .



(الفيلسوف الألماني شوبنهاور ، أحد المؤسسين للمذهب الفوضوي)

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) ماريا لويزا برنيري : المدينة الفاضلة عبر التاريخ ، (ص ٣٠٠) .

واستمع معي إن شئت إلى دعوة (إليوت سميث) [1] ، وهو أحد كبار المتحمسين لنبذ القانون والعودة إلى نظام الطبيعة ، فهو يقول في كتابه (التاريخ البشري) الذي نشره عام (١٩٣٠م) : (إن البرهان واضح بيِّن بأن إنكار بعض الناس فطرة الإنسان الطيبة ، وميله الغريزي للعيش بسلام هي مسألة نفسية بحتة ، فإنَّ كلَّ فرد منا يعرف من تجربته الشخصية أن زملاءه طيبون لطيفون ، حسنو النيات إجمالًا ، ومعظم الاحتكاك والاختلاف في حياتنا اليومية هو نتيجة للصراعات التي تخلفها الحضارة أو المدنية ، فالحسد والحقد والخبث وسائر ضروب القسوة إنما تعبر عن سلوك مصطنع كان الإنسان البدائي بريئًا من لوثه) [2] ، ويبدو جليًا أن هذا الفيلسوف وأضرابه من الفلاسفة المحلقين في دنيا الخيال قد نسوا ، أو لعلهم تناسوا ، أن حياة الإنسان منذ فجرها الأول قد لطختها الدماء عندما قتل (قابيل) أخاه (هابيل) في لحظة طائشة من لحظات الخروج على القانون ، فَخَطَّ بذلك أول سطر في سجل الجريمة وانتهاك حرمة القانون ، فأين هي تلك الحقبة البريئة من الفساد التي يتحدث عنها فلاسفة البراءة ؟

وهذا يعني أننا مهما حلق بنا الخيال ، والأمنيات العذبة ، فلا مفرَّ من الاعتراف بالحقيقة المُرَّة التالية ، وهي أن بذرة الشر مزروعة في دنيا البشر ، ولا سبيل إلى استئصالها النهائي ما دام زعيم الأشرار إبليس قد طلب الإمهال إلى يوم القيامة وتَوَعَّد بإغواء بني آدم للخروج على قوانين السماء والأرض جميعًا ، وهذا ما تثبته شواهد الأيام وآيات القرآن الكريم ، وهذا ما يؤكد ضرورة القانون لحماية المجتمع البشري من الفوضى المفضية حتمًا إلى الفساد ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة : ٢٥١] ، فلا يصحُّ أن تترك النفوس البشرية لضميرها وحده دون قانون ينظم علاقتها بالآخرين ، ويردعها عن تجاوز حدودها إلى حدود الآخرين ، وفي هذا السياق يُؤْثر عن الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه أنه قال : (إنَّ اللهَ يَزَعُ بالسُّلطانِ ما لا يَزَعُ بالقُرآنِ) وفي الحديث أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ سئل : (هل عهد إليك رسولُ الله ﷺ بشيء لم يعهده إلى الناس عامة ؟ قال : لا ، إلّا ما في كتابي هذا . فأخرج كتابًا من قراب

---

[1] إليوت سميث : كان أستاذًا للتشريح بمدرسة القصر العيني في مصر في بداية القرن العشرين ، تتلمذ على يديه كثير من الأطباء ، وكانت له هواية أخرى غير الطب هي دراسة تاريخ الحضارة البشرية ، وقد انتهى إلى أن مصر هي أصل الحضارات كلها .

[2] المصدر السابق ، (ص ١٤) .

سيفه : من أحدث حدثًا فعلى نفسه ، ومن أحدث أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) [١] ، أي من خرج على القانون أو آوى إليه خارجًا على القانون فعليه لعنة الله تعالى .

وقد أكد كثير من الفلاسفة في مؤلفاتهم على هذا الجانب المهم من فكرة القانون ، ولعل أروع ما كتب بهذا الصدد هو ذلك الحوار الشيِّق الذي نقله لنا الفيلسوف (أفلاطون) [٢] ، عن معلمه (سقراط) [٣] ، في حواره مع (كريتو) الصديق المقرَّب لسقراط ، الذي جاء ليحرره وعرض عليه أن يهربه من السجن ومن حكم الاعدام الذي أصدره بحقه قضاة أثينا زورًا وبهتانًا ، وطمأنه أن سبيل الهرب معدة بإحكام ، وأبوابه مشرعة على مصارعها أمامه ، وناشده باسم الصداقة وباسم أولاده أن يستجيب لطلبه ، وأن يفرَّ إلى قرية تسالي حيث يجد هناك ملاذًا آمنًا وملجأ لن تطاله فيه يد أثينا ولا قوانينها ، وحيث يوجد الأصدقاء الذين سيتكفلون بحمايته ، إلَّا أن سقراط رفض ذلك العرض المغري بشدة . وردَّ على صديقه كريتو بحوار طويل أكد فيه احترامه الشديد للقانون ، وأن القوانين حتى غير العادلة منها يجب أن تحترم ؛ لأن الخروج على القانون يعني نسف فكرة القانون من أساسها ، ولكي يقنع سقراط صديقه كريتو بالعدول عن فكرة الهرب التفت إليه قائلًا : (لنفترض يا كريتو أننا ونحن نعد العدة للفرار من هنا أقبلت علينا قوانين أثينا ودستورها وجابهتنا بالسؤال التالي : والآن يا سقراط ما الذي تنوي فعله ؟ هل بمقدورك الإنكار أنك بعملك هذا الذي تنويه ، تعزم بما لديك من قدرة على تدميرنا نحن معشر القوانين وتدمير الدولة بأكملها أيضًا ؟ هل تعتقد أن بإمكان أية مدنية كانت أن تستمر في البقاء وألا تنقلب رأسًا على عقب ، إذا لم تكن للأحكام القانونية الصادرة فيها أية قوة أو مفعول . أو كان بإمكان الأفراد إلغاؤها وتدميرها ؟ كيف ينبغي علينا الجواب يا صديقي العزيز

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٣٠) ، والنسائي (٨/ ١٩) .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) سقراط (٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق.م) : فيلسوف إغريقي ، لم يترك آثارًا مكتوبة ولكن تلميذه أفلاطون سجل حياته وتعاليمه في (المحاورات) ، اهتم سقراط بإصلاح الناس وأهمل شؤونه الخاصة ، وكان يتجول في الأسواق والطرقات والملاعب يحدث الناس في الفضيلة والعدل والتقوى ، وكان يتبع طريقة مبتكرة في نشر تعاليمه ، فكان يعاون محاوِرَه باستخراج المعاني من دخيلة نفسه ، وكان يقدم نفسه للمحاور على أنه لا يعرف شيئًا وأنه يريد أن يتعلم ممن يحاوره ، وشيئًا فشيئًا كان يفحص ما يدلي به المحاور ليكشف ما فيه من قصور أو زيف أو ضلال ، اتهم سقراط بإفساد عقائد الشباب وحكم عليه بالموت بتجرع السم ، وكان قد بلغ السبعين من عمره .

من هذا السؤال ؟ وعن الأسئلة الأخرى من النوع ذاته ؟ إن هناك الكثير مما يمكن قوله ولا سيما على لسان محامٍ محترف اعتراضًا على إلغاء القانون الذي ينص على أن تمسي الأحكام سارية المفعول حالما تصدر ، هل سأجيب نعم إنني أعزم على تدمير القوانين ؛ لأن الدولة أخطأت في حقي بإصدارها حكمًا خاطئًا في قضيتي ؟ هل ينبغي أن يكون هذا جوابنا يا صديقي كريتو ؟ أم بأي جواب نجيب ؟!)[1] .



(سقراط بين تلاميذه لحظة تناوله للسم)

وإن مما يكمل هذا المشهد الفريد في تاريخ القانون والعدالة ، أن سقراط عندما بدأ يتجرع السم أجهشت زوجته بالبكاء ، فالتفت إليها قائلًا : ما يبكيكِ ؟ فأجابت : أبكي لأنك تموت بريئًا . فردَّ عليها معنِّفًا : ويحكِ ، وهل كنت تودِّين أن أموت مدانًا ؟! ، وفي هذا الجواب البليغ تلخيص لفلسفة سقراط الذي ظل حتى آخر لحظة من حياته حريصًا على سيادة القانون على الرغم من قناعته ببراءته وجور الحكم الذي صدر بحقه ، وذلك لإيمانه العميق بأن مخالفة القانون أو الخروج عليه أسوأ بكثير من احترام القانون حتى وإن كان القانون جائرًا ؛ لأن القانون حين يسقط فإن المجتمع بأسره يسقط في مستنقع الفوضى التي تفضي لا محالة إلى الدمار .

الخروج على القانون :

وهكذا ننتهي إلى أن القانون ينبغي أن يحترم وإلَّا انتهت الأمور في المجتمع إلى الفوضى والدمار ، إلَّا أن المسألة لا تنتهي عند هذا الحد من التأكيد على ضرورة القانون لاستقرار المجتمع البشري بل تبدأ عنده ؛ إذ يبرز أمامنا السؤال المحرج التالي ، وهو : أي قانون نتبع .

---

[1] انظر تفاصيل هذا الحوار الشيق في كتاب (آخر أيام سقراط) لأفلاطون ، الذي نقله إلى العربية أحمد الشيباني ، دار الكاتب العربي ، بيروت (د.ت) .

ونحن بطبيعة الحال لا نريد أن نعقد مقارنة بين القوانين المختلفة التي أخذ بها البشر على مدار تاريخهم ، وإنّما نريد فقط أن نقف عند الإشكالية الأساسية التي تتعلق بالاختيار بين النوعين الأساسيين من القوانين ، ونعني بهما القوانين الوضعية في مقابل القوانين السماوية .. فالقوانين السماوية تقرر المادة الأساسية فيها :﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[المائدة : ٤٤] ، بينما تقرر معظم القوانين الوضعية المعمول بها اليوم في معظم أنحاء العالم علمانية الدولة واستبعاد الدين من الحياة العامة استبعادًا تامًّا ، فما هو موقف المؤمنين أمام هذا الفصام النكد المخالف لمعتقداتهم ؟ ، وكيف يتصرفون في عالم يستبعد الدين من الحياة بل ويعاقب عليه في كثير من الحالات ؟ علمًا بأن المؤمنين يشكلون الغالبية العظمى بين أمم الأرض بغضّ النظر عن دياناتهم ومعتقداتهم (انظر فصل : تاريخ الأديان) وهنا تكمن المفارقة العجيبة ، فبالرغم من أن المؤمنين يشكلون اليوم غالبية أهل الأرض فإن القوانين التي تحكمهم هي قوانين علمانية تخالف معتقداتهم .

وفي سبيل مقاربة هذه المفارقة الغريبة الحساسة ينبغي أن نفرق في البداية ما بين مسألتين كثيرًا ما يحصل اللبس بينهما ، وهما :

- عدم الرضا بالقانون .
- والخروج على القانون .

فالمؤمن لا يمكن أن يرضى بقانون غير قانون الله ﷻ ، فهل يعني هذا حتمية خروجه على القانون الوضعي الذي يخالف اعتقاده أو دينه ؟ وفي سبيل مقاربة هذه الإشكالية سوف نتبع منهج القرآن الكريم بالسير في الأرض والنظر في تاريخ الأمم الغابرة لكي نتعلم منه ما يعيننا على تجاوز هذه الإشكالية ، فالقرآن الكريم يقدم لنا قصصًا واقعية عديدة تبين لنا عواقب الخروج على القانون سواء كان قانونًا سماويًّا أم قانونًا أرضيًّا :

فهنا مثلًا نبي الله إبراهيم الخليل ﷺ يتحدى (القانون الوضعي) في مجتمعه فيعمد لتحطيم الأصنام التي يعبدها قومه من دون الله في محاولة مخلصة منه ﷺ للقضاء على مصدر الشرك وإقامة الحجة على المشركين ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد اعتقلته قوات الأمن بدعوى الخروج على القانون ، وبقية القصة معروفة فقد أوقدوا له نارًا عظيمةً ، وألقوه فيها في محاولة لإعدامه ، ولولا أن أدركته العناية الإلهية في اللحظة المناسبة لانتهى أمره وأمر دعوته .

بينما نجد بالمقابل رسول الله محمدًا ﷺ قد قضى شطر دعوته في مكة فكان يدخل البيت العتيق فيصلي فيه ومن حوله الأصنام فلا يتعرض لشيء منها ، ولا يسمح لأحد من أصحابه أن يتعرضوا لها بالرغم من إلحاحهم المتكرر أن يأذن لهم بقتال المشركين الذين يضطهدونهم ، وقد ظل الحال على هذه الشاكلة ثلاثة عشر عامًا ، ولم يأذن الله للمؤمنين بالقتال والخروج على قانون الجاهلية إلى أن يسَّر الله لنبيه وللمؤمنين أمر الهجرة إلى المدينة المنورة حيث أقاموا دولتهم الإسلامية الأولى ، وعندما فتح الله عليهم مكة المكرمة نفذوا قانون الله ، وألغوا قانون الجاهلية .

ومثال آخر .. فها هو ذا نبي الله موسى عليه السلام يدخل مصر فيجد قومه بني إسرائيل يسامون سوء العذاب على أيدي فرعون وزبانيته ، فتأخذ موسى الحَمِيَّة للدفاع عنهم ، ولم يلبث أن تعرض لواحد منهم فقتله ؛ لأنه وجده يعتدي على واحد من بني إسرائيل ، وفي اليوم التالي حاول موسى تكرار فعلته مرة أخرى ، فوصل الخبر إلى قوات الأمن التي سارعت في طلبه ، ولولا أن أدركته العناية الإلهية وهيأت له الفرار في اللحظة المناسبة لانتهى أمره وأمر دعوته .

أمَّا محمد ﷺ فقد كان بالمقابل يرى أصحابه يسامون سوء العذاب على أيدي المشركين ، بل إن بعضهم قد قتل فعلًا ، فلا يزيد على أن يقول لهم : « صَبْرًا .. فإنَّ موعدَكُم الجنَّة » وفي هذا دلالة واضحة على حرص النبي وعدم سماحه بالخروج على القانون ، لا لأنه راضٍ بالقانون الجاهلي الذي كان حاكمًا وقتذاك ، بل لأنه كان يدرك بما أوحى الله له من قصص الأنبياء الذين سبقوه ؛ أن الخروج على القانون ، وإن كان جاهليًّا ، سوف يؤثر تأثيرًا سيئًا على دعوته ويظهرها بمظهر الفساد في الأرض ، أو في أحسن الأحوال سيظهرها بمظهر (النزاع على السلطة) ، وهذان مطبان قاتلان للدعوة ، وقد حرص النبي ﷺ أشد الحرص على تجنب الوقوع فيهما ، وهي فرصة ثمينة لا يتورَّع أهل الباطل عن انتهازها للتشهير بالدعوة والداعية ، كما فعل زبانية فرعون من قبل حين راحوا يحرضون الغوغاء ضد موسى وأخيه وقومهما إذ ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ۝ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾ [طه : ٦٣ ، ٦٤] ، وكذلك فعل فرعون نفسه الذي شنَّ حملة دعائية شاملة ضد موسى ودعوته وأتباعه ﴿ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴾ [الشعراء : ٥٣ ـ ٥٧] .

لهذه الاعتبارات وغيرها صبر رسول الله ﷺ على أذى قريش وتحمل استفزازها المتواصل ولم يصدر عنه أية بادرة يمكن أن يستغلها أعداؤه للنيل من دعوته أو من أصحابه أو منه هو شخصيًا ، وهذه مسألة دقيقة جدًا علينا أن نمعن النظر فيها مليًا وإلا التبست الأهداف بالوسائل ، وغامت الرؤية ، ووقعت الفتنة ، كتلك التي وقعت في تاريخنا الإسلامي ولم نبرأ من آثارها حتى اليوم ، فإن أول باب دخلت منه الفتنة الكبرى كان الخروج على القانون.

وقد ضاعف من حجم الكارثة أنها كانت خروجًا على القانون السماوي هذه المرة. وكانت من قوم يدينون بالإسلام ، وقد بدأت الفتنة مع ظهور الأحزاب السياسية التي أخذت تنمو وتترعرع في أطراف الدولة الإسلامية إبان خلافة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه. حتى إذا وجدت الفرصة سانحة راحت تتمالأ ضده وتجمع صفوفها للخروج عليه ، وما لبثوا أن قتلوه ، وعندما احتدم النزاع بين علي بن أبي طالب ﷺ ومعاوية بن أبي سفيان حول المطالبة بدم عثمان ، ثارت ثائرة فرقة من المسلمين ضد علي ؛ لأنه رضي بتحكيم الرجال في فض النزاع وعَدَل عن حكم الله في الفئة الباغية ، أي معاوية ومن معه ممن قاتلوا عليًّا ، ورفع هؤلاء الخارجون شعار (لا حكم إلا لله) في وجه علي ، وهكذا ظهرت فرقة (الخوارج)[1] ، التي مثلت أول حركة منظمة للخروج على القانون العام في تاريخنا السياسي ، وقد تمخضت هذه الحركة عن كارثةٍ مزمنةٍ لم تتعافَ الأمة الإسلامية من تبعاتها حتى اليوم ، وهكذا هو كل خروج على القانون العام ، فلا أحد يعرف إلامَ ينتهي ؟ وكم سيكون حجم الكارثة ؟

وقد يعترض معترض هنا فيقول : إن خطيئة الخوارج أنهم خرجوا ضد قانون سماوي. وضد خليفة مسلم يقيم شريعة الله ، وهذا خروج مُدان بلا جدال ، أمَّا اليوم فإن بعض الجماعات والأحزاب والطوائف التي راحت تخرج على القانون في بلداننا الإسلامية إنما تخرج على قوانين علمانية جاهلية لا تدين بشريعة الله ، تُفرض علينا بالقوة والإكراه ، ومن ثم فإن خروجنا اليوم على هذه القوانين ليس كخروج أولئك الخوارج لأول مرة.

---

(١) للتوسع في معرفة تفاصيل الفتنة وظهور الخوارج ، انظر : ابن كثير (البداية والنهاية) (٧/ ٢٧٨) ، مكتبة المعارف ، بيروت (١٩٨٤م) ، ومحمد أبو زهرة (الخوارج في المذاهب الإسلامية) مكتبة الأدب في مصر ، وأحمد أمين (الخوارج في فجر الإسلام) دار الكتاب العربي في بيروت.

فنقول : هذا صحيح من جهة الشكل ، أمَّا النتيجة فهي واحدة ؛ لأن الإشكالية تكمن أساسًا في (الخروج على القانون) ، بغضِّ النظر عمَّن خرجوا سواءً كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين ، وبغضِّ النظر أيضًا عمَّا إذا كان القانون سماويًّا أم أرضيًّا ، ومشكلة الخوارج ومن سار على نهجهم فيما بعد ترجع أساسًا إلى ضلال الاجتهاد لا إلى سوء النية ، كما عبَّر عن ذلك رسول الله ﷺ حين وصف منهجهم الجاهلي فقال : « يُحَقِّرُ أحدُكم صَلاتَهُ إلى صَلاتِهم وصِيامَهُ إلى صِيامِهم يَخْرُجونَ من الدِّينِ كما يَخْرُجُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّة »[1] .

فقد اعتبر النبيُّ ﷺ عملهم خروجًا عن الدين نفسه بالرغم من كثرة عبادتهم ؛ لأن خروجهم على القانون أعاد الأمر جاهليًّا حين ألغى القانون لصالح السيف ، ونقض البناء القانوني الذي ظلَّ النبي ﷺ ثلاثة عشر عامًا في مكة يعمل على تشييده وتربية أصحابه على الالتزام به ، وقد ظلَّ النبيُّ ﷺ في مكة يرفض بإصرار رفع السيف في وجه أعدائه على الرغم من قانونهم الجاهلي ، وعلى الرغم من تنكيلهم بالمؤمنين ، ولم يرفع السيف إلَّا بعد أن أصبح للإسلام دولة وقانون ، وعندئذ صنعت الدولة الإسلامية سيفها الذي أثبتت الوقائع أنه لم يكن كبقية السيوف التي تصنع لإلغاء الحوار وقمع الحريات وفرض الرأي أو الدين على الآخرين بالقوة ، بل كان سيفًا لتأكيد لغة الحوار والسلام وحماية حرية الاعتقاد والتعبير وغير ذلك من أشكال الحرية التي يقرُّها الإسلام .

مكانة القانون في الإسلام :

ولعل خير دليل على هذا المنهج القانوني في الإسلام محاربة النبي ﷺ للروم من جراء قتلهم واليهم على مدينة معان آنذاك (فروة بن عمرو الجذامي) عندما علموا بإسلامه ، فلما وصل الخبر إلى النبي ﷺ لم يتردد في تجهيز الجيش للوقوف في وجه السيف الروماني الذي برهن عمليًّا على أنه ضد حرية الرأي والاعتقاد ، وبهذه البادرة الرائدة في تاريخ الرسالات السماوية وضع رسول الله ﷺ اللبنة الأولى في صرح (قانون عالمي جديد) يقوم على أساس حق تقرير المصير، وضمان الحريات العامة وعلى رأسها حرية الاعتقاد ، وهذه هي إحدى سمات العالمية التي هي من أخصِّ خصائص الإسلام ، والتي أصبحت اليوم بحاجة ماسَّة لإعادة الكشف عنها من جديد بعد أن طمستها بعض أحداث التاريخ الإسلامي القديم حين ألغي الحوار لصالح السيف ، وما ترتب على هذه الانتكاسة فيما بعد من فتنة كبرى ، تبعتها فتن كثيرة كقطع الليل المظلم ، مازلنا نعاني من تبعاتها حتى اليوم .

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٣٩) .

ذلك كان منهج الإسلام في تأسيس معالم القانون على المستوى الدولي، أمّا على المستوى الداخلي فإن النبي ﷺ حين استتب له الأمر في المدينة المنورة سارع إلى وضع الدستور الداخلي للدولة الذي عُرف باسم (الصحيفة)، وهي أول دستور مدون في تاريخنا الإسلامي ينظم العلاقة بين المواطنين داخل الدولة المسلمة على اختلاف أديانهم وانتماءاتهم القبلية[١].

ونذكر مما جاء في الصحيفة: (إنّ المسلمين من قريش (= المهاجرين) ويثرب (= الأنصار) ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمةٌ واحدةٌ .. وإنه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن .. وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، وإنّ ليهود بني النجار والحارث وساعدة وبني جشم وبني أوس مثل ما ليهود بني عوف .. لليهود دينهم وللمشركين دينهم .. وإنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة - وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم)[٢].

ويتضح من هذا النص النبوي المتفرّد أن الدستور الإسلامي الأول يعترف بحقّ الآخرين بالعيش داخل الدولة المسلمة مواطنين كاملي المواطنة، ويمنحهم الحقّ بممارسة شعائرهم الدينية، ويعترف بذمتهم المالية، ويطالبهم بالتعاون والتناصح لما فيه خير البلاد والعباد.

وبهذا كان الإسلام سبّاقًا إلى تقرير أهمية (القانون) في حياة الأمم، سواءً داخل الدولة نفسها، أو على المستوى العالمي، فعلى المستوى الداخلي أقرّ الإسلام لكل من أقام على أرض الدولة ورضي بدستورها أن يشارك بصنع تاريخها وبناء مستقبلها واتخاذ قراراتها المصيرية كما قرر الإسلام بوضوح أن هذا الحق لا يجوز أن ينتزع من المواطن إلّا إذا خرج على الدستور، وهذا ما وقع من اليهود الذين عاشوا ردحًا من الزمان بأمان وسلام في ظل الدولة المسلمة في المدينة المنورة، وكان لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وظلّوا على هذه الحال إلى أن نقضوا العهد وخرجوا على ما ألزموا أنفسهم به من مواد (الصحيفة) وحينئذ فقط نزع عنهم النبي ﷺ حقّ المواطنة لارتكابهم هذه الخيانة العظمى، وكان ما كان من أمرهم.

---

(١) من المؤسف أن بعض الدول العربية والإسلامية ما زالت حتى اليوم تفتقر لدستور مكتوب تحتكم إليه.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٥٠١ - ٥٠٤)، مؤسسة علوم القرآن.

أمّا على المستوى الدولي فقد قرر الإسلام أن العلاقات بين الدول هي في الأصل علاقة تجاور وتعاون وسلام ، وأن الحوار هو الوسيلة المشروعة لفضّ النزاعات والخلافات التي قد تنشب بين الدول ، ولا يلجأ الإسلام للسيف إلّا عندما يرفض الطرف الآخر لغة الحوار ، أو يَحُول دون وصول كلمة الحق إلى الناس ، أو يعمد إلى العدوان على الآخرين ، وفي هذا يبين صاحب (الظلال) رحمه الله تعالى في معرض تفسيره لسورة الممتحنة أن الأصل في علاقة الدولة المسلمة بالدول الأخرى هو المودة والبر والعدل ، وأن هذا هو أساس شرعة الإسلام الدولية التي تجعل حالة المسلم بينه وبين الناس جميعًا هي الحالة الثابتة ، لا يغيرها إلّا وقوع الاعتداء الحربي وضرورة ردّه ، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة ، وهي تهديد بالاعتداء ، أو الوقوف بالقوة في وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد ، وهو كذلك اعتداء ، وفيما عدا هذا فهي السلم والمودة والبر والعدل بين الناس أجمعين [1] .

سيادة القانون :

لقد أكدت نصوص الكتاب والسنة على أن وجود (القانون) في المجتمع والالتزام به واحترامه وتنفيذه بالعدل على الجميع هو مقصد أساسي من مقاصد الإسلام ، فقد بيَّن النبي ﷺ أن الأمة التي تستخفُّ بالقانون وتحابي بعض الناس على حساب بعضهم الآخر فإن مآلها الأكيد هو الدمار والزوال ، فقال : « إنَّما أَهْلَكَ الذين قَبْلَكُم ، أنَّهُمْ كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّرِيفُ تَـرَكُوه ، وإذا سَرَقَ فيهم الضَّعيفُ أقامُوا عليه الحَدَّ » [2] ؛ لأن الكيل بمكيالين يعني ضياع الحقوق ، واختلاط الأمور ، وخلو الساحة للذئاب البشرية لتعيث في الأرض فسادًا ، ولعل أخطر ما في هذا الوضع أن يفقد الناس ثقتهم بالقانون ، وفقدان الثقة بالقانون هو الخطورة الأولى التي تجعل الناس يتجرؤون على خرقه والخروج عليه .

أضف إلى هذا أن الكيل بمكيالين يجعل الناس يعيشون في ظلِّ وَهْمٍ كبيرٍ يخيل إليهم أنهم يعيشون في (دولة قانون) ، بينما الحقيقة أن القانون قد تعطل نهائيًا ما دام أنه يكال بمكيالين .

ونشير هنا إلى ظاهرة أخرى لا تقل خطرًا عما سبق ، وهي ما نراه اليوم في ظل انفراد بعض الدول الكبرى بالقرار العالمي وفرض هيمنتها على العالمين تحت مظلة (القانون الدولي الجديد) فقد رأينا في مناسبات عديدة أن هذه القوى لا تتورع في أحيان كثيرة عن

(1) سيد قطب : في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت / القاهرة (١٩٨٢م) .

(2) أخرجه البخاري (٣٢٨٨) ، ومسلم (٤٠٥٣) ، من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها .

خرق القانون الدولي في سبيل تحقيق مآربها ولو كان ذلك على حساب بقية العالم ، والخطير في الأمر أن خرق القوى الكبرى للقانون الدولي يعد في نظر تلك القوى (بادرة قانونية) تستحق أن تحتذى ، بحجة أن القانون الدولي أصبح بحاجة ماسّةٍ لهذه التعديلات من أجل مسايرة العصر وتغير الأحوال .. أمّا إذا حاولت بعض الدول المستضعفة أن تخرق القانون الدولي ، فإن فعلها هذا يعد بنظر القوى الكبرى (خروجًا) خطيرًا على القانون ، بل يعد إرهابًا يستحق أشد العقوبات .

وما من شك بأن هذا الكيل بمكيالين يعد مفارقة عجيبة تجعل الناس في شك من مصداقية القانون الدولي ، ناهيك عما أدى إليه هذا الكيل بمكيالين من مآسٍ كبيرة دفع العالم ثمنها ضريبة باهظة ، فإن القوى الكبرى تحت ذريعة خروج بعض الدول على القانون لم تتورع عن إزاحة حكومات شرعيّة منتخبة ، واحتلال دول مستقلة ، وإعادة العالم من جديد إلى عصر الاستعمار البغيض .. وما لم يسترد القانون الدولي مصداقيته ، فإن العالم سيكون على موعد مع نقلة قانونية خطيرة تجرد القانون من محتواه الأخلاقي وتجعله أداة طيعة في أيدي الكبار الذين أثبت سلوكهم على الدوام أنهم لا يتورعون عن توجيهه إلى حيث تكون مصالحهم ، ولتذهب إلى الجحيم كل القوانين ودعاة العدالة .

واليوم ، مع هذا التسابق المحموم لابتكار أسلحة الدمار الشامل التي لا تبقي ولا تذر ، ومع تفاقم المخاطر المهلكة التي باتت تحيق بنا من كل جانب (تلوث البيئة ، الأوبئة الجديدة القاتلة ، التغيرات المناخية الحادة ..) فقد بتنا أحوج من أي وقت مضى إلى التواضع على قانون عالمي منصف يحترمه الجميع ، ويطبق بالعدل والتساوي على الجميع دون تمييز ، لكي نستطيع التفرغ والعمل بسلام وأمان لحل هذه المشكلات التي باتت تهدد وجودنا كله إذا لم نتعاون جميعًا لمواجهتها ، وإلّا فإن الخيار الوحيد الذي يبقى أمامنا هو الاستعداد للانتحار .. فهل نحن فاعلون .

***

الفصل الحادي عشر

تاريخ السياسة

• إنني لا أوافق على كلمة مما تقول ، ولكني مستعدٌّ أن أدافع عن حقك بأن تقولها حتى لو دفعتُ حياتي ثمنًا لذلك .

الفيلسوف الفرنسي فولتير

• إن كل مجتمع لا تضمن فيه الحقوق ، ولا تفصل فيه السلطات ، إنّما هو مجتمع بلا دستور .

(إعلان الثورة الفرنسية عن حقوق الإنسان والمواطن ، البند ١٦)

في أحد الأيام كان الفيلسوف الإغريقي (هيراقليطس)[1] ، يلعب النرد مع الصبيان على قارعة الطريق عندما مرَّ به بعض الساسة الكبار ، فتعجبوا من أمره ، وسألوه : لماذا تفعل ذلك أيها الفيلسوف المبجل ؟! ، فأجابهم بسخريته المعهودة اللاذعة : وما يدهشكم في هذا أيها الأغبياء ؟! ، أليس هذا أفضل من اللعب بالسياسة معكم ؟

ووصف أحد الصحافيين الفكهين رجال السياسة وصفًا لا يخلو من الطرافة المفرطة والسخرية اللاذعة ، فقال : إن السياسي أشبه بالقرد الذي يتسلق الشجرة ، فهو كلما ارتفع أكثر كلما انكشفت سوأته أكثر فأكثر .

وكان للفيلسوف (أفلاطون)[2] ، طموحات سياسية مبكرة ، لكنه بعد أن رأى إعدام معلمه الكبير (سقراط)[3] ، اقتنع اقتناعًا عمليًا بأن السياسة غير صالحة لأصحاب الضمائر ، فتحول على الفور إلى التعليم وفلسفة الطبيعية ، وترك السياسة إلى غير رجعة .

---

(١) هيراقليطس (٥٤٠ ـ ٤٩٠ ق.م) : فيلسوف إغريقي ، اعتقد أن النار هي الجوهر الأول الذي منه نشأ الكون ، وأن الحقيقة هي التغير الدائم ، وأن الدوام وَهْم ، وأن كل شيء يحمل معه ضده ، فالوجود والعدم موجودان معًا في كل شيء ، فما من شيء إلّا وهو في حالة انتقال دائم ، وضرب مثلًا على ذلك بأنك لا تستطيع أن تخطو في النهر مرتين ، وأنه لا فرق بين (فوق) و (تحت) ، أصيب في أخريات حياته بمرض الاستسقاء من جراء عيشه على الأعشاب والنباتات ، وانتابته نوبة بغض شديد للجنس البشري حتى يئس الأطباء من حالته ، فطلب أن يغطى جسمه بالسماد ويترك في الخارج (ربما لم يقبل أحد أن يبقيه في الداخل !) وهكذا التهمته الكلاب التي ربما ترفعت عن ذلك لو علمت من هو .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) سبقت ترجمته .

ومن الأقوال المأثورة عن الفيلسوف الصيني الشهير (لاوتسو)[1] ، قوله : إذا شعرت بأن سلطتك لم تعد محترمة ، فاعلم أن هناك سلطة أخرى في الطريق .

ومن خلال عمله الدبلوماسي واختلاطه بالساسة والحكام ورؤية ما يفعلونه بشعوبهم من ويلات ، علّق الأديب والدبلوماسي الفرنسي (سان جون)[2] ، فقال : إن الأمم المستيرة سوف تسارع إلى محاكمة أولئك الذين حكموها حتى الآن ، وسوف يهرب الملوك إلى الصحراء ليعايشوا الوحوش الضارية التي يضاهونها وحشية ، وسوف تستوفي الطبيعة حقوقها منهم .

أجل .. هذه هي بعض المواقف والنظرات الفلسفيّة المغرقة في شكها وزيتها بسلوك الساسة والحكام ، وانتقادها اللاذع للسياسة وأهل السياسة ، وهي كما نرى مواقف ونظرات تنطوي على الكثير من الحقيقة ، فقد يكون اللعب مع الصغار والاستمتاع ببراءتهم وابتساماتهم العذبة ـ كما كان يفعل هيراقليطس ـ أكثر جدوى من ممارسة السياسة، وأكثر أمانًا وسلامة من التعامل مع أهل السياسة الذين لا يتورعون عن ارتكاب أشنع الحماقات ضد معارضيهم حتى وإن كانوا من أقرب المقربين إليهم ، وذلك في سبيل تحقيق هدفهم الأساسي وهو البقاء في سدة الحكم والمحافظة على (الكرسي) لأطول فترة ممكنة .

والسياسة في تعريفها البسيط هي فن ممارسة الحكم ، وقد نشأت حاجة المجتمعات البشرية إلى من يحكمها بعد توسع المجتمع البشري ، وتداخل مصالح الأمم ، وتضارب هذه المصالح وتعارضها ، وما نشأ عن ذلك كله من صراعات وخلافات بين الناس ، وهذا ما جعل الحاجة ماسة لوجود شخص أو جماعة تعمل للمحافظة على حالة الأمن والسلام بين الناس ، وهكذا ظهر أهل السياسة على الساحة ، ويحدثنا العلامة الفقيه (ابن خلدون)[3] عن السياسة وضرورتها لاستقرار المجتمع البشري على ما فيها من غلبة وقهر أو ظلم

---

(١) لاوتسو : حكيم وفيلسوف صيني ، اختلف المؤرخون حول الزمن الذي عاش فيه ، لكن معظمهم ذهب إلى أنه عاش في ٣٢٠ ق.م ، ويقال : إنه ولد في القرن السادس قبل الميلاد في الصين الوسطى ، وهو يعتبر مؤسس الديانة الطاوية ، وهي ديانة تدعو للتوازي والتعايش مع البيئة والسلام ، ويعد كتابه « تاوتيه تشينج » أي الطريق والفضيلة مرجع الطاويين الأول.

(٢) ألكسيس سان جون بيرس (١٨٨٧ ـ ١٩٧٥م) : شاعر ودبلوماسي فرنسي ، حصل على جائزة نوبل في الأدب عام (١٩٦٠م) .

(٣) سبقت ترجمته .

أحيانًا ، فيقول : (لما كانت حقيقة المُلْك أنه الاجتماع الضروري للبشر ، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية ، كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق ، مجحفةً بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم ، لِحَمْلِهِ إيَّاهُم في الغالب على ما ليس في طَوْقهم من أغراضه وشهواته ، ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخَلَف والسَّلَف منهم ، فَتَعْسُر طاعتُه لذلك ، وتجيء العصبية المفضية إلى الهَرْج والقتل ، فوجب أن يُرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يُسَلِّمُها الكافَّةُ وينقادون إلى أحكامها ، كما كان الفُرْس وغيرهم من الأمم ، وإذا خَلَت الدولة من مثل هذه السياسة لم يَسْتَتِبَّ أمرُها ، ولا يتم استيلاؤها، سنة الله في الذين خلوا من قبل)[1] ، ثم يمضي ابن خلدون مبينًا الشروط التي ينبغي توافرها فيمن يتولى أمر الناس ويسوسهم ، ويناقش الفروق الجوهرية ما بين السياسة الدينية والسياسة الدنيوية ، ويتوقف طويلًا ليبين أوجه الاختلاف ما بين الخلافة والمُلك ، إلى غير ذلك من القضايا المتعلقة بالممارسات السياسية التي سنعرض لها فيما يأتي .

النظريات والمذاهب السياسية :

وقد شهد تاريخ السياسة العديد من النظريات والفلسفات والمذاهب السياسية ، وتزخر المكتبة السياسية منذ القدم بآلاف الكتب التي تناولت موضوع السياسة من جوانبه المختلفة ، منها تلك الكتابات الأدبية ذات الصبغة السياسية التي خلفها فيلسوفنا العربي (ابن المُقَفَّع)[2] ، في القرن الثامن الميلادي ، وقد كان ابن المقفع منهمكًا بالعمل السياسي ، شديد التطلع إلى المراكز العليا في الدولة ، متشوقًا لاحتلال مكان لائق به في دنيا السياسة والسياسيين ، وكان في الوقت نفسه ميالًا للكتابة السياسية على ما في هذا الميل من مجازفة ، وقد ترك لنا ابن المقفع تراثًا أدبيًا سياسيًا ثريًا يضم العديد من الكتب ذات الصبغة السياسية اللاذعة ، من أشهرها كتابه (كليلة ودمنة) الذي تحدث فيه على لسان الحيوانات عن مسؤولية المثقف تجاه الأوضاع السياسية والاجتماعية ، وكتابه (رسالة الصحابة) الذي تحدث فيه عن بطانة الحكام ، وعرض فيه خطته السياسية الإصلاحية التي تتناول أربع مسائل سياسية محورية تتعلق بأهم أربع مؤسسات في الدولة ؛ هي : المؤسسة العسكرية ،

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، (ص ١٧٧) .

(٢) سبقت ترجمته .

والقضاء ، وبطانة الحاكم ، والإصلاح الزراعي أو ما يعرف في الفقه الإسلامي باسم (الخَراج) .

وقد عرض ابن المقفع في كتبه المختلفة الأسس والنظم والمُثل العليا اللازمة لتصحيح الأوضاع السياسية والاجتماعية المتدهورة ، وبيّن واجبات كل فئة من فئات المجتمع في بناء الدولة ابتداءً من الحكام إلى أدنى فرد في الرعية ، وهذا ما أثار عليه حفيظة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥م) الذي توجّس منه خيفة ، وخشي من مؤلفاته أن تثير عليه العامة ، فأمر واليه في العراق أن يسكته نهائيًا ، وبالفعل فقد لاحقه الوالي ولم يلبث أن قبض عليه وقتله ، وهذه الملاحقات والتصفيات والاغتيالات السياسية ليست نادرة في تاريخ السياسة ، فإن من يطّلع على سجل التاريخ السياسي سيجده حافلًا بالتصفيات الجسدية ، والملاحقات ، والتعذيب ، والسجون .

ومن الكتّاب والفلاسفة والمفكرين الذين تعرضوا بإسهاب للحديث عن السياسة العلامة ابن خلدون ، الذي خصص فصولًا مطولة في كتابه (المقدمة) للحديث عن السياسة كما قدمنا ، ولا سيما منه الباب الثالث من الكتاب الأول الذي تناول فيه الحديث عن (الدول العامة والمُلْكِ والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال) ، ومنهم أيضًا فيلسوفنا (الفارابي) [1] ، الذي ناقش جانبًا مهمًا من الممارسات السياسية ، ألّا وهو الشورى ، أو (الديمقراطية) حسب مصطلحات عصرنا الراهن ، وذلك في كتابه الشهير (المدينة الفاضلة) الذي وصف فيه حياة هذه المدينة قائلًا: (.. فأمّا المدينة الجماعية فهي المدينة التي كل واحد من أهلها مُطْلَقٌ مُخَلًّى لنفسه يعمل ما يشاء ، وأهلها متساوون وتكون سُنَّتُهم أنْ لا فضل لإنسان على إنسان في شيء أصلًا . ويكون أهلها أحرارًا يعملون ما شاءوا ، ولا يكون لأحد على أحد منهم ولا من غيرهم سلطان إلّا أن يعمل ما تزول به حريتُهم ، فَتَحْدُثُ فيها أخلاقٌ كثيرةٌ ، وهمم كثيرة وشهوات كثيرة ، والتذاذ بأشياء كثيرة لا تحصى كثرة ..) [2] .

---

(١) أبو نصر محمد الفارابي (٨٧٠ ـ ٩٥٠م) : فيلسوف عربي ، من كبار الذين ترجموا الفلسفة اليونانية ، اتصل ببلاط سيف الدولة الحمداني وعمل لديه ، شرح كتب أرسطو فلقب بالمعلم الثاني أسوة بأرسطو الذي لقب بالمعلم الأول للفلسفة ، من مؤلفاته : إحصاء العلوم ، ورسالة في معاني العقل ، وآراء أهل المدينة الفاضلة .

(٢) د. عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة ، (٢/ ١١٧) .

وعن أهل هذه المدينة يقول الفارابي : (ويكون أهلها طوائف كثيرة متشابهة ومتباينة لا تحصى كثرة ، فتجتمع في هذه المدينة تلك التي كانت متفرقة في تلك المدن كلها ، الخسيس منها والشريف ، وتكون الرئاسات بأي شيء اتفق من سائر تلك الأشياء التي ذكرناها ، ويكون جمهورها الذين ليست لهم ما للرؤساء مسلطين على أولئك الذين يقال فيهم إنهم رؤساؤهم ، ويكون من يرأسهم إنّما يرأسهم بإرادة المرؤوسين ، وإذا استقصى أمرهم لم يكن فيهم في الحقيقة لا رئيس ولا مرؤوس)[1] ، وهذا كما نرى هو أقرب وصف للنظام الديمقراطي المعروف حاليًّا في معظم دول الغرب ، لا سيما أوروبا والولايات المتحدة ، حيث يعد الحكام هناك مجرد موظفين منتخبين من قبل الشعب ، ولا يجوز لهم البقاء في مناصبهم إلّا لفترة معينة يحددها الدستور لكل منهم فإذا انقضت هذه الفترة تنازلوا عن مناصبهم إلى غيرهم ، بهدوء ، ودون صخب ولا احتجاج ولا اعتراض .

والواقع أن المسلمين الأوائل أدركوا هذا المعنى في ممارسة السياسة قبل أوروبا بقرون طويلة ، بدليل أن فقهاء الإسلام أطلقوا على الأمير وصف (الخليفة) ، وذلك إدراكًا منهم بأن الأمير - في المنظور السياسي الإسلامي - ليس سوى نائب عن صاحب الشريعة ، وأنه مستخلف في الرعية ليقيم شريعة الله ﷻ في الأمة ، فإذا لم يفعل فَقَدَ حقّه في الخلافة وجاز للرعية أن يعزلوه ، ومن طريف ما يروى بهذا الصدد أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان في أحد الأيام جالسًا بين أصحابه ، فجاءه أعرابي فسلم عليه قائلًا : السلام عليك أيها الأجير ، فظن أصحاب عمر أن الأعرابي يستهزئ به حين وصفه بالأجير ، فقاموا إليه يعنّفونه ويريدون البطش به ، لكن عمر منعهم ، وقال لهم : قد أصاب الرجل ، وهل نحن إلّا أجراء قد وكّلنا الله بكم ؟! فقد أدرك عمر رضي الله تعالى عنه أن كلمة (الأجير) التي قالها الرجل لم يرد بها الاستخفاف بالأمير ، بل أراد التعبير عن حقيقة الوظيفة المكلف بها .

وقد شهد تاريخ السياسة مذاهب شتى في فلسفة السياسة وتبرير أساليها وإضفاء المشروعية على وسائلها ومناهجها المختلفة ، ولعل من أشهر تلك المذاهب السياسية في العصور المتأخرة مذهب (المكيافيلية) الذي أسسه السياسي المؤرخ الإيطالي نيكولا مكيافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧م) الذي شارك في مطلع حياته بالعمل السياسي ، لكنه لم يلبث أن

(١) المصدر السابق .

اعتزل السياسة لما وجد فيها من مكائد وسقطات ومهالك لا أول لها ولا آخر، فتفرغ للتأليف، واشتهر في دنيا السياسة بكتابه (الأمير) الذي نشره عام (١٥١٣م)، وحاز به شهرة واسعة في شتى أنحاء المعمورة، وقد أهداه إلى حاكم فلورنسا من (آل مديتشي). وأيد فيه نظام الحكم المطلق، وزيّن فيه للحاكم استخدام مختلف الوسائل الشريفة وغير الشريفة، المشروعة وغير المشروعة من أجل ضمان حكمه وبقائه على رأس الدولة، على أساس أن الغاية تبرر الوسيلة، ومن هنا صار مصطلح (المكيافيلية) وصفًا لكل مذهب سياسي لا يتورع عن أي سلوك يضمن استمراره في السلطة، وكأن السياسي مهما كان نبيلًا قبل انهماكه بالعمل السياسي فإنه ما إن يمسك بالسلطة حتى يجد نفسه مضطرًا - أو هكذا يبرر لنفسه - للتنازل عن مبادئه واحدًا بعد الآخر، وثم لا يجد حرجًا في فعل كل الأمور الكريهة التي كان يرفضها عندما كان على براءته الأولى قبل أن تدنسه السياسة.



(المؤرخ الإيطالي نيكولا مكيافيلي)

ولعل من المناسب أن نذكر طرفًا مما كتبه مكيافيلي بهذا الصدد، فهو يقول: (كلنا نعرف كم هو مشكور أن يحفظ الأمير وعوده، وأن يعيش بأمانة واستقامة، ومع هذا كله تبين اختبارات أيامنا الحاضرة أن الأمراء الذين قاموا بأعمال عظيمة ورائعة كانوا زاهدين بالأمانة واحترام العهود، فقد تمكنوا بالرياء والخداع من خلق التخبط في عقول البشر، بينما أولئك الذين جعلوا الإخلاص أساس معاملاتهم هلكوا هلاكًا ذريعًا .. يجب أن يكون الأمير إذًا ثعلبًا ليتحسس الفخوخ ويتجنبها، وأسدًا ليخيف الذئاب الذين يتربصون به. أمّا الذين يرغبون بتقليد الأسد وحده فإنهم لا يفقهون، وبناءً عليه ينبغي على الأمير الحاذق ألّا يحفظ عهده عندما يضطره الحفاظ على العهد للتضحية بمصلحته، أو عندما تتغير الأسباب التي اضطرته لقطع هذا العهد على نفسه، لو كان الناس جميعهم أخيارًا

لكانت هذه النصيحة غير صالحة ، ولكن بما أنهم أشرار ولا يحفظون عهودهم معك فقد أصبحت غير ملزم أن تفي بوعودك معهم) [١] .

غير أن مكيافيلي بعد حين تراجع عن هذا المذهب لما رأى من جرائم ترتكب باسمه ، وألّف كتابه الآخر بعنوان (المقالات) أو الخُطَب ، الذي عارض فيه كتابه الأول ، وأيّد النظام الجمهوري القائم على سيادة الشعب ، وعدّد فيه مزايا هذا النظام وفضّله على النظام الملكي الوراثي ، وربما تعود هذه (الرِّدَّة !) الفكرية من مكيافيلي إلى ما شاهده من نتائج فظيعة لتطبيق أفكاره السابقة على أرض الواقع ، وربما اطلع أيضًا على بعض ما كتبه المفكرون الآخرون في أبواب السياسة ، فعاد عن أفكاره السابقة .

وهناك مذهب سياسي آخر ظهر في تاريخ السياسة هو الطوباوية (*Utopia*) ، وهي كلمة يونانية معناها في الأصل (المكان الخالي القَصِي) أمّا في إطار السياسة فهي تعني (المدينة الفاضلة) أو (الفردوس المفقود) ، وهي تعبر عن نظرة مثالية للممارسات السياسية في المجتمع ، وقد اشتهر هذا المصطلح في السياسة منذ أن أصدر المفكر السياسي الإنكليزي (توماس مور)[٢] ، كتابه (يوتوبيا) ، الذي تحدث فيه عن النظام الأمثل للدولة ، وهو نوع من الحكم يختلف كل الاختلاف عما عرفته إنكلترا أو غيرها من أمم الأرض ، وقد تخيّل هذا المفكر في هذه الدولة إلغاء الملكيّة الفرديّة ، وجعل أموال الدولة كلها مشاعًا لأفراد الرعية الذين يعيشون أساسًا على الزراعة مع بعض الحِرَف الضرورية ، والعمل إجباري على جميع المواطنين بشرط أن لا يتعدى (٦ ساعات / يوميًّا) لكي يتبقى للناس متسع من الوقت للاشتغال بالأمور الروحية ، أمّا اختيار القادة والأمير أو حاكم الدولة فيكون عن طريق نظام انتخابي معقد ، وكذلك اختيار الذين سوف يكرّسون أنفسهم

---

(١) كتاب (الأمير) الفصل (١٨) .

(٢) السير توماس مور (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥م) : قائد ومفكر سياسي إنكليزي ، وهو قديس حسب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، تلقى تعليمه في مدرسة القديس أنطوني ، وعمل بالمحاماة ، وأصبح نائبًا لعمدة لندن ثم سكرتيرًا ومستشارًا للملك هنري الثامن ، وانتخب ناطقًا باسم مجلس العموم ، ثم أصبح وزيرًا للعدل ، لكنه استقال من منصبه في عام (١٥٣٢م) حينما لم يقبل طلاق الملك هنري الثامن من كاثرين ، ورفض قبول قانون السيادة والاعتراف بالملك هنري الثامن ربيًّا للكنيسة الكاثوليكية الرومانية في إنجلترا ، فاتهم بالخيانة العظمى وسجن في برج لندن الذي كتب فيه (حوار الراحة ضد المحنة) قبل أن يعدم بقطع رأسه ، من مؤلفاته (تاريخ الملك ريتشارد الثالث) و (اليوتوبيا) و (حوار متعلق بالبدع) .

للعلم ، أمّا النظام الأسري في هذه الدولة المثالية فيقوم على أساس الزوجة الواحدة ، وكل ما ينتجه الأفراد يُسَلَّم للدولة ، ويحصل كل رب أسرة على ما يحتاج إليه من مخازن الدولة . والنساء متساويات تمامًا مع الرجال في كل شيء .

وقد سبق لفيف من المفكرين إلى الكتابة في الطوباوية منهم الفيلسوف اليوناني أفلاطون في كتابه (الجمهورية) ، والقديس أوغسطين في كتابه (مدينة الله ، عام ٤٢٠م) والفيلسوف العربي الفارابي في (آراء أهل المدينة الفاضلة ، عام ٩٢٠م) الذي أوردنا فقرات منه قبل قليل ، كما ألف فيها بعد ذلك كثير من المفكرين ؛ منهم : الإيطالي تومازو كامبانلا في كتابه (مدينة الشمس ، عام ١٦٢٣م) ، وفرانسيس بيكون في كتابه (أطلنطس الجديدة ، عام ١٦٢٧م) ، وهربرت جورج ويلز في كتابه (يوتوبيا حديثة ، عام ١٩٣٠م) ، إلّا أن هذه المدينة ظلت إلى يومنا الحاضر مجرد حلم وردي يداعب أهداب الفلاسفة وأهداب المعلمين في الأرض .. وما أكثرهم .. ولم تر النور في أية بقعة من بقاع الأرض ، وذلك لأن الحلم شيء ، والواقع شيء آخر .



(المفكر السياسي الإنكليزي توماس مور)

ويبدو أن اليوتوبيا التي حلم بها الكثيرون على مرّ الزمان تبقى جميلة إلى اللحظة التي تتحقق فيها ؛ لأنها حين تتحقق على أرض الواقع تتحول على الفور إلى مآسٍ وآلام ، فلو تحققت مثلًا المدينة اليوتوبية التي نادى بها توماس مور لوجد نفسه يسير في ظل نظام شيوعي ستاليني [1] ، مع كل ما انطوى عليه هذا النظام من دكتاتورية وقمع وتنكيل وسفك للدماء

---

(١) أخذناه بتصرف من الحوار الصحفي الذي أجري مع الروائي الإيطالي أمبرتو إيكو (مجلة الثقافة العالمية ، العدد (١١٦م) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ٢٠٠٣م)

وهذا يعني أن أروع ما في اليوتوبيا أنها غير قابلة للتحقيق ، وأجمل ما تعطينا إياه هو ذلك الشعور الدفّاق الذي تولده في نفوسنا ويدفعنا للتغيير بحثًا عما هو أفضل وما هو أنبل ، وهذا ما عبر عنه الأديب الإنكليزي أوسكار وايلد (١٨٥٤ ـ ١٩٠٠م) في أحد تعليقاته الساخرة البليغة حين قال : (إن خريطة للعالم لا تحتوي على يوتوبيا ، لا تستحق حتى مجرد النظر إليها ؛ لأنها تغفل البلد الوحيد الذي تتوجه سفينة البشرية دائمًا إليه ، وعندما ترسو على شاطئه تتلفت في الأفق فإذا لمحت بلدًا آخر انطلقت مبحرة إليه) .

أجل .. فالنفوس النبيلة تتوق باستمرار إلى ما هو أسمى وأمثل ، وهذا ما يجعل أصحاب النفوس الكبيرة في مأزق حقيقي وهم يعيشون عصرنا المادي البائس الذي أمسى (عصر التسويات والحلول الوسطى ، والسعي لجعل العالم أقل شرورًا ، والحالمون من أصحاب الرؤى أصبحوا موضع السخرية أو الاحتقار ، والناس العمليون هم الذين يحكمون حياتنا ، فلم نعد نبحث عن حلول جذرية لشرور المجتمع بل لإصلاحه ، ولم نعد نسعى لإلغاء الحروب بل لتجنبها فترة تمتد سنوات قليلة ، إننا لا نحاول إلغاء الجريمة وإنما نكتفي بإصلاح القوانين الجنائية ، ولا نحاول إلغاء المجاعات بل نسعى لإنشاء مؤسسات خيرية عالمية على نطاق واسع .. وعندما يعيش المرء في عصر ينشغل بكل ما هو عملي قابل للتحقق السريع فربما يكون من المفيد أن يلجأ إلى الأشخاص الذين حلموا باليوتوبيات ، ورفضوا أي شيء لا يتلاءم مع مثلهم الأعلى عن الكمال)[1] .

أجل .. فبالرغم من كل النكسات المفجعة التي انتهت إليها معظم المحاولات الماضية لتحقيق المدينة الفاضلة على الأرض ، فإن الإنسان سوف يظل يحلم بتلك المدينة .. الحلم .. ربما لأن الحلم جزءٌ لا يتجزأ من التكوين الفطري للإنسان ، وهذه نعمة كبيرة من نعم المولى علينا ؛ لأن تلك المدينة الحلم حتى وإن لم تتحقق فإن مجرد المحاولة لتحقيقها يبعث في النفس السعادة ، ويدفع إلى المزيد من العمل الذي يثمر في نهاية المطاف المزيد من تقدم المجتمع البشري وتطوره (فلولا يوتوبيات العصور الأخرى لظل الناس يعيشون في الكهوف عرايا بؤساء ، إن اليوتوبيات هي التي رسمت خطوط المدنية الأولى ، فمن الأحلام السخية تأتي الوقائع النافعة ، إن اليوتوبيا هي مبدأ كل تقدم ، وهي محاولة لبلوغ مستقبل أفضل)[2] .

---

(١) ماريا لويزا برنيري : المدينة الفاضلة عبر التاريخ ، (ص ١٧) .

(٢) المصدر السابق ، (ص ٧) .

تلك هي السياسة في منظورها المثالي ، وأمّا على أرض الواقع فقد حفل تاريخ السياسة بالكثير جدًا من الكتابات التي تناولت النظم والمبادئ السياسية ، منها كتاب (المدافع عن السلام) الذي نشره في عام (١٣٢٤م) السياسي الإيطالي مارسيل بادوفالي (١٢٧٥ـ ١٣٤٣م) وعرض فيه النظم والمبادئ التي ينبغي أن تقوم عليها (الدولة العلمانية) للتمكن من مواجهة التحالف الظالم الذي جمع بين السلطة البابوية المطلقة من جهة ، وسلطة الإقطاع من جهة أخرى ، وهذا ما جعل المجتمع الأوروبي في ذلك الحين يئن تحت وطأة هذا التحالف الظالم ، ودفع معظم المفكرين والفلاسفة والمصلحين للمناداة بشعار : (اشنقوا آخر قسيس بأمعاء آخر إقطاعي) .

وفي أواخر القرن السادس عشر نشر الفيلسوف السياسي الاجتماعي الفرنسي جان بودان (١٥٢٠ ـ ١٥٩٦م) كتابًا سماه (الكتب الستة للدولة خيِّرة) وقد ضمنه خلاصة فلسفته في النظر إلى التاريخ السياسي ، متأثرًا بالحقبة التي عايشها وكانت حافلة بالحروب الدينية، ولا سيما بين الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية في فرنسا ، وهذا ما دعاه إلى رفض السلطة الكنسية المطلقة ، والدعوة إلى سيادة الدولة المطلقة على سائر المواطنين ، وكان يرى من حق الملوك أن لا يخضعوا لأي قانون سوى قانون الله والطبيعة .

وفي منتصف القرن السابع عشر نشر الفيلسوف الإنكليزي (توماس هوبز) [1] ، كتابه بعنوان (لوياثان) أو (التنين الجبار) ، الذي نشره عام (١٦٥٢م) ، وذهب فيه إلى أن البشر في مطلع تاريخهم عاشوا حياة فردية فطرية سابقة على تكوين الجماعة ، ولكنها كانت حياة فوضى وصراع ؛ ولهذا اضطروا إلى التعاقد على إنشاء الجماعة السياسية ، واضطروا بمقتضى هذا التعاقد لاختيار حاكم عليهم لم يكن طرفًا بالعقد ، ولم يرتبط تجاههم بشيء، وبناءً على هذا التعاقد تنازل الأفراد عن جميع حقوقهم الطبيعية ، وهذا يعني أن سلطة الحاكم مطلق وغير مقيد بشيء ، وأنه هو الذي يضع قوانين الدولة ويعدلها حسب مشيئته.

وبعد ذلك بفترة وجيزة عرض الفيلسوف الإنكليزي (جون لوك) [2] ، فكرة النظام النيابي والحكومة الممثلة للشعب ، ودعا إلى الليبرالية (*Liberalism*) ، ودعا لأن يكون جميع الناس أحرارًا ومتساوين ومستقلين بعضهم عن بعض ، وأكد أنه لا يجوز أن يخضع

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) سبقت ترجمته .

أحدهم للآخر دون رضاه ، وهكذا نجد أن (لوك) على النقيض من (هوبز) رأى بأن الإنسان في حال الفطرة يكون سعيدًا متسمًا بالحكمة والتسامح ، ويكون الناس سواسية مستقلين ، وليس لأحد أن يؤذي غيره في حياته وصحته وأملاكه وحريته ، ثم تعاقد الناس مختارين على إقامة الدولة لتعمل على الأساس الفطري ذاته ، فتكفل للأفراد حرياتهم وثمار جهودهم ، فإذا حادت الدولة عن مهمتها هذه لم تكن الثورة عليها حقًّا للأفراد فحسب بل واجبًا عليهم ، وقد أخذت الثورة الأمريكية عنه مبادئها وتأثر به فيما بعد الفرنسيان فولتير وروسو اللذين طورا أفكاره .

ثم جاء الفيلسوف الأديب الفرنسي الشهير مونتسكيو (١٦٨١ ـ ١٧٥٥م) الذي خاض غمار السياسة حتى قمة رأسه ، وتولى منصب رئيس مجلس النواب في مدينة بوردو ، وخرج من تجربته السياسية بآراء ثاقبة أثرت تأثيرًا عميقًا في تاريخ السياسة من بعده ، وقد انتقد سياسة المجتمع الأوروبي في كتابه (الرسائل الفارسية) الذي نشره عام (١٧٢١م) ، وهو أروع ما كتب في الأدب السياسي الساخر .

ثم عرض مونتسكيو في كتابه (روح القوانين) مختلف أشكال الحكومات التي عرفها التاريخ ، وشرح فيه مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث الرئيسية : (التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية) ودافع عنه بقوة ، وقرر أن السلطة بطبيعتها تغري الحكام بالانحراف ، وأن جمع السلطات في يد واحدة يضاعف من خطر الاستبداد السياسي ، وذهب مونتسكيو إلى أن الوسيلة المثلى لمنع الاستبداد هي توزيع السلطات بين هيئات مختلفة ، كما فعل النظام الإنكليزي ، ودعا مونتسكيو كذلك بالديمقراطية النيابية ؛ لأن الشعب في تقديره غير قادر على ممارسة التشريع بنفسه ، كما دعا إلى فكرة النيابة العامة لعضو البرلمان ، فالنائب لا يمثل دائرته الانتخابية وحدها ، وإنَّما يمثل الأمة كلها ، وقد كان لآراء مونتسكيو تأثير كبير على رجال الثورتين الفرنسية والأمريكية[1] ، وبخاصة نظريته التي تقول بالفصل بين السلطات الثلاث في الدولة (السلطة التشريعية ، والسلطة التنفيذية ، والسلطة القضائية) .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر نشر الفيلسوف والأديب السياسي المحنَّك جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م) كتابين مهمين في الفلسفة السياسية ، هما كتابه (العَقْد الاجتماعي) وكتابه (مقال في أصل وأسس عدم المساواة بين الناس) عرض فيهما

(١) الموسوعة العربية الميسرة ، (ص ١٧٩٠) .

بأسلوب أدبي مُشرق طبيعة العقد الذي ينبغي أن ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم. والمساواة الاجتماعية التي ينبغي أن يعبِّر عنها هذا العقد لتكون بمثابة الروح للجسد.

وفي أوائل القرن التاسع عشر أصدر الفيلسوف الألماني (هيجل)[1]، الذي تتلخص فلسفته بأن للكون روحًا يتبدى في مراحل تطورية يعينها المنطق الجدلي، ومحصله أن فكرة ما تولد نقيضها، ومن تفاعل النقيضين تنتج فكرة جديدة تؤلف بينهما، ثم تأخذ الفكرة الجديدة نفس المراحل الثلاث المذكورة، ففكرة الوجود تولد فكرة العدم، ومن تآلفهما تنتج الصيرورة، والعالم يسير متطورًا من الجماد إلى النبات فالحيوان، والمجتمع يتطور نحو الملكية التي تتطلب سن القوانين، ومن خلال علاقة الفرد بالقوانين تنشأ مبادئ الأخلاق؛ إذ تتفاعل حرية الأفراد مع التزامهم الأخلاقي فتنشأ فكرة الدولة التي تسمو على الأفراد، وقد أكد هذه الأفكار في كتابه (مبادئ فلسفة الحق) الذي ذهب فيه إلى أن المجتمع ما هو إلَّا تنظيم اقتصادي يتعاون فيه نظام الحاجات مع نظام العمل بغية تكوين حركي منتج للثروات، ونظرًا لأن هذا النظام سيصطدم بتناقضات الفئات المختلفة في المجتمع فقد لزم إيجاد مبدأ يُعترف له بالسلطان الكامل ويكون مسؤولًا عن اتخاذ القرارات التي تنظم المجتمع، وتلك هي الدولة ذات السيادة التي تتجسد بشخص الحاكم الذي هو مصدر القوانين، ويساعده موظفون يُعَيَّنون بحسب كفاءتهم ويديرون شؤون الدولة بما يوفق بين مصالح الجماعة ومصالح الأفراد الجزئية.





(من اليمين: مونتسكيو، روسو، هيجل، أبرز الفلاسفة الأوروبيين الذين ساهموا بتطوير المفاهيم السياسية الحديثة)

---

(١) سبقت ترجمته.

أمّا المفكر الألماني (كارل ماركس)[1] ، فقد رأى أن النموذج الذي عرضه هيجل من قبل يكرّس السيطرة السياسية لفئة الحكام الذين يملكون (رأس المال) ، ويتيح لهم أن يستغلوا قوة العمل التي يقدمها العمال والكادحون الذين لا يملكون وسائل الإنتاج ، ومن ثم فإن الدولة التي صوّرها هيجل هي - في رأي ماركس - نتاج النظام الاقتصادي البورجوازي الذي يطمع بالمحافظة على الأنظمة القائمة ، وإحكام السيطرة على مقدرات المجتمع ، كما أن هذا النظام - في رأي ماركس كذلك - يحول دون قيام ثورات للعمال والفلاحين لتغيير هذه الأوضاع المجحفة بحقهم .



(الفيلسوف الألماني كارل ماركس)

وهكذا نجد أن تاريخ السياسة حافل بالعديد من النظريات والمذاهب السياسية التي وجد بعضها طريقه إلى التطبيق العملي في بعض البلدان ، أو في بعض العصور ، وقد أظهرت التجربة فشل بعضها وصلاحية بعضها الآخر ، ولا نعني هنا بـ (الصلاحية) المعنى الأخلاقي للكلمة بل نعني الجانب العملي ، أي إن بعض تلك النظريات استطاعت أن توفر للمجتمع حدًّا معقولًا من الاستقرار السياسي ، والأمن الاجتماعي ، والأرضية المناسبة للنشاط العلمي الذي ساعد المجتمعات البشرية على تحقيق إنجازات علمية وحضارية كثيرة زادت من مساحة تمكينها في الأرض ، كما هي الحال الراهنة مثلًا في معظم الدول الأوروبية والولايات المتحدة واليابان وغيرها من الدول التي انتهجت النهج

---

(١) كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م) : فيلسوف ألماني يهودي ، درس القانون في جامعة بينا في ألمانيا ، ثم انصرف لدراسة الاقتصاد والفلسفة الاجتماعية ، وابتدع الفلسفة الماركسية ، اضطهد في ألمانيا بسبب نشاطه الثوري ، فنفر إلى باريس حيث التقى بصديقه فريدريك أنجلز الذي أصدر وإياه أول بيان شيوعي (مانيفست) في عام (١٨٤٨م).

الديمقراطي في سياساتها ، فقد أثبت هذا النهج حتى الآن كفاءته وصلاحيته لحل الكثير من القضايا والمشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الشائكة في تلك البلدان ـ قياسًا ببقية دول العالم التي ما زالت تتخبط في مستنقع الدكتاتورية والاستبداد السياسي والحكم الفردي المطلق ، وتعاني أشد المعاناة من مشكلات وقضايا لا أول لها ولا آخر .

والديمقراطية لفظ مشتق من اللغة اليونانية ، وهي تعني (حكم الشعب بنفسه ولنفسه) وتتسع بمدلولها العام لكل مذهب سياسي يعتبر إرادة الشعب مصدرًا للسلطات ، كما تشمل كل نظام سياسي يقوم على أساس حكم الشعب نفسه بنفسه من خلال اختياره الحر لحكامه ، وبخاصة منهم القائمين بالتشريع ، ثم مراقبتهم بعد اختيارهم[1] ، والديمقراطية ليست ضربًا جديدًا من ضروب الممارسة السياسية المعاصرة ، بل هي قديمة في تاريخ العمل السياسي ، فقد عرفت في بلاد الإغريق قبل أكثر من ألفي عام ، وبالتحديد منذ عام (٥١٠ ق.م) عندما أجرى المفكر اليوناني الإصلاحي كليستينيس (*Cleisthenes*) إصلاحات واسعة في دستور أثينا ، وأدخل فيه تغييرات جذرية جعلت الشعب جزءًا أساسيًّا في الممارسة السياسية ، ففي عام ٥٠٧ ق.م أسس نظامًا ديمقراطيًّا أمكن في ظله لكل رجل أثيني حر أن يؤدي دوره في الحكومة ، ووزعت فيه الوظائف على نطاق واسع ، وقد مني هذا النظام بالفشل آخر الأمر ، إلَّا أنه كان الخطوة الأولى التي أدت إلى تشكيل أثينا الحرة .

علمًا بأن بعض المؤرخين يدفعون بميلاد الديمقراطية الأثينية إلى الوراء فيرجعونها إلى العام ٥٩٤ ق.م ، بينما يعتقد آخرون أن العناصر الجوهرية للحكم الشعبي لم تبرز إلَّا بعد إصلاحات إيفالتيس سنة (٤٦٢ ق.م)[2] ، ومن ناحيتنا فإننا نرجح أن الدعوة لمشاركة الشعب في سياسة الرعية هي دعوة دينية في الأصل ، نرجح أنها وردت في بعض الكتب السماوية التي لم تصل إلينا ، بدليل ما ورد في القرآن الكريم من دعوة النبي محمد ﷺ لمشاورة أصحابه في شؤون الدولة ، كما نبين بعد قليل .

وفي الواقع فإن الديمقراطية ما هي إلَّا صورة من صور (الشورى) التي حضَّ عليها الإسلام ، وهي وإن اختلفت عن الشورى من بعض الوجوه فإنهما تلتقيان على أمور جوهرية عديدة في الممارسة السياسية ، فهما تقرران أن تسيير الأمور العامة في المجتمع

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة ، (ص ٨٣٧) .

(٢) انظر : العدد ٦٧ من مجلة الثقافة العالمية ، (ص ١٢١) ، العدد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت (١٩٩٤م) .

ينبغي أن يقوم على المشاركة الجماعية ، وألّا يتخذ قرار في القضايا المصيرية التي تخص الأمة إلّا بعد تشاور وتراض ، أو استفتاء عام على حد تعبيراتنا السياسية المعاصرة ، وأن يكون التشريع الاجتهادي الذي يبحث في القضايا العامة اجتهادًا جماعيًّا من قبل مجلس مختار من أهل الخبرة والاختصاص (أهل الحلّ والعَقْد ، البرلمان ، مجلس الشعب ..) ؛ لأن الجماعة أبعد عن الخطأ وعن التحيز الذي لا يكاد ينجو من سقطاته أولئك الذين يستبدون بالرأي فيتيهون بأقوامهم إلى الهلاك ، كما فعل فرعون بقومه عندما جاءه نبي الله موسى ﷺ يدعوه إلى الإيمان بالله ، فقد جمع فرعون أهل الرأي عنده وعرض عليهم القضية على طريقة الحكومات الديكتاتورية التي تتخذ من برلماناتها ديكورًا لتلميع صورتها أمام الرأي العام ، وحين بدأ القوم يتشاورون ويعرضون آراءهم ، ولاح لفرعون أن الآراء الغالبة بدأت تميل إلى الإيمان بدعوة موسى ﷺ ، وأن (التصويت) لن يكون في صالحه آخر الأمر ، ضرب بقبضته طاولة الاجتماعات ، وصرخ في القوم ساخطًا مغضبًا مهددًا : « ما عَلِمْتُ لَكُم من إلهٍ غَيْرِي .. ما أُرِيكُمْ إلا مَا أَرَى .. ومَا أَهْدِيكُمْ إلا سَبِيلَ الرَّشَاد .. » ونهاية القصة معروفة ، فقد أورد قومه سبيل الهلاك ، وانتهى بهم إلى نار جهنم ، وهذه هي نهاية الاستئثار بالحكم ، والازدراء بالشورى التي قرنها الله ﷻ بالصلاة والزكاة كما نبين بعد قليل .

وفي مقابل هذا الموقف الديكتاتوري المتسلط من فرعون ، يقدم لنا القرآن الكريم صورة وضاءة لممارسة الشورى الحقيقية ، فنراه يثني على ملكة سبأ (بلقيس)[1] ، التي جاءها الكتاب من نبي الله سليمان ﷺ بأن تأتيه هي وقومها مسلمين ، فجمعت أركان حكمها وشاورتهم في الأمر : ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل : ٣٢] ، ونظرًا لما يعلمون من حكمتها ورجاحة عقلها فقد فوضوها بالتصرف حسب ما تراه هي مناسبًا لمعالجة هذه الحالة الطارئة ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل : ٣٣] ، وهكذا لم تستبد هذه المرأة الحكيمة برأيها كما فعل فرعون ، وذلك

---

[1] بلقيس : بنت الهدهاد بن شرحبيل ، من حمير ، من أهل مأرب ، خلفت أباها في حكم اليمن ، وزحفت إلى فارس وبابل ، ثم عادت إلى اليمن ، واتخذت سبأ قاعدة لملكها ، عاصرت نبي الله سليمان ﷺ (٩٨٠ ق.م) ووردت قصتها معه في القرآن الكريم ، فقد آمنت بدعوته ، ودخلت في دينه ، وكانت سببًا في دخول قومها دين التوحيد ، بعد أن كانوا يعبدون الشمس من دون الله ، وقد تزوجها سليمان ﷺ وأقامت معه بضع سنين إلى أن توفيت رضي الله عنها ، ودفنت في تدمر من بلاد الشام .

حرصًا منها على أهم مبدأ من مبادئ السياسة الحكيمة ، ألا وهو الشورى ، ونهاية قصتها معروفة ، فإن هذه الملكة بحكمتها وحنكتها جنَّبت قومها وبلادها معركة مدمِّرة لا قِبَلَ لهم بها وأدخلتهم في الإسلام ففازت في الدنيا والآخرة .

ونظرًا لما في الشورى من خير كبير للمجتمع فقد جعلها الله ﷻ من صفات المؤمنين الذين قال في وصفهم : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨] ، ونلاحظ في هذه الآية أن الله ﷻ قد وضع الشورى بين فريضتين هما من أعظم فرائض الإسلام (الصلاة والزكاة) تعظيمًا لشأن الشورى ومكانتها في استقرار المجتمع .

ومن باب التأكيد على أهمية الشورى في استقرار المجتمع فقد أمر اللهُ نبيه المصطفى ﷺ بمشاورة أصحابه وأركان دولته فقال تعالى :﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، أي أن الإسلام جعل الشورى من تكاليف النبوة مع أن النبوة مستغنية عن الشورى بالوحي ؛ ولهذا كان ﷺ كثير المشاورة لأصحابه ، فلم يكن يقطع بأمر من الأمور التي تخص الجماعة المسلمة إلَّا شاورهم فيه ، وكان يكرِّر عليهم عند كل نازلة أو مشكلة تعترضهم : « أشيروا عليَّ أيها الناس ، أشيروا عليَّ .. » حتى إذا استوثق من اتفاقهم على الرأي أنفَذَه ، وقد انتهى جمهور الفقهاء في الإسلام إلى أن (الشورى من قواعد الشريعة ، وعزائم الأحكام ، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب ، وهذا مما لا اختلاف فيه)[1] .

ويبقى أن نشير هنا إلى فارق جوهري ما بين الديمقراطية والشورى ، فهما وإن اتفقتا في آليات الممارسة كما أسلفنا فإنهما تختلفان في المرجعيات ، فالديمقراطية ليست لها مرجعية تقوم عليها اللهم إلَّا مواد الدستور الذي هو أساسًا اجتهاد بشري ، أمَّا الشورى في الإسلام فإنها ترجع أساسًا إلى حكم الشارع الحكيم ؛ لأن الأصل في حياة الأمة المسلمة أن تحقق مقاصد الشارع الحكيم في حياتها ، ومن ثم فإن على (أهل الحل والعقد) أو من يقوم مقامهم من ممثلي الشعب أن يراعوا في اجتهاداتهم وتشريعاتهم تلك المقاصد ، وهذا لا يعني التوقف عند النصوص السماوية وحدها ، فقد أعطى التشريع الإسلامي هامشًا واسعًا للاجتهاد البشري في ممارسة السياسة بشرط أن تراعي المقاصد الكلية للشريعة .

(١) أحكام القرآن للقرطبي (٤/ ٢٤٩) ، أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٤٨) ، تفسير الفخر الرازي (٩/ ٦٧) ، مواهب الجليل (٣/ ٣٩٥) ، بدائع السلك في طبائع الملك (١/ ٢٩٥) .

وقد عبر الإمام ابن القيم (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م) يرحمه الله عن هذه المقاصد الرفيعة بوضوح تام حين قال : (إن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسماوات ، فإن ظهرت أمارات العدل ، وأسفر وجهه بأي طريق كان ، فثمّ شرعُ الله ودينه ، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين)[1] .

التمثيل السياسي :

وقد عرف التاريخ البشري صورًا عديدة من ممثلي السياسة في المجتمع قبل تقنين الممارسات السياسية في العصر الحديث ، فكان هناك أولًا (رب الأسرة) الذي مارس سياسته على أهل بيته ثم كان هناك كبير العشيرة ، ثم زعيم القبيلة ، ومع نشأة الدول واتساع السلطان ظهر السلاطين والملوك والأباطرة ، وكان هؤلاء في بادئ الأمر يفرضون سلطانهم على المجتمع بقوة العشيرة ، أو قوة المال ، أو الجاه ، أو قوة المؤيدين (الملأ على حد تعبير القرآن الكريم) ، ولكن مع مرور الوقت راح الملوك والسلاطين والأباطرة يوزعون المهام على مساعديهم ، فأصبح هناك وزراء ومستشارون وقواد جيش ومسؤولون عن الخزينة ، إلى غير ذلك من مهام الدولة .

أمّا المجالس التشريعية التي تتولى تشريع القوانين للبلاد فلعل أقدمها المجلس المسمى (أُقيم) الذي أسس في عام (٢٨٠٠ ق.م) في مدينة أُرُنْش في العراق وكان مجلسًا مزدوجًا للمهام التشريعية والتنفيذية ، أمّا أقدم مجلس تشريعي ما زال يعمل حتى اليوم فهو (مجمع تنوالد) في جزيرة مان البريطانية الذي احتفل بعيده الألفين في عام (١٩٧٩م) ، أمّا أول هيئة تشريعية تفرغت للمهام التشريعية دون التنفيذية فهي هيئة (ألثِنْغ) التي تأسست في عام (٩٣٠م) في مجلس جزيرة أيسلندا وكانت تضم (٣٩) زعيمًا محليًّا واستمرت تعمل حتى عام (١٨٠٠م) .

وفي منتصف الألف الأخيرة قبل الميلاد (حوالي ٥٥٠ ق.م) بدأ التنافس الشديد على تولي المراكز العليا في الدولة ، فظهرت في روما القديمة طبقة (البطارقة) وهي الطبقة الممتازة من المواطنين ، وكان تولي المناصب الرفيعة والدينية وقفًا عليهم وحدهم دون عامة الناس ، وكانوا يخدمون في الجيش في فرق خاصة هي (فرقة الفرسان) ، وعندما

---

(١) ابن القيم : إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ٣٧٢) .

أنشئت الجمهورية الرومانية في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد ، بدأ العامة يطالبون بالمساواة السياسية والاجتماعية مع البطارقة ولكن سعيهم لم يكلل بالنجاح إلا في القرن الثالث قبل الميلاد حين أعطيت الفرصة لزعماء من العامة كي يتولوا بعض المناصب الرفيعة أسوة بالبطارقة ، وبعدها تشكلت (طبقة النبلاء) من الطرفين ، ولكن مرة أخرى جعل النبلاء الانضمام إلى طبقتهم أمرًا عسيرًا ، واحتكروا مناصب مجلس الشيوخ (السناتو) وولاية المناصب العامة ، وقد أثار هذا التصرف عامة الناس مرة أخرى في مطلع القرن الأول قبل الميلاد ، ونتيجة لذلك أمست دعائم النظام الجمهوري في خطر ، فاضطر يوليوس قيصر وأوكتافيوس لإصدار قانونين خولاهما الحقّ بضمّ أفراد جدد إلى البطارقة ومنذ عهد قسطنطين لم تعد كلمة (بطريق) حكرًا على طبقة معينة ، بل أصبحت لقبًا فخريًا يمنح لمن يؤدي خدمة ممتازة للدولة .

أما (البرلمانات) فقد جاء ذكرها لأول مرة في وثيقة إنكليزية ملكية هي استدعاء من الملك (هنري الثالث) لمجلسه الاستشاري في (١٩/ ١٢/ ١٢٤١م) ، أمّا أول نواة للبرلمان في إنكلترا فقد تشكلت عام (١٢٥٠م) من خلال المجلس الإقطاعي (أو المجلس الكبير) الذي كان الملوك يستشيرونه في المسائل المهمة ، وقد مر البرلمان بتحولات عديدة حتى أصبح أحد مجلسي البرلمان الإنكليزي المعروفين ، وهو (مجلس اللوردات) الذي يضم الأشراف الوراثيين وكبار رجال الدين مع احتفاظه ببعض الاختصاصات التشريعية والقضائية القديمة إلى جانب احتفاظه باختصاصاته المالية حتى عام (١٩١١م) ، وفي عام (١٢٥٠م) سمح الملوك لممثلين عن الشعب بحضور جلسات البرلمان وبعد قرن كامل من الزمان وبالتحديد في عام (١٣٥١م) انقسم البرلمان الإنكليزي إلى (مجلس اللوردات) الذي يتألف من نخبة خاصة من النواب و (مجلس العموم) الذي يضم (٦٢٥) عضوًا ممثلين عن الشعب ينتخبون من خلال انتخاب عام ، وبعد ذلك بدأت البرلمانات تظهر هنا وهناك تحت مسميات مختلفة (مجلس الشعب ، مجلس الأعيان ، مجلس النواب ، مجلس الشيوخ ..) إلى أن أصبحت إقامة هذه المجالس تقليدًا عالميًا في مختلف الدول ، ومختلف أشكال الحكم الملكي والجمهوري ، الديمقراطي والديكتاتوري ، وهي في كثير من البلدان لا تعبر حقيقة عن رأي غالبية الشعب ، بل تعبر عن رأي الأسرة الحاكمة ، أو الطائفة الغالبة ، أو الحزب الأوحد ، أو الزعيم الملهم .

الدساتير :

والدستور هو مجموعة القواعد القانونية الأساسية التي تنظم تسيير شؤون الدولة ، وهو يحدد وظائف الحكومة ومهامها والصلاحيات التي تحتاجها من أجل أداء هذه المهام ، ويطلق علماء السياسة على الدولة التي تخضع فيها الهيئات الحاكمة للدستور وصف (الدولة الدستورية) ، وقد استقر هذا الوصف في الفكر السياسي بعد استقرار فكرة الفصل بين السلطات الثلاث (التشريعية ، والقضائية ، والتنفيذية) ، ويعدُّ الحكام في الدولة الدستورية مفوضين من الشعب الذي هو صاحب السلطة الحقيقية ، وهؤلاء الحكام يتصرفون وفق قواعد مقيدة يحددها الدستور مسبقًا لكل منهم ، وفي الظروف الاستثنائية تعطي معظم الدساتير للحكام هامشًا ضيقًا من حرية التصرف ، وإذا ما أراد الحاكم توسيع هذا الهامش يتوجب عليه الرجوع إلى السلطة التشريعية لأخذ موافقتها أولًا ، وتشترط معظم الدساتير ألّا تتجاوز هذه الصلاحيات حدًّا معينًا وإلّا فقد النظام دستوريته ، وهذا ما هو حاصل اليوم في العديد من دول العالم التي تفاخر نظريًّا بأنها دول دستورية ، وعندها دساتير مكتوبة أنيقة الخط والتغليف ، ولكنها في واقع الحال لا تعير الدستور أي اعتبار ، ولا تقيم له أي وزن .

ويخبرنا التاريخ أن الدساتير المدونة حديثة العهد نسبيًّا إذا ما قورن تاريخها بتاريخ الحكومات والدول الموغل في القدم ، ويتفق المؤرخون على أن أول دستور مكتوب ومعروف في التاريخ السياسي هو الدستور الذي عرف باسم (الصحيفة) التي أبرمها النبي محمد ﷺ في العام الأول للهجرة (٦٢٢م) عندما هاجر إلى المدينة المنورة بناءً على طلب من أهلها الذين دخل معظمهم في الإسلام ، وقد كان هذا الدستور هو أول عمل سياسي لنبيِّ الله ﷺ بعد استقراره في المدينة ، وقد تضمن الدستور جملة من القواعد الأساسية التي تنظم العلاقة بين المسلمين ، وبقية أهل المدينة من المشركين واليهود والقبائل التي كانت تسكن المدينة حينذاك ، وبعض القبائل التي اختارت أن تكون في حماية الدولة الإسلامية الجديدة في المدينة المنورة (انظر فصل : تاريخ القانون) .

أمّا أقدم الدساتير المدنية المكتوبة ، فلم ير النور إلّا بعد دستور المدينة المنورة بأكثر من ألف عام وهو دستور الولايات المتحدة الأمريكية الذي وفق عليه بالأكثرية يوم (٢١/٦/١٧٨٧م) ووضع قيد التنفيذ العملي يوم (٤/٣/١٧٨٩م) ويعد دستور

الولايات المتحدة من أوضح الدساتير الحديثة التي أعدت في العالم وأكثرها فعالية ، فقد ساهم هذا الدستور في قيام حكومة تتوازن فيها السلطات الثلاث ، كما أقام التوازن بين الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات ، وهو يتمتع كذلك بمرونة تجعله قادرًا بكفاءة على مسايرة التطور ؛ لأنه اعترف ونصَّ بالتفصيل على كيفية وإمكانية التعديل والإضافة ، مع النص أيضًا على بعض القيود التي تحميه من التغييرات المتسرعة .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هناك حتى اليوم العديد من دول العالم ليس لها دستور مكتوب على الرغم من أن بعضها دول ديمقراطية نهاية ؛ مثل : (بريطانيا ، نيوزلندا) إلى جانب بعض الدول العربية ؛ مثل : (ليبيا ، عُمان ، المملكة العربية السعودية) .

أمّا الدساتير العربية فقد عرفت في العصر الحديث لأول مرة في مصر التي صدر فيها دستور عام (١٨٨٢م) بأمر من الباب العالي العثماني[1] ، وتلاه دستور عام (١٩٢٣م) بعد إعلان الاستقلال عن بريطانيا ، أمّا بقية البلدان العربية فلم تعرف الدساتير إلّا بعد سقوط الخلافة العثمانية عام (١٩٢٤م) ، ولعل أول الدساتير العربية هو الدستور الذي صدر في العراق عام (١٩٢٥م) أي في العام التالي لسقوط الخلافة ، ثم لبنان (١٩٢٦م) ، فسوريا (١٩٣٠م) ، فلبنان (١٠٤٣م) ، فليبيا (١٩٥١م) ، فالسودان (١٩٥٨م) ، فتونس (١٩٥٩م) ، وقد شهدت هذه الدساتير تعديلات كثيرة منذ إعلانها وحتى اليوم .

تداول السلطة :

لقد ظلت لعبة السياسة على مدار التاريخ البشري مثل الكرة التي يتقاذفها اللاعبون في الملعب ، فهي لا تستقر على حال ، ولا تثبت على منوال ، وما زال البشر حتى يومنا الحاضر يجربون أشكالًا جديدة من أنظمة الحكم التي يبتكرها الساسة أو الملأ الموالون لهم ، ولكن الهدف من مختلف هذه التجارب ظل هو .. هو لم يتغير على مدار التاريخ : أن يظل الحاكم متربعًا على العرش ، ماسكًا عصا القيادة ، لأطول فترة ممكنة من الزمان ، لا فرق في هذا بين ملك ولا رئيس ولا سلطان ولا أمير ولا زعيم ولا شيخ قبيلة ، فقد أصاب هذا المرض السياسي المزمن كل من تصدى للحكم ، ولم يكن ثمة مانع عند معظم الحكام ـ إن لم نقل كلهم ـ من سلوك مختلف السبل المشروعة وغير المشروعة في سبيل تحقيق هذا الهدف . فالمهم آخر الأمر أن تبقى عصا القيادة في يد (الكبير) وليكن من بعده الطوفان .

---

(١) سبقت ترجمته .

ولعل من طريف ما يذكر بهذا الصدد أن تاريخ السياسة قد شهد فترات حكم لا تكاد تصدَّق ، امتد بعضها زهاء قرن كامل من الزمان ، وهذه الأرقام القياسية في الحكم مسجلة حتى الآن لثلاثة من الملوك والأباطرة ، وهم على التوالي حسب الأقدمية في التاريخ :

- الفرعون (فيوبس الثاني) أو أنفركار ، في مصر القديمة ، الذي ظل في سدة الحكم (٩٤ سنة) بالتمام والكمال .
- وملك أراكان في بورما (مينهتي) الذي يعتقد أنه بقي في الحكم مدة تربو على (٨٥) عامًا في الفترة ما بين عامي (١٢٩٤ ـ ١٣٧٩م) .
- وأمير منطقة نزيغا في تانجانيكا وسط أفريقيا وهو (موصوما كابنجو) الذي يعتقد أن فترة حكمه دامت ٩٨ عامًا ، في الفترة ما بين (١٨٦٤ ـ ١٩٦٣م) .

أمَّا الأسر الحاكمة فقد تجاوز حكم كثير منها حاجز القرن الواحد ، واستمر بعضها في الحكم عدة قرون ، وحكم بعضها الآخر آلاف السنين ، كما هي مثلًا حال الفراعنة في مصر القديمة ، أمَّا أقدم الأسر الحاكمة التي ما زالت على رأس السلطة حتى اليوم فهي الأسرة الإمبراطورية في اليابان المنحدرة من نسل الإمبراطور الأول جيمو تنّو (٦٦٠ ـ ٥٨١ ق.م) وقد مضى عليها في الحكم زهاء (٢٦٠٠) عامًا ، إلَّا أن الممارسة السياسية في اليابان بدأت في العصور الحديثة تنتهج النهج الديمقراطي الذي يتولى فيه رئيس الوزراء الشؤون التنفيذية ، مع بقاء الإمبراطور ممثلًا للسلطة العليا في البلاد .

السياسة والدين :

من الجدير بالذكر قبل أن نختتم هذا الفصل المليء بالإشكالات والملابسات والمخاطر والذي نتوجس خيفة أن نخوض فيه أبعد مما خضنا ، أقول لا بد ـ قبل أن نغادر هذا الفصل ـ من بيان جانب مهم من الجوانب التي تختلف فيها السياسة الشرعية في الإسلام عن غيرها من الممارسات السياسية التي شهدها التاريخ في المجتمعات غير الإسلامية ، بما فيها الحكومات الثيوقراطية (*Theocracy*) أو الدينية التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى ، ونحن هنا سنتحدث عن منهاج التشريع الإلهي في هذه المسألة ، وليس عمَّا جرى على أرض الواقع عبر التاريخ الإسلامي ؛ لأن ما جرى عبر هذا التاريخ لم يكن دومًا يستلهم المنهاج الإلهي في تسيير دفة السياسة ، بل كان يقترب منه حينًا ، ويبتعد أحيانًا ، وفق ما تمليه الظروف والأشخاص والأهواء والمصالح والغايات .

وقد كثر الحديث في العقود الأخيرة حول إشكالية السلطة في الإسلام، أو ما يعرف بفصل الدين عن الدولة، أو الفصل ما بين السلطتين الزمنية والروحية، وقد أثيرت هذه القضية منذ زمن مبكر في التاريخ الإسلامي بل كانت هي الشرارة التي فجرت (الفتنة الكبرى) ابتداءً من مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه (٣٥هـ/ ٦٥٥م) وما تلا ذلك من نزاع بين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ومعاوية بن أبي سفيان مما أسفر عن ولادة ظاهرة الخوارج الذين قاموا في وجه علي متهمين إياه بأنه (لا يحكم بما أنزل الله) وقد كان من نتيجة هذه الإشكالية جرح غائر في تاريخنا الإسلامي لم يلتئم حتى اليوم.

وقد أعيد إنتاج هذه الإشكالية مرارًا في فترات مختلفة من تاريخنا الإسلامي، وعادت للظهور على السطح مرة أخرى في العصر الحديث، ولعل من أوائل من تجرؤوا على إثارتها في أوائل القرن العشرين الشيخ علي عبد الرازق [1]، (١٨٨٥ ـ ١٩٤٧م) الذي كان يعمل قاضيًا بمحكمة المنصورة الابتدائية في مصر، حين أقدم في العام (١٩٢٥م) على إصدار كتابه (الإسلام ونظام الحكم) الذي نفى فيه الصفة الدينية عن نظام الحكم في الإسلام. وبدا الكتاب في حينه وكأنه رجع الصدى لكتاب المستشرق البريطاني ولفريد سكوون بلانت (١٨٤٠ ـ ١٩٢٢م) الذي نشره بعنوان (مستقبل الإسلام) ودعا فيه المسلمين لفصل الدين عن السياسة، وقد أثار كتاب الشيخ ردود فعل غاضبة من قبل علماء الأزهر ونفر واسع من علماء الأمة الإسلامية، وأدين الشيخ بحجة أنه جعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم في أمور الدنيا، وأن جهاد النبي ﷺ كان في سبيل المُلك لا في سبيل الدين، وأن نظام الحكم في عهد النبي ﷺ كان غامضًا مبهمًا موجبًا للحيرة، وأن مهمة النبي كانت مجرد بلاغ للشريعة ولا علاقة لها بالحكم، وأنكر إجماع الصحابة على وجوب تنصيب إمام للمسلمين، وزعم أن حكم الخلفاء الراشدين لم يكن دينيًا.

وبالرغم من أن الشيخ فصل من وظيفته، وأخرج من زمرة العلماء، وصودر كتابه ومنع من نشره، إلّا أن الأفكار التي أثارها وجدت لها فيما بعد مؤيدين من بعض المفكرين أولًا ثم من بعض أصحاب القرار الذين بدؤوا ينتهجون النهج العلماني في تسيير السياسة العامة في معظم البلدان الإسلامية، مما أثار موجة احتجاج مضادة من قبل نخبة من

---

[1] سبقت ترجمته.

الإسلاميين الذين راحوا يرفعون شعارات (تطبيق الشريعة) ونشطوا في تشكيل جماعات إسلامية لتحقيق هذا الهدف في شتى البلدان العربية والإسلامية [١] ، وقد حدثت مواجهات كثيرة بين هذه الجماعات من جهة وبين أنظمة الحكم التي لم تلبي هذا المطلب من جهة أخرى ، وكانت المواجهات في كثير من الأحيان دامية ، وما زالت المواجهات قائمة بين الطرفين ، هنا أو هناك ، مشكّلة استعصاءً سياسيًّا أشبه بالدخول في نفق مظلم لا ندري متى الخروج منه .

ونظرًا لطبيعة بحثنا هذا فإننا لا ننوي الخوض في تفاصيل هذه الإشكالية ومنعرجاتها الخطرة ، ولكن تكفينا الإشارة هنا إلى أن هذه الإشكالية ترجع أساسًا إلى أن الإسلام يطالب معتنقيه بأن يستهدوا بنور الوحي ، في السياسة وفي غيرها من شؤون الحياة ، على النقيض من المناهج الوضعية التي تعتمد العقل مرجعية وحيدة لها ، وقد تكلم الفقهاء طويلًا في هذه المسألة ، وصنفوا فيها العديد من الكتب من أشهرها كتاب (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) للإمام الماوردي [٢] ، و (السياسة الشرعية) لشيخ الإسلام ابن تيمية [٣] ، وغيرهما ممن فصّلوا سمات الحكم من الوجهة الشرعية .

ولعل أفضل من يحدثنا عن هذه الإشكالية العلّامة ابن خلدون هذا المفكّر الرائع الذي يفرض علينا حضوره في كل مناسبة ، ونحن لا نعود لابن خلدون هنا لأنه فقيه فيلسوف مؤرخ فحسب ؛ بل لأنه فوق ذلك كله قد اكتوى بنار السياسة حين تولى مناصبها في بلدان إسلامية مختلفة ، وعرّض نفسه مرات عديدة للموت ؛ لأنه تجرأ على اجتراح هذا الفعل المحفوف بالمخاطر ، وعندما أحسّ بالعيون تترصد حركاته وتتربص به الدوائر لم يتردد باعتزال السياسة وأهل السياسة ليعكف على رياضته المفضلة في التفكر والتأمل

---

(١) قدرت بعض الدراسات أن عدد هذه الجماعات يفوق المئات ، وقد ورد شرح مفصل عن (٩١ جماعة إسلامية) منها في كتاب (الأصولية في العالم الإسلامي) من تأليف ريتشارد هرير دكمجيان ، ترجمة عبد الوارث سعيد ، دار الوفاء مصر (١٩٨٩م) .

(٢) علي بن محمد بن حبيب الماوردي (٩٧٤ ـ ١٠٥٨م) ولد في البصرة وعاش في بغداد وتوفي فيها ، كان إمامًا في المذهب الشافعي ، وهو أول من لقب بـ (أقضى القضاة) وقد كانت له مكانة رفيعة عند الخلفاء وعند العامة من تصانيفه (الحاوي) في الفقه ويقع في عشرين مجلدًا ، و (الأحكام السلطانية) و (أدب الدنيا والدين) و (قانون الوزارة) .

(٣) سبقت ترجمته .

والتأليف ، فطلع علينا بفصل شيّق طويل في كتابه « المقدمة » عقده تحت عنوان (في معنى الخلافة والإمامة) ، ميز فيه بوضوح ما بين السياسة الدينية والسياسة الدنيوية ، وأول ما يسترعينا في عرض ابن خلدون أنه استخدم مصطلح « الخلافة » للسياسة التي مرجعها ديني ، بينما استخدم مصطلح « المُلك » للسياسة التي مرجعها غير ديني ، وتحدث عن القوانين المتبعة في السياسة فقال : (فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبُصَرائها كانت سياسة عقلية ، وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة ؛ وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دُنياهم فقط .. بل المقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم .. فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة ، حتى في المُلك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني ، فأجْرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطًا بنظر الشارع . فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب .. فجور وعدوان ومذموم عنده .. وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضًا ؛ لأنه نَظَر بغير نور الله ؛ لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم ، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم .. وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط .. ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم ـ فوجب ـ بمقتضى الشرائع ـ حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم ـ وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء)[1] .

ويخلص ابن خلدون بعد نقاش طويل لمسألة الخلافة والمُلك إلى أن بؤس العالم الإسلامي والعنف السياسي السائد فيه يعود بالدرجة الأولى إلى أن الخلافة التي تعد رسالة إلهية في الإسلام قد تحولت بعد العصر الراشدي إلى مُلْك ، أي إلى استئثار بالحكم لا يخضع لقانون سوى أهواء الأمير ، وذهب ابن خلدون إلى أن الخلافة تناقض الملك ؛ لأن الخلافة تعني خضوع الحاكم نفسه للشريعة الإلهية ما يجعل رغباته ذاتية لا شرعية ، وفي ذلك تكمن عظمة الإسلام كنموذج سياسي حسب ابن خلدون ، فالخليفة مقيد بأحكام الشريعة وكذلك رغباته وشهواته ، أمَّا الملك فلا يعترف بأي قانون أعلى ، وهكذا تتميز الخلافة عن الملك بشيء آخر ، فالملك يسهر على مصالح المحكومين الدنيوية فحسب ، أما الخلافة فتسهر أيضًا على آخرتهم ، كما أن الخليفة ليست لديه حرية التصرف التي يتمتع بها

(١) ابن خلدون : المقدمة ، (ص ١٧٧) .

الملك ؛ لأن الخليفة مقيد بالشريعة التي تنطبق عليه كما تنطبق على محكوميه ، وهنا تكمن في نظر ابن خلدون جدّة الإسلام وخصوصيته السياسية الفريدة ، وينبهنا ابن خلدون إلى جانب آخر على درجة كبيرة من الأهمية ، وهو أن الخليفة ليس مقيدًا بالشريعة الإلهية فحسب ، ولكنه فوق هذا لا يملك لها تغييرًا ؛ لأنه مهما كانت قوته فإنه لا يملك في عرف الشرع سلطة التشريع ولا حق التشريع ؛ لأن المشرع الوحيد هو الله سبحانه وتعالى ، وما مهمة الخليفة إلَّا تطبيق الشرع [(١)] .

وبسبب هذا الاختلاف الجوهري ما بين الخلافة والملك ، وانقلاب الخلافة إلى ملك عضوض حل محل الخلافة الراشدة ، نشأت صراعات مريرة ومواجهات دامية عديدة على طول تاريخنا الإسلامي ، بين المطالبين بإقامة الخلافة وبين الطامعين بالملك ، وما زالت هذه المواجهات قائمة إلى يومنا الحاضر كما قدمنا ، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذه الإشكالية كان يمكن أن تحل بهدوء وسلام من خلال الحوار الهادئ بين الطرفين ، إلَّا أن هذا الأمل العزيز ظل بعيدًا عن التحقيق ، وذلك لسببين اثنين يفضي أحدهما إلى الآخر ليدخلا معًا في حلقة مفرغة يتعذر الخروج منها :

السبب الأول : يأتي من قبل المطالبين بتطبيق الشريعة وعودة الخلافة ، الذين يعتقدون أنهم يطالبون بواجب شرعي لا يرفضه إلَّا خارج عن الملة ، فهؤلاء يرون أن المسألة تتعلق مباشرة بثنائية (الإيمان / الكفر) ومن ثم يمسي الاتهام بالكفر تهمة جاهزة لديهم ضد معارضيهم .

والسبب الثاني : يأتي من قبل المعارضين لتطبيق الشريعة وعودة الخلافة ، الذين يعتقدون أن تطبيق الشريعة يعني العودة بالمجتمع إلى صورة الحكم الديني (الثيوقراطي) الذي ذاقت منه أوروبا الأمَرَّين في حقبة طويلة من تاريخها المظلم ، ويتوجسون فوق هذا أن وصول الإسلاميين إلى سدة الحكم يعني إقامة (محاكم تفتيش) جديدة لتطهير المجتمع من (الكفار) .

وما بين هؤلاء وأولئك عاشت الأمة ردحًا طويلًا من تاريخها في أزمات سياسية متلاحقة ما زالت تدور في دوامتها العنيفة التي نعتقد أن لا مخرج منها إلَّا بتحكيم العقل ، والقبول بالطرف الآخر مهما كان رأيه مخالفًا لرأينا ، مع الاستفادة من تجارب الأمم

---

(١) فاطمة المرنيسي : سلطانات منسيات ، (ص ٩ و ١٠) (بتصرف) .

الأخرى التي استطاعت أن تنزع فتيل هذا النزاع بالاحتكام إلى صناديق الاقتراع ، هذه الصناديق التي استطاعت بجدارة أن تحول وجهة الأزمة من صراع على السلطة إلى تنافس على ممارسات سياسية أفضل ليست بالضرورة لوجه الله كما يأمل أهل الدين ، بل ربَّما تكون بدافع الطمع للبقاء في (الكرسي) فترة انتخابية ثانية ، ومع أن هذا الدافع قد لا يريح أهل الدين إلَّا أنه أفضل بكثير مما جرينا عبر تاريخنا الطويل الذي أسلمنا فيه مصيرنا للحاكم ، تاركين إياه لضميره ، إن شاء عدل وإن شاء ظلم ، وعندئذ سوف نتخلص إلى غير رجعة من ذلك النفاق السياسي الذي ظل يجبرنا على الدعاء للسلطان بطول (البقاء) لا لأننا راضون عنه ، بل لأننا نخشى أن يخلفه من هو أشد منه بطشًا وأشد تنكيلًا[1] .

وغني عن البيان أن دعوتنا هذه ليست دعوة مفتوحة لتبني المنهج الديمقراطي الغربي بخيره وشرِّه ، بل هي دعوة للاستفادة من تجارب الأمم التي استطاعت أن تحول مبدأ (الشورى) الذي هو مبدأ إسلامي أصيل إلى مؤسسات راسخة قادرة على تنصيب سلطان مكان سلطان دون إراقة قطرة دم واحدة ، فيما عجزنا نحن المسلمين عن هذه النقلة ، بل على العكس منها قدَّمنا ثلاثة من خلفائنا الراشدين شهداء على مذبح السياسة ، بينما نجد في العصر الحديث دولًا شتى قد تناوب على حكمها رؤساء كثيرون دون أن تدخل متاهة التصفيات السياسية ، وها نحن اليوم نشاهد عددًا من رؤساء تلك الدول الذين ما زالوا على قيد الحياة وقد تنازلوا طائعين عن (الكرسي) بعد انتهاء مدة ولايتهم ليتابعوا حياتهم العادية مثل بقية المواطنين ، بينما لا نجد في أي بلد من بلداننا الإسلامية رئيسان في وقت واحد على قيد الحياة ، اللهم إلَّا إذا كان أحدهما في غياهب السجون .

● ● ●

---

(١) للمزيد من التوسع في هذه الأفكار يمكن الرجوع إلى كتابنا « العقلية الإسلامية بين إشكالات الماضي وتحديات المستقبل » دار الآفاق والأنفس ، دمشق (١٩٩٥م) .

الفصل الثاني عشر

تاريخ الحرية

- حتى الأشياء الجامدة تصرخ دفاعًا عن نفسها عندما نحاول كسرها .

الشاعر نزار قباني (قصتي مع الشعر)

- من السهل أن تعرف كيف تتحرر ، ولكن من الصعب أن تكون حرًّا .

الأديب الفرنسي أندريه جيد

- كل ما هو عظيم وملهم صنعه إنسان عمل بحرية .

العالم آينشتين

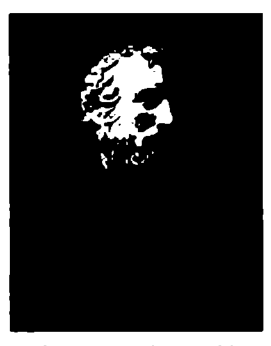
لعل من أجمل المواقف التاريخية التي تعبر عن روح الحرية عندما تتغلغل في نفس الأحرار وتصبح جزءًا من كينونتهم لا يمكن أن يتخلوا عنها حتى عندما يكونون في أصعب المواقف ، ما روي عن الفيلسوف اليوناني المبدع (ديوجين) [١] ، الذي تعرَّض للأسر من قبل بعض القراصنة ، وعندما أخذوه إلى سوق النخاسة ليبيعوه كما تباع العبيد سأله الراغبون بالشراء عمَّ يجيد من عمل ؟ فأجابهم بكل فخر واعتداد : أن أكون سيدًا ، والتفت إلى زبائن السوق وخاطبهم ساخرًا : من منكم يريد أن يشتري سيدًا ؟ وعندما سمعه أحدهم أعجب به فأخذه وجعله معلمًا لأولاده .

لقد ظل الحديث عن (الحرية) عبر التاريخ يدور في إطار المعنى السياسي للكلمة ، بالرغم من أن للحرية معاني أخرى كثيرة أوسع وأعمق من معناها السياسي ، فالحرية هي من أشد المفاهيم التصاقًا بحياة الإنسان ومصيره ، وربما لهذا السبب ظل مفهوم الحرية بين الحين والآخر يتعرض لعمليات التشويه والتلبيس والتحجيم لخدمة أصحاب القرار

---

(١) ديوجين : فيلسوف إغريقي ، عاش في أثينا خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، أسَّس المذهب الفلسفي الذي عرف باسم الكلبية (Cynicism) الذي يؤمن بأن الفضيلة هي المعرفة وهي غاية الحياة وسر السعادة ، عُرِف ديوجين بازدرائه للغنى وذمه لمظاهر الترف والإسراف والتبذير ، واشتهر بمصباحه الذي كان يحمله في رابعة النهار ويتجول به بين الناس باحثًا عن الحقيقة ، وكأنه كان يريد بهذه الطريقة الساخرة أن يكشف الناس على حقيقتهم ويفضح طباعهم وسلوكهم ، كما اشتهر ديوجين بمناقضته لأفلاطون الذي كان يدعو للتغني بالحاكم والمدينة الفاضلة ، أمّا ديوجين فكان يسخر من المدينة الفاضلة وينتقد قوانين المجتمع والحضارة السائدة ، وكان يعبّر عن رفضه هذا عمليًا بأسلوب حياته البسيط .

الذين لا يؤمنون أصلًا بالحرية إلّا بمقدار ما يضفي على صورتهم من بريق أمام عدسات التصوير ، وما تمنحهم دعوى الحرية من سلطات استثنائية تضاف إلى رصيدهم من التسلط والطغيان ، فلا عجب إذًا أن نجد تاريخ الحرية والأحرار حافلًا بالحديث عن الرق والعبودية، وأهوال السجون ، وأقبية التعذيب ، وأعواد المشانق ، وقطع الأرزاق ، بل قطع الألسنة والرؤوس أيضًا ، وهذا ما دفع الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو إلى القول : (لقد وُلِدَ الإنسانُ حُرًّا ، ولكنه حيثما كان فهو يرسُفُ في الأغلال) .



(الفيلسوف الإغريقي ديوجين)

وتشير سجلات التاريخ إلى أن مفهوم الحرية لم يتبلور في الفكر البشري دفعة واحدة؛ بل تطور عبر التاريخ تحت ضغط الظروف الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية والاقتصادية التي مرت بها المجتمعات البشرية المختلفة ، ويرجح أن مشكلة الرّق التي ابتليت بها المجتمعات البشرية منذ وقت مبكر من تاريخها كانت هي العامل الأهم الذي نبَّه الفكر البشري إلى مفهوم الحرية .

ولا ريب بأن المعاناة الشديدة غير الإنسانية التي عانى منها الأرقاء والعبيد هي التي جعلت الأديان السماوية تعطي مسألة الحرية والعبودية مساحة واسعة من نصوص الكتب المقدسة على اختلافها ، كما أن تلك المعاناة هي التي دفعت الفلاسفة والمفكرين وبعض السياسيين الشرفاء على مر التاريخ للحديث عن الحرية ، وتبني الدعوة إلى التحرر ، والدفاع عن مختلف أشكال الحريات العامة والخاصة ، على أساس أن الحياة بلا حرية لا تعني شيئًا.

وهذا ما أشار إليه الفيلسوف الفرنسي الشهير (فولتير)[1] ، حين كتب يقول : (أن يكون الإنسان حرًا ، وأن يكون مساويًا للجميع ، فتلك هي الحياة الحقة ، حياة الإنسان الطبيعية ، وكل حياة أخرى لا تعدو كونها خدعة حقيرة ، يؤدي فيها أحدهم شخصية السيد ، والآخر دور العبد) .

وقد تحققت عبر العصور السالفة إنجازات كبيرة لترسيخ مفهوم الحرية في أذهان الناس ، وفي سلوكهم اليومي ، وممارساتهم السياسية ، وطرأت على هذا المفهوم تحولات عميقة على مختلف الأصعدة الثقافية والاجتماعية والسياسية ، فمثلًا لم يكن أحد يتصور قبل قرن من الآن ما أحرزته المرأة في العالم من مكتسبات فيما يخص مساواتها بالرجل ، فقد أصبح حقها في التعليم حقًا رسميًا في مختلف أنحاء العالم ، وكذلك حقها في ممارسة الكثير من الأعمال التي ظلت إلى وقت قريب محظورة عليها ، مثل العمل السياسي العام ، وتَوَلّي المناصب الرفيعة في الدولة ، وفي البرلمان والمحاكم وغيرها من مؤسسات الدولة .



(الفيلسوف الفرنسي فولتير)

والواقع أن الطريق الذي قطعته البشرية حتى وصلت إلى الآفاق الراهنة من حرية الوجود ، وحرية الفكر ، وحرية الرأي ، وحرية الاعتقاد ، وحرية تقرير المصير ، وغيرها من آفاق الحرية ، لم يكن طريقًا معبدًا ولا مفروشًا بالورود والرياحين ، بل كان طريقًا مليئًا بالأشواك والضحايا والمآسي الفظيعة التي لا يتسع المجال لاستعراضها هنا ، ولا نعدو الحقيقة والتاريخ إذا قلنا إن المجتمعات البشرية قاطبة قد عانت من قضية الرق والعبودية وتقييد الحريات ، وشهد التاريخ البشري الطويل ملايين الضحايا من المطالبين بحقهم الطبيعي في الحرية .

---

(١) سبقت ترجمته .

ظاهرة الرقّ :

والحديث عن الحرية يقودنا ابتداءً للحديث عن ظاهرة الرقّ التي تعد هي والحرب من أبكر وأشد الأمراض التي ابتليت بها العقلية البشرية منذ وقت مبكر من تاريخها ، ويعتقد المؤرخون أن الحروب كانت السبب الأول لظهور الرق في المجتمعات البشرية ؛ إذ كانت الحروب في الماضي تنتهي باسترقاق أفراد الطرف المهزوم ، من نساء ورجال وأطفال . وهكذا شاع نظام الرق وأصبح نظامًا مقررًا وعُرفًا متبعًا بين شتى الأمم [1] .

وقد وردت الإشارة إلى الرق قبل الميلاد بأكثر من ألفي عام ، وذلك في وثائق عديدة . لعل من أشهرها قوانين حمورابي [2] ، التي خصص منها عدة مواد لتقنين التعامل مع الأرقاء . وكان العبيد في الماضي يعدون من جملة الممتلكات مثل بقية الأمتعة وكانوا يباعون ويشرون في أسواق النِّخاسة التي أعدت خصيصًا لهذه التجارة .



(تمثال الحرية في الولايات المتحدة)

(إن الأمم تصنع تماثيل كبيرة للأشياء التي تفتقدها أكثر :

الأديب الإنكليزي برنارد شو)

ومع مرور الأيام ، وتعاقب الدعوات السماوية التي تحُضُّ على الرفق بالعبيد وتشجع على تحريرهم ، ومع تعاظم الدعوات من الفلاسفة وأهل الفكر والأخلاق لإنهاء مشكلة الاسترقاق بين البشر ، ومع استقرار الدول ، وترسيخ الحدود ، وتواضع الدول على بعض القوانين ذات الصبغة الإنسانية ، بدأ المجتمع البشري يتعافى من هذه الظاهرة شيئًا فشيئًا

---

(١) انظر : د.عبد السلام الترمانيني (الرق ماضيه وحاضره) سلسلة عالم المعرفة ، العدد (٢٣) ، الكويت (١٩٧٩م) .

(٢) سبقت ترجمته .

حتى كاد الرقُّ يختفي تمامًا من مختلف أنحاء العالم ، غير أن موجة الاستعمار الأوروبي الذي اجتاح بقاعًا كثيرة من العالم ، ابتداءً من عام (١٤٤٠م) أعادت هذه الظاهرة المأساوية المؤلمة إلى الساحة مرة أخرى ، وربما كانت البداية مع اكتشاف الملاحين البرتغاليين للسواحل الأفريقية ، وسيطرتهم على أهلها واسترقاقهم والمتاجرة بهم ، وعلى مدى الخمسة قرون التالية تقريبًا ظلت زيارات تجار الرقيق الأوروبيين للسواحل الأفريقية تشكل أهم مصدر من مصادر تجارة الرقيق في العالم ، وقد تخللت هذه التجارة ممارسات همجية مؤسفة يندى لها جبين الإنسانية .

وفي أواخر القرن السادس عشر وصلت ظاهرة الاسترقاق إلى العالم الجديد في القارة الأمريكية ، بعد أن أباد القادمون الجدد من أوروبا سكان البلاد الأصليين (الهنود الحمر) [1] ، وراحوا يستوردون الزنوج من أفريقيا ليحلوا محلهم ؛ إذ كان المجتمع الجديد الوليد هناك بحاجة ماسة إلى الأيدي العاملة الرخيصة ، وقد وصلت أول سفينة محملة بالزنوج إلى ولاية فرجينيا في عام (١٦١٩م) وصار استرقاق الزنوج أمرًا أساسيًّا ومألوفًا في إدارة المستعمرات البريطانية هناك نظرًا لتوسع الأنشطة المختلفة فيها ، ولا سيما منها الأنشطة الزراعية ، ولم يلبث المستعمرون الهولنديون والفرنسيون والأسبان والبرتغاليون أن شاركوا في هذا العمل الأثيم ، وأصبحت تجارة الرقيق هي تجارتهم المفضلة لتغطية الأنشطة المختلفة في مستعمراتهم التي انتشرت في بقاع واسعة من العالم .



(الهجرة إلى العالم الجديد والبحث عن الحرية على حساب السكان الأصليين)

---

(١) الهنود الحمر : وصف أطلقه مكتشف أمريكا كريستوفر كولومبس في عام (١٤٩٢م) على سكان القارة الأصليين ، وقد كان عددهم ما بين (٤٠) إلى (٩٠) مليونًا ، وعندما استعمر الأوروبيون أمريكا استولوا على أراضيهم وأبادوا منهم ملايين لا تحصى حتى أمسوا قلة لا يعتد بها .

وفي أواسط القرن الثامن عشر في أوروبا ، ومع انتشار أفكار الحداثة والتنوير ، بدأت الانتقادات اللاذعة توجه لنظام الرق ، وكان للثورة الفرنسية أثر لا ينكر في تغيير نظرة الناس لهذه القضية ، ليس في أوروبا وحدها بل في شتى أنحاء العالم ، بينما تجاهل الدستور الأمريكي هذه القضية تمامًا ، بل إن الحكومة الاتحادية أصدرت في عام (١٧٩٣م) قوانين صارمة عرفت باسم (قوانين الآبقين) ، وهي تشدد في العقوبات التي توقع بحق العبيد الهاربين من اضطهاد مالكيهم ، بهدف ردعهم عن الهروب وإعادتهم إلى أولئك المُلاك .

وعلى النقيض من الولايات الجنوبية فإن الولايات الشمالية تساهلت بتطبيق هذه القوانين، وأصدرت قوانين تحمي الحرية الشخصية للآبقين ، وتكفل لهم أن يُحاكَموا أمام هيئة مستقلة من المحلفين ، كما حرَّمت القبض عليهم أو توقيفهم في سجون الولاية ، ولم يأت عام (١٨١٥م) حتى اختفى الرق تقريبًا من الولايات الشمالية لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى ؛ لأن الرق لم يعد مربحًا في ظل التحولات الصناعية النامية آنذاك ، وفي العام التالي تأسست (جمعية التعمير الأمريكية) بواشنطون في أعقاب حركة العبيد التي انتهت بتحرير أعداد غفيرة منهم ، وقد عملت الجمعية على إعادة المحررين إلى مواطنهم الأصلية في أفريقيا ، إلَّا أن الحكومة الاتحادية عادت فأصدرت قوانين أكثر صرامة ضد الآبقين إرضاءً للجنوب الذي استمر فيه الرق ؛ لأنه أصبح جزءًا لا يتجزأ من نظام المزارع الواسعة التي انتشرت هناك .

ونتيجة للأحداث العنيفة الدامية التي نشبت في عام (١٨٢٠م) إثر هروب أعداد غفيرة من الأرقاء ، وبسبب الدعاية النشطة من الولايات الشمالية ضد نظام الرق في الجنوب ، صدر في عام (١٨٦٣م) الإعلان الرسمي للعتق في الولايات المتحدة ولكنه اقتصر على العتق في الولايات الثائرة فقط ، وكان يستهدف قمع الثورة في الجنوب وإضعاف الولايات الجنوبية بحرمانها من عبيدها ، ولكن بالرغم من كل هذه الإجراءات الصارمة لم تنته المشكلة ، بل أوصلت الشمال والجنوب إلى حرب أهلية دامية استمرت زهاء خمس سنوات (١٨٦١ ـ ١٨٦٥م) وكان من حسنات هذه الحرب أنها انتهت بانتصار الشمال المتعاطف مع قضية الزنوج ، ووضعت حدًّا لنظام الرق في الولايات المتحدة كلها بإصدار وثيقة تحرير العبيد التي وقع عليها الرئيس الأمريكي (أبراهام لنكولن) [1] ، إبان رئاسته للولايات المتحدة .

---

(١) أبراهام لنكولن (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥م) : الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة من عام (١٨٦١م) إلى عام .

غير أن عقدة (التمييز العنصري) على أساس اللون ما بين البيض والسود استمرت تلقي بظلالها الكثيبة على المجتمع الأمريكي لأكثر من قرن من الزمان ، أي حتى النصف الثاني من القرن العشرين ، عندما وقعت حادثة في مدينة مونتغمري بولاية ألاباما الجنوبية فكانت نقطة تحول حاسمة في نيل الزنوج لحقوقهم المدنية وإلغاء قانون التمييز العنصري .





(نصب تذكاري للرئيس الأمريكي السادس عشر أبراهام لنكولن في العاصمة الأمريكية قبالة مقر الكونغرس وإلى جانبه صورة وثيقة تحرير العبيد التي صدرت في عهده)

وقد بدأت القصة في أحد الباصات ، فقد كانت قوانين المواصلات في الولاية تنص على أن يصعد السود إلى الباصات من الباب الخلفي وأن يدفعوا ثمن التذاكر من الباب الأمامي ، وأن على الأسود في حال الازدحام أن يتخلى عن مقعده للأبيض حتى يجلس عليه ، وفي يوم الخميس من شهر كانون الأول من عام (١٩٥٥م) كانت امرأة زنجية تدعى روزا باركس (١٩١٣ - ٢٠٠٥م) جالسة في مقعدها بالباص عندما حاول واحد من البيض انتزاعها من المقعد ليقعد مكانها ، لكنها رفضت مغادرة مقعدها بشدة ، فتدخل رجال الشرطة وانتزعوها من مقعدها بالقوة ، واقتادوها إلى المخفر واحتجزوها ، بحجة مخالفتها لقوانين الولاية ، وقد أثارت هذه الحادثة حفيظة الملونين السود ، فعمدوا للاحتجاج

= (١٨٦٥م) ، علّم نفسه بنفسه ، ومارس المحاماة ، وأصبح عضوًا في مجلس النواب ، وقعت في عهده الحرب الأهلية بعد انفصال إحدى عشرة ولاية وإعلانها تكوين دولة مستقلة تمكن من تحقيق الانتصار وإعادة الولايات المنفصلة إلى الحكم المركزي ، كما كان هو صاحب قرار إلغاء الرق في أمريكا عام (١٨٦٣م) ، وقد مات مقتولًا في عام (١٨٦٥م) على يد رجل متطرف من الجنوب يدعى جون ويلكز بوث أثناء حضور لنكولن مسرحية في مسرح فورد بواشنطون .

سلميًا وقاطعوا الحافلات لمدة عام كامل ، مما اضطر المحكمة العليا في الولاية للرضوخ للأمر الواقع ، وإصدار قانون جديد يلغي قوانين التمييز العنصري .

أمّا نظام الرق الذي اتبعته بريطانيا في مستعمراتها فقد استمر حتى القرن التاسع عشر قبل أن يصدر قرار بإلغائه في عام (١٨٠٧م) فيما عرف باسم قانون بلايموث (Plymouth Act) الذي اعتبر النخاسة عملًا غير قانوني ، وكذلك استيراد العبيد من أراضي التاج البريطاني . إلّا أن النخاسة في الواقع لم تلغ ، مما اضطر البريطانيين لإصدار قانون آخر في عام (١٨٣٣م) أي بعد ربع قرن يحظر العبودية ويؤكد على اتخاذ التدابير اللازمة لتطبيق ذلك ، وقد اتضح فيما بعد أن إلغاء بريطانيا للرق لم يكن لدوافع إنسانية بل كان لأسباب تاريخية فرضتها مصالح بريطانيا الاقتصادية ؛ إذ أصبحت تجارة الرقيق غير مربحة في ظل التحول الكبير من التجارة الخارجية إلى الرأسمالية الصناعية التي أخذت تنمو بسرعة في ذلك الحين ، وفي عام (١٨٤٨م) صدر في فرنسا مرسوم ألغيت بموجبه العبودية في المستعمرات الفرنسية . مع أن العبودية ألغيت في فرنسا نفسها قبل ذلك بأمد بعيد ، أي في عام (١٧٩٤م) .





(إلى اليمين الأمريكية روزا باركس عند القبض عليها في عام (١٩٥٥م) وإلى اليسار الباص الذي وقعت فيه الحادثة وهو محفوظ في متحف هنري فورد)

أمّا في العالم العربي فقد ألغيت العبودية في الدولة العثمانية عام (١٨٣٠م) ، ثم في تونس عام (١٨٤٦م) ، فمصر عام (١٨٩٥م) ، فالسعودية عام (١٩٣٦م) [1] .

وأمّا القانون الدولي فلم يتعرض لمشكلة الرق إلّا في أواخر القرن التاسع عشر ، وقد بدأت الجهود تأخذ هذا الاتجاه عام (١٨٨٥م) بتوقيع (اتفاقية برلين) التي تعهدت فيها كثير من دول العالم بوقف تجارة الرقيق ، ثم أعقبتها في عام (١٨٩٠م) اتفاقية بروكسل

(١) فاطمة المرنيسي : هل أنتم محصنون ضد الحريم ؟ (ص ١٤٥) ، بتصرف .

التي وقعتها (١٨دولة) ، وفي عام (١٩٢٦م) حققت (عصبة الأمم) خطوات مهمة على طريق إنهاء تجارة الرقيق في العالم ، إلّا أن البشرية ـ بالرغم من كل الويلات التي عانتها من جراء الرق ـ لم تستطع أن تقضي تمامًا على تجارة الرقيق التي استمرت تمارس بصورة سرية من قبل بعض الدول والجهات ذات المصالح والنفوذ .

تطور مفهوم الحرية :

تعود بداية الحديث عن فكرة الحرية إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام ، أي تقريبًا إلى العصر الهوميروسي (١٠٥٠ ق.م ـ ٩٥٠ ق.م) الذي أطلق فيه وصف (الحُرّ) لأول مرة على الإنسان الذي يعيش بين بني جلدته على أرض وطنه الأصلي دون أن يخضع لسيطرة أحد عليه ، وذلك مقابل وصف (أسير الحرب) الذي يعيش في الغربة تحت سيطرة سيده ، وفي فترة لاحقة أصبحت كلمة الحرية مرتبطة بالمدينة ، فالمدينة حرة ومن يعيش في المدينة فهو حر ، وأصبح وصف (الغريب) أو الأجنبي يقابل الحر بهذا المعنى ، أمّا وصف (العبد) فلم يكن قد عرف حتى ذلك الحين .

وقد ناقش كثير من الفلاسفة مفهوم (الحرية) منذ وقت مبكر من تاريخ الفلسفة ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى [1] ، فالفلسفة السفسطائية (٧٥٠ ـ ٤٥٠ ق.م) ذهبت إلى أن الحُرّ هو من يتصرف وفقًا للطبيعة وغير الحر هو من يخضع للقانون ، أمّا سقراط (٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق.م) فقد عرَّف الحرية بأنها فِعْلُ الأفضل ، فأضفى على مفهوم الحرية بهذا التعريف صفة أخلاقية ، وأمّا أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) فقد ربط بين الحرية والقدرة على الاختيار ، وحوالي عام (٣٠٠ ق.م) ذهب الفلاسفة الكلبيون [2] إلى أن الحرية هي القناعة التامة والاستقلال الذاتي عن الغير ماديًا ومعنويًا ، أمّا أفلاطون (٤٢٨ ـ ٣٤٨ ق.م) فقد ذهب إلى أن الحر هو من يتوجَّه فعلُه نحو الخير والفضيلة .

---

(١) انظر : د. عبد الرحمن بدوي (موسوعة الفلسفة) (١/ ٤٥٨ ـ ٤٦٢) .

(٢) الكلبية (Cynicism) : مبدأ فلسفي قالت به جماعة من الفلاسفة الإغريق في القرن الرابع قبل الميلاد ، فحواه أن الخير يكمن في قدرة الإنسان على السيطرة على نفسه ، وأن الفضيلة هي المعرفة وهي غاية الحياة وسر السعادة ، وكان الكلبيون يرون أن السعادة تتحقق بالاكتفاء الذاتي والاستغناء عن كل ما هو زائد عن الحاجة ، وكانوا يرفضون كل ما هو سائد من أعراف وقوانين وعادات وتقاليد ، ولم تكن نظرة الناس إليهم تهمهم في شيء ، وكان الفيلسوف ديوجين أشهر رواد هذا المذهب وأكثرهم طرافة ؛ لأنه كان يطبق نظريته عمليًا ليثبت للناس أن الفضيلة ليست مجرد نظريات فلسفية ، ولم يكن يملك أي شيء ، وكان معتادًا على ضبط النفس والتقشف الصارم معرضًا نفسه للبرد والحر الشديدين ، فكان يرتدي عباءة خشنة ويحمل عصا وعقفة صغيرة ويعيش في برميل .

وفي بداية النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي أخذ الحديث عن الحرية في أوروبا منحى جديدًا فأصبح يدور حول علاقة الإنسان بالبيئة الاجتماعية والسياسية التي يعيش فيها ، ومنها علاقته مع نفسه ، أي قدرته على أن يفعل ما يريد ، وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر حظي مفهوم (حرية الإرادة) باهتمام خاص من قِبَلِ المفكرين والفلاسفة الغربيين الذين أصبحوا يرون أن الحر هو الذي يقرر أن يفعل أو لا يفعل حين تتوافر الشروط التي يتطلبها الفعل ، وهذا ما ذهب إليه الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م) [١] ، الذي ذهب أيضًا إلى أن الحرية تعني انتفاء القَهْر المادي ، وفي الفعل الذي يتوافق مع الدوافع الفطرية يعد تحررًا ، أمَّا الفيلسوف الإنكليزي جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م) [٢] ، فقد ذهب إلى أن الحرية هي أن نفعل أو لا نفعل بحسب ما نختار أو نريد ، وربط الفيلسوف الألماني ليبنتز (١٦٤٦ ـ ١٧١٦م) [٣] ، مفهوم الحرية بالعقل فذهب إلى أن الحرية تكون أوفر كلما كان الفعل صادرًا عن العقل ، وتكون أقل كلما كان الفعل صادرًا عن الانفعال .

وفي العصر الحديث ترسخ هذا الاتجاه أكثر فأكثر ، وعلى سبيل المثال فقد ذهبت الفلسفة الوجودية التي مثلها بصورة خاصة المفكر الفرنسي (جان بول سارتر) [٤] ، إلى أن العقل هو الشرط الأول للحرية ، وأن الإنسان محكوم عليه أن يكون حرًّا ؛ لأنه لم يخلق نفسه بنفسه ، وهو حرٌّ لأنه متى أُلقي به في هذا العالم أصبح مسؤولًا عما يفعل ، وإذا كان إدراك الإنسان للحرية ووعيه بها هي الخطوة الأولى في الأخلاقية السارترية ، فإن استخدام الإنسان لهذه الحرية والتزامه بها هو الخطوة الثانية ، فالإنسان قبل أن يعي حريته ويستثمرها هو عدم ، أو هو أقرب إلى (الأشياء) منه إلى الكائن الحي ، أمَّا بعد أن يعي حريته فإنه يمسي (مشروعًا) له قيمته المميزة ، وقد طرح سارتر في مسرحياته وأعماله

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) سبقت ترجمته .

(٤) جان بول سارتر (١٩٠٥ – ١٩٨٠م) : فيلسوف وروائي مسرحي ، درس الفلسفة في ألمانيا حين احتلت النازية فرنسا ، انخرط في صفوف المقاومة الفرنسية السرية ، وبعد الحرب أصبح رائد مجموعة من المثقفين في فرنسا أثرت فلسفته الوجودية التي نالت شعبية واسعة على معظم أدباء تلك الفترة ، منح جائزة نوبل للآداب عام (١٩٦٤م) ، بدت شخصياته وكأنها موضوعات للجدال والحوار أكثر منها مخلوقات بشرية واقعية من أشهر مسرحياته (الذباب) و (اللامخرج) و (المتصرون) .

الفكرية الأخرى مسائل سياسية بالغة الأهمية مما له علاقة بالحرية ، منها مشروعية استخدام العنف في سبيل الحرية ، والعلاقة بين الفرد والمجتمع ، وبين الفرد والتاريخ ، وتميزت موضوعاته بالتركيز على حالة التَّأزُّمِ التي يعيشها الإنسان في هذه الحياة والصراع الذي يخوضه في مواجهة القوى التقليدية التي توقع الإنسان في المأزق ، وتحاول محاصرته والإيقاع به وتشويشه وتشويهه ، ويدور معظم أعماله حول الجهد الذي على الإنسان أن يبذله ليختار حياته التي يريد .



(المفكر الفرنسي جان بول سارتر مؤسس الفلسفة الوجودية)

أمَّا الديانات السماوية فقد كان لها منحى آخر مختلف في النظر إلى الحرية ، فالكُتَّاب المسيحيون مثلًا ، ومنهم القديس بولس ، ذهبوا إلى أن (الحرية) لا بد لها من اللطف الإلهي ؛ لأن الطبيعة البشرية فسدت بالخطيئة الأولى فصارت بحاجة ماسة للطف الإلهي كي تتغلب على شهواتها ونزواتها وتستعيد حريتها لتفعل الخير ، كما ذهب هؤلاء الكتاب إلى أن التوفيق ممكن بين القول بحرية الإرادة البشرية وبين القول بعلم الله السابق ؛ لأن علم الله لا يحيل الأفعال من أفعال حرة إلى أفعال جبرية .

وعندما أشرقت شمس الإسلام على الدنيا عَدَّ الإنسانَ حرًّا منذ ولادته ، ونص في كثير من آيات الكتاب على أن العبودية لا تكون إلَّا لله وحده ، وقد أدرك المسلمون هذا المعنى بعمق حتى أُثر عن الخليفة الراشد (عمر بن الخطاب) [1] ، رضي الله تعالى عنه أنه

[1] عمر بن الخطاب : ثاني الخلفاء الراشدين في الإسلام ، وأول من نودي بلقب أمير المؤمنين ، فقد كان الصحابة ﷺ =

قال لأحد ولاته حين اعتدى ولده على رجل غير مسلم بغير حق : (مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا ؟!) وذلك تأكيدًا من عمر رضي الله تعالى عنه أن الأصل في الإسلام حرية الإنسان بغض النظر عن دينه أو لونه أو جنسه .

وقد بلغت عناية الإسلام بالحرية حدًّا لا مثيل له حين أعطى للإنسان حرية الاعتقاد ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] ، ولم يقهره على اتباع دين معين ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، ومما يلفت النظر كثيرًا أن الله ﷻ أعطى لرأس الكفر (إبليس) الحرية فيما اختاره لنفسه حين أبى السجود فلم يقهره عليه ، بل مضت العدالة الإلهية لأبعد من هذا فحققت لإبليس مطلبه بالإمهال إلى يوم يُبعثون ، وهذه بلا جدال مرتبة لا يُرتقى إليها من إعطاء أقصى درجات الحرية حتى لأشد المخالفين في الرأي أو العقيدة .

كما أكدت مبادئ الإسلام على حرية الإنسان في القول والفعل ، وأن العبودية لا تكون إلَّا لله وحده ، وبهذا أسس الإسلام أهم لبنة في تحرير الإنسان من عبوديته للإنسان ، كما ساوى الإسلام في الكرامة الإنسانية بين البشر على اختلاف نِحَلهم ومِلَلهم وأجناسهم . وقرر حرمة الإنسان مهما كان دينه أو معتقده ، وعصم ماله ودمه وعرضه من أي اعتداء . وبدأ الإسلام عمليًّا بتحرير العبيد من خلال عدد من التشريعات التي قررها ، فجعل تحرير العبد كفارة لبعض الذنوب ، وشرع المكاتبة بين العبد وسيده للاتفاق على إنجاز عمل محدد في مدة معينة تنتهي بتحرير العبد ، وجعل المكاتبة حقًّا شرعيًّا من حقوق العبد وشجع مالكه على إنفاذه ووعده بالأجر العظيم على ذلك .

وقد ظل مفهوم الحرية في الإسلام خاليًا من الشوائب فترة طويلة من الزمن ، إلى أن أثيرت في الفكر الإسلامي لأول مرة مشكلة الحرية والجبر ، وطرحت مسألة : هل الإنسان مخيَّر أم مسيَّر ؟ وذلك بعد اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم ، واطِّلاع بعض الفلاسفة والفقهاء المسلمين على فلسفات تلك الأمم ، وبخاصة منها الفلسفة الإغريقية التي خاضت كثيرًا في هذه المسألة ، فذهبت طوائف من المسلمين منها (الجبرية)[1] .

= ينادون أبا بكر الصديق بخليفة رسول الله ، وبعد تولي عمر الخلافة نودي بخليفة خليفة رسول الله ، فاتفق الصحابة على مناداته بأمير المؤمنين ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ومن فقهاء الصحابة وزهادهم ، وأول من عمل بالتقويم الهجري .

(١) الجبرية : وتسمى أيضًا (الجهمية) نسبة إلى مؤسسها جهم بن صفوان (ت ٧٤٥م) ظهرت في القرن الثاني

و (المرجئة) [1] ، إلى أن الإنسان مجبر على أفعاله من قِبَلِ الخالق ﷻ ، وأنه لا استطاعة له أصلًا ، إلّا أن رأي الجمهور من فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ومفكريهم انعقد على أن الإنسان ليس مجبرًا من قبل الخالق ﷻ على أن يفعل أو لا يفعل ، بل له قوة واستطاعة وإرادة بها يفعل ما اختار أن يفعله ، دون جبر ، ولا إكراه مسبق من قبل الخالق سبحانه .

أمّا ما ورد في التشريع الإسلامي من حظر أو نهي على بعض الأفعال فإنه حظر متروك لاختيار الإنسان أيضًا ، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وهذا الحظر أو النهي لا يشكل انتهاكًا لحرية الإنسان ، بل هو في الحقيقة يستهدف صالح الإنسان ، وهو أيضًا ضروري لحماية حرية الآخرين ، كما أنه مبدأ عام تقرُّ به مختلف القوانين السماوية والوضعية ، وهو الذي تعبّر عنه العبارة الشهيرة التي تقول : (تنتهي حريتك حيث تبدأ حرية الآخرين) .

الحرية وحقوق الإنسان :

وكما كانت الديانات السماويّة سباقة للحديث عن الحرية ، وداعية لتحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض إلى عبادة الله تعالى وحده ، فقد كانت الديانات السماوية كذلك سبّاقة لإرساء مفهوم حقوق الإنسان (Human Rights) بين الناس ، وقد بلغت العناية ببيان هذه الحقوق قمتها في رسالة الإسلام الخاتمة التي قررت للإنسان حقوقه الكاملة منذ أن يكون جنينًا في بطن أمه وحتى وفاته ، بل إلى ما بعد وفاته كما هي الحال مثلًا في إنفاذ الوصية إذا أوصى بها الشخص قبل وفاته ، وقد حدد الإسلام هذه الحقوق وفصلها تفصيلًا دقيقًا ، وجعل في مقدمتها حفظ الضرورات الخمس التي تعد من أخص خصائص الإنسان ، وهي (النفس ، العقل ، الدين ، النسل ، المال) وحرّم الإسلام أي اعتداء عليها .

وأول شِرْعة لحقوق الإنسان في التاريخ هي الوثيقة التي وضعها النبيُّ محمد ﷺ والتي عرفت باسم (صحيفة المدينة) ، عندما دخل المدينة المنورة وأقام فيها أول دولة للإسلام

= الجبري ؛ وقالت إن الإنسان مجبر على أفعاله ، ولا خيار له ولا قدرة ، وأن الله قد قدَّر أفعال العباد وخلقها أزلًا ، وبهذا تكون الجبرية قد عطلت الجزاء والمسؤولية .

(1) المرجئة : فرقة من المسلمين سميت بهذا الاسم ؛ لأنها أرجأت أمر المسلمين الذين اختلفوا في أمر الخلافة وتنازعوا وتقاتلوا فلم تكفّر أحدًا منهم ، ثم تحولت المرجئة إلى فرقة لها اعتقادات خاصة بمسائل العقيدة والإيمان خالفت فيها اعتقاد جمهور المسلمين .

(انظر : فصل : تاريخ القانون) وقد أكد على روح هذه الوثيقة في (خطبة الوداع) عام (١٠هـ / ٦٣٢م) التي جاء فيها : « يا أيها النَّاسُ ، ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ ، وإنَّ أباكم واحدٌ ، ألا لا فَضْلَ لعربيٍ على أعجمي ، وَلَا لعجمي على عربي ، وَلَا لأحمر على أسود ، وَلَا لأسود على أحمر ، إلَّا بالتَّقْوى »[1] ، ففي هذا الإعلان النبوي بيان صريح لتساوي البشر في الإنسانية ، وأن لا فرق بينهم ولا تفاضل إلَّا بالتقوى التي هي ميزان إلهي عظيم وقيمة غيبية لا يعلمها إلَّا الله ﷻ ، ولا يحاسِب عليها إلَّا هو سبحانه .

ومما يذكر في هذا السياق ما قاله النبي ﷺ عن (حلف الفضول) الذي كان قد حضره في صباه برفقة عمه أبي طالب ، فقد تداعت قبائل من قريش قبل الإسلام إلى حلف بينهم فتعاقدوا وتعاهدوا في مكة على أن لا يجدوا مظلومًا من أهلها وغيرهم ـ ممن دخلها من سائر الناس ـ إلَّا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى تُردَّ عليه مظلمته ، فلما بعث رسول الله ﷺ ذكر ذلك الحلف وما كان فيه ، فقال : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أُحِبُّ أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبتُ »[2] ، ونلاحظ أن النبي ﷺ يعلن صراحة أنه لو دعي لمثل هذا الحلف ، لأجاب ما دام أن الهدف من الحلف نصرة المظلوم ، وحماية حقوق الإنسان ، على الرغم من أن الحلف قد عقد في الجاهلية وبين أناس لم يكونوا مسلمين ، وبهذا كان الإسلام سبَّاقًا إلى تقرير حقوق الإنسان قبل أمم الأرض بزمن بعيد ، إذ لم يأتِ التقنين البشري لحقوق الإنسان إلَّا بعد عدة قرون من هذا البيان النبوي الحكيم .

ولعل أقدم وثيقة دستورية نصت على الاعتراف ببعض حقوق الإنسان هي الوثيقة التي أصدرها الملك الإنجليزي جون في عام (١٢١٥م) ، وهي الوثيقة التي عرفت باسم العهد العظيم (*Great Charter*) أو ماجنا كارتا (*Magna Carta*) ، جاءت لتنظيم العلاقة بين ثلاث قوى رئيسية هي : قوة الملك الإنجليزي جون ، وقوة بارونات (*Barons*) الإقطاعيات ، وقوة كنيسة روما المتمثلة بالبابا إينوسنت الثالث .

أمَّا أول وثيقة تحدثت صراحة عن حقوق الإنسان فهي التي وضعها القاضي الفرنسي (سييس) إبان الثورة الفرنسية الشهيرة ، ثم وافقت عليها الجمعية التأسيسية الفرنسية يوم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٣٩١) ، من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، (١/ ١٣٣ ـ ١٣٤) ، والحديث رواه طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري رضي الله تعالى عنه

(٢٦/ ٨/ ١٧٨١م) لكنها لم تدرج في الدستور الفرنسي إلَّا بعد عشرة أعوام (عام ١٧٩١ م) وقد استمدت هذه الوثيقة موادَّها الأساسية من نظريات المفكر الفرنسي جان جاك روسو ، وإعلان الاستقلال الأمريكي ، ونصَّت على حقوق الإنسان الثلاثة الرئيسة التي لا يجوز التصرف بها (الحرية ، والمُلْكيَّة ، والأمن) وأكدت على المساواة بين المواطنين ، وأن الشعب هو مصدر السلطات ، وقد كان لهذه الوثيقة تأثير قويٌّ على حريَّة الرأي في القرن التاسع عشر الميلادي [1] .

وفي العام نفسه أطلقت الولايات المتحدة عبارة (حقوق الإنسان) على التعديلات العشر الأولى التي أدخلت على الدستور الاتحادي ، وتضمنت عددًا من الحقوق والحريات العامة ؛ مثل حرية العقيدة والتعبير والاجتماع ، وحرية المسكن ، وبعض الضمانات الخاصة بالتحقيقات والمحاكمات الجنائية ، ونصَّ إعلان الاستقلال الأمريكي الذي صدر في عام (١٧٧٦م) : (إننا نؤمن بأن الناس خُلقوا سواسية ، وأن خالقهم قد وهبهم حقوقًا لا تقبل المساومة ، منها حق الحياة ، والسعي لتحقيق السعادة) .

وقد استغرق الأمر نحو قرنين من الزمان قبل أن تصدر الجمعية العامة للأمم المتحدة (الإعلان الدولي لحقوق الإنسان) في يوم (١٠/ ١٢/ ١٩٤٨م) الذي نصَّ على أنَّ من حقِّ كلِّ إنسان أن يتمتَّع بأقصى درجات الحرية والكرامة [2] كما حضَّ الإعلان على تعميق الوعي بحقوق الإنسان عند جميع البشر انطلاقًا من حقيقة أن من يجهل هذه الحقوق يكون عدوًّا لنفسه ، وقد حاول الإعلان وضع حقوق الإنسان في إطارها القانوني والسياسي لكي تأخذه دول العالم بعين الاعتبار في دساتيرها ، وعلى الرغم من أن هذا الإعلان قد اعتبر في حينه خطوة أولى على الطريق لإنصاف البشر والمحافظة على حقوقهم ، إلَّا أنه اعتبر كذلك خطوة كبيرة على هذه الطريق الطويلة الشاقة التي شهدت في عام (١٩٧٦م) تحولًا مهمًا آخر في مجال حقوق الإنسان بوضع الأمم المتحدة موضع التنفيذ العملي ثلاثة صكوك مفصلة ؛ هي :

- العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .
- العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية .

---

(١) دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر : الموسوعة العربية الميسرة ، القاهرة (١٩٦٥م) .

(٢) المواد ١ إلى ٧ .

- البروتوكول الاختياري المتعلق بالعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية .

وبهذا انتقل إعلان حقوق الإنسان من العموم إلى الخصوص ، أي من مجرد مبادئ قانونية إنسانية عامة إلى مواد قانونية محددة ، وقد كان للإعلان العالمي لحقوق الإنسان والصكوك الملحقة به تأثير واسع في مختلف أنحاء العالم ، وأصبح مصدر وحي للدساتير والقوانين الوطنية ، كما دفع لانبثاق منظمات عالمية وإقليمية ووطنية مهمتها المراقبة والدعوة للحفاظ على حقوق الإنسان [١] .

ومن أجل متابعة تنفيذ هذا الإعلان على النطاق العالمي شكلت الأمم المتحدة (لجنة حقوق الإنسان) المؤلفة من (١٨ عضوًا) وأوكلت إليها مهمة النظر في التقارير التي ترد من لجان حقوق الإنسان في شتى أنحاء العالم ، وبعد دراسة هذه التقارير وتمحيصها ترفع اللجنة تقريرها السنوي إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة لاتخاذ القرارات اللازمة حول ما جاء فيه .

ونظرًا لأن هناك عددًا من البنود التي وردت في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان تتعارض بدرجات متفاوتة مع بعض الأحكام الشرعية في الإسلام ، فقد أصدر مؤتمر القمة الإسلامي في عام (١٤١٠هـ / ١٩٨٠م) (شرعة حقوق الإنسان في الإسلام) التي نصَّت على مختلف الحقوق والحريات والواجبات الإنسانية في ضوء الشريعة الإسلامية ، وأكدت على أن كل هذه الحقوق والحريات والواجبات مقيدة بأحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها العامة ، وأن الشريعة الإسلامية بمصادرها الأساسية المعتمَدة هي المرجع الوحيد لتفسير أية مادة من مواد هذه الوثيقة [٢] ، إلّا أن هذا لم يمنع الجدل الطويل الذي ما زال دائرًا حول (حقوق المرأة) على وجه الخصوص ، التي يعتقد الكثيرون أنها أصبحت بحاجة ملحة لإعادة النظر فيها ، نظرًا للتحولات التي طرأت على العلاقة ما بين الرجال والنساء في العصر الحديث .. وهذا هو مدار حديثنا في الفقرة التالية .

---

(١) موسوعة نور : الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، المملكة الأردنية الهاشمية ، عمّان (١٩٩٢م) .

(٢) انظر النص الكامل لـ (شرعة حقوق الإنسان في الإسلام) في كتاب د.وهبة الزحيلي : الفقه الإسلامي وأدلته (٩/ ٩٦٥ ـ ٩٧٤) ، دار الفكر ، دمشق (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) .

الحرية وحقوق المرأة :

لقد ظلت مسألة العلاقة بين الجنسين (الذكر والأنثى) تثير الكثير من المناقشات والإشكاليات والخلافات والجدل على مدار التاريخ البشري ، ويعتقد كثير من الفلاسفة والباحثين والمؤرخين أن تلك العلاقة كانت في مطلع التاريخ البشري علاقة مساواة تامة لا فرق فيها ما بين الرجل والمرأة ، ثم تحولت بمرور الزمن لصالح الرجل بسبب الظروف اللاحقة التي طرأت على الحياة البشرية ، بل زعم بعضهم أن تاريخ الحضارة الفعلي بدأ على يد المرأة وليس الرجل ، ومن هؤلاء المؤرخ الفيلسوف الأمريكي (ويل ديورانت)[1] ، الذي ذهب في موسوعته القيمة (قصة الحضارة) إلى أن مسيرة الحضارة الأولى في الأرض بدأت عندما اهتدى الإنسان إلى فكرة الزراعة التي اضطرته لتحسين بيوته يومًا بعد يوم وتطوير أسلوب حياته ، وابتكار الأدوات التي تلزمه في الحراثة والزراعة ، إلى غير ذلك من الإنجازات والأنشطة التي أسفرت بمرور الوقت عن نشأة الحضارة الأولى ، وبما أن فكرة الزراعة هي فكرة نسائية فإن المرأة تعد هي مبدعة الحضارة وليس الرجل .



(المؤرخ الأمريكي ويل ديورانت)

---

(١) ويليام جيمس ديورانت (١٨٨٥ ـ ١٩٨١م) : مؤرخ أمريكي ، أمضى أكثر من خمسين عامًا بكتابة موسوعته القيمة (قصة الحضارة) التي أنجزها في (٤٢) مجلدًا بمشاركة زوجته أريل ديورانت ، والموسوعة تروي تاريخ الحضارات من مطلع التاريخ البشري وحتى الثورة الفرنسية ، وقد توقف فيها عند هذا الحد لشعوره بضخامة المهمة وتشعبها ، وقد امتازت الموسوعة بالموضوعية والمنهج العلمي الرصين ، وقد نال ديورانت عليها جائزة بوليتزر في عام (١٩٦٨م) ، وميدالية الحرية في عام (١٩٧٧م) .

وَمِنْ ثَمَّ فإن المرأة ـ وفق هذه القراءة للتاريخ ـ كانت أجدر من الرجل بقيادة المسيرة البشرية ، غير أنَّ تَمَرُّس الرجل بفنون الصيد والقنص والقتال في الماضي أكسبه قدرات بدنية عالية مكنته من الإمساك بالسلطة وتوجيه الأحداث لصالحه ، دافعًا إلى الظل بالمرأة مبدعة الحضارة ، وما زال الرجل يمارس هذا الدور ، على حساب المرأة ؛ لأنه ما زال إلى اليوم يحمل في أعماقه إرث الماضي ، وروح الصياد المغرم أبدًا بروح الفروسية ، وفق هذه النظرة التاريخية الفلسفية التي لا تكاد تستند إلى شواهد واقعية دامغة .

ويتفق معظم المؤرخين والباحثين والفلاسفة الذين يميلون إلى المساواة التامة بين الرجل والمرأة على أن المرأة ظلت طوال تاريخها تعاني من حيف المجتمع الذكوري ، وما فتئت تتوق لاستعادة الحقوق التي تعتقد أنها اغتصبت منها ، وقد كافحت في سبيل ذلك طويلًا ، إلَّا أن آثار كفاحها لم تظهر واضحة على مسرح الأحداث إلَّا بعد الثورة الفرنسية التي ركزت كثيرًا على مفهومي الحرية والمساواة ، ولفتت الانتباه إلى جملة من الأفكار المتعلقة بالحقوق والواجبات التي طمسها تاريخ الاضطهاد الإقطاعي الكنسي في أوروبا ، وقد بدأت هذه الأفكار تلاقي رواجًا واسعًا في أوروبا أولًا ثم في بقية أرجاء العالم .

فلما كان عام (١٧٩٢م) صدر في إنكلترا كتابٌ أثار الكثير من الجدل والمعارضة في حينه ، بعنوان (دفاع عن حقوق المرأة) ، وهو أول وأبرز كتاب نشر حول الحركة النسائية في أوروبا ، وبما أن المجتمع الإنكليزي كان إلى ذلك الحين شديد المحافظة على تقاليده وأعرافه الموروثة التي كانت تنظر إلى المرأة نظرة دونية ، فقد لاقى الكتاب وصاحبه آنئذ معارضة حادة من مختلف طبقات المجتمع الإنكليزي المحافظ .

ومع أن العاصفة خمدت بعد فترة قصيرة إلَّا أن النار ظلت تتوقد تحت الرماد ، إلى أن حلَّ العام (١٨٥١م) الذي عادت فيه بعض الجمعيات النسائية في إنكلترا لإثارة القضية من جديد ، والمطالبة بالحقوق السياسية للمرأة ، وقد مارست هذه الجمعيات في حينه ضغوطًا شعبية كبيرة على مجلس الشيوخ من أجل إعطاء المرأة هذه الحقوق ، ولكن المحاولة وُجهت مرة أخرى بالقمع العنيف ، حتى إن بعض المناضلات قتلن ، وأودع بعضهن السجون .

ولعل أبرز الأحداث الدامية في ذلك العهد ما شهده يوم الجمعة الثامن عشر من شهر تشرين الثاني عام (١٩١٠م) حين قادت المناضلة البريطانية من أجل حقوق المرأة

إميلين بانكرست (١٨٥٨ ـ ١٩٢٨م) مظاهرة نسائية حاشدة للمطالبة بالحقوق السياسية للمرأة ومساواتها بالرجل ، فتعرضت المتظاهرات للضرب المبرح من قبل الشرطة ، وأسفرت المواجهة عن موت امرأتين وجرح المئات منهن فيما عرف بيوم (الجمعة الأسود) ، وقد استمرت هذه المواجهات سنين طويلة إلى أن نالت المرأة في إنكلترا حقوقها السياسية لأول مرة في عام (١٩٢٨م) بعد أيام قليلة من وفاة إميلين بانكرست زعيمة الاتحاد السياسي الاجتماعي للمرأة (*WSPU*) .

وطوال تلك السنين لم يتوقف المناوئون للحركة النسائية عن تشويه صورة هذه الحركة ، ومنهم جورج داينجرفيلد الذي أصدر في عام (١٩٣٥م) كتابًا ملفتًا للنظر بعنوان : الموت الغريب لإنكلترا الحرة (The Strange Death of Liberal England) الذي ظل يطبع مرارًا وتكرارًا حتى عام (١٩٧٢م) ، وفيه قلل داينجرفيلد من شأن الحركات النسائية المطالبة بحق المرأة بالتصويت ، وأطلق عليها أوصافًا غريبة ؛ منها (الكوميديا الوحشية) و (عرض مسرح الدمى المتحركة) ووصف النساء المنخرطات في هذه الحركات بأنهن حفنة من النساء المخبولات اللواتي ينتمين للطبقة المعدمة من المجتمع ، ويطمحن بالانتماء إلى الطبقات الراقية ، من خلال هذه الحركات المشبوهة [1] .





(إلى اليمين المناضلة البريطانية من أجل حقوق المرأة إميلين بانكرست وإلى اليسار إحدى المناديات بحق المرأة بالتصويت وهي تقمع من قبل الشرطة في لندن عام ١٩١٣م)

---

(١) انظر : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الثقافة العالمية) العدد (١١٧) ، (ص ١٤٤ - ١٦٣) ، مارس / إبريل (٢٠٠٣م) .

أمّا على الطرف الآخر من العالم الغربي فقد بدأت المرأة تطالب بحقوقها السياسية في عام (١٨٤٧م) حين ألقت الأمريكية لوسي ستون (١٨١٨ ـ ١٨٩٣م) أول خطاب لها للمطالبة بحقوق المرأة ، وفي العام التالي أسست (جمعية المطالبة بحقوق المرأة) وعقدت مؤتمرها الأول (مؤتمر سنكا) وطالبت فيه بمساواة المرأة مع الرجل في فرص التعليم والعمل والأجر والملكية ، والحقوق السياسية ، وقد أسست لوسي كذلك (مجلة المرأة) لسان حال الجمعية ، وترأست تحريرها لخمسين عامًا ، وظلت تتزعم الحركة حتى وفاتها .

وفي خضم هذه الحركات والمؤتمرات والمواجهات بدأ الفلاسفة والكتاب والمفكرون ينخرطون في هذه القضية بقوة ، ولعل من أبرزهم الفيلسوف الإنكليزي (جون ستيوارت مل) [1] ، الذي نشر في عام (١٨٦٩م) كتابه الشهير (استعباد النساء) ، فكان هذا الكتاب أشبه بالحجر الذي يلقى في بحيرة راكدة ، فقد حرك بقوة السكون الذي كان قد خيم على هذه القضية ، ولاقى رواجًا منقطع النظير في مختلف الأوساط الفكرية والسياسية والاجتماعية ، واستقبله النساء بحماسة شديدة ، وكان من أكثر الكتب التي هيأت الرأي العام للتفاعل مع القضية وتأييدها ، حتى إن ولاية وايومنج الأمريكية اضطرت في العام نفسه لإعطاء هذا الحق للمرأة .



(جون ستيوارت مل ، وغلاف كتابه استعباد النساء)

---

(١) جون ستيوارت مل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣م) : فيلسوف إنكليزي ، درس القانون لكنه مال عنه إلى العمل الوظيفي . وأخذ ينشر آراءه وفلسفته عبر الصحافة ، نادى بالفلسفة التجريبية والمنطق الاستقرائي ، ودعا إلى الحرية السياسية والإصلاح الاجتماعي ، وتحرر المرأة ، وكان من أكبر دعاة المذهب النفعي (البراجماتي) ، فكان يرى أن أسمى الأخلاق هو النفع الأعظم للعدد الأكثر من الناس ، ونادى بتحسين أحوال العمال ، وكانت له آراء عديدة في نظرية التجارة الدولية ، من مؤلفاته : مذهب في المنطق . مبادئ الاقتصاد السياسي . مقالة في الحرية . مذهب المنفعة . أوجست كانط والمذهب الوضعي .

وفي أقل من أربعة أعوام اضطرت المحاكم الأمريكية لإعطاء المرأة حق المرافعة أمام المحاكم العادية بفضل جهود المحامية بلفا آن بينيت لوكوود (١٨٣٠ ـ ١٩١٧م) رئيسة جمعية المساواة في الحقوق ، والمدافعة عن حقوق المرأة ، التي كان لها الفضل الكبير بمساواة أجور النساء بأجور الرجال في المهن النقابية ، إلى جانب تمثيل بلادها في العديد من المؤتمرات الدولية .

ولم يأت عام (١٨٧٩م) حتى سمح للمحاميات بالمرافعة أمام المحكمة العليا ، وفي عام (١٨٩٠م) كانت كل جهود المهتمين بهذه القضية قد توحدت معًا ، وأسفرت آخر المطاف عن تشكيل اتحاد عام في الولايات المتحدة من أجل إقرار هذا الحق للمرأة في باقي الولايات .

أمَّا الحقوق السياسية الكاملة فلم تعط للمرأة الأمريكية إلَّا في أواخر عام (١٩٢٠م) بموجب نص الدستور الأمريكي ، وفي العام نفسه شكلت الأمريكية (كاري تشابمن كات) جمعية الناخبات الأمريكيات ، وبعد ثلاثة أعوام أسست في الولايات المتحدة الأمريكية الجمعية الدولية لحقوق المرأة .

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) بدأت المرأة تنال حقوقها السياسية تباعًا في معظم دول العالم ، وإن كان بعضها قد تباطأ في التطبيق ، وعلى سبيل المثال فإن جامعة أكسفورد العريقة لم تساو بين الطلاب والطالبات في الأندية واتحادات الطلبة ونحوها إلَّا في عام (١٩٦٤م) ، أمَّا فرنسا صاحبة الثورة التي نبهت العالم للكثير من المفاهيم المتعلقة بالحرية والحقوق بما فيها حقوق المرأة فإنها لم تعط المرأة حقوقها السياسية الكاملة إلَّا في عام (١٩٤٥م) في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

أمَّا على المستوى الدولي فإن الحقوق الكاملة للمرأة لم تقرر عالميًّا إلَّا في العام (١٩٧٩م) حين أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة -
(The Convention on the Elimination of All Forms of Discrimination against Women)-
المعروفة اختصارًا باسم (CEDAW) [1]، التي دخلت حيِّز التنفيذ في عام (١٩٨١م) ،

---

(١) انظر : اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة ، صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة (UNIFEM) ومنظمة الأمم المتحدة للأطفال (*UNICEF*) ط عمَّان ، د.ت .

وركزت على مبادئ حقوق الإنسان التي وردت في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وفي العهد الدولي لحقوق الإنسان، وأكدت على استقلالية المرأة اجتماعيًّا وقانونيًّا.

ومن الجدير بالذكر أن كثيرًا من الدول التي وقعت على تلك الاتفاقية كانت لها تحفظات على بعض موادها ناشئة عن تقاليد أو أعراف أو عقائد تلك الدول، ولهذا لم تلتزم بالاتفاقية التزامًا كاملًا حتى اليوم، ونعتقد أنه سوف يمضي وقت طويل قبل أن يحصل هذا الالتزام. وقبل أن تنال المرأة كامل حقوقها التي نصت عليها الشرائع السماوية قبل الشرائع الأرضية. وذلك بسبب تلك العلة المزمنة المستحكمة في العقلية البشرية التي ظلت على مدار التاريخ تحابي الرجل على حساب المرأة، ومن العجيب والغريب والطريف أن كثيرات من النساء ما زلن في مناسبات كثيرة يساهمن بتكريس هذه العلة بأشد مما يفعل الرجال.

حقوق للمرأة في الإسلام:

يشهد التاريخ على أن الإسلام قد أولى قضايا المرأة عناية خاصة، وقرر لها حقوقها الكاملة منذ القرن السادس الميلادي، أي قبل زمن طويل من مختلف الداعين لتحرير المرأة والمطالبين بإعطائها حقوقها السياسية وغير السياسية، حتى إن القرآن الكريم أطلق اسم (سورة النساء) على واحدة من سوره الطوال، كما أطلق على سور أخرى أسماء نسبة وأوصاف نساء (مريم، الممتحنة، المجادلة) وخصص القرآن الكريم أيضًا سورًا كاملة للحديث عن بعض قضايا المرأة الرئيسة، منها سور (الطلاق، النور، الحجرات ــ ووضع التشريع الإسلامي المرأة على قدم المساواة مع الرجل في كافة التكاليف والواجبات. واعترف بذمتها المالية الكاملة المستقلة، وأعطاها حق التصرف بمالها، كما راعى الإسلام الظروف الصحية التي تعتري المرأة بين الحين والآخر (الحيض، الحمل، الولادة، النفاس ــ. فأعفاها في هذه الظروف الخاصة من بعض التكاليف الشرعية؛ كالصلاة والصيام.

هذا بعض ما فعله الإسلام في سبيل إنصاف المرأة التي كانت في عصر الجاهلية قبل الإسلام مهملًا لا قيمة لها ولا رأي ولا حقوق، بل كان المجتمع ينظر إليها على أنها متاع من جملة المتاع، فكانت إذا مات زوجها ورثها أهله مثل بقية المتاع، فكانوا إذا مات يتسابقون لإلقاء الرداء عليها فمن سبق منهم إليها كانت من نصيبه.

ولم يكن حال المرأة في أوروبا وفي بقية أنحاء العالم بأفضل من حالها عند العرب في الجاهلية الأولى، فقد ظل الناس في أوروبا حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي

أي إلى ما بعد الإسلام بعشرة قرون ، مختلفين حول طبيعة المرأة : هل هي بشرية أم شيطانية ؟ إلى أن عقد اجتماع في فرنسا في عام (١٥٨٦م) قرر فيه المجتمعون بعد جدال طويل ومناقشات حامية أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل .

ولم تنل المرأة حقوقها في الغرب إلّا منذ فترة قريبة كما رأينا ، وهي حقوق ما زالت إلى اليوم تعاني من بعض الحيف ، وما زالت المرأة هناك حتى اليوم موضوعًا للدعاية والإعلانات المثيرة والمتاجرة بجسدها ، وما زال أجرها هناك أقل من أجر الرجل بنسبة غير قليلة .

وأمّا الحقوق السياسية للمرأة في الإسلام فتشهد النصوص العديدة من القرآن الكريم والسنة النبوية وكذلك الممارسات العملية من النبي ﷺ أنها كانت موضع اهتمام كبير ، فقد شاركت النساء مع النبي ﷺ إلى جانب الرجال في بيعتي العقبة الأولى والعقبة الثانية ، وهي مشاركة سياسية على أعلى المستويات ، وفي أخطر القرارات المصيرية وقتئذ ، وفي أدق مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية ، كما شهدت سيرة النبي ﷺ بعد ذلك مشاركات عدة من النساء في القرارات المصيرية ، لعل من أشهرها مشاركة زوجته (أم سلمة)[1] رضي الله تعالى عنها في حلّ الإشكال الذي حصل يوم (صلح الحديبية) حين عارض الصحابة الصلح بحجة أنه ليس في صالح الإسلام والمسلمين ، فما كان من أم سلمة رضي الله تعالى عنها إلّا أن تدخلت في الأمر ، واقترحت على النبي ﷺ أن يتحلل من عمرته التي نواها ويذبح الهدي ، فرأى النبي ﷺ أن هذا الرأي هو عين الحكمة ، فقام فذبح هديه وتحلل من عمرته ، فلما رأى الصحابة نبيهم يفعل ذلك تحللوا وذبحوا هديهم وعدلوا عن موقفهم ، وبهذه الحنكة السياسية النسائية خرج المسلمون من مأزق سياسي خطير كاد ينتهي بنتائج مدمرة .

والأمثلة على موقف الإسلام من قضايا المرأة كثيرة جدًا ، وكلها تدل دلالة دامغة على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة غير منقوصة ، وإن مما يدعو للاستغراب حقًا أن الإسلام بالرغم من كل التكريم الذي خصّ به المرأة فإن بعض الباحثين ما زالوا يزعمون

---

(1) أم سلمة ، عاتكة بنت عامر (٥٩٦ ـ ٦٨١م) الموافق عام (٢٧ق.هـ ـ ٦٢هـ) : أسلمت مبكرًا ، وهاجرت مع زوجها أبي سلمة إلى الحبشة مع من هاجر من المسلمين الأوائل ، فكانت أول مهاجرة من النساء ، ثم هاجرت إلى المدينة هجرتها الثانية ، مات زوجها في السنة الرابعة للهجرة فتزوجها النبي ، وكانت آخر زوجاته ، وكان النبي ﷺ إذا صلى دخل على نسائه فيبدأ بها ؛ لأنها أكبرهن ، وقد روت عنه ﷺ (٣٧٨ حديثًا) وقد توفيت في المدينة المنورة رضي الله تعالى عنها وعمرها (٨٤) سنة .

أن بعض أحكام الإسلام تنتهك حقوق المرأة ، وأن الإسلام يميز بين الجنسين لصالح الرجل ويضربون على ذلك أمثلة كثيرة ، منها أن الإسلام يجعل القوامة للرجال على النساء ، ويجعل ميراث المرأة نصف ميراث الرجل ، وشهادتها نصف شهادته .

وهذه المزاعم ترجع في رأينا إلى أمرين اثنين : أولهما أن هؤلاء الباحثين لا يفرقون ما بين الإسلام وبين الممارسات التي يمارسها المسلمون بدافع التقاليد والأعراف والعادات ، والأمر الثاني أن أولئك الباحثين الذين ينتقدون بعض الأحكام التي تنظم العلاقة بين الجنسين يغفلون (أو يتغافلون !) عن المقاصد الكلّية التي تروم هذه الأحكام تحقيقها ، فالذين يحتجون على جعل القوامة في يد الرجل دون المرأة يتجاهلون ـ غالبًا عن قصد ـ أن الأسرة مثلها مثل بقية المؤسسات والشركات لا بد لها من مدير يكون مسؤولًا عن تصريف شؤونها ، وتحمُّل تبعات إدارتها ، وإلّا كان أمر الأسرة فوضى يتصرف فيها كل فرد على هواه ، وبهذا المعنى تكون القوامة تكليفًا لا تشريفًا ، ولا تعني أبدًا تفضيل الرجل على النساء بالدرجات ، فإن للتفاضل بالدرجات في ميزان الإسلام معايير أخرى غير القوامة وغير اختلاف الجنس ، والإسلام الذي أعطى الرجل حق القوامة على المرأة لا يبيح له أن يتعسف باستخدام هذا الحق ، بل يُحَمِّلُهُ كافة التبعات التي قد تنتج عن سوء قوامته .

ومن جانب آخر ، فإن إعطاء القوامة للرجل مردُّه تلك الفوارق البدنية والنفسية والعاطفية التي قدَّرها الخالق ﷻ بين الجنسين ليقوم بينهما نوع من التكامل لا التنافر ، وقد هيأ الله الرجال لهذه القوامة فجبلهم على طبيعة تختلف بعض الاختلاف عن جبلّة النساء ، وهذا ما جعل الرجال على مرّ العصور وبشهادة التاريخ أقدر على القيام بواجب القوامة في مختلف المجتمعات والأمم ، ويؤيد هذا أيضًا أن الخالق ﷻ الذي خلق الذكر والأنثى ، ويعلم استعدادات كل منهما ، قد حصر النبوّات في الرجال دون النساء كما ورد في محكم التنزيل : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [الأنبياء : ٧] .

أمّا التميز في الميراث بين النساء والرجال ، فإنه يأتي في إطار التشريعات المالية المتكاملة التي شرعها الإسلام ، ففي مقابل إعطاء المرأة نصف حصة الرجل من الميراث ـ وهي ليست قاعدة مطردة في كل حالات الإرث [١] ـ فرض الإسلام على الرجل الإنفاق على

---

(١) من الحالات التي يتساوى فيها الذكور والإناث في الميراث : أبو الميت وأمه : في الحالات التي لا يكونان فيها وحدهما الوارثين لولدهما ، بل يكون معهما ورثة آخرون ، يأخذ الأب سدس التركة والأم السدس كذلك

المرأة التي تحت ولايته حتى وإن كانت غنية ، وفي هذا حكمة إلهية بعيدة المرامي ، فالإسلام يستهدف من هذا التميز والتداخل في أحكامه وتشريعاته تمتين العلاقات داخل الأسرة ، فلو كانت حصص الميراث متساوية ، ولو لم تكن هناك نفقة واجبة من الرجل على المرأة ، ولو لم يكن للرجل واجب الولاية والقوامة على المرأة ، إذًا لانفرط عقد الأسرة بمجرد موت المعيل واقتسام التركة ، وإذًا لذهب كل فرد من أفراد الأسرة في طريق ، وهذا هو الحاصل اليوم في المجتمعات الغربية خاصة ، التي تفككت فيها الأواصر الأسرية تحت ستار المساواة التامة والحرية الشخصية .

أضف إلى هذا أن الإسلام ـ إلى جانب تشريعه للقوامة والنفقة والولاية والإعالة وغيرها من التشريعات ذات السِّمة الاجتماعية ـ فإنه يحضُّ أطراف المعادلة دومًا على التقوى والتسابق إلى فعل الخيرات ، وإيثار الآخرين على النفس ، وهو لا يفتأ يردِّد على أسماع المؤمنين : ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، وبسبب هذه التشريعات القرآنية الحكيمة نجد الكثيرين من الرجال المسلمين يتنازلون لأخواتهم البنات عن حصتهم من الميراث ، ونجد بالمقابل بعض الأخوات المسلمات يتنازلن عن حصصهن لإخوانهن من الرجال ، حين يجد بعضهم أو بعضهن أن الآخرين أحوج إلى المال ، وهذا ما يزيد أواصر الأسرة تماسكًا وقوة ومحبة .. فتأمل .

وأمَّا شهادة المرأة التي جعلها الإسلام نصف شهادة الرجل فهي محصورة في شهادات العيان فقط ، أمَّا الشهادة التي تتطلب العلم والخبرة فالرجال والنساء فيها سواء ، بل قد تقدَّم شهادة المرأة على شهادة الرجل في الشهادات التي تتطلب الخبرة والشهادات التي تتعلق بقضايا المرأة ، كالشهادة على البكارة ونحوها ، وأمَّا تغليب شهادة الرجل على شهادة المرأة في الحوادث العامة فلعل مقصد الشريعة من هذا هو الحدُّ من تعريض المرأة لما ينتج غالبًا عن هذه الشهادات من تبعات خطيرة ، فكثيرًا ما يتعرَّض الشهود في مثل هذه

= إخوة الميت وأخواته من أمه : يتساوى ذكورهم وإناثهم ، فللواحد منهم ذكرًا كان أو أنثى سدس التركة ، وإذا تعددوا فلهم جميعًا ثلث المال . ذوو الأرحام : وهم جميع أقارب الميت الذين ليس لهم فروض ، أي سهام مقدرة بصورة نسبية من التركة ـ وليسوا من العصبات ، وذلك مثل أولاد بنت الميت ، كبنات إخوته ، وعماته وخالاته وأولادهما ، ونحوهم ، فهؤلاء ـ أي : ذوو الأرحام ـ يستوي ذكورهم وإناثهم في الميراث حين يصل إليهم الدور عند عدم وجود من هو أقرب منهم من أصحاب الفروض المقدرة ، أو العصبات ، في جميع الحالات عند جمهور فقهاء المذاهب [د.مصطفى الزرقا : فتاوى مصطفى الزرقا ، ص ٣١٦] .

الحوادث للتهديد أو الإيذاء الفعلي ، ولهذا قدمت شهادة الرجل على شهادة المرأة في مثل هذه الحالات حماية للمرأة وحرصًا على سمعتها ، والله تعالى أعلم .

وهكذا يبدو جليًا أن الإسلام لا يفرق في الحقوق ما بين الجنسين إلا في حدود ضيقة جدًا ، وهذا التمييز ليس تعسُّفيًا ، بل له أهداف اجتماعية بعيدة المرامي قلما يدركها المندفعون بلا وعي وراء الدعوات المغرضة ضد الإسلام ، وأمَّا الممارسات المجحفة في حق المرأة التي قد يمارسها بعض المسلمين فلا يجوز أن تحسب على الإسلام ، بل على الذين يمارسونها ، علمًا بأن التشريع يُحمِّلهم مغبة هذه الممارسات ، ويؤاخذهم عنها ديانةً ، ويعاقبهم عليها .

وإن مما يؤسف له أن تاريخنا الإسلامي بعد ذلك العصر الأول الفريد ، لم يشهد سوى وقائع نادرة لمشاركة المرأة بالعمل العام ، والعمل السياسي منه بصورة خاصة ، وهي مشاركات كانت تأتي في الغالب عفوية غير مقننة ، وقد انتهى التأصيل الفقهي لهذه المسألة إلى إقصاء المرأة نهائيًا عن مسرح السياسة ، وهذا ما أعطى بعض النساء المسلمات في العصر الحديث مبررًا لإثارة القضية من جديد ، وقد شجعهن على ذلك أن القضية أصبحت قضية عالمية ، وأن المرأة أعطيت حقوقها السياسية في كثير من بلدان العالم ، فلماذا تبقى المرأة المسلمة محرومة منها .

وقد بدأت المطالبة بهذه الحقوق لأول مرة في البلدان الإسلامية في أواسط القرن التاسع عشر حين قادت السيدة (قرة العين) [1]، أول حركة نشطة لتحرير المرأة والمطالبة بمساواتها بالرجل ، ولم تتورع قرة العين عن اعتلاء المنابر العامة والخطابة على الملأ من أجل هذه الغاية ، إلَّا أن السلطات الحكومية لم تلبث أن اعتقلتها وأصدرت عليها حكمًا عاجلًا بالإعدام شنقًا ، فما كان منها إلَّا أن قدمت منديلها الحريري لتشنق به تعبيرًا عن مطالبتها السلمية بتلك الحقوق ، لكن ذلك كله لم يشفع لها عند أصحاب القرار ، بل دفع المكلفين بإعدامها للمبالغة بإهانتها ، فربطوها من شعرها إلى ذيل بغل شموس ظل يجري بها في الساحة العامة حتى لفظت أنفاسها الأخيرة [2] .

---

(١) قرة العين (ت ١٨٥٢م) : ولدت في منطقة قزوين ، وأتقنت اللغة العربية والحديث والقرآن ، وقد قَبِلها علي محمد الملقب بـ (الباب) في مصاف أركان الديانة البابية [المنجد في اللغة والأعلام ، (ص ٥٤٧) ، دار الشروق، بيروت ١٩٨٦م] .

(٢) انظر : د.علي الوردي (موسوعة تاريخ العراق الحديث) .

أمَّا في البلدان العربية فقد بدأ لفيف من المفكرين والأدباء بإثارة هذه القضية مطلع القرن التاسع عشر ، ولعل في طليعتهم اللغوي والأديب العربي (بطرس البستاني) [1] ، الذي نشر العديد من كتاباته في عام (١٨٤٩م) حول ضرورة تعليم البنات أسوة بالبنين ، وعدم حرمانهن من هذا الحق ، ومنهم أيضًا شيخ المترجين المصريين (رفاعة الطهطاوي) [2] ، الذي أصدر في عام (١٨٦١م) كتابه المسمى (المرشد الأمين لتعليم البنات والبنون) حول القضية ذاتها ، وفي عام (١٨٩٩م) أصدر (قاسم أمين) [3] ، كتابه المثير للجدل (تحرير المرأة) الذي دعا فيه إلى تعليم المرأة ومشاركتها للرجل في مختلف الأنشطة والأعمال السياسية وغير السياسية ، إلى جانب دعوته لسفور المرأة ونبذ الحجاب الذي رأى فيه علامة من علامات الحجر على المرأة وعزلها عن مجتمعها ، وقد أتبع كتابه هذا بكتاب ثان أصدره في عام (١٩٠٦م) تحت عنوان (المرأة الجديدة) ردَّ فيه على المعارضين الذين عارضوا ما جاء في كتابه الأول .

---

(١) بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣م) : لغوي وأديب لبناني ، أتقن عدة لغات شرقية وأوروبية إلى جانب تضلعه باللغة العربية ، مارس التعليم ، وعاون المستشرقين الأمريكيين في ترجمة الكتب الإسلامية ، أصدر عدة صحف منها (نفير سورية) ، و (الجنان) ، و (الجنة) ، و (الجنينة) ، ومعجم (محيط المحيط) باللغة العربية ، و (دائرة معارف بطرس البستاني) التي أصدر منها ٦ أجزاء ، وواصل أبناؤه إصدار ١١ جزءًا منها .

(٢) رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) : تلقى تعليمه في الأزهر ، وأوفد عام (١٨٢٦م) إمامًا لأول بعثة تعليمية إلى فرنسا ، فأتقن الفرنسية واطلع على مؤلفات في مختلف العلوم وترجم بعضها ، واتصل ببعض المستشرقين واستفاد من طريقتهم بالبحث العلمي ، وبعد عودته إلى مصر عمل مترجمًا في المدارس الفنية التي أنشأها محمد علي باشا ، ثم مديرًا لمدرسة الترجمة (دار الألسن) وكان له دور بإنشاء الصحيفة الرسمية (الوقائع المصرية) ووضع مشروعًا لطباعة كتب التراث العربي القديمة ، وعين عضوًا في قومسيون المدارس الذي يضع المناهج ويشرف على التعليم والامتحانات ، وعندما أسست أول مدرسة للبنات في مصر وعارضها الرأي العام انبرى الشيخ رفاعة للدفاع عن تعليم المرأة . من أهم مصنفاته (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) ، الذي وصف فيه رحلته ومشاهداته في فرنسا ، وشرح فيه النظم السياسية والاجتماعية الأوروبية الحديثة ، وكان لهذا الكتاب أثر كبير في تشكيل الثقافة العربية المعاصرة فيما بعد .

(٣) قاسم أمين (١٨٦٥ – ١٩٠٨م) : قاض وكاتب عربي ، ولد في منطقة طرة بمصر ، نشأ وتعلم في مدارس الإسكندرية ثم قضى بقية حياته في القاهرة وتوفي فيها ، التحق بالأزهر ، ثم ابتعث إلى فرنسا حيث درس القانون بجامعة مونبلييه ، وبعد عودته عمل بالنيابة والقضاء ، وكان وثيق الصلة بالإمام محمد عبده ، والزعيم سعد زغلول ، اشتهر بدفاعه عن قضايا المرأة ، وأثارت آراؤه الكثير من الجدل والمساجلات بين كتاب عصره وأهل الشريعة ورجال الدين [الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٣٦١] .

وفي عام (١٩٢٣م) دخلت القضية مرحلة جديدة أكثر جدية حين أسست الناشطة المصرية هدى شعراوي [١]، (الاتحاد النسائي المصري) ليكون أول اتحاد عربي يؤسس للدفاع عن قضايا المرأة والمطالبة بحقوقها السياسية ، وتأكيدًا من هدى شعراوي على جديتها وسعيها الحثيث في دعم هذه القضية قادت في العام نفسه مظاهرة حاشدة من النساء ، وسارت بهن إلى ميدان التحرير في القاهرة ، وبعد أن تجمع حولها أعداد غفيرة من النساء والرجال أقدمت على بادرة أذهلت الحاضرين حين رفعت الحجاب عن رأسها عنوة أمام الجميع ، تأكيدًا منها على المطالبة بحقوق المرأة وتحريرها من الحجاب الذي يمثل في زعمها رمزًا من رموز الحَجْر على المرأة والتسلط عليها وحرمانها من حقوقها .

ولم تتوقف هدى شعراوي عن سعيها الحثيث في هذه القضية ، وظلت تعمل بكل جد ونشاط إلى أن نجحت في عام (١٩٤٤م) بتأسيس (الاتحاد النسائي العربي) الذي راحت من خلاله تطالب بمساواة الجنسين في جميع الحقوق ، ولا سيما منها حق التعليم والحقوق السياسية ، إلى جانب تعديل قوانين الأحوال الشخصية ، وبخاصة منها قوانين الطلاق وتعدد الزوجات وحضانة الأولاد لتكون أكثر إنصافًا وتحقيقًا لمصالح المرأة .







(من اليمين : بطرس البستاني ، رفاعة الطهطاوي ، قاسم أمين ، هدى شعراوي ، من أوائل المفكرين العرب الذين تناولوا قضايا المرأة العربية في العصر الحديث)

إلّا أن القضية ظلت حاضرة على الساحة ، واستمرت بين أخذ ورد لعدة عقود من الزمان ، ولم تقرر الحقوق السياسية للمرأة العربية رسميًا إلّا في ظل ثورة يوليو (١٩٥٢م) في مصر ، ثم أقرت في سوريا إبان الوحدة مع مصر في عام (١٩٥٨م) ، وما زالت المرأة في العديد من بلداننا العربية محرومة قانونيًا من هذا الحق حتى اليوم ، على الرغم من تقرير

---

(١) هدى شعراوي (١٨٧٩ - ١٩٤٧م) : كريمة محمد سلطان باشا أول رئيس مجلس نيابي في مصر ، عاشت وماتت في القاهرة ، أسست الاتحاد النسائي المصري ، وأنشأت مدرسة ومشغلًا مهنيًا لتعليم البنات مجانًا ، ومحلًا للعلاج مجانًا ، ومثلت المرأة المصرية طوال ربع قرن في المؤتمرات الدولية [الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٨٩٣] .

هذه الحقوق في الشريعة الإسلامية منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان ، وقد كان الأحرى بنا نحن المسلمين أن نكون أول الداعين والداعمين لها ، لولا أن الرياح جرت باتجاه آخر لا ندري متى يعود إلى مجراه .

(الجدول ـ ١٨) خطوات على الطريق إلى الحرية

التاريخ	الحدث	ملاحظات
(ح ٢٠٠٠ ق.م)	بداية مشكلة الرقيق في المجتمعات البشرية .	وردت ذكرها في قوانين حورابي .
(١٠٥٠ـ٩٥٠ ق.م)	أطلق وصف الحر على الإنسان الذي يعيش في قومه دون سيطرة أحد عليه .	في العصر الهوميروسي .
(٩٥٠ ـ ٦٠٠ ق.م)	ارتبط معنى الحرية بالمدينة .	اليونان .
(٧٥٠ـ٤٥٠ ق.م)	قال الفلاسفة إن الحر هو الذي يتصرف وفقًا للطبيعة .	الفلسفة السفسطائية .
(٤٢٨ـ٣٤٨ ق.م)	عرف الفلاسفة الحرية بأنها التوجه نحو الخير والفضيلة .	أفلاطون .
(٦٣٠م)	اعتبر الإسلام أن الإنسان حر منذ ولادته ولا يقيده إلا التزامه بشريعة السماء ، وساوى بين المرأة والرجل ، وبدأ خطوات عملية لتحرير الرقيق .	القرآن الكريم .
(١٢١٥م)	أصدر الملك جون وثيقة (العهد العظيم) أو الماجنا كارتا التي نصت صراحة على حقوق الإنسان .	بريطانيا .
(١٤٤٠م)	بدأ المستعمرون البرتغاليون يتاجرون بالرقيق .	افريقيا .
(١٥٥٠ ــ ١٧٠٠م)	حظيت حرية الإرادة باهتمام المفكرين والفلاسفة .	أوربا .
(١٥٩٠م)	بدأ نظام الرق في العالم الجديد .	أمريكا .
(١٦٠٠م)	أحرق العالم جوردانو برونو حيًا في روما دفاعًا عن حرية رأيه في كروية الأرض .	إيطاليا .

(١٦١٩م)	بدأت بريطانيا تستخدم الزنوج في مستعمراتها .	في العالم الجديد (أمريكا) .
(١٧٥٠م)	بدأ المفكرون والفلاسفة مهاجمة نظام الرق .	أوروبا .
(١٧٨٩م)	صدر أول إعلان لحقوق الإنسان عقب الثورة الفرنسية .	الولايات المتحدة .
(١٧٩١م)	أطلق مصطلح (حقوق الإنسان) على بعض التعديلات التي أدخلت على الدستور الأمريكي .	الولايات المتحدة .
(١٧٩٣م)	صدرت قوانين الآبقين لإعادة العبيد الهاربين لأصحابهم .	الولايات المتحدة .
(١٨٠٧م)	صدرت قوانين بتحريم تجارة الرقيق .	بريطانيا .
(١٨١٥م)	اختفى الرق تقريبًا من الولايات الشمالية .	الولايات المتحدة .
(١٨١٦م)	تأسست (جمعية التعمير) في واشنطون بهدف إعادة العبيد إلى موطنهم الأصلي في أفريقيا .	الولايات المتحدة .
(١٨٢٠م)	بدأت ثورة الزنوج للمطالبة بحريتهم .	الولايات المتحدة .
(١٨٣٣م)	ألغي نظام الرق في المستعمرات البريطانية لأسباب سياسية اقتصادية وليس لدوافع إنسانية .	الهند الغربية .
(١٨٤٧م)	تزعمت (لوسي ستون) الدعوة لحقوق المرأة .	الولايات المتحدة .
(١٨٦٣م)	صدر الإعلان الرسمي للعتق في الولايات الثائرة فقط .	الولايات المتحدة .
(١٨٦١ ـ ١٨٦٥م)	وضعت الحرب الأهلية الأمريكية حدًا لنظام الرق في الولايات المختلفة .	استمر التمييز العنصري حتى منتصف القرن العشرين .
(١٨٨٥م)	أبرمت أول اتفاقية دولية لوقف تجارة الرقيق في العالم .	برلين .

(١٨٩٠م)	أبرمت اتفاقية لمنع الرقيق، وقد وقعتها (١٨) دولة من الدول التي اشتهرت بالمتاجرة بالرقيق .	بروكسل .
(١٩١٠م)	صدر (قانون مان) الذي يحظر نقل النساء بين الولايات لأغراض الدعارة .	الولايات المتحدة .
(١٩٢٠م)	نص الدستور الأمريكي على الحقوق السياسية للمرأة .	الولايات المتحدة .
(١٩٢٣م)	تأسس الاتحاد النسائي المصري للمطالبة بالحقوق السياسية للمرأة .	أسسته هدى شعراوي .
(١٩٢٦م)	أصدرت عصبة الأمم قرارًا بمنع المتاجرة بالرقيق .	ما زالت بعض الدول تمارسها .
(١٩٤٥م)	نالت المرأة الفرنسية حقوقها السياسية .	
(١٩٤٨م)	صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان .	الجمعية العامة للأمم المتحدة .
(١٩٥٢م)	نالت المرأة العربية حقوقها السياسية لأول مرة .	مصر .
(١٩٥٥م)	ألغي نظام التمييز العنصري في الولايات المتحدة .	
(١٩٩٤م)	ألغي نظام التمييز العنصري في جنوب أفريقيا .	في عهد نيلسون مانديلا .

***

الفصل الثالث عشر

تاريخ الحضارة

• ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

لن نخوض هنا في التعريفات الكثيرة التي قيلت في معنى (الحضارة) ، ونكتفي باختيار التعريف الأكثر تداولًا بين دارسي الحضارات ، وهو التمكين في الأرض والتوسع بالعمران ، وما يتبع ذلك من تقدم علمي وتقني وصناعي وغيره [١] ، ويرجع اختيارنا لهذا التعريف إلى أن هذه المظاهر كلها مظاهر مادية سهلة القياس والمقارنة ، ومن ثم يسهل علينا معرفة مدى ما أحرزته كل أمة من هذه المظاهر ، أما المظاهر الثقافية والاجتماعية والسياسية وغيرها من المظاهر الحضارية فليس من السهل قياسها ، ولا الاتفاق على ما هو حضاري منها مما هو غير حضاري .

وعن تلك اللحظة التاريخية التي دخل فيها الإنسان رحاب الحضارة لأول مرة يقرر المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي) [٢] ، في كتابه « الحضارة من أين .. وإلى أين ؟ » كما يقرر معظم الذين أرّخوا للحضارات البشرية أن الإنسان لم يدخل رحاب الفعل الحضاري إلّا بعد أن عرف الزراعة ، وارتبط بالأرض ارتباطًا عضويًا ، وبدأ يقيم تجمعاته الأولى ومساكنه البدائية ثم مدنه وحضاراته ، كما يذهب المؤرخ الأمريكي (ويل ديورانت) [٣] ، في موسوعته (قصة الحضارة) إلى أن المرأة هي مبدعة الحضارة الأولى ؛ لأنها هي التي اهتدت لأول مرة إلى فكرة الزراعة وليس الرجل الذي ظلّ لأحقاب طويلة يمارس الصيد والقنص ليكسب لقمة العيش لأسرته ، ونظرًا لما تتطلبه هذه الرحلة المضنية من جهد عضلي وعقلي فإنها لم تترك للرجل فرصة للتفكير بشيء آخر غير هذا العمل الشاق الذي كان يستغرق جُلّ أوقاته ، أمّا المرأة فإنها مع مرور الأيام ، وطول الانتظار والقلق والإحساس بالوحدة ، وشفقتها على الزوج الغائب الذي غادرها في رحلة مجهولة قد يعود منها وقد لا يعود ، فقد راحت تفكر ببديل يريح الزوج من هذا العناء ، وفي لحظة

(١) للمزيد من الاطلاع على تعريف الحضارة انظر كتاب : (نحن والحضارة والشهود) ، د.نعمان عبد الرازق السامرائي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، كتاب الأمة ٨٠ ، دولة قطر (٢٠٠١) .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) سبقت ترجمته .

نادرة من لحظات الإشراق الفكري انقدحت في ذهن المرأة فكرة الزراعة عبر تأملها الطويل للطبيعة وما تجود به الأرض من ثمار ، وهكذا بدأت قصة الزراعة ومعها بدأت قصة الحضارة في الأرض على يد المرأة .

ويذهب المؤرخ توينبي أيضًا إلى أنه يستحيل إحصاء عدد المجتمعات البدائية التي ظهرت خلال (٣٠٠,٠٠٠ سنة) التي خلت من عمر البشرية ، لكن توينبي ينقل عن بعض علماء السلالات البشرية أنهم أحصوا عدد المجتمعات التي شهدها التاريخ البشري وقدروها بحوالي (٦٥٠ مجتمعًا) ما يزال كثير منها قائمًا حتى اليوم ، وقد تمخضت هذه المجتمعات عن ولادة (٢١ حضارة بشرية) قام معظمها وازدهر في المنطقة العربية ولا سيما العراق والشام ومصر والجزيرة العربية (الجدول ـ ١٩) وقد بادت هذه الحضارات كلها ما عدا سبع حضارات ما زالت قائمة حتى اليوم ، منها الحضارة الإسلامية التي تضم حوالي ربع البشرية ، والحضارة الغربية المسيحية (أوروبا والولايات المتحدة وكندا) التي تضم عددًا مقاربًا من البشر ، والحضارتان الهندية والصينية اللتان تضمان ثلث البشرية ، علمًا بأن أقدم هذه الحضارات البشرية لا يزيد عمرها عن (٧٠٠٠ سنة) حسب الدراسات العلمية الموثقة [1] ، وهذا التاريخ القريب نسبيًّا يدل على أن الفعل الحضاري للإنسان ليس موغلًا في القِدم كما يظن كثير من الناس ، بل هو حديث جدًّا بالقياس مع عمر الوجود (حوالي ١٥ مليار سنة) أو بالقياس إلى عمر الجنس البشري الذي يرجع إلى (٧ ملايين سنة) أو تزيد (انظر فصل : تاريخ الإنسان) .

ولكي نقرب إلى الأذهان حداثة الحضارات البشرية ، دعونا نضغط عمر الأرض (٤,٦ مليار سنة) إلى سنة افتراضية واحدة ، وعندئذ نجد أن أول المخلوقات الحية ظهرت في البحر في منتصف الشهر الخامس من هذه السنة الافتراضية ، أمّا النباتات المتنوعة والحيوانات فقد ظهرت في أواخر الشهر الحادي عشر ، وفي الأيام الأربعة الأولى من الشهر الأخير بدأ تكدس المواد العضوية في قيعان المحيطات لتشكل بعض أنواع الوقود الأحفوري ؛ مثل : البترول والغاز ، وفي منتصف هذا الشهر الأخير ، أصبحت الديناصورات سائدة في الأرض أينما كان ، ولكنها لم تلبث أن انقرضت تمامًا في السادس

---

(١) انظر : أرنولد توينبي (مختصر دراسة التاريخ) ترجمة فؤاد محمد شبل ، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية. القاهرة (١٩٦٦م) .

والعشرين من الشهر نفسه ، أمّا الإنسان فقد ظهر قرابة عصر اليوم الأخير من هذه السنة الافتراضية ، وأمّا الإمبراطورية الرومانية التي سيطرت على العالم الغربي وحوض البحر المتوسط فقد قامت في الثواني الأخيرة من السنة ، ودامت فقط لمدة خمس ثوان بدءًا من الساعة (٢٣) والدقيقة (٥٩) والثانية (٤٥)، واكتشف كولومبس أمريكا قبل منتصف الليل بنحو ثلاث ثوان [1] .. وهكذا يبدو جليًا أن تاريخ الحضارات البشرية حديث جدًا وكأن الإنسان قد ولج باب الحضارة للتو ، وهذه هي الملاحظة الأولى الملفتة للنظر في تاريخ الحضارات البشرية .

(الجدول ـ ١٩) الحضارات التي عرفها التاريخ البشري حتى الآن

الحضارة	بداية تاريخها	الموقع
السومرية	(٥٠٠٠ ق.م)	بلاد ما بين النهرين (العراق)
الفرعونية	(٤٢٤٠ ق.م)	مصر
الرومانية	(٣٠٠٠ ق.م)	روما (إيطاليا)
البابلية	(٢١٠٠ ق.م)	بلاد ما بين النهرين (العراق)
الإغريقية	(٢٠٠٠ ق.م)	اليونان
الفينيقية	(٢٠٠٠ ق.م)	بلاد الشام
الهندية	(١٥٠٠ ق.م)	الهند
الصينية	(١٤٠٠ ق.م)	الصين
الآشورية	(١١٥٠ ق.م)	بلاد ما بين النهرين والشام
الآرامية	(١١٠٠ ق.م)	بلاد الشام
الإسلامية	(٦١٠م)	الجزيرة العربية
الغربية	(١٠٠٠م)	أوروبا / الولايات المتحدة

الحضارة والدين :

أما الملاحظة الثانية فهي تتعلق بالعوامل والظروف التي تساهم بتشكيل الظاهرة الحضارية ، ويعتقد بعض الباحثين في هموم الحضارة أن (الحالة الحضارية) لا بد لها من

---

(1) شركة الزيت العربية السعودية ، مجلة (القافلة) (ص ٩٥) ، الظهران .

أساس ديني تقوم عليه ، وأن القيم الدينية والأخلاقية هي بمثابة الروح التي تنفخ في الأمة فتحضها على النهوض والشروع ببناء صرحها الحضاري ، ومن هؤلاء الباحثين المؤرخ الإيطالي جيوفاني باتستا فيكو (١٦٦٨ - ١٧٧٤م) الذي ذهب إلى أن الحضارات تبدأ بالتفكير الديني ، وكذلك المؤرخ البريطاني توينبي الذي قال : إن الحضارات تزدهر أو تتدهور وفقًا للطاقة الروحية التي تتميز بها الأقلية المبدعة [١] ، وإلى ذلك ذهب أيضًا الفيلسوف المؤرخ الألماني (اشبنجلر) [٢] ، الذي كتب يقول : تولد الحضارة في اللحظة التي فيها تستيقظ روح عظيمة [٣]، إلا أننا من خلال استقرائنا لتاريخ الحضارات الغابرة والمعاصرة نرى غير هذا الرأي ، فإن معظم الحضارات التي شهدها التاريخ البشري لم تكن على شيء من الدين ، بل إن بعضها كان على درجة من الإلحاد لا تجارى .

وهذا لا يتعارض مع ما ورد في القرآن الكريم من وَعْد الله ﷻ للصالحين بالتمكين في الأرض ، كما جاء مثلًا في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] ، فالراجح - برأينا - أن (الصالحين) الذين تشير إليهم هذه الآية الكريمة هم الصالحون للقيام بعمارة الأرض لكي يتواصل تنفيذ البرنامج الإلهي المقدَّر للجنس البشري ، وهذا أمر مشاهد ومعروف عبر التاريخ ، فالحضارات البشرية الغابرة تشير إلى أن الذين ورثوا الأرض لآلاف السنين لم يكونوا الأكثر إيمانًا . ولعل خير شاهد على ما نقول : الحضارة الفرعونية التي دامت آلاف السنين ، وكانت في معظمها حضارة وثنية ، تؤله الفرعون وتسجد له باعتباره ربها الأعلى !

ومثال آخر ، قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] ، فإن التمكين للمؤمنين لا يعني الحظر التام على غيرهم من البشر ، فقد شاءت حكمة الخالق ﷻ أن يكون عطاؤه متاحًا لجميع خلقه ، مؤمنهم وكافرهم على حد سواء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٠] ، وقوله تعالى عن بعض

---

(١) كولن ولسون : سقوط الحضارة ، (ص ١٥٢) .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) د. عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة (٢/ ١٠) .

الأمم التي تنكبت طريق الإيمان فتح الله ﷻ لها أبواب التقدم والرقي والحضارة : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

فقيام الحضارة لا يتطلب بالضرورة وجود أساس ديني ، ولا أساس أخلاقي ، أمّا انهيارها بالمقابل فهو حتمي إذا ما حادت عن سبيل الحق ، أو ناصبت خالقها العداء ، ولو بعد حين ، كما هي حال معظم الحضارات التي شهدها التاريخ البشري حتى الآن ، وفي هذه الحال يكون الإمداد لها وإعطاؤها الفرصة للنهوض الحضاري والعلو في الأرض استدراجًا لها ، حتى إذا حقَّت عليها كلمة العذاب ، جاءها أمر الله فسقطت ، وكان لسقوطها دويٌّ قوي يبعث على الدهشة !

وقد شهد التاريخ كثيرًا من هذه النهايات المروِّعة التي لم يسلم من مطرقتها الساحقة الماحقة أرقى الحضارات وأشدها وأقواها ، وقد شهد جيلنا العديد من هذه النهايات المأساوية ؛ منها انهيار صرح الحضارة الشيوعية ممثلة بالاتحاد السوفيتي في أواخر التسعينيات من القرن العشرين ، ثم انهيار بقية دول المنظومة الشيوعية واحدة تلو الأخرى في أيامٍ نَحِسَاتٍ ، وقد جاءت هذه النهاية بعد أن وصل الاتحاد السوفيتي والمنظومة الشيوعية إلى مستوى عالٍ من التقدم العلمي ، فقد كان أسبق دول العالم لارتياد الفضاء ، والوصول إلى سطح القمر !

وقد رأينا بأمِّ أعيننا كيف هوت رموز هذه الحضارة الشيوعية ، وكيف أُسقطت أصنام زعمائها الكبار (ماركس ، لينين ، ستالين ..) وكيف داستها الأقدام ، وكيف بيع بعضها في المزاد العلني ، وكيف أُعدم بعض زعمائها العتاة ـ الذين كانوا ما يزالون على قيد الحياة ـ جهرة على مرأى من العالم عبر شاشات التلفزيون !

وقد عبَّر الفيلسوف الألماني ألبرت أشفيتزر (١٨٧٥ ـ ١٩٦٥م) عن ظاهرة سقوط الحضارات هذه ، وذكر أهم سبب لانهيارها واندثارها فقال : (وإذا أعوز الناسَ الأساسُ الأخلاقيّ تداعت الحضارةُ حتى ولو كانت العوامل العقلية والخلاقة ـ أيًّا كانت قوتها ـ تعمل عملها في اتجاهات أخرى)[1] ، وفي هذا القول دليل آخر على أن أقوى الحضارات قد تقوم على غير أساس من الأخلاق .

---

(١) ألبرت أشفيتزر : فلسفة الحضارة ، (ص ٤) .

وليس القرآن وحده هو الذي يؤكد أن الحضارة قد تقوم على غير أساس من الدين والأخلاق ، فإن وقائع التاريخ أيضًا تقدم لنا الشواهد الكثيرة على أن معظم الحضارات التي عرفها التاريخ البشري حتى الآن لم تقم على أساس ديني ، بل إن بعضها بلغ درجة من الكفر لا تجارى ، حتى قال كبيرهم : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] ، وقال الآخر متفاخرًا بما وصل إليه من حضارة وتمكين في الأرض :﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت : ١٥] ويقدم لنا الحاضر المشهود دلائل أخرى دامغة على ما نقول ، فنحن نشهد اليوم العديد من الأمم التي بلغت شأوًا عظيمًا من التقدم الحضاري ، وهي تصرح علانية ، قولًا وفعلًا ، أنها دول علمانية تستبعد الدين من حياتها استبعادًا كاملًا ، بل إن قوانين هذه الدول ودساتيرها تجرِّم الذين يُدخلون الدين في الشؤون العامة وتعرِّضه للعقوبة الرادعة !

ومن طريف ما يذكر بهذا الصدد ما أوردته وكالات الأنباء مؤخرًا عن واقعة طريفة جرت في الولايات المتحدة الأمريكية التي تتربع اليوم على عرش الحضارة المعاصرة ، فقد تقدم رجل وامرأة لعقد قرانهما في إحدى المحاكم المدنية ، وجرت العادة هناك في مثل هذه المناسبات أن يصطحب العروسان إلى قاعة المحكمة فرقة موسيقية تنشد لهما أغنية عرائسية احتفالًا بالمناسبة السعيدة ، وصادف مرة أن اختار اثنان من العرسان أغنية فيها جملة تقول : (اللهم بارك للعروسين) فلما علم القاضي بهذا رفض إتمام مراسيم الزواج ، بحجة أن دستور الولايات المتحدة لا يسمح بذكر اسم الله أو أية إشارة للدين في المناسبات العامة !

والواقع أن الولايات المتحدة الأمريكية ليست بدعًا في استبعاد الدين من حياتها العامة ، بل إن معظم الدول المتحضرة اليوم تنصُّ صراحة على علمانيتها واستبعاد الدين من حياتها ومن دساتيرها وقوانينها ، ومن ثم نقول إن الحالة الحضارية بمعناها الأكثر تداولًا بين المتخصصين بالحضارات يمكن أن تقوم على قيم وأسس غير دينية وغير أخلاقية ، إلا أن العاقبة بميزان الله ﷻ تبقى آخر الأمر لعباد الله المتقين .

وهذا يعني - بالمقابل - أن التقوى لا تكفي وحدها لقيام الحضارة ، بل لا بد من اقتران التقوى بالجهود المكافئة ، وتوفير البنية التحتية اللازمة لقيام الحضارة ، والعزم الأكيد على تحقيق قفزة حضارية ، فإذا لم تتوافر هذه الشروط فإن الأمة لن تستطيع تحقيق حضارتها المنشودة حتى وإن كانت مؤمنة ، وهذا ما تقول به سنن الله في خلقه ، وهو ما يشير إليه قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ .... ﴾ [الأنفال : ٦٠] فالاستعداد

والإعداد وبذل الجهد كلها شروط لازمة للنهوض الحضاري ، إلى جانب الإيمان والتقوى وبقية عوامل التمكين في الأرض .

ونعتقد أن ما قدمناه يكفي لتصحيح النظرة التي يتبناها بعض الدارسين للتاريخ ، وفحولها أن التمكين في الأرض لا يكون إلا للذين آمنوا واتقوا ، ويحتجون ببعض النصوص من القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف : ٩٦] ، فإن هذه النصوص وأمثالها تشير إلى حالة البَرَكة التي تتولد عن التقوى والإيمان ، ولا تعني أن تحقيق الحالة الحضارية مرهون بالإيمان والتقوى ، فإن فتح أبواب السماء والأرض بالبركات قد ينتهي بتحقيق حالة حضارية كالتي حققتها الأمة الإسلامية أول مرة ، وقد لا ينتهي بتحقيق هذا الهدف ، وكم شهد التاريخ من نكسات ونكبات حلت بالذين آمنوا واتقوا ، بل كم من رسول أو نبي قاتله قومه أو طردوه أو قتلوه ولم يتركوا له الفرصة لتحقيق شيء من الحضارة ، وفي هذا دليل واضح على أن مجرد الإيمان لا يكفي لتشييد بناء حضاري ما لم تسانده بقية الشروط الموضوعية اللازمة لبناء الحضارة .

أمَّا النصوص الأخرى التي تتحدث عن التمكين في الأرض للذين آمنوا ، ومنها مثلًا قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] ، فهي تشير إلى حال المؤمنين حين يمكنهم الله في الأرض ، وكيف أنهم يزيدون في الطاعات وفي شكر المنعم ﷻ الذي مَنَّ عليهم بهذا التمكين ، على النقيض من حال غير المؤمنين الذين إذا مكنهم الله في الأرض استكبروا وتجبَّروا وعاثوا في الأرض فسادًا ، فكانت عاقبتهم خسرانًا مبينًا ، كما أخبرنا الله عن حال بعضهم فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] .

وهذا يقودنا إلى السُّنة الإلهية المكملة لهذا السياق التاريخي ، وهي السنة التي عبر عنها قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] ، فإن الأمة التي تقوم بأمانة الاستخلاف على الوجه الصحيح ، وتسخر سنن الله تسخيرًا صحيحًا ينفع الناس هي التي يكتب لها البقاء ، وأمَّا الأمة التي تحيد عن

هذا النهج فإنها ستزول لا محالة ، وعلى هذه الصورة زالت كل الحضارات الغابرة ، وعلى هذه الصورة سوف تزول كل الحضارات القائمة .

ونخلص من هذا إلى أن قيام حالة حضارية بالمعنى الشائع بين دارسي الحضارات لا يتطلب أرضية دينية بالضرورة ، وهذه الحقيقة تقودنا إلى نتيجة في غاية الأهمية ، وهي ضرورة التميز عند استلهام بعض إنجازات الحضارات المعاصرة بين ما هو إنجاز محايد لا علاقة له بالقيم الدينية أو الأخلاقية ، وبين ما هو ديني أو أخلاقي ، فما كان منها محايد فلا حرج من الأخذ به والاستفادة من معطياته ، وأمَّا ما هو ديني أو أخلاقي فنأخذ منه فقط ما يتماشى مع أخلاقنا وعقيدتنا ، وندع ما يعارضها أو يخالفها .

تداول الحضارات :

من الملاحظات الملفتة للنظر في تاريخ الحضارات أن الاكتشافات والاختراعات والإبداعات الفكرية العظيمة والأحداث الكبرى التي شهدها التاريخ البشري كانت دومًا من نصيب الأمة التي تعيش (حالة حضارة) ، فعندما كان السومريون في بلاد ما بين النهرين يعيشون حالة حضارة كانوا هم المحركين والموجِّهين للأحداث العالمية ، وكانوا هم أيضًا أصحاب السبق في العلم والاكتشاف والاختراع والإبداع الفكري ، وهكذا كان حال الفراعنة في مصر القديمة ، ثم الرومان والإغريق في شمال الأرض ، والصينيين في شرقها .

وعندما بزغت شمس الإسلام في قلب العالم ، وأمسك المسلمون دفَّة الحضارة ـ صارت الأحداث الكبرى والاكتشافات والاختراعات والإبداعات الفلسفية والأدبية من نصيبهم ، وظلوا كذلك زهاء عشرة قرون متواليات .

وحين سطع نجم الإمبراطوريات الأوروبية في العصور الحديثة صار الفرنسيون هم بؤرة الأحداث العالمية ، ثم جاءت إمبراطورية بريطانيا العظمى التي بسطت نفوذها على العالم كله حتى اعتقد الناس لوهلة من الزمن أنها (لن تغيب عنها الشمس !) لكنها لم تلبث أن غابت وانطوت وشملتها سنة الله تعالى في التداول الحضاري التي أشار إليها قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

وقد عرض القرآن الكريم نماذج من قصص الأمم الغابرة التي بلغت شأوًا عظيمًا في مضمار الحضارة ، ولكنها بعد حين من الزمن بادت واندرست على الرغم مما حققته من عمران وما أحرزته من تمكين في الأرض ، ومن ذلك مثلًا قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا

الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم : ٩] ، كما صور القرآن الكريم حالة الدمار التي حلت بتلك الحضارات العظيمة وكيف انتزع منها مشعل الحضارة وأورثه أقوامًا آخرين : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٥ – ٢٨] .

وهكذا هي حال الدنيا .. فقد اقتضت حكمة الله ﷻ ألا تستأثر أمة أو جماعة أو قوم بقيادة البشرية حتى آخر الزمان ، بل أراد سبحانه أن تتعاقب الأمم على هذه القيادة ، واحدة بعد الأخرى ، لإعطاء الفرص المتكافئة للجميع ، لينظر الله ﷻ كيف يعملون ، وفي هذا غاية العدالة والمساواة بين الأمم ، وفيه أيضًا درس عظيم لكل الأمم التي استطاعت أن تحرز شيئًا من التقدم الحضاري ، حتى لا تأخذها العزة بالنفس ، ولا بالإنجازات التي حققتها ، ولا بالقوة التي ملكتها ، فتعتقد أنها قد ملكت الدنيا بحذافيرها ، وأن التاريخ قد توقف عند أعتابها كما زعمت في يوم من الأيام بعض النظريات العنصرية ، وكما يزعم اليوم دعاة الحضارة الغربية الراهنة الذين يعتقدون أن التاريخ قد انتهى عند نموذجهم الليبرالي (*Liberalism*) الذي بلغ قمة التطور حسب زعمهم ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر (فرانسيس فوكوياما) [1] ، المستشار الإستراتيجي وأحد أبرز المخططين للسياسة الخارجية للولايات المتحدة في أواخر القرن العشرين ، الذي عبَّر عن نظريته بمقالة نشرها في شهر نيسان من عام (١٩٩١م) في المجلة الأمريكية الفصلية : شؤون خارجية (*Foreign Affairs*) تحت عنوان نهاية التاريخ (*The End of History*) ثم نشرها في كتاب يحمل الاسم نفسه في العام التالي ، وقد أثارت أطروحاته تلك موجة عارمة من الانتقادات في الأوساط الفكرية والسياسية في شتى أنحاء العالم ، وبعده بفترة وجيزة طلع علينا أمريكي آخر هو صامويل هنتنغتون المحاضر في جامعة هارفارد بمقالة أخرى تنسج على المنوال نفسه ، وقد نشرها في المجلة نفسها في شهر حزيران من عام (١٩٩٣م)

---

(١) فرانسيس فوكوياما (١٩٥٢م) : باحث أمريكي معاصر من أصول يابانية ، وعمل بالتدريس الجامعي ثم مستشارًا في وزارة الخارجية الأمريكية ، تنتمي أفكاره إلى تيار المحافظين الجدد الذي يتبنى فكرة هيمنة أمريكا على العالم ، لكنه في الوقت نفسه يحذر من أمور نهايتها خطيرة وتشاؤمية ، أبرز كتبه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) ، و (الانهيار العظيم) .

تحت عنوان صِدام الحضارات (*The Clash of Civilization*) فأثار بها كذلك زوبعة حادة من الانتقادات أكبر من سابقتها [١] .



(فرانسيس فوكوياما)





(صموئيل هنتنتون)

وقد زعم هذان المفكران أن الحضارة البشرية قد وصلت أخيرًا إلى الأنموذج الحضاري الأكمل ، وأن الصراع بين الحضارات قد وصل إلى لحظة الحقيقة ، وأن هذا الصراع قد حسم نهائيًا لصالح الأنموذج الغربي [في زيه الأمريكي طبعًا !] وأن هذا الأنموذج سيقود العالم تحت مظلة (نظام عالمي جديد) سوف يحقق للبشرية حلمها القديم في الحرية والديمقراطية والمساواة ، ويقيم الجنة الموعودة على الأرض ، وعمّا قليل سوف (يَرِثُ المستضعَفون الأرضَ ، وتُسَرَّحُ الجيوشُ ، ويرعى الحَمَلُ آمنًا بجوارِ الذئبِ ، ويلعبُ الصَّبيُّ كرةَ الماءِ مع التِّمساحِ في النَّهرِ) [٢] !

ولم يتوقف هذان المفكران عند هذا الحدّ من التسويق (*Marketing*) لمثل هذه الأفكار - بل ذهبوا إلى أقصى درجات الغلو والشطط ، فادَّعوا أن الأنموذج الليبرالي الغربي سوف ينتهي إلى غير رجعة كل الأنظمة التي جرَّبها البشر على مرّ التاريخ ، وفي هذا يقول فوكوياما : (إن انهيار الاتحاد السوفيتي وتفكيك المنظومة الشيوعية لم يضع حدًّا للصراع التقليدي فحسب ، وإنّما وضع نهاية للتاريخ أيضًا ، باعتباره إلى الآن تاريخ صراعات

---

(١) انظر عدد نوفمبر من مجلة (الهلال) المصرية (١٩٩٣م) ، وكتاب محمد جلال كشك (قراءة في فكر الجبهة) مكتبة التراث بمصر (١٩٩٤م) ، وكتاب فرانسيس فوكوياما (نهاية التاريخ وخاتم البشر) ترجمة حسين أحمد أمين ، مركز الأهرام للترجمة والنشر بالقاهرة (١٩٩٢م) ، وكتاب هنتنتون (صدام الحضارات) ترجمة مركز الدراسات الاستراتيجية بيروت (١٩٩٥م) .

(٢) من رواية : موسم الهجرة إلى الشمال ، (ص ٤٥) ، للأديب السوداني الطيب صالح ، دار العودة ، بيروت (١٩٦٩م) .

مريرة مدمرة ، وبتلك النهاية يميل التاريخ إلى الاستقرار عند الرأسمالية العالمية ، كنظام للديمقراطية الليبرالية الغربية ، وكنظام اجتماعي سياسي عالمي أمثل)[1] !

وواضح دون ريب ما تنطوي عليه هذه الأطروحات من أهداف سياسية تنأى بها عن الموضوعية ، وتجعلها أقرب إلى الأيديولوجيا التبشيرية منها إلى التحليل العلمي الرصين ؛ وذلك لأنها تحكم على الحالة الحضارية الغربية من خلال وضعها الراهن ، وتتجاهل بصورة مزرية سنن التاريخ في التداول الحضاري ، فالحضارة الغربية المعاصرة في المحصلة الأخيرة لا تعدو أن تكون مرحلة من مراحل التاريخ ، وسوف يجيء يوم قريب أو بعيد فيطويها التاريخ بقبضته التي لا تحابي أحدًا ، ويلقي بها في سجلاته العتيقة ، مُسْلِمًا إياها للعتمة والرطوبة والغبار ، كما فعل بالذين من قبل .. ومن يدري فقد تغيب حتى عن ذاكرة التاريخ نفسه ، كما حصل لكثير من الحضارات التي بادت واندرست ولم تحفظ ذاكرة التاريخ شيئًا عنها ، فهل من مدَّكر ؟!

وفي الواقع ليس فوكوياما وهنتنغتون هما أول من يقع بمثل هذه الأخطاء الفاحشة في قراءة التاريخ ، ولن يكونا آخر من يقع فيها ، فهذا مثلًا الفيلسوف الألماني هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣٠م) أكبر فلاسفة القرن التاسع عشر يذهب إلى أن الملكية الروسية تمثل نهاية التقدم البشري ، وهذا أيضًا المؤرخ الفيكتوري البارز أرنولد أوف روغبي (*Arnold Of Rugby*) يعرب في خطابه الافتتاحي في جامعة أكسفورد عام (١٨٤١م) عن اعتقاده الجازم بأن التاريخ الحديث سوف يكون آخر مرحلة في التاريخ البشري ، وهذا أيضًا مؤسس الفلسفة الماركسية كارل ماركس يتنبأ بثقة تامة لا يخالطها أدنى شك بأن ثورة البروليتاريا (= طبقة العمال) سوف تحقق الهدف الختامي للتاريخ ، وهو قيام مجتمع غير طبقي[2] !

وقد فنَّد المحلِّل والمنظِّر التاريخي جوناثان مارجليوث هذه المقولات بالتفصيل في كتابه الممتع (تاريخ مختصر عن الغد ، مستقبل الماضي والحاضر)واعتبرها إحدى أكبر الأوهام النرجسية[3] ، التي تداعب أحلام كثير من المفكرين والفلاسفة والمنظِّرين ، وهي اعتقادهم بأنهم قد وصلوا أخيرًا إلى نهاية الشوط ، وباتوا على مشارف المستقبل النهائي ، وراحوا

---

(١) فوكوياما : نهاية التاريخ وخاتم البشرية ، (ص ٦٢) .

(٢) انظر : إدوارد كار (ما هو التاريخ ؟) ، (ص ١٣٠) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت (١٩٨٦م) .

(٣) النرجسية (*Narcissism*) : عشق الذات والاهتمام بها إلى حد مبالغ فيه مع قلة الاهتمام بالآخرين .

ينظرون إلى الماضي وأجياله وإنجازاته الحضارية نظرة مفعمة بالاستخفاف والسخرية قياسًا لما حققوه هم ، وينتهي جوناثان إلى القول بصراحة ووضوح وتواضع : (إن أهم ما يجب أن يحكم نظرتنا للمستقبل ويصوبها هو التخلي عن عُنْجُهِيَّة الحاضر واعتباره نهاية الشوط البشري) ويعيدنا هذا المؤرخ النبيه إلى صفحات التاريخ ليذكرنا بأن كل جيل من الأجيال البشرية ، على مدار التاريخ ، قد وقع بمثل هذه الأوهام النرجسية واعتقد أنه قد وصل فعلًا إلى نهاية التاريخ ، وراح ينظر إلى الماضي بنوع من الزهو باعتبار الحاضر الذي وصل إليه جيله هو (عصر خاص) جدًا لا يماثله أي عصر سابق [1] !

ألا إن الذين يتصورون أنهم وصلوا إلى نهاية الشوط إنما يحكمون على أنفسهم وعلى مشاريعهم بالنهاية المأساوية المحتومة ، فالحضارة لا تنمو بغير التجدد والطموح (.. الطموح الذي يتجاوز المحدود إلى اللامحدود ، فإذا تحدَّد تحجَّر ، صار عقبة ، صار قديمًا ، ومن هنا تناقض القديم والجديد ، برغم أن القديم كان جديدًا ، وأن الجديد سيصير بدوره قديمًا . ومن هنا مأساة الذين يحسبون أن مسار الدنيا قد بلغ ذروته عند لحظتهم ولا مزيد . فيدخلون في صراع معه ، ثم يمشي عليهم كما تمشي العاصفة على الأعواد اليابسة ؛ لأن الذين يزعمون تقرير مصير الأشياء لكل المراحل إنما يقررون سخفهم .. إن جهد العاملين أن يواكبوا مسيرة هذه الأشياء ويدفعوها في دورة من أدوار التاريخ ، ثم يخلوا الساحة لغيرهم ، وتخلي الأشياء الساحة لسواها ، وقد كان (لينين) محقًا حين وصل إلى لمح الاحتفالات ورأى لافتة كتب عليها : عاشت مجالس السوفييت إلى الأبد ، فتساءل ساخرًا . إلى الأبد ؟ إذًا لن نتخطى مرحلتها) [2] .

ويصور القرآن الكريم في مواضع عديدة هذه الحالة من الزهو والاستكبار والإعجاب المفرط الذي يصيب الذين حققوا شيئًا من الإنجاز الحضاري ولعبت برؤوسهم خمرة الانتصار والاستكبار ؛ وذلك على لسان عدد من الأقوام الذين أحرزوا في الماضي بعض التقدم الحضاري ، مثل قوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم ، حتى قال قائلهم في تحدٍّ وصَلَف :﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[فصلت : ١٥] ، ويصوِّر القرآن الكريم مصير هذا الزهو

---

[1] Jonathan Marjolius: *"A Brief History of Tomorrow ... The Past and Present"* Bloomsbury, London, 2001.

(٢) حنا مينا : ناظم حكمت ، (ص ٧٩) ، دار الآداب ، بيروت (١٩٨٣م) (ولينين هو قائد الثورة البلشفية في روسيا عام (١٩١٧م) ، وهو الذي وضع فلسفة ماركس موضع التطبيق العملي لأول مرة) .

والاستكبار ، وأنه صائر حتمًا إلى الزوال مهما طال به البقاء ، ومهما بلغ من القوة والجبروت :﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾[الأنبياء : ١١] ، وسجلات التاريخ حافلة بقصص الأمم التي تناوبت على حمل مشعل الحضارة في الماضي ، بل إن بعضها حمل مشعل الحضارة لآلاف السنين ، ولكن المشعل انتُزع منها آخر المطاف وحمله آخرون ، ويصور المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي هذه الحالة فيقول : (إن التاريخ يمتلك عدة هياكل عظمية في خزانته ، وهي تبلغ حوالي العشرين إذا ما أردنا الدقة ، وهي المدنيات التي دمرت نفسها بالحرب والفساد والاستغلال ، ولربما كان مصيرنا هو التالي ، أو الأخير)[1] .

وهكذا هي سنة الله في خلقه .. فليس لأمة من أمم الأرض مهما أوتيت من جبروت سياسي ، أو تقدم علمي ، أو قوة اقتصادية ، أن تبقى في القمة حتى آخر الزمان ، بل الكل إلى انحدار أو هلاك أو عذاب مدمِّر قبل يوم القيامة ، وهذه أيضًا سنة جارية من سنن الله في خلقه لم تنجُ من قبضتها أية حضارة ماضية ، ولن تنجو من قبضتها أية حضارة قائمة أو قادمة ، مصداقًا لقوله تعالى :﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾[الإسراء : ٥٨] ، ومن ثمّ فإن الزعم بنهاية التاريخ عند أنموذج حضاري معين ما هو إلّا من قبيل (التسويق) الفاشل لبضاعة مزجاة لن تجد لها بعد حين قصير من الدهر من يشتريها !

الحضارة اليوم :

ولكن .. مع كل ما قدمناه عن قيام الحضارات وانهيارها وتداولها بين أمم الأرض ، لا مندوحة لنا من الاعتراف بأن البشرية تعيش اليوم مرحلة مختلفة من مراحل التاريخ ، من جراء تحول كوكب الأرض إلى قرية صغيرة ، بفضل وسائل الاتصال والمواصلات الحديثة التي قربت المسافات بين الأمم ، وجعلت التأثير المتبادل بينها سريعًا ، بل آنيًا ، ما أتاح الفرصة لتشكيل ضرب من الثقافة العالمية التي لا تنتمي إلى حضارة محددة بمقدار ما تنتمي إلى التراث الإنساني العريق ، أو إلى شجرة التاريخ التي يبدو أنها قد أثمرت آخر الأمر مجموعة من القيم الإنسانية التي لم يعد بإمكان أحد من البشر أن يتجاهلها أو ينكرها .

---

[1] Arnold Toynbee: *"The Listener"* March 7, 1968.

ومع اعتقادنا الجازم بأن مشعل الحضارة سوف يستمر بالانتقال من يد إلى يد ، فإننا نعتقد في الوقت نفسه أن جوهر الحضارات القادمة لن يتغير كثيرًا عما هو عليه اليوم ، وإذا ما تغير فإن تغيره سيكون ضئيلًا ، وربما سطحيًا يتناول القشرة الخارجية دون اللباب . على النقيض من مسيرة الحضارات الغابرة التي كانت كل واحدة منها تختلف عن سابقاتها اختلافًا جذريًا في الشكل والمضمون ، وعلى سبيل المثال فقد كانت الحضارة الفارسية تختلف كل الاختلاف عن الحضارة الرومانية المعاصرة لها ، ثم جاءت الحضارة الإسلامية التي حلت محل هاتين الحضارتين فكانت أيضًا مختلفة عنهما كل الاختلاف ، شكلًا ومضمونًا .

أمَّا اليوم فإن التحولات العالمية التي يشهدها كوكبنا تنبئ عن تشكيل حضارة عالمية واحدة سوف تشارك فيها العائلة البشرية كلها دون استثناء ، ومن أبرز هذه التحولات قيام حكومة عالمية واحدة ، وتحول الحكومات المحلية إلى مجرد محافظين وربما مجرد مخاتير (*Sheriff*) مهمتهم تسيير الفروع !

ومن التحولات المهمة أيضًا تعميم مفاهيم الحداثة (*Modernism*) ، وهيمنتها على مختلف ضروب الإنتاج والإبداع الفكري والفني والثقافي ، ومنها أيضًا تراجع التقاليد والأعراف المحلية وإحلال تقاليد وأعراف جديدة مكانها ، كما هي الحال في تقاليد الزواج والمسكن والملبس والمأكل والمشرب والمناسبات العامة ، إلى غير ذلك من التحولات التي راحت تنتشر في الأرض مخترقة الحدود والسدود .

ومع أن الشكل النهائي للحضارة العالمية الراهنة لم يتبلور تمامًا حتى اليوم إلَّا أن الكثير من ملامحه أصبحت معروفة ومألوفة من جهة (الشكل) على الأقل ، وأمَّا (المضمون) فذاك شيء آخر ؛ لأن الحضارات وإن تشابهت في بعض مظاهرها الخارجية فإنه يبقى لكل حضارة منها مضمونها الأخلاقي الذي يميزها عن غيرها من الحضارات ، ومع أن الحضارة العالمية الراهنة التي ما زالت في طور التشكل تحمل الكثير من القيم الإنسانية التي قلنا إن البشرية صارت على قناعة بها ، فإن تطبيق هذه القيم ما زال دون الحد المطلوب ، ولعل من أبرز وأخطر المآخذ على هذا التطبيق أنه يكيل بمكيالين ، فيحابي قومًا على آخرين ، وعقدة المحاباة هي من أخطر ما يهدد كيان الحضارات بالفساد ثم الانهيار ، كما أخبر النبي ﷺ حين قال : « إنَّما أَهْلَكَ الذين قَبْلَكُم ، أنَّهُمْ كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوه ، وإذا سَرَقَ فيهم الضَّعِيفُ أقاموا عليهِ الحَدَّ »[1] .

---

[1] سبق تخريجه .

انهيار الحضارات :

ومن المفارقات التي تستحق الكثير من التأمل فيما يتعلق بسنة التداول الحضاري أنَّ صَرْح الحضارة غالبًا ما ينهار في اللحظة التي يعتقد أهلها أنهم قد بلغوا القمة ، وتدور برؤوسهم خمرة النشوة والانتصار والفرح ، ويغفلون عمن وهبهم تلك الفرصة الحضارية وأعطاهم من ذخائره ومكّن لهم في الأرض ، ويصور القرآن الكريم سنة الانهيار الحضاري هذه عند بلوغ الحضارة قمة ازدهارها بقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٢٤] ، فإذا ما ظنت أمة من الأمم أنها بلغت أوج مجدها ، وأنها ملكت زمام الأمور ، وأن الدهر أسلم لها القياد ؛ أتاها أمرُ الله فنحَّاها عن دفة القيادة وَحَلَّ في ديارها الخراب ، وهذه سنة مطردة من سنن الله في الخلق ، نجد شواهدها في صفحات التاريخ ، وفي أطلال الحضارات البائدة التي تملأ الأرض .

وهناك سبب آخر دقيق لانهيار الحضارات ، يستحق منا الكثير من التأمل ، وهو ما نستشفه من خلال بعض النظريات العلمية ، ومنها النظرية التي قال بها العالم الروسي إيلي متشنيكوف الحائز على جائزة نوبل في الطب عام (١٩٠٨م) ، فمن خلال تعمق هذا العالم بدراسة وظائف الأعضاء وصل إلى نتيجة مهمة فحواها أن الإنسان لا يموت إلَّا إذا أراد حقًّا أن يموت ، وهذا لاحظناه بالفعل نحن الأطباء في كثير من الحالات ، فقد لاحظنا أن بعض المرضى يسقطون في دوامة الإحباط الشديد ، وينقطع أملهم بالحياة ، وتظهر على ملامحهم بوضوح الرغبة الشديدة بالموت ، وبالفعل لا يلبث الموت أن يطويهم بقبضته إلى غير رجعة ، ومثل هذه الظاهرة نراها كذلك في حياة بعض الأمم التي اختارت الخروج من السباق الحضاري ، وتنحَّت جانبًا ، وقعدت تنتظر النهاية !

ولا جدال بأن مثل هذه الأمم المتنحية الراغبة بالغياب لا تستحق البقاء على قائمة الحياة ، والموت أولى لها ؛ لأن الحياة لا تقبل بين أعضائها إلَّا الأمم المحبة للحياة ، الراغبة بفعل شيء ينفع البلاد والعباد ، فهذه هي الأمم الجديرة حقًّا بحمل مشعل الحضارة ، وهذا ما عبر عنه شاعرنا العربي الكبير أبو القاسم الشابي (١٩٠٩ ـ ١٩٣٤م) حين قال :

إذا الشعب يومًا أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر

فإن الأمة إذا كانت راغبة فعلًا بالحياة ، مقبلة عليها بجوارحها وعقلها وقلبها ، فإن أقدار الله ﷻ تستجيب لها ، وتمهد لها الطريق ، حتى يتحقق أملها في البناء الحضاري الذي تريد .

***

الفصل الرابع عشر

تاريخ العلم

• ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] .

• إن العلم من دون ضمير هو موت الروح .

الفيلسوف الفرنسي بيتر أبلار

• لا حرية لمن لا يَعْلَم .

الفيلسوف العربي زكي نجيب محمود

• قليل من العلم يبعدك عن الله ، لكن كثيره يقربك إليه .

الطبيب الفرنسي لويس باستور

إذا كان تحديد المصطلحات هو الخطوة الأولى على الطريق إلى (العِلْم) فإننا يمكن أن نقول إن تاريخ العلم قد بدأ منذ مطلع التاريخ البشري ، حين تعلَّم نبي الله آدم أبو البشرية ﷺ الأسماء كلها عن ربه ، كما جاء في قصة الخلق الأول : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠-٣٣] .

ونلاحظ في هذه الآيات الكريمات وفي كثير غيرها من آيات القرآن الكريم أن ذكر العلم قد تكرر مرات عديدة ، ما يدل دلالة واضحة على أهمية العلم في حياة الإنسان منذ اللحظات الأولى لوجوده في هذا العالم .

ولكن .. ما هو العلم ؟

سؤال تبدو الإجابة عليه سهلة للوهلة الأولى ، فالعلم بمعناه العام هو (المعرفة) ، فكل معرفة هي نوع من العلم ، إلَّا أن العلم بمعناه التقني والعملي يحتاج إلى المزيد من التحديد ، فاستقراء تاريخ العلم يشير إلى أن العلم ليس هو كل معرفة بل هو بتحديد أكثر دقة (المعرفة الصحيحة بسنن الله في خلقه) ، أي المعرفة بالقوانين التي قدَّرها الخالق ﷻ ؛

لتنظم حركة كل شيء في هذا الوجود ، وَمِنْ ثَمَّ فإن البحث الجاد لاكتشاف هذه السنن ومعرفة كيفية عملها وشروطها ، هو الذي يستحق وصف (العلم) بمعناه التقني والعملي ؛ لأننا بمعرفة سنن الله في خلقه ومعرفة شروط عملها نستطيع تسخير الظواهر الكونية المختلفة ، ونتمكن من تحقيق الغاية العملية من العلم .

وانطلاقًا من هذا التعريف للعلم يمكن أن نحل الإشكال الذي كثيرًا ما يقع فيه بعضهم حين يصف العلم بأنه (نسبيٌّ) ، أو أنه خليط من الحقيقة والوهم والظن والخيال ، فالعلم وفق التعريف الذي اخترناه هو المعرفة اليقينية بالسنن التي تحكم ظواهر هذا الوجود ، فإذا لم نتوصل إلى هذه الدرجة من المعرفة فإننا لا نكون قد توصلنا إلى العلم الصحيح بالظاهرة الكونية موضوع البحث ، وَمِنْ ثَمَّ فإن وصف بعض الاكتشافات بأنها (علمية) قبل الوصول إلى هذه الدرجة من المعرفة يعدُّ خطأً فادحًا بحق العلم .

ونضرب على هذا مثلًا بتركيب جزيء الماء الذي يرمز له كيميائيًّا بالرمز (H_2O) . فقد عرفنا من خلال البحث والتجارب والمشاهدات الدقيقة أن جزيء الماء يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين ، فهذه المعرفة أصبحت حقيقة (علمية) لا يخالطها أدنى شكٌّ ، بدليل أننا نستطيع الحصول على الماء مرارًا وتكرارًا من خلال تفاعل عنصري الأكسجين والهيدروجين بالمقادير التي ذكرناها ، أمَّا معرفتنا بالتركيب الدقيق التفصيلي لكل من ذرة الهيدروجين وذرة الأكسجين فما زالت معرفة نسبية لم تصل إلى حد اليقين بعد ، وَمِنْ ثَمَّ فلا يصح أن نطلق على هذه المعرفة أنها علمية .

وهذا التعريف للعلم على أساس معرفة السنن أو القوانين لم يتبلور في الذهن البشري وفي الممارسات العملية إلَّا منذ فترة قريبة ، فقد كان مفهوم العلم في الماضي مختلطًا ببعض المفاهيم والممارسات التي لا تمتُّ إلى العلم بأية صلة ؛ كالفلسفة والتنجيم والسحر والأساطير والشعوذة ، ولعل مفهوم العلم لم يتبلور بصورة قاطعة إلَّا في القرون الميلادية الثلاثة الأخيرة (١٨ ، ١٩ ، ٢٠) التي صار فيها للعلم ملامح واضحة ، وصار فيه للبحث العلمي قواعد ومناهج وطرق محددة متفق عليها من قبل أهل العلم .

ولقد مرَّ التفكير العلمي بمراحل حاسمة ومهمَّة ، ربَّما بدأت على أيدي البابليين الذين طوروا رياضيات معقدة ، وأصبحوا بحلول عام (١٦٠٠ق.م) معنيين بالتفكير العقلاني الذي مهد الأرضية اللازمة لتحديد مفهوم العلم وتطور العلوم فيما بعد ، كما أن مساهمات

الفلاسفة الإغريق واهتمامهم بشرح فلسفة الطبيعة وطبيعة الفلسفة كان له أثر كبير في مستقبل الأحداث العلمية ، إلّا أن الأمر استغرق عدة قرون قبل الفصل ما بين التفكير الفلسفي المحض وبين التفكير العلمي ، ومن المعروف أن علماء أوروبا لم يبدؤوا التفكير بأعمالهم كأشياء منفصلة عن الفلسفة إلّا في أوائل القرن التاسع عشر [1] .

ويومًا بعد يوم ، مع وضوح المفاهيم العلمية ، وتقدم البشرية في مضمار العلم ، كانت هناك ظاهرتان مصاحبتان تحصلان في وقت واحد :

الظاهرة الأولى أن البشرية كانت كلما قطعت شوطًا في مضمار العلم كلما تقلصت المساحة المتاحة للأسطورة والتنجيم والسحر وبقية الممارسات التي كان لها فيما مضى مكانة رفيعة لا تقل عن مكانة العلم والعلماء في أيامنا الحاضرة ، ومع مرور الوقت ونتيجة لمصداقية المفاهيم العلميَّة ونتائجها العمليَّة بدأ الناس يسحبون ثقتهم من تلك الممارسات حتى كادت تختفي تمامًا ولم يعد لها وجود إلّا في الزوايا المظلمة من هذا العالم .

وأمّا الظاهرة الثانية فهي أن العلماء كانوا وما زالوا كلما اكتشفوا حقيقةً علميةً جديدةً اكتشفوا مقابلها عددًا أكبر من المجاهيل التي لم يكونوا يعلمون عنها شيئًا ، ومن أمثلة ذلك أن العلماء كانوا في أوائل القرن العشرين يعتقدون أن (الذرة) تتركب من ثلاثة جسيمات أساسية هي الإلكترونات والبروتونات والنترونات ، فلما تطورت أجهزة الرصد العلمي الدقيقة ، ولا سيما منها مُعَجِّلات الجسيمات الذرية(*Particle Accelerator Stationary State*) فائقة القدرة تبين أن الذرة تضم أكثر من مائة نوع من الجسيمات الدقيقة ، وليس ثلاثة أنواع فقط ، وبهذا اكتشف العلماء أنَّ ما يجهلونه هو أكثر بكثير مما يعلمونه ، وقد وصف بعضهم هذه الحالة وصفًا لا يخلو من النقد والطرافة فقال : (لقد توصل العلماء أخيرًا إلى جهلهم !) ووصف الله ﷻ هذه الحالة بقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، وسوف يبقى هذا الوصف الإلهي صحيحًا وملازمًا للعلم البشري حتى آخر الزمان ، فمهما اكتشف الناس من أسرار هذا الوجود ، ومهما حصّلوا من العلم ، فإن علمهم سيبقى قاصرًا ضئيلًا محدودًا أمام عظمة هذا الوجود الذي لا يحيط بدقائقه وتفاصيله إحاطة علمية كاملة إلّا خالقه ومبدعه ومصوره .. سبحانه .

---

(1) كاتي كوب ، هارولد جولد وايت : إبداعات النار ، (ص ٢٧) ، مصدر سابق .

ونرى من المناسب هنا أن نورد قصة نبي الله موسى ﷺ مع العبد الصالح ﷺ التي حكاها القرآن الكريم بالتفصيل في سورة الكهف ؛ إذ تروي كتب التفسير أنهما بعد أن انتهيا من تلك الرحلة الطويلة الشيقة ، وبعد أن كشف العبد الصالح لموسى ﷺ عن جوانب عديدة من المعارف التي كان موسى يجهلها تمامًا ، وجلس الاثنان على شاطئ البحر يستريحان من عناء الرحلة ، شاهدا طائرًا يهوي إلى الماء فينقر بمنقاره بضع قطرات ثم يعاود طيرانه من جديد ، وعندها التفت العبد الصالح إلى موسى وسأله : ترى ما الذي نقص هذا الطائر من هذا اليَمّ ؟ فرد موسى : لا شيء . فقال العبد الصالح : إن علمي وعلمك وعلم الأولين والآخرين أمام علم الله ﷻ لا يزيد عما نقره هذا الطائر من هذا اليمّ .

تطور العلم :

يقوم العلم في جوهره على منهج متكامل من القواعد ، فهو يبدأ برصد الظاهرة التي نود دراستها ، ثم وضع (الملاحظات) الأَوَّلِيَّة عنها ، يلي ذلك وضع (الفرضيَّات) التي نحاول من خلالها فهم الظاهرة أو تعليل أسبابها وتحديد العوامل التي تتعلق بها ، معتمدين في هذا كله على خبراتنا ومعلوماتنا السابقة ، ثم ننتقل إلى عمليات الرصد الدقيق والقياس والتجارب العملية لاختبار صحة فرضياتنا ، وبعد ذلك نبدأ بتحليل النتائج وتنقيح الفرضيات لننتهي من ذلك إلى صياغة (النظرية) التي نحدد بها طبيعة الظاهرة تحديدًا دقيقًا ، ونضع لهذه النظرية المعادلات والقوانين التي نستطيع من خلالها تسخير الظاهرة والاستفادة منها في التطبيقات العملية .

وقد كان للمسلمين في عصرهم العلميّ الزاهر الفضل الأول بوضع هذا (المنهج التجريبي) الذي شكّل نقلة متميزة في تاريخ العلم [1] ؛ إذ نقله من طور الظن والتخمين والفرضيات والوهم إلى طور الرصد الدقيق ، والتجريب العملي الذي يمكن من خلاله اكتشاف قوانين الطبيعة وفهمها فهمًا دقيقًا ، وقد دفع هذا المنهج التجريبي عجلة العلم دفعة قوية إلى الأمام ، وأسفر في سنوات معدودات عن عدد هائل من الاكتشافات التي يفخر بها تاريخ العلم عند المسلمين .

---

(١) انظر : د.فؤاد زكريا (التفكير العلمي) (ص ١٦٤ - ١٧٢) .



(لقد أسس المسلمون المنهج التجريبي الذي دفع العلم دفعة قوية إلى الأمام)

ويلاحظ أن تطور العلم عبر التاريخ لم يكن تطورًا منتظمًا في الزمان والمكان ، فقد تخلله فترات من التقدم السريع مع فترات أخرى من الركود ، وأحيانًا الانحلال ، وعلى مر الزمان كانت مراكز النشاط العلمي تنتقل من مكان إلى مكان مقتفية في هجرتها بؤر النشاط التجاري والصناعي ، فكانت بابل ومصر والهند بؤرة للعلم القديم ، ثم صارت اليونان هي الوريث المشترك لها جميعًا ، وفي اليونان وضعت للمرة الأولى القاعدة العقلانية للعلم كما نعرفها اليوم .. ولم يكن هناك مكان للعلم في روما ولا لدى الممالك البربرية في أوروبا الغربية ، أمَّا إرث اليونان فقد عاد إلى الشرق من حيث أتى ، ففي سوريا وفارس والهند ، وحتى في بلاد الصين النائية ، اهتزت خفقات جديدة بالعلم ، وتجمعت في نسيج عبقري تحت راية الإسلام .

ومن هذا المصدر دخلت العلوم والتكنولوجيا إلى أوروبا الوسطى حيث طرأ عليها تطور ، وإن كان بطيئًا في أول الأمر ، إلَّا أنه أدى إلى الطفرة العظيمة للنشاط الخلاق الذي تمخضت عنه الثورة الحالية في العلم الحديث [1] .

وقد كانت روما القديمة هي مركز المرحلة الأولى ، حيث تأسست مجموعة من العلوم الأساسية ، منها علم الميكانيكا الذي وضع أُسُسَهُ العلمية (ليوناردو دافنشي) [2] ، وعلم

---

(١) ج.د.برنال : العلم في التاريخ ،(١/ ٨) .

(٢) ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ ـ ١٥١٩م) رسام ونحات ومهندس معماري وموسيقي إيطالي ، كان أشبه بموسوعة علمية فنية فريدة تضم كل شيء ، بلغ القمة في إتقانه للرسم حتى أصبح في طليعة فناني عصر النهضة ، وترك

التشريح الذي أسسه فاسالياس ، وعلم الفلك الذي أسَّسَهُ (كوبرنيكوس)[1] .

أمَّا المرحلة الثانية فتمتد إلى البلاد المنخفضة وفرنسا وبريطانيا ، مبتدئة بالفيلسوف بيكون والعالمين جاليليو ونيوتن .

وقد أسفرت هذه المرحلة عن وضع نموذج رياضي ميكانيكي للعالم .

وبعد فترة بدأت مرحلة ثالثة كان مركزها فرنسا الثورية وبريطانيا التي كانت قد قطعت شوطًا بعيدًا في تطوير الصناعة .

وقد شهدت هذه المرحلة اكتشاف الطاقة الكهربائية التي تعد أحد أهم الاكتشافات العلميَّة على مدار التاريخ ؛ لأنها مكَّنت الإنسان بجدارة من تطوير الإنتاج الصناعي والآلات والأجهزة الأوتوماتيكية ، وأسفرت عن عدد هائل من المخترعات والمكتشفات اللاحقة ، أمَّا رابع المراحل وأكبرها حجمًا وأثرًا ، وإن لم تكن أكبرها في الإنجاز الأصيل ، فهي مرحلة الثورة العلمية التي تفجرت في أوائل القرن العشرين ، وشكلت نقلة فريدة في تاريخ العلم ؛ إذ حولته من علم محلي إلى علم عالمي ، وأصبحت الاكتشافات والتطبيقات العلميَّة في هذا القرن ذات صبغة كونية يستفيد منها الجنس البشري كله في وقت واحد[2]

ولعل أبرز الأمثلة على هذه النقلة شبكات الاتصال والمعلومات التي ربطت العالم كله بعضه ببعض ، وقربت المسافات بين الأمم ، وألغت الحدود ، وحولت كوكب الأرض إلى قرية صغيرة (انظر فصل : القرن العشرين ، وانظر أبرز الإنجازات العلمية عبر التاريخ في الجدول آخر الكتاب) .

بحوثًا مهمة جدًّا في عدة مجالات علمية ؛ منها الهيدروليك والميكانيك والتشريح والجيولوجيا والنبات ، ووضع تصاميم جيدة للطائرة ولعدد من الآلات الحربية التي صممت بعد عصره بزمن طويل ، فكان بهذا سابقًا لعصره .

(1) نيكولاس كوبرنيكوس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م) : عالم فلك بولوني ، هو أول من صاغ في كتابه « في ثورات الأجرام السماوية » نظرية مركزية الشمس وأن الأرض جرم يدور حولها ، فأحدث بذلك ثورة ليس في علم الفلك وحده بل في بقية العلوم كذلك ، فقد شجعت آراؤه العلماء والباحثين على تحدي القوانين السائدة ، وتقديم الحلول للمعضلات التي لا سند لها .

(2) ج.د.برنال : العلم في التاريخ ، مصدر سابق (بتصرف) .



(نيكولاس كوبرنيكوس)

وقد ساعد على تحقيق هذه الإنجازات العلمية العظيمة في العصور الحديثة عوامل عدة ، منها تفرغ أعداد أكبر فأكبر من العلماء للبحث العلمي ، وتحول العمل في المختبرات ومراكز البحث من الأسلوب الفردي التقليدي إلى أسلوب عمل الفريق(*Team Work*) ، وإنشاء الجمعيات العلمية ومراكز البحث العلمي التي ساهمت بتوفير المناخ المناسب للباحثين .

وقد أُنشِئَتْ أول جمعية علمية في فلورنسا بإيطاليا عام (١٦٥٧م) ، ولكن البداية الحقيقية للجمعيات العلمية بكل مقوماتها الحديثة كانت هي الجمعية الملكية في لندن عام (١٦٦٢م) ، ومنذ ذلك الحين تعاقبت الجمعيات بسرعة ، فأنشئت الأكاديمية الفرنسية في باريس عام (١٦٦٦م) ، ثم أكاديمية سان بطرسبورغ الروسية عام (١٧٢٩م) ، وأكاديمية برلين في عام (١٧٤٤م) ، وبفضل هذه الجمعيات العلمية الرائدة لم يتحقق مبدأ العمل الجماعي والتخطيط المنظم في العلم فحسب ، بل إن إنشاءها دعم مبدأ رعاية الدولة للعلماء وإنفاقها على أبحاثهم [1] .

ومن جرّاء هذا التحول راح عدد المشتغلين بالعلوم والمتفرغين للبحث العلمي في العالم يتزايد باطراد ، حتى وصل في أواخر القرن التاسع عشر إلى أكثر من (١٥,٠٠٠ باحث) ثم قفز هذا العدد في منتصف القرن العشرين قفزةً هائلةً حتى وصل إلى أكثر من (مليون باحث) ،

---

(١) د. فؤاد زكريا : التفكير العلمي ، (ص ١٧٨) .

وارتفعت ميزانيات البحث العلمي في الفترة نفسها من (مليون دولار) إلى أكثر من (٢٠ مليار دولار) ، أي إنها تضاعفت أكثر من (٢٠,٠٠٠ مرة) ، أمّا حجم المعرفة البشرية الذي كان في الماضي يحتاج إلى مئات السنين لكي يتضاعف ، فقد أصبح في أواسط القرن العشرين يتضاعف كل (١٠ ـ ١٥ سنة) ثم أصبح في أواخر القرن العشرين يتضاعف كل (٥ سنوات)[1] .

كما حصلت في العصور الحديثة تحولات مهمة في مراكز البحث العلمي ساهمت بإثراء البحث في مختلف العلوم ، فقد كان البحث العلمي حتى أواخر القرن التاسع عشر حكرًا على أوروبا وحدها تقريبًا وبخاصة منها بريطانيا وألمانيا وفرنسا ، أمّا بقية مراكز العلم في قارتي أوروبا وأمريكا فكانت مجرد فروع ثانوية للمراكز الأوروبية ، ولم تكن هذه المراكز الفرعية تضيف إلى حصيلة العلم إلّا النزر اليسير ، ومع إطلالة القرن العشرين بدأت مراكز العلم تنداح بقوة متجهة إلى مواقع جديدة من هذا العالم ، ولا سيما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي واليابان والصين وغيرها ، مما أضفى على العلوم في القرن العشرين سمة عالمية .

أضف إلى هذا ما حصل في العقود الأخيرة من تحولاتٍ جذريةٍ في أساليب العمل العلمي ، ولا سيما منه تفرغ عدد كبير من العلماء للبحث العلمي ، إلى جانب التنسيق والتعاون بين مراكز البحث العلمي المختلفة في العالم ، مما اختصر الزمن اللازم للانتقال من المرحلة النظرية إلى مرحلة التطبيق العملي ، وعلى سبيل المثال فإن الانتقال من المرحلة النظرية للتصوير الضوئي (*Photography*) ، إلى التطبيق الفعلي استغرق زهاء ١١٢ عامًا (١٧٢٧ ـ ١٨٣٩م) ، أي أكثر من قرن من الزمن ، ونجد في المقابل أن تفجير القنبلة الذرية التي هي أشد تعقيدًا من التصوير الشمسي بما لا يقاس ، لم يستغرق سوى ست سنوات فقط (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) .

ومثال آخر .. فإن الطائرة البسيطة المتواضعة التي اخترعها الأخوان رايت في عام (١٩٠٣م) التي طارت لمسافة قصيرة لم تتعدى مائتي متر ، وكانت تقفز عن الأرض ثم تعود لتحط عليها كالجرادة ، قد تطورت في غضون سنوات قليلة لتصبح طائرة جبّارة تحمل مئات الركاب ، وسريعًا ما تحولت هذه الطائرة إلى صاروخ هائل الحجم لم يلبث

---

(١) انظر : المصدر السابق ، (ص ٢٠٩) .

أن حل أول رائد فضاء إلى سطح القمر (الأمريكي آرمسترونغ واثنين من زملائه ، عام (١٩٦٩م) وقد حصلت هذه التطورات التي تجاوزت حدود الخيال في غضون نصف قرن من الزمان لا أكثر !

ومن العوامل المهمة التي ساهمت مساهمةً كبيرةً في تحقيق هذه الإنجازات العلمية العظيمة ، أن العلماء خلال القرون الأخيرة تمكنوا بجدارة من المزاوجة ما بين الفكر النظري والتطبيق العملي فيما اصطلح على تسميته باسم التقانة (*Technology*) ، التي حققت لنا في سنوات قليلة ما لم يستطع أجدادنا تحقيقه في دهور ودهور ، وقد أدخلتنا هذه التقانة مرحلة جديدة جعلتنا أكثر تفاؤلًا بإمكانية تحقيق الكثير من أحلامنا المستقبلية الواعدة ، ليس بعيدًا في المستقبل ، بل في غضون العقود القليلة القادمة (انظر فصل : آفاق المستقبل) .





(الأخوان رايت ، وطائرتهما البدائية التي حلقت بنجاح لأول مرة في عام ١٩٠٣م)

إننا مقبلون حقًا على تطورات تفوق الخيال ، ولم يعد بعيدًا عنا ذلك اليوم الذي سوف نتمكن فيه من التصرف بالمادة والطاقة على نحو يتيح لنا تسخير العالم من حولنا بسهولة ويسر ، وعندئذ سوف تدخل آلاتنا الحالية وأجهزتنا المعقدة متحف التاريخ ؛ لأننا يومئذٍ سنكتفي بتوجيه أوامرنا للأشياء شفاهة على طريقة الحكاية الأسطورية .. حكاية علي بابا : (افتح يا سمسم !) ، فيتم لنا ما نريد ، وعندئذٍ نكون قد خطونا الخطوة الحاسمة نحو تحقيق مضمون الآية الكريمة : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

الإنجازات العلمية الحاسمة :

ونعني بها الإنجازات العلمية التي كان لها تأثير جذري وعميق على حياة الإنسان ، وعلى علاقات البشر بعضهم ببعض ، وقد حقق العلم عبر تاريخه الطويل الكثير من هذه

الإنجازات التي ظهر بعضها في وقتٍ مبكرٍ من تاريخ البشرية ، في أزمنة وأمكنة متباعدة (انظر الجدول ـ ٢٠) .

وعلى الرغم من حداثة تلك الإنجازات في مطلع التاريخ البشري ، فقد كانت وما زالت مؤثرة تأثيرًا كبيرًا في حياتنا إلى اليوم ، ومنها على سبيل المثال اكتشاف النار وتسخيرها ، فقد شكلت النار في القديم مصدرًا مهمًّا من مصادر التدفئة ، وأنقذت الإنسان من الموت بسبب البرد والصقيع ، وبخاصة عندما كان يعيش في العراء أو في الكهوف والغابات ، كما أن النار غيرت أسلوب طعامه وشرابه ، فأصبح يستخدمها في الطهي وتسخين الطعام ، كما أن النار ساعدت الإنسان في مقاومة الوحوش التي تخاف النار وتخشاها ، وأضافت النار إلى قوة الإنسان العضلية قوة جديدة ساعدته في حروبه ودفع أعدائه ، وفي تاريخ العلم يعد استخدام الإنسان للنار في طهي الطعام أول تفاعل كيميائي عرفه الإنسان [1] . وقد عمل بعد ذلك على استخدامها في أغراض لا حصر لها في الصناعة وغيرها .. وبهذا شكَّل اكتشاف النار واستخدامها من قبل الإنسان نقلة نوعية فريدة في التاريخ البشري .

أمَّا اكتشاف الكتابة والأبجدية ، فقد ساهم مساهمةً أساسيةً في حفظ التراث البشري ، وتناقل العلم والفكر والتواصل بين البشر عبر هذه الوسيلة الجديدة ، وساهم في تراكم المعارف البشرية التي لولاها لما أمكن حصول أي تطور في العلم ، كما أن الأبجدية جعلت الكتابة أيسر وأسهل ، وكذلك عملية التعلم والتعليم .

وساهم اكتشاف الزراعة باستقرار البشر في الأرض ، وتشكيل المجتمعات البشرية ، وبناء المدن والحضارات ، أمَّا اكتشاف العجلة أو الدولاب فقد أدى إلى تحسين وسائل التنقل ، وساعد الإنسان في نقل متاعه وبضائعه ، ولا خلاف بأن الدولاب يعد أهم اختراع في تاريخ العلم ؛ لأنه شكَّل الأساس في مختلف الآلات ومعظم الأجهزة التي ظهرت فيما بعد .

وهكذا كان لكلٍّ من الاكتشافات والاختراعات القديمة ـ على قلتها ـ أثر واسع وعميق في حياة الإنسان ، وقد تطورت الأمور سريعًا في العصور الحديثة بعد أن تضافر العديد من المخترعات والمكتشفات ، وتوافرت القاعدة التقنية الكافية ذات الكفاءة العالية ، فأصبحت الإنجازات العلمية أيسر وأسرع كثيرًا عما كانت في الماضي ، وقد بلغ التقدم العلمي في القرن العشرين - بخاصة - أوج تقدمه وتطوره ونشاطه ، وتمخض عن عدد هائل من

---

(١) كاتي كرب ، هارولد جولد وايت : إبداعات النار ، (ص ١٤) ، مصدر سابق .

الإنجازات العلمية التي جعلت القرن العشرين محطة فريدة في تاريخ العلم (انظر فصل : القرن العشرين نقلة تاريخية حاسمة) ، وغيرت صورة العالم حتى غدا عالمًا غريبًا عجيبًا يخلب الألباب ، ويجعل الحليم حيران ، ولو قدِّر لشخص مات قبل قرن واحد من الزمان فقط أن يعود اليوم إلى الحياة ليشهد ما الذي فعله العلم في حياتنا لما صدق عينيه ، ولربَّما أصيب بالجنون من هول ما يسمع ويرى ، وأنَّى لعقله ـ الذي تشكل في عصر لم يعرف الكهرباء والذرة والصاروخ والطائرة والكمبيوتر والتلفزيون ـ أن يستوعب هذه النقلة العلمية المذهلة التي دبَّت في كل شيء ، وأبدعت آلات وأجهزة ووسائل تتحرك تلقائيًّا ، أو توجه عن بُعد .. إنه دون ريب سوف يظن ذلك كله من عمل الجن والعفاريت !

(الجدول ـ ٢٠) أهم الإنجازات والاكتشافات العلمية عبر التاريخ

التاريخ	الحدث	الموقع	ملاحظات
(٨٠٠,٠٠٠ ق.م)	استخدام النار	؟	أعانت الإنسان على طهي طعامه ، والرؤية في الظلام ، ودفع الوحوش عنه .
(١٥,٠٠٠ ق.م)	الكتابة والرموز البدائية		مكنت من حفظ العلوم وتبادل الخبرات بين الأجيال المتلاحقة .
(٨٠٠٠ ق.م)	بداية العصر الزراعي	أريحا (فلسطين)	أعانت الإنسان على الاستقرار في الأرض وبناء حضاراته .
(٥٠٠٠ ق.م)	العجلة (الدولاب)	؟	أعانت الإنسان على الحركة والتنقل ونقل متاعه .
(٤٠٠٠ ق.م)	الميزان	بلاد ما بين النهرين	ساعد في ضبط العلاقات التجارية .
(٣٠٠٠ ق.م)	الزجاج	سوريا	ساهم في صناعات كثيرة .
(٢٠٠٠ ق.م)	الساعة الشمسية	مصر	ساعدت في ضبط الوقت وتنظيم الأعمال .
(٨٥٠ ق.م)	البارود	الصين	غيَّر مسار الحروب ووسائلها .
(٧٠٠ ق.م)	سك النقود	آسيا الصغرى (تركيا)	ساهم في تسهيل التبادل التجاري .
(٢٥٠م)	العربة	الصين	سهلت تنقل البشر ونقل متاعهم وبضائعهم وتقريب المسافات بينهم .

(١٠٣٠م)	العدسات	العرب المسلمون	ساهمت في اختراع التلسكوب والمجهر .
(١٢٥٠م)	المنهج التجريبي	العرب المسلمون	نظم طرائق البحث العلمي .
(١٤٥٠م)	المطبعة	ألمانيا	سهلت نشر الكتب والمطبوعات .
(١٥٩٠م)	المجهر (ميكروسكوب)	هولندا	كشف لنا عالم الدقائق الصغيرة ، وساهم في تطوير الطب وكثير من الصناعات الأخرى .
(١٥٩٣م)	ميزان الحرارة	إيطاليا	ساهم في تطوير العديد من العلوم .
(١٦٠٨م)	المقراب (تليسكوب)	إيطاليا	كشف عالم الأجرام السماوية .
(١٦٢٥م)	الغواصة	هولندا	ساعدت في كشف أسرار البحار .
(١٦٤٢م)	الآلة الحاسبة	فرنسا	يسرت الأعمال الحسابية ، وساهمت بتطوير الحواسب الإلكترونية فيما بعد .
(١٧١٤م)	الآلة الكاتبة	إنكلترا	ساهمت بنشر المطبوعات وتطوير المطابع الحديثة .
(١٧٥٢م)	الكهرباء	الولايات المتحدة	دفعت الصناعة دفعة قوية ، وساهمت بتطوير وسائل الإنتاج .
(١٧٦٩م)	المحرك البخاري	إسكتلندا	أحدث ثورة في المواصلات والصناعات .
(١٧٩٨م)	اللقاحات	إنكلترا	ساهمت في مكافحة زمرة واسعة من الأمراض السارية .
(١٨٢٢م)	التصوير الفوتوغرافي	فرنسا	كان البداية لثورة الصورة (السينما والتلفزيون والكمبيوتر ..) .
(١٨٥٩م)	اكتشاف البترول	الولايات المتحدة	أحدث ثورة في وسائل النقل والصناعة .
(١٨٧٥م)	الهاتف	الولايات المتحدة	أحدث ثورة الاتصالات وقرّب العالم بعضه من بعض .

(١٨٧٩م)	المصباح الكهربائي	الولايات المتحدة	أضاء العالم ، وساهم بزيادة الإنتاج من خلال زيادة ساعات العمل .
(١٩٠٠م)	اكتشاف الزمر الدموية	النمسا	أنقذ ملايين الأرواح .
(١٩٠٣م)	الطائرة	الولايات المتحدة	أحدثت ثورة للمواصلات السريعة .
(١٩٠٤م)	الخلية الكهروضوئية	ألمانيا	أحدثت ثورة في استغلال الطاقة ، واختراع التلفزيون والكمبيوتر .
(١٩٠٦م)	الراديو	الولايات المتحدة	أحدث ثورة إعلامية بالصوت .
(١٩١٣م)	الروبوت	الولايات المتحدة	ساهم بتطوير الكثير من الصناعات ، وخفّف عن الإنسان أعباء الكثير من الأعمال الشاقة .
(١٩١٤م)	الصاروخ	ألمانيا	مكن الإنسان لأول مرة من الخروج إلى العوالم الأخرى خارج الأرض .
(١٩٢٦م)	التلفزيون	إنكلترا	ثورة إعلامية بالصوت والصورة .
(١٩٣٩م)	المجهر الإلكتروني	ألمانيا	كشف لنا أسرار عالم الدقائق المجهرية التي لا ترى بالمجهر الضوئي العادي .
(١٩٤٣م)	الكمبيوتر	إنكلترا	أحدث ثورة معلوماتية ويسر الكثير من الأعمال ، واختصر الزمن .
(١٩٤٤م)	اكتشاف الحامض النووي DNA المسؤول عن الوراثة	الولايات المتحدة	كشف لنا أسرار الوراثة ومكننا من التدخل في تصحيح التشوهات الوراثية ، ومعالجة الكثير من الأمراض .
(١٩٤٥م)	تفجير الذرة	الولايات المتحدة	زودنا بقوة حربية خارقة غيرت موازين القوى في العالم ، وساهم في تحقيق أغراض سلمية عظيمة .

(١٩٤٧م)	الترانزستور	الولايات المتحدة	ساهم في تصغير حجم الآلات الكهربائية ، وزاد كثيرًا من طاقتها وكفاءتها .
(١٩٦٠م)	حبوب منع الحمل	الولايات المتحدة	مكننا لأول مرة في التاريخ من التحكم بالحمل .
(١٩٧٨م)	تقنية طفل الأنابيب	إيطاليا	ساهمت لأول مرة بعلاج حالات من العقم كانت ميؤوس من علاجها .
(١٩٩٨م)	الاستنساخ	إسكتلندا	ينطوي على آمال كبيرة بعلاج بقية حالات العقم التي لا تعالج بالطرق التقليدية ، وعلاج الكثير من الأمراض الميؤوس من شفائها ، وتطوير زراعة الأعضاء .

وبعد ، فما من شك بأن الإنجازات العلمية الحاسمة التي شهدها التاريخ قد أثرت تأثيرًا حاسمًا في حياة البشر ، ليس على الصعيد الاجتماعي فحسب ، بل على مختلف الأصعدة ، وبخاصة منها الصعيد السياسي ، فمع كل اكتشاف أو اختراع أو إنجاز حاسم كان ميزان القوى يميل لصالح الجهة التي أنجزته ، وهكذا مضت الحال على مدار التاريخ ، إلى أن استقر الميزان في عصرنا الراهن لصالح (الغرب) بزعامة الولايات المتحدة التي كادت تنفرد بأكبر الإنجازات العلمية ابتداءً من النصف الثاني من القرن العشرين ، وهذا ما جعلها تتزعم قيادة العالم ، وتغدو القطب الوحيد الذي يدور مصير العالم من حوله !

وفي هذا درس كبير ينبغي أن نتعلمه من تاريخ العلم ، فقد ولَّى إلى غير رجعة عصر الزعامة التي كانت في الماضي تعتمد على القوة العضلية ، أو المكانة الاجتماعية ، أو زعامة القبيلة ، أو غيرها من أشكال القوة المادية ، وأصبحت الزعامة والقيادة اليوم حكرًا على الذين يمتلكون الرصيد الأكبر من العلم ، وصدق الله العظيم الذي يبين في كتابه الكريم ما للعلم من مكانة عظيمة ، فيقول : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .

العلم والحرية :

ذكرنا في فصل سابق (فصل : سنن الوجود) أن الكون الذي نعيش فيه محكومٌ بمجموعة من السنن الإلهية ، وأن هذه السنن تشكل حواجز تقيد حركة الإنسان وتحد من حريته ، إلّا أن هذه الحواجز ليست مطلقة بل هي قابلة للتسخير ، ولكن بشرط أن نكتشفها ونهيء الظروف اللازمة لها ، ونضرب على هذا مثلًا قوله تعالى : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمن : ٣٣] .

فهذه الآية تشير إلى أن نفاذ الإنسان من أقطار السماوات والأرض هو أمر ممكن ، ولكنه يحتاج إلى (سلطان) فما هو هذا السلطان ؟ لقد اختلف المفسرون قديمًا بتحديده ، حتى جاء العصر الحديث الذي عرفنا فيه سنن الطيران ، هذه السنن التي مكنتنا من النفاذ من أقطار السماوات والأرض ، وأوصلت مركباتنا إلى بعض الكواكب والسيارات البعيدة ، وأتاحت لنا لأول مرة في التاريخ أن نحطَّ على سطح القمر (عام ١٩٦٩م) ، وما كان لنا أن نحقق هذه القفزة العلمية الكبيرة لولا علمنا الدقيق بالسنن التي يتطلبها ارتياد الفضاء والسفر بين الكواكب ، وبهذا العلم أو السلطان اكتسب الإنسان هامشًا أوسع من الحرية تعدى به حدود الأرض إلى عوالم جديدة ، وازداد تمكينًا في هذا الوجود !

ويمكن أن نزيد هذه الفكرة وضوحًا بمثال آخر ، فلو أعطينا إنسانًا بدائيًّا سيارة ، وهو بطبيعة الحال لا يعرف شيئًا عن طبيعة السيارة وكيفية عملها ، ولا يعرف الغرض الذي من أجله صنعت ، فماذا يكون موقفه منها يا ترى ؟ إنه كما نتوقع سيقف أمامها حائرًا عاجزًا لا يدري ما يصنع بها ، وربما فرَّ مذعورًا من شكلها وأصواتها الغريبة متصورًا أن فيها عفاريت من الجان ، وفي أحسن الأحوال قد يستخدمها مأوى لدجاجاته ، أي إنه لن يستفيد أبدًا من هامش الحرية التي يمكن أن توفرها له هذه السيارة ، على النقيض من الشخص الذي يعرف ما هي السيارة ، ويعرف قوانين تشغيلها ، ويجيد قيادتها ، فإنه سيتصرف بها على نحوٍ مختلف تمامًا ، وسوف يستخدمها بسهولة ويسر في تنقلاته ، ويوفر على نفسه الكثير من الوقت والجهد ، ويكسب هامشًا واسعًا من الحرية !

وعلى هذه الشاكلة يمكن أن نفهم العلاقة الطردية بين العلم والحرية ، تلك العلاقة التي عبَّر عنها أحد الفلاسفة بقوله : (لا حرية لمن لا يعلم !) ، فالإنسان يكسب المزيد من الحرية في هذا العالم كلما ازداد علمه ، ولقد ظلَّ الإنسان لأحقابٍ طويلةٍ عبدًا للطبيعة ،

وذلك في مطلع وجوده على ظهر هذه الأرض ، حين وجد نفسه فجأة أمام عالمٍ مجهولٍ لا يعلم عنه شيئًا ، تمامًا مثل صاحبنا الذي وقف حائرًا أمام السيارة ، ولكن الإنسان - بما حباه الخالق ﷻ من قدراتٍ عقليةٍ وبدنيةٍ متميزةٍ عن بقية الخلق - لم يقف مكتوف اليدين ، بل بدأ يفكر ويبحث ويتعلم حتى اكتشف الكثير من أسرار هذا العالم ، وبدأ يتحرر يومًا بعد يوم من أغلال تلك العبودية ، ويكتسب المزيد من الحرية حتى سيطر على مقدرات الأرض ، ولم يكتف بهذا ، راح يرنو بعقله وبصره إلى العوالم البعيدة ، باحثًا عن مساحات جديدة من الحرية .



(لقد بدأت رحلة الإنسان إلى العوالم الأخرى البعيدة ، وحتمًا قليل سيصبح من سكان السماوات)

وقد بات واضحًا للعيان اليوم أن الذين يملكون العلم هم الذين يملكون العالم ، وهم الذين يتحركون بحريةٍ تامةٍ ليس في الأرض وحدها بل في الفضاء أيضًا ، ويفرضون على الآخرين قيمهم وأعرافهم وقوانينهم ، حتى أمسى الآخرون كالعبد بين يدي سيده . ونظرًا لهذه السطوة التي يحققها العلم لأصحابه ، فقد أصبحت الاكتشافات العلمية اليوم من أكثر الأسرار التي تحرص الدول المتقدمة على كتمانها ، وتعتبرها جزءًا من أمنها القومي . ومن هنا ندرك بُعدًا جديدًا من أبعاد (العلم) فكلما أفلحت أمة من الأمم بإحراز المزيد من العلم كلما ازدادت مساحة حريتها وتمكينها في الأرض ، على النقيض من حال الأمم التي قصّرت في تحصيل العلم ولم تعطه ما يستحقه من العناية والاهتمام ، فباتت في آخر القافلة ، وضاقت عليها الأرض بما رحبت !

ويبقى أن نشير الآن إلى الصورة المقابلة لما قدمناه ، فقد انتهينا إلى أن العلم يوفر لنا مساحة أرحب من الحرية ، أو بمعنى آخر فإن الحرية تحتاج إلى العلم ، فهل يحتاج العلم بالمقابل إلى الحرية ؟ والجواب قطعًا : أجل .. فالعلم لا يمكن أن ينمو في البيئات المنغلقة

التي لا تقيم وزنًا للحرية ، أو البيئات التي تمارس التضييق على العلم والعلماء تحت ذرائع مختلفة ، كما حصل مثلًا في القرون الوسطى من تضييق الكنيسة في أوروبا على العلماء بدعوى أن ما جاؤوا به يخالف ما جاء به الكتاب المقدس ، مما أدى إلى عرقلة عجلة العلم هناك ردحًا طويلًا من الزمان (انظر فصل : تاريخ الصراع) بينما كان العلماء المسلمون يعيشون أزهى عصورهم بما توفر لهم آنذاك من حرية .

ففي الوقت الذي كان فيه العالم الإيطالي الشهير (جاليليو جاليلي) [1] ، يحاكم من قبل الكنيسة ، ويهدد بالإعدام لقوله بكروية الأرض ودورانها حول الشمس كان العلماء المسلمون في بغداد يقيسون محيط الأرض التي انتهوا منذ مدة طويلة إلى القول بأنها كروية ، وأنها هي التي تدور حول الشمس وليس العكس ، إلى آخر هذه المسائل العلمية التي صارت عند المسلمين مسلّمات علمية لا تقبل الجدل قبل أوروبا بعدة قرون .

وهذا ما اعترف به مؤرخو الغرب الذين قال قائلهم : (بينما كان المتعلمون من رجال الكنيسة يضيعون زمنهم ومواهبهم في الأديرة ، ويخلطون المعرفة بأحلام اليقظة العاطلة ، والسفسطة الجدلية ، كان العلماء العرب يقيسون درجات خطوط العرض ، ويحسبون محيط الكرة الأرضية ، في السهول الشاسعة لبلاد ما بين النهرين) [2] .

العلم والأخلاق :

وعلى الرغم مما شهده التاريخ ، وما زال يشهده بين الحين والآخر ، من تعارض وجدل شديد حول بعض المسائل العلمية ، ما بين العلماء من جهة وأهل الدين ودعاة الأخلاق من جهة أخرى ، فإن هؤلاء وأولئك تواضعوا حتى الآن على الكثير من الضوابط التي تستهدف تقنين البحث العلمي وبيان حدود الحرية فيه ، ولن نخوض هنا في تفاصيل هذه الضوابط ، ولكن حسبنا أن نتوقف عند بعض الملاحظات المهمّة التي نود التذكير بها قبل الخوض في بيان العلاقة ما بين البحث العلمي والدين والأخلاق :

١- أن معظم الباحثين على مرّ العصور لم يكونوا يحفلون بالحدود المتعارف عليها دينيًا ولا قانونيًا ولا أخلاقيًا ، فكانوا في الماضي يسرقون جثث الموتى من المقابر لتشريحها ودراسة

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) أدريان بيري : الخمسمائة عام القادمة ، (ص ٢٥٩) ، مصدر سابق [عن : واشنطون إرفنج (حياة ورحلات كرستوفر كولمبس) مجلد ١/ ٢٥] .

تركيب الجسم البشري ، إذ لم تكن القوانين ولا الأعراف ولا الأديان تبيح التشريح وقتذاك ، وما زال هذا السلوك غير المنضبط هو ديدن الباحثين في كثير من بقاع الأرض حتى اليوم ، وهناك اليوم مراكز بحث سرية عديدة في العالم تجرى فيها تجارب وأبحاث لم تأذن بها القوانين ولا الأعراف ولا الأديان بعد ، مثل تجارب الاستنساخ البشري ، حتى إن عالم التناسل والإنجاب (سيفيرينو أنتوري) [1] ، صرَّح في عام (٢٠٠١م) أنه لو مُنع قانونيًّا من متابعة تجاربه لاستنساخ البشر فسوف يجريها في عرض البحر خارج المياه الإقليمية ، وخارج جميع القوانين . ولا بد من الإقرار هنا بأن هذا الموقف من الباحثين - على ما فيه من جنوح وتجاوز للأعراف الأخلاقية والدينية - قد أتاح لكثير من الكشوف والإنجازات العلمية أن ترى النور وأن تقدم للبشرية خدمات جليلة كانت ستحرم منها لو أن الباحثين التزموا بتلك الحدود وتوقفوا عن الخيال والحلم والبحث والتجريب .

٢- أن الحدود التي كان يُطلب من العلماء أن يتوقفوا عندها أثبتت الأيام أنها في الغالب حدود واهية أو موهومة لا تقوم على أسس علمية قوية ، أو أنها تستند إلى تأويلات غير دقيقة للنصوص الدينية ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، قديمًا وحديثًا ، نذكر منها : موقف الكنيسة في أوروبا في العصور الوسطى من قضية دوران الشمس والأرض بحجة أن أقوال العلماء تخالف ما جاء في الكتاب المقدس ، وتحريم فقهاء المسلمين الأوائل لتشريح جثث الموتى من البشر بحجة أن فيه تمثيلًا وإهانة للميت ، وكذلك تحريم بعض الفقهاء في العصر الحديث عمليات نقل الدم ، وزراعة الأعضاء ، وطفل الأنابيب والاستنساخ ..

٣- أن الموقف الأخلاقي للمجتمع كان يتغير بمرور الوقت لصالح العلماء ، فالذين سارعوا لمعارضة بعض الإجراءات الطبية التي ذكرناها آنفًا عادوا بعد حين فأباحوها عندما لمسوا فوائدها الجمة .

---

(١) سيفيرينو أنتوري.(١٩٤٥م) : طبيب إيطالي معاصر ، تخصص في أمراض النساء والولادة وعلم الأجنة ، وابتكر في عام (١٩٨٦م) طريقة جديدة رائدة هي حقن النطاف في البويضة لتلقيحها *(Intracytoplasmic Sperm Injection)* وفي عام (١٩٩٤م) جعل امرأة في سن اليأس عمرها ٦٣ سنة تحمل وتلد لأول مرة في تاريخ الطب ، فنال شهرة عالمية واسعة ، وهو اليوم من أشد المتحمسين للاستنساخ البشري .



(الاستنساخ يحمل آمالًا واعدة لعلاج الكثير من الأمراض الميؤوس من شفائها ، والصورة تريتا كيف يمكن الحصول بالاستنساخ على أنسجة وأعضاء جديدة يمكن زراعتها بدلًا من الأنسجة والأعضاء المريضة والتالفة)

٤- أن هذا التبدل في المواقف الأخلاقية للمجتمع ، ولا سيما منها الموقف الديني ، لا يرجع إلى علةٍ في نصوص الوحي ، بل يرجع إلى قدرة فقهاء الدين في كل عصر على الاستبصار الصحيح بمقاصد تلك النصوص ، وهذه نقطة مهمة يجب الانتباه إليها جيدًا لما لها من علاقةٍ قويةٍ بحرية البحث العلمي ، وهي توجب على أهل الشريعة أن يتريثوا طويلًا قبل أن يصدروا أحكامهم على ما يستجد من بحوث أو اكتشافاتٍ علميةٍ أو تجارب ، لاسيما وأن مسيرة البحث والكشف والتجريب لن تتوقف ما دام هناك علماء مدفوعون بشغف إلى كشف المجهول ، وإن من يراجع تاريخ العلوم ليدرك هذه الحقيقة بكل وضوح ، حتى ليخيل لنا أن هناك برنامجًا إلهيًا موقوتًا تمضي البحوث العلمية على منواله قدمًا إلى الأمام للكشف عن سنن الله في خلقه واستكمال عمارة هذا الوجود ، ولا فرق - في تقدير الله ﷻ - أن تتم هذه العمارة على أيدي المؤمنين أو الكافرين .

ولكن .. هل معنى هذا أن نترك الباب مفتوحًا على مصراعيه ليبحث من شاء ، في ما يشاء ، وكيفما يشاء ، دون ضوابط أخلاقية على الإطلاق ؟! بالطبع لا ، فهناك ضوابط فنية لا بد من مراعاتها في أي بحث علمي ، وهناك أيضًا ضوابط أخلاقية لا يصح تجاهلها ، إلَّا أننا اليوم بحاجة - أكثر من أي يوم مضى - إلى نظرة أوسع لمسيرة البحث العلمي ، آخذين بعين الاعتبار العتبة الحرجة التي وصل إليها البحث العلمي ، وطبيعة التحديات التي بات يواجهها ، ولأجل هذا نرى أن تقتصر الضوابط اللازمة للبحث العلمي على الشروط التالية :

١- أن يكون للبحث العلمي جدوى أو فائدة مرجوّة بتقدير أهل العلم في الفرع العلمي ذي الصلة .

٢- أن يراعي البحث العلمي كافة القواعد الفنية المقررة علميًّا .

٣- أن يتوسل الباحث ابتداءً بالوسائل المتعارف عليها أخلاقيًّا ، وإذا استنفد الباحث هذه الوسائل واضطر لارتكاب محظور من المحظورات الأخلاقية لإكمال البحث جاز له ذلك ، ولكن بشرطين يقررهما الأخلاقيون والباحثون معًا ، وهما :

- أن يكون البحث ضروريًّا لحل مشكلة تعاني منها البشرية ، سواء كانت المشكلة قائمة حاليًّا ، أو يرجح العلماء حصولها ولو بعد حين .

- أن تكون الفائدة المرجوة من البحث أرجح من المفسدة المترتبة على ارتكاب المحظور الأخلاقي .

وإننا مع احترامنا الكبير للمواقف المتشددة التي يتخذها بعض أهل الدين ، ودعاة الأخلاق من بعض البحوث العلمية الجديدة التي تنطوي في تقديرهم على احتمالات ومخاوف خطيرة ، كالاستنساخ البشري والهندسة الوراثية مثلًا ، فإننا نرى أن لا نعطي مثل هذه الاحتمالات والمخاوف أكبر من حجمها ، وأن لا نجعلها عائقًا في سبيل البحث العلمي الذي يتسم كما قدمنا بسماتٍ خاصةٍ تحتّم علينا توفير مساحة واسعة له لكي يعطي ثماره المرجوة ، فالبحث العلمي هو بحث في ساحة المجهول ، أي في ساحة معتمة لا ندري عمَّ يمكن أن تتمخض ، مع الانتباه جيدًا إلى أن البحث العلمي - حتى حينما يفشل في تحقيق أهدافه - فإنه لا يخلو من فوائد جمة ، فهو على سبيل المثال يفيدنا في تطوير طرائق البحث العلمي ، ويجعلنا أقدر على تحقيق أهدافنا مرة بعد مرة .

ولنتذكر هنا قول مخترع المصباح الكهربائي (توماس أديسون) الذي أجرى مئات التجارب الفاشلة في خِضَمِّ محاولاته لاختراع المصباح ، فقد قيل له بعد أن نجح باختراع المصباح عام (١٨٧٩م) : ألست نادمًا على تلك التجارب المرهقة التي أخفقت بها ؟ فابتسم وردَّ عليهم قائلًا : لا ، فقد تعلمت مئات التجارب التي سوف تُجَنِّبُنِي في المستقبل الوقوع بالفشل .. ونفهم من هذه الحكمة التي نطق بها عالم كبير ، أن العمل العلمي الدقيق حتى حين يفشل فإنه يساهم بدفع العلم خطوات أخرى إلى الأمام من

خلال تعليمنا كيف نتجنب المزيد من الأخطاء ، وهذا ما يدفعنا للدعوة إلى إعطاء العلماء أكبر مساحة ممكنة من الحرية لكي يعطي ثماره المرجوة .

مفارقات العلم :

على الرغم من أن العلم قد قطع حتى اليوم شوطًا بعيدًا في الكشف والاختراع والابتكار ، وأثبت جدارته ومصداقيته في شتى فروع المعرفة ، واجتاز بنجاح حقولًا واسعةً ظلَّت إلى وقتٍ قريبٍ غارقة في المجهول ، إلَّا أن تاريخ العلم بالرغم من كل هذه الإنجازات العظيمة ظل مشوبًا ببعض المفارقات الغريبة ، ولعلَّ من أشد هذه المفارقات غرابة أن (العلم) الذي أعاننا على تحقيق ما حققناه حتى الآن من إنجازات علمية عظيمة هو نفسه الذي كان وما زال يحول بيننا وبين السعادة المنشودة ، فقد ارتكب العلم عبر تاريخه الطويل أخطاءً فادحةً ، وأثمرت يداه في مناسبات عدة المُرّ والعلقم ، وها هي ذي ترسانات أسلحة التدمير الشامل الحيوية والكيميائية والنووية تغص بها مخازن الدول الكبرى ، وتشهد على ما نقول !

ونحن هنا بطبيعة الحال لا ندين (العلم) نفسه ، فالعلم في حقيقته لا يعدو أن يكون حقائق مجردة (قوانين ، معادلات ، إحصائيات ..) إنه مفهوم محايد تمامًا لا يملك من أمره شيئًا ، فهو لا يقدر أن يحسن أو يسيء ، وأمَّا الذين يمكنهم أن يحسنوا أو يسيئوا فهم أولئك المسؤولون عن تسخير الإنجازات العلمية في الخير أو في الشر ، وهم الذين كانوا على مدار التاريخ وراء انحراف العلم عن أهدافه الأخلاقية الخيرة .

إن العلم الذي أعطانا منجزاتٍ عظيمةٍ (الكهرباء ، المذياع ، الهاتف ، الطائرة ، التلفاز ، المركبات الفضائية ، الكومبيوتر ، المضادات الحيوية ، أطفال الأنابيب ، الهندسة الوراثية ..) لم يكن في يوم من الأيام علمًا سيئًا ، بل كان إنجازًا رائعًا أتاح لنا الكثير من الراحة والمتعة والصحة والأمان ، وإنَّما تحول العلم إلى شر بفعل الإنسان ، حامل الأمانة ﴿ .. إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، فالإنسان قبل أن يوصله علمه لاختراع السيف قتل أخاه بالحجر ، وقبل أن يصوِّب إليه البندقية صوَّب إليه الرمح ، وقبل أن يفجِّر به الذَّرة فجَّر به الديناميت ، وقبل أن يرميه بالصَّاروخ رماه بالمنجنيق !

فما الذي يعنيه هذا ؟ إنه يعني أن الإنسان يظل هو محرك الأحداث ، وهو الذي يصنع تاريخه بنفسه ، وما تاريخ الجنس البشري إلا المحصلة النهائية لكسب كل فرد من أفراده ،

وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩ ، ٤٠] ، أو كما يقول المثل الدارج : (ما تضعه في القِدْر يخرج لك بالمغرفة). فالبدايات هي التي تحدد النهايات ، والإنسان هو وحده الذي يتحمل مسؤولية فعله والنتائج التي تترتب على هذا الفعل ، وَمِنْ ثَمَّ فإن شيئًا من أحواله لن يتغير ما لم يغيِّر من نفسه ، ويعدِّل طريقة تفكيره وسلوكه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١].

والآن دعونا نقلب الصورة لنرى الجانب الآخر للعلاقة ما بين العلم والأخلاق ، وهي أشد مفارقة مما قدمناه ، فالحروب التي تُعَدُّ من أكبر الحماقات البشرية وأبعدها عن الأخلاق النبيلة كانت وما زالت وراء التقدم العلمي الذي أدخلنا بجدارة عصر الذرة ، وأوصلنا إلى سطح القمر ، وراح يعدنا بسكنى الكواكب البعيدة !

وقد بدأت هذه القصة الطريفة قبيل منتصف القرن العشرين ، خلال سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) التي خشي فيها (الحلفاء)[1] ، من امتداد السيطرة النازية على العالم ، فجمعت الولايات المتحدة الأمريكية في عهد رئيسها (فرانكلين روزفلت)[2] ، نخبةً من علمائها مع عدد من العلماء الألمان الذين فروا إليها من بطش الزعيم الألماني (أدولف هتلر)[3] ، وكلفتهم بتطوير التفاعل الذري في المشروع السري للغاية الذي أطلقت عليه اسم (مشروع مانهاتن) ، وقد استطاع العلماء بقيادة العالم (أوبنهايمر)[4].

---

(١) الحلفاء هم مجموعة من الدول أهمها بريطانيا وفرنسا والصين تحالفت في الحرب العالمية الثانية ضد دول المحور (إيطاليا ، ألمانيا ، اليابان) وبعد قصف اليابان لميناء بيرل هاربر الأمريكي انضمت الولايات المتحدة إلى الحلفاء ، وعندما اجتاح الألمان الاتحاد السوفيتي انضم السوفييت إلى الحلفاء .

(٢) فرانكلين ديلانو روزفلت (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥م) : الرئيس ٣٢ للولايات المتحدة الأمريكية ، بدأ عهد رئاسته عام (١٩٣٣م) ، وأعيد انتخابه ثلاث مرات بلا سابقة لذلك ، ساهم بدخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية .

(٣) أدولف هتلر (١٨٨٩ ـ ١٩٤٥م) : زعيم ألمانيا النازية في الفترة (١٩٣٣ ـ ١٩٤٥م) وقائد حزب العمال الوطني الاشتراكي ، شغل منصب مستشار ألمانيا ، ورئيس الحكومة والدولة ، كان شخصية آسرة وخطيبًا مفوّهًا . ويصفه المحللون السياسيون بأنه أحد الشخصيات الأكثر تأثيرًا في القرن العشرين ، انتشل ألمانيا من ديون الحرب العالمية الأولى ، وبنى آلة عسكرية رهيبة ، وقاد بلاده بسياسة توسعية أدت لاشتعال الحرب العالمية الثانية ، وأسفرت عن تدمير أوروبا ، وقتل أكثر من ٧٠ مليون نفس ، وعندما خسرت بلاده الحرب أقدم على الانتحار هو وعشيقته إيفا براون داخل ملجأ محصن في برلين !

(٤) سبقت ترجمته .

في فترة وجيزة من الزمن أن يُحَوِّلُوا معادلات الطاقة والمادة التي وضعها العالم (آينشتاين) [1] ، إلى حقيقةٍ واقعةٍ ، وأجروا أول تجربةٍ لتفجير الذرة في صحراء نيفادا ، في الساعة ٥:٣٠ من فجر ١٦/ ٧/ ١٩٤٥م ، وكانت القنبلة من عيار (١٢.٥ كيلوطن) !

ولم يلبثوا أن حولوا هذا الكشف العلمي الكبير إلى قنبلة رهيبة ألقوها فوق مدينة هيروشيما اليابانية في الثامن من شهر آب من العام نفسه أودت على الفور بحياة (١٤٠,٠٠٠ نفس) ، وبعدها بثلاثة أيام ألقوا القنبلة الثانية فوق مدينة ناغازاكي أودت بحياة (٧٠,٠٠٠ نفس) ، ودمرت المدينتان تدميرًا شاملًا عن بكرة أبيها !





(من اليمين : آينشتاين ، أوبنهايمر ، العالمان اللذان جعلا فكرة تفجير الذرة أمرًا واقعًا وكانا وراء أول تفجير ذري في التاريخ)

وكما دفعت الحرب العالمية الثانية للتعرف على الطاقة الذرية ، فكذلك كان التهديد بنشوب حربٍ عالميةٍ ثالثةٍ وراء التقدم العلمي في ميدان الفضاء الذي ازدهر في فترة (الحرب الباردة) [2] ، تلك الحرب التي تأزمت بين المعسكر الغربي بقيادة الولايات

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) الحرب الباردة (١٩٤٥ ـ ١٩٩٠م) : اصطلاح أطلق على العلاقات التي نشأت بين المنتصرين في الحرب العالمية الثانية ، فقد انقسم المنتصرون إلى معسكر غربي بزعامة الولايات المتحدة ، ومعسكر شرقي بزعامة الاتحاد السوفياتي ، وعمل كل منهما على توسيع نفوذه في العالم ، ومع أن الطرفين لم يستخدما السلاح في هذه الحرب فقد دخلا في سباق تسلح محموم كان من أبرز سمات الحرب الباردة ، إلى جانب انعدام الثقة بين الطرفين ، وعمليات التجسس والاغتيال المتبادل ، ووصلت الحال بينهما أحيانًا إلى حافة الحرب الفعلية ، كما حصل في أزمة الصواريخ التي حاول السوفيات نصبها في كوبا أواخر الستينيات ، وقد تخللت فترات الحرب عدة حروب مدعمة من الطرفين ضد بعضهما (حرب كوريا ، حرب فيتنام ، غزو الاتحاد السوفياتي لأفغانستان) وكان من أهم نتائج ـ

المتحدة ، والمعسكر الشرقي بقيادة الاتحاد السوفياتي ، فقد أصيب أرباب السياسة بحمى التفوق العسكري ، وراحوا يتسابقون في ميدان الفضاء من أجل امتلاك السلاح الأسرع والأعلى والأبعد مدى ، وقد أسفر هذا التسابق المحموم عن زراعة الفضاء الخارجي حول الأرض برؤوسٍ نوويةٍ قادرةٍ على تدمير الأرض بِمَنْ فيها في دقائق معدودات ، وعلى الجانب الآخر أدى هذا التسابق الفضائي إلى تطوير الصواريخ والأقمار الصناعية والمركبات الفضائية تطورًا مذهلًا فاق كل التوقعات ، حتى أوصل الإنسان إلى سطح القمر (عام ١٩٦٩م) .





(عام ١٩٤٥م وقع التفجير الذري الأول في التاريخ ، ودمرت هيروشيما التي لم يبق فيها حجر على حجر)

ويكشف لنا هذا التقدم العلمي في ميادين العلم المختلفة عن حقيقة مؤسفة حقًا ، وهي أن الإنسان يملك من الطاقات العقلية والمادية ما يستطيع به تحقيق الكثير من الأماني الخيِّرة التي ظلت البشرية طوال تاريخها الماضي تتوق إليها ، غير أن الإنسان - لغاية في نفوس بعضهم ! - لا يستخدم هذه الطاقات فيما يخدم حياته ، بل يستخدمها في الغالب بالاتجاه المضاد ، وعلى سبيل المثال نذكر أن علاج مشكلة صحية كالاكتئاب النفسي (*Depression*) الذي يؤدي إلى خراب البيوت ، ويدفع آلاف المرضى النفسيين للانتحار سنويًا ، ليس أصعب ولا أشد تعقيدًا ولا أكثر تكلفة من إنزال إنسان فوق سطح القمر ، أو إرسال مركبة فضائية إلى أطراف منظومتنا الشمسية ، وهذا يعني أنَّ الإنسان لو أراد فهو

---

* الحرب الباردة انهيار الاتحاد السوفيتي ، وميلاد النظام العالمي الجديد الذي نادى به الرئيس الأميركي جورج بوش الأب في أعقاب حرب الخليج التي وقعت بين العراق وإيران (١٩٨٠ ـ ١٩٨٦م) مما أتاح للولايات المتحدة الانفراد بقيادة العالم وتطويعه لمصالحها ورغباتها وفرض رؤيتها السياسية عليه .

قادر بإذن الله تعالى على تحقيق الكثير من الإنجازات الخيرة ، ولا سيما في ميادين العلم التي لم تعطَ حتى الآن حقَّها من العناية والاهتمام على الرغم من ارتباطها الوثيق بحياة الإنسان .

لقد حقق الإنسان في حقول العلم المختلفة كثيرًا من الأحلام الكبيرة التي تجاوزت حدود الخيال ، وكان بعيد النظر إلى الدرجة التي مكنته من تخطي كل الحواجز التي وقف أجداده عاجزين أمامها ، أمَّا في شؤونه الاجتماعية فقد ظل يحمل في أعماقه أسوأ ما ورثه عن أجداده من أحقاد ، وكان قصير النظر إلى درجة أنه تصرف بعد عشرات القرون من العلم والمعرفة كما تصرف ابن آدم الأول الذي عرف كيف يقتل أخاه ، ولكنه لم يعرف كيف يواري سوأته !

ونعتقد أن تصحيح هذا الخصام النكد ما بين العلم والأخلاق لن يتم إلَّا باتخاذ العلماء أنفسهم مواقف إيجابية ، يحددون بموجبها أولويات الكشوف التي تحتاجها البشرية فعلًا ، أمَّا المواقف السلبية التي غالبًا ما يتخذها العلماء - حتى من الاكتشافات التي تتحقق على أيديهم وتستنزف طاقاتهم - فإنها قطعًا ليست في صالح التقدم العلمي ، ولا في صالح البشرية ، ولا في صالح العلماء أنفسهم ؛ لأنها تتيح للتجار والساسة (أو الساسة التجار !) أن يستغلوا الكشوف العلمية في أحطِّ الأغراض وأبعدها عن مصالح البلاد والعباد ، كما وظِّفت بالأمس علوم الذرة في إفناء مئات الآلاف من الأبرياء ، وكما توظف اليوم علوم الفضاء في أغراض التجسس ، ونشر الدعارة ، وزراعة الرؤوس النووية فوق رؤوسنا ، ما جعلنا أشبه بركاب طائرة مخطوفة مهددة بالانفجار أو بالتفجير في لحظة خاطفة من لحظات الطيش البشري الذي لا يعرف الحدود !

لقد كنا ننتظر من الإنجازات العلمية العظيمة التي حققناها حتى الآن أن تصل بنا إلى برِّ الأمان ، وأن تحقق لنا بعض الأحلام الكبيرة التي ظلت تداعب أجفاننا لدهور طويلة ، إلَّا أن (حساب الحقل لم يطابق حساب البَيْدَر) كما يقول المثل الدارج ، والفصل في هذه الإشكالية يعود في اعتقادنا بالدرجة الأولى إلى أصحاب القرار الذين ظلُّوا يوظفون العلم لخدمة الأهداف السياسية ، والعسكرية منها بخاصة ، بينما بقيت مشاريع التنمية في الأدراج !

العلم والدين :

إذا كان القرآن الكريم هو خاتم الرسالات السماوية ومهيمنًا عليها ، فإننا من خلال ما ورد في القرآن الكريم من آياتٍ تحضُّ على طلب العلم والتفكر في آيات الله ، نستطيع

الاستنتاج بكل ثقة أن الأديان السماوية كان لها ، عبر التاريخ ، دور أساسي في ترسيخ مفهوم العلم في الذهن البشري ، وأن الإنجازات العلمية المتميزة التي أبدعها الإنسان عبر تاريخه الطويل كانت حاضرة في المخيلة البشرية منذ وقت مبكر من وجود الإنسان فوق هذا الكوكب ، وذلك من خلال ما حفلت به الكتب السماوية من آيات تتحدث عن ظواهر هذا الكون ومخلوقاته ، وآيات تحضُّ العقل البشري على السياحة في ملكوت الله ، وتدفعه دفعًا للتأمل والتفكر والتدبر ، إلى جانب المعجزات الخارقة للعادة التي شاهدها البشر وهي تجري على أيدي الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فقد لفتت تلك الآيات العقل البشري إلى الكثير من الأسرار المخبوءة في هذا الوجود ، وحسبنا هنا أن نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر :

• ففي قصة نبي الله سليمان ﷺ ، الذي سُخِّرت له الريح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب ، غدوُّها شهرٌ ورواحها شهر ، وفي قصة نقل عرش الملكة بلقيس بلمح البصر من اليمن إلى فلسطين حيث كان سليمان ﷺ ؛ يلفت القرآن الكريم العقل البشري إلى إمكانية الطيران في الهواء وإمكانية نقل الأشخاص والأمتعة الثقيلة في برهة خاطفة ، عبر المسافات الشاسعة التي كان راكب الدابة السريعة يومذاك يستغرق شهرًا كاملًا أو يزيد لكي يقطعها !

• ومن خلال قصة تسخير الجن لسليمان ﷺ التفت العقل البشري إلى القوى الخفية في هذا الوجود ، كالطاقة الكهربائية وغيرها من الطاقات التي بدأنا نسخِّر بعضها في حياتنا اليومية لتحقيق أعمال خارقة بواسطة أجهزة التحكم عن بعد(Remote Control) وتحريك الأشياء وتوجيهها بدقة فائقة ولو كانت بعيدة عنا مليارات الأميال ، كما هي الحال في توجيه المركبات الفضائية التي تسبر أعماق الفضاء بين الكواكب !

• وفي قصة الإسراء بالنبي محمد ﷺ من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ثم العروج به إلى السماء السابعة ، في برهة من الليل ، لفت القرآن الكريم عقول البشر إلى إمكانية ارتياد الفضاء ، والوصول إلى الأجرام السماوية البعيدة ، وقد حقق الإنسان الخطوة الأولى في هذه الطريق الطويلة عندما هبط لأول مرة في التاريخ على جرم سماوي غير الأرض ، ووطئت قدماه سطح القمر في عام (١٩٦٩م) ، وقد تمكَّن الإنسان من تحقيق هذا الإنجاز ليس من خلال المعجزات التي لا تكون إلَّا للأنبياء ، بل من خلال تسخير سنن الله في الطيران وارتياد الفضاء ، ومن المنتظر أن تتبع هذه الخطوة الجبارة خُطُوَاتٌ لاحِقَةٌ

هيا قريبٍ للهبوط على كواكب أخرى في مجموعتنا الشمسية ، ومن بعدها الكواكب الأخرى خارج هذه المجموعة .. ومما يذكر أن المركبة الأمريكية (بايونير ١٠) خير المأهولة التي أطلقت أواخر السبعينيات من القرن العشرين ، قد خرجت من أقطار الأرض وأقطار المجموعة الشمسية عام (١٩٨٩م) ، وما زالت إلى اليوم تطير خارج النظام الشمسي على بعد عشرات المليارات من الكيلومترات بسرعة تتجاوز (٥٠,٠٠٠ كلم / الساعة) وهي ترسل إلى الأرض أخبار السماء .



(لقد استطاع الإنسان بما وهبه الخالق من قدرات أن يحقق سرعات طيران مذهلة فاقت كل التوقعات ، ومكّنته لن يَنْفُذُ من أقطار الأرض لينطلق في أقطار السماء ، وجعلت أمله كبيرًا بسكنى الكواكب البعيدة)

• ومن خلال المعجزات التي أجراها الله ﷻ على يدي نبيه عيسى ﷺ ، التفت العقل البشري إلى إمكانية علاج الأمراض المستعصية ، كالعمى والبرص وإحياء الموتى ، وقد استطاعت تقنيات الطب الحديث تحقيق الكثير في هذا المجال ، فأصبح بإمكان الأعمى أن يرى ، والأصم أن يسمع ، وَمَنْ هُمْ بحكم الموتى أن ينعشوا بوسائل الإنعاش الحديثة ليواصلوا رحلة الحياة من جديد ، مثل الغرقى الذين ظل بعضهم تحت الماء المتجمد لأكثر من ساعة ، وأمكن إنقاذهم وإعادة نبض الحياة إلى عروقهم ، بينما كانوا إلى زمن قريب يعتبرون في عداد الموتى ، إلى غير ذلك من الأمراض المستعصية التي استطاع الطب أخيرًا أن يتغلب عليها من خلال فهمه لسنن الله في الصحة والمرض .

• ومن خلال معجزة خلق عيسى ﷺ من أمه العذراء ، التفت العقل البشري إلى إمكانية التوالد الذاتي ، أو ما يعرف اليوم باسم الاستنساخ (*Cloning*) فقد تمكن الطب

الحديث من توليد أنواع من المخلوقات الحية الولود من فصيلة الثدييات دون عملية التزاوج المعتادة بين الذكر والأنثى ، وعلى سبيل المثال فقد أمكن توليد النعجة دوللي (*Dolly*) عام (١٩٩٧م) من تلقيح بويضة إحدى النعاج بخلية مأخوذة من ضرع نعجة أخرى ، ثم زرعت اللقيحة (*Zygote*) في رحم نعجة ثالثة هي التي ولدت دوللي ، وهذا يعني أن للنعجة دوللي ثلاث أمهات ، وليس لها أب واحد [1] ، وفي أواخر عام (٢٠٠٢م) أعلنت مؤسسة كلون إيد (*Clonaid*) عن ولادة أول طفلة مستنسخة في العالم ، وهي نسخة وراثية طبق الأصل عن والدتها ، وأن البويضة أخذت من المرأة ونزعت نواتها . وَلُقِّحَتْ تلقيحًا ذاتيًّا بنواة خليةٍ جسديةٍ من المرأة نفسها ، ثم زرعت اللقيحة في رحم المرأة نفسها كذلك فولدت الطفلة حوّاء (*EVE*) ، أي إن هذه المرأة حملت وولدت من ذاتها دون زوج ولا زواج ولا جماع ، وعلى الرغم من أن هذا الخبر لم يوثق علميًّا ، فإن إمكانية تحقيقه ممكنة من الناحية النظرية ، فإذا استثنينا الموقف الأخلاقي والديني من طرق الاستنساخ هذه فإنها تعد بلا ريب تطورًا طبيًّا كبيرًا يبشر بعلاج الملايين من البشر العقيمين ، كما يبشر بتوفير الأعضاء البشرية البديلة لاستخدامها في زراعة الأعضاء بدلًا من الأعضاء المريضة أو التالفة ، وكذلك علاج بعض الأمراض المستعصية مثل الشلل الرعاش أو داء باركنسون (*Parkinson Disease*) ، وخرف الشيخوخة (*Senile Dementia*) أو داء الزهايمر (*Alzheimer Disease*) ، إلى غير ذلك من الأمراض التي يشكل الاستنساخ أملًا كبيرًا في علاجها بإذن الله تعالى .



(النعجة دوللي ، أول الثدييات التي ولدت بطريقة الاستنساخ)

---

(١) تمت ولادة دوللي في شهر شباط / فبراير من عام (١٩٩٧م) على يدي الطبيب الأسكتلندي (وان ويلموت) وزملائه في معهد (روزلين) التابع لجامعة أدنبرة .

• ومن خلال قصة أصحاب الفيل (جيش أبرهة الحبشي) الذين حاولوا قبل الإسلام هدم الكعبة فأرسل الله ﷻ عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، لفت القرآن الكريم الانتباه إلى إمكانيات الحرب الجوية ، والحرب الفضائية الرهيبة أو ما عرف في عصرنا الراهن بحرب النجوم (*Star War*) ، وقد أصبح اليوم للطائرات والصواريخ والراجمات دور أساسي في مختلف الحروب والمعارك !

• ومن خلال قصة نبي الله يونس ﵇ الذي ابتلعه الحوت ولبث في بطنه مدة من الزمن ، التفت العقل البشري إلى فكرة الغواصات التي أصبحت اليوم من الوسائل الرئيسية في الحروب ، وفي استكشاف أعماق البحار ، وفي غير ذلك من الأغراض العلمية .

• ومن خلال قصة حمل امرأة إبراهيم الخليل ﵇ التي كانت عجوزًا طاعنةً في السن وكان زوجها ﵇ شيخًا كبيرًا ، وكذلك قصة حمل امرأة نبي الله زكريا ﵇ التي كانت عاقرًا ، وكان زوجها ﵇ قد تقدم كبرًا في السن واشتعل رأسه شيبًا ، لفت القرآن الكريم العقل البشري إلى إمكانية علاج العقم ، وإمكانية الحمل بعد سن اليأس ليس من خلال المعجزات وحدها ، وإنما أيضًا من خلال فهم قوانين الحمل والولادة .

• وأمّا قصة نوح ﵇ والسفينة التي بناها للنجاة من الطوفان الذي يرجح أنه عمّ الأرض ، فلعلها تُنَبِّهنا نحن والأجيال المقبلة إلى تهيئة أنفسنا من الآن لبناء سفينة لا للبحر بل للفضاء ، لكي نرحل بها عندما تصبح الأرض مهددة فعلًا بإحدى الكوارث المدمرة ، وما من شك بأن قصة الطوفان والسفينة هي التي أوحت لأهل السينما وكتّاب الخيال العلمي بتدبيج الروايات والأفلام الخيالية عن كوارث كونية تهدد أهل الأرض الذين لا يجدون لهم مفرًا إلّا صنع مركبات عملاقة للنجاة ، كما فعل نوح ﵇ .. بل إن المسألة قد تعدت اليوم نطاق الخيال العلمي إلى التنفيذ الفعلي ، وهناك اليوم العديد من المشاريع قيد الدراسة لمثل هذه النقلة المستقبلية المحتملة ، ومن المتوقع أن يبدأ أول مشروع من هذا القبيل في عام (٢٠٦٩م) بمناسبة مرور (١٠٠ عام) على هبوط أول إنسان على سطح القمر ، وذلك بتدشين جزيرة فضائية أطلقت عليها وكالة الفضاء الأمريكية ناسا (NASA) اسم (*Isle I Habitat*) ، وهي سفينة فضائية يبلغ قطرها ١٣٠ مترًا ، وتستوعب حوالي عشرة آلاف راكب ، وهناك تصاميم لاحقة من هذه السفينة لاستيعاب أعداد هائلة من الركاب تصل إلى (١٠ ملايين شخص) [١] .

---

(١) جريدة الشرق الأوسط ، الأربعاء ٤/ ٩/ ٢٠٠٢م ، وانظر أيضًا : أدريان بيري (الحسسائة عام القادمة) ـ

وقد حفل القرآن الكريم وما سبقه من الكتب السماوية بالإشارات والتلميحات والمعجزات التي فتحت للفكر البشري آفاقًا ما كانت لتخطر على البال ، ومهّدت الطريق للتفكير بارتياد العوالم المجهولة التي ما كان للعقل البشري أن يفكر بها لولا خبر السماء ، وبهذا شكلت الرسالات السماوية للعقل البشري قاعدة علمية غنية ظلت تحرضه منذ القِدَم على البحث والدراسة والتنقيب والكشف ، وألهمته وسائل متجددة للإبداع والابتكار والاختراع ، ومكنته من تحقيق حضاراته الكثيرة التي تعاقبت على ظهر الأرض ، وآخرها الحضارة الراهنة التي حققت الكثير مما كان إلى وقت قريب يعدُّ ضربًا من المستحيل .

ويكفي للدلالة على أثر الرسالات السماوية في هذه المسألة أن نراجع سجلات الفكر الفلسفي ، لنجده حافلًا بالكثير من الأفكار العلمية الرائدة التي قال بها الفلاسفة الأقدمون . والتي نكاد نجزم بأنها لم تكن نتاج تأملات فكرية أو فلسفية مجردة ، بل نرجح أن أصحابها قد استوحوها من بعض الرسالات السماوية المبكرة التي عاصروها أو وصلت إليهم أخبارها . وكانت كالقرآن الكريم حافلة بالدعوة للتفكر بآيات الله المبثوثة في هذا الوجود ، وحافلة كذلك بذكر المعجزات التي جرت على أيدي الأنبياء عليهم السلام (انظر فصل : تاريخ الفلسفة) وإن ما يدعونا لهذا الترجيح ما نجده من تطابق كبير بين العديد من النظريات الفلسفية المبكرة في تاريخ الفكر البشري وبين ما ورد في القرآن الكريم مثلًا عن خلق الكون ، أو خلق الإنسان ، أو ما يتعلق ببعض الاكتشافات والمخترعات التي قال بها الفلاسفة قديمًا ولم تتحقق إلَّا بعد آلاف السنين ، فهذه القرائن تدل دلالة واضحة على أن الرسالات السماوية قد شحذت الفكر البشري منذ وقت مبكر من تاريخه ، وهيأته علميًّا للمستقبل البعيد الذي نعيش اليوم بعض أجل إنجازاته .

ولا بد لنا قبل أن نغادر هذه الفقرة أن نشير إلى اختلاف جوهري ما بين الدين والعلم من جهة وسائل الاستدلال المعتمدة في كل منهما ، فالدين يقوم أساسًا على الاحتكام إلى الكتاب المسطور (= الوحي) ، أمّا العلم فيحتكم إلى الكتاب المنثور (= الكون) ، أي إن الحكم في المسائل الدينية يعتمد على النص السماوي الذي يعد المرجع الأساسي في كل المسائل الشرعية ، أمّا العلم فمرجعه التجربة الحية والقياس والرصد المباشر لكل ما هو مادي ، مشاهد أو محسوس ، ولهذا نجد اختلافًا جوهريًا ما بين العلوم الدينية والعلوم

= فصل سفن النجوم ، (ص ٢٠٩) وما بعدها ، وكتاب : فرانك كلوز (النهاية) ، (ص ٣٠٢) .

المادية ، فالمسائل الدينية قلّما يتفق عليها أهل الشريعة ؛ لأن مرجعهم هو النص السماوي ، والنصوص السماوية كما يروى عن علي بن أبي طالب (رضي الله تعالى عنه) في وصفه للقرآن الكريم (حَمَّال لِوُجُه) ، وهذه الحقيقة يعرفها علماء اللغة أو علماء (اللسانيات) الذين يقررون أن معظم النصوص السماوية ظنية الدلالة ، أي يحتمل أغلبها أكثر من معنى ، وتتعدد الآراء في فهمها وَمِنْ ثَمَّ تتعدد الأحكام المستنبطة منها ، على النقيض من حال العلوم المادية التي تستند إلى التجربة والقياس والرصد المباشر ، ولهذا نجد علماء المادة متفقين على معظم المسائل العلمية ، على النقيض من علماء الشريعة الذين يندر اتفاقهم على المسائل الشرعية التي تقوم أساسًا على التعامل مع الألفاظ ، بينما التجربة الحية لا تقيم وزنًا للألفاظ بل للنتائج المحسوسة .

وقد تبدو هذه السمة في العلوم الشرعية سلبية للوهلة الأولى ، ولكننا عند التدقيق فيها نجد ما يبررها ، بل قد نجد أن هذه السمة هي التي تعطي الدين قوته وحيويته الدائمة للتفاعل مع تغيرات الزمان والمكان والأحوال ، فهذه الظنية في دلالات النصوص الدينية توفر فسحة واسعة للتفاعل ما بين النص وواقع الناس ليأخذ كل مؤمن من الأحكام الشرعية ما يناسب حالته ، كما أن هذه السمة في النصوص الدينية تجعل الدين مفتوحًا على المستقبل ، قابلًا باستمرار للتفاعل مع متغيرات العصر ، وفي هذا تيسير على الناس ورفع للحرج عنهم .

وهذه الفوارق ما بين العلوم الدينية والعلوم المادية هي التي تجعلنا بين الحين والآخر بحاجة للعودة إلى كتب التراث في المسائل الدينية ، بينما لا نضطر للعودة إلى التراث العلمي ، اللّهم إلّا من قبيل الدراسة التاريخية فحسب ؛ لأن طبيعة العلوم المادية تراكمية مما يفقد كتب العلم قيمتها العملية مع مرور الزمن من جراء الاكتشافات الجديدة ، على العكس من كتب التراث الديني التي كثيرًا ما نضطر للعودة إليها ؛ لأن الذين ألّفوها كانوا أقرب إلى عصر التنزيل وأقرب إلى فهم النص السماوي وتنزيله على الواقع ، وَمِنْ ثَمَّ فإن اجتهاداتهم وتعدد آرائهم يثري اجتهاداتنا المعاصرة ويعطينا مساحة أرحب للتحرك بالنص .

ومن المؤسف أن هذه الاختلافات ما بين طبيعة الاجتهادات العلمية وطبيعة الاجتهادات الدينية قد وجد فيها بعض الباحثين المغرضين الحجة الكافية لعزل العلم عن الدين ، أو عزل الدين عن العلم ، واعتبار المسائل الدينية غير علمية ؛ لأن العلم في زعم هؤلاء يقوم

على التجربة المحسوسة أو البرهان المادي الذي لا يمكن تطبيقه على المسائل الدينية ؛ لأنها تستند أساسًا إلى مصدر غيبي غير قابل للتجربة والقياس والرصد .

إلّا أن هذه الحجة المزعومة ، التي قد تبدو للوهلة الأولى صحيحة ، لا تصمد أمام النقد والتمحيص ، فعلى الرغم من أن الكتب السماوية ليست أساسًا كتب علوم مادية ، وإنَّما هي كتب أحكام شرعية ، فقد حفلت بذكر العديد من الحقائق العلمية التي لم يستطع العلماء اكتشافها إلّا منذ فترة قريبة عندما توفرت لهم أجهزة الرصد العلمي الدقيقة ، وهذا ما جعل ظاهرة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم تَلْقَى اهتمامًا كبيرًا في الآونة الأخيرة ؛ لأنها دلت بصورة قاطعة على ما في الرسالات السماوية من علم راسخ ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وليس هذا بمستغرب ، فإن الذي أنزل الرسالات السماوية هو الذي خلق هذا الكون ، وهو بلا ريب أعلم به من كل العلماء على مدار التاريخ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] ، وليس في هذا تقليل من قيمة الإسهامات العلمية الفذة التي حققها العلماء حتى الآن ، وليس فيه تثبيط لهمم العلماء ، بل فيه تحريض لهم على المزيد من العمل والجهد ؛ لأنهم عرفوا الآن أن في هذا الوجود الكثير مما يحتاج إلى الكشف وعرفوا أيضًا أن قول القائلين : (ما ترك الأوّلون للآخرين شيئًا) غير صحيح على الإطلاق .

***

الفصل الخامس عشر

تاريخ الفلسفة

- إن تاريخ الفلسفة هو إلى مدى بعيد تاريخ الصراع بين الأمزجة الإنسانية المختلفة .

الفيلسوف وليام جيمس

- الفلسفة محاولة للوصول بطرق ملتوية ، إلى أشياء لا داعي للوصول إليها .

(بعضهم)

- الفيلسوف رجل أعمى ، يبحث في غرفة مظلمة ، عن قطة سوداء لا وجود لها فيها.

(أحدهم)

إن حديثنا عن نشأة الأديان في الفصل السابق يقودنا تلقائياً للحديث عن ظاهرة بشرية أخرى ذات علاقة وثيقة بالدين ، ألا وهي (الفلسفة) ، ومن المدهش أن نكتشف من خلال استقرائنا لتاريخ الفلسفة واستعراض أهم القضايا التي تناولتها عبر تاريخها الطويل الحافل بالإنتاج الفلسفي أن نشأة الأفكار الفلسفية الأولى قد واكبت نشأة الأديان منذ وقت مبكر من التاريخ البشري ، ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا : إن (إبليس) كان أول من تفلسف على الإطلاق ، وذلك حين أمره ربه بالسجود لآدم أبي البشرية الأول ، فأبى إبليس أن يسجد ، واستكبر وفلسف القضية فقال :﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦] ، والنار كما تَصَوَّر إبليس من خلال تأملاته الفلسفية أفضل من الطين .

ولعل مما يؤيد مذهبنا هذا في مواكبة تاريخ الفلسفة لتاريخ الدين أن الفلسفة والدين يتقاطعان في مناهج البحث والنظر ، ويلتقيان في التركيز على الكثير من مسائل الوجود الجوهرية ، ولا سيما منها ما يدور حول الخلق والخالق ، والنشأة والمصير ، والتأمل بالحكمة من خلق هذا العالم ، وغير ذلك من المسائل التي هي في جوهرها محاور أساسية في الرسالات السماوية المختلفة ، كما هي محاور أساسية في المدارس الفلسفية المختلفة .

ولعل الفيلسوف الإغريقي (أفلاطون) [1] هو أول من أسس قواعد الفلسفة في القرن الخامس قبل الميلاد ، وبيَّن أن الفلسفة نشاط عقلاني متميز عن بقية الأنشطة الفكرية التي

---

(١) سبقت ترجمته .

كانت سائدة حتى عصره ، ومنها العقائد الدينية الإغريقية التي تقوم على تعدد الآلهة والأساطير والشعر وغيره من ضروب الأدب والفكر ، فمنذ أفلاطون بدأت الفلسفة تتمايز عن هذه الأنشطة وتتخذ لنفسها طريقةً خاصةً في التفكير والبحث ، وبدأت تؤسس لنفسها منهجًا نظريًّا متميزًا تنظر من خلاله إلى تكوين هذا العالم ، وبهذا المعنى يعد أفلاطون هو المؤسس الحقيقي للفكر الفلسفي .

والفلسفة (*Philosophy*) كلمة يونانية الأصل ، مؤلفة من جزأين (*Philo*) أي حب ، و (*Sophy*) أي معرفة ، وعلى هذا يكون معنى الفلسفة في أصل نشأتها (حب المعرفة) ، وقد توجهت منذ نشأتها إلى فهم المبادئ الأولى للوجود ، ومعرفة طبيعة العالم ، وبهذا تشبه إلى حدٍّ بعيد أحد الأهداف الرئيسة للدين الذي يدعو إلى تأمل هذا الوجود والتفكر في صنع الخالق ﷻ ، إلَّا أنها تختلف اختلافًا جذريًّا عن منهج العلم الذي يتوسل إلى فهم العالم بالرصد الدقيق للظواهر الكونية وبالتجارب العملية ، أمَّا الفلسفة فقد ظلت عبر تاريخها الطويل تعمل على فهم العالم من خلال التأملات الذهنية الخالصة ، ما جعل الشقة تزداد بينها وبين العلم حتى وصلا إلى الطلاق البائن آخر الأمر ، كما سوف نرى بعد قليل !



(مدرسة أثينا التي جمعت كبار الفلاسفة في عصر الفلسفة اليونانية ، لوحة للفنان رافائيل سانزيو)

ونظرية المعرفة (*Epistemology*) فرع من الفلسفة يبحث في أصل المعرفة وصدورها . أمَّا الميتافيزيقا (*Metaphysics*) أو ما وراء الطبيعة فتبحث في الطبيعة الغائية للواقع . وثمة أقسام أخرى للفلسفة منها علم المنطق (*Logic*) الذي يهتم بقواعد التفكير والمحاكمة .

وعلم الأخلاق (Ethics) الذي يهتم بأصل السلوك الأخلاقي وأنواعه ، وعلم الجمال (*Aesthetics*) الذي يهتم بطبيعة الجمال [١] .

وبما أن الفلسفة تعتمد العقل مصدرًا أوليًّا لها فإنها ترفض القبول بالمسلَّمات والغيبات مهما كان مصدرها حتى وإن كان سماويًّا ، فأهل الفلسفة لا يجعلون الإيمان سندًا لما يوصف بأنه حق ، فإذا كان العلم يسلم بشيء يجعله نقطة ابتداء ، كالرياضيات التي تبدأ من العدّ ، والطبيعة التي تبدأ من المادة ، فإن الفلسفة تحلل هذه البدايات إلى مبادئها الأولى [٢] .

والفلسفة في حقيقتها ليست موضوعًا ، بل نشاطًا فكريًّا ، وتبعًا لذلك فإن الإنسان لا يدرسها ، بل يمارسها ، وهي إلى حدٍّ كبير قضية تحليل مفهومي ، أي التفكير بالتفكير [٣] ، أو بمعنى آخر فإن الفلسفة تهتم أولًا ، وقبل أي شيء آخر ، بتحسين طرائق تفكيرنا بالمسائل ، أكثر من اهتمامها بفحوى المسائل نفسها .

المدارس الفلسفية :

وقد مرَّت الفلسفة بمراحل تاريخية مختلفة ، وتنازعتها ثلاث اتجاهات فكرية رئيسة كانت وما زالت شائعة بين المدارس الفلسفية حتى يومنا الحاضر ، فهناك :

١- نزعة عقلية أو مثالية (Idealism) : يرى أصحابها أن (في العقل مبادئ سابقة على التجربة ، بواسطتها يستطيع اكتساب المعرفة عن العالم الخارجي ، بل هو يفرض عليه مبادئه وقوانينه ، والمعرفة العقلية في نظرهم هي وحدها المعرفة الحق ؛ لأنها تتصف بثلاث خصال أساسية : فهي من جهة معرفة مطلقة (*Absolute*) بمعنى أنها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، وهي من جهة ثانية ضرورة (*Necessary*) بمعنى أنها واضحة بذاتها وتفرض نفسها بشكل حتمي ، فالضروري هنا في مقابل الاحتمالي ، وأخيرًا فهي كلِّيَّة (*Universal*) بمعنى أنها عامة مشتركة بين الناس جميعًا) [٤] .

---

(١) د.فاخر عاقل : معجم العلوم النفسية ، (ص ٢٨٧) .

(٢) الموسوعة العربية الميسرة ، (ص ١٣١٠) .

(٣) جيم هانكنسون : المرشد إلى الفلسفة ، (ص ٥) .

(٤) د.محمد عابد الجابري : مدخل إلى فلسفة العلوم ، (ص ١٢٠) ، وانظر : د.عبد الرحمن بدوي (موسوعة الفلسفة) ، (٢/ ٤٠٧ ، ٤٣٩) ، والموسوعة العربية الميسرة ، (ص ١٣١٠) .

٢- نزعة مادية (Materialism) أو تجريبية، تَرُدُّ كلَّ شيء إلى المادة والحركة، وترى أن الفكر ومنطقه يتبعان الأوضاع المادية ويخضعان لها، وأصحاب هذه النزعة يرفضون وجهة نظر العقلانيين تمامًا ويعارضونها بشدة، إنهم ينطلقون من مبدأ أساسي، وهو أن جميع أنواع المعارف التي لدينا مستقاة من الحس والتجربة، وأنه ليس ثمة في العقل إلَّا ما تمده به المعطيات الحسية، ولذلك فجميع أفكارنا يمكن أن تحلل في نظرهم إلى مدركات بسيطة مستمدة من التجربة [١].

٣- نزعةٌ وسطٌ بين النزعتين السابقتين تعمل على التوفيق بينهما، فهي تُقِرُّ بوجود العقل والمادة معًا، وتنظر إلى العقل على أنه أداة لا بد منها لإدراك العالم المادي وفهمه واستجلاء أسراره.

وقد نشأ عن هذه النزعات الفلسفية المتباينة الكثير من النظريات والأفكار والمذاهب الفلسفية المتعارضة، وكان لكل منها أنصار ومؤيدون، ووضع العديد منها موضع التطبيق العملي، كما هي- مثلًا - حال الفلسفة المادية التاريخية(*Historical Materialism*) التي أسس نظريتها الفلسفية كل من الفيلسوف الألماني (كارل ماركس) [٢]، وقرينه الألماني أيضًا (فريدريك إنجلز) [٣] في القرن التاسع عشر، وقادت إلى الثورة الشيوعية البلشفية في روسيا عام (١٩١٧م)، ثم في الصين والعديد من بلدان العالم، إلَّا أن معظم هذه النظريات وما تمخضت عنه من آراءٍ أو نظرياتٍ أو تطبيقاتٍ لم تستطع أن تحقق للإنسان حلم حياته المنشود بالسعادة والفردوس الأرضي الذي كان الإنسان وما زال يحلم به في صحوه ومنامه، بل لسنا مبالغين إذا قلنا إن الكثير من النظريات الفلسفية التي شهدها التاريخ لم تزد الإنسان إلَّا شقاءً فوق شقائه، وبؤسًا فوق بؤسه !

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) فردريك إنجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥م) : اشتراكي ألماني، ساهم مع ماركس بوضع أسس النظرية الاشتراكية الحديثة، وصياغة أول بيان شيوعي في عام (١٨٤٨م)، شارك بتعبير الحركات الثورية في أوروبا، واضطر للإقامة الدائمة في إنكلترا بعد فشل ثورة (١٨٤٨م)، كان من رجال الأعمال الناجحين فساعد رفيقه ماركس لكي يتفرغ للبحث والدراسة، من مؤلفاته : معالم الاشتراكية العلمية (١٨٧٨م)، الدولة والملكية الخاصة، أصل الأسرة (١٨٨٤م)، وبعد وفاة ماركس أخرج الجزأين ٢، ٣ من كتاب (رأس المال) الذي بدأ ماركس كتابته ولم يكمله.



(فردريك إنجلز)

وقد مرَّ الفكر الفلسفي بعدة مراحل من التطور ، فكانت هناك (الفلسفة الشرقية القديمة) التي ترعرعت في الهند والصين بصورة خاصة ، وقد خالطها الكثير من الأوهام والأساطير ، ولم تتبلور فيها المفاهيم الفلسفية بصورة واضحة على الرغم من قدمها نسبيًا بالمقارنة مع الفلسفة الإغريقية التي صاغت الكثير من المفاهيم الفلسفية الواضحة ، ومن أبرز رواد الفلسفة الشرقية القديمة بوذا ، زرادشت ، كونفوشيوس .

وكانت هناك (الفلسفة اليونانية) أو الإغريقية القديمة التي اهتمت اهتمامًا كبيرًا بالأخلاق وكان من أبرز روادها (سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو) [1] .

وكانت هناك (الفلسفة الوسيطة) التي ترعرعت في المنطقة العربية ، وتأثرت بالأديان كثيرًا وحاولت تأييد الدين بالعقل ، أو ما عرف بالتوفيق بين العقل والنقل (أي الوحي) ، ومن أبرز روادها المسلمين : ابن رشد [2] ، وابن سينا [3] ، والفارابي [4] ، ومن روادها

---

(١) سبقت ترجمتهم .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) ابن سينا ، أبو علي الحسين بن عبد الله (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م) : طبيب فيلسوف ، لقب بـ (الشيخ الرئيس) ؛ لعلو شأنه في الطب وفي العلوم الشرعية والفلسفية ، وأصبح حجة في الطب والفلك والرياضة والفلسفة قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، ولي الوزارة ، واشتغل بالتعليم والسياسة ، تجاوزت مصنفاته المائتين من أشهرها كتابه (القانون) وهو مرجع شامل لأمراض الإنسان من الرأس إلى القدمين ، وقد ظلَّ هذا الكتاب عمدة الأطباء في أوروبا طوال نهاية قرون متوالية ، وتقديرًا لدور ابن سينا في تاريخ الطب والعلم احتفلت منظمة اليونسكو في عام (١٩٨٠م) بالعيد الألفي لميلاده .

(٤) سبقت ترجمته .

المسيحيين : القديس أوغسطين [(١)] ، وتوما الإكويني [(٢)] .

وأخيرًا ظهرت (الفلسفة الحديثة) التي عاصرت الثورتين الحديثتين الصناعية والعلمية ، وتأثرت كثيرًا بالاكتشافات العلمية التي حصلت بصورة خاصة خلال القرون الأربعة الأخيرة (١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) ، وعملت على الاستفادة من معطيات هذه الاكتشافات في تدعيم بعض المفاهيم الفلسفية وتصحيح بعضها الآخر ، ومن أبرز رواد هذه الفلسفة كل من الفلاسفة : ديكارت [(٣)] ، بيكون [(٤)] ، كانط [(٥)] ، سبينوزا [(٦)] ، ....

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) توما الأكويني (١٢٢٧ ـ ١٢٧٤م) : فيلسوف لاهوتي إيطالي ، وهو أشهر من يمثل الفكر الكاثوليكي ، حتى إنه يلقب عندهم باسم (الدكتور الملائكي) ، وهو الفيلسوف الوحيد الذي تعترف به الكنيسة الكاثوليكية ، ولد لأسرة ذات نفوذ اجتماعي سياسي كبير ، وعمل أستاذًا في جامعة باريس ، ثم في إيطاليا ، مؤلفاته غزيرة في اللاهوت والفلسفة ، منها (الخلاصة اللاهوتية) التي تتضمن عرضًا شاملًا للعقيدة المسيحية ، و (الخلاصة ضد الأمم) وهي دفاع عن العقيدة المسيحية ، ذهب إلى أن الفلسفة تعتمد على العقل وحده ، بينما اللاهوت يعتمد على الوحي دون أن ينكر العقل ، وفي هذا ما يقرب الفلسفة من الدين ، يؤثر عنه قوله : (إن السعي لفهم قوانين الطبيعة هو سعي لفهم أعمال الله ، وَمِنْ ثَمَّ الاقتراب منه) وقد تأثر بفلسفة أرسطو وأفلاطون ، وفلسفة ابن سينا وابن رشد من المسلمين .

(٣) رينيه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م) : فيلسوف وعالم رياضي فرنسي ، يعده كثير من الباحثين أبا الفلسفة الحديثة ، كانت له مساهمات قيمة في الرياضيات ، من مؤلفاته الفلسفية : (مقال في المنهج) و (قواعد لهداية العقل) ، اشتهرت فلسفته بمبدأ الشك ، واشتهرت عبارته : أنا أشك إذًا أنا موجود ، ومن هذا المبدأ توصل إلى أن هناك أمورًا لا تقبل الشك أبدًا ، ومنها وجود الخالق ﷻ .

(٤) فرانسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦م) : فيلسوف وأديب إنكليزي ، يعد رائد الفلسفة الإنكليزية ، ولد في لندن ، ودرس بجامعة كامبردج لكنه تركها ناقمًا على مناهجها وطريقتها في التدريس ، عين في السفارة الإنكليزية في باريس ثم عاد إلى لندن حيث انتخب عضوًا في مجلس العموم ، وتولى منصبًا قضائيًا رفيعًا ، له مقالات قيمة في الأدب ، إلا أن أثره الأهم كان في الفلسفة ، من كتبه : ترقية العلوم ، والأورغانون الجديد ، وأطلنطس الجديدة التي يبشر بدولة يحكمها العلماء لا الفلاسفة .

(٥) سبقت ترجمته .

(٦) سبينوزا (١٦٣٤ ـ ١٦٧٧م) : فيلسوف هولندي ، ولد لأسرة يهودية ، درس اللاهوت اليهودي في العصور الوسطى ، ودرس الطب وتعمق في العلوم الطبيعية ، وعندما شب تمرد على التعاليم اليهودية المتزمتة ، فاتهم بالإلحاد وطرد من حظيرة الكنيس ، فغير اسمه من (باروخ) إلى مرادفه اللاتيني (Benedictus) وتعني مبروك ، تأثر بالفلاسفة اليهود في العصور الوسطى ، ولا سيما منهم العبريان موسى بن ميمون ، وابن جبرول ، اللذين كانا قد تأثرا بالفلاسفة المسلمين ، تبدأ فلسفة سبينوزا من الله ثم تنزل منه إلى سائر الموجودات ، على النقيض مما اعتاد عليه الفلاسفة ، ولهذا يستهل كتابه الرئيسي (الأخلاق) بالله الذي رأى أنه الحقيقة الأبدية وراء خلق الأشياء .

هيوم[1].

هموم الفلسفة :

ومما لا ريب فيه أن الفلسفة تعد من أبرز الإبداعات الفكرية التي أبدعها الإنسان عبر تاريخه الطويل ، إلى جانب الأدب وضروب الفنون الأخرى ، إلّا أن الفلسفة ظلت تفتقد إلى تلك الأساليب التعبيرية البليغة المشرقة التي يمتاز بها كل من الأدب والفن ، ولا سيما الشعر والغناء ، فقد ظلت الفلسفة (تبدو لزائر عرضي يلقي نظرة سريعة عليها معقدة بشكل محيّر .

ومن أسباب ذلك :

أن الفلاسفة ـ باستثناء بعض الفلاسفة الشرفاء ـ يجدون من الصعب تمامًا أن يتكلموا لغةً يفهمها الشخص العادي .

وحتى إذا أراد الفيلسوف أن يتحدث عن موضوع عادي فإنه يتحدث عنه بعبارات مغرقة بالغموض .

ولهذا فإن غاية ما يمكن أن ترجوه وأنت تقرأ كتابًا فلسفيًّا هو أن تصل إلى فهمٍ واهٍ للأبعاد السرية للمفردات التي يُؤْثِر معظم الفلاسفة أن يستخدموها .

وفي الواقع فليس عليك فعلًا أن تفهم معنى معظم هذه المفردات .. هذا إن كان لها معانٍ أصلًا)[2].

= وقد حفل كتابه بمفاهيم غزيرة قل أن نجدها في كتاب واحد ، وأثرت فلسفته في الفلاسفة الذين أتوا من بعده حتى قال عنه هيجل : إن من يريد أن يصبح فيلسوفًا ينبغي أن يقرأ سبينوزا . ومن مؤلفاته : رسالة في إصلاح العقل ، ورسالة عن الله والإنسان وسلامة روحه ، ومبادئ فلسفة ديكارت .

(1) دافيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٢م) : فيلسوف ومؤرخ إسكتلندي ، قال إن كل شيء بما في ذلك الإنسان سلسلة من الحالات المتتابعة ، وليس لشيء ذاتية قائمة دائمة ، فمعرفتنا تتكون من سلسلة انطباعات حسية تتجمع وفق قوانين الترابط ، والفكرة التي يستحيل ردها إلى الانطباعات الحسية التي كونتها تكون وهمًا ، وأن العلاقة السببية اقتران مطرد بين السبب والمسبب ، ولما كان هذا الاقتران مرهونًا بتجربتنا الحسية فهو محتمل الصدق ، وليس اقترانًا محتوم الحدوث منطقيًّا ، ومن هنا عرف مذهب هيوم بمذهب الشك ، مؤلفه الرئيسي (أطروحة في الطبيعة البشرية ، ١٧٣٩م) لم يجد رواجًا عندما نشره لأول مرة ، فأعاد طباعته تحت عنوان جديد هو (بحث في الفهم الإنساني) فوجد إقبالًا غير متوقع من القراء !

(2) جيم هانكنسون : المرشد إلى الفلسفة ، (ص ٥) (بتصرف) .



(الفيلسوف فرانسيس بيكون)

ولعل أروع ما في الفلسفة جهل الفلاسفة أنفسهم بكثير من حقائق الوجود ، وقد يبدو هذا الثناء في غير محله ، ولكنه سيبدو في محله تمامًا عندما نوضح أن هذا الجهل الذي يطبع معظم الفلاسفة بطابعه هو الذي جعلهم يحلِّقون في عالم الخيال ، ويغوصون في بحار المجهول ، ويرتادون العوالم البكر في محاولة جادة لكشف أسرارها ، ما جعل بعضهم يصف رحلة البحث الشغوف هذه فيقول : (نحن المثقفين لسنا إلَّا طيورًا طائشة في الفضاء !) [1] .

وفي الواقع فإن هذا الطيش الفكري هو الذي أضاء لنا الكثير من الجوانب المظلمة في حياتنا ، وأجابنا على الكثير من الأسئلة الملحة التي لم تكن لتخطر على بالنا لولا ذلك (الجهل المبارك) الذي يظل ينخر في جوارحنا باحثًا عن جواب !

وربَّما للعلة نفسها نجد الفكر الفلسفي لا يملُّ من الدوران حول سؤال المعرفة المحوري الأول وهو (لماذا ؟) ، وهو في الواقع نفس السؤال الذي لا يكفُّ الأطفال عن طرحه على آبائهم وأمهاتهم وأساتذتهم ، وكأن الفلسفة في جوهرها ، وبالرغم من تاريخها الطويل ، كانت وما زالت وسوف تظل تشكل مرحلة الطفولة الأولى في تاريخ الفكر البشري !

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِ الفلسفةِ كَذَلِكَ انَّ تاريخها حافل بالمفارقات الغريبة ، فقد أظهرت وقائع التاريخ في مناسبات عديدة أن شريحة من الناس ، من ذوي الخبرة المتواضعة ، يمكن أن يقدموا لنا آراء واقتراحات ووجهات نظر عملية معقولة لحلِّ مشكلاتنا السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، هي أكثر جدوى مما يفعله فريق متمرس من الفلاسفة الأفذاذ ، وهذا ما دفع واحدًا من رواد الفلسفة الواقعية هو (فرانسيس بيكون) [2] إلى (أن يحكم

---

[1] من رواية (زوربا) للكاتب اليوناني نيكوس كازنتزاكس ، ترجمة جورج طرابيشي ، (١٩٦٦م) .
[2] سبقت ترجمته .

على الفلسفة حسب ثمارها ، أو نتائجها العملية ، وقدرتها على تحسين شروط الحياة ؛ ولهذا أعلن بيكون قطيعته مع الفلاسفة التقليديين الذين يغزلون على عجلات تصورية بدل أن يستخدموا عجلات حقيقية)[1] .

وهو أيضًا ما دعا الفيلسوف (ليبتز)[2] لوضع منطق رياضي يمكن بواسطته للمتجادلين أن يحسبا أفكارهما حسابًا دقيقًا ، بدل أن يتناقشا نقاشًا سفسطائيًا (*Sophistry*) لا يسمن ولا يغني من جوع ، ولا يمكن حسمه أو وصوله إلى أية نتائج عملية مثمرة ، وأساس المنطق الفلسفي الذي نادى به ليبتز أن أية مقولة تقال عن أي شيء هي مقولة تحليلية ، فإذا عرفنا عناصر المقولة ، ثم فنّدناها وحلّلناها وركّبناها ؛ أمكننا الوصول إلى اتفاق أو نظرة موحدة حولها .

ولعل مما يؤيد هذه المقولات حول الفلسفة والفلاسفة ذلك البحث العلمي الطريف الذي أجراه العالم (مايكل كومونز) على متطوعين من جمعية مينسا (*MENSA*) ، وهي منظمةٌ عالميةٌ تضم الذين حققوا نقاطًا مرتفعة في اختبار الذكاء ، والذين يصح أن نطلق عليهم اسم (العباقرة) ، وكان الهدف من البحث قياس النمو الأخلاقي لدى هؤلاء العباقرة ، فأظهر البحث أن العباقرة يتصفون بأداء أخلاقي منخفض ، وقد انتهى الباحث من هذه النتيجة إلى القناعة والاعتقاد بأن العباقرة مؤهّلون لحل مشكلات العالم هراء ، ولا أساس لها من الصحة[3] ، وهذا يعني أن العبقرية الفكرية التي كثيرًا ما يتبجح بها الفلاسفة لا تعني بالضرورة قدرتهم على حل مشكلات العالم ، ربّما لأنهم يميلون إلى الفكر النظري أكثر من ميلهم إلى التفكير العملي .

ونظرًا لهذا الاهتمام النظري البحت الذي يطبع معظم نتاج الفلاسفة فإن التاريخ يخبرنا أن الأمم التي تشتغل بالفلسفة عن بقية العلوم العملية لا تلبث أن تتخلف عن ركب الحضارة ، ولبيان هذه الحقيقة نورد هذين النصين اللذين يؤرخان لفترتين من تاريخنا العربي الإسلامي ؛ للمقارنة بين حال الأمة التي تعطي العلوم العملية بعض اهتمامها فترتقي في معارج التقدم

---

(١) راسل جاكوبي : نهاية اليوتوبيا ، (ص ٢٠٤) ، مصدر سابق .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) انظر : دين كيث سايمنتن (العبقرية والابداع والقيادة) عالم المعرفة ، العدد ١٧٦ ، (ص ١٣٠) ، الكويت (١٩٩٣م) ، وانظر أنطوان بطرس (الثورات العلمية الكبرى في القرن العشرين) .

والتمكين في الأرض ، وحال الأمة التي تنشغل بالفلسفة وعلوم الكلام عن بقية العلوم ، وكيف أنها تقع فريسة للتخلف والضعف .

أمّا النصُّ الأول فيعود إلى العصر الذهبي لعاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد ، وهو لأبي بكر محمد بن الحسن الكَرخي [1] في كتابه (إنباط المياه الخفية) وهو يعني بمصطلحات عصرنا الحاضر (استخراج المياه الجوفية) يقول فيه : (لـمّـا دخلتُ العراقَ ، ورأيتُ أهلَها من الصّغار والكبار يُحِبُّون العِلْمَ ، ويعظّمون قَدْرَه ، ويكرّمون أهلَهُ ، صنَّفتُ في كلِّ مُدَّة تصنيفًا في الحساب والهندسة ..) .

وأمّا النص المقابل فيعود إلى فترة لاحقة بدأت فيها علامات التراجع تصيب الأمة مع انهيار مُلْك العباسيين في المشرق والموحِّدين في المغرب ، وهو نصٌّ لابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) يتحدث فيه عن مدى اشتغال الناس بعلوم الكلام والفلسفة : (وكذلك بَلَغَنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية لبلاد الإفرنجة من أرض رومة وما إليها من العُدْوة الشمالية نافقة الأسواق ، وأن رسومها هناك متجددة ، ومجالس تعليمها متعددة ، ودواوينها جامعة ، وحَمَلَتها متوفرون ، وطَلَبَتها متكثرون ، والله أعلم بما هنالك ، وهو يخلق ما يشاء ويختار) [2].

ويشير ابن خلدون في موضع آخر إلى أن مسائل الطبيعيات لم تكن موضع اهتمام من الناس آنذاك ، ولذلك تركوها جانبًا ، وقد دفع المسلمون من جراء انشغالهم بعلوم الكلام والفلسفة وإهمالهم بقية العلوم العملية ضريبةً باهظةً انتهت بالأمة إلى هامش الأحداث ، وألقت بها إلى آخر الركب ، فيما أصبح الآخرون في المقدمة .

ونحن هنا لا نعمِّم الأحكام ، ولا نريد أن نحطَّ من شأن الفلسفة أو تتجاهل دورها في إثراء الفكر البشري والتحريض الحضاري ، ولكننا نريد التأكيد على أن الحضارات لا تقوم بالفلسفة وحدها ، بل لابد من تآزر الفلسفة مع بقية العلوم في عملية النهوض وبناء

---

(١) أبو بكر محمد بن الحسن الكرخي (ت ١٠١٩م) : واحد من كبار الرياضيين العرب ، له كتاب (الكافي في الحساب) ، و (الفخر في الجبر) أورد فيهما حلولًا متنوعة لمعادلات الدرجة الثانية ، وبحوثًا في إيجاد الجذور التقريبية للأعداد ، وبراهين النظريات التي تتعلق بإيجاد مجموع مربعات ومكعبات الأعداد الطبيعية التي عددها : أنظر [الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٤٥٠] .

(٢) المقدمة ، (ص ٤٦٦) .

الحضارة المنشودة ، كما أننا لا نلقي باللوم على الفلاسفة وحدهم ، ولا نزعم أن تخلف الأمم يرجع فقط إلى الاهتمام المفرط بالفلسفة وإهمال بقية العلوم ، فقد كان هناك على مدار التاريخ فلاسفة رواد عاشوا هموم الناس ، وخاضوا غمار الصراعات المختلفة بصدق وإخلاص ، وحاولوا جاهدين أن يساهموا بأفكارهم ونظرياتهم في تقدم البشرية ورقيّها ، فمنهم من نجح ، ومنهم من فشل ، شأنهم في هذا شأن كثير من الدعاة إلى التغيير والنهوض .

ولعلَّ أكبر دليل على هذه المشاركة الإيجابية بهموم الناس من قِبَل الفلاسفة أن الكثيرين منهم تعرَّضوا من جراء أفكارهم ومواقفهم الشجاعة للملاحقة والسجن والنفي والتعذيب ، واتُّهم بعضهم بحقٍّ أو بغير حقٍّ بالهرطقة والتجديف والكفر والزندقة ، وأحرقت كتب الكثيرين منهم أو مُنعت من النشر ، بل إن بعض الفلاسفة أُحْرِقُوا أحياءً قبل أن تُحْرَق كتبهم ؛ لأنهم بسبب طبيعة الفكر الفلسفي ظلوا يخوضون في المسائل الحساسة ، ولا سيما منها المسائل الدينية والسياسية ، وهي كما نعلم مسائل شائكة محاطة بحقول من الألغام شديدة الانفجار .

ولهذا السبب نجد أن معظم الفلاسفة أدينوا بشكل أو بآخر من سلطات عصرهم ، سواء كانت سلطات لاهوتية أم سياسية أم اجتماعية ، ولم يعرف الناس قيمتهم إلَّا فيما بعد ، أي بعد أن ماتوا ودفعوا الثمن ، وأكبر مثال على ذلك الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) الذي عاش محتقرًا ، منبوذًا ، مطاردًا من مكان إلى آخر ، وكأنه مجرم أو شخص خطير جدًّا ، وكانوا يرجمونه بالحجارة ويكسرون نافذة بيته حتى تصل الحجارة إلى أقدام السرير الذي ينام عليه ، ولكن بعد سنوات قليلة ، عندما اندلعت الثورة الفرنسية عرف الناس قدره ، فكرَّموه ، ونقلوا رفاته إلى مقبرة العظماء ، واتخذوا من كتبه دستورًا ومنهاجًا للجمهورية الفرنسية .

أمَّا الفيلسوف الفرنسي (فولتير) [1] ، فَقَدْ سُجِنَ في قلعة (الباستيل) الشهيرة قبل أن يهرب إلى إنكلترا بلد الحريات في ذلك الزمان ، ثُمَّ إلى هولندا ، ومع أن فولتير على عكس روسو قد حظي بالتكريم الجماهيري في شوارع باريس قبل أن يموت بثلاثة أشهر فقط فإن الكهنة رفضوا الصلاة عليه ورفضوا دفنه في مقابر المسيحيين ؛ لأنهم اعتبروه كافرًا زنديقًا .

---

(١) سبقت ترجمته .

أما الفيلسوف (ديدرو) (١٧١٣ ـ ١٧٨٤م) فقد اعتقل لفترة من الزمن في سجن آخر ، وحكم على الفيلسوف كوندرسيه (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤م) بالموت ظلمًا وعدوانًا مما دفعه للانتحار ، وقيل إنهم هم الذين قتلوه بالسم في سجنه ، وكذلك كانت نهاية الكثيرين من الفلاسفة والمفكرين وأهل الفكر ودعاة التغيير [1] .

ومن سمات التاريخ الفلسفي أيضًا أن معظم الفلاسفة الذي ساهموا في تشكيل الفكر الفلسفي وكانت لهم بصمات واضحة على الفكر الفلسفي كانوا من المنبوذين ، أمّا المترفون وأبناء الذوات الذين يرفلون في العيش الرغيد ولا يعانون من الحرمان والفقر والجوع وكوارث هذه الدنيا التي لا تنتهي فلا يمكن لهم أن يصبحوا فلاسفة ، بل لا يمكن لهم أن يفهموا من التجربة البشرية إلا نصفها ، هذا إذا ما فهموا شيئًا على الإطلاق ، وَحْدَهُم أولئك الذين عركتهم الحياة ، وصهرتهم في أتونها الملتهب مرشحون لإنجاز الأعمال الفلسفية الكبرى على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي الكبير ميشيل سير [2] .

ومما يسجل لصالح الفلسفة عبر تاريخها الطويل أن أحدًا من الناس لم يُقتل بسبب الفلسفة ، بينما قتل الملايين بسبب التعصب الديني أو المذهبي أو الحزبي أو العرقي ، ذلك التعصب المقيت الذي أدخل البشرية في حروب طاحنة تركت جروحًا غائرة وتشوهات واسعة في ذاكرة التاريخ ، وربما يعود السبب في هذا الفارق ما بين الفلسفة وغيرها من ضروب الفكر البشري والعقائد إلى انشغال الفيلسوف بالفكر أكثر من انشغاله بالواقع ، على النقيض من حال السياسيين وأصحاب المذاهب العقائدية الذين ينشغلون بالواقع عن التفكير بتغيير هذا الواقع ، ويعملون جهدهم على حشد الأنصار والمؤيدين والمريدين ، ولا يتورَّعون عن ارتكاب أشد الحماقات من أجل المحافظة على هذا الواقع ضمانًا لاستمرارهم

---

(١) جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٨٨٨٨ ، الأحد ٣٠/ ٣/ ٢٠٠٣م ،(ص ١١) ، عرض لكتاب (تاريخ الفلسفة الفرنسية) تأليف دولي ويسمان ، إصدار عام (٢٠٠٢م) ، تعليق هاشم صالح ، ويمكن الرجوع كذلك إلى كتاب الفيلسوف الفرنسي ميشيل سير *(Eloge de la Philosophie en Langue Française, Fayard PARIS)* الذي عرض فيه الكثير من الحوادث التاريخية عن اضطهاد الفلاسفة في أوروبا .

(٢) ميشيل سير : فيلسوف فرنسي معاصر ، عمل أستاذًا في جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة ، وكان عضوًا في الأكاديمية الفرنسية ، وهو صاحب مجموعة من الكتب الشهيرة الرصينة ، وهو من الفلاسفة القلائل الملمين بنظريات العلم الحديث ، وقد شارف اليوم على الثمانين من عمره لكنه لا يزال ناشطًا وينشر الكتب والبحوث ، وربما كان أحد الفلاسفة القلائل الذين يمتلكون نظرة كونّية واسعة عن العالم والتاريخ [انظر : الشرق الأوسط العدد ٩٥٣٨ ، ٨ يناير ٢٠٠٥م ، د.هاشم صالح] .

في (الزعامة) ، أمّا الفيلسوف الحق فلا تجد عنده هذه النزعة ، وقلّما يحفل بحشد الأنصار والمؤيدين والمريدين ، وتاريخ الفلسفة حافل بالفلاسفة الذين قضوا نحبهم بعيدًا عن الناس ، في منفًى ناءٍ ، أو سجن موحش شديد الظلمة والبرودة ، أو بَرِّيَة شاسعة ليس فيها غير الوحوش .

الفلسفة والدين :

من خلال استقرائنا وتقصِّينا لأبرز المسائل الفلسفية التي شهدها تاريخ الفلسفة ومقابلتها بالمسائل الدينية نعود هنا للتأكيد على الدعوى التي بدأنا بها هذا الفصل ، وهي أن الفكر الفلسفي قد نشأ كرجع الصدى للرسالات السماوية ، ومما يعزز دعوانا هذه ما أوردناه آنفًا عن فلسفة إبليس التي واكبت ظهور أول البشر ، ثم الوقوف عند أبرز مقولة للفيلسوف الإغريقي (طاليس)[1] ، الذي يعده المؤرخون أبا الفلسفة ، تلك المقولة التي تردُّ نشأة العالم إلى عنصر أساسي هو (الماء) ، وهي في الحقيقة مقولة قديمة جدًّا لا نستبعد أنها وردت في بعض الكتب السماوية الأولى على غرار ما وردت في القرآن الكريم ، في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ [هود : ٧] ، وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، وهذا ما يجعلنا نرجِّح أن المقولات الفلسفية الأولى قد انطلقت أساسًا مما جاء في الرسالات السماوية التي تضمنت الكثير من الإشارات لظواهر الكون ومخلوقاته ، وطبيعة العالم ، ونشأته ومصيره ، وغير ذلك من المسائل الفلسفية الأساسية التي تعاقب على تناولها ومناقشتها معظم الفلاسفة على مدار التاريخ .

وإن من يتعمق في دراسة المسائل الفلسفية الأساسية يجد أن الفلسفة في جوهرها كالدين تُعْنَى بدراسة المبادئ الأولى للوجود ، ولكنها تختلف عن الدين بأنها تعتمد العقل مرجعية أساسية ووحيدة لها ، ولا تقيم وزنًا للمُسَلَّمات والغيبيات الدينية مهما كان مصدرها ، على النقيض من الدين الذي إلى جانب اعتماده على العقل والبرهان العقلي فإنه لا يُغفل الغيبيات

---

(١) طاليس (٦٢٠ ـ ٥٥٠ ق.م) : فيلسوف يوناني ، يعد أحد (الحكماء السبعة) في تاريخ اليونان ، وهو أول فيلسوف لجأ إلى التفسير العلمي من أجل فهم العالم ، بدلًا من التفسير الأسطوري الذي كان سائدًا من قبل ، وقد ذهب طاليس إلى أن أصل العناصر كلها هو الماء ، وهذا يعني في رأيه تجانس الطبيعة مهما بدا للحواس من اختلافات أو تباين بين مظاهرها .

والمسلَّمات ، بل إنه يجعل بعضها معلومًا من الدين بالضرورة لا يجوز لمؤمن أن ينكرها ، وهنا تكمن نقطة الخلاف الجوهرية بين الدين والفلسفة ، وهذا الخلاف في الحقيقة خلاف مفتعل افتعله بعض الفلاسفة الذين وقفوا من الدين مواقف سلبية بحجة أن الدين لا يحفل بالعقل ، وأنه يعوِّل أساسًا على الخرافة والمعجزة والأسطورة على حساب الواقع والتجارب العلمية والبرهان العقلي .

وهذه كلها اتهامات لا أساس لها من الصحة ، ولا تصمد أمام البحث العلمي الدقيق ، فقد تضافرت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع الفقهاء على أن العقل هو أساس التكليف الشرعي ، وقد حفل القرآن الكريم بالكثير من الآيات التي تتوجه بالخطاب إلى (الذين يعقلون .. أولي الألباب .. الذين يتفكرون .. الذين يتدبرون ..) ، كما أن النبي محمدًا ﷺ بيَّن أن العقل هو أصل التكليف فقال : « رُفِعَ القلمُ عن ثلاثةٍ : عن النائمِ حتى يستيقظَ ، وعن الصبيِّ حتى يحتلمَ ، وعن المجنونِ حتى يَعْقِلَ »[1] ، وهكذا تثبت نصوص الكتاب والسنة أن الدين لا يتجاهل العقل ولا يهمل البرهان العقلي كما يزعم أهل الفلسفة ، بل هو يجعل العقل أساس التكليف ، وينكر على الذين يعطلون عقولهم وحواسهم عن رؤية الواقع ويتوعدهم بأشد العذاب ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

ويمتاز الدين عن الفلسفة بنظرته الشمولية للوجود ، فهو لا يتوقف في نظرته للعالم عند ما هو مُشَاهَد أو محسوس فحسب كما هي حال الفلسفة ، بل تتعدى نظرته عالمَ الشهادة إلى عالم الغيب الذي تؤكد آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس أنه أوسع وأرحب من عالم الشهادة بما لا يُقاس ، وقد اعترف جهابذة العلوم أخيرًا بأن ما يجهلونه من هذا الوجود أكثر بكثير مما يعلمونه ، حتى قال قائلهم : (لقد أصبحنا اليوم نعي تمامًا أننا كلما ازداد فهمنا كلما ازدادت الاحتمالات الغريبة لجهلنا ، فالكون في الحقيقة أغرب بكثير مما يمكننا أن ندركه !)[2]

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٥٦٠) ط ، عزت عبيد دعاس ، والحاكم (٢/ ٥٩) دار الكتاب العربي .

(٢) فرانك كلوز : النهاية ، الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون ، (ص ٢٤٤) .

وفي كل يوم تتكشف لنا حقائق جديدة في شتى حقول المعرفة ، وهذا ما يؤكد قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، وَمِنْ ثَمَّ فإن إنكار بعض الفلاسفة لبعض ما أشارت إليه الرسالات السماوية مما هو غيبي أو غير محسوس لا يقوم على أساس من العلم ، وها هو ذا واحد من أبرز علماء الفيزياء النظرية المعاصرين وهو البريطاني (فرانك كلوز)[1] ، يصرح بوضوح أن هناك عالمًا آخر غير مرئي يشاطرنا هذا الوجود ؛ فيقول : (يتركز اهتمام الفيزياء النظرية في الوقت الراهن في نظرية تصدر أحكامًا عميقة بشأن المادة التي نسج منها الكون ، وهذه النظرية اسمها الرمزي هو الأوتار الفائقة (*String theory*) ، وهي تقضي بأنه في وقت الانفجار الكبير كان هناك عشرة أبعاد ، وثمة ستة من تلك الأبعاد أصبحت مخفية عن حواسنا الفجة ، ولكنها تترك علاماتها بما ينشأ عنها من كهرباء ، ونشاط إشعاعي نووي ، وما يتعلق بذلك من ظواهر ، ومن النتائج الأخرى البارزة المترتبة على هذه النظرية أنها قد تدلنا ضمنًا على أن ثمة كونًا خفيًا بالكامل يعمل هنا في الداخل مباشرة من الكون المألوف لنا)[2] .

ومن الملاحظات المهمة الأخرى التي تستحق التأمل طويلًا في إطار المقابلة ما بين الدين والفلسفة ، أن الفلاسفة يتوجهون بأفكارهم أساسًا إلى نخبة المجتمع ، ولا يحفلون كثيرًا بالعامة ، ولا سيما الطبقات الدنيا من الناس الذين يعتقد الفلاسفة أن عقولهم قاصرة عن الارتقاء إلى مستوى الفكر الفلسفي الرفيع ، ويوصف الخطاب الفلسفي عادة بأنه خطاب متعالٍ (*Transcendent*) أو مترفِّع عن المجتمع ، على النقيض من الخطاب الديني الذي يتوجه إلى الناس جميعًا ، بمختلف طبقاتهم وانتماءاتهم ومستوياتهم الفكرية ، ولهذا السبب نجد أن الأفكار والنظريات الفلسفية على الرغم من كثرتها وكثرة الفلاسفة الذين ظهروا على مدار التاريخ البشري فإنها نادرًا ما أدت إلى تغيير ملموس في أحوال الناس !

على النقيض من الأفكار الدينية والرسالات السماوية التي كان لها تأثير أعمق وأوسع بكثير مما كان للأفكار الفلسفية ، اللّهم إلّا تلك الأفكار الفلسفية التي آمن بها بعضهم ،

---

(١) فرانك كلوز : واحد من أبرز العلماء المعاصرين العاملين في حقل الفيزياء النظرية في بريطانيا ، وهو يعد مرجعًا علميًا عالميًا في فيزياء الجسيمات الذرية ، شغل مناصب علمية عليا في معمل رذرفورد وكلية الملكة ماري في جامعة لندن ، من أبرز مؤلفاته (بصلة الكون) وهو مرشد في فيزياء الجسيمات ، و (انفجار الجسيم) وهو تأريخ مصور للفيزياء الذرية في القرن العشرين .

(٢) فرانك كلوز : النهاية ، الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون ، (ص ٢٧٠) ، مصدر سابق .

ورفعوها إلى مصافّ العقائد الدينية ، وخاضوا من أجلها الثورات الدامية ، كالفلسفة الماركسية التي أشعلت الثورة البلشفية في روسيا عام (١٩١٧م) والثورة الثقافية في الصين عام (١٩٤٩م) ، فقد أحدثت هذه الفلسفات العقائدية بعض التحولات الاجتماعية ، وأحرزت بعض التقدم العلمي والتقني ، وتجاوزت في بعض الأحيان حدودها الجغرافية وانتشرت في مطارح بعيدة من الأرض ، إلّا أن الضريبة التي ظلت الشعوب تدفعها من جراء تلك الأفكار كانت باهظة التكاليف إلى الحد الذي جعل أصحابها ومعتنقيها ومؤيديها يتخلون عنها ، ويبدؤون من جديد رحلة العودة إلى الدين بحثًا عن بدائل أقلّ ثوريةً وأكثرَ واقعيةً واحترامًا لحقوق الإنسان وكرامته .

ومع تسليمنا بأن الإبحار في عالم الفلسفة ممتع ولا يخلو من الفائدة ، ومع اعترافنا أيضًا بأن الفلسفة قد أغنت الفكر البشري بالكثير من المفاهيم التي حملته على التحليق بعيدًا وعاليًا من أجل رؤية للوجود أشمل وأرحب ، إلّا أن هذا التحليق المغرق في المثالية كثيرًا ما أبعد الفلاسفة عن رؤية الواقع المعاش ، وضلّل سعيهم نحو الحلول العملية القريبة التي تحتاجها البشرية المنكودة لحلّ مشكلاتها اليومية العويصة ، فقد ظلّ معظم الفلاسفة يحلمون بيوم يأتي على البشرية فيقرأ فيه كل إنسان روائع أرسطو ومحاورات أفلاطون ، ولكنهم غفلوا أو تغافلوا عن أهم حلم كان وما زال يداعب أجفان البشرية ، وهو أن يأتي يوم على الناس يجد فيه كل إنسان من القوت ما يُقيم أوده أو يُسكت أنّات جوعه .

وربّما لهذا السبب ظلّ الفيلسوف (أفلاطون) يدعو الفلاسفة للنزول من سماء الفلسفة إلى أرض الواقع ، إذ لا قيمة في رأيه للأفكار المجرّدة إذا لم نجربها ونختبر مقدار صحتها . (فقد كان أفلاطون يدعو تلاميذه للتنافس مع رجال الأعمال ذوي الرؤوس الفردية اليابسة ، ورجال السياسة الدُّهاة لكي يتعلموا من كتاب الحياة نفسها ، ويحرقوا أصابعهم ، ويحكّوا ذقونهم الفلسفية أمام حقائق العالم القاسية ، ويكسبوا خبزهم ومعيشتهم بعرق جباههم ، وكان يقول : إن هذا الامتحان العملي ينبغي أن يستمر دون رحمة أو شفقة حتى يتخلص الفلاسفة من لعنة الزهو والخيلاء ويحققوا في أنفسهم حالة الرشد والحكمة والواقعية التي قدمتها لهم التجارب)[1] .

---

(١) ويل ديورانت : قصة الفلسفة ، (ص ٤٢) .

وهي نفس الدعوة التي نادى بها الفيلسوف (جون ديوي) [1] الذي دعا لتجديد الفلسفة لكي تكون على اتصال وثيق بما يحدث في أمور البشرية من أزمات ، ومن حالات التوتر ؛ لتخرج من جمود القول بأنها لا دخل لها في الحياة الواقعية ، وتساهم في حل مشاكل هذه الحياة ، وفي تكوين علم إنساني يصلح أن يكون تمهيدًا أو مقدمة لتجديد أحوال الحياة الإنسانية الفعلية [2] .

وهذا هو المنهج الذي يدعو الدين أتباعه للسير عليه ، فهو يدعوهم للانخراط في الحياة والتعايش مع الواقع ؛ لأن هذه المعايشة هي المحكُّ الحقيقي للإيمان ، وكان الدين على الدوام أكثر من الفلسفة التصاقًا بهموم الناس وقضاياهم الواقعية ، وكان التشريع السماويُّ أكثر مسايرةً واستجابةً لحاجات الناس ، وأكثر إحساسًا بمعاناتهم ، كما قدَّم لهم الحلول العملية التي توافق فطرتهم ، وتعينهم على القيام بأمانة الاستخلاف في هذه الدنيا ، وتحقق لهم السعادة الحقيقية التي يتوقون إليها ، ليس في الدنيا وحدها ، بل في الآخرة كذلك .

ومما يؤخذ على الفلاسفة أيضًا تظاهرهم بالثقة التي لا حدود لها ، وزعمهم المبالغ فيه أنهم يملكون السفينة المجهزة تجهيزًا جيدًا للإبحار ، ودفة القيادة الصالحة للإقلاع إلى مختلف الجهات وفي كافة الظروف والأنواء ، إلَّا أن سفينتهم المزعومة هذه نادرًا ما خاضت عباب البحر ، بل ظلَّت تقضي معظم أوقاتها مسترخية في الظل عند الشاطئ ، سارحة في

---

(١) جون ديوي (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢م) : فيلسوف ومربٍّ أمريكي ، اشتهر بأنه (فيلسوف الديموقراطية) واعتُبر أعظم مربٍّ في الغرب خلال النصف الأول من القرن العشرين ، عمل بالتدريس في عدة جامعات ، ونشر العديد من المؤلفات ؛ منها : (عقيدتي التربوية ، ١٨٩٧م) ، و (المدرسة والمجتمع ، ١٩٠٠م) ، و (الديموقراطية والتربية ، ١٩١٦م) ، و (كيف نفكر) ، و (التجديد في الفلسفة) ، و (البحث عن اليقين) ، و (نظرية البحث) ، و (الحرية والثقافة) ، و (التربية في العصر الحديث) ، وقد دافع عن الديموقراطية والاشتراكية بإصرار ، وانبثقت فلسفته عن الاتجاه التجريبي الذرائعي (البراجماتي) الذي يرى أن المعرفة تستمد من التجربة ، وأن الأفكار تدور مع المشكلات والمواقف والظروف الاجتماعية ، ومعايير العقلانية تتوقف على الأحوال الاجتماعية للعصر الذي ظهرت فيه تلك الأفكار ، وإذا ما تغيرت الظروف والمواقف فإن تلك الأفكار ربما صارت عديمة الجدوى أو قليلة الفعالية ، دعا إلى تربية الأطفال تربية تجمع بين النشاط البدني والعقلي والاجتماعي ، وإعطائهم مساحة واسعة من الحرية التي تتيح لهم القيام بمبادرات مبدعة ، وتكسبهم مهارات عملية ، وتنمي عندهم التفكير النقدي ، وقد اتهم من أجل هذه الأفكار بالمبالغة في الحرية إلى حد الفوضى وإهمال القيم الروحية .

(٢) د.محمد عبد الرحمن مرحبا : المسألة الفلسفية ، (ص ٥٧) ، منشورات عويدات ، ط.٣ ، بيروت ، باريس (١٩٨٨م) .

دنيا الخيال والتأمل ، بانتظار اللحظة المناسبة للإبحار ، وليست مسرحية (بانتظار غودو)[١] الشهيرة سوى مثال أدبي واحد على مثل هذا الانتظار الفلسفي العبثي غير المجدي .

أمَّا الدين بالمقابل فقد كان أكثر واقعية ، وأكثر التصاقًا بهموم الناس ، فقد قدَّم لهم حلولًا واقعيةً للمشكلات التي تعترض حياتهم ، وهو لم يَعِدهم بفردوس على الأرض كالتي يعدهم بها الفلاسفة المثاليون ، بل يحضُّرهم نفسيًّا لمواجهة أصعب الظروف في هذه الحياة الدنيا ، ولكنه في الوقت نفسه يحرِّضهم على تغيير هذه الظروف إلى ما هو أفضل ، ليس من خلال مقولات نظرية كما يفعل أكثر الفلاسفة ، بل من خلال مناهج عملية توافق قدراتهم وإمكانياتهم وتراعي فطرتهم البشرية .

ولا يفوتنا ونحن نقابل ما بين الدين والفلسفة أن نشير إلى أن الانهماك بالفلسفة لا بد أن ينتهي بالفيلسوف إلى إحدى نهايتين متناقضتين أشد التناقض فيما يتعلق بموقفه من الدين ، فإن الانهماك بالفلسفة إمَّا أن يحلق بالفيلسوف في معارج الإيمان عندما يدرك من خلال تأملاته العميقة في مخلوقات هذا الوجود قدرة الخالق التي لا حدود لها ، وعظمة هذا الوجود الذي أبدعته يداه على غير مثال سابق ، وإمَّا أن ينتهي المطاف بالفيلسوف إلى الإلحاد التام كما حصل لكثير من الفلاسفة الذين أسَرَتْهم النزعة المادية ، فأرجعوا كل مظاهر الوجود إلى المادة ، واعتقدوا أن العالم قديم ، وأنه هو الذي أوجد نفسه بنفسه من غير خالق .

ومن أجل تجنب الوقوع بمثل هذا المطب الخطير فقد تحاشى كثير من فقهاء الإسلام الخوض في المسائل الفلسفية ، بل كانوا يحذرون منها ، ولعلَّ خير مثال على هذا الموقف من الفلسفة موقف الإمام الفقيه (أبي حامد الغزالي)[٢] ، الذي بلغ الاهتمام بالفلسفة في عصره حدًّا كبيرًا دفعه للخوض في عبابها ، وبعد رحلة طويلة خرج علينا بكتابه الشهير

---

(١) مسرحية (بانتظار غودو) من تأليف الروائي المسرحي الإيرلندي صموئيل بيكيت (١٩٠٦ ـ ١٩٨٩م) واصطبغ أدبه بالنزعة العبثية ، وكان واحدًا من أبرز الأدباء الذين روَّجوا لهذا النوع من الأدب تحت تأثير الفلسفة الوجودية التي شاعت وكثر مؤيدوها في أواسط القرن العشرين بصورة خاصة ، نال جائزة نوبل في الأدب عام (١٩٦٩م) .

(٢) أبو حامد ، محمد بن محمد بن محمد الغزالي (١٠٥٨ ـ ١١١١م) : ولد في طوس بخراسان ، درس الفقه وعلم الكلام على إمام الحرمين الجويني ، وارتحل إلى بغداد فالحجاز فالشام فمصر طلبًا للعلم ، ثم عاد إلى بلده طوس وتوفي فيها ، صنف أكثر من أربعين سِفرًا في الفقه والفلسفة والتَّصوُّف ؛ منها : البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، والخلاصة ، وكلها في الفقه . وله في الفلسفة : المنقذ من الضلال ، وتهافت الفلاسفة . وله : إحياء علوم الدين ، الذي يعدُّ موسوعة جامعة في علوم الدين المختلفة ، وهو من أشهر كتبه وأكثرها انتشارًا .

(تَهَافُتُ الفَلاسِفَةِ) الذي هاجم فيه الفلاسفة ، وعمل على دحض مقولاتهم المختلفة ، وربَّما يرجع هذا الموقف من الغزالي وغيره من الفقهاء الذين عارضوا الفكر الفلسفي إلى ما شاهدوه من أن الذين خاضوا في المسائل الفلسفية العويصة لم يسلموا في الغالب من بعض شطحاتها أو مطباتها ، وهذا ما جعل ابن خلدون يخصص فصلًا كاملًا للحديث عن الفلسفة ، مبيِّنًا ما فيها من منافع ، ومحذرًا في الوقت نفسه مما تنطوي عليه من مزالق ومعاطب ، وبعد حديث طويل يختم الفصل قائلًا : (.. فيستولي الناظرُ فيها بكثرةِ استعمالِ البراهينِ بشروطِها على مَلَكةِ الإتقانِ والصَّوابِ في الحِجَجِ والاستدلالاتِ ؛ لأنها وإنْ كانت غيرَ وافيةٍ بمقصودِهِمْ فهي أصَحُّ ما عَلِمناهُ من قوانينِ الأنظارِ ، هذه ثمرةُ هذهِ الصناعةِ ، مع الاطلاعِ على مذاهب أهل العلمِ وآرائِهم وَمَضَارِّها ما عَلِمْتَ ، فَلْيَكُنِ النَّاظِرُ فيها مُتَحَرِّزًا جَهْدَهُ من مَعَاطِبِها ، وَلْيَكنْ نَظر مَنْ يَنْظر فيها بَعْدَ الامتلاءِ من الشَّرعياتِ ، والاطِّلاعِ على التفسيرِ والفِقهِ ولا يَكُبَّنَّ أحَدٌ عليها وهو خِلْوٌ من علومِ المِلَّةِ فَقَلَّ أنْ يَسْلَمَ لذلكَ من معاطِبِها)[1] .

ومما لا ريب فيه أن تأصيل علم الفقه الإسلامي على يدي (الإمام الشافعي)[2] ، في وقتٍ مبكر من تاريخنا الإسلامي قد ساهم مساهمةً كبيرةً في حماية الدين من الأفكار الفلسفية المنحرفة التي لم يسلم منها دين آخر قبل الإسلام .

ولكن ـ مع كل ما قدمناه عن الفلسفة وأهلها ـ لا مندوحة لنا من الاعتراف بأن للأفكار الفلسفية سحرًا خاصًا عجيبًا آسرًا للنفوس التواقة للتأمل والمعرفة ، وهذا ما يجعل النزوع إلى الفلسفة علة عصيَّة قَلَّ أن يبرأ منها واحد من أهل الفكر والنظر ، وليس من النادر أن تسيطر بعض الأفكار الفلسفية على بعضهم إلى الدرجة التي جعلت الشاعر الفيلسوف الكبير (محمد إقبال)[3] ، يناجي ربه بضراعة ويقول : يا ربِّ ، إمَّا أن تُرسِلَ لي مَنْ يَفْهَمُ عَلَيَّ ، أو أن تَنْزِعَ هذهِ الأفكارَ من رأسي .

---

(١) المقدمة ، (ص ٥١٧) .

(٢) أبو عبد الله ، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع المعروف بالشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ) هو أحد أئمة المذاهب الأربعة ، ولد في غزة بفلسطين ، وتلقى العلم بمكة والمدينة ، وتتلمذ على يديه علماء أجلاء ؛ منهم الإمام أحمد بن حنبل ، وكانت له مآثر جليلة ومناقب عظيمة ، جمع إلى علم الفقه القراءات وعلم الأصول والحديث واللغة والشعر وكان شديد الذكاء ، توفي في مصر ، من أهم مؤلفاته : (الأم) في الفقه ، و (الرسالة) في أصول الفقه .

(٣) سبقت ترجمته .

وهكذا ترى عامة الفلاسفة يعيشون الحياة وهم يتحسسون نبضها ، ويتفكرون بتفاصيلها ، باحثين عن العلة في ذلك كله ، بينما نجد عامة الناس سادرين في سفاسف الأمور ، يسعون جاهدين لاقتناص شهوة عابرة أو نزوة هابطة ، غير عابئين بشيء مما يجري حولهم ، ولا مكترثين بالمستقبل الذي لا يكفُّ عن مفاجآته المزلزلة ، ولهذه الأسباب نجد عامة الناس زاهدين بالفلسفة وأهلها ، وقد ساءت سمعتها عند أكثرهم ، لا سيما بسبب عداء غالبية الفلاسفة للدين ، وهذا ما ترك انطباعًا قويًا لدى العامة بأن الفلسفة قرين الإلحاد والكفر .

وهذه في الحقيقة فِرْيَة لا يجوز تعميمها على سائر الفلاسفة ، فقد شهد تاريخ الفلسفة كثيرًا من الفلاسفة المؤمنين ، وتراثنا الفلسفي الإسلامي خير شاهدٍ على ما نقول ، فهو حافل بأسماء الفلاسفة الذين اشتغلوا بالفلسفة ، ولم يجدوا بينها وبين الدين ذلك التقابل الحاد ، بل إن بعض فقهائنا الفلاسفة كرَّسوا الكثير من مؤلفاتهم لبيان أوجه التوافق ما بين الدين والفلسفة ، ومنهم على سبيل المثال الفيلسوف الطبيب الفقيه الأندلسي (ابن رشد)[1] الذي بلغ مرتبة عالية في العلوم الشرعية ، وعمل قاضيًا ، وألَّف كتابه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) الذي يعد عمدة في الفقه المالكي ، وبلغ مرتبة عالية في الفلسفة فأبدع كتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) الذي حاول فيه التوفيق بين الفلسفة والدين ، وبيَّن أن الشريعة الإسلامية حضَّت على النظر العقلي ، بل أوجبته ، وأن الشريعة والفلسفة حقٌّ ، وأن الحق لا يضادُّ الحق بل يؤيده ويشهد له .

ونذكر من فقهائنا الذين اشتغلوا بالفلسفة أيضًا (ابن خلدون)[2] ، الذي تولى القضاء في مصر أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، وكان فيلسوفًا فذًّا بين الفلاسفة المسلمين وغير المسلمين ، وقد فنَّد الكثير من المسائل الفلسفية ، وهو من أوائل الذين كتبوا في فلسفة التاريخ ، وما زال لكتابه الفريد (المقدمة) مكانة كبيرة عند دارسي الفلسفة .

وخلاصة القول .. فإن الفلسفة والدين وإن كانا يختلفان في بعض طرائق البرهان والنظر والنتائج كما أسلفنا ، فإنهما يلتقيان في الكثير من المسائل الجوهرية ، ولا سيما منها اعتماد البرهان العقلي مصدرًا أساسيًا من مصادر المعرفة ، وليس صحيحًا ظَنُّ بعض الفلاسفة

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) سبقت ترجمته .

أن الدين يقوم على الإيمان الغيبي ولا يقيم وزنًا للبرهان العقلي ، فالإسلام يعدُّ العقل أساسًا للتكليف الشرعي ، والقرآن الكريم حافل بالشواهد التي تدعو للتفكر العقلي ويعده دليلًا على صدق الرسالة السماوية ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

الفلسفة والعلم :

مما لا جدال فيه أن الفلسفة ـ على مدار تاريخها الطويل الحافل بالأفكار العظيمة ـ قد ساهمت مساهمة كبيرة في إثراء الفكر البشري ، وحرَّضت العلماء على طرح نظريات جريئة وتحقيق إنجازات عظيمة ، إلَّا أن الفلسفة بعد هذا العطاء الثري الذي لا يُنكر دخلت مع بدايات عصر العلم الحديث امتحانًا صعبًا خرجت منه بحالة مأساوية لا تحسد عليها ، فقد أمست منذ بدايات عصر العلم الحديث مجرد ترف فكري غير قادر على تقديم إضافات حقيقية للعلم ، واتسعت الهوة كثيرًا ما بينها وبين العلم (وبات العلماء ينظرون نظرة شك إلى تأملات الفلاسفة التي كثيرًا ما بدت لهم وقد أعوزتها الدقة في الصياغة ، وأنها تدور حول قضايا عديمة الجدوى ولا حلَّ لها ، أمَّا الفلاسفة فلم يعودوا بالمقابل يهتمون بالعلوم ؛ لأن نتائجها كانت تبدو لهم محدودة ، ولقد كان هذا التباعد ضارًّا بكلٍّ من الفلاسفة والعلماء)[1] ، ما جعل الطبيب والفيلسوف الفرنسي لا متري (١٧٠٩ ـ ١٧٥١م) يقول : فلنمسك بعصا التجربة ، ولنترك وراءنا تاريخ كل الآراء الفلسفية الباطلة .

وربَّما هو السبب نفسه الذي دفع الفيلسوف الإغريقي الكبير أرسطو الذي كان تلميذًا في أكاديمية أفلاطون إلى القول : (إن أفلاطون عزيزٌ عليَّ ، ولكنَّ الحقيقةَ أغلى على قلبي) في إشارة واضحة وصريحة من أرسطو إلى مكانة الحقائق العلمية وتقديمها على الآراء الفلسفية حتى وإن كان قائلها من كبار الفلاسفة .

---

(١) فيليب فرانك : فلسفة العلم ، (ص ٧) .



(لقد تطور العلم تطورًا هائلًا ، وأصبح يستعين بالتجارب العملية ، والآلات ، والتقنيات المعقدة ، بينما بقيت الفلسفة تعتمد التفكير الذهني المجرد وهي قابعة في برجها العاجي)

إلّا أن مثل هذه المواقف الحادة من الفلسفة والفلاسفة ينبغي ألّا تنسينا دور الفلسفة في بلورة كثير من المفاهيم العلمية عبر تاريخها الطويل ، فقد كان للفلسفة دور لا ينكر بتحسين طرائق التفكير البشري ، وترسيخ قواعد المنطق العقلي ، والحث على التفكر والبحث والنظر ، مما كان له تأثير كبير في بلورة مفهوم (العلم) آخر المطاف ، علمًا بأن تاريخ الفلسفة من جهة وتاريخ العلم من جهة ثانية قد شهدا في البدايات فترة طويلة كانت فيها المفاهيم العلمية والمفاهيم الفلسفية مختلطة بعضها ببعض ، وبما أن المفاهيم الفلسفية قد تبلورت قبل أن تتبلور المفاهيم العلمية بوقت طويل فإن المنطق التاريخي يقتضي الاستنتاج بأن الفلسفة كانت المؤسس الحقيقي للعلم ، وإذا أردنا الدقة التاريخية فإن التمايز ما بين العلم والفلسفة لم يبدأ إلّا منذ فترة قريبة ، أي منذ القرن العاشر الميلادي تقريبًا ، عندما وضع العلماء المسلمون أُسُسَ المنهج العلمي التجريبي الذي أقصى من ساحة العلم المنطق الفلسفي الأرسطي الذي يقوم على البحث عن الحقائق في الأذهان والألفاظ ، وأحلَّ محله منهج البحث عن الحقائق في الطبيعة والواقع من خلال الملاحظة والتجربة والبرهان .

لقد كان العلم في أذهان واضعيه الأوائل يراد به تفسير الوجود ، فكان العلماء يهتمون ـ في أول عهدهم بالعلم ـ بمعرفة : كيف ؟ ولماذا ؟ ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام

شيئًا فشيئًا تاركين للفيلسوف ـ دون أن يكتموا سخريتهم منه ـ مهمة تفسير كل شيء [1] .

ومن الطريف حقًّا أن هذا الفصل ما بين الفلسفة والعلم لم يقم به العلماء وحدهم ، بل ساهم فيه أيضًا نخبة من الفلاسفة الأفذاذ الذين يتمتعون بعقل حر وبصيرة نافذة ، وفي طليعتهم الفلاسفة المسلمون في الأندلس ، من أمثال (ابن رشد) و (ابن خلدون) ، وفلاسفة عصر النهضة والتنوير في أوروبا ، من أمثال الفيلسوف الإنكليزي (فرانسيس بيكون) الذي دعا إلى استقلال العلم عن الفلسفة استقلالًا تامًّا ، وقال بضرورة تبني المنهج العلمي التجريبي الذي وضعه المسلمون ، وركّز على أهمية التطبيق العملي في أي علم وإلّا فلا يسمى العلم علمًا في اعتقاده .

ثم جاء الفيلسوف الرياضي الفرنسي (رينيه ديكارت) الذي ركّز على أهمية المفاهيم الرياضية في ميدان العلم على أساس أن العلم الرياضي هو أدق العلوم ، وتتلخص فلسفته في ثلاثة أمور ؛ هي : إيجاد علم يقيني ، وتطبيق هذا العلم اليقيني تطبيقًا عمليًّا يمكّن البشر من تسخير الطبيعة ، وتحديد العلاقة بين هذا العالم وبين الخالق ﷻ ، وبهذا المنهج في التفكير نبّه هذان الفيلسوفان الأذهان إلى الجانبين اللذين أصبح العلم الحديث يرتكز عليهما خلال تطوراته التالية ، وهما الملاحظة الأمينة للواقع ، والقدرة على صياغة قوانين هذا الواقع بطريقة رياضية [2] .

ومع تطور العلوم ، ومع التنامي المتسارع للنزعة العلمية الحديثة التي لم تعد تقبل بأية فكرة إلا من خلال التجربة والبرهان والقوانين الرياضية الصارمة ، حدث ما يشبه الزلزال في الأبنية الفلسفية القديمة ، فراحت تنهار واحدةً بعد الأخرى ، وقد عبّر بعض العلماء المعاصرين عن هذا المأزق الذي وصلت إليه الفلسفة مؤخّرًا ، ومن هؤلاء : عالم الفلك (ستيفن هوكنغ) [3] ، الذي يعدُّ من أعظم علماء الفيزياء النظرية في عصرنا الراهن ، فقد كتب يقول : (حتى الآن ، كان معظم العلماء منهمكين في تطوير نظريات تصف ما هو الكون ، وتطرح السؤال : لماذا ؟ في حين أن الفلاسفة الذي مهمتهم التساؤل (لماذا ؟) لم

---

(١) د. محمد عبد الرحمن مرحبا : المسألة الفلسفية ، (ص ١٢٦) ، ط.٣ ، (١٩٨٨م)، منشورات عويدات ، بيروت وباريس (١٩٨٨م) .

(٢) انظر : د . فؤاد زكريا (التفكير العلمي) ، (ص ١٧٤ ـ ١٧٧) .

(٣) سبقت ترجمته .

يتمكنوا من مواكبة تقدم النظريات العلمية ، فقد كان الفلاسفة في القرن الثامن عشر ، يعتبرون سائر المعرفة الإنسانية ، بما فيها العلوم ، حقل اختصاصهم ، ويناقشون أسئلة مثل : هل للكون بداية ؟ إلَّا أن العلم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين أصبح تقنيًّا ورياضيًّا إلى حدٍّ يفوق قدرة الفلاسفة وأي شخص آخر باستثناء قلة من المتخصصين ، فخفَّف الفلاسفة من مدى تحرِّياتهم ، حتى قال (ويتجنشتاين) [1] ، أشهر فلاسفة هذا العصر : إن المهمة الوحيدة الباقية للفلسفة هي تحليل اللغة .. فأي انحدار هذا للأعراف الفلسفية العظيمة ، من أرسطو إلى كانط !؟) .

إلَّا أننا - مع احترامنا لهذا الرأي - لا بد أن نعترف بكل تقدير أن الفلسفة هي التي عبَّدت الطريق أمام العلم ، وهي التي أمسكت بيده طوال هذه الرحلة الشاقة ، وهي التي أوصلته إلى هذه المعارج البعيدة التي أصبح يتربع اليوم على عرشها .

●●●

---

(١) لودفيج ويتجنشتاين (Ludwig Josef Johann Wittgenstein) ، (١٨٨٩ - ١٩٥١م) : فيلسوف نمساوي ، ساهم بعدة أفكار رائدة في الفلسفة ، ولا سيما في أسس المنطق ، وفلسفة الرياضيات ، وفلسفة العقل ، وفلسفة اللغة ، أثر تأثيرًا واسعًا في فلاسفة عصره ، ويضعه بعضهم بين الفلاسفة الأهم للقرن العشرين .

الفصل السادس عشر

تاريخ الأدب

• إن أجمل الأشياء هي التي يقترحها الجنون ويكتبها العقل .

الأديب الفرنسي أندريه جيد

• لتكتب ، لا يكفي أن يهديك أحد دفترًا وأقلامًا ، بل لا بد أن يؤذيك أحد إلى حد الكتابة .

• لا أصعب من أن تبدأ الكتابة في العمر الذي يكون فيه الآخرون قد انتهوا من قول كل شيء .

الأديبة العربية أحلام مستغانمي

لا ندري على وجه التحديد متى كانت تلك اللحظة الفريدة التي تنهَّد فيها أول أديب في التاريخ أولى خلجات روحه ، ونثرها على الملأ ، ولكن يبدو لنا أن مثل هذه التنهدات الأدبية الأولى قد خالجت قلوب كثير من البشر منذ وقت مبكر من وجودهم في هذا العالم ، ويبدو لنا كذلك أن هذه النزعة الإنسانية نحو الأدب جاءت ردًّا على الظروف الاجتماعية التي تعرَّض لها الذين عُرفوا فيما بعد بوصف (الأدباء) ؛ لأن هؤلاء المبدعين الأوائل استطاعوا أن يصوغوا مشاعرهم الفياضة بكلمات رقيقة معبرة ، وقد مضى زمن طويل على تلك التنهدات الأدبية المبكرة قبل أن يتبلور مفهوم (الأدب) في التاريخ .

وتنبئنا سجلات التاريخ أن السومريين الذين عاشوا فيما يعرف اليوم بالعراق هم أقدم من ترك آثارًا أدبية بدائية قبل حوالي (٥,٥٠٠ عام) من الآن تقريبًا ، كما أنتج الآشوريون والكنعانيون والبابليون والمصريون والعبرانيون أشكالًا مختلفة من الأدب ، اشتملت على حكايات مروية على لسان الحيوانات ، وملاحم وكتابات تاريخية ، وتراتيل وأغاني حب ، وأساطير ، ومقالات فلسفية .

كما أبدع الصينيون والهنود والفرس أعمالًا يمكن إلى حد ما اعتبارها أعمالًا أدبية بالمقاييس الحديثة ، أمَّا أولى الأمم القديمة التي أنتجت أدبًا ناضجًا تتوافر فيه مواصفات الأدب كما نعرفها اليوم فهم الإغريق القدماء الذين قدموا للعالم بواكير الأدب المتكامل ، وأنجبوا نخبة من رواد الأدب العالمي الذين خلَّد التاريخ أسماءهم .

ولعلَّ الشاعر اليوناني الشهير هوميروس (ت ٧٥٠ ق.م) هو أول الأدباء الذين صاغوا أدبًا ناضجًا بالمقاييس الفنية ، وهو يعد من أعظم شعراء اليونان على الإطلاق ، ولهذا يصفه نقادهم بأنه البداية والنهاية ، ويلقبونه بـ (المعلم) لعلو كعبه في تاريخ الأدب ، وقد نظم ملحمتيه الشعريتين الشهيرتين (الإلياذة) [1] ، و (الأوديسة) [2] ، اللتين تعدان من أقدم وأعظم الملاحم الشعرية في تاريخ الأدب العالمي ؛ لما تمتازان به من كمال البناء ، وفخامة الألفاظ ، وروعة الأسلوب ، وقد ترجمتا إلى جميع اللغات الحية ، وكان لهما – وما زال – تأثير لا ينكر في الأدب العالمي باعتبارهما المثل الأعلى في أدب الملاحم .



(تمثال الأديب اليوناني هوميروس)



(تمثال الأديب اليوناني سوفوكليس)

وإلى جانب هوميروس عرف تاريخ الأدب اليوناني أسماء أدباء كثيرين طبقت شهرتهم الآفاق نذكر منهم كليوبولوس (٥٥٠ ق.م) الذي يعد أحد الحكماء السبعة عند الإغريق ، وهو أول من صاغ الألغاز والأحاجي بأسلوب أدبي متميز تابعه فيه كثير من الأدباء فيما بعد ، وأصبح أنموذجًا يحتذى في هذا الضرب من الأدب .

---

(١) الإلياذة : ملحمة طويلة ، تتحدث عن الصراع الحاد الذي نشب بين اليونان وطروادة ، وتبدأ الملحمة بتصوير الخلاف الذي وقع بين أجاممنون قائد الحملة اليونانية ضد طروادة وبين أشجع أبطال اليونان أخيلوس ، وبسبب هذا الخلاف يقرر أخيلوس الانسحاب من المعركة ، مما عرض اليونان لخسائر فادحة ، فحاولوا استرضاءه ولكن دون جدوى ، فتدخل أحد أصدقائه المقربين ليقنعه بالعودة لكنه رفض ، وتحديًا لصديقه هذا يعطيه درعه الخاص ليحارب به لكنه يقتل في المعركة ، فحزن عليه أخيلوس حزنًا شديدًا وقرر العودة للحرب ليحرز النصر المؤزر لليونان ، وتنتهي الإلياذة بمهرجان وطني مؤثر [الموسوعة العربية الميسرة] .

(٢) الأوديسة : ملحمة مؤلفة من ٢٤ نشيدًا ، تروي بحث البطل اليوناني تليماخوس عن أبيه أوديسيوس الذي غاب بعد سقوط طروادة بأيدي الأعداء ، وحينما يعرف الابن أن أباه وقع أسيرًا ذهب إلى فاياكيا فرحب به ملكها وأطلق الأب الأسير ، وحينما يعودان إلى إيثاكا يعلمان بوقوع اعتداء على زوجة الأب بنلوبا ، فيدبران حيلة ذكية للانتقام ، فيتنكران ويهاجمان المعتدين ويقتلونهم ، ثم يكشف الأب شخصيته لزوجته ويسترد حكمه [المصدر السابق] .

ومنهم أيضًا الأديب اليوناني الشاعر سوفوكليس (٤٩٦ ـ ٤٠٦ ق.م) الذي نبغ نبوغًا متميزًا في وقت مبكر من صباه ، فقد قاد في السادسة عشرة من عمره الجوقة التي أنشدت أناشيد النصر في احتفالات أثينا بعد انتصارها في معركة (سلاميس) ، ونال الجائزة الأولى على إنتاجه الأدبي المبدع قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره ، وظلّ يفوز بهذه الجائزة سنويًا على مدى عشرين سنة حتى موته ، وقد برع سوفوكليس بصورة خاصة في حقل المسرح ، وكان له الفضل بإدخال تجديدات عديدة على الكتابة المسرحية التي كانت موضع عناية كبيرة في أثينا في ذلك العصر ، كما اهتم بالجوانب الفنية بالتمثيل ، وألف العديد من المسرحيات التي وصلنا منها (أوديب ملكًا ، أوديب في كولونا ، أنتيجونا ، إلكترا ، فيلوكتيس) وما زالت هذه المسرحيات تعد من عيون الأدب المسرحي العالمي ، وما زالت تمثّل وتعرض على مسارح العالم حتى اليوم على الرغم من مرور آلاف سنين على تأليفها ، لما فيها من معان إنسانية نبيلة ، ولما تتمتع به من بناء درامي محكم .



(تمثال الأديب اليوناني يوريبيديس في متحف اللوفر في باريس)

أمّا الأدب التراجيدي فكانت بداياته مع الأديب اليوناني يوريبيديس (٤٢٠ ق.م) ، الذي ألّف أكثر من ٩٢ مسرحية تعد من روائع الأدب العالمي القديم ، وقد فاز بالجائزة الأولى أربع مرات خلال حياته الأدبية الحافلة ، ومن أعظم مسرحياته : (ميديا ، إلكترا ، الطرواديات) وقد آمن يوريبيديس بالعقل والتفكير المنطقي ، ونال شهرة واسعة في عالم الأدب فاقت شهرة سابقيه من عظماء الأدب الإغريقي ؛ لأنه كان فيلسوفًا واسع الأفق ، مع حسٍّ شاعريٍّ مرهف ، فكان يصوغ أفكاره بأسلوب أدبي فلسفي أخّاذ يتسم بالرشاقة والجمال والروعة .

أمَّا الأديب الروماني كونتليانس (٣٥ ـ ٩٥م) فقد كان خطيبًا مفوَّهًا حتى عدَّه النقاد من أئمة البلاغة والبيان في تاريخ الأدب العالمي ، وقد اشتهر بكتابه (أسس الخطابة) المؤلف من ١٢ جزءًا ، وقد خصص أوله للحديث عن تربية النشء الجديد ، ثم انتقل إلى الكلام عن أصول الخطابة وقواعدها ، وفي الجزء العاشر أورد قائمة طويلة بأسماء مشاهير الأدباء من اليونان والرومان ، مع التعريف بهم وبمؤلفاتهم بطريقة نقدية دقيقة ، وقد كان لهذا الأديب تأثير كبير في معاصريه من الأدباء ثم في أدباء عصر النهضة الأوروبية الحديثة .

الأدب العربي :

أما الأدب العربي فيرجع تاريخه إلى العصر الجاهلي ، أي إلى ما قبل الإسلام بحوالي قرنين من الزمان ، ويعد الشاعر الكبير حندج بن حجر الذي اشتهر باسم امرئ القيس (٤٩٧ ـ ٥٤٥م) من أوائل الأدباء العرب في العصر الجاهلي ، وقد نشأ في أسرة ملك وسيادة وترف ، وتربى على أخلاق الفروسية والشجاعة ، وتعلم الشعر من خاله الشاعر المشهور (المهلهل) ، وقَرَض الشعر وهو في عنفوان الشباب وميعة الصبا ، وتغزَّل ببنات بني أسد وشبَّب بهن فغضب عليه والده وطرده ، والتفَّ حوله زمرة من الصعاليك الذين راح معهم يغير على أحياء العرب ويسطون على ممتلكاتهم ثم يتقاسمون الغنائم فيما بينهم، ويعاقرون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويتغنُّون بالقيان ، إلى أن بلغه الخبر بمقتل والده فقال قولته المشهورة التي حفظها عنه الزمان : ضَيَّعَني أبي صغيرًا ، وحَمَّلَني دَمَهُ كبيرًا ، ولا صَحْوَ اليومَ ولا سُكْرَ غدًا ، اليومَ خمرٌ وغدًا أمرٌ . وودَّع حياة اللهو والعبث حتى أصاب ثأره من قاتل أبيه ، ثم عاد ثانية إلى حياة التشرد والعبث حتى انتهى به المطاف في القسطنطينية عاصمة الروم يومذاك ، وفي طريق عودته أصابه داء فأودى بحياته .

وقد نشأ امرؤ القيس منذ صغره وفي أعماقه شاعرية فياضة تمتزج بعاطفة مرهفة وساهمت ظروف بيته بتغذية هذه الشاعرية ، كما أن تقلبه في الحياة ما بين حياة الجد والعبث جعل شعره صدى لنوعين من الحياة ، فقال الشعر في كل ما يحتاج إليه الشاب المترف العابث الماجن ، وقال في الخمر والنساء وفي كل أنواع المتع الجسدية ، وقال في وصف الطبيعة في كل مظاهرها وصنوفها ، وقال الشعر في الحرب والثأر والتهديد واستنهاض الهمم والعزائم. واتسم شعره بنَفَس شعري جذاب امتزج فيه رنين الحزن ولوعه الحنين ، مع اندفاع الشباب وطيش اللهو ، في ثوب من العاطفة الجياشة جمعت بين نجوى الوجدان ونبض الفؤاد .

وكانت إحدى قصائده الفريدة ضمن المعلقات الشعرية التي كتبها العرب في جاهليتهم بماء الذهب وعلقوها على أستار الكعبة وهي القصيدة التي مطلعها :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

ورحل امرؤ القيس مخلفًا وراءه ديوان شعر يضم عددًا فريدًا من القصائد التي صورت تاريخ شبابه ونضاله ، وعلى الرغم من صغر ديوان شعره الذي يضم ما يقارب مائة قصيدة ومقطوعة إلَّا أنه جاء شاعرًا متميزًا استفتح تاريخ الأدب العربي الرفيع ، واعتبره النقاد مثالًا يقاس عليه ما جاء بعده من أدب .

ثم جاء من بعد امرئ القيس نفر غفير من الشعراء والخطباء العرب المفوهين الذين كانت قبائلهم تحتفي بهم احتفاءً كبيرًا ؛ لأنهم كانوا في ذلك العصر يمثلون وسيلة إعلامية فعالة لقبائلهم ، فقد كانوا ينافحون عنها بشعرهم ، ويعدِّدون مآثرها ، ويهاجمون أعداءها بالهجاء المرّ ؛ لذلك أصبح للشعر والشعراء في ذلك العصر منزلةً رفيعةً يتطلع إليها كل أحد ، وكان ظهور شاعر في القبيلة مناسبة كبيرة تبسط لها الموائد ، وتقام لها الاحتفالات الصاخبة .

وقد بلغ من عناية العرب بالأدب والشعر والشعراء حدًّا لم تصل إليه أية أمة أخرى ، فقد خصصوا للشعر والشعراء والخطباء أسواقًا موسمية هي أشبه بالمهرجانات التي أصبحت تقام في أيامنا الراهنة ، ومن أشهر تلك الأسواق الأدبية (سوق عكاظ) الذي كان يقام في الحجاز ما بين نخلة والطائف وذي المجاز ، ويستمر كل عام من هلال ذي القعدة إلى العشرين منه ، وقد ظلت هذه الأسواق الأدبية تنظم سنويًّا على مدى سنوات طويلة تقارب قرنًا كاملًا من الزمان (٥٠٠ ـ ٦٠٠م) فكانت تجتمع فيها القبائل لمدة تقارب الشهر من كل عام ، فيبيعون ويشترون في هذه الأسواق ، ويتحدث الخطباء ، ويتبارى كبار الشعراء بإنشاد قصائدهم التي كانت في الغالب تعبر عن مفاخر قبائلهم وأيامهم وأمجادهم .

ولم يتوقف احتفاء العرب بالشعر عند هذا الحد ، فقد درجوا ابتداءً من عام (٥٤٠م) ، أي قبل الإسلام بعقود قليلة ، بتقليد أدبيٍّ فريد ، فكان أرباب الفصاحة والبلاغة يختارون في كل عام أجود قصيدة تنشد في سوق عكاظ ، ثم يكتبونها بخيوط من الذهب على رقعة من الحرير المصري الناعم ويعلقونها على أستار الكعبة ، إلى موسم العام التالي ، تعظيمًا لها وتقديرًا لأسلوبها الأدبي الرفيع ، ولهذا أطلقوا عليها أيضًا وصف (المعلَّقات) ، وقيل كذلك إنها سميت بالمعلقات تشبيهًا لها بعقود الدُّر الثمين التي تعلق على نحور النساء .

وقد اختلف مؤرخو الأدب العربي حول عدد المعلقات التي عرفت في ذلك العصر ، فقال أكثرهم إنها سبع ، ولذلك اشتهرت باسم (المعلقات السبع) ، وقيل بل هي عشر ، وأجمع النقاد على معلقات كل من الشعراء : امرئ القيس (٤٩٧ ـ ٥٤٥م) ، وطرفة بن العبد (٥٣٨ ـ ٥٦٤م) ، والحارث بن حلزة اليشكري (ت ٥٧٠م) ، وعمرو بن كلثوم (ت ٥٨٤م) ، وعنترة بن شداد (ت ٦٠٠م) ، والنابغة الذبياني (٥٣٥ ـ ٦٠٤م) ، وزهير ابن أبي سلمى (ت ٦٠٩م) ، والأعشى (ت ٦٢٩م) ، ولبيد بن ربيعة العامري (٥٦٠ ـ ٦٦٢م) ، وتمثل معلقات هؤلاء الشعراء أنضج صور الشعر الجاهلي شكلًا ومضمونًا .

ويعتقد الناقد المعاصر (د.علي الجندي) أستاذ الأدب الجاهلي بجامعة القاهرة أن من أسباب خلود المعلقات ومكانتها الرفيعة في تاريخ الأدب العربي أن كلًّا منها تُشبع غريزة من غرائز النفس البشرية ، فنرى حب الجمال في معلقة امرئ القيس ، والطموح وحب الظهور في معلقة طرفة ، والتطلع للقيم في معلقة زهير ، وحب البقاء والكفاح في الحياة عند لبيد ، والشهامة والمروءة لدى عنترة ، والتعالي وكبرياء المقاتل عند عمرو بن كلثوم ، والغضب للشرف والكرامة في معلقة الحارث بن حلزة .

وقد كان للقصيدة في العصر الجاهلي شكل مميز يعبِّر عن طبيعة البيئة العربية في ذلك الزمان ، لقد كان الشاعر يستهل قصيدته بوصف الوقوف على أطلال الديار التي ترعرع فيها وعاش صباه ، وشهدت مولد حبه الأول ، ثم ينتقل لتصوير رحيل الحبيبة عن الديار ، ثم يتحدث عن المطر والناقة والبقر الوحشي ، ثم يعدِّد مفاخر قومه وما يتحلَّون به من أخلاق فاضلة أصيلة ، وكانت قصائد الشعراء الجاهليين إجمالًا تعبر عن فلسفة الحياة في تلك الحقبة من تاريخ العرب ؛ ونظرًا لأنَّ الشعر الجاهلي كان يروى شفاهة ، ولم يبدأ تدوينه إلَّا في العصر الأموي فقد اندثر كثير منه ، بالرغم من أنه تراث أمة كان الشعر صنعتها ، حتى إنه كان لكل قبيلة شعراؤها الذين يفاخرون بها وتفتخر بهم .

ويبدو لنا من تتبع تاريخ الشعر العربي واهتمام العرب به إلى هذا الحد الكبير الذي جعلهم يقدسون بعض قصائده ، وربط هذه الحقيقة التاريخية بظهور الإسلام ، أن الله ﷻ قد هيأ العرب قبل الإسلام هذه التهيئة اللغوية والأدبية المتميزة ؛ حتى يكونوا سادة الفصاحة في كلامهم وشعرهم وخطابهم وأدبهم ، ثم جاءهم بالرسالة السماوية ومعجزتها (القرآن الكريم) ليعجزهم أن يجاروه بالبلاغة والفصاحة ، ويتحداهم أن يأتوا بسورة

من مثله ، وبهذا أقام عليهم الحجة بأنه كتاب سماوي منزل من رب العالمين ، وليس من كلام البشر ، وقد كان الإعجاز البياني والبلاغي في هذا الكتاب الكريم شاهدًا على هذه الحقيقة ، وسوف يبقى كذلك إلى قيام الساعة .

وقد شهد تاريخ الأدب العربي بعد ذلك تطورات مهمة ، منها ضبط الكلمات ليعرف إعرابها ، وهذا ما فعله اللغوي الشهير أبو الأسود الدؤلي (٦٠٥ ـ ٦٨٨م) الذي ابتدع الضبط بالنُّقط لضبط اللفظ القرآني ، فوضع على الحرف المفتوح نقطة من فوقه ، وللمكسور نقطة من تحته ، وللمضموم نقطة بين يديه ، وللمنوَّن نقطتين ، وقيل إن أبا الأسود الدؤلي هو أول من كتب في النحو كذلك .

ثم جاء اللغوي الفذ (الخليل بن أحمد) [1] الذي أبدع الكثير في علوم النحو والصرف والعَروض ، ولا سيما في القياس والتعليل اللغوي ، وكان إلى جانب ذلك عالمًا بالموسيقى مما أعانه على استنباط (علم العَروض) الذي يعد رائدًا فيه لم يسبقه إليه أحد من أهل اللغة ، وقد حصر العروض في خمس دوائر استخرج منها (١٥ بحرًا) هي بحور الشعر العربي المعروفة والتي زاد عليها (الأخفش) [2] فيما بعد البحر السادس عشر (المتدارك) ، وقد ألَّف الخليل أول معجم عربي ، ورتبه على الحروف الهجائية وسماه (كتاب العين) ، وحصر فيه المستعمل والمهمل من الألفاظ التي يمكن أن تؤلفها الحروف العربية ، ورتَّب فيه الحروف وفق مخارجها بادئًا بالأحرف الحلقية ومنتهيًا بالشفوية ، ونظم الكلمات تبعًا لحروفها الأصلية فكان رائدًا في هذا العلم أيضًا ، من كتبه : معاني الحروف ، والعوامل ، والعروض ، والنقط والشكل ، والنغم .

---

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي (٧١٨ ـ ٧٩١م) : ولد بعمان ومات بالبصرة ، درس اللغة والقرآن والحديث على أبي عمرو بن العلاء ، وهو يعد إمام النحاة ، وسيد أهل الأدب العربي قاطبة ، وهو الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، وهو أول من استخرج عروض الشعر العربي ، تتلمذ على يديه سيبويه والأصمعي والنضر بن شميل وغيرهم من أئمة العربية ، له (كتاب العين) الذي يعد أول معجم عربي شامل ، وتنسب له مصنفات أخرى عديدة ، منها : (معاني الحروف) و (العَروض) و (النقط والشكل) وغيرها .

(٢) الأخفش ، أبو الحسن سعيد بن مَسْعَدة البصري (ت ٢١٥هـ - ٨٣٠م) : أقام في البصرة التي كانت تزخر في تلك الحقبة بالعلماء من النحويين واللغويين ، فأخذ عن سيبويه ، وصحب الخليل بن أحمد ، واطلع على مؤلفات معاصريه حتى أصبح من أئمة النحاة ، وصنف كتباً كثيرة في اللغة والنحو والعروض ، منها : (معاني القرآن ، والأوسط في النحو ، والمقاييس في النحو ، والمسائل الكبير ، والقوافي ، والاشتقاق ، والعروض) ، وأخذ عنه العلم عدد من العلماء الذين تمتعوا بشهرة واسعة في ميادين اللغة والنحو .

وقد حفل الأدب العربي القديم والحديث بالكثير من الأسماء اللامعة ، في شتى فنون الأدب ، ونال كثير منهم شهرة عالمية وجوائز دولية مرموقة ، وسوف نأتي على ذكر أبرز هؤلاء الأدباء في سياق الفقرات التالية .

الرواية :

الرواية فن أدبي رفيع شاع وانتشر في شتى أنحاء العالم منذ زمن بعيد ، وفي العصر الحديث أصبح للرواية أدباء متخصصون تقتصر كتاباتهم على الرواية فقط ، ومن المعلوم تاريخيًا أن تداول القصص والحكايات كان شائعًا بين الأمم منذ وقت مبكر من التاريخ البشري ، إلَّا أن الرواية بمفهومها الفني لم تعرف إلَّا منذ زمن حديث نسبيًّا ، ولعل من أشهر الروايات العالمية القديمة التي ذاع صيتها كثيرًا : ملحمتي الإلياذة والأوديسة للشاعر اليوناني الشهير هوميروس ، ويعود تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد .

أمَّا في البلدان العربية فإن رواية (ألف ليلة وليلة) تعد من أقدم الروايات التي عرفها تاريخ الأدب العربي مع أن المؤرخين للأدب يرجحون أن أصولها غير عربية ، وهي مكونة من مجموعة من القصص التي يرجح أنها كتبت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ويظن أن أصلها بهلوي فارسي اسمه الهزار أفسان أي (ألف خرافة) إلَّا أن هذا الأصل لم يعثر عليه قط ، والراجح أنها ألفت على مراحل وأضيفت إليها قصص بعضها من أصول هندية قديمة وبعضها من أخبار العرب ، ولهذا يرجح أن الذي كتبها مجموعة من الكتاب ، وهي تحكي قصص شخصيات أدبية خيالية مشهورة ؛ مثل : علاء الدين ، علي بابا ، السندباد ، وحكاياتها عالم أسطوري فاتن ساحر نابض بالحياة والحكمة والطرب ، صاخب ماجن مهووس بالمواقف الجنسية والعربدة ، مليء بالحكايات الجميلة والحوادث العجيبة والقصص الممتعة والمغامرات الغريبة التي صورت بأسلوب عفوي سهل قريب إلى النفس والروح .

وقد ترجمت ألف ليلة وليلة إلى مختلف اللغات الحية حتى أصبحت أشبه بتراث أدبي إنساني ، فقد استلهمها من أدباء فرنسا كل من (بيير لويس) ، (جونيه) ، (دي رونيه) ، وفي أمريكا الشاعر الرومانسي إدجار الان بو (١٨٠٩ ـ ١٨٤٩م) وألف عنها الموسيقي الروسي كورساكوف (١٨٤٤ ـ ١٩٠٨م) سيمفونية عالمية لاقت نجاحًا منقطع النظير ، كما استوحاها كثير من أدباء العربية ، منهم طه حسين في (أحلام شهرزاد) و (القصر المسحور) ، وتوفيق الحكيم في مسرحية (شهرزاد ، ١٩٣٤م) وعزيز أباظة (شهريار ، ١٩٥٥م)

علي أحمد باكثير (سر شهرزاد) وغيرهم ، وما زالت ألف ليلة وليلة حتى اليوم مصدر إلهام للروائيين والشعراء والرسامين والموسيقيين والفنانين .

ومن أبرز السمات التي تميز فن الرواية أنها قصة طويلة ، تروي جملة من الأحداث التي تهم حياة الناس ، وتعكس معظم الروايات موقف الكاتب من الحياة ، وهناك أنماط كثيرة من الروايات التي تعالج أنواعًا مختلفة من المواضيع الواقعية أو الخيالية أو العلمية ، ونلاحظ أن معظم سمات الرواية الحديثة مستمدة من سمات الملاحم التي عرفت قديمًا ، وقد تأثرت الرواية إلى حد كبير بالحكايات التي شاعت عن حياة الصعاليك والمشردين لما تحفل به حياة هؤلاء الأشخاص من أحداث مثيرة ، ولما تنطوي عليه من مشاعر إنسانية مؤثرة .

وقد استخدم مصطلح (الرواية) في الأدب لأول مرة في إنكلترا بعد أن دخلتها القصة الإيطالية ، ومنها قصص الديكاميرون التي كتبها الأديب (بوكاشيو) ، وفي عام (١٦٧٨م) ظهرت في إنكلترا حكاية (رحلة الحاج) تأليف (جون بنيان) ، ثم حكاية (رحلات جاليفر) التي كتبها (جوناثان سويفت) في عام (١٧٢٦م) ، وهما من الحكايات المهمة التي سبقت ظهور الرواية الإنكليزية الحديثة ، ورحلات جاليفر على سبيل المثال هي رواية مغامرات خيالية ممتعة ، يعدها نقاد الأدب من أعظم المؤلفات الإنجليزية الساخرة ، وقد قدمت في السينما مرارًا عديدة لطرافة أحداثها ، وهي تحكي عن أربع رحلات خيالية إلى بلدان نائية غريبة ، وتنتقد كل حكاية منها جانبًا من نواقص المجتمع البريطاني كما رآها الكاتب في عصره .

وهي باختصار تروي حكاية الطبيب (لوموييل جاليفر) وهو طبيب إنجليزي بارد الأعصاب ، يعمل طبيبًا فوق إحدى السفن المتجهة إلى الشرق ، وفي أحد الأيام غرقت السفينة بالبحر فأخذ يسبح حتى وصل مجهدًا إلى شاطئ جزيرة ليليبوت حيث استغرق في نوم عميق ، وعندما استيقظ وجد نفسه مقيدًا إلى الأرض بعدد هائل من الخيوط القوية وعاطًا بأقزام يحملون سهامًا وأقواسًا مصوَّبة نحوه ، وتمرُّ به أحداث مثيرة لا يصدقها العقل ، إذ يجد نفسه فجأة عملاقًا كبيرًا يطوّف في البحر فلا تصل الأعماق إلى ركبتيه ، وحين يغادر الجزيرة يقوده حظه النكد ليقع بين أقوام من العمالقة يبدو بينهم قزمًا صغيرًا لا يزيد طوله عن طول أولئك الذين التقاهم في جزيرة ليليبوت ، وهكذا تستمر القصة بأحداثها المثيرة .

ولا يستبعد أن يكون سويفت قد اقتبس حكاية جاليفر عن حكاية (عوج بن عناق) من التراث العربي ، وهي قصة أسطورية ترتبط بقصة الطوفان الذي حصل أيام نبي الله نوح ﷺ ، فكما كان « جاليفر » يخوض في أعماق البحر فلا يصل الماء إلى ساقيه فإن عوج ابن عناق كان يخوض في الطوفان الذي بلغ رؤوس الجبال ، فلم يبلغ ركبتيه ، وكان عوج بن عناق يجتاز المدينة فيتخطَّاها كما يتخطَّى أحدنا الجدول الصغير[1] .





(الروائي الإنكليزي جوناثان سويفت ، ومشهد كرتوني من قصته الساحرة رحلات جاليفر)

أمَّا الرواية الحديثة فيرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر ، من خلال الروايات التي كتبها كل من دانيل ديفو ، وصاموئيل ريتشارد ، وقد اختلف المؤرخون فيما إذا كانت حكاية روبنسون كروزو التي ظهرت حوالي عام (١٧١٩م) وحكاية مول فلاندرز التي ظهرت حوالي عام (١٧٢٢م) اللتين كتبهما دانيل ديفو ضمن التأليف الروائي أم لا ؟ لأنهما لم تتوفر فيهما عناصر السرد الروائي المعروفة فنيًّا .

ويذكر مؤرخو الأدب ونقَّاده أن رواية (انتصار الفضيلة) من تأليف الأديب الإنكليزي صموئيل ريتشاردسون التي نشرت في عام (١٧٤٠م) هي أول رواية في الأدب الحديث توافرت فيها العناصر الفنية التي تُمَيِّزُ الفن الروائي عن بقية ضروب الأدب ، وهي رواية غرامية من الطراز الكلاسيكي التقليدي ، وقد كتبت على نمط الرسائل التي تعرض آراء الناس عرضًا سطحيًّا آنيًا ، وقد لاقت هذه الرواية شهرة واسعة في حينها ، ليس في إنكلترا وحدها ، بل في أنحاء القارة الأوروبية كلها .

---

(١) انظر كتاب « المستطرف في كل فن مستظرف » بهاء الدين الأبشيهي (ت ٨٥٠هـ - ١٤٤٧م) تحقيق صلاح الدين الهواري ، دار ومكتبة الهلال ، القاهرة (٢٠٠١م) .

وفي عام (١٧٤٢م) نشر الإنكليزي هنري فيلدنج روايتين هما : (جوزيف أندروز) و (توم جونز) وقد لقيتا أيضًا إقبالًا واسعًا من القراء ، ولم يلجأ فيهما المؤلف إلى أسلوب الرسائل بل كان أسلوبه أقرب إلى الحكاية ، وقد أبدع المؤلف في هاتين الروايتين بتنويع الشخصيات والأحداث والمشاهد والوقائع بصورة تدعو للإعجاب .

وفي فرنسا ظهرت الروايات الأولى عام (١٧٥٠م) ، وفي طليعتها رواية (الواز الجديدة) للأديب والفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) ، ورواية (بول وفرجيني) من تأليف (برنادين دي سانت بيير) ، ورواية (كورين) من تأليف (مدام دي ستايل) ، وأمّا الروايات الألمانية فقد بدأت بالظهور عام (١٧٧٤م) من خلال روايات الشاعر الألماني الكبير جوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢م) وفي مقدمتها رواية (آلام فرتر) ، ورواية (فيلهلم ستر) ، ثم دخلت الولايات المتحدة عالم الرواية ، فظهرت أولى الروايات الأمريكية عام (١٧٨٩م) وهي رواية (قوة الحنان) للأديب (وليام هيل براون) .



(الأديب الألماني جوته)

وبعد ذلك راح الأدباء في مختلف أنحاء العالم يتبارون بنشر الروايات ، وراحوا يبدعون في تنويع أساليبها وأشكالها الفنية ، ومن ذلك مثلًا رواية (الرجال ذوو النية الطيبة) التي نشرها الروائي الفرنسي (جول رومان) في الفترة ما بين (١٩٣٢ ـ ١٩٤٦م) وهي أطول رواية ظهرت في تاريخ الأدب الروائي حتى الآن ، فقد بلغت أجزاؤها (٢٧ جزءًا) من الحجم الكبير ، وفي الفترة (١٩٣٦ ـ ١٩٨٤م) نشر الروائي الهندي بابوراو أرنالكار من ولاية مهاراشترا أكبر عدد من الروايات في تاريخ الأدب على الإطلاق ، إذ بلغ عدد الروايات

التي كتبها ونشرها ١٠٩٢ رواية ، وهي عبارة عن روايات بوليسية قصيرة إلى جانب عدد من الروايات الواقعية .

وهكذا راج فن الرواية حتى أصبحت الرواية منذ مطلع القرن التاسع عشر من أكثر الفنون الأدبية انتشارًا واستأثرًا باهتمام محبي الأدب ، وقد اتسعت مضامينها وتنوعت أشكالها الفنية كثيرًا ، فظهرت الروايات التاريخية عند والتر سكوت ، كما ظهرت الرواية الاجتماعية عند جين أوستن ، وكانت تعالج هموم الناس وميولهم وطباعهم ، أمّا الرواية السياسية فقد ظهرت على يدي (وليم جودوين) ، و (بنيامين دزرائيلي) ، وأمّا الرواية العاطفية الغرامية فكانت بداياتها عند الأختين الأديبتين (شارلوت برونتي) و (إميلي برونتي) .

وفي منتصف القرن التاسع عشر ظهرت روايات الخيال العلمي على يدي الروائي الفرنسي جول فيرن (١٨٢٨ ـ ١٩٠٥م) الذي يعد رائد هذا الضرب من الأدب ، وكان هذا الروائي يتمتع بحس علمي نادر ، وحدس مستقبلي فريد ، استطاع به أن يلتقط مادته التي ما زالت إلى اليوم في طليعة أدب الخيال العلمي ، وقد عرض رواياته في إطار علمي يدعو للدهشة من دقة المعلومات التي ذكرها وتنبأ فيها بالكثير من الأحداث العلمية التي لم تتحقق إلّا بعد سنوات طويلة من كتابته لتلك الروايات التي من أشهرها : خمسة أسابيع في منطاد التي نشرها عام (١٨٦٣م) ، رحلة إلى مركز الأرض نشرها عام (١٨٦٤م) ، من الأرض إلى القمر نشرها عام (١٨٦٥م) ، عشرون ألف فرسخ تحت البحر نشرها عام (١٨٧٠م) ، حول العالم في ثمانين يومًا نشرها عام (١٨٧٣م) .

وقد عايش جول فيرن النهضة العلمية التي تفجرت في شتى ميادين العلم خلال القرن التاسع عشر ، ومن خلال اهتمامه بالعلم والأدب كتب نحو ثمانين رواية حظيت بشهرة عالمية وجنا منها ثروة طائلة ، وقد انتقد الأدباء في البداية أسلوبه الأدبي ولغته وخلو رواياته من القيم الإنسانية وابتعادها عن الهموم اليومية في عصره ، كما كان يفعل أدباء ذلك الزمان ، إلّا أنهم بمرور الوقت أدركوا قيمة تلك الروايات لما فيها من تنبؤ بالكثير من الحقائق العلمية التي عوض بها عما افتقده أسلوبه من السبك الأدبي التقليدي .

وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهرت روايات المغامرات على أيدي الروائيين روبرت لويس ستيفنسون ، ورديارد كبلنج ، كما ظهرت الروايات الواقعية وانتشرت انتشارًا واسعًا بفضل الروائيين جورج مريديث ، وتوماس هاردي .



(جول فيرن ، رائد روايات الخيال العلمي)

وفي مطلع القرن العشرين وتحت وطأة الأوضاع الاجتماعية القاسية التي بدأت تعصف بالكثير من دول العالم ، وتنذر بكوارث اجتماعية مدمرة ، بدأت الرواية تأخذ منحى اجتماعيًّا أكثر اقترابًا وملامسةً لواقع الناس ومشكلاتهم ومعاناتهم اليومية ، فأصبحت تعالج الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الحاضرة ، وأصبح مصير الشخصيات الروائية يتحدد من خلال تأثر الكاتب بهذه الأوضاع ، ومن أوائل الروائيين الذين كتبوا بهذا الأسلوب الروائي الاجتماعي الواقعي هما الأديبان : (أميل زولا) و (أرنولد بينيت) في إنكلترا ، ثم (فرانك نوريس) ، (تيودور دريزر) في الولايات المتحدة .

وفي أواسط القرن العشرين ، وتحت تأثير النزعات الفلسفية الحديثة التي شاعت في تلك الفترة ؛ مثل : الفلسفة الوجودية وغيرها ، ونتيجة لانتشار المدارس النفسية المتأثرة بأفكار رائد التحليل النفسي سيجموند فرويد[1] ، بدأت الرواية تأخذ منحى آخر جديدًا باعتمادها تصوير المشاعر النفسية الداخلية ، والعواطف والمشاعر الإنسانية العميقة ، وربَّما كان الروائي (جيمس جويس)[2] ، في روايته الشهيرة (يوليس) التي نشرها عام (١٩٢٢م) هو أول من ابتدع هذا الأسلوب الفلسفي النفسي في الرواية المعاصرة ، وقد أضفى على

(١) سبقت ترجمته .

(٢) جيمس أوغسطين جويس (١٨٨٢ ـ ١٩٤١م) : كاتب وشاعر أيرلندي ، تلقى تعليمه في مدرسة مسيحية لكنه قرر أن يصبح أديبًا فالتحق بكلية دبلن ، وفي عام (١٩٠٢م) انتقل إلى باريس ليقضي بقية حياته هناك ، عاش حياة صعبة مليئة بالمشاكل الاقتصادية ، وكان مصابًا بأمراض مزمنة في عينيه قادته أحيانًا للعمى ، كما كانت ابنته مصابة بمرض عقلي ، أمضى سبع سنين في كتابة روايته يوليس (*Ulysses*) ، التي أثارت الكثير من الجدل حين نشرها ، وحظرت في الولايات المتحدة لمدة ١٥ سنة ووصفت بأنها بذيئة ، وظلت تضبط من قبل سلطات البريد الأمريكية ، ولم يرفع الحظر عنها إلا في عام (١٩٣٣م) ، لكنها أصبحت فيما بعد من أعظم الكتب الإنجليزية في القرن العشرين ، ومن أعماله الأخرى الشهيرة (استيقاظ فينغانز) التي نشرها عام (١٩٣٩م) بعد أن أمضى ١٧ عامًا في كتابتها .

هذه الرواية روحًا شاعرية أخاذة ، وغلفها بالكثير من غموض الشعر ورمزيته ، وأبرز فيها ما عرف فيما بعد بتيار الشعور أو (تيار الوعي) الذي تتحدث الشخصيات من خلاله عن أحاسيسها الشخصية وعواطفها ونزاعاتها الداخلية بلغة حرة عفوية عميقة التأثير ، فكان هذا الأديب بهذا الأسلوب الجديد مثالًا يحتذى ، ومدرسة أدبية ذات سمات خاصة ، وقد سار على خطاه بهذا الأسلوب الأدبي نخبة واسعة من الأدباء في العالم فيما بعد .



(الأديب الأيرلندي جيمس جويس)

أمّا أدبنا العربي فقد عرف فن الرواية الحديثة على يد الأديب المصري الكبير (محمد حسين هيكل)[1] ، الذي يعتبره مؤرخو الأدب العربي رائد الرواية في العالم العربي ، من خلال روايته الشهيرة (زينب) التي نشرها في عام (١٩١٤م) ، والتي اعتبرها النقاد أول رواية فنية في الأدب العربي الحديث ، وكانت رواية عربية خالصة تستمد وقائعها من البيئة العربية في مصر .

وقد عرف الأدب العربي بعد ذلك الكثير من المحاولات الروائية المبكرة ، إلّا أن الرواية العربية عرفت أوج ازدهارها على يد الأديب المصري الكبير (نجيب محفوظ)[2] ، الذي

---

(١) محمد حسين هيكل (١٨٨٨ ـ ١٩٥٦م) روائي وصحافي وكاتب وسياسي مصري ، درس القانون في جامعة السوربون في فرنسا ، ورجع إلى مصر فعمل بالمحاماة ، والصحافة ، اتصل بأحمد لطفي السيد وتأثر بأفكاره وأفكار الشيخ محمد عبده وقاسم أمين وغيرهم ، ترأس تحرير جريدة السياسة الأسبوعية سنة (١٩٢٦م) ، اختير وزيرًا للمعارف عدة مرات ، ووزيرًا للشؤون الاجتماعية ، ورئيسًا لحزب الأحرار الدستوريين ، وتولى رئاسة مجلس الشيوخ عام (١٩٤٥م) ، ومثّل مصر للتوقيع على ميثاق جامعة الدول العربية عام (١٩٤٥م) ، وترأس وفد مصر في الأمم المتحدة أكثر من مرة .

(٢) نجيب محفوظ (١٩١١ - ٢٠٠٦م) روائي مصري ، حصل على ليسانس الآداب قسم الفلسفة من جامعة القاهرة ، وتدرج بالوظائف الحكومية حتى عمل مديرًا عامًّا للرقابة على المصنفات الفنية عام (١٩٥٩م) ، تعرض للهجوم والمنع من قبل السلطات الدينية لما في كتاباته من مساس بالشخصيات الدينية ، ولا سيما في روايته (أولاد =

أبدع عشرات الروايات ، ونال إعجاب الأدباء الكبار في العالم ، وطبقت شهرته الآفاق ، وامتازت رواياته إجمالاً بالتأريخ لفترة طويلة من التاريخ العربي الحديث ، بأسلوب واقعي ، ولغة روائية متميزة تعتمد الحوار بصورة أساسية ، وقد ترجمت هذه الروايات إلى معظم اللغات العالمية ، ولا سيا بعد أن نال نجيب محفوظ في عام (١٩٨٨م) جائزة نوبل للأدب على إنجازاته الأدبية الثرية في حقل الرواية .





(محمد حسين هيكل ، رائد الرواية العربية الحديثة) (نجيب محفوظ ، أول أديب عربي ينال جائزة نوبل)

وبعد نجيب محفوظ عرفت الرواية العربية الحديثة الكثير من الأسماء اللامعة ، من أوائلهم : طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧١م) وتوفيق الحكيم (١٨٩٨ ـ ١٩٨٧م) وعباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤م) ، إبراهيم المازني (١٨٨٩ ـ ١٩٤٩م) ، يحيى حقي (١٩٠٥ ـ ١٩٩٢م) ، عبد الحليم عبد الله (١٩١٣ ـ ١٩٧٠م) ، إحسان عبد القدوس (١٩١٩ ـ ١٩٩٠م) ، عبد الرحمن الشرقاوي (١٩٢٠ ـ ١٩٨٧م) ، الطيب صالح (١٩٢٩م) ، حنا مينة (١٩٢٤م) ، غادة السمان (١٩٤٢م) ، أحلام مستغانمي (١٩٥٣م) ، وغيرهم كثير .

القصة القصيرة :

القصة القصيرة عمل أدبي قصصي يركز على حدث جزئي غالبًا ، وبهذا تختلف عن الرواية التي تغطي عادة فترة زمنية طويلة قد تبلغ عشرات السنوات ، وتتضمن عددًا

= حارتنا) التي ظلت ممنوعة في مصر حتى عام (٢٠٠٦م) ؛ لأنه جسد فيها الأنبياء بشخصيات شعبية ، وتعرض لمحاولة اغتيال فاشلة عام (١٩٩٤م) ، وقد بدأ كتاباته الروائية بالروايات التاريخية ، ثم اتجه إلى الروايات الاجتماعية ، وترك ما يزيد عن ٥٠ رواية ترجمت معظمها إلى اللغات العالمية ، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية في الرواية عام (١٩٥٩م) ، ونال جائزة نوبل في الآداب عام (١٩٨٨م) ليكون أول أديب عربي ينال هذه الجائزة العالمية .

كبيرًا من الشخصيات ، ويغلب على القصة القصيرة الطابع الشعري المختصر ، ويغلب أن تختم بنوع من العبرة ، ونظرًا لقصر القصة القصيرة فإن الشخصيات والمواقف فيها أقل عددًا وتعقيدًا مما هي في الرواية ، وعادةً ما تكون القصة القصيرة محدودة الحجم فلا تتعدى صفحة أو صفحتين فيما يُسمى (أقصوصة) ، وقد تكون قصيرة جدًّا لا يتعدى طولها بضعة أسطر ، ولكن الغالب أن تكون متوسطة الطول .

وقد عرفت القصة القصيرة بشكلها الفني الحديث على يدي الأديب الأمريكي الشهير إدجار آلان بو (١٨٠٩ ـ ١٨٤٩م) ، والأديب الفرنسي جي دي موباسان (١٨٥٠ ـ ١٨٩٣م) الذي أسَّس عناصر هذا الفن القصصي الجديد ووضع له إطارًا فنيًّا يختلف عن فن الرواية من حيث الطول والفترة الزمنية التي تغطيها القصة ، فقد أصبحت القصة القصيرة تروي حادثة محدودة ، أو موقفًا إنسانيًّا معينًا ، أو تعبر عن إحساس شخصية ما في ظرف خاص ؛ ومن أوائل الأدباء العرب الذين تخصصوا في فن القصة القصيرة في الأدب العربي الحديث محمد تيمور : (١٨٩٢ ـ ١٩٢١م) ، محمود تيمور (١٨٩٤ ـ ١٩٧٣م) ، يوسف إدريس (١٩٢٧م) ، عبد السلام العجيلي (١٩١٨ ـ ٢٠٠٦م) ، وليد إخلاصي (١٩٣٥م) ، زكريا تامر (١٩٣١م) ، وغيرهم كثير .





(من اليمين : محمد تيمور ، محمود تيمور ، يوسف إدريس ، أبرز رواد القصة القصيرة في الأدب العربي الحديث)

النزعات الأدبية :

لقد شهد تاريخ الأدب العديد من النزعات الأدبية التي عبَّرت عن أبرز الاتجاهات الاجتماعية والسياسية والفلسفية ، في فترات مختلفة من التاريخ البشري ، ونذكر من أشهر النزعات الأدبية التي شهدها تاريخ الأدب العالمي النزعات التالية :

١- الرومانسية : وهي نزعة تدعو للعودة إلى الطبيعة ، وإيثار المشاعر الإنسانية العاطفية الجياشة على منطق العقل ، فالأديب الرومانسي إنسان مشبوب العاطفة ، مسحور المخيلة ، لا يبصر في العالم غير الجمال ، ولا ينشد فيه غير الحب ، وهو يرى أن الوجود قصيدة من الغزل السماوي ينشدها الدهر ويرقص عليها الفلك ، وقد نشأت الرومانسية في الأصل ردًا على المذهب العقلي التقليدي الذي ساد في أوروبا في القرن الثامن عشر ، وظل مسيطرًا على الأدب الأوروبي حتى أواسط القرن التاسع عشر ، وقد جنح الأدباء الرومانسيون إلى امتداح الغرائز الطبيعية للبشر ، ودعوا لإطلاق الحبل على الغارب لعواطفهم وأحاسيسهم وعواطفهم الدفينة ، وكان للأديب الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو)[1] دور أساسي في شيوع النزعة الرومانسية واكتساب المؤيدين لها ، فقد استنكر روسو في مختلف كتاباته الأدبية والفلسفية شرور الحضارة الحديثة ، وأثنى على الحياة الفطرية التي كان يعتبرها أرفع أنواع الحياة ، وظل يؤكد أن الإنسان يولد على الفطرة ، وأنه خيِّر بطبعه ، لكن المجتمع هو الذي يفسده فيما بعد ، وقد كان للرومانسية أصداء واسعة في شتى ضروب الأدب والفن والحياة ، وتبناها الفلاسفة والسياسيون والكتاب والقادة الاجتماعيون في مختلف أنحاء أوروبا ، وأضفى الأدباء الرومانسيون الأوائل صفات المثالية على الأطفال وأهل الريف لما يتمتع به هؤلاء من خصال بدائية رفيعة ، كما أعطى الرومانسيون للفرد المزيد من الاهتمام على حساب الاهتمام بالمجتمع .

وبالرغم من أن إبداعات الأدباء الرومانسيين كانت تعبر عن إيمانهم بوحدة الكون وجمال الطبيعة وفضيلة الإنسان وبراءته فإن إحساسًا قاتمًا من الحزن والانكسار ظل يغشى إنتاج الرومانسيين ، وظلت أشعارهم مغلفة بعدم الرضا عن واقع هذا العالم ، وظلُّوا يتوقون إلى العالم المثالي الذي كتبوا عنه الكثير ولم يتحقق .. ويبدو أنه لن يتحقق أبدًا .. وبالرغم من أن الحركة الرومانسية لم تعمِّر طويلًا في ميدان الأدب والفن إلَّا أن تأثيرها على الأدب والفن ما زال يظهر حتى يومنا الحاضر في الكثير من الأعمال الأدبية والفنية ، فالرومانسية باعتبارها الروح التي تسري في العمل الإبداعي نجدها في كل العصور ، وفي مختلف الأمم ، ولكنها كانت أظهر في أوروبا في العصور الوسطى وفي مطلع عصر الباروك .

---

(١) سبقت ترجمته .

وقد أولع بالنزعة الرومانسية كثيرون من أعلام الأدب العربي، نذكر منهم : علي محمود طه [1] ، وجبران خليل جبران [2] ، وغيرهما من الأدباء العرب الذين روجوا لهذه النزعة ، واصطبغت أعمالهم بمسحة رومانسية استهوت الكثيرين من عشاق الأدب .. فالشاعر علي محمود طه كان من أركان مدرسة (أبولو) التي أرست النزعة الرومانسية في الشعر العربي الحديث ، وهو من أوائل الذين ثاروا على وحدة القافية ووحدة البحر في الشعر العربي ، مؤكدًا على الوحدة النفسية للقصيدة ، وقد حاول أن تكون القصيدة بمثابة فكرة أو صورة أو عاطفة يفيض بها القلب في صيغة متسقة من اللفظ تخاطب النفس وتصل إلى أعماقها دون تكلف أو مشقة ، مع التركيز على قيمة الجمال باعتباره قيمة إنسانية عليا .





(من اليمين : علي محمود طه ، جبران خليل جبران ، أبرز رواد الرومانسية في الأدب العربي الحديث)

أمّا جبران فقد اتسم شعره بالرومانسية المغلفة بالعواطف الجياشة ، وقد استلهم من الحرب العالمية الأولى مادته الأدبية التي راح من خلالها يتأمل طبيعة القوة وماهيّة الضعف في النفس البشرية ، وانتهى إلى اكتشاف قدرة الإنسان الروحية اللامتناهية ، ورأى أن التوصل إلى ذلك ممكن مِنْ خلال الحوار الداخلي مع النفس من جهة ، ومع بقية البشر من جهة أخرى ، وهكذا عاش جبران تجربته الرومانسية ، وإن كان قد تحوّل في أخريات أيامه

---

(١) علي محمود طه (١٩٠٢ - ١٩٤٩م) : شاعر مصري ، تخرج في مدرسة الفنون التطبيقية سنة (١٩٢٤م) حاملًا شهادة تؤهله لمزاولة مهنة هندسة المباني ، لكنه أبدع في الشعر العربي الحديث حتى أصبح من رموزه الكبيرة ، من أعماله : الملاح التائه ، ميلاد الشاعر ، الوحي الخالد .

(٢) جبران خليل جبران (١٨٨٣ ـ ١٩٣١م) : شاعر ورسام لبناني ، هاجر إلى نيويورك عام (١٨٩٥م) حيث درس فن التصوير ، ثم تابع دراسة الفن في باريس ، وعاد إلى نيويورك فأسس مع رفاقه شعراء المهجر (الرابطة القلمية) التي قدمت للمكتبة العربية ذخيرة قيمة من الأدب الرفيع الذي عرف بالأدب المهجري ، ترك جبران مؤلفات عديدة ؛ منها : دمعة وابتسامة ، الأرواح المتمردة ، الأجنحة المتكسرة ، العواصف ، الأرض . ونشر بالإنجليزية : المجنون ،، رمل وزبد ، يسوع ابن الإنسان ، حديقة النبي ، أرباب الأرض ، وديوان النبي – الذي نال شهرة عالمية .

من رومانسي حالم إلى رافض للحَرْفية الأدبية والأنظمة الفكرية والفلسفية ، وأصبح ينزع إلى شعر الحكمة .

إلّا أن الشاعر الرومانسي الرقيق (نزار قباني)[1] ، ظل هو الشاعر الأكثر حضورًا على الساحة الأدبية والشعبية لأكثر من نصف قرن من الزمان خلال القرن العشرين ، وما يزال شعره مقروءًا على نطاق واسع إلى اليوم ، لا سيما وأن الكثير من قصائده أنشدها كبار المطربين ، وقد كرّس نزار الجزء الأكبر من أشعاره للدفاع عن قضايا المرأة وما تعانيه من إهمال وإجحاف ، وما يمارس ضدها من تمييز يهضم الكثير من حقوقها ، وقد اتخذ نزار هذا المنحى في شعره بعد انتحار شقيقته التي حرمت من الزواج ممن تحب ، فقد شكلت تلك الحادثة المأساوية جرحًا عميقًا في نفسه ، كما شكلت منعطفًا كبيرًا في حياته وشعره وسائر أدبه فأصبح الدفاع عن الحب ، ومناصرة قضايا المرأة في مقدمة اهتماماته ، أمّا من الناحية الأدبية فقد امتازت أشعاره بالبساطة والتعبير الجميل الذي يلامس أعماق النفس ، ويعبر عن أرق الأحاسيس والمشاعر ، ويبدو أن نزار ورث هذا الحس المرهف عن أبيه الذي يقول هو عنه إنه كان محبًا للشعر ولكل ما هو جميل ، أمّا حسُّه الفني المرهف فقد ورثه عن عمه أبي خليل القباني الشاعر والمؤلف والملحن والممثل ورائد أول بذرة في نهضة المسرح العربي الحديث (انظر : تاريخ الفن)



(الشاعر نزار قباني)

---

(١) نزار توفيق قباني (١٩٢٣ ـ ١٩٩٨م) : شاعر سوري ، حصل على إجازة في الحقوق ، وعمل بالسلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية من عام (١٩٤٥م) ، وتنقل بين سفارات العالم لأكثر من عشرين عامًا ، بدأ يكتب الشعر وعمره ١٦ سنة ، وأصدر ديوانه الأول (قالت لي السمراء) عام (١٩٤٤م) عندما كان طالبًا بكلية الحقوق وطبعه على نفقته الخاصة ، ترك أكثر من أربعين ديوانًا ؛ منها : طفولة نهد ، الرسم بالكلمات ، قصائد وحشية ، سامبا ، أنت لي ، وآخرها (أنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء) وله عدد كبير من الكتب النثرية منها : قصتي مع الشعر ، ما هو الشعر ؟ ، ١٠٠ رسالة حب ، وقد أسس دار نشر لأعماله في بيروت تحمل اسمه .

وامتاز الشاعر نزار قباني عن غيره من الشعراء الرومانسيين أنه كان أقرب إلى هموم وطنه العربي الكبير ، فقد كان يمزج رومانسيته بغلالة رقيقة من الوطنية ، ثم تحول بقوة إلى القضايا الوطنية الكبرى ، ولا سيما بعد هزيمة (١٩٦٧م) ، فقد تحول من شعر الحب والعشق والغرام والهيام إلى شعر السياسة والرفض والمقاومة ؛ وكانت قصيدته الشهيرة (هوامش على دفتر النكسة) التي نشرها في أعقاب النكسة مباشرة نقدًا ذاتيًا جارحًا للأوضاع العربية المتدهورة التي جعلت حفنة من الصهاينة تهزم ثلاثة من أكبر الجيوش العربية خلال أيام معدودة .

٢- الواقعية : نزعة أدبية نشأت ردًا على الحركة الرومانسية التي راجت كثيرًا في أوروبا في أوسط القرن التاسع عشر ، فقد رفض كثيرٌ من الأدباء النزعة الرومانسية المحلقة في عالم المثال والخيال ، وراحوا يُصورون الواقع الذي يعيشونه بكل مثالبه وعيوبه وآلامه ومآسيه ، ومع أن هذه النزعة بدأت في أوروبا فإنها لم تلبث أن انتشرت في شتى أنحاء العالم ، وهي نزعة تميل لتصوير الواقع كما هو في حقيقته ، وترفض المثاليات التي ظلت سائدة في الأدب لعصور طويلة .

وقد قاد الأديب الفرنسي (إميل زولا)[1] ، التيار الواقعي في الأدب ، من خلال رواياته المختلفة التي دأب فيها على إبراز أدق الجوانب في المجتمع مهما كانت منحطة أو مرفوضة أو خارجة عن المألوف .

وقد بالغ الواقعيون كثيرًا عند نقل صورة الواقع إلى أدبهم حتى راحوا يتعاملون مع شخصياتهم وكأنها عينات تجربة في المختبر ، ووصلت هذه النزعة المتطرفة عند بعض الأدباء الواقعيين إلى درجة مغرقة في الإسفاف ، وهذا ما نلمسه مثلًا في أعمال الأديب الفرنسي جوستاف فلوبير (١٨٢١ – ١٨٨٠م) ، وبخاصة في روايته (مدام بوفاري) التي أرسى بها قواعد المدرسة الواقعية في الأدب ، إذ صوَّر في هذه الرواية كل ما هو تافه

---

(١) إميل زولا (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢م) : روائي فرنسي ، بدأ حياته الأدبية في الصحافة ، ثم أصبح رائد المذهب الواقعي في الأدب الأوروبي ، كان من المتحمسين للإصلاح الاجتماعي ، ودعا لأن تقوم الرواية على التفكير العلمي والتصوير الواقعي للمجتمع ، كتب سلسلة من عشرين رواية عن الحياة الفرنسية بعنوان : (آل روجون ماكار) لاقت نجاحًا باهرًا ، وفي عام (١٨٩٨م) نشر عدة مقالات في جريدة الفجر الباريسية بعنوان : (أنا أتهم) مدافعًا عن ضابط المدفعية الفرنسي ألفريد دريفوس الذي اتهم بالخيانة العظمى ، فلقي زولا محاربة قوية من منافسيه وصدر الحكم عليه بالسجن لكنه رفض الانصياع للحكم ، وفرَّ إلى إنكلترا ، وبعد عدة شهور مات هناك مختنقًا .

ووضيع في حياة الناس ، إلى جانب تصويره لما هو نبيل ورفيع وطيب ، ولا بد من الاعتراف هنا بأن فلوبير برع كثيرًا من خلال رسمه لشخصيات رواياته بتصوير أدق المشاعر الإنسانية وأعمقها ، مما كان له تأثير كبير على فن الرواية في القرن العشرين ، وقد حاول بعض الأدباء الواقعيين فيما بعد معارضة هذا الضرب من الواقعية المفرطة ، فوجهوا اهتمامهم أكثر إلى المعنى الدفين الذي ينطوي عليه الواقع ، متجنبين الإسفاف والابتذال ، ما جعل أدبهم أكثر اتزانًا ، وأكثر تحقيقًا للأهداف الإنسانية النبيلة .




(من اليمين : إميل زولا ، جوستاف فلوبير ، من أبرز رواد الواقعية في الأدب العالمي الحديث)

٣- الحداثة (*Modernity*) : مصطلح استخدم في مجالات عدة ، إلّا أنه برز بصورة أوضح في المجال الثقافي والأدبي ، وحاول الترويج لمفاهيم جديدة تستهدف القضاء على كل ما هو قديم ، وبالرغم من أن بعض الباحثين يرجعون بدايات التوجه نحو الحداثة إلى التطور الصناعي والتكنولوجي الذي حصل في أوروبا في العصور الحديثة ، فإن التغيرات الفكرية كانت أكثر تأثيرًا في مسيرة الحداثة ولا سيما منها ثورة الداعية (لوثر كنج) [١] ، ضد سلطة الكنيسة في القرن السادس عشر ، والثورة الفرنسية عام (١٧٧٦م) ، والثورة الأمريكية عام (١٧٨٩م) ، وبعض النظريات العلمية التي ظهرت في القرن التاسع عشر ، مثل النظريات الجديدة التي قدّمها (سيجموند فرويد) [٢] في علم النفس ، ونظرية التطور التي قال بها (تشارلز داروين) [٣] في علوم الطبيعة ، وغيرها من النظريات التي جعلت كثيرًا من اليقينيات والتصورات الدينية والاجتماعية والأخلاقية محط تساؤل ، وقد أثمرت الحداثة العديد من المذاهب الفنية والأدبية ؛ مثل : المستقبلية والتصويرية والانطباعية والسريالية .

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) سبقت ترجمته

ويعد الشاعر الأمريكي والت ويتمان (١٨١٩ ـ ١٨٩٢م) من أبرز الأسماء المؤثرة في كتابة الشعر الحر ، وهو الذي وضع الأسس الأولى لأدب الحداثة العالمي الذي اصطبغ به أدب العقود التالية ، بدءًا من معاصريه ، من أمثال الشاعر الإيرلندي ويليام بتلر ييتس (١٨٦٥ ـ ١٩٣٩م) والشاعر الإنجليزي جيرالد مانلي هوبكنز ، والشاعر التشيلي بابلو نيرودا (١٩٠٤ ـ ١٩٧٣م) ، والشاعر الأمريكي عزرا باوند (١٨٨٥ ـ ١٩٧٠م) الذي كان يحترمه كثيرًا ، وأوسكار وايلد (١٨٥٤ ـ ١٩٠٠م) الذي لم يكن يخفي حبه وتقديره لويتمان .

ولم يقتصر تأثير ويتمان على معاصريه من الشعراء والأدباء والمفكرين فحسب ، بل امتد ليشمل كثيرًا من الشعراء الذين جاؤوا بعده بسنوات طويلة ، حتى لا يكاد يخلو شاعر أمريكي من التأثر به ، إلى جانب عدد كبير من الشعراء الآخرين الذين تأثروا به وأعجبوا بتجربته الفريدة .



(الأديب الأمريكي والت ويتمان)

وقد كان ويتمان يعتقد أن المجتمع الأمريكي الديمقراطي الوليد كان بحاجة لشكل شعري ديمقراطي يتسع لكل أطياف التعبير الممكنة عن الذات والعالم ، وهذا هو سرُّ ابتعاده عن الكتابة الشعرية التقليدية المألوفة ، وبحثه الدؤوب عن شكل جديد يبدو للوهلة الأولى بعيدًا عن اللغة الشعرية قريبًا من التعابير العامية والأفكار المتحررة الصادمة بجرأتها ، ولأن أمريكا ذات جغرافية شاسعة وممتدة ومتنوعة أراد ويتمان أن يعكس ذلك كله في شعره ، فكتب القصائد المطولة ذات الجمل الممتدة المتداخلة ، كما كتب القصائد القصيرة المختزلة ، وفي كل منها كان الاحتفاء بالإنسان والمعاني الإنسانية هو شغله الشاغل وهدفه الأسمى الذي لم يتنازل عنه ، وظل بشكل عصب إنتاجه الشعري ، كتابه الأبرز

والأكثر شهرة ربما في تاريخ الشعر الأمريكي برُمَّتِهِ هو : (أوراق العشب) ، الذي نشره في طبعات متعددة ومختلفة عبر سنوات حياته الطويلة .

أمّا في الأدب العربي المعاصر فإن الشاعر (أدونيس) [1] يعد من أبرز الأدباء العرب الذين تبنوا نزعة الحداثة ، فقد كانت الحداثة هاجسه الأكبر في الإبداع والتنظير ، وهو يرى أن مفهوم الحداثة يتأسس في ضوء المغايرة والاختلاف ، والمعاصرة والتجريب ، فالحداثة عنده تعني التغاير والاختلاف مع الماضي والحاضر ، والتهديم الشامل للنظام السائد وعلاقاته ، أي إن الحداثة عند أدونيس تمثل هجومًا وخرقًا ثقافيًا جذريًا شاملًا لما هو سائد ، وبناء طرق معرفية غير مألوفة ، وطرح قيم جديدة كل الجدة عما هو مألوف وتقليدي .



(الشاعر الأديب أدونيس)

وقد حاول أدونيس بَلْوَرَة منهج جديد في الشعر العربي يتسم بالتجريب والخروج عن كل ما هو مألوف ، مع استخدام لغةٍ جديدةٍ مُخْتَلِفَة غير تقليدية ، وفي ضوء هذا

---

(١) أدونيس : اسمه الحقيقي علي أحمد سعيد إسبر (١٩٣٠م) شاعر سوري معاصر ، تبنى اسم أدونيس (*Adonis*) وهو إله الربيع والإخصاب في الأساطير الإغريقية القديمة ، وكان يصور بصورة شاب رائع الجمال ، وتبني أدونيس لهذا الرمز الوثني الأوروبي يوحي بنزعة أدونيس المبكرة للانخلاع عن انتمائه العربي وتراثه العربي ، درس أدونيس الفلسفة في جامعة دمشق ، ثم قصد بيروت حيث بدأ حياته الثقافية ، وساهم في مجلة (شعر) التي أسسها الشاعر يوسف الخال ، ثم في مجلة (مواقف) ، وفي عام (١٩٨٥م) غادر بيروت إلى باريس بسبب الحرب الأهلية ، وهو يعد من أغزر الكتاب العرب إنتاجًا ، فقد نشر عددًا كبيرًا من الدواوين الشعرية والكتب الفكرية والنقدية ، وحصل على جوائز محلية وعالمية ، ومنذ مدة طويلة يرشحه النقاد لنيل جائزة نوبل العالمية في الآداب ، لكنه ظل منذ ديوانه الأول (أغاني مهيار الدمشقي) عرضة للنقد والتجريح بسبب مواقفه الخارجة عن مألوف الثقافة العربية .

التنظير للحداثة التي يتبناها أدونيس وبقية رموز الحداثة العربية يبدو بوضوح تأثرهم الكبير بإنجازات الحداثة الغربية وتبعيتهم الكاملة لها ، وهذا يعني أن الحداثة العربية ليست سوى تبعية إبداعية أخرى تضاف إلى التبعية العامة التي تعيشها الأمة سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا ، وربما لهذا السبب لم تستطع الحداثة العربية أن تكون حركة عامة في المجتمع العربي ، وظلّت حداثة مجموعة من المثقفين الذين يتحاورون ويتناقشون بعيدًا عن مجتمعهم ، فلا هم يعبرون عن همومه ومشكلاته ، ولا هم يؤثرون فيه ويدفعونه نحو التغيير ، وقد عبر عن حالة الانفصام الحاد هذه واحد من رموز الحداثيين العرب فوصف حاله وحال رفاقه الحداثيين بنبرة مغلفة بالمرارة فقال : (إن هذه الصفوة فئة قليلة جدًّا ، وغير مؤثرة التأثير الكافي في واقعنا الثقافي .. إن الكتاب الذي يصدر بيننا ، ويؤلفه واحد منا ، نتداوله فيما بيننا نحن فقط ، ولا يوزع منه إلّا حوالي ستة آلاف نسخة فقط ، في شعب يزيد على مائة وخمسين مليونًا) [1] .

٤- العَدَمية : والعدمية وصف لنظريةٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ اعتنقها كثير من الثوريين الروس وظلت قائمة حتى سقوط الحكومة القيصرية عام (١٩١٧م) إبان الثورة البلشفية التي قادها الزعيم الروسي لينين ، ومؤدى هذه النظرية هدم الأوضاع السياسية والاجتماعية الفاسدة بغض النظر عن طبيعة الأنظمة الصالحة التي ينبغي أن تحل محلها ، ولهذا لم يتورع أنصار العدمية عن استخدام الاغتيال السياسي والطرق الإرهابية لتحقيق مآربهم ، وَيُعَدُّ الروائي الروسي (إيفان تورجنيف) [2] أوّل من استخدم مصطلح العدمية في الأدب ، فهو الذي بلورها لأول مرة من خلال رواياته وقصصه القصيرة التي رسم فيها الرجل النبيل الروسي المتعلم حسن النية ، الذي يعاني من خيبة الأمل ، العاجز عن إيجاد متنفَّس لمواهبه وطاقاته وأحلامه ؛ ولهذا درج (تورجنيف) على وصفه بالرجل غير الضروري ،

---

(١) انظر : محمد عابد الجابري (الحداثة في الشعر) مجلة فصول ، العدد (١ / ١٩٨٢م) ، (ص ٢١٢) .

(٢) إيفان س.تورجنيف (١٨١٨ _ ١٨٨٣م) : روائي روسي ، اشتهر بتصويره الواقعي لطبقة النبلاء والمثقفين الروس ، ودرس الاهتمامات الاجتماعية والثقافية في روايات تشبه المذكرات اليومية التي تتناول ذلك القطاع من المجتمع الروسي في فترة ما بين الأربعينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر ، وقد نال التقدير والاعتراف به بوصفه مؤلفًا لأول مرة عن مجموعته (اسكتشات رجل رياضي) التي نشرها عام (١٨٥٢م) ، وتعاطف فيها مع هموم طبقة الفلاحين الروس ، وقد قضى تورجنيف عدة عقود من حياته في الغرب ، وظلّ يعتقد أن مستقبل روسيا يعتمد على تبني أفضل العناصر الموجودة في الثقافة الغربية ، نشر روايات عديدة ، منها : رودين ، عش النبلاء ، في المساء ، آباء وأبناء ، الدخان ، الأرض العذراء .

على النقيض من الشخصيات النسائية التي هي عنده أكثر دهاءً وأقوى إرادة ، وقد أسس (تورجنيف) في روايته الشهيرة (آباء وأبناء) التي نشرها عام (١٨٦١م) هذه النزعة إلى الشعور بالإحباط والعدمية ، وتدور هذه الرواية حول الشباب الروس الثائرين على مجتمعهم في الستينيات من القرن التاسع عشر ، فقد رسم الشخصية الرئيسية في الرواية - بازاروف - على أنه رجل عدمي ، معارضٌ وثائرٌ على كل أشكال التقاليد والسلطة ، ومع أنه شخصية جبارة قوية إلا أنه يموت آخر المطاف خاملًا عبثًا .. وقد كان للنزعة العدمية أصداء واسعة فيما بعد في كثير من الكتابات التي ظهرت في العالم إبان انتشار الأفكار الماركسية والوجودية وغيرها من الأفكار الثورية ، التي ذاعت وانتشرت في أواسط القرن العشرين بصورة خاصة ، ووجدت لها أنصارًا كثيرين ، ولا سيما من الشباب المتحمسين الذين راحوا يثورون على كل التقاليد والأعراف تحت تأثير النظريات الفلسفية الجديدة التي أثبتت الوقائع التالية عقمها وعدم جدواها ، بل تأثيرها المدمّر على المجتمعات والقيم الإنسانية ، ولهذا لم يلبث الناس أن انفضوا عنها وبدؤوا يعودون إلى ما هو أصيل من القيم والمفاهيم الإنسانية السامية .

٥- **المُنْحَلُّون** : أو الملعونون حسب تعبير أحدهم ، هم جماعة من الكتاب والفنانين ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر في أوروبا ، وتخصصت بوصف كل ما هو منحرف من العواطف والمشاعر الإنسانية ، وقد كانت كتاباتهم صورة طبق الأصل عن حياتهم العابثة الشاذّة المنحلة ، وكثيرًا ما كانوا ينسبون إلى الرمزيين الفرنسيين الذين يرجع إليهم أصل هذه الحركة الأدبية ، من رموزهم الأديب الإنكليزي أوسكار وايلد (١٨٥٤ - ١٩٠٠م) الذي كان من القائلين بمذهب الفن للفن ، وألّف الكثير من القصائد والقصص والمسرحيات ، وكان من أكثر الكتاب نجاحًا وشهرة في عصره ، لكنه حوكم بتهمة الانحراف الأخلاقي والشذوذ الجنسي .

ومنهم الفرنسي آرثر رامبو (١٨٥٤ - ١٨٩١م) وكان من الأدباء المنحلّين كذلك ، وتعد سيرته الشعرية من أقصر المسيرات زمنيًّا ، فهي لا تزيد عن مائة صفحة مكتوبة بخط اليد ، وقد أنجزها كلها قبل العشرين من عمره ، ولاذ بعدها بالصمت الذي احتار النقاد في معرفة أسبابه ، لا سيما بعد أن وصل إلى مكانةٍ أدبيةٍ كبيرةٍ ، وبسهولة ، في حين كان عدد كبير من شعراء جيله يتخبطون في سعيهم الدؤوب إلى المنصب الذي رفضه ، حتى إنه وفق أقوال صديق طفولته وزميل الدراسة ومؤرخ وكاتب سيرة حياته

(آرنست دولاهاي) فإن رامبو لم يعد يذكر شيئًا من تجربته الشعرية في الفترة الأخيرة من حياته ، بل إنه أصبح ينعت قصائده بأنها خربشات وقذارة .

أمَّا الشاعر (بول فرلين) [1] ، الذي ربطته علاقة شاذة بـ (رامبو) حين كان في سن المراهقة فقد كتب عنه فيما بعد : إنه شاعر ملعون ! وقد انتهت هذه العلاقة المنحرفة بين الصديقين الحميمين نهاية درامية مفجعة ، ففي عام (١٨٧٣م) وفي حالة سكر وعربدة أطلق (بول فرلين) على (رامبو) رصاصتين تسببتا بجروح في معصمه ، وقد وضعت هذه الحادثة نهاية للشاعر المراهق ، وللحياة البوهيمية التي كان يحياها مع رفيقه العابث ، ومع أن إنتاجه الشعري كان محدودًا جدًّا ، فقد كان له أثرٌ كبيرٌ في الشعر الأوروبي الحديث ، فقد تجاوز به (رامبو) التيار الرمزي الذي كان قد تأجج منذ (بودلير) وصولًا إلى (فيرلين) وغيره من معاصريه ، وأسَّس رامبو لكتابة جديدة تنطلق من تجربة أو اختبار (الرؤيا) وهذه الكتابة شكلت لغزًا وتحديًا لأدب معاصريه تمامًا مثلما كانت حياته لغزًا .. فلا غرابة بعد هذا العبث أن يطلق فرلين على أصدقائه هؤلاء وصف (الشعراء الملعونون) .





(من اليمين : أوسكار وايلد ، آرثر رامبو ، بول فرلين ، أبرز الأدباء والشعراء المنحلين)

٦- الرمزية : الرمزية مذهب أدبي فلسفي ، يتوسل بالرمز أو التلميح للتعبير عن أغراضه ، وعن النوازع النفسية المستترة التي لا تَقْوَى اللغة على أدائها ، أو لا يراد التعبير عنها مباشرة، ولا تخلو الرمزية من مضامين فكرية واجتماعية ، تدعو إلى التحلل من القيم

---

(١) بول فرلين (١٨٤٤ ـ ١٨٩٦م) أديب فرنسي ، كان قليل المواظبة على العمل ، يتردد على المقاهي لكنه اكتشف ميوله الشعري ، في (قصائد إلى زحل) التي نشرها في عام (١٨٦٦م) يجاهر بحظه وشبابه ورقته وكآبته ، في قصائده صدى خافت للقلق الرومانسي ، وكآبة تختلط بالفرح ، تزوج لكنه لم يوفق في زواجه ، وعاد إلى علاقته الشاذة بصديقه رامبو ، وتنقل برفقته بين بلجيكا وإنكلترا ، وفي نوبة سكر وعربدة أطلق عليه رصاصتين من مسدسه ، فحكم عليه بالسجن سنتين ، وفي زنزانته بلغه نبأ حصول زوجه على قرار بالتفريق فهزه النبأ ومرض فأدخل مرارًا إلى المشفى قبل أن يموت ميتة بائسة .

الدينية والخلقية ، بل تتمرد عليها متسترة بالرمز والإشارة ، وتعد الرمزية الأساس المؤثر في مذهب الحداثة الفكري والأدبي الذي خلفه ، وبالرغم من أن استعمال الرمز قديم جدًّا ، كما هو عند الفراعنة واليونانيين القدماء ، إلَّا أن المذهب الرمزي بخصائصه المتميزة لم يُعرف إلَّا عام (١٨٨٦م) ، حين أصدر عشرون كاتبًا فرنسيًّا بيانًا يعلن ميلاد المذهب الرمزي ، وعرف هؤلاء الكتَّاب حتى مطلع القرن العشرين بالأدباء الغامضين ، وقد جاء في البيان : إن هدفهم تقديم نوع من التجربة الأدبية تستخدم فيها الكلمات لاستحضار حالاتٍ وجدانيةٍ ، سواءٌ كانت شعورية أو لا شعورية ، بصرف النظر عن الماديات المحسوسة التي ترمز إلى هذه الكلمات ، وبصرف النظر عن المحتوى العقلي الذي تتضمنه ؛ لأن التجربة الأدبية تجربة وجدانية في المقام الأول ، وقد تميزت لغتهم الشعرية بالتحرر من القواعد والأشكال الجاهزة ، والغموض ، واستخدام الرموز الأسطورية ، ومن أبرز الشخصيات في المذهب الرمزي ستيفان مالارميه (١٨٤٢ ـ ١٨٩٨م) ، والأديب الفرنسي شارل بودلير (١٨٢١ ـ ١٨٦٧) وتلميذه أرثر رامبو ، وبول فاليري (١٨٧١ ـ ١٩٤٥م) ، وفي ألمانيا راينر ماريا ريلكه (١٨٧٥ ـ ١٩٢٦م) ، وستيفان جورج ، وفي أمريكا إيمي لويل ، وفي بريطانيا أوسكار وايلد (١٨٥٤ ـ ١٩٠٠م) .





(من اليمين : مالا رميه ، بودلير ، ريلكه ، أبرز أدباء الحركة الرمزية في الأدب الغربي)

ويبدو أن هذه النزعة جاءت نتيجة إحساس الإنسان الأوروبي بالتمزق والضياع بسبب طغيان النزعة المادية وغيبة الحقيقة ، والتعلق بالعقل البشري وحده للوصول إليها ، أو هي ثمرة من ثمرات الفراغ الروحي والهروب من مواجهة المشكلات باستخدام الرمز في التعبير عنها .. وقد أسَّس (مالارميه) هذه الجماعة الأدبية ، وكان يجمعها في مسكنه كل (ثلاثاء) بعد الظهر فيتطارحون الأشعار ويروجون لمدرسته الشعرية ، وقد سار على نهجه الكثيرون من بعده ، كما تأثر به لفيف من الأدباء العرب الذين راحوا يوظفون الأسطورة في أشعارهم على طريقته ، وينزعون إلى الرمزية والغموض المفرط ، كما أن لقاءاته الأسبوعية

يوم الثلاثاء مع رفاقه يذكرنا بالصالونات الأدبية الأسبوعية التي درج عليها بعض الأدباء العرب ، فراحوا يعقدونها في بيوتهم على الطريقة نفسها ، ومن أشهرها لقاء (الثلاثاء) الذي درج عليه عميد الأدب العربي طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧١م) بعد عودته من الدراسة في باريس وتأثره بالثقافة الأوروبية .

٧- العاصفة والإجهاد : أطلق هذا الوصف الأدبي الصارخ على فترة من تاريخ الأدب الألماني التي ثار فيها الشباب على القيم التقليدية في أواسط القرن الثامن عشر (ما بين ١٧٦٧ ـ ١٧٨٧م) ، وقد أثرت هذه الثورة الأدبية والأخلاقية في آداب الأمم الأخرى فيما بعد ، فراح الأدباء هنا وهناك يعلنون الثورة على كل ما يمتُّ إلى القديم بأية صلة ، ويجربون إبداع أنماط جديدة من الإنتاج الأدبي الذي لم يُعرف من قبل ، وقد استمدت هذه الحركة الأدبية سماتها من أعمال الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) [1] ، والأديب الألماني (جوتهولت إيفرايم ليسنج)[2] ، أمّا اسمها فهو مأخوذ من مسرحية (الفوضى) أو (العاصفة والإجهاد) التي نشرها في عام (١٧٧٦م) الأديب الألماني فريدريخ ماكسميليان فون كلينجر (١٧٥٢ ـ ١٨٣١م) وحظيت بشهرة واسعة ، وأكسبته شهرة أدبية عظيمة ، وكان من أشهر أقطاب هذه الحركة الأدبية الشاعر الألماني الشهير جوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢م) ، والشاعر الأديب (شيلر) [3] ، الذي يعد من مؤسسي الأدب الألماني الحديث ، ومن الطريف أن دوق فرتمبرج أجبره أن يصبح طبيبًا بالجيش ، فألف خلال خدمته العسكرية مسرحية تراجيدية لاذعة بعنوان (اللصوص) ، التي تعد من أعظم مسرحيات فترة الإجهاد والعاصفة في الأدب الألماني ، وقد تميزت هذه المسرحية

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) جوتهولت إيفرايم ليسنج (١٧٢٩ ـ ١٧٨١م) : أديب مسرحي وناقد ألماني ، من أقطاب الأدب في القرن الثامن عشر ، وزعيم حركة التنوير في ألمانيا ، كتب العديد من المسرحيات ، ومقالات قيمة في النقد المسرحي ، وتميزت كتاباته بسعة الاطلاع والفطنة والتهكم اللاذع ، والدعوة إلى التعايش السلمي بين الأديان وحرية الفكر ، وفي كتابه (تثقيف البشرية) الذي نشره عام (١٧٨٠م) خطط لتطور البشرية من مراحل الديانات إلى مرحلة المجتمع المنظم طبقًا لقوانين مقدسة [الموسوعة العربية الميسرة] .

(٣) فريدريخ فون شيلر (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥م) : شاعر ومسرحي ومؤرخ فيلسوف ألماني ، تأثر بالفيلسوف كانط ، وكانت بينه وبين جوته صداقة عميقة ، وتميزت أعماله الأدبية بالنزعة المثالية ، وكراهية الطغيان في شتى صوره ، شغل منصب أستاذ التاريخ بجامعة يينا ، لكنه ما لبث أن اعتزل التدريس لاعتلال صحته ، وقد ترك عددًا ضخمًا من المؤلفات الأدبية المتنوعة ، ودراسات تاريخية قيمة .

بشكلها الفني المتحرر ، وبما فيها من جرأة في طرح الآراء الحرة ، والأطرف في سيرة هذا الأديب الفذ أنه لم يستطع أن يظل تحت رحمة الدوق الطاغية فهرب من جبروته ، وعاش طريدًا فترة من الزمن ظهرت خلالها موهبته في فن التراجيديا التي أكسبته شهرته الأدبية العالمية .



(الشاعر الألماني شيلر)

٨- المودرنيسمو : حركة في الأدب الإسباني انطلقت من أمريكا اللاتينية في أواخر القرن التاسع عشر ، من خلال الشاعر (هوسيه مارتي) [1] ، وقد اتسمت هذه الحركة الأدبية بالمهارة الفنية باختيار الصور البيانية ، وتلوين الصورة الأدبية لتكون أكثر إشراقًا ، واستخدام الألفاظ الأدبية الرقيقة ذات الجرس الموسيقي الشفاف ، وقد جنحت هذه الحركة إلى الغرابة والابتعاد عن الواقع ، وكان من أشهر روادها الشاعر اللاتيني روبن داريو (١٨٦٧ ـ ١٩١٦م) الذي يُعَدُّ أبا الشعر الإسباني الحديث ، كتب مجموعته الشعرية بعنوان أزول (*Azul*) في عام (١٨٨٨م) التي تميَّزت بأسلوبها البسيط المباشر ، وهي أول أعماله الأدبية الكبرى ، وهو يعدُّ رائد حركة التجديد في أمريكا اللاتينية وأحد رواد الحركة الأدبية الحديثة في العالم .

٩- الشعراء التصويريون : جماعة من الشعراء الإنكليز والأمريكان ، تزعمهم الشاعر الناقد والموسيقي الأمريكي عزرا باوند (١٨٨٥ ـ ١٩٧٠م) الذي اعتبره النقاد من أبرز

---

(١) هوسيه مارتي (١٨٥٣ ـ ١٨٩٥م) : أديب كوبي ، وشاعر نابغة ، يعده النقاد من أعظم أدباء أمريكا اللاتينية ، نفي من بلاده لنضاله من أجل استقلال بلاده فواصل نضاله في إسبانيا والمكسيك وجواتيمالا وفنزويلا ونيويورك ، نشر مقالاته في مجلة (Sun) في نيويورك ، ثم عاد إلى كوبا وقتل في إحدى المعارك .

الشعراء المجددين في النصف الأول من القرن العشرين ، وقد أصدر هؤلاء الأدباء التصويريون مجموعتهم الشعرية الأولى في عام (١٩١٣م) ، لكنها استقبلت استقبالًا سيئًا في أوساط الأدباء والنقاد ، ثم أصدروا ثلاث مجموعات شعرية أخرى لم تكن أحسن حظًا من سابقاتها ، وتتلخص أفكار هذه الجماعة الأدبية باستخدام الألفاظ الشائعة ، وابتكار الأوزان الجديدة ، وعدم التقيد بمضمون شعري معين .



(الشاعر الأمريكي عزرا باوند)

١٠- جماعة أبولو : تشكلت هذه الجماعة في مصر في الفترة ما بين (١٩٣٢ ـ ١٩٣٥م) في فترة تاريخية عصيبة ، فقد استبد الملك بالحكم وتواطأ مع المحتلين الإنجليز على تعطيل الحياة الديموقراطية النيابية ، وأوقف العمل بالدستور ، وقهر الآراء الحرة ، وأجهض المعارضة ، ورافق ذلك خراب اقتصادي ، وظلم اجتماعي فادح ، وتخلفت حركة التعليم ، وتعثرت الصحافة والنوادي الثقافية ، وهذه الظروف القاسية الملتهبة سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا دفعت بعض الشعراء لتكوين (جماعة أبولو) بهدف نشر روح التآخي والتآلف بين الشعراء ، على الرغم من اختلاف مفاهيمهم الفنية وقدراتهم الإبداعية ، وكان على رأس هؤلاء الشعراء (أحمد زكي أبو شادي) [1] .

(١) أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥م) : أديب مصري ولد في بيئة ذات حظوظ اجتماعية وثقافية عميقة ، فقد كان أبوه محمد بك أبو شادي محاميًا مثقفًا وحضورًا في مجلس الأمة ، وكانت والدته أمينة نجيب شاعرة ومن عائلة فنية سينمائية ، تلقى شاعرنا تعليمه الأولي في القاهرة ، ثم أرسلته أسرته لدراسة الطب في لندن رغبة منها بأن يبتعد عن إحدى قريباته التي كان يحبها ، لكن عاطفة الشاعر لم تخمد بل حملها معه إلى لندن وأصدر ديوانًا شعريًا يحمل اسم الحبيبة ، من دواوينه : (الشفق الباكي) و (أطياف الربيع) و (أنين ورنين) و (أنداء الفجر) و (أغاني أبي شادي) و (أشعة وظلال) ، وآخرها (من السماء) .

وتسمية جماعة أبولو بهذا الاسم يوحي من زاوية خفية باتساع مجالات ثقافتهم وإبداعاتهم ؛ لأن (أبولو) هو أحد الآلهة في الأساطير الإغريقية القديمة ، وكانوا ينسبون له الخصب والنماء وحب الفلسفة والمبادئ الأخلاقية .



(الشاعر أحمد زكي أبو شادي)

وقد وجد هؤلاء الشعراء الرومانسيون على اختلاف إبداعاتهم في صورة الحب الحزين والمحروم الذي ينتهي بالفراق أو الموت معادلًا موضوعيًا لما كانوا يعانون في ظروف قاسية ، وعجز عن التصدي للواقع ، ولهذا جاءت صورة الإنسان في أدبهم صورة شخص سلبي حزين ، كما نراه في أشعار علي محمود طه [1] ، إبراهيم ناجي [2] ، عبد الوهاب البياتي [3] ،

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) إبراهيم ناجي (١٨٩٨ ـ ١٩٥٣م) : شاعر وطبيب مصري ، تولى رئاسة جماعة أبولو ، ومن بعدها رابطة الأدباء ، امتاز شعره بالنفس الرومانسي الرقيق ، من أشهر قصائده (الأطلال) ، التي تغنت بها المطربة أم كلثوم ، ولأجلها لقب بشاعر الأطلال ، من دواوينه الشعرية : وراء الغمام ، ليالي القاهرة ، في معبد الليل ، الطائر الجريح ، وقد ترجم بعض الكتب الإنجليزية والإيطالية إلى العربية ، وكتب الكثير من الكتب الأدبية منها (مدينة الأحلام) و (عالم الأسرة) .

(٣) عبد الوهاب البياتي (١٩٢٦ ـ ١٩٩٩م) : شاعر عراقي ، اشتغل مدرسًا ، ومارس الصحافة ، وفصل عن وظيفته واعتقل بسبب مواقفه السياسية ، غادر إلى الاتحاد السوفيتي واشتغل أستاذًا في جامعة موسكو ، ثم باحثًا علميًا في معهد شعوب آسيا ، وفي عام (١٩٦٣م) أسقطت عنه الجنسية العراقية ، وبعد رحلة من التشرد في عواصم الدنيا استقر في إسبانيا ، وأصبح معروفًا على مستوى رسمي وشعبي واسع حتى صار كأنه واحد من الأدباء الإسبان ، من دواوينه : ملائكة وشياطين ، رسالة إلى ناظم حكمت ، أشعار في المنفى ، عشرون قصيدة من برلين ، سفر الفقر والثورة ، يوميات سياسي محترف ، ومسرحية محاكمة في نيسابور ، بول إلوار ، أراجون ، تجربتي الشعرية ، مدن ورجال ومتاهات .

السياب [(١)] ، أمل دنقل [(٢)] ، أحمد زكي أبو شادي ، أدونيس .. وروايات محمد عبد الحليم عبد الله ، ومحمد فريد أبو حديد ، ويوسف السباعي ، كما أن ازدهار المسرح والرواية في تلك الفترة يدل دلالة واضحة على الرغبة الواعية عند جماعة أبولو في الهروب من الواقع إلى عالم الخيال والحلم .. وهذا ما دفع الأديب الكبير (عباس محمود العقاد) [(٣)] ، للهجوم على الجماعة واتهامها أنها صنيعة السرايا والملك ، وأن شعراءها ركزوا على كتابة الشعر الرومانسي وقصائد الهيام وتركوا (صدقي باشا) يبطش بالشعب المصري وينكل بأبنائه .

---

(١) بدر شاكر السياب (١٩٢٦ ـ ١٩٦٤م) : شاعر عراقي ، درس في دار المعلمين العالية والتحق بفرع اللغة العربية ثم الإنجليزية فأتيحت له الفرصة للاطلاع على الأدب الإنجليزي ، اتسمت بداياته الشعرية بالرومانسية ، ثم انساق وراء السياسة ، وعندما اطلع على أشعار الشاعر الإنكليزي إليوت اتجه إلى الشعر الحر ، ويرى كثير من النقاد أن قصيدته (هل كان حبًّا) هي أول نص في الشكل الجديد للشعر العربي ، وما زال الجدل قائمًا بشأن الريادة بينه وبين نازك الملائكة (١٩٢٢ ـ ٢٠٠٧م) وفي أول الخمسينيات كرس شعره لهذا النمط الجديد من الشعر ، وفي الستينات نشر ديوانه (أنشودة المطر) الذي انتزع به الاعتراف نهائيًا بريادة الشعر الحر الذي صار هو الشكل الأكثر ملاءمة لشعراء الأجيال الصاعدة ، وشَّح قصائده بأساطير بابل واليونان القديمة ، واتخذ رموزًا خاصة بشعره ، مثل : المطر ، تموز ، عشتار ، وعندما وقع بالمرض تغيرت رموزه إلى السراب والمراثي في مجموعته (المعبد الغريق) ثم صار شعره ملتصقًا بسيرته الذاتية ، من مؤلفاته : مختارات من الشعر العالمي الحديث ، مختارات من الأدب البصري الحديث ، مجموعة مقالات (كنت شيوعيًّا) .

(٢) أمل دنقل (١٩٤٠ ـ ١٩٨٣م) : شاعر مصري ، كان والده عالمًا أزهريًّا وشاعرًا ، فورث عنه أمل موهبة الشعر ، وكان يمتلك مكتبة ضخمة تضم ذخائر التراث العربي مما أثر كثيرًا في أمل وساهم بتكوينه الأدبي ، وعندما فقد والده وهو في العاشرة من عمره لازمه الحزن الذي غلف كل أشعاره ، لم يستطع أن يكمل دراسته الجامعية ، فعمل في بعض الوظائف الحكومية ، استوحى قصائده من رموز التراث العربي والميثولوجيا اليونانية ، عاش عصر أحلام العروبة والثورة مما ساهم بتشكيل نفسيته ، وقد صدم مثل كل العرب بهزيمة (١٩٦٧م) وعبر عن صدمته في قصيدته (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة) ومجموعته (تعليق على ما حدث) ووقف ضد معاهدة السلام مع العدو الصهيوني ، وأطلق رائعته (لا تصالح) مما سبب اصطدامه بالسلطات الرسمية ، صدرت له ست مجموعات شعرية ؟

(٣) عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤م) : أديب مصري ، لم ينل من التعليم حظًّا وافرًا ؛ فقد حصل على الشهادة الابتدائية فقط ، لكنه أولع بالقراءة في مختلف المجالات وأنفق معظم نقوده على شراء الكتب ، عمل بالصحافة ، واشترك مع محمد فريد وجدي بإصدار صحيفة (الدستور) ، وأسس مع إبراهيم المازني وعبد الرحمن شكري (مدرسة الديوان) لناصرة التجديد في الشعر والخروج به عن القالب التقليدي العتيق ، أصدر عدة مجموعات شعرية : هدية الكروان ، وأعاصير المغرب ، وحي الأربعين ، وعابر سبيل ، ورواية واحدة هي (سارة) إلا أن أشهر أعماله سلسلة (العبقريات) التي تناولت سير أعلام الإسلام ، ومن مؤلفاته أيضًا : الفلسفة القرآنية ، الله ، الإنسان في القرآن الكريم ، إبليس ، مراجعات في الأدب والفنون ، وقد منحه الرئيس المصري جمال عبد الناصر جائزة الدولة التقديرية في الآداب لكنه رفض استلامها .



(الشاعر بدر شاكر السياب رائد الشعر الحر في الأدب العربي الحديث)

أشهر الشخصيات الأدبية :

وقد شهد تاريخ الأدب العديد من الشخصيات الأدبية التي وجدت لها رواجًا واسعًا بين القراء ، نذكر منها :

الصعاليك (٥٥٠م) :

وهم مجموعات متفرقة من الفرسان ظهروا في عصر الجاهلية قبل ظهور الإسلام ، كانوا يغيرون على القبائل الموسرة ، ثم يوزِّعون الغنائم على القبائل المعدمة ، ومن أشهر الصعاليك العرب عروة بن الورد (ت ٥٩٤م) الذي اشتهر باسم عروة الصعاليك ، وهو فتى ظلمه أبوه ظلمًا شديدًا فثارت نفسه ضد الظلم الاجتماعي ، وألف عصابة من الصعاليك راحت تغير على الأغنياء وتوزع الغنائم على الفقراء والمساكين ، وقد صوَّر حاله وحال أصحابه الصعاليك بقصائد شعرية محملة بروح الفروسية والمغامرة ، مع سهولة باللفظ ، ووضوح بالمعنى ، حتى أصبح أدب الصعاليك ضربًا متفردًا في الأدب العربي القديم ، ومن الصعاليك الشعراء أيضًا (ثابت بن جابر الفهري) الذي اشتهر باسم تأبط شرًا (ت ٥٤٠م) وقد حفل شعره بالمغامرات التي كان يخوضها مع رفاقه الصعاليك ، وكان شديد الفخر بنفسه وبرفاقه ، وكان إذا فقد واحدًا منهم تألم جدًّا وصاغ فيهم شعرًا وجدانيًا عميق الأسى ، وقد تعلم الصعلكة على يدي تأبط شرًا نفر من الشعراء الكبار منهم عمر بن مالك الأزدي (ت ٥٢٥م) الذي اشتهر باسم (الشنفرى) الذي راح يغير على القبائل الموسرة حينًا مع رفيقه تأبط شرًا وأحيانًا بمفرده ، وقد ترك هؤلاء الشعراء الصعاليك أشعارًا جميلة تمجد البطولة والمغامرة ومساعدة المساكين ، وتفاخر بذلك ، وألهمت قصصهم أدباء آخرون ابتدعوا شخصيات أدبية أسطورية تحاكي سيرة الصعاليك ،

من أشهرها حكاية روبن هود التي سنأتي على ذكرها ، وحكايات أخرى تحكي قصصًا عن القراصنة الذين كانوا يغيرون على السفن المبحرة بالبضائع الثمينة !

مجنون ليلى (٦٨٤م) :

وهو من أشهر الشخصيات في أدبنا العربي القديم ، وقد أطلق هذا الوصف على الشاعر العربي الشهير (قيس بن الملوح) الذي عاش في أوائل الخلافة الأموية ، وقد اشتهر بوصف المجنون لشدة هيامه وتعلُّقه بعشيقته (ليلى) بنت مهدي بن عامر بن صعصعة ، التي هام بها عشقًا إلى حد الجنون ، فكان يتغزل بها ولا يذكر غيرها في شعره ، وكان يأتي ديار قومها في الليل ليكون قريبًا من مقامها ، حتى صار عشقه لها حديث الناس ، فمنعه أهلها من زيارتها ، ورفضوا أن يزوجوها له ، فذهب عقله وهام على وجهه في الفلوات ، واستمر على هذه الحال حتى مات ، وهكذا أمست حكايته مضرب المثل ، وأصبحت مادة أدبية للكثير من القصص والروايات والحكايات التي عرفها تاريخ الأدب العربي والأجنبي فيما بعد ، ومن أشهرها حكاية (روميو وجولييت) التي سنوردها بعد قليل .

حي بن يقظان (١١٨٠م) :

شخصية خيالية ابتكرها الفيلسوف العربي (ابن طفيل) [1] الذي عاش في الأندلس أيام الخلافة الأموية فيها ، وتعدُّ روايته عن هذه الشخصية من أروع الروايات الفلسفية في تاريخ الأدب والفلسفة على الإطلاق ، وقد عرض فيها بأسلوب أدبي رفيع موضوعًا فلسفيًّا على درجة كبيرة من الحساسية ، وهو العلاقة بين الوحي والعقل ، أو بين النقل والعقل كما عرف في ذلك الحين ، من خلال قصة متخيلة لإنسان ينشأ في الغابة بعيدًا عن أي اتصال بالبشر ومعارفهم ، وبطل القصة (حي بن يقظان) هو رمز العقل الإنساني المتحرر من كل سلطة وكل معرفة سابقة ، ومع هذا نراه وقد اهتدى إلى الحقائق ذاتها التي أتى بها الدين الإسلامي ، وابن طفيل يرتب من خلال هذه الرواية الفلسفية الفريدة

---

(١) ابن طفيل ، أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن أحمد بن طفيل القيسي (١١١٠ ـ ١١٨٥م) : ولد في قرطبة بالأندلس ، درس الفلسفة والفقه والعلوم العقلية ، ودرس الطب ومارسه في غرناطة ، وعمل قاضيًا ووزيرًا وطبيبًا لسلطان الموحدين أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي القيسي (سلطان الموحدين) . الذي كان يتمتع بمكانة رفيعة ، ترك مؤلفات عديدة في الطب والفلك والفلسفة من أشهرها (حي بن يقظان) .

الناس أربع مراتب ، أعلاها مرتبة الفيلسوف ، ثم مرتبة عالم الدين البصير بالمعاني الروحانية ، أي الصوفي ، يتلوها مرتبة رجل الدين المتعلق بالظاهر ، وهو الفقيه ، وأدناها مرتبة الجمهور من الناس الذين لا يعون إلَّا الظاهر الحرفي ، ولا يدركون من معاني الدين شيئًا .. وقد تأثَّر بقصة حي بن يقظان عدد كبير من الفلاسفة والأدباء والمفكرين ، وكانت هذه القصة أوفر الكتب العربية حظًّا من التقدير والإعجاب والعناية والتأثير في أوروبا في العصر الحديث .

السندباد البحري (١٥٠٠م) :

شخصية من قصص ألف ليلة وليلة ، تحكي حكاية شاب عربي بحار مغامر ، من مدينة البصرة التي تقع على الخليج العربي ، طاف بحار الدنيا ، وخاض مغامرات طريفة خلال رحلاته ، وقد جسدت شخصيته في العديد من الأفلام السينمائية والمسرحيات وأفلام الكرتون المعدة للأطفال ، وتوجد حاليًا جزيرة على شط العرب في البصرة تسمى (جزيرة السندباد) تخليدًا لذكرى هذا المغامر البطل الذي أصبحت سيرته أسطورة ، ويقال إن السندباد كان يخيم في هذه الجزيرة ما بين رحلة وأخرى من رحلاته الطويلة .

شهرزاد (١٥٠٠م) :

وهي من أشهر الشخصيات في الأدب العربي والعالمي ، وهي الشخصية المحورية في قصص (ألف ليلة وليلة) التي سبق الحديث عنها ، وقد بدأت حكايتها مع الملك شهريار الذي اكتشف في أحد الأيام خيانة زوجته له فأمر بقتلها ، وقطع على نفسه عهدًا أن يتزوج كل ليلة فتاة جديدة ويقطع رأسها في صباح اليوم التالي انتقامًا من النساء ، حتى أتى يوم لم يجد فيه الملك من يتزوجها وعلم أنَّ لأحد وزرائه بنتًا نابغةً فاتنة الحسن والجمال اسمها (شهرزاد) فقرر أن يتزوجها وقبلت هي بذلك ، ودبرت مكيدة لتخليص نفسها من القتل فطلبت من أختها (دنيازاد) أن تحضر إلى بيت الملك ليلة العرس وتطلب من شهرزاد أن تقص عليها وعلى الملك قصة أخيرة قبل موتها في صباح اليوم التالي ، وهكذا قصت شهرزاد على الملك قصة مشوقة ولم تكملها متظاهرة بالنعاس ، ووعدت الملك أن تقص عليه بقية القصة في الليلة التالية إن هو أبقاها حية ، وكان الملك قد شغف بالقصة إلى حد كبير فأبقاها ولم يأمر بقتلها ، وهكذا راحت شهرزاد تسرد على الملك القصص المترابطة التي تشبه في أيامنا الحالية المسلسلات التلفزيونية المشوقة ، واستمرت على هذه

الحال ألف ليلة وليلة ، وخلال هذه الليالي وقع الملك بحبها لما رآه من ذكائها فأبقاها زوجة له ، وتاب عن قتل الفتيات ، واحتفلت المدينة كلها بهذا الحدث السعيد .



(لوحة من إحدى المخطوطات القديمة التي تصور شهرزاد وهي تروي للملك شهريار حكاياها المشوقة)

روبن هود (١٥١٠م) :

شخصية أدبية خيالية كتبت حولها روايات عديدة جدًّا ، وهي تحكي حكاية بطل مغامر عاش في القرون الوسطى في غابة شيروود في إنكلترا ، كان ينهب الأثرياء لمساعدة الفقراء ، وقد تناول هذه الشخصية كُتّاب كثيرون ، وكانت مدار الكثير من الروايات والمسرحيات والأفلام السينمائية ، ونلاحظ من خلال استقراء هذه الشخصية أنها مقتبسة من القصص العربية التي تحكي حكاية (الصعاليك) الذين عاشوا في عصر الجاهلية قبل الإسلام كما أشرنا آنفًا .



(نصب تذكاري للصعلوك روبن هود في مدينة نوتنغهام في إنكلترا)

روميو وجوليت (١٥٩٦م):

مسرحية تراجيدية، تعدُّ من عيون الأدب العالمي، وهي من أشهر المسرحيات التي ألفها الأديب الإنكليزي الشهير (وليام شكسبير)[١]، وتعتبر من كلاسيكيات الأدب العالمي، وقد مثلت كثيرًا في مسرحيات وأفلام قديمًا وحديثًا، وترجمت إلى مختلف لغات العالم، حتى أصبح أي شخص عاطفي كثير العلاقات العاطفية يشار إليه باسم روميو وكذلك حال جوليت، كما أن مشاهد روميو وجوليت ألهمت الكثير من الرسّامين رسم مشاهد المسرحية، ونتج عن ذلك تراث من اللوحات العالمية الشهيرة، وقد اعتمد فيها شكسبير على مصادر إيطالية من القرن السادس عشر، وعلى قصيدة روميو وجوليت التي ألفها آرثر بروك عام (١٥٦٢م)، وتحكي المسرحية حكاية شاب وقع في هوى صبية فاتنة، إلا أن العداء العائلي المستحكم بين أسرتيهما فرق بينهما، وقد أبرز شكسبير في هذه المسرحية تحكُّم القَدَر بمصائر البشر حين صور في مطلع المسرحية الحبيبين وقد عبثت بهما النجوم، التي هي رمز للأقدار.





(الشاعر الإنكليزي وليام شكسبير، وإلى جانبه تصوير للمشهد الأخير من مسرحية روميو وجوليت)

وقد كان شكسبير فنانًا وأديبًا فريدًا بحق، فقد كانت مسرحياته مفعمة بالمعاني الإنسانية النبيلة، وكانت شخصياته تمثل أناسًا حقيقيين يواجهون مشاكل الحياة الحقيقية، ويعبّرون عن مشاعر يمكن للناس أن يشعروا بها في أي مكان، وفي أي زمان، ولنفس الأسباب، وقد ألهمت هذه المسرحية العديد من الأدباء والفنانين والموسيقيين فنجدوها في صور شتى بأعمالهم الإبداعية، ونلاحظ في حكاية روميو وجوليت ظلال الحكايات

---

[١] وليام شكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٦م): شاعر مسرحي إنجليزي، يعد أعظم أدباء إنجلترا، وتعد مسرحياته وقصائده في طليعة الأدب العالمي الكلاسيكي، وهي تدرس في كليات الأدب في مختلف جامعات العالم، واقتبست أعماله في الكثير من الأفلام والمسرحيات في أرجاء العالم.

العربية القديمة ؛ مثل : حكاية (قيس وليلى) وما شاكلها من حكايات الشعراء العذريين ، ولا يستبعد أن يكون شكسبير قد اطلع على تلك الحكايات واستلهم منها مسرحيته الرائعة هذه .

روبنسون كروزو (١٧١٩م) :

شخصية خيالية شهيرة جدًّا ، ابتدعها الأديب الإنكليزي دانيل ديفو (١٦٦٠ ـ ١٧٣٠م) في روايته التي تحمل نفس الاسم ، وتحكي قصة شخص عاش في جزيرةٍ نائيةٍ بعد أن غرقت سفينته ، وما عاناه من متاعب خلال تلك الفترة ، وكيفية تصرُّفه تجاه تلك التحديات التي قابلها في وحدته ، ويرجح مؤرخو الأدب أن المؤلف استقى معلوماته عن هذه الشخصية من كتاب (رحلة جديدة حول العالم) التي صدرت عام (١٦٩٧م) للرحالة وليم دامبير ، ومن مغامرات بحار إسكتلندي يدعى (إلكسندر سلكيرك) ، وقد كانت هذه الشخصية موضع اهتمام كبير من الأدباء والفنانين الذين استلهموها في العديد جدًّا من الأعمال الأدبية والفنية اللاحقة .

هاري بوتر (١٩٩٧م) :

وهو الشخصية الرئيسية في سلسلة الروايات التي تحمل نفس الاسم ، من تأليف الكاتبة البريطانية (ج. ك. رولنج) وقد صدر الجزء الأول منها في لندن عام (١٩٩٧م) بعنوان (هاري بوتر وحجر الفيلسوف) ، وفي عام (٢٠٠٧م) صدر الجزء السابع والأخير ، وتحكي هذه السلسلة من الروايات حكاية الصبي الساحر هاري بوتر ، منذ اكتشافه لقدراته السحرية ، وحتى بلوغه سن السابعة عشرة ، فتكتشف ماضيه ، وعلاقاته السحرية ، وسعيه للقضاء على سيد الظلام لورد فولدمورت .



(أحد أجزاء سلسلة هاري بوتر التي حققت أعلى مبيعات في تاريخ الأدب على الإطلاق)

ونظرًا لشهرة هذه السلسلة وانتشارها الواسع ، فقد جرت العادة على إخراج فيلم سينمائي في أعقاب صدور كل جزء من أجزاء الرواية يحمل اسم الجزء نفسه ، وقد حققت سلسلة روايات هاري بوتر ، والأفلام التي أخرجت عنها نجاحًا هائلًا منقطع النظير في تاريخ الأدب وتاريخ السينما ، وترجمت الرواية إلى مختلف لغات العالم الحية ، وغير الحية (اللاتينية القديمة ، اليونانية القديمة) ، وبيع من الأجزاء السبعة منذ صدورها وحتى عام (٢٠٠٧م) أكثر من (٣٦٥ مليون نسخة) في مختلف أنحاء العالم ، لتحتل هذه الرواية صدارة الكتب الأكثر مبيعًا في تاريخ الأدب على الإطلاق .

ومن الجدير بالذكر أن كاتبة هذه السلسلة عرضت الجزء الأول منها على ثمانية ناشرين ، لكنهم جميعًا رفضوا نشرها لعدم اقتناعهم بموهبة كاتبتها وعدم شهرتها الأدبية ، أمّا الناشر التاسع فقد وافق على نشر الرواية على مضض ، مقابل دفع مبلغ زهيد جدًّا للكاتبة هو (٣٥٠٠ دولار) فقط ، ولكن النتائج جاءت مفاجئةً للناشر والكاتبة معًا وغير متوقعة على الإطلاق ، فقد قوبل الجزء الأول من السلسلة بإقبال كبير من القراء ، ولا سيما منهم الشباب من الجنسين ، ممّا شجع الكاتبة والناشر على تكرار التجربة ، فصدر الجزء الثاني من السلسلة ، ثم الثالث ، وهكذا إلى سبعة أجزاء ، بمعدل جزءٍ في كل عام ، ونظرًا لهذا الإقبال الشديد على السلسلة فقد وجد المخرجون السينمائيون ضالتهم فيها فأخرجوها في سلسلة أفلام وجدت كذلك إقبالًا منقطع النظير .

وفي هذا درسٌ بليغٌ للكتّاب والناشرين يدعوهم للتروي كثيرًا قبل أن يرفضوا نشر كتاب لكاتب مبتدئ أو مغمورٍ أو مجهولٍ ، فقد حققت هذه الكاتبة المغمورة من ريع روايتها في أقل من عشر سنوات (مليار دولار) ، وأصبحت بين عشية وضحاها في قمة الكتاب والأغنياء في العالم .

* * *

الفصل السابع عشر

تاريخ الفن

- الفن هو كل ما يهزنا ، وليس بالضرورة كل ما نفهمه !

الأديبة العربية أحلام مستغانمي

- ليست هناك عبقرية عظيمة دون لمسة جنون !

عالم النفس سنيكا

إن مفهوم الفن مفهوم ملتبس إلى حد بعيد ، فكثيرًا ما يطلق الناس على بعض الأنشطة البشرية وصف الفن بالرغم من أن هذه الأنشطة لا تتصل بمفهوم الفن من قريب ولا بعيد ، فهم يقولون مثلًا : فن القتال ، أو فن الطبخ ، أو نحوه من الممارسات التي يطلقون عليها وصف الفن وما هي في الحقيقة من الفن في شيء ، فالفن بمعناه الأصيل هو ذلك التعبير الجمالي الراقي عن الأحاسيس والعواطف والميول البشرية ، ونعتقد أن الفنون الجميلة (*Fine Arts*) هي وحدها التي تستحق وصف الفن ، وهي تشمل العديد من ضروب الفن ؛ مثل : الرسم والنحت والتصوير والموسيقى والتمثيل ونحوه .

ولكن .. قبل أن نسرح في بساتين الفن الممتعة التي يمتزج فيها الجمال بالإبداع والواقع بالخيال ، لا بد من الإشارة إلى مسألة شديدة العلاقة بالفن ، وكثيرًا ما اختلف النقاد حولها ، وهي ارتباط الإبداع الفني بالاضطرابات النفسية التي نادرًا ما يخلو منها فنان مبدع ، والتي ليس من النادر أن تصل إلى حد الجنون عند بعض الفنانين ، وقد سجل تاريخ الفن العديد من الوقائع لكبار الفنانين الذين انتهوا في آخر مشوارهم الفني إلى المصحات العقلية ، وأحيانًا غير قليلة إلى .. الانتحار .

والحقيقة التي يلمسها كل من له صلة وثيقة بتاريخ الفن والفنانين أنك لا تجد مبدعًا مشهورًا منهم إلَّا وتجد في بعض تصرفاته - إن لم يكن في مختلف تصرفاته - ما يثير استغرابك وحيرتك واستهجانك ، وربَّما تعود هذه النزعة عند الفنانين إلى أن الفنان المبدع ميال بطبعه لممارسة حياته خارج حدود المألوف ، يعشق الصعاب وغرائب الأمور ، ويمارس حرية الرأي بجرأة متطرفة تحطم كل الحدود ، وكثيرًا ما يصل به التطرف إلى حد التهور ويضعه في مواقف صعبة للغاية ، فلا غرابة بعد هذا أن يلقى معظم المبدعين في

حياتهم العنت والأذى والسجن والنفي والتشريد ، بل كثيرًا ما تنتهي الأمور ببعضهم إلى الإحباط واليأس ، وأخيرًا .. الانتحار .

ويقرر (دين كيث سايمنتن) أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا في كتابه (العبقرية والإبداع والقيادة) [١] ، أن هذه النظرة السوداوية لتاريخ المبدعين والعباقرة لها تاريخ أسود طويل ، فمنذ الإغريق القدماء اعتقد الفيلسوف أرسطو أن المزاج السوداوي (*Melancholic Mode*) شرط لا بد منه للموهبة الخارقة والإبداع المتفرد ، ويؤكد الدكتور (ماجد موريس إبراهيم) على هذه السمة الغالبة عند معظم الفنانين والمبدعين في كتابه (سيكولوجية القهر والإبداع) [٢] ، ويذكر أن نسبة كبيرة منهم مدمنون على المشروبات الكحولية ، وأنهم أكثر عرضة من بقية البشر للإصابة بالاكتئاب النفسي الحاد ، ونوبات الذهان (*Psychosis*) ، والقلق ، والميل للانتحار ، وفي دراسة تاريخية واسعة شملت عددًا كبيرًا من القادة والمبدعين ممن حظوا بالإعجاب والتقدير خلال القرن العشرين تبين أن جميع الذين شملتهم الدراسة كانوا يعانون من الهوس (*Mania*) أي تقلّب المزاج والاندفاع الشديد الذي لا يقبل الضبط ، وأن ٩٪ منهم كانوا يعانون من أمراض عقلية خطيرة ، و ٢٪ منهم انتهت حياتهم بالانتحار ، و ٣٪ حاولوا الانتحار لكنهم فشلوا بالمحاولة .

وفي سياق تشريحه لهذه الظاهرة يذكر الدكتور عبد الستار إبراهيم أستاذ العلوم النفسية واستشاري الصحة النفسية والعلاج النفسي في كتابه (الحكمة الضائعة) [٣]، ستة أساليب من أساليب التفكير التي تساهم بهذه الاضطرابات لدى المبدعين ، هي : التأويل الشخصي للأمور ، التهويل والمبالغة ، التعميم ، الكل أو لا شيء ، عزل الأشياء عن سياقها ، الاستنتاجات السلبية .

ومن أشهر الشخصيات المبدعة التي كانت تعاني من أمراض نفسية حادة : (الكسندر جراهام بيل) مخترع الهاتف ، (نيل بوهر) العالم الدانماركي الحائز على جائزة نوبل في

---

(١) دين كيث سايمنتن : العبقرية والإبداع والقيادة ، ترجمة د.شاكر عبد الحميد ، عالم المعرفة ، العدد (١٧٦) ، الكويت (١٩٩٣م) .

(٢) د.ماجد موريس إبراهيم : سيكولوجية القهر والإبداع ، دار الفارابي ، بيروت (١٩٩٩م) .

(٣) د.عبد الستار إبراهيم : الحكمة الضائعة ، عالم المعرفة ، العدد (٢٨٠) ، الكويت (٢٠٠٢م) .

الفيزياء صاحب نظرية تعرف باسمه في مجال تركيب الذرة ، (جوهانز ماندل) عالم النبات واضع أسس علم الوراثة ، (ألفارو سيزا) مؤسِّس أحد أقوى تيارات الفن التشكيلي المعاصر ، (جوستاف كوربيه) الفرنسي مؤسس المدرسة الواقعية في فن الرسم ، (فنسنت فان كوخ) الرسام الهولندي الذي بيعت بعض لوحاته بمئات الملايين من الدولارات ، (فاسيلي) من رواد الفن التجريدي ، (بابلو بيكاسو) أشهر الرسَّامين السرياليين ، (أدولف هتلر) الزعيم النازي الألماني الذي أشعل نيران حرب عالمية ثانية لم تُبْقِ ولم تَذَر ، (مصطفى كمال أتاتورك) زعيم تركيا الذي ألغى الخلافة الإسلامية ، (نيتشة) الفيلسوف الألماني مؤسس فلسفة القوة ، (أوجست كانط) الفيلسوف الفرنسي الذي كان أكثر الفلاسفة اهتمامًا بالتفكير العقلاني ، (واطسون) عالم النفس مؤسِّس المدرسة السلوكية ، (كارل ماركس) مؤسِّس الفكر الشيوعي ، (دبستوفسكي) الروائي الروسي الشهير ، (أرنست همنغواي) الروائي الأمريكي الحائز على جائزة نوبل في الأدب ، (فرانز كافكا) الروائي التشيكي الكبير ، (جان بول سارتر) الفيلسوف الفرنسي مؤسس الفكر الوجودي ، (أوسكار وايلد) الروائي الأمريكي ، والقائمة طويلة جدًّا لا يمكن حصرها في هذه العجالة .





(من اليمين : الرسام الهولندي فنسنت فان كوخ ، والأديب الأمريكي أرنست همنغواي الحائز على جائزة نوبل في الأدب ، اثنان من المبدعين الكبار أصيبا باضطرابات نفسية حادة انتهت بهما إلى الانتحار)

إلَّا أننا بالرغم من هذه النظرة السوداويَّة للفن والفنانين والمبدعين الكبار لا بد أن نلاحظ ملاحظة على درجة كبيرة من الأهمية ، ففي حين نجد العقل والجنون في تنافر تام وعدم انسجام عند غالبية البشر نجد العقل والجنون يتعايشان بانسجام مذهل عند الفنانين والمبدعين الكبار ، ومن رحم هذا الانسجام العجيب خرجت الأعمال والإنجازات العظيمة ،

وربّما لهذا السبب كانت العرب تقول في أمثالها القديمة عن المبدعين والعباقرة من شعرائها (كأنهم جنُّ عبقر) وعبقر قرية كانوا يعتقدون أنها مسكونة بالجن ، فكلُّ من أحدث شيئًا فائقًا غريبًا مما يصعب عمله كانوا ينسبونه إليها فيقولون عنه : عبقري .

الفن التشكيلي :

لقد كان للرسم حظٌّ وافر في مختلف الحضارات البشرية ، ولعل المصريين القدماء أول الأمم التي اهتمت بالرسم وبرعت به إلى حد بعيد ، ولا سيما منه الرسم على الأحجار ، فقد كانوا يزينون بيوتهم ومقابرهم بالرسوم التي تعبر عن الأنشطة اليومية التي يمارسونها وعن الأحداث الدينية التي يحتفلون بها ، وكانت رسومهم تعتمد بصورة خاصة على صور الحيوانات ولا سيما منها الطيور ، كما عرف الإغريق والرومان فن الرسم والنحت وبرعوا فيها كثيرًا ، وبرع المسلمون في عصورهم الزاهرة ولا سيما العصرين الأموي والعباسي برسم المخطوطات ، وتميَّزت رسوم القرون الوسطى في أوروبا بالمواضيع الدينية بصورة واضحة .

وتعود بدايات الرسم البدائي إلى بدايات التاريخ البشري في هذه الأرض ، أي إلى حوالي مائة ألف سنة مضت ، فقد وجدت قطعة من ضلع ثور في منطقة (دوردوين) في فرنسا عليها عدة خطوط محفورة على جهة واحدة يعتقد بأنها كانت خطوطًا مقصودة لهدف فني ، وربما كانت من أبكر المحاولات البشرية البدائية للتعبير الفني عن بعض المعاني أو الأحاسيس البشرية .

أمّا النحت فلم يعرفه البشر إلّا منذ حوالي (٢٨,٠٠٠ ق.م) وربّما كان أقدم أثر يدل على ممارسة الإنسان للنحت هو تمثال لحصان طوله (٦,٣ سم) منحوت من عاج الماموث يعود لهذا التاريخ ، عثر عليه في كهف فوجلهارد في جنوب غرب ألمانيا .

وفي حوالي (٢٥,٠٠٠ ق.م) ظهرت أمثلة عديدة على ممارسة الإنسان للرسم في منطقة فيراسي قرب بريغور في فرنسا ضمن طبقات عميقة من الأرض ، كما عثر على لوحات حجرية محفور عليها رسوم حيوانات ورموز تشير إلى الأنوثة ، ووجدت رسوم لغزالين على عظمة كتف مسطحة تعود إلى حوالي (٢٠,٠٠٠ ق.م) عثر عليها في كهف شافو قرب سافينياي في فرنسا ، ووجدت أقدم لوحات جدارية من صنع الإنسان على جدران كهوف شطل هويوك في الأناضول الجنوبي بتركيا يعود تاريخها إلى حوالي (٦٢٠٠ ق.م) وهي لوحات تضم صور فهود ناتئة مصنوعة من الدلغان .

وفي الفترة ما بين (٤٠٠٠ ـ ٣٢٠٠ ق.م) ظهرت بوادر الفن المصري القديم في نماذج متميزة من القرابين الجنائزية والأواني الفخارية الملونة ، والتماثيل الصغيرة ، واللوحات العاجية المنقوشة ، وما بين (٣٢٠٠ ـ ٢٧٨٠ ق.م) أصبحت الأواني والأوعية الحجرية في مصر القديمة تمتاز بدقة صنعها وروعتها وجمالها الآسر ، وفي الفترة ما بين (٢٦٨٠ ـ ٢٢٥٨ ق.م) ظهرت لأول مرة في الرسوم الفرعونية القديمة الصور الجانبية للإنسان ، وكانت العين والأذرع ترسم متجهة نحو الأمام ، أمّا الأرجل والأقدام فكانت ترسم بوضع جانبي ، وكانت درجة بروز النحت قليلة ، وأهم نماذج هذه الفترة تمثال خفرع الكبير ، والأمير رع ، والأميرة نيفرت في مصر .

وفي الفترة ما بين (٢١٣٤ ـ ١٣٧٢ ق.م) أصبحت الأعمال الفنية المصرية تنجز بخبرة واضحة مع الحفاظ على الأساليب القديمة في التعبير ، ومن أمثلة هذه المرحلة الرسوم المنقوشة على المقابر الصخرية ، وبعض التماثيل ، وقد وصل الفن المصري القديم في هذه المرحلة إلى ذروة مجده ، واتسمت رسومه بالجرأة والفخامة والحيوية والإبداع ، وظهر أسلوب رقيق حر يتجه نحو الطبيعة ويتسم بالحيوية والحركة ، وظهر أسلوب مبتكر من النحت يشبه رسوم الكاريكاتور المعروفة اليوم ؛ منها تمثال أخناتون مثلًا ، ومن أهم ما خلفته هذه الفترة من تاريخ الفن المصري التمثال النصفي للملكة الشهيرة نفرتيتي ، وفي نفس الفترة تقريبًا بدأ الفنانون المصريون يهتمون بتصوير المعارك ومناظر القتال الحربي وما فيها من جنود وأسلحة ومشاهد دامية ، وبعد تلك المرحلة الذهبية بدأ الفن المصري يتراجع وينزع إلى التقليد والمحاكاة .



(نماذج من الفن المصري القديم الذي اتسم بالفخامة والإتقان والتماثيل الضخمة التي تندر مثيلها في الحضارات الأخرى)

أمَّا الفن الإغريقي فقد اهتم في الفترة ما بين (٦٢٥ ـ ٤٨٠ ق.م) بفن النحت بصورة خاصة ، ومن أبرز أعمال هذه الفترة تلك التماثيل العارية التي ما زالت باقية حتى اليوم وتشهد على عظمة الفن الإغريقي ، وقد صوَّر نحاتو تلك الفترة موضوعات دينية ، وأسطورية (ميثولوجيا) ، ومواضيع واقعية عديدة جدًّا غطت مختلف أوجه النشاط البشري في تلك الآونة .

وفي الفترة ما بين (٤٨٠ ـ ٤٥٠ ق.م) ظهرت بوادر العصر الكلاسيكي الأول ، الذي حاول فيه الفنانون التشكيليون تحقيق التوازن ما بين الطبيعة والتجريد ، وقد بلغ هذا الاتجاه أوج ازدهاره حوالي عام (٤٠٠ ق.م) ؛ إذ صوَّر مثالية الإنسان في الشكل والخصائص ، ومنذ ذلك الحين بدأ الرسامون والنحاتون يركزون اهتمامهم على التعبير عن المشاعر الإنسانية في رسومهم ومنحوتاتهم ، وإبرازها من خلال قسمات الوجه وحركات الأيدي والتكوين العام للوحة أو تمثال .

ثم جاء عصر الفن البيزنطي (٣٣٠ ـ ١٤٥٣م) الذي سيطر بقوة على أساليب الفن الأخرى ، وعني بالزخرفة على حساب الشكل ، ووصلت أعمال الفسيفساء في القرن السادس إلى درجة رفيعة جدًّا ، وفي الفترة ما بين (٥٠٠ ـ ١٢٠٠م) ترعرع وانتشر الفن الرومانسي ، وتطور فن النحت وأصبح زخرفًا للعمارة ، وازدهرت أعمال سباكة البرونز والقصدير والفسيفساء وأشغال الفضة والإبرة ، وبرع الفنانون الرومانسيون في تذهيب المخطوطات بصورة خاصة .

وفي منتصف القرن الثالث عشر بدأ عصر الرسم الحديث الذي دشنه الرسام الإيطالي جيوتو (١٢٦٦ ـ ١٣٣٧م) وهو أول من اهتم بتصوير الطبيعة ، وأول من صور الإنسان في حال الحركة وبدت شخوصه أقرب إلى الواقعية حتى إنها لتكاد تنطق .

وفي منتصف القرن الرابع عشر بدأ الرسامون يهتمون بمزج الألوان ، ولعلَّ أول من أتقن فن الرسم بالألوان الزيتية هو الرسام (هوبرت فان إيك) وأخوه (جان فان إيك) اللذين حصلا على مزيج سريع الجفاف وضَّاء اللون ، وكان الرسامون قبلهما يمزجون الألوان بالماء أو بمحّ البيض .

وفي الفترة نفسها تقريبًا أدخل الرسام باولو أوتشيللو (١٣٩٧ ـ ١٤٧٥م) قواعد المنظور إلى الرسم ، وهو أول من صور المعارك الحربية تصويرًا دقيقًا جدًّا يبعث على الدهشة لكثرة التفاصيل التي حفل بها ، من رسم الفرسان والخيول وبقية تفاصيل المعارك

التقليدية التي لم يغفل منها شيئًا على الإطلاق حتى بدا وكأنه يصور لوحاته تصويرًا فوتوغرافيًّا .



(لوحة معركة سان رومانو ، للرسام أوتشيللو ، لاحظ التفاصيل الدقيقة التي تحفل بها هذه اللوحة)

وقد تميَّز في هذه الفترة لفيف من الرسامين الكبار نذكر منهم الرسام مساتشيو (١٤٠٢ ـ ١٤٢٨م) الذي مثل الفريق الجسدي في الرسم ، والرسام بوتيشلي (١٤٤٤ ـ ١٥١٠م) الذي برع بتصوير المشاعر الإنسانية وتميز بدقة تصويره للجسد البشري ، والرسام الإيطالي الشهير ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ ـ ١٥١٩م) الذي كان رسامًا ونحاتًا ومهندسًا معماريًّا وموسيقيًّا ، وقد بلغ دافنشي القمة في إتقانه للرسم حتى أصبح في طليعة فناني عصر النهضة ، ولعل من أهم أعماله الفنية لوحة العشاء الأخير التي جسَّد فيها المائدة التي نزلت على نبي الله عيسى ﷺ ، ولوحة الموناليزا أو الجوكندا التي تعد من أشهر كنوز الفن التشكيلي على مرِّ التاريخ .





(نصب تذكاري للفنان ليوناردو دافنشي ، ولوحة الجوكندا التي تعد من أشهر أعماله)

كما برع من رسامي عصر النهضة الأوروبية مايكل أنجلو (١٤٧٥ ـ ١٥٦٤م) الذي كان أيضًا رسامًا ونحاتًا ، ويجمع نقاد الفن التشكيلي على اعتباره أهم فنان ظهر في تاريخ هذا الفن ، وقد حفلت حياته بتراث فني ضخم جدًّا في الرسم والنحت ، ومن أشهر لوحاته لوحة (يوم الحساب) التي رسمها في الفترة ما بين (١٥٣٤ ـ ١٥٤١م) في سقف كنيسة سيستين في الفاتيكان ، وأبرز فيها تاريخ الكون كما جاء في التوراة ، وله أيضًا تمثال (النبي موسى ﷺ) الذي بلغ من إتقانه له أنه عندما فرغ من نحته ضربه بالإزميل على ساقه وصرخ فيه : تكلم ! ولا يكاد يعرف في تاريخ الفن مثل هذا الفنان المبدع في حرصه على كمال أعماله وإعطائها كل ما تستحقه من عناية واهتمام لتخرج في أحسن صورة ممكنة .




(الفنان مايكل أنجلو ، أبرز فناني الرسم والنحت في عصر النهضة ، وإلى جانبه جزء من رسومه في سقف كنيسة سيستين في الفاتيكان)

وقد عرف تاريخ الرسم مدارس فنية عديدة ، منها المدرسة الرومانسية ومن أشهر روادها الرسام الفرنسي يوجين ديلاكروا (١٧٩٨ ـ ١٨٦٣م) الذي كان يرى أن على الفنان تصوير الواقع من خلال رؤيته الذاتية ؛ ولهذا امتازت أعماله بمسحة شفافة من التعبير الجمالي الذي يرتقي إلى آفاق سامية من الإحساس المرهف .




(الرسام الفرنسي يوجين دولاكروا ، ولوحته الشهيرة : يتيمة في المقابر ، لاحظ دقة الرسم وعمق التعبير عن المشاعر في الوجه)

كما برزت في الفن المدرسة الواقعية التي مثلها أفضل تمثيل الفنان جوستاف كوربيه (١٨١٩ ـ ١٨٧٧م) الذي رفض النزعة الرومانسية ، ودعا إلى تصوير الأشياء الواقعية القائمة خارج الإنسان بموضوعية تامة ، مع استخدام أسلوب واضح دقيق الصياغة ، واختيار المواضيع من واقع الحياة اليومية في سبيل النفاذ إلى أعماق الحياة الإنسانية ، ومعالجة مشكلات البشر وإيجاد الحلول الواقعية لها ، ويجعل من عمله الفني على الإجمال وسيلة اتصال بالجماهير ، ويعتبر الفنان كوربيه من أهم أعلام المدرسة الواقعية فقد صور العديد من اللوحات التي تعكس الواقع الاجتماعي في عصره ؛ لاعتقاده بأن الواقعية هي الطريق الوحيد لخلاص أمته .



(لوحة للفنان جوستاف كوربيه ، ويظهر فيها الفنان نفسه يمين اللوحة ، وصديقه وتابعه يسارها ، وتظهر فيها قدرته الفائقة ومهارته الدقيقة في رسم الخطوط والألوان والضوء والظل ونسب الأشكال والحركة والفراغ)

كما برز من فناني المدرسة الواقعية عدد من الفنانين الذين أسسوا مدرسة واقعية عرفت باسم مدرسة نهر هيدسن للتصوير (١٨٢٥ ـ ١٨٧٥م) ؛ لولع فنانيها برسم مشاهد الجبال الأخاذة في وادي نهر هدسن في الولايات المتحدة ، وقد تخصصت في رسم المناظر الخلوية ، وتأثرت بالحركة الرومانسية في أوروبا ، وكان من أعلامها : (توماس دوتي) ، (توماس كول) .



(لوحة للفنان توماس كول ، لاحظ جمال الطبيعة الأخاذ الذي أبدع الرسام بتجسيده في هذه اللوحة)

وبرز في إطار المدرسة الواقعية مدرسة باربيزون التي راجت في الفترة ما بين (١٨٣٠ ـ ١٨٧٠م) فقد اهتمت بتصوير المناظر الطبيعية ، وباربيزون قرية مجاورة لغابة فونتنبلو الساحرة التي كانت مكانًا مفضلًا لمجموعة من الرسّامين الذين ثاروا على التقاليد القديمة ، وراحوا يرسمون عن الطبيعة مباشرة ، فمهدوا بذلك الطريق للواقعين والتأثيريين ، وقد أطلق على هذه المجموعة من الرسامين اسم (رجال الثلاثين) وكان من أبرزهم : تيودور روسو ، كورو ، ميليه .

وفي حوالي عام (١٨٧٠م) ظهرت النزعة التأثرية في الفن التشكيلي التي تميزت بها المدرسة الفرنسية بصورة خاصة ، وهي نزعة حاولت تسجيل الانطباعات المرئية المتغيرة ونقلها عن الطبيعة مباشرة ، وقد برع الفنانون التأثريون بتصوير ضوء الشمس ، وابتدعوا التصوير في الهواء الطلق ، وأشاعت هذه النزعة موجة من التحرر في الفن من أبرز رواد هذه النزعة : بول غوغان ، فان غوخ ، مونيه ، سيزلي ، بيسارو ، رينوار .

وحوالي عام (١٨٩٠م) تطورت هذه النزعة الفنية وعرفت باسم ما بعد التأثرية ، وقد نزعت إلى المزيد من التعبير الذاتي ، من روادها سيزان ، فان كوخ ، غوغان .



(لوحة عباد الشمس ، للفنان فان كوخ ، وهي من أشهر وأغلى لوحاته على الإطلاق)

وفي أوائل القرن العشرين ظهرت نزعات فنية عديدة جدًا ، وكأنها كانت صدًى للإيقاع السريع الذي بدأت ملامحه تظهر من بداية هذا القرن الجديد الذي بدأت الأحداث فيه بتسارع مخيف ولعل أول تلك النزعات النزعة المستقبلية التي ظهرت أولًا في إيطاليا ثم انتقلت إلى فرنسا ومنها إلى بقية العالم الغربي ، وهي نزعة لم تقتصر على الرسم فحسب ، بل امتدت إلى بقية ضروب الفن والأدب والموسيقى ، واستهدفت مقاومة الأشياء المتعلقة بالتاريخ وكل ما هو قديم ؛ لذلك سميت بالمستقبلية ، وذهبت إلى تصوير الإيقاع السريع الذي اتسمت به الحياة في القرن العشرين ، ومال أصحاب هذه النزعة إلى تمجيد الخطر والحرب وعصر الآلة ، وأيدوا نظريًا قيام الفاشية العنصرية في إيطاليا خاصة ، وتعدُّ المدرسة المستقبلية ذات أهميةٍ بالغةٍ ، فقد تمكَّنت من إيجاد شكل متناسب مع طبيعة العصر الذي ظهرت فيه ، مع تركيزها على معاناة الإنسان في العصر الحديث ، وقد عبر الفنان المستقبلي عن الصور المتغيرة بتجزئة الأشكال إلى آلاف النقاط والخطوط والألوان ، وكان يهدف إلى نقل الحركة السريعة والوثبات والخطوات وصراع القوى ، حتى قال أحد الفنانين المستقبليين : إن الحصان الذي يركض لا يملك أربعة حوافر وحسب ، بل إن له عشرين حافرًا . وعلى ذلك كانوا يرسمون الناس والخيل بأطراف متعددة وبترتيب إشعاعي فتبدو اللوحة كأمواج ملونة متعاقبة ، ومثالًا على هذا لوحة (المرونة) للفنان المستقبلي بوكشيوني التي رسمها في عام (١٦١٢م) ، وهي توحي بإنسان متدثر بثياب

فضفاضة ذات ألوان زاهية ، يحركها الهواء ، فتنساب تفاصيلها في إيقاعات حركية متواصلة .



(لوحة المرونة للفنان المستقبلي بوشكيوني)

وفي الآونة نفسها تقريبًا ظهرت نزعة فنية جديدة عرفت بـ (الوحشية) أرادت تجاوز التأثيرية ونبذ الأساليب التقليدية القديمة ، واتسمت بالتعبير الفني الأكثر إشراقًا وبساطةً ، مع التركيز على الألوان النقية ، والسطوح الواسعة الممتدة ، وعناية أقل بالمنظور ، ولعلَّ أبرز الرسَّامين الذين عبروا عن المدرسة الوحشية الرسام الفرنسي الشهير هنري ماتيس (١٨٦٩ ـ ١٩٥٤م) .



(لوحة للفنان هنري ماتيس)

وفي مطلع القرن العشرين ، وبالتحديد في الفترة ما بين (١٩١٦ ـ ١٩٢١م) ظهرت النزعة الدادائية (DADAI) ، وهي نزعة فنية أدبية نادت بالتحلل من كل الأعراف والتقاليد المتعارف عليها في الفن والأدب ، وهاجمت مختلف المقاييس والمبادئ التقليدية

لمعايير الجمال في الفن والطبيعة والسلوك ، وقد قاد الشاعر الروماني تريستان تزارا (١٨٩٦ - ١٩٦٣م) هذه الحركة في سويسرا ، وذلك احتجاجًا على كوارث الحرب العالمية الأولى .



(جماعة من الفنانين الدادائين ويبدو بينهم مؤسسة الحركة تريستان تزارا ، وقد كتب على جبينه اسم الحركة DADA)

وقد تميزت الحركة الدادائية عن غيرها من الحركات الفنية والأدبية التي سبقتها بمحاولة التخلص من قيود المنطق المعتادة والعلاقات السببية في التفكير والتعبير ، وأخذت على عاتقها التخلص من كل ما يعوق الحرية ويكبح جموح التلقائية في التعبير والإبداع الفنيين ، فلم يعد المهم عند الدادائيين استخدام الريشة والخطوط والأصباغ في الرسم ، بل أصبح بإمكان الرسام أن يخربش كما يروق له في حرية تامة ، أو يلصق في اللوحة صحيفة أو أعقاب سجائر أو أحذية قديمة أو خوذات عسكرية مهشمة أو علب مواد غذائية فارغة ، أي أصبحت اللوحة مجالًا للتعبير بمختلف الوسائل المتاحة ، ما أعطى الفنان مساحة واسعة من الحرية في التعبير عما يجول بخاطره من أفكار مهما كانت متطرفة أو غريبة أو شاذة .

وقد شجعت الحركة الدادائية - بما تتصف به من حرية مطلقة في التعبير - على ظهور حركات فنية أخرى متطرفة ، كان من أبرزها النزعة السريالية أو ما فوق الواقعية التي ظهرت حوالي عام (١٩٢٠م) ، وهي حركة أدبية فنية أيضًا ، تأثرت بمذهب فرويد في علم النفس ، ولا سيما تفسيره الخاص للأحلام ، وقد حرصت هذه النزعة الفنية على التعبير عن المخيلة كما تظهر في الأحلام التي يراها النائم ، وازدهرت الحركة السريالية في الفن بين عامي (١٩٢٠ - ١٩٣٠م) ومال إليها كثير من الفنانين الذين عبروا عنها بأساليب متباينة ، وكان من أبرزهم سلفادور دالي (١٩٠٩ - ١٩٨٩م) وبابلو بيكاسو (١٨٨١ - ١٩٧٣م) وماكس أرنست ، ومارك شاجال ، وجوان ميرو ، ومارسيل ديشان .





(من اليمين : بابلو بيكاسو ، وسلفادور دالي ، أبرز فناني الموجة السريالية في الرسم الحديث)

ومع انتشار هذه النزعات الفنية الجديدة في القرن العشرين أخذت اللوحات تباع بأسعار فلكية وصلت في بعض اللوحات إلى مئات الملايين من الدولارات ، كما ازداد الاهتمام بإنشاء المتاحف الفنية التي راحت تنتشر في شتى أنحاء العالم ، وتعددت مدارس الفن ومعارضه الثابتة والدورية ، الفردية والجماعية .



(لوحة جرنيكا ، أشهر أعمال بيكاسو السريالية ، رسمها عام (١٩٣٧م) ؛ لتصوير أهوال الحرب الأهلية الإسبانية التي وقعت بين (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م)

وقد حازت الفنون بعامة والفنون التشكيلية بصورة خاصة على اهتمام الجماهير عبر التاريخ وأولاها الملوك والأمراء والزعماء عناية خاصة فحرصوا على تزيين قصورهم بها ، وأقاموا لها المتاحف الكبيرة ، ولعلَّ (متحف اللوفر) في فرنسا الذي تأسس عام (١٢٠٤م) من أشهر وأقدم متاحف الفنون التشكيلية في العالم ، وقد بناه الملك فيليب الثاني في باريس ليكون له قصرًا وحصنًا ، وأعيد تعميره عام (١٥٤١م) ، ثم حوله نابليون إلى متحف وطني ، وهو يضم أكبر مجموعة في العالم من الصور واللوحات التي يُعَدُّ كثير منها كنوزًا لا تقدر بثمن ، ولعلَّ من أشهرها لوحة الجوكندا أو الموناليزا للفنان الإيطالي الشهير

(ليوناردو دافنشي) ، وكذلك تمثال فينوس الذي يمثل آلهة الجمال عند الإغريق ، إلى جانب الكثير من الآثار الفرعونية والإغريقية والرومانية والعالمية الأخرى .

فن التصوير :

ربّما كانت البداية الفعلية لفن التصوير على أيدي العرب الذين قدموا حوالي عام ١٠٠٠ آلة التصوير ذات الثقب ، وهي صندوق أسود صغير ، في أحد جوانبه ثقب دقيق يسمح بدخول الضوء الصادر من الجسم المرئي ، فتتكون له صورة مقلوبة على الوجه المقابل للثقب داخل الصندوق ، وفي عام (١٥٥٨م) وضع المصمم الإيطالي ج.دلابورتا عدسة في ثقب الصندوق ، فازدادت قوة الصورة ووضوحها .

أمّا الأفلام التي تستخدم في التصوير الفوتوغرافي فقد بدأت حوالي عام (١٧٢٧م) حين لاحظ بعض الكيميائيين أن الضوء يسبب عتامة في أملاح الفضة ، وقد استغرق الأمر حوالي قرن كامل من الزمن قبل أن يتمكن الفرنسي ج.نيكي في عام (١٨٢٢م) من إنتاج أول صورة ثابتة باستخدام لوح مطلي بمادة كلور الفضة الحساسة للضوء ، وفي عام (١٨٣٣م) اخترع الفرنسي (ل.داجوير) أول طريقة عملية للتصوير ، فكان يأخذ الصور على ألواح من النحاس مطلية بمادة (يود الفضة) ولم يكن ممكنًا طباعة أكثر من صورة واحدة لكل لقطة ، كما لم يكن ممكنًا تصوير الأجسام المتحركة .

وفي عام (١٨٣٥م) اخترع البريطاني (و.فوكس تالبوت) طريقة التصوير (السالبة - الموجبة) ، فتمكّن من الحصول على أي عدد من الصور للقطة الواحدة ، وذلك بنقل الصورة السالبة على ورق خاص يحوّل الصور السالبة إلى صور موجبة ، وفي عام (١٨٥١م) اخترع البريطاني (ف.أرتشر) طريقة التصوير باستخدام (الكولوديون) وهي مادة سائلة دبقة تخلف غشاءً شفافًا ضد الماء ، مما قصّر المدة اللازمة لالتقاط الصورة إلى جزء من الثانية فقط ، وبهذا أصبح ممكنًا تصوير الأجسام المتحركة .

وفي عام (١٨٧١م) اخترع البريطاني (ر.مادوكس) طريقة للتصوير السريع باستخدام لوحة جافة ، فاستخدم الجيلاتين للربط بين المواد الكيماوية اللازمة لمعالجة الصور ، وبهذا مهّد الطريقة للتصوير الحديث ، وفي عام (١٨٨٤م) طور الأمريكي ج.إيستمان الفيلم الملفوف الذي صنعه من الورق المغطى بطلاء حساس للضوء .. أمّا الصور السينمائية المتحركة فقد بدأ تاريخها عام (١٨٨٥م) حين ظهرت أول صور

متحركة على يد لويس أوغسطان (١٨٤٢ ـ ١٨٩٠م) الذي استطاع إظهار أشكال الأشخاص على جدار أبيض بصورة باهتة ، وذلك في مؤسسة للصم في نيويورك ، وفي يوم (١٤/ ٤/ ١٨٩٤م) جرى أول عرض تجاري للصور المتحركة في إحدى القاعات في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة .

وفي عام (١٨٩٥م) اخترع الفرنسيان (الأخوان لوميير) آلة السينماتوغراف ، وهي أول آلة ميكانيكية لعرض الصور المتحركة على ستارة ، وكان الفيلم الذي عرضاه صامتًا ، وفي نفس العام افتتحت أول دار عرض للسينما في مدينة أطلانطا في ولاية جورجيا بالولايات المتحدة ، وقد شهد عام (١٩٠٣م) تطويرًا باهرًا في فن التصوير باختراع الفيلم الملون الذي أنتجه الفرنسيان الأخوان لوميير وكان مغطى بطبقات من حبيات حمراء وخضراء وزرقاء تعمل عمل المصفيات للضوء الساقط ، فتسمح لبعض الألوان بالمرور وتمنع بعضها الآخر ، مما يجعل الأجسام تظهر بألوانها الطبيعية .

وفي عام (١٩٠٦م) تمكن الفرنسي (أوجين لوست) من مواكبة الصوت مع الصورة ، وفي عام (١٩٢٦م) بدأ استخدام المؤثرات الصوتية والموسيقى في السينما بنجاح ، وفي عام (١٩٣٢م) بدأ عرض الأفلام السينمائية الملونة ، وفي عام (١٩٥٢م) عرضت الأفلام المجسمة ذات الأبعاد الثلاثة التي تعتمد على نظرية الستيريوسكوب ، وينظر إليها بواسطة نظارة خاصّة .



(الأخوان لويس وأوغسط لوميير)

وهكذا أصبحت السينما في مقدمة الفنون الجميلة ، ومن أكثرها إقبالًا ومشاهدة من قبل النظارة ، وأصبح للسينما مدنًا سينمائية مجهزة بأحدث أجهزة التصوير ، ومن أشهر

هذه المدن السينمائية (مدينة هوليود) في لوس أنجلوس ، وقد تأسست عام (١٨٨٠م) ، وسريعًا ما أصبح فيها أكبر وأشهر استديوهات السينما في العالم ، وأول شركة سينمائية أسست فيها هي شركة نستور عام (١٩١٧م) ، ثم تبعتها شركات أخرى كثيرة ، وتمتاز هوليود بمبانيها الباذخة التي يقطنها كبار الأثرياء ونجوم السينما المرموقين ، وقد قدمت للفن السابع روائع الأفلام السينمائية ، وأشهر النجوم الذين عرفهم تاريخ السينما .

ولشدة اهتمام الناس بالسينما بدأت تعقد لها المهرجانات العالمية ، وتقدّم فيها الجوائز العالمية التي من أشهرها (جائزة الأوسكار) [1] ، التي قدّمت لأول مرة في الولايات المتحدة عام (١٩٢٩م) وأصبحت تقدم سنويًا من قبل أكاديمية الصور المتحركة والفن والعلوم في الولايات المتحدة لأفضل الأفلام ، وأفضل ممثل وممثلة ، وأفضل مخرج ، وأفضل موسيقى تصويرية للأفلام .



(مدينة هوليود السينمائية في الولايات المتحدة)

---

(١) جائزة الأوسكار : أشهر الجوائز السينمائية في العالم ، تقدم من قبل أكاديمية الفنون والعلوم السينمائية ، تأسست في ١١ مايو ١٩٢٧م في كاليفورنيا ، وتضم أكثر من ٦٠٠٠ شخص مختص بالفنون السينمائية ، منهم لجنة تصويت ضخمة تتكون من ٥٨١٦ ممثل وممثلة ومختصين بالسينما ، وتقيم الأكاديمية مسابقات سنوية لطلاب الفنون السينمائية غير المتخرجين ، وجائزة الأوسكار تمثال طوله ٣٤ سم ، ووزنه ٣.٨٥ كلغ ، مصنوع من مادة البريتانيوم ومطلي بالذهب ، وهو على شكل فارس يحمل سيفًا ويقف على شريط فيلمي ، وينظم مهرجان توزيع الأوسكار سنويًا في شهر مارس ، ويحظى بتغطية إعلامية عالية ومشاركة كثير من الشركات الكبرى التي تستغل المناسبة لترويج منتجاتها من الملابس والزينة ، وكثيرًا ما يستغل المهرجان للتعبير عن آراء سياسية مثيرة للجدل من قبل بعض الحائزين على الأوسكار .

أمّا في البلدان العربية فقد أسست المصرية مفيدة محمد التي اشتهرت باسم عزيزة أمير (١٩٠١ ـ ١٩٥٢م) أول شركة سينمائية في عام (١٩٢٦م) أطلقت عليها اسم (إيزيس فيلم) وأخرجت شريطها السينمائي الأول في عام (١٩٢٧م) بعنوان (ليلى) وكان من بطولة عزيزة نفسها، وفي العام التالي افتتحت عزيزة شركة مصر للتمثيل والسينما، وبذلك دشنت عصر السينما العربية، وقد قدمت عزيزة خلال مشوارها الفني عدة أفلام منها (بياعة التفاح، ١٩٣٩م) و(وادي النجوم، ١٩٤٣م) و(شمعة تحترق، ١٩٤٥م)، وغيرها من الأفلام التي لاقت نجاحًا في حينها، ولما كانت عزيزة ميالة للأدب فقد كتبت سيناريوهات مجموعة من الأفلام، وأخرجت فيلمين هما: (بنت النيل، ١٩٢٩م) و(كفّري عن خطيئتك، ١٩٣٣م) وشاركت فيهما بالتمثيل والتأليف أيضًا.

وبعد ذلك برز من السينمائيين العرب كثيرون في التأليف السينمائي والإخراج والتمثيل والموسيقى التصويرية وبقية الفنون السينمائية، وكانت الأفلام العربية الأولى تميل إلى المشاهد الاستعراضية الغنائية التي استهوت كبار المطربين، وكان لها جمهور واسع من المشاهدين، على الرغم من أنها كانت باللونين الأبيض والأسود، وكان معظمها يفتقر إلى الحبكة الدراميّة المحكمة، والأداء التمثيلي المتقن.



(عزيزة أمير، رائدة السينما المصرية)

ومع انتشار أجهزة (التلفزيون) في النصف الأول من القرن العشرين، بدأ جمهور السينما يتقلص شيئًا فشيئًا، ثم كان لظهور وانتشار القنوات الفضائية المباشرة في الربع الأخير من القرن العشرين تأثير كبير على رواد السينما الذين أصبحوا يفضلون المشاهدة في منازلهم عن الذهاب إلى السينما، ولكن مع هذا لم تفقد السينما بريقها الأخّاذ، وظلّت

نخبة واسعة من الجمهور ترتاد دور السينما ، وتفضل عروضها على عروض التلفزيون ، لما تمتاز به العروض السينمائية من شاشات كبيرة تتيح للمتفرج رؤية أفضل ، ولا سيما مع المؤثرات الصوتية المتطورة ؛ ولأن المتفرج في دار السينما يكون أكثر تفرغًا للمشاهدة مما هي الحال عند مشاهدة التلفزيون .

فن المسرح :

المسرحية قصة تكتب بأسلوب حواري ، وتقدم حيَّة على خشبة المسرح من قِبَلِ مجموعة من الممثلين ، وتتضمن الكتابة للمسرحية عادة توجيهات (سيناريو) تبين صفات شخصيات المسرحية وبعض تصرفاتهم وتحركهم على الخشبة ، ومن أكثر الأشكال المسرحية شيوعًا : المأساة والملهاة ، والمأساة أو التراجيديا (*Tragedy*) مسرحية جادة تنتهي عادة بكارثة مؤثرة ، وقد أرسى أرسطو المبادئ الأساسية للمأساة في كتابه الشهير (فن الشعر) الذي كتب فيه يقول : (إن الهدف من المأساة هو إثارة الشعور بالشفقة أو الجزع إزاء أبطال المسرحية لدى جمهور المشاهدين) ؛ ولهذا نجد أن أبطال المسرحيات التراجيدية التي كتبها الإغريق هم أشخاص عظماء يتعرضون لمعاناة قاسية بسبب غلطة أو خطأ في الحكم على الأمور مما يولد أحداثًا مثيرة تشد اهتمام الجمهور ، وقد اتَّسع معنى المأساة فيما بعد ليشمل قصة أي شخص يُبتلى بمحنة سواءً كان عظيمًا أو كان من عامة الناس أو من الطبقة المسحوقة في المجتمع .

أمَّا الملهاة أو الكوميديا (*Comedy*) ، فهي مسرحية خفيفة مسلِّية ذات نهاية سعيدة غالبًا وتصرفات الشخصيات فيها تستهدف تسلية المشاهد أكثر من إثارة انزعاجه ، ويغلب على الملهاة الأسلوب الساخر الذي ينتقد الجوانب السلبية في حياة الناس .

أمَّا بدايات المسرح فتعود إلى حوالي (٢٠٠٠ ق.م) حين ظهرت أول مدونة لمسرحية دينية في مصر القديمة ، وكان موضوعها موت الإله أوزوريس ثم بعثه ، أمَّا أول ممثل معروف تاريخيًّا فهو اليوناني (تسبس) الذي يعتقد أنه أول من انفصل عن جوقة المحتفلين في احتفالات اليونانيين ليلقي بعض الأناشيد منفردًا بطريقة مسرحية متميزة ، وكان ذلك حوالي عام (٥٣٤ ق.م) .

وكان المسرح في الماضي يقام في الهواء الطلق ، وحوالي عام (٥٠٠ ق.م) أقيمت المدرجات المسرحية الأولى في اليونان ، ويعد مدرج (ميغالوبوليس) المقام في وسط اليونان

من أكبر هذه المدرجات في العالم ، أما أقدم مسرح مبني داخل بناء فهو (تياترو أوليكو) الذي أقيم في فيشنزا بإيطاليا عام (١٥٨٣م) وهو ما زال بشكله الأصلي حتى اليوم .

ويعتبر الشاعر اليوناني إسخيلوس (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق.م) من أشهر المؤلفين المسرحيين ، ولعله من أوائلهم أيضًا ، وقد اتصفت مسرحياته بقوة الخيال ، وعمق المشاعر والعواطف الإنسانية ، ويعده المؤرخون أبا المسرح اليوناني المأساوي بلا منازعٍ ، (والتراجيديا) هي الأحداث التي تثير عند المشاهد الإحساس بالألم أو الشفقة والحزن ، وغالبًا ما يكون بطلها شخصية ذات مكانة عالية ، وغالبًا ما تنتهي للمسرحيات التراجيدية بالموت ؛ لكي تترك عند المشاهد أعمق المشاعر وأقساها ، وقد كانت المسرحيات قبل إسخيلوس مجرد حوار يدور بين الجوقة وممثل واحد ، فأضاف إسخيلوس ممثلًا ثانيًا ، وزاد في الحركة والتمثيل ، واعتنى بملابس الممثلين ، وتزيين المناظر المرافقة للعرض المسرحي ، ويعتقد أنه كتب أكثر من تسعين مسرحية ، لم يصلنا منها سوى سبع مسرحيات ، من أشهرها ثلاثيته (الأوديسا) التي تتألف من ثلاث مسرحيات (أجاممنون ، وحاملات القرابين ، وربات العقاب والانتقام) ، وقد نال الجائزة الأولى عند عرض هذه الثلاثية ، وفي عصره بلغ المسرح اليوناني أوج ازدهاره ، وكان يستمد مادته غالبًا من الأساطير والشعائر الدينية القديمة ، ثم أخذ ينحو منحًى أدبيًا خالصًا ، وغالبًا ما كانت المسرحيات تؤدى من قبل جوقة من المنشدين (كورس) .

أمَّا الشاعر اليوناني سوفوكليس (٤٩٦ ـ ٤٠٦ ق.م) فقد برع في فن المسرح منذ وقت مبكر من حياته ، وقاد الجوقة التي كانت تغني نشيد النصر وهو في السادسة عشرة من عمره ، وفي الثلاثين من عمره نال الجائزة الأولى في المسرح ، وظلَّ يفوز بهذه الجائزة عشرين مرة حتى موته ، وقد أدخل تجديدات عديدة على الفن المسرحي فجعل الممثلين ثلاثة ، واهتم بالديكور ، وزاد الجوقة ، واهتمَّ بأسلوب التمثيل اهتمامًا خاصًّا ، وكان يفضل المسرحية الواحدة على الثلاثيات ، ووصلنا من مسرحياته سبع ، هي : أوديب ملكًا ، أوديب في كولونا ، أنتيجونا ، ألكترا ، فيلوكتيس ، وقد امتازت كلها بروعة الحوار ، والحبكة الفنية المحكمة ، وروعة المقطوعات الغنائية التي تتخللها ، وقد ذهب سوفوكليس في مسرحياته إلى أن البشر مخيرين في حياتهم ، وليسوا مسيرين كما صورهم إسخولوس ، وحاول أن يصور البشر في مسرحياته كما يجب أن يكونوا لَا كَمَا هُمْ عليه ، وما زالت

مسرحياته تعد من عيون الأدب العالمي ، وما زالت تقدم على مسارح العالم حتى اليوم ، بل إن بعضها تعد مرجعًا مهمًّا في الطب النفسي ؛ لما فيها من تصوير عميق لبعض العقد النفسية ؛ مثل : عقدة أوديب وعقدة إلكترا .

ونظَّم الشاعر اليوناني يوريبيدس (٤٨٠ ـ ٤١٠م) أكثر من تسعين مسرحية شعرية وصلنا منها ١٩ مسرحية ، أهمها : (ألكستس ، إلكترا ، ميديا ، الطرواديات ..) وقد نال الجائزة الأولى أربع مرات ، واتسمت مسرحياته بالعمق والتحليل الدقيق للمشاعر الإنسانية ، وكان يلخص في مقدمة مسرحياته موضوع المأساة ، لم يحرز شهرة واسعة في حياته ، أمَّا بعد وفاته فقد طبقت شهرته الآفاق ، وأصبح أوسع شهرة من رواد المسرح اليوناني إسخيلوس وسوفوكليس ؛ لأنه كان شاعرًا فيلسوفًا وكان أكثر اهتمامًا من سابقيه بالحياة الإنسانية الواقعية .



(سوفوكليس)

وأمَّا الشاعر اليوناني أريستوفان (٤٤٨ ـ ٣٨٨ ق.م) فقد كان أديبًا محافظًا ، لم يؤمن بتعاليم سقراط وحرية الفكر ، ولم يرض عن تعاليم السفسطائيين ، وأعلن الحرب على يوريبيدس ، وحمَّل هؤلاء جميعًا مسؤولية إفساد الشباب الأثيني ، وقد تميزت مسرحياته بالنقد اللاذع للساسة والأدباء المعاصرين ، وذلك بلغة جميلة تتخللها مقطوعات غنائية عذبة ، كما تميزت شخصياته بالحيوية التي استوحاها من الواقع فجاءت صورة معبرة عن مشكلات المجتمع في ذلك العصر ، وصلنا ١١ مسرحية من مسرحياته ، منها (الأكارنيون) التي سخر فيها من الحروب ومن الحكم الديماغوجي ، ومسرحية (الحب) التي انتقد فيها

السفسطائيين وزعيمهم الفيلسوف سقراط ، ومسرحية (النساء في عيد ديميتر) التي جعل فيها النساء يقررن التخلص من خصمه الشاعر يوربيدس .

ولم يكن المسرح اليوناني القديم هو المسرح الوحيد في تلك الحقبة الزمنية ، فقد ظهر في الشرق المسرح الهندي في الفترة ما بين (٣٠٠ ـ ٨٠٠م) لكنه لم يكن مسرحًا شعبيًّا كالمسرح اليوناني ، بل كان يقتصر على الطبقات العليا من المجتمع ، وكانت العروض المسرحية تقدم في بلاط للملوك ، وتتميز بالنزعة الكلاسيكية ؛ لأن تقاليد الهندوس لم تكن تسمح بتمثيل العنف ولا الصراع الحاد ولا العواطف الجياشة ، ومن أشهر المسرحيات الهندوسية : سكنتالا ، وعربة الصلصال الصغيرة .



(أريستوفان)

وفي الشرق ظهر أيضًا المسرح الصيني حوالي عام (٧٠٠م) في عصر الإمبراطور منج هوانج ، وهو مسرح شعبي على العكس من المسرح الهندي ، إلَّا أن القصص التي عالجها حينذاك كانت مكررة وعديمة الأهمية ، وكانت تعتمد على الموسيقى والملابس المزركشة وحركات الممثلين وإيماءاتهم التقليدية .

وفي أوروبا عاد الاهتمام بالمسرح حوالي منتصف القرن العاشر ، وبدأ ذلك بمسرحيات كوميدية كتبتها راهبة بندكتية اسمها (دوزفيتا) التي حذت حذو المسرحيات الرومانية القديمة ، ولكنها جعلتها تقوم على الأفكار الدينية المسيحية ، وفي القرن الثالث عشر انتشرت في أوروبا المسرحيات التي تهتم بالمعجزات والخوارق العجيبة ، ثم تغير الاتجاه المسرحي تدريجيًّا وبدأ يبتعد عن حديث المعجزات ، وينحو منحى غير ديني ، ولا جدال

بأن الأديب الإنكليزي الشهير (وليام شكسبير) [1] ، يعد من أعظم كتّاب المسرح وأكثرهم شهرة في العالم عبر التاريخ ، وقد تميّزت مسرحياته بما فيها من مواعظ وحكم بليغة ومواقف إنسانية نبيلة ، وقد خاطب في مسرحياته عامة الناس من خلال المآسي التاريخية التي اهتم بها اهتمامًا خاصًا ، وكان يهوى المشاهد الهزلية ذات الطابع المكشوف التي كان يضمنها مسرحياته التراجيدية الجادة لتخفف من حدة وقعها ، وقد استلهم من التاريخ مسرحيات عديدة أهمها (الملك لير ، ماكبث ، ريتشارد الثالث ، أنطونيو وكليوباترا ، وروميو وجوليت ، وهاملت ..) ، وقد أضاف إليها تحليله العميق للمشاعر البشرية ، بأسلوبه الشاعري المرهف الفياض بتصوير المواقف العاطفية الخالدة ، وهذا ما جعل المسرح الإنكليزي في مقدمة المسارح العالمية بفضل شكسبير الذي كان له تأثير كبير في المسرحيين الذين جاؤوا من بعده ، وقد ترجمت مسرحياته إلى مختلف اللغات ، ومثلت على مختلف المسارح العالمية ، وعرضت في دور السينما ، وما زالت تعرض حتى اليوم .

ومن المسرحيين الأوروبيين برز الأديب الفرنسي جان بابتيست بوكلهه موليير (١٦٢٢ ـ ١٦٧٣م) الذي كان ممثلًا ومؤلفًا مسرحيًا ، وهو يعد أحد رواد الملهاة المسرحية في العالم ، وقد امتازت مسرحياته بالبراعة في تصوير الشخصيات ، والطرافة في خلق المواقف الساخرة ، والمقدرة النادرة على إضحاك النظارة ، مما جعل موليير يحتل أعظم منزلة في تاريخ الملهاة الغربية ، من أشهر مسرحياته : مدرسة الزوجات (١٦٥٩م) ، طبيب رغم أنفه (١٦٦٦م) ، طرطوف (١٦٦٨م)، المتحذلقات (١٦٧٢م) ، مريض الوهم (١٦٧٣م) .



(الأديب الفرنسي موليير)

---

(١) سبقت ترجمته .

* ومن التطورات المهمة التي دخلت على الفن المسرحي فن الأوبرا الذي ظهر لأول مرة في إيطاليا حوالي عام (١٦٥٠م) ، والأوبرا مسرحيات غنائية ، تعتمد بصورة خاصة على الموسيقى والغناء والرقص والمشاهد الخلابة والمواقف التراجيدية الحافلة بالحركة .

ومن طريف ما يذكر في تاريخ الفن المسرحي أن النساء لم يكنَّ يظهرن في المسرحيات ، بل كان الرجال هم الذين يؤدون دور النساء ، وقد استمرت الحال على هذه الشاكلة إلى حوالي عام (١٦٥٦م) حين ظهرت النساء لأول مرة في المسرحيات الإنكليزية ، وكان ذلك في الأوبرا الغنائية (حصار رودوس) ، وبهذا تكامل الفن المسرحي وأصبحت المسرحيات أقرب إلى الواقعية .

أمَّا المسرح العربي فقد بدأت محاولاته الأولى في سوريا حوالي عام (١٨٤٧م) عندما شكل المسرحي السوري مارون نقاش (١٨١٧ ـ ١٨٥٥م) وأخوه نقولا فرقة تمثيلية ، أمَّا المحاولة الثانية فقام بها شقيقهما الثالث سليم النقاش في بيروت ، إلَّا أنهم جميعًا واجهوا الكثير من الصعاب ، مما اضطرهم للرحيل إلى مصر التي كان التمثيل فيها محصورًا على الفرق الأجنبية التي كان الخديوي إسماعيل يستقدمها من الخارج ، وبنى من أجلها مسرح (الكوميدي) في الأزبكية عام (١٨٦٨م) لتقدم الفرق الأجنبية عليه عروضها ، وفي عام (١٨٦٩م) بنى دار الأوبرا في القاهرة .

وأول مسرحية عربية قدمت على المسرح هي مسرحية (البخيل) التي قدمها مارون نقاش لأول مرة في بيروت عام (١٨٤٨م) ، وقد اقتبسها عن الشاعر الفرنسي (موليير) ، وأدخل عليها بعض الأغاني والفكاهة التي تلائم الذوق العربي ، وأبدل الأسماء الأجنبية بأسماء عربية ، وكان كل الممثلين من أقاربه ، وأدَّى فيها الرجال أدوار النساء ؛ لأن الوضع الاجتماعي حينذاك لم يكن يسمح بتاتًا بمشاركة النساء ، ثم قدم أعمالًا أخرى كانت كلها مستوحاة من موليير أو من (ألف ليلة وليلة) التي سنأتي على ذكرها لاحقًا .

ومن المسرحيين الذين طوروا المسرح العربي ونقله نقلة نوعيَّة المسرحي السوري أبو خليل القباني (١٨٣٦ ـ ١٩٠٢م) الذي أثرى المسرح العربي بروايات عربية أصيلة بعد أن كان يعتمد على الروايات المترجمة عن اللغات الأجنبية ، ويعد (أبو خليل القباني) أول من أدخل إلى المسرح رقص السماح على ضروب الموشحات الأندلسية ، إلَّا أنه وُجه في دمشق بمعارضة شديدة من المحافظين ورجال الدين ، فاضطر لمغادرة دمشق إلى

القاهرة في عام (١٨٨٣م) حيث أقام سبعة عشر عامًا ترك خلالها ثروة فنية كبيرة ، وأول مسرحية غنائية له في مصر كانت على مسرح الأوبرا عام (١٨٨٤م) وهي رواية الحاكم بأمر الله .



(أبو خليل القباني .. رائد المسرح العربي الحديث)

ومن المسرحيين العرب الرواد كذلك يعقوب روفائيل صنوع (١٨٣٩ ـ ١٩١٢م) الذي عمل على تطوير المسرح العربي وأدخل عليه الكثير من التعديلات الفنية لكي يواكب المسرح الأوروبي ، وقد تلقى صنوع تعليمه في مصر ، ثم في إيطاليا ، وأتقن عدة لغات أوروبية وشرقية ساعدته في الاطلاع على الأعمال المسرحية العالمية ، وألهمته تأليف (٣٦ تمثيلية) للمسرح ، وكان هو أول من كتب المسرحيات باللهجة العامية المصرية ، واقتبس بعض مسرحياته من المسرحيين الإيطاليين ومن الفرنسي موليير ، وصوّر بأعماله المسرحية حال الفقراء في مصر ، وحمل على الخديوي حملة صحفية وفنية واسعة ، فأغلق مسرحه في عام (١٨٧٢م) ، لكنه لم يتوقف عن حملاته ضد السلطة الحاكمة فنفي إلى الخارج ، واختار باريس حيث واصل إصدار جريدته الخاصة التي لقيت رواجًا في مصر والبلاد العربية .

أما أول محاولة جدية لإقامة مسرح عربي على أسس فنية صحيحة ، فقد حصلت عام (١٨٩١م) عندما شكل المسرحي السوري إسكندر فرح الذي شارك في أول مسرحية قدمت في حديقة عامة بدمشق بتشجيع الوالي التركي مدحت باشا ، ولكنه تعرض للاضطهاد من العامة فهرب مع أبي خليل القباني إلى القاهرة حيث شكل فرقة تمثيلية خاصة سماها

(الجوقُ المصري العربي) ، وجعل على رأسها الشيخ سلامة حجازي ، وظلت تمثل ١٨ عامًا، وقد حرص على تقديم مسرحية كل شهر تقريبًا ، ممّا ساهم في شهرته الواسعة يومذاك .

وفي عام (١٨٩٤م) أسّس سليم عطا الله في الإسكندرية جمعية الابتهاج العربي لموظفي البريد ، وهي أول جمعية مسرحية تتلقى إعانةً سنويةً من الدولة ، وقد قدمت عدة مسرحيات لاقت نجاحًا كبيرًا ، وكانت السبب في اكتشاف بعض المواهب الكوميدية العربية .

وفي عام (١٩٠٥م) شكَّل الشيخ سلامة حجازي (١٨٥٢ ـ ١٩١٧م) في مصر فرقة قدمت مسرحيات غنائية مفتتحًا بذلك عصر المسرح الغنائي العربي ، وفي عام (١٩١٢م) شكَّل جورج أبيض (١٨٨٠ ـ ١٩٥٠م) فرقة مسرحية اهتمت بصورة خاصة بالمسرحيات التراجيدية مفتتحًا بذلك عصر التراجيديا العربية ، وبعده بثلاثة أعوام أسّس (عزيز عيد) ، و (نجيب الريحاني) أول فرقةٍ مسرحيةٍ كوميديةٍ كانت بطلتها روز اليوسف (١٨٩٧ ـ ١٩٥٨م) وهي أول سيدةٍ عربيةٍ تظهر على المسرح ، وفي العام نفسه قدم عزيز عيد المطربة (منيرة المهدية) التي عرفت بـ (سلطانة الطرب) لتكون أول ممثلة مصرية تظهر على المسرح ، وكانت جميع الممثلات اللاتي ظهرن حتى ذلك التاريخ يأتين من أقطار عربية أخرى ولا سيما من لبنان .

في عام (١٩١٩م) أسّس رجل المال المصري طلعت حرب (شركة ترقية التمثيل العربي) تحت مظلة بنك مصر ؛ لكي تساهم في نهضة المسرح العربي الحديث ، وتكون منبرًا من منابر الوطنية ، وقد أعادت هذه الشركة بناء مسرح الحديقة وكانت (فرقة عكاشة) أول فرقة تعرض عليه أعمالها المسرحية .



(جورج أبيض .. رائد المسرحيات التراجيدية في المسرح العربي)

وفي أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين أسس (معهد التمثيل بالقاهرة) ، وهو أول معهد يؤسس للتمثيل في البلدان العربية ، وقد بدأ التدريس فيه نخبة من الأدباء والمسرحيين ، منهم : طه حسين ، جورج أبيض ، زكي طليمات .

الموسيقى :

الموسيقى صوت وزمن ، أو هي فن إدارة الصوت عبر الزمن ، والصوت يمكن أن يكون صوت إنسان أو صوتًا من أصوات الطبيعة أو صوت آلة ، والموسيقى من أسهل الفنون للتواصل بين البشر ، فهي لغةٌ عالميةٌ نستمتع بها بغض النظر عن لغة عازفها ، ودونها حاجة لتعلم أصولها وقواعدها ؛ ولهذا يمكن لأي لحن شجي أن ينتشر في مختلف الأمم والشعوب والثقافات .

وقد أحدثت الموسيقى في حياتنا ما لم يحدثه فن آخر ، فقد عبرت الموسيقى عن حاجاتنا العاطفية ، ولونت مناسباتنا السعيدة ، وصورت أيامنا الصعبة ، وعزفت أغانينا الوطنية ، وعبرت عن ثقافاتنا المختلفة ، وكانت جزءًا مهمًّا من طقوسنا الدينية ، فالتراتيل الكنسية لا غنى لها عن الموسيقى ، وقراءة القرآن الكريم يكون أندى وأقرب إلى النفس عندما يُرتَّل ترتيلًا جيلًا ، يراعى حركات المد والوقف والإدغام وغيرها من أحكام التجويد التي تكاد تكون قواعد موسيقية خالصة .

وفي عصرنا الراهن أصبحت الموسيقى جزءًا من حياتنا شئنا ذلك أم أبينا ، فهي تقابلنا في كل مكان ، في جرس المنزل ، ورنة الهاتف ، وبوق السيارة ، وأجهزة الكمبيوتر ، والقنوات الفضائية ، وحتى القنوات الفضائية الدينية التي تُحرِّم الاستماع إلى الموسيقى لم تستطع أن تغفل الموسيقى من حسابها ، فعمدت إلى استخدام الأصوات البشرية التي تبث الآهات بدلًا من الآلات الوترية ، أو تبث أصواتًا من الطبيعة ؛ مثل : خرير الماء في السواقي أو أصوات الطيور ونحوها ، ولم يعد يمرُّ علينا يوم من الأيام دون أن نسمع شيئًا من الموسيقى .

وقد تطورت الموسيقى عبر العصور بصورة عفوية في البداية ، وشيئًا فشيئًا بدأ هذا الفن يدخل حيِّز العلم ليصبح فنًّا قائمًا بذاته له قواعده وأصوله الراسخة ، ويرجع المؤرخون للموسيقى أن يكون الإنسان قد بدأ منذ فجره الأول يصغي إلى الأصوات الجميلة التي تصدر في الطبيعة عن الطيور والجداول والنسيم وحفيف الشجر وزخات

المطر وترجيع عيدان القَصَب المُجَوَّفة لأصوات النسيم ، فراح يقلد تلك الأصوات ، وبعد تجارب طويلة اهتدى لصنع آلاته الموسيقية البدائية ، وقد عثر علماء الآثار في منطقة أستالوسكو في هولندا ومنطقة مولدوفا في الاتحاد السوفيتي على ما يعتقدون أنه أقدم الآلات الموسيقية في حفريات تعود إلى العصر الحجري (٢٥,٠٠٠ ـ ٢٢,٠٠٠ ق.م) تضم زمارات ونايات مصنوعة من عظام اليد .

أمّا أقدم النوتات الموسيقية فقد اكتشفت في منطقة نيور سومر في العراق ، وهي تعود إلى العام (١٨٠٠ ق.م) ، وقد أعيد في جامعة بركلي بكاليفورنيا بالولايات المتحدة في عام (١٩٧٤م) ترميم لوحة آشورية عليها إشارات موسيقية لأغنية تتغزل بأحد الآلهة ، إلّا أن تنظيم الألحان في إيقاعات منتظمة ومتآلفة فيعود إلى الإغريق أيام مجدهم ، وأمّا العلامات الموسيقية الدقيقة فقد عرفن لأول مرة حوالي عام (٨٥٠) للميلاد .

وقد كان للعرب في العصرين الأموي والعباسي إسهامات لا تنكر في تطوير فن الموسيقى ، وظهر منهم الكثير من المغنين الكبار الذين طوروا الألحان وهذبوها ، علمًا بأنه في تلك العصور لم يكن هناك مغنيون وملحنون كما هي الحال اليوم ، بل كان المغني نفسه هو الذي يلحن أغانيه ؛ ولهذا حصلت الإضافات الموسيقية الفعلية على أيدي المغنين أنفسهم الذين كانوا يمارسون الغناء والتلحين معًا .

ولعلَّ من أشهر المغنين الذين اشتهروا في تاريخ الموسيقى العربية المغني ابن سريج (٦٧٥ ـ ٧٣٨م) الذي كان حسن الصوت ، ناعم النغم ، صانعًا مبدعًا للألحان ، وكان أحد الأصوات الثلاثة المختارة من قبل هارون الرشيد من بين الأصوات المائة التي ذاع صيتها في زمانه ، وقد تتلمذ على ابن سريج معظم المغنين الذين جاؤوا من بعده ، ومنهم عبد الملك (ت ٧١٧م) الذي لقبوه بالغريض لنضارة وجهه وحسن مظهره ، وكان مغنيًا موهوبًا شجي الصوت ، حتى أصبح ينافس معلمه ابن سريج ، فكان لا يغني ابن سريج صوتًا إلّا عارضه فيه حتى صار الناس لا يفرقون بينهما في الغناء .

واشتهر من المغنين العرب كذلك معبد بن وهب (ت ٧٤٣م) الذي يعد إمام المغنين في الدولة الأموية ، وقد أتقن الغناء بصورة لم يسبقه إليها أحد ، وكانت له ألحان كثيرة وأصوات مشهورة بأسمائها أطلقوا عليها اسم (مدائن معبد) تشبيهًا لها بالمدن العامرة لكثرة ما فيها من الفن والصنعة والإتقان .

وكان الخليفة العباسي أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم (ت ٨٤١م) أديبًا شاعرًا مطبوعًا على الغناء ، ولم يكن أحد في عصره أندى منه صوتًا ولا أحكم صنعة ، وقد وضع أكثر من مائة صوت (أغنية) حتى قال عنه المغني إسحاق الموصلي : ما كان في مجلس الواثق أحد أعلم منه بالغناء .

ثم ظهر المغني الشهير أبو الحسن بن نافع (ت ٨٥٢م) الذي اشتهر باسم زرياب لسواد لونه وفصاحة لسانه تشبيهًا له بطائر مغرد اسمه الزرياب ، وكان قمة في إتقان الموسيقى إلى جانب صوته الشجي ، وهو أوّل من نقل غناء المشارقة إلى المغرب ، وإلى عهده ترجع الألحان المعروفة بالموشحات الأندلسية ، وقد أنشأ لها المدارس والمعاهد في الأندلس لتدريس الموسيقى بأسلوب احترافي ، فكان يبدأ بتعليم تلاميذه الإيقاع ؛ لضبط حركات اللحن ، ثم الغناء على الإيقاع دون ترسُّل ، ثم الغناء بإيقاع وترجيع ، كما أضاف زرياب لآلة العود وترًا خامسًا مما أكسب فضاء التلحين العربي بُعدًا إضافيًّا ، وقدرة على مد النغم على مساحة أكبر لإظهار صوت المغني والأبعاد الجمالية التي يتمتع بها صوته ، وقد بقي أثر زرياب في الغناء العربي إلى يومنا الحاضر فلا تزال الموسيقى العربية أسيرة الغناء ، ولا يزال الجمهور العربي لا يتقبل سماع الموسيقى الخالصة دون غناء .

ثم جاء العالم الرياضي الفيلسوف أبو نصر محمد الفارابي (٨٧٤ - ٩٥٠م) فأضاف وترًا سابعًا للعود استكمل به السلم الموسيقي ، ومكَّن العازفين أن ينتقلوا من التلحين السماعي إلى التأليف الموسيقي ، ووضع الفارابي للموسيقى قانونًا يجمع بين الشعر والموسيقى التي لم تكن تخضع لقانون قبله ، وحدَّد الألحان وغاياتها وجدواها في التأثير على النفس الإنسانية ، ووضع كتابًا في علم الموسيقى سماه (كتاب الموسيقى الكبير) استوفى فيه جميع جوانب صناعة الموسيقى نظريًّا وعمليًّا .

ويُعتقد أن الموسيقى العالمية قد نهلت من علوم هذا الكتاب بعد أن نشطت حركة الترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية في القرون الوسطى ، والكتاب يشتمل على جزأين : الأول في المدخل إلى صناعة الموسيقى والثاني في الصناعة نفسها ، وتطرق الفارابي إلى نشأة الألحان الغنائية في الإنسان ، وأنها غريزة طبيعية في طلب اللذة والتخيل والانفعال ، وانتهى إلى أن هذه هي غايات الألحان .

وقد استغرق الأمر عدة قرون قبل أن يظهر عمالقة الموسيقى الأوروبيون في مطلع القرن الخامس عشر الذين أوصلوا الموسيقى إلى درجة عالية من الإتقان ، وأسسوا المدارس

الموسيقية المتخصصة ، وقد بدأت الموسيقى الأوروبية الجديدة بالمدرسة الرومانية التي ابتدعت الموسيقى الكنسية ذات الأنغام المتعددة ، وانتشرت انتشارًا واسعًا في أوروبا ، واستمرت حتى عصر الباروك أيام الملك لويس الرابع عشر ، كما نشأت في نفس الفترة تقريبًا موسيقى الروكوكو في فرنسا وإيطاليا .

وفي أواخر القرن السادس عشر ظهر فن (الأوبرا) وهي مسرحيات غنائية يؤدي فيها الممثلون أدوارهم غناءً بمصاحبة الآلات الموسيقية ، وقد نشأ فن الأوبرا في إيطاليا ومنها انتقل إلى بقية أوروبا والعالم ، وفي (١٨٦٩م) انتقل فن الأوبرا إلى مصر في عهد الخديوي إسماعيل الذي بنى أول دار أوبرا في البلدان العربية ، وقدمت فيها أول رواية بعنوان (ريجوليتو) للموسيقار الإيطالي الشهير فردي ، وكانت باللغة الإيطالية .

وفي أوائل القرن الثامن عشر ظهر فن الهارموني ، وهو أسلوب في التلحين يقوم على التناغم بين الأصوات الموسيقية المختلفة ، وقد وضع الموسيقي (راميو) النظريات التي تشكل أساس القواعد الهارمونية عالية التعقيد ، وقد انتشر الاهتمام بالهارموني في القرن الثامن عشر والتاسع عشر حتى أصبح الهارموني مفهومًا عامًّا .

وفي منتصف القرن الثامن عشر ظهرت الموسيقى الكلاسيكية التي لاقت رواجًا كبيرًا ، وصار لها جمهور واسع يهوى حضور حفلاتها الراقية التي كانت تجمع صفوة المجتمع المخملي ، وفي الفترة ما بين (١٨٢٠ ـ ١٨٨٥م) انتشرت الموسيقى الرومانسية في أوروبا وأصبح لها مستمعون كثر ، ولاقت رواجًا كبيرًا لا سيما في المناسبات الرسمية والسهرات الناعمة ، وفي أواخر القرن ١٩ ظهرت المدرسة التأثيرية ردًّا على الرومانسية بالرغم من أنها تبدو وكأنها نشأت عنها ، ولم يمض القرن التاسع عشر حتى بدأت الموسيقى الحديثة بالظهور مكتسحة الموسيقى الكلاسيكية والرومانسية ، وقد بشرت هذه الموسيقى الخارجة عن المألوف بظهور موجات عديدة من الموسيقى التي ظهرت وشاعت كثيرًا خلال القرن العشرين .

وقد برز كثير من الموسيقيين المبدعين عبر التاريخ ، إلّا أن الإبداع الموسيقي الأكبر ظهر في أوروبا إبان عصر النهضة ، وتمثل بظهور عدد كبير من الموسيقيين المبدعين ، إلى جانب الصناع المهرة الذين أبدعوا آلات موسيقية جديدة أضيفت إلى التخت الموسيقي ومكّنت الموسيقيين من إبداع المؤلفات الموسيقية العظيمة التي ما زالت تسمع بشغف في مختلف أنحاء العالم .

ولعلَّ من أوائل الموسيقيين الأوروبيين المبدعين الألماني جورج فردرك هيندل (١٦٨٥ - ١٧٥٩م) الذي وضع أولى الأوبرات العظيمة التي نالت شهرة عالمية وما زالت إلى اليوم موضع اهتمام من كبار الموسيقيين ، ومنهم كذلك النمساوي فرانز جوزيف هايدن (١٧٣٢ - ١٨٠٩م) الذي ساهم بتطوير الآلات الموسيقية ، وأبدع أروع السيمفونيات وطورها من الشكل البسيط القصير إلى الشكل المطول الذي ترافقه الأوركسترا حتى أطلق عليه اسم (أبو السيمفونية)

ثم سطع نجم الموسيقي الألماني لودفيج فان بتهوفن (١٧٧٠ - ١٨٣٧م) : الذي يُعَدُّ من أبرز عباقرة الموسيقى في جميع العصور ، وقد كتب أروع السيمفونيات الخالدة في تاريخ الموسيقى الكلاسيكية التي حلّق فيها إلى آفاق بعيدة لم يلحقه إليها أحد من بعده ، كما شكّل بداية المذهب الرومانسي الذي أصبح طابع ذلك العصر



(هايدن)



(بتهوفن)

أمَّا الموسيقي النمساوي فولفجانج أماديوس موتسارت (١٧٥٦ - ١٧٩١م) فقد نبغ في عالم الموسيقى مبكرًا ، وكتب في الثامنة من عمره أوّل سيمفونية ، وألّف أوّل أوبرا ، وهو في الحادية عشرة من عمره ، وأهدى تاريخ الموسيقى أروع القطع الموسيقية ، ولا سيما منها الكونشرتو الذي تفرد في إبداعه ، وقد ترك هذا الموسيقي العبقري ما يزيد عن ألف قطعة موسيقية بالرغم من أنه لم يعش سوى ٣٥ سنة فقط .

ومن الموسيقيين البارزين كذلك النمساوي فرانس بيتر شوبرت (١٧٩٧ - ١٨٢٨م) الذي لقبوه بملك الأغاني ؛ لأنه أبدع أجمل الأغاني التي لاقت رواجًا واسعًا في عصره ، وبدأ سلسلة أعماله الموسيقية الخالدة وهو ما يزال في الثالثة عشرة من عمره ، وكانت سرعة تأليفه للألحان تفوق سرعة تدوينها في النوتة .

ومنهم كذلك الموسيقي البولندي فردريك شوبان (١٨٠٩ ـ ١٨٤٩م) الذي لقِّبوه بشاعر الموسيقى ، وكان من أمهر العازفين على البيانو ، وكانت موسيقاه السبب في تجديد أسلوب العزف على البيانو ، سواءً من حيث الإيقاع أو من حيث الناحية الجمالية التنغيمية ، وقد وضع الكثير من المقطوعات الموسيقية للبيانو ، وتميزت أعماله (مازوركا ، البولنديات ، ليليات) بمسحة رومانسية شفافة مغلفة بشيء من الكآبة المحببة إلى النفس مما ساهم بانتشار ألحانه .

ومنهم أيضًا الموسيقي الألماني روبرت ألكسندر شومان (١٨١٠ ـ ١٨٥٦م) الذي لقَّبوه بأديب الموسيقى ؛ لبراعته في التأليف الموسيقي ، وأصدر مجلة موسيقية كان لها أثر كبير في الارتفاع بالمستوى الثقافي لأهل هذا الفن ، وقد امتازت مؤلفاته الموسيقية بالتعبير العميق عن الحالتين النفسيتين المتناقضتين للموسيقى الرومانسية ، إحداهما عاطفية نابضة بالعواطف الجياشة ، والأخرى هادئة وتأملية .

أمَّا الموسيقي الألماني ريتشارد فاجنر (١٨١٣ ـ ١٨٨٣م) الذي لقَّبوه بملك الأوبرات وفيلسوف الموسيقى ، فهو أول من أدخل الدراما المسرحية في أوبراته ، وأخضع موسيقاها لروح الشعر حتى اعتبرها النقاد تراثًا نادرًا ؛ لما امتازت به من بناء شعري محكم وقوة وسلامة في التصوير ، وقد تجنب في أوبراته التأنق الصوتي ، وأعطى دورًا أكبر للأداء الأوركسترالي ، وجمع ببراعة بين النص الشعري والموسيقى ، ووافق بين أصوات الممثلين والآلات الموسيقية ، وكان يحرص على تكرار الفكرة الرئيسية في الأوبرا عبر المشاهد المختلفة لكي يحافظ على تماسك الموضوع .

أمَّا الموسيقي الإيطالي جوزيبي فيردي (١٨١٣ ـ ١٩٠١م) فهو يُعَدُّ أهم عبقرية موسيقية إيطالية في القرن التاسع عشر ، كان يتمتع بحسٍّ أدبي مرهف أهَّله لكتابة الأعمال المسرحية العظيمة ، وكان يهتم بالشعر اهتمامه بالموسيقى ، وابتدع طريقة خاصة في تلحين الأوبرا نالت إعجاب الجماهير ، وأنتج عدة أوبرات من أشهرها (أوبرا عايدة) التي لحَّنها بأمر من الخديوي إسماعيل في مصر بمناسبة افتتاح قناة السويس ، وقد مثلت لأول مرة في دار الأوبرا بالقاهرة عام (١٨٧١م) .

وأمَّا الموسيقي الإنكليزي جورج فريدريك هاندل (١٦٨٥ ـ ١٧٥٩م) فقد كانت لغته الموسيقية تمثل خلاصة الأساليب الموسيقية في أوروبا ؛ ولهذا لاقت أعماله نجاحًا

واسعًا في أنحاء القارة كلها ، وقد ألَّف العديد من السوناتا والكونشرتو من أشهرها متتابعتي الموسيقى المائية وموسيقى الألعاب النارية ، كما ألَّف مقطوعات عديدة للأوبرا اهتم فيها بدور الفرقة الكورالية .





(من اليمين : شوبان ، فيردي ، هاندل ، أبرز الموسيقيين الأوروبيين الذين أثروا الموسيقى بالكثير من الإضافات المبدعة)

وقد صاحب هذا التطور الموسيقي الكبير في أوروبا تطور آخر في الآلات الموسيقية بفضل التقدم العلمي والتقني الذي حصل هناك ، فابتكر الفنانون والصناع المهرة العديد من الآلات الموسيقية التي أصبحت قادرة على إبداع أعذب الألحان وأكثرها تعقيدًا ، منها آلات صغيرة بحجم الكف وآلات ضخمة أكبر من العازف نفسه ، ومنها آلات وَتَرِيَّة وآلات نفخ ، وآلات خشبية وآلات نحاسية وآلات جلدية ، ومنها آلات تتكرر أشكالها وتختلف أحجامها فتكون معًا عائلات ؛ مثل : عائلة الكمان التي تضم أكثر من عشرة أفراد .

وإن مما يؤسف له أن الموسيقى العربية لم تستطع أن تواكب ذلك التطور الذي حصل في أوروبا ؛ نظرًا لما أصاب الأمة العربية في الفترة نفسها من تخلف وضعف في شتى المجالات ، وبالرغم من هذا فإن تاريخ الموسيقى العربية الحديث لم يعدم بعض الرواد الذين حاولوا جاهدين أن يستفيدوا من التطورات الموسيقية في الغرب وأن يطوروا الموسيقى العربية ، منهم عبده الحامولي (١٨٤٥ ـ ١٩٠١م) الذي كانت فرقته مدرسة عملية للضاربين على الآلات والمرددين المساعدين ، وهو أول من استخدم مقامات جديدة على الموسيقى العربية ؛ مثل : الحجاز كار ، وقد تميز بعنايته الكبيرة بانتقاء كلمات أغانيه لدرجة أنه دفع صفوة من الأدباء والزعماء ورجال الدين أن يكتبوا له كلمات أغانيه ، وهو من أوائل الذين لحّنوا القصيدة التقليدية ، وأول من شارك بالغناء في فرقةٍ مسرحيةٍ مع أبي خليل القباني .

ومنهم سيد درويش (١٨٩٢ ـ ١٩٢٣م) الذي اشتهر بتلحين الروايات المسرحية ، وأدخل في الموسيقى العربية الغناء البوليفوني في أوبريت العشرة الطيبة وأوبريت شهرزاد والبروكة ، ومنهم محمد عبد الوهاب (١٩١٠ ـ ١٩٩٣م) الذي أحدث في زمنه نهضة موسيقية غنائية واسعة وشكّل مدرسة فنية متميزة في التلحين والغناء ، وترك تراثًا موسيقيًّا كبيرًا ، ومنهم فريد الأطرش (١٩١٥ – ١٩٧٤م) الذي ترك بصمات أصيلة على الموسيقى والغناء العربي ، ومنهم الأخوان رحباني اللذان برعا بالتلحين والتوزيع الموسيقي ، وقدّما للموسيقى العربية أعذب المسرحيات الغنائية .





(من اليمين : عبده الحامولي ، سيد درويش ، محمد عبد الوهاب ، أبرز الموسيقيين العرب الذين حاولوا تجديد الموسيقى العربية في العصر الحديث)

إلّا أن الموسيقى العربية بالرغم من كل الجهود التي بذلها هؤلاء الرواد ، وبالرغم من المعاهد الموسيقية العديدة التي انتشرت في أرجاء الوطن العربي ، ظلت إلى اليوم حبيسة الأشكال الموسيقية المحلية الضيقة ، ولم تستطع أن ترتقي إلى أفق العالمية ، ولم تجد لها انتشارًا خارج حدودها العربية .

بل الأدهى من هذا أن الموسيقى العربية بدأت منذ مطلع القرن الحادي والعشرين تتراجع وتنقض ما بناه أولئك الرواد ، فمع الانتشار الواسع للتسجيلات الموسيقية عبر وسائل الاتصال الحديثة راحت الموسيقى العربية تقلد الإيقاعات الغربية ، ومع انتشار القنوات التلفزيونية الفضائية والاهتمام بالصورة والشكل أكثر من الاهتمام بالمضمون تهمش دور الموسيقى والغناء ، وأصبحت المحطات العربية تعتمد على عرض الأجساد النسائية العارية من خلال ما عرف باسم (الفيديو كليب) ، ومع انتشار الموسيقى الصاخبة لم يعد المطربون والملحنون حريصين على اختيار الكلمات العذبة والألحان المناسبة ، وأمسى الغناء العربي مجرد صراخ وضجيج وعويل لا معنى له ولا طعم ولا لون ، ولا ندري إلى

متى يمكن أن تستمر هذه الموجة من الانحطاط للموسيقى التي قد توصل موسيقانا العربية إلى متاهة تمحو من تاريخها كل الإضافات الموسيقية المهمة التي استفاد منها الآخرون .. وأهملناها .



الفصل الثامن عشر

تاريخ الكوارث الكبرى

• لقد استطاع الإنسان أن يحلق إلى الأعالي حتى وصل إلى القمر لكن قدميه ما زالتا غارقتين بالوحل .

لقد شهد الكون منذ ولادته وحتى اليوم عددًا هائلًا من الأحداث والكوارث الجسام التي هزَّت العالم ، وكاد بعضها أن يقضي على كوكب الأرض نفسه ليجعله أثرًا بعد عين ، وكان مصدر بعض هذه الحوادث من الفضاء ، وبعضها نشأ من باطن الأرض ، وبعضها كان من صنع الإنسان نفسه ، أو كان بما كسبت يداه .

وقد حفل القرآن الكريم بالحديث عن الكوارث التي حلَّت ببعض الأقوام في فترات مختلفة من فترات التاريخ ، وذكر القرآن أشكالًا عديدة من تلك الكوارث ، منها الرجم بالحجارة أو النيازك التي تسقط من السماء على أهل الأرض ، ومنها الصيحة أو الرعد الشديد الذي يذهب بالأبصار ويصعق البشر ، ومنها الخسف والزلازل ، ومنها الغرق بالفيضانات أو المدُّ البحري الذي يسمى تسونامي (*Tsunami*) ، ومنها الريح والعواصف والأعاصير التي ما أتت على شيء إلَّا جعلته كالرميم ، وغير ذلك من أشكال الكوارث المهلكة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

وإلى جانب هذه الكوارث الكونية التي هي من تقدير الخالق سبحانه ، فقد سجل التاريخ الكثير من الكوارث والحوادث التي كانت من صنع البشر أنفسهم ، وكان بعضها من الشدة والخطورة ما جعل الجنس البشري كله مهددًا بالانقراض ، وجعل العالم كله يقف على حافة الهاوية ، كما سوف نرى في الوقائع التي نرويها لاحقًا ، وقد بين سبحانه في كتابه الكريم أن الكوارث والمآسي التي تصيب البشر ليست عشوائية كما يزعم أصحاب الفلسفات المادية ، وإنَّما هي مصائب تحل بالبشر بسبب أفعالهم المخالفة لسنن الله في الخلق كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

الكوارث السماوية :

تتعرض الأرض بصورة مستمرة إلى زخات متواصلة من الشهب والنيازك والحطام الفضائي الذي يأتيها من بقية الأجرام والكويكبات التي تجوب السماء ، ولعلَّ من أشد تلك الأخطار ما تتعرض له الأرض بين الحين والآخر من نيازك تسقط هنا أو هناك ، بين الحين والآخر ، فتسبب أضرارًا فادحة ، وتهلك الحرث والنسل ، بل إن التاريخ سجل من تلك الكوارث ، ضربات قاتلة كادت في بعض الحالات أن تفتت كوكب الأرض وتجعله هباءً منثورًا كما حصل لكثير من النجوم والكواكب التي يتناثر حطامها في الفضاء ، ومنها على سبيل المثال الكوكب الذي انفجر على مقربة من كوكب زحل وتحول إلى سحابات من الغبار التي تدور حول زحل وتشكل حلقات عديدة متميزة يعرفها علماء الفلك جيدًا .



(كوكب زحل وحوله الحلقات التي يعتقد علماء الفلك أنها بقايا أحد التوابع التي انفجرت في الماضي وتحولت هباءً منثورًا يدور حول الكوكب)

ويقدر علماء الفلك أن النيازك تصطدم بالغلاف الجوي للأرض بسرعة تصل إلى (٥٠ ميلًا / ثانية) ، وهذا يعني أن قطعة الغبار التي لا يزيد وزنها عن (٠,١ غ) سيكون لها من التأثير المدمِّر ما يماثل تأثير الاصطدام بسيارة وزنها (١ طن) ، وتتحرك بسرعة (٥٠ ميلًا / ساعة) وبهذا ندرك فداحة الخطر الذي تنطوي عليه النيازك التي تضرب الأرض والتي يصل وزن بعضها إلى ملايين الأطنان .

ويقدر علماء الفلك كذلك أن أكثر من (١٠٠٠ طن) من الحطام الفضائي يرتطم كل يوم بطبقات الجو العليا المحيطة بالأرض ، ومن رحمة الله ﷻ بنا أن معظم هذا الحطام

يحترق ويتبخر جزء كبير منه ويتحول الباقي إلى رماد قبل أن يصل إلى سطح الأرض ، وهذه نعمة ربانية عظيمة ؛ إذ جعل الله ﷻ للأرض هذا الغلاف الجوي الذي يحميها من أخطار الفضاء ، وصدق الله العظيم الذي بين هذه الحقيقة الكونية الكبرى في كتابه العزيز فيقول : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٢] .

ولعلّ من أكبر الكوارث الفضائية التي ضربت الأرض في الماضي السحيق نيزك عملاق سقط قبل حوالي (٢٥٠ مليون سنة) وقدّر العلماء قطره بعدة كيلومترات ، فأصاب الأرض بزلزال عنيف تعادل قوته عدة ملايين من القنابل الذرية الفتاكة ، فقضى فورًا على معظم الأحياء التي كانت في ذلك الحين تدب على الأرض ، وأغرق الأرض في الغبار والظلام لعدة قرون تالية .



(صورة تخيلية لأحد النيازك العملاقة وهو يضرب الأرض فيزلزلها زلزلة عظيمة)

وقبل حوالي (٦٥ مليون سنة) ولأسباب كونية مجهولة ـ ربّما كانت نيزكًا كذلك ـ هلك أكثر من نصف أجناس المخلوقات الحية التي كانت تعيش في الأرض ، بما فيها الزواحف البحرية والطيور والحيوانات والنباتات المجهرية الطافية والزواحف الكبيرة كالديناصورات وفيل الماموث وغيره ، وعلى الرغم من فداحة هذا الحادث الرهيب فقد كانت له نتائج أخرى لصالح أنواع أخرى من الأحياء ، فإن انقراض تلك المخلوقات العملاقة مهّد لظهور الرئيسات (*Primates*) ، وهي المخلوقات التي سبقت ظهور الإنسان فيما بعد .

وقبل حوالي (٣٠,٠٠٠ سنة) سقط نيزك عملاق آخر في الركن الجنوبي الغربي من الولايات المتحدة ، وكان بحجم ناقلة بترول عملاقة ، وكان يتحرك بسرعة تزيد عن سرعة الصوت بأربعين مرة مما أدى إلى ارتفاع شديد في حرارة التربة أسفر عن تبخرها وتصاعدت سحابة هائلة من الغبار وصلت إلى طبقات الجو العليا ، وانهمرت إثر ذلك سحابة من الجلاميد التي يفوق حجم بعضها حجم المنازل فضربت الأرض في تلك المنطقة مما ضاعف حجم الدمار الهائل ، وخلّف النيزك حفرة شاسعة يمكن رؤيتها من الفضاء الخارجي على بعد ٩٠٠ ميل ، وهي من السعة إلى درجة يمكن إدخال مدينة لندن فيها .

وفي عام (١٨٠٣م) سقط قرب باريس في فرنسا وابل من الحجارة الفضائية أدّى إلى دمار واسع في دائرة يزيد قطرها عن عدة أميال ، وبعده بأعوام قليلة ، أي في عام (١٨٦٨م) تهاوى في بولندا وابل آخر من الحجارة الآتية من أحد الشهب قُدِّرَتْ بأكثر من (١٠٠,٠٠٠ قطعة) فأحدثت دمارًا هائلًا في منطقة شاسعة من البلاد .

وفي الصباح الباكر من يوم (٣٠ حزيران ١٩٠٨م) هزّ منطقة سيبريا في روسيا انفجار عنيف قدّرت شدته بأكثر من (٢٠ ميغاطن) من مادة (ت.ن.ت) شديدة الانفجار ، أي ما يزيد عن القوة التدميرية لألف قنبلة ذرية من عيار القنبلة الذرية التي دمرت مدينة هيروشيما اليابانية في نهاية الحرب العالمية الثانية ، وقد أحدث هذا الانفجار الرهيب موجة رعد مزلزلة دارت حول الكرة الأرضية مرتين ، وسجلتها جميع المراصد التي كانت تعمل آنذاك ، وارتفعت من جراء الانفجار سحابة خاطفة من الهواء على هيئة الفطر الذي يصاحب الانفجارات النووية إلى ارتفاع (٢٠ ألف كلم) أي ضعف أعلى جبل في العالم (إفيرست = ٨٨٨٨ مترًا) وقد أبادت هذه الموجة كل ما صادفته في طريقها في دائرة قطرها (٤٠ كلم) وجعلته أثرًا بعد عين ، فقضت على البشر والأشجار ومختلف الأحياء الذين كانوا وقتها في نطاق الانفجار ، وقد حدث هذا التدمير كله في ثوان معدودات كلمح البصر ، ولم يُعرف سر هذا الانفجار الهائل إلّا بعد عدة عقود من حدوثه حين أثبتت الدراسات الدقيقة أنه نتج عن مذنّب قطره (٤٠م) انفجر على ارتفاع (٨٠٠٠م) من سطح الأرض ، وقدروا وزنه بحوالي ٣٠ مليار طن .

وفي عام (١٩١٢م) تهاوى في هولبروك في ولاية أريزونا الأمريكية وابل من الحجارة الفضائية يزيد عن ١٠,٠٠٠ قطعة ، وفي عام (١٩٤٧م) تهاوى في الاتحاد السوفيتي إبان الحكم الشيوعي آلاف لا تحصى من حجارة السماء ، بلغ وزن واحدة منها (٢ طن) فأحدثت عند سقوطها زلزالًا مروعًا ارتجت له جنبات الأرض ، وفي عام (١٩٤٨م) تهاوى وابل من الحجارة فوق كنساس في الولايات المتحدة يزيد عن (١٠٠ قطعة) أحدثت دمارًا شديدًا في مساحة شاسعة من الأرض ! وهكذا نرى أن الأرض معرَّضة في كل لحظة لمثل هذه الكوارث الفضائية التي يمكن أن تقضي بلمح البصر على جميع أشكال الحياة في الأرض ، بما في ذلك البشر أنفسهم ، بل قد يؤدي اصطدام أحد الأجرام السماوية العملاقة بالأرض إلى تدميرها تدميرًا تامًّا كما حدث لكثير من الأجرام السماوية من قبل ؛ لينتهي بذلك تاريخ الأرض إلى غير رجعة ، وقد كادت مثل هذه الحوادث المدمرة أن تقع مرارًا كثيرة وفقًا لعلماء الفلك الذين يرصدون الكويكبات العملاقة التائهة في الفضاء ، فقد رصدوا في مناسبات عديدة مرور بعض هذه الكويكبات بمدار الأرض ، ولكن لاختلاف توقيت المرور تتجنب الأرض كارثة الدمار ، وهذه رحمة كبيرة من الله ﷻ بأهل الأرض .. فهل من مدَّكر ؟

الكوارث الأرضية :

ومن أكثرها حدوثًا الزلازل والبراكين المدمرة التي قضى بعضها على ملايين البشر في ثوانٍ معدودات ، أمَّا البراكين فهي شقوق في القشرة الأرضية تخرج منها المواد المنصهرة الموجودة في باطن الأرض ، وقد يسبب البركان العنيف إزاحة ملايين الأطنان من الصخور ، ويسوِّي الجبال الشاهقة بالأرض ، وينفث ملايين الأطنان من الرماد القاتل ، ويوجد اليوم في الأرض (٤٧٦ بركانًا) نشيط ، و (٤٠٠ بركان) خامد ، ولكي ندرك خطر البراكين يكفي أن نعرف بأنها في الفترة ما بين أعوام (١٩٨٠ ـ ١٩٩٠م) أودت بحياة (٣٦,٠٠٠ قتيل) .

ولعلَّ أشهر بركان عبر التاريخ هو البركان الذي حدث في عام (٧٩م) وأصاب مدينتي بومباي وميركوانيوم الرومانيتين ، فقد وصلت سماكة الرماد الناتج عن البركان إلى ٦ أمتار ، وقتل في الحال (١٨,٠٠٠ شخص) ونظرًا للسرعة التي تساقط فيها الرماد على البشر فقد حوَّلهم إلى أصنام بشرية وجدهم على الحال التي كانوا عليها لحظة الكارثة .



(بركان بومباي في إيطاليا عام (٧٩م) ، لاحظ كيف تجمد جثث القتلى على الهيئة التي كانوا عليها وقت الكارثة)

أمّا أشد البراكين التي شهدها تاريخ الأرض فهو ذلك البركان الرهيب المدمر الذي ثار في عام (١٨٨٣م) في جزيرة كاراكاتوا الأندونيسية التي تقع في مضيق سوندا ما بين جاوا وسومطرا ، وقد بلغ البركان من الشدة أنه نسف جزءًا كبيرًا من الجزيرة الواسعة ، وغيَّر شكل المضيق ، وأعقبته موجة عاتية من المدّ البحري سببت خرابًا كبيرًا وخسائر جسيمة في الأرواح والممتلكات ، وكان حجم الأنقاض والطفح البركاني ضخمًا إلى درجة أنه أدى إلى ظهور جزر جديدة في البحر المحيط بالمنطقة ، وانتشرت الأنقاض في المحيط الهندي على مسافات شاسعة حتى وصلت إلى جزيرة مدغشقر التي تبعد آلاف الكيلومترات عن موقع البركان ، أمّا صدمة الانفجار البركاني فقد طافت حول الكرة الأرضية عدة مرات ، وسمع هدير البركان العنيف على بعد ٥٠٠٠ كيلومتر ، وأحدث تلوثًا في الجو حجب ضوء الشمس لمدة عام كامل عن جميع الأرض .

وفي صبيحة يوم ١٨ أيار من عام (١٩٨٠م) ثار بركان سانت هيلين في ولاية واشنطون بالولايات المتحدة فأحدث أعنف انفجار على الإطلاق في القرن العشرين ، فقد انفتحت فوهة البركان فجأة وانطلقت منها موجة الانفجار بسرعة هائلة بلغت (٣٦٠ كلم/ ساعة) وقدرت قوتها بأكثر من ٥٠٠ قنبلة ذرية من عيار القنبلة التي دمرت مدينة هيروشيما اليابانية ، وغطّت الحمم البركانية ونواتج الانفجار مساحة شاسعة من الأرض تزيد عن (٤٠,٠٠٠ هكتار) وقتلت غازاتها السامّة وحرارتها الملتهبة التي وصلت

إلى (٧٠٠ درجة مئوية) كل ما صادفته في طريقها من المخلوقات الحية في دائرة تزيد عن (٤٠ كلم) ، ووصلت سماكة الرماد والحمم البركانية التي تساقطت على الأرض ارتفاع (١٠٠م) ، واقتلع الانفجار الهائل قمة الجبل التي قدِّر وزنها بعدة ملايين من الأطنان ، وانخفضت قمة الجبل بمقدار (٧٠م) عمَّا كانت من قبل ، وغارت فوهة البركان لأكثر من (٥٠٠م) .



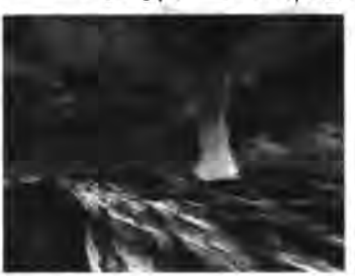
(بركان جبل سانت هيلين ، الولايات المتحدة ، عام ١٩٨٠م)

أمَّا الزلازل فهي تُعَدُّ من أكثر الكوارث الطبيعية حدوثًا وتدميرًا ، ومن الزلازل الشهيرة المدمرة التي ضربت الأرض زلزال عنيف ضرب الصين في عام (٧٦) فسوَّى مدينة تات شان الصينية بالأرض ، ودمَّر المباني على بعد ١٦٠كم ، وقضى على (٦٥٠ ألف شخص) ، وفي عام (١٥٥٦م) ضرب الصين زلزال آخر عنيف أودى بحياة (٨٠٠ ألف شخص) معظمهم من الفلاحين الذين يقطنون الكهوف الاصطناعية ، أواخر القرن الثالث عشر ضرب الصين زلزال ثالث عنيف ، أودى في دقائق معدودات بحياة أكثر من (١٠٠,٠٠٠ نسمة) .

وفي عام (١٧٣٧م) حدث في الهند زلزال مدمر أودى بحياة (٣٠٠,٠٠٠ نسمة) ، وفي مطلع القرن العشرين ، في عام (١٩٠٦م) حدث زلزال عنيف آخر في مدينة سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة أودى على الفور بحياة آلاف مؤلفة من البشر ، ودمر المدينة تدميرًا واسعًا بفعل الحرائق الرهيبة التي نتجت عن تكسير أنابيب الغاز .

وفي شهر أيلول من عام (١٩٢٣م) ضرب زلزال عنيف (قوته ٨,٣ درجة ريختر) سهل كوانتو ، فأدى إلى غور قاع خليج ساغامي بمقدار ٤٤٠ مترًا ، وأودى بحياة (١٥٠,٠٠٠ نسمة) وهدم ٥٧,٥٠٠ منزلًا ، وفي عام (١٩٧٦م) ضرب زلزال مدمر شرقي الصين الشعبية فأدى إلى مصرع (٧٥٠,٠٠٠ نسمة) في الحال.

أمّا الأعاصير فهي كذلك من الكوارث المدمرة التي كثيرًا ما تؤدي إلى تغيير معالم المناطق التي تضربها ، ولعلّ من أشد الأعاصير التي سجلها التاريخ ذلك الإعصار الدوار المدمر الذي ضرب جزر دلتا الكنج في بنغلادش يومي ١٢ و ١٣ تشرين الثاني (١٩٨٠م) ، وقد بلغت سرعته (١٦٠ ميلًا / ساعة) واستمر يعصف بالمنطقة طيلة يومين كاملين اقتلع خلالهما الشجر ، وهدم البيوت ، وخلف المنطقة في حالة شلل تام ، ومسح من قائمة الوجود (مليون نسمة) ، وهو أكبر عدد مسجل من الضحايا نتيجة إعصار ، هذا غير ملايين البشر الذين شردتهم الكارثة وألقت بهم في العراء .



(أحد الأعاصير الدوارة التي أصابت بلدًا تركته قاعًا صفصفًا)

الكوارث المرضية :

ويعد المرض من الكوارث المؤلمة التي قد تحل بأفراد من البشر ، وقد تنتشر انتشارًا واسعًا فتسبب كوارث عالمية ، وقد سجل تاريخ الأمراض الكثير من الأوبئة المرضية التي قضت في أيامٍ معدوداتٍ على ملايين لا تحصى من البشر ، ففي عام (٥٥٠ م) حصل وباء واسع من مرض الطاعون أو الداء الأسود اجتاح شتى أنحاء العالم ، وأودى بحياة أكثر من (١٠٠ مليون نسمة) ، وفي أواسط القرن الرابع عشر في الفترة ما بين (١٣٤٧ ـ ١٣٥١م) اجتاحت موجة أخرى من الطاعون اللمفاوي قارات العالم فأودى بحياة (٧٥ مليون نسمة)

في أوروبا وحدها ، وهم يعادلون نصف سكانها في ذلك الحين ، كما أودى بحياة (٥٠ مليون نسمة) في آسيا ، وقد احتاجت تلك البلدان المنكوبة بالطاعون فترة امتدت حتى بدايات القرن ١٦ لاستعادة معدلات النمو السكاني التي كانت عليها قبل أن يضربها ذلك الوباء الفتاك ، وفي عام (١٨٩٤م) حصلت موجة جديدة من وباء الطاعون بدأت من هونغ كونغ وأدت لوفاة (١٠٠ مليون نسمة) آخرين في أنحاء متفرقة من العالم .



(صورة من صور انتشار وباء الطاعون في أوروبا في القرن الرابع عشر ، لاحظ الهلع والفزع على الوجوه، وجثث الموتى في كل مكان ، ومحاولات الهرب بعيدة عن قبضة الموت !)

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وبالتحديد في الفترة ما بين شهري نيسان وتشرين الأول من عام (١٩١٨م) شهدت البشرية أسوأ وباء عرفه التاريخ البشري على الإطلاق ، فقد انتشر في أنحاء العالم وباء (الإنفلونزا) الذي عرف آنذاك باسم (الجريب الإسباني) ، وقضى في غضون أشهر معدودات على أكثر من (٥٠ مليون نسمة) أي ضعفي ما حصدته الحرب العالمية الأولى ، وقد بلغ الفزع والرعب بالناس حدًّا جعل أحد العلماء الأمريكان يومئذ يقول : إذا استمرت الجائحة بهذا التسلسل فلن تبقى حضارة إنسانية على وجه الأرض . وكان الناس يصحون صباحًا على أتم صحة ليس فيهم شيء وفي المساء يكونون من أصحاب القبور ، حتى أمست تجارة التوابيت في تلك الأيام العصيبة من أربح التجارات ، بل وصلت الأزمة إلى حد أن الكثيرين من الموتى لم توجد لهم توابيت يحملون فيها ، فكان من يموت يلقى على قارعة الطريق ، فيأتي عمال البلدية لحمل جثته مع الفضلات .



(صور من وباء الإنفلونزا التي انتشرت في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وأودت بحياة الملايين)

وفي عام (١٩٨٠م) ظهر مرض الإيدز (AIDS) وانتشر في أنحاء العالم انتشار النار في الهشيم ، وبلغ عدد ضحاياه في أقل من ربع قرن (٤٠ مليون نسمة) قضى معظمهم نحبه وما زالت البقية تنتظر ، والأخطر من هذا أن الإيدز أصبح يهدد شعوبًا بأكملها بالانقراض ، ولا سيما في بعض دول أفريقيا ، فقد بلغت نسبة الإصابة هناك ٣٠٪ من مجمل الشعوب الأفريقية ، وأمسى الإيدز السبب الأول للوفاة في جنوب الصحراء الكبرى .

وليس الإيدز هو الخطر الوبائي الوحيد في العالم ، فهناك أمراض وبائية مستوطنة باتت تشكل كوارث إنسانية خطيرة ، فهناك مثلًا داء الملاريا الذي يصيب (٣٥٠ مليون شخص / سنويًا) ويقتل طفلًا أفريقيًا كل ٣٠ ثانية ، وهناك سوء التغذية الذي يقتل (١٤٥ مليون طفل) تحت سن الخامسة من العمر في الدول الفقيرة .

وهناك إلى جانب هذه الكوارث الصحية كوارث أخرى لا تقل خطرًا ، وهي كوارث صامتة إذا صح التعبير ؛ لأنها تُعَدُّ من الممارسات اليومية المسكوت عنها ، وأعني بها عادة التدخين ، فهذه العادة الخبيثة يتجاوز ضحاياها أي مرض آخر ، إذ يقتل التدخين (١٤٠ مليون مدخن/ سنويًا) وهناك أيضًا بعض الأمراض البسيطة في مظهرها ولكنها خطيرة في نتائجها ، ومنها مثلًا أمراض الإسهال التي تقتل (٢٠ مليون طفل / سنويًا) في الدول الفقيرة ! وهكذا نجد أن الأمراض في مناسبات عديدة قد بلغت حدًّا خطيرًا جدًّا أوشك أن يهدد الجنس البشري ، كما أن بعضها يعمل يوميًّا ويصمت على إفناء الجنس البشري دون أن يقوم البشر بخطوات عملية حاسمة لوقف هذا التدمير .

فإذا أضفنا إلى هذا أن منظمة الصحة العالمية (WHO) قد سجلت خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين ظهور أكثر من ثلاثين مرضًا وبائيًا جديدًا فإننا ندرك حجم الكارثة التي يمكن أن تنفجر في أي وقت لتقضي على ملايين لا تحصى من البشر .. لا قدَّر الله .

الكوارث السياسية :

والسياسة كما نعلم هي أم المشاكل ، وكثيرًا ما أدت إلى نزاعات وحروب وانقلابات ومصادمات دامية أودت بأرواح الملايين على مدار التاريخ ، ولاشك بأن الحرب تُعَدُّ من أشد الكوارث السياسية التي يبدو أن البشر قد أدمنوا عليها منذ زمن بعيد ولم يعودوا قادرين على الإقلاع عنها ، حتى إننا لا نكاد نعثر على فترة من تاريخ البشر خالية من الحروب أو الصراعات الدامية ، فقد ظلت نار الحرب مشتعلة باستمرار هنا أو هناك ، وكأنها نار مقدسة لا غنى للبشر عن لهيبها الحارق (انظر فصل : تاريخ الصراع) .

وتشير الإحصائيات إلى حدوث ما لا يقل عن (١٥,٠٠٠ حرب) خلال ٥٥٠٠ سنة الماضية ، بمعدل (٢ ـ ٣ حروب / سنويًا) قتل فيها أكثر من (٣٥٤٠ مليون إنسان) أي قرابة ٨٠ ٪ من عدد سكان العالم حاليًا ، ويقدر خبراء الحرب أن البشرية لم تعش في المضي بوئام وسلام إلَّا (٢٩ سنة فقط) وأن نصف الحروب التي شهدها العالم حدثت في أوروبا وكانت حصيلة القتلى في الحروب كما يلي : في القرن السابع عشر (٣,٣ مليون قتيل) ، وفي القرن الثامن عشر (٥,٢ مليون قتيل) وفي القرن التاسع عشر (٥,٥ مليون قتيل) أما القرن العشرون في حربين عالميتين حدثتا فيه قتل أكثر من (١٠٠ مليون) مما يدل على تفاقم الكارثة عصرًا بعد عصر ، وَيَوْمًا بعد يوم ، وهذا يرجع بالدرجة الأولى إلى التقدم العلمي الذي حصل في العصر الحديث في ميدان التسلح ، ممَّا زوَّد أرباب السياسة والحرب بأسلحة تدمير شامل لا تُبْقي ولا تذر ؛ منها القنابل الذرية والهيدروجينية والنترونية ؛ ومنها الأسلحة الكيميائية والأسلحة البيولوجية ، وغيرها من الأسلحة التي أصبح بمقدورها أن تقضي على ملايين البشر بلمح البصر .

وقد وقعت أول كارثة ذرية في التاريخ صبيحة يوم ١٦ آب من عام (١٩٤٥م) عندما ألقت الولايات المتحدة قنبلتها الذرية الأولى على مدينة هيروشيما اليابانية ، وأتبعتها بقنبلة أخرى على ناجازاكي بعد ثلاثة أيام ، فأودت بحياة (٢٥٠,٠٠٠ شخص) بالإضافة إلى عشرات الآلاف الذين قضوا في وقت لاحق نتيجة الحروق الواسعة التي لحقت بهم من

جراء الانفجار الهائل والإشعاع النووي ، ومئات الآلاف الذين ظلوا يعانون من التشوهات والإعاقات المختلفة لأعوام طويلة انتهت بوفاة الكثيرين منهم ، وقد دمّرت القنبلتان المدينتين وما حولهما تدميرًا شاملًا فلم تبقيا فيهما حجرًا على حجر ، ولوثتا البيئة المحيطة بهما بالإشعاع الذري فلم تعد البيئة صالحة لسكنى البشر إلى سنوات طويلة ، فإذا علمنا بعد هذه الكارثة أن مستودعات الدول النووية (الولايات المتحدة ، روسيا ، إنكلترا ، فرنسا ، الصين ، الهند ، الباكستان) تحتوي على آلاف الرؤوس النووية فإننا ندرك حجم الكارثة التي يمكن أن تقع في أية لحظة فتقضي على ملايين البشر ، ولا يستبعد أن تقضي على الجنس البشري كله فيما لو حصلت كارثة نووية شاملة بانفجار عدة مفاعلات نووية أو عدة مستودعات نووية ، وما كارثة انفجار المفاعل الذري في تشرنوبل بالاتحاد السوفيتي عنا ببعيد ، ففي يوم الخامس والعشرين من شهر نيسان (١٩٨٦م) الساعة ٢٣:٢٣ انفجر هذا المفاعل ليشكل أكبر كارثة نووية شهدها عصر الذرة ، فأودى بحياة معظم الذين كانوا في موقع الانفجار (١٢٠,٠٠٠ ضحية) وأحدث أضرارًا مادية فادحة في دائرة قطرها ٣٠ كلم ، كما أودى بحياة ٥٧٢٢ ضحية من عُمَّالِ الإنقاذ الذين اندفعوا لإطفاء الحرائق دون اتخاذ وسائل الوقاية من الإشعاع وانتشر التلوث الإشعاعي انتشارًا واسعًا غطّى معظم أنحاء أوروبا الشمالية .. مما هز العالم هزة عنيفة ، ونبه للمخاطر الرهيبة التي باتت تنام إلى جوارنا ، ويمكن أن تصحو في أية لحظة لتقضي على الحرث والنسل ، وتسبب كوارث لا يعلم إلا الله سبحانه إلام تنتهي بالجنس البشري .



(مفاعل تشرنوبل في روسيا عقب انفجاره الرهيب)

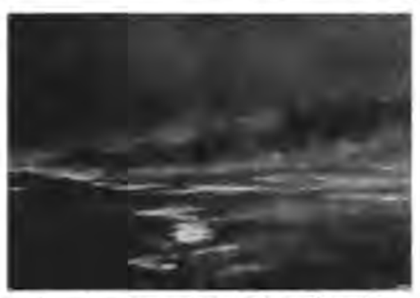
أمَّا الكوارث السياسية الأخرى فتتمثل بالحروب العالمية التي ازداد أوارها في القرن العشرين ، واستخدمت فيها أحدث التقنيات المدمِّرة التي كان منها السلاح الذري الذي سبق الحديث عن نتائجه المأساوية ، وقد شهد القرن العشرون حربين عالميتين لم يشهد التاريخ لهما مثيلًا من قبل ، فقد دمرت فيهما مئات المدن العامرة ، وقتل فيهما أكثر من مائة مليون نسمة ، وكلفت الحربان مليارات لا تحصى من الدولارات .

ومن الطريف أن نذكر أن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) بعد أن وضعت أوزارها ، ونتيجة للمآسي الفظيعة التي نجمت عنها جعلت المحللين السياسيين والمؤرخين يصفونها بأنها (الحرب التي أنهت جميع الحروب) اعتقادًا منهم أنها كانت درسًا قاسيًا جدًّا سوف يردع البشرية عن تكرار مثل هذه الحماقة مرة أخرى ، لكن الأيام سريعًا ما خيبت تلك الظنون ، إذ لم تمض سنوات قليلة حتى اشتعلت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) لتهز العالم هزَّة عنيفة ، وتحرق الأخضر واليابس وتقضي على ملايين لا تحصى من البشر .

وفي عام (١٩٦٢م) وقف العالم كله حابسًا أنفاسه خوفًا من اندلاع الحرب العالمية الثالثة ما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، والتي كان متوقعًا أن تكون حربًا نووية لأول مرة في التاريخ ، وكان السبب المباشر لتلك الحرب المتوقعة أن الاتحاد السوفيتي أقدم على نشر صواريخ بالستية في جزيرة كوبا المتاخمة للولايات المتحدة (٩٠ ميلًا) لكي يحول دون محاولة الولايات المتحدة من غزو الجزيرة ، وفي ١٥ أكتوبر (١٩٦٢م) اكتشفت طائرات التجسس الأمريكية منصات الصواريخ ، ورأت فيها تهديدًا مباشرًا لأمن الولايات المتحدة ، فوضعت البحرية الأمريكية أسطولًا بحريًّا عسكريًّا لتفتيش السفن المتجهة إلى كوبا ، وفي يوم ٢٧ أكتوبر (١٩٦٢م) أرسل الرئيس الكوبي (فيديل كاسترو) رسالة خطية للرئيس السوفيتي يحثه فيها على شنِّ هجوم نووي على الولايات المتحدة استباقًا للأحداث ، ومضت ساعات حرجة جعلت العالم كله يتسمر وهو يصغي لمحطات الراديو انتظارًا لما هو الأسوأ في التاريخ ، وبعد ساعات من الترقب والرعب النووي رضخ الاتحاد السوفيتي لإزالة الصواريخ الكوبية شريطة أن تتعهد الولايات المتحدة بعدم غزو كوبا وسحب الصواريخ البالستية الأمريكية من تركيا ، وتنفس العالم الصعداء لدى انقشاع نُذُر الحرب التي كان يمكن أن تقضي على الجنس البشري في أيامٍ نحسات .

وليست الحروب العالمية هي التي تهز العالم ، بل إن بعض الصراعات المحلية يمكن أن تكون أشد هولًا من الحروب الكبرى ، ففي عام (١٩٧٥م) بدأت أحداث أسوأ مجزرة بشرية في تاريخ التطهير العرقي مما جعل العالم يقف مذهولًا لهول الفاجعة ، فقد قتل أكثر من ثلث السكان في كمبوشيا خلال أربع سنوات تقريبًا ، ولم يبق من أصل ٨ ملايين نسمة سوى ٥,٥ مليونًا فقط .

وفي عام (١٩٩١م) في خضم حرب الخليج الثانية التي أقدم فيه الرئيس العراقي صدَّام حسين على غزو الكويت ، وبعد الهجوم الذي شنَّه قوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لتحرير الكويت أقدمت قوات صدام على إشعال النار في مئات آبار النفط الكويتية نكاية بما حصل ضده من قوات التحالف ، وهكذا شهد العالم أسوأ كارثة تلوث بيئي بالنفط ، فقد كان يحترق يوميًّا أكثر من (١٠,٠٠٠ طن) من النفط الخام ، وأكثر من (٧٠ مليون متر مكعب) من الغازات السامة التي انتشرت في المنطقة وما حولها إضافة إلى ما يزيد عن (٨٠٠,٠٠٠ طن) من النفط والمواد الملوثة التي ألقيت في مياه الخليج إبان المعارك الحربية ، وقد أدت سحب الدخان الكثيفة الناجمة عن ذلك إلى حجب نور الشمس وانخفاض درجة الحرارة أكثر من عشر درجات مئوية عن معدلها المعتاد ، واستمر ذلك لمدة عام كامل ، كما قتلت المواد النفطية التي وصلت إلى مياه الخليج ملايين لا تحصى من الأحياء البحرية والطيور .



(احتراق آبار النفط الكويتية التي حجبت نور الشمس)

أمّا ما أحدثته الثورات الثقافية والحزبية من كوارث بشرية فحدث عنها ولا حرج ، وقد نشرت مجلة لوفيغارو الفرنسية بعددها الصادر في (١٩ ـ ٢٥ / ١١ / ١٩٧٨م) تقريرًا مفصلًا عن عهد الزعيم الصيني (ماوتسي تونغ) [1] ، من خلال الكتاب الأسود الذي حرّره الكاتب الفرنسي ستيفان كورتو مع مجموعة من المتخصصين في دراسة النظم الشيوعية ومنهم بـاريون وشيوجيون ، وقد قدّر هؤلاء المتخصصون عدد ضحايا الشيوعية خلال ٨٠ سنة من حكمها ـ في الاتحاد السوفيتي والصين بخاصة ـ بأكثر من ١٠٠ مليون ضحية ، في مذبحة تاريخية تستعصي على التفسير لشدة بشاعتها ، وصدق الله العظيم الذي يبين هذه النزعة الشريرة التي إذا عصفت بالعقل البشري جعلته يتصرف أسوأ من الحيوان ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس : ١٧] .



(الزعيم الصيني ماوتسي تونغ)

(الجدول ـ ٢١) أهم الكوارث التي شهدها التاريخ البشري

التاريخ	نوع الكارثة	الموقع	النتائج
قبل (٢٥٠ مليون سنة)	نيزك .	غير معروف .	قضى على معظم المخلوقات الحية ، وأغرق الأرض في الغبار والظلام لعدة قرون تالية .

(١) ماوتسي تونغ (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦م) : زعيم الحزب الشيوعي الصيني منذ عام (١٩٣٥م) وحتى وفاته ، تراجع منسحبًا أمام الجيش الوطني في (المسيرة الطويلة) ساهم بتأسيس الحزب الشيوعي ثم تأسيس جمهورية الصين الشعبية عام (١٩٤٩م) ، عمل ماو على تطوير مفهوم جديد للشيوعية سُمي (بالماوية) نسبة إليه ، وهو مزيج من شيوعية لينين وماركس .

قبل (٦٥ مليون سنة)	نيزك .	غير معروف .	أهلك نصف أجناس المخلوقات الحية ، ومهّد لظهور الرئيسات (*Primates*) التي سبقت ظهور الإنسان .
قبل (٣٠,٠٠٠ سنة)	نيزك .	الركن الجنوبي الغربي من الولايات المتحدة .	خلّف النيزك حفرة شاسعة يمكن رؤيتها من الفضاء الخارجي يمكن إدخال مدينة لندن فيها !
(٧٦م)	زلزال .	الصين .	قضى على ٦٥٠ ألف شخص .
(٥٥٠م)	الطاعون أو الداء الأسود .	اجتاح العالم .	قضى على ١٠٠ مليون نسمة .
(١٢٩٠م)	زلزال .	الصين .	أودى بحياة ١٠٠,٠٠٠ نسمة .
(١٣٤٧ ـ ١٣٥١م)	الطاعون الدملي .	اجتاح العالم .	أودى بحياة ١٢٥ مليون نسمة .
(١٥٥٦م)	زلزال .	الصين .	أودى بحياة ٨٠٠ ألف شخص .
(١٧٣٧م)	زلزال عنيف .	الهند .	أودى بحياة ٣٠٠,٠٠٠ نسمة .
(١٨٠٣م)	وابل من الشهب .	باريس .	دمار واسع في نطاق عدة أميال .
(١٨٦٨م)	وابل من الشهب .	بولندا .	دمار هائل في منطقة شاسعة .
(١٨٨٣م)	بركان عنيف .	جزيرة كاراكاتوا الإندونيسية .	نسف الجزيرة ، وأدى لظهور جزر جديدة ، وحجب ضوء الشمس لمدة عام كامل .
(١٨٩٤م)	الطاعون .	عالمي .	قضى على ١٠٠ مليون نسمة .
(١٩٠٦م)	زلزال .	سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة .	أودى بحياة ٣٠٠٠ شخص ودمر المدينة تدميرًا واسعًا بفعل الحرائق التي نتجت عن تكسير أنابيب الغاز .

(١٩٠٨م)	مذنّب عملاق .	سيبريا في روسيا .	أبادت كل ما صادفه في نطاق ٤٠س كلم .
(١٩١٢م)	وابل من الشهب .	هولبروك في ولاية أريزونا الأمريكية .	دمار واسع في نطاق ٣٠كلم .
(١٩١٧ـ١٩٨٠م)	الثورة الشيوعية .	الاتحاد السوفيتي والصين .	قضت على ١٠٠ مليون نفس في حركات التطهير الثوري .
(١٩١٤ـ١٩١٨م)	الحرب العالمية الأولى .	عالمية .	قضت على أكثر من ٢٠ مليون نفس .
(١٩١٨م)	وباء الأنفلونزا .	عالمي .	قضى على ٥٠ مليون نسمة .
(١٩٢٣)	زلزال عنيف .	سهل كوانتو .	قتل ١٥٠,٠٠٠ نسمة وهدم ٥٧,٥٠٠ منزلًا .
(١٩٣٩ـ١٩٤٥م)	الحرب العالمية الثانية .	عالمية .	قضت على أكثر من ٧٠ مليون نفس .
(١٩٤٥م)	غارة جوية .	طوكيو .	أودت في يوم واحد بحياة ١٤٠,٠٠٠ شخص ، ودمرت المدينة تدميرًا شبه تام .
(١٩٤٥م)	قنابل ذرية	هيروشيما وناجازاكي في اليابان .	كلفت ١٥٠ ألف نسمة ، ودمرت المدينتين تدميرًا تامًا .
(١٩٤٧م)	وابل من الشهب .	الاتحاد السوفيتي .	أحدثت زلزالًا مروعًا ارتجت له جنبات الأرض ودمار واسع في منطقة تزيد عن ٥٠ كلم .
(١٩٤٨م)	وابل من الشهب .	كنساس في الولايات المتحدة .	أحدثت دمارًا شديدًا في مساحة واسعة من الأرض .
(١٩٦٩ـ١٩٧١م)	مجاعة .	الصين .	قضت على ٢٠ مليون نفس .
(١٩٧٥ـ١٩٧٩م)	مجزرة بشرية .	كمبوديا .	قضت على ٣,٥ مليون نفس .
(١٩٧٦م)	زلزال .	شرقي الصين الشعبية .	قتل ٧٥٠,٠٠٠ نسمة .

(١٩٧٨م)	انتحــار بــأمر المــشعوذ جــيم جونز .	سان فرانســيسكو .	أودت بحياة ٩١٣ شخص .
(١٩٨٠م)	بركان .	جبـل سـانت هيلـين في واشنطون .	قوته تعادل ٥٠٠ قنبلة ذرية ، قتل كل ما صادفه من أحياء .
(١٩٨٠م)	إعصار دوار .	جــزر دلتــا الكــنج في بنغلادش .	قضى على مليون نـسمة ، وهو أكــبر عــدد مــسجل مــن الضحايا نتيجة إعصار .
(١٩٨١ـ٢٠٠٠م)	الإيدز .	عالمي .	أصاب ٤٠ مليون شخص .
(١٩٨٦م)	انفجــار مفاعــل تشرنوبل النووي .	الاتحاد الــسوفيتي .	١٣٠ ألف ضحية .
(١٩٩١م)	احتراق آبار النفط الكويتية .	منطقة الخليج العربي .	حجبــت نــور الــشمس ، وخفضت الحرارة عن معدلها لمدة عام وقضت على ملايين الأحياء البحرية .

●●●

الفصل التاسع عشر

القرن العشرون نقلة تاريخية حاسمة

• لقد كان القرن العشرون قرنًا من العنف الذي لم يوضع له حدود، ولكن عندما ينظر إليه البشر بعد خمسمائة عام من الآن فسوف يتذكرون أنه وسم أول اكتشاف للفضاء، واختراع الرقيقة الإلكترونية الدقيقة، لكن أيًّا منهم لن يتذكر هتلر ولا ستالين ولا تشرشل ولا روزفلت[1].

آرثر إم (تشلنجر الابن)

لسنا مبالغين إذا قلنا إن القرن العشرين قد شكَّل نقلة حاسمة لم يشهد التاريخ البشري لها مثيلًا؛ لأن ما حصل في هذا القرن من إنجازات واكتشافات علمية، وما وقع فيه من أحداث جسام وتغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية واسعة، وما ترتب على ذلك كله من نتائج، كان شيئًا يفوق الخيال.

وكما كان القرن العشرون حافلًا بالعنف الأهوج والحماقات الكبرى فقد كان بالمقابل حافلًا بالإنجازات العلمية العظيمة التي تجاوزت كل التوقعات والأمنيات والأحلام المجنحة[2].

ملامح الإنجازات العلمية في القرن العشرين:

مع اقترابنا من مطلع القرن العشرين بدأنا نلمح في الأفق تباشير ثورة علمية واعدة، لم تلبث أن أسفرت سريعًا عن ثورات أخرى متلاحقة في شتى الحقول، وقد حقق الإنسان في هذا القرن الفريد من المخترعات والأدوات والاكتشافات ما يعادل، بل قد يفوق، كل ما أنجزه طوال تاريخه الماضي، وفي هذا القرن أيضًا طوَّر الإنسان من الوسائل والمخترعات الدقيقة الحساسة ما جعله قادرًا على سماع ما لم يكن يسمع، ورؤية ما لم يكن يرى، وتحقيق خوارق علمية عظيمة كانت إلى وقت قريب ضربًا من الخيال أو المستحيل (انظر الجدول ـ ٢٢).

---

(١) هؤلاء هم أبرز الزعماء الذين قادوا الحرب العالمية الثانية ما بين عامي (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) التي كلفت البشرية أكثر من ٥٠ مليون ضحية!

(٢) انظر تفاصيل هذه الرحلة الشيقة في كتابنا (ذاكرة القرن العشرين)، دار النفائس، بيروت (٢٠٠٠م).

ولعلَّ أعظم ما حققه الإنسان في هذا القرن أنه خاض لأول مرة في تاريخه في أعمق أعماق الذرة ، وتغلغل في مداراتها وطبقاتها ومنحنياتها ، ففكَّ طلاسمها ، واستخرج منها عام (١٩٤٥م) طاقة هائلة تجاوزت بجبروتها وقوتها ودرجة تدميرها كل ما قرأناه أو سمعناه من روايات أو حكايات أو أساطير عن طاقة الجنّ والعفاريت ، ولم يكتف الإنسان بهذا الإنجاز العظيم بل أعاد تركيب الذرة على صورة جديدة فشكّل منها ـ لأول مرة في التاريخ أيضًا ـ ذرات غير معروفة في الطبيعة .

وخلال هذا القرن الفريد أيضًا تمكن الإنسان بوسائل المواصلات والاتصالات الحديثة التي ابتدعها أن يُحَوِّل كوكب الأرض إلى قرية صغيرة يتأثر أقصاها بما يحدث في أدناها بلمح البصر ، وبات الإنسان يتنقل من أقصى الأرض إلى أقصاها في سويعات قليلة بينما كان يستغرق الأيام الطوال في الانتقال من مدينته إلى المدينة المجاورة ، واليوم يوجد على مدار الساعة أكثر من (٥٠٠,٠٠٠ شخص) يحلقون بالطائرات حول الأرض ، متنقلين من مدينة إلى مدينة ، ومن قارة إلى قارة ، بسرعة تتجاوز (٦٠ مرة) ضعف سرعة العربات التي ظل البشر يستخدمونها حتى الأمس القريب .



(في القرن العشرين اكتشف الإنسان تركيب الذرة ، وتمكن لأول مرة من تفجيرها واستخراج ما فيها من طاقة هائلة غيرت موازين القوى السياسية ، وأفادت البشرية في جوانب سلمية عديدة)

وليس هذا فحسب ، فإن المركبات الفضائية التي ابتدعها الإنسان في هذا القرن مكنته من الطيران بسرعة فائقة قاربت بعض الخوارق المعجزة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، كتلك الخارقة التي قال قائلها لنبي الله سليمان عليه السلام الذي طلب إحضار عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى فلسطين : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] ، ولم يكد يتم جمله حتى كان العرش بين يدي سليمان عليه السلام ، وكذلك أصبح التنقل عبر الفضاء في

القرن العشرين ، وهناك اليوم مركبات تدور حول الأرض يزيد وزنها آلاف المرات عن وزن ذلك العرش وهي تدور حول الأرض في أقل من ٩٠ دقيقة ، وبعض المركبات التي أعدت لاستكشاف أجرام المجموعة الشمسية وصلت سرعتها إلى حوالي ربع مليون كيلومتر في الساعة الواحدة [(١)] ، وهي سرعة كافية لقطع المسافة بين اليمن وفلسطين في ثوانٍ معدوداتٍ كما حصل في المعجزة التي جرت أيام النبي سليمان ﷺ .

وفي القرن العشرين أيضًا حقَّق الإنسان ثورة معلوماتية هائلة باختراعه كمبيوترات ذكية عملاقة يستطيع الواحد منها أن يُجري في ثانية واحدة مليارات العمليات الحسابية التي لو أراد الإنسان أن يجريها بوسائله التقليدية لاستغرقت منه آلاف السنين .

(الجدول ـ ٢٢) أهم المراحل في تطور الطيران وارتياد الفضاء خلال القرن العشرين

التاريخ	الإنجاز	الموقع	صاحب الإنجاز
(١٩٠٣م)	أول طائرة بمحرك	الولايات المتحدة	الأخوان رايت
(١٩١٤م)	الصاروخ	ألمانيا	المخترع : هنشنز فودار
(١٩٥٧م)	ارتياد الفضاء	الاتحاد السوفيتي	إرسال أول مركبة غير مأهولة بالبشر
(١٩٥٧م)	تحليق أول مخلوق حي في الفضاء الخارجي	الاتحاد السوفيتي	الكلبة (لايكا)
(١٩٦١م)	أول إنسان يرتاد الفضاء	الاتحاد السوفيتي	الرائد (يوري خاخارين)
(١٩٦٩م)	هبوط أول بشر على سطح القمر	الولايات المتحدة	الرائد (نيل آرمسترونغ)

وفي حقول الطب والصحة العامة تمكَّن الإنسان في هذا القرن الفريد أن يقضي ـ لأول مرة في التاريخ أيضًا ـ على بعض الأمراض الفتاكة المستعصية ؛ مثل : الجدري (*Smallpox*) [(٢)] ،

---

(١) هذه السرعة مسجلة رسميًّا لأحد الصواريخ الألمانية الأمريكية المعدة للسبر الشمسي ، وقد أطلق يوم ١٥/ ١/ ١٩٧٦م [جنس : موسوعة المعلومات العامة للأرقام القياسية ، (ص ٧١) ، مؤسسة نوفل ، بيروت ١٩٨٧م].

(٢) في عام (١٩٦٧م) كان هناك أكثر من (٢,٥ مليون حالة جدري) في ٤٢ دولة ، وقد أمكن بفضل الله تعالى استئصال هذا الداء نهائيًّا من الأرض من خلال تنفيذ برنامج عالمي للتطعيم ضد الجدري ابتداءً من الخمسينات من القرن العشرين ، وفي العام (١٩٧٩م) أعلنت منظمة الصحة العالمية (WHO) رسميًّا عن زوال الجدري من =

وغيره من الأمراض التي ظلّت تفتك بالإنسان وذريته آلاف السنين ، كما تمكن الإنسان بفضل التقنيات الطبية المبتكرة أن يجعل الأصم يسمع ، والأعمى يرى ، ومن هو في حكم الموتى أن يقوم ليواصل رحلة الحياة من جديد .

كما تمكن الإنسان في هذا القرن ـ لأول مرة في التاريخ كذلك ـ أن يتحرر من تقاليد الحمل والولادة والزواج والإنجاب ، فأصبح بفضل حبوب منع الحمل وتقنيات الهندسة الوراثية والاستنساخ وأطفال الأنابيب يتحكم بنسله ليحصل على الأولاد (حسب الطلب) حتى وإن كان عقيمًا .

وفي النصف الثاني من القرن العشرين أيضًا تمكن الإنسان ـ لأول مرة في حياته أيضًا ـ أن يتحرر من أسْر أمه الأرض ، لينطلق في السماء حرًّا طليقًا كالعصافير ، ويزور أقرب جيرانه إليه ويحطُّ الرِّحال لأول مرة على سطح القمر ، ولم يكتفِ الإنسان بهذا الإنجاز الذي تجاوز حدود الخيال وظل بعضهم يرفض التصديق به لشدة وقعه ، بل بدأ على الفور يخطط لزيارة بقية الرَّبع .. هناك .. في العوالم البعيدة .. البعيدة .



(الإنسان على سطح القمر لأول مرة في التاريخ عام ١٩٦٩م)

إننا باختصار قد حققنا خلال القرن العشرين الكثير من الإنجازات الرائعة ، وكان القرن العشرون بحقٍّ عصر الفتوحات العلمية الباهرة ، وربَّما كان أكثر القرون نيلًا للأوسمة والألقاب فهو : عصر العلم ، عصر الذرة ، عصر الفضاء ، عصر لرتياد القمر ، عصر الكمبيوتر ، عصر الذكاء الاصطناعي ، عصر الاستنساخ (انظر فصل : تاريخ العلم) .

= الأرض ، ومنذ ذلك الحين لم تسجل أية حالات جديدة [انظر كتاب : التطعيم ، (ص ٤٦) ، إعداد الهيئة الاستشارية الطبية ، دار الاستشارات الطبية والتأهيلية ، الرياض ١٩٩٦م] .

ولكن .. هل تعني كل هذه الإنجازات العلمية العظيمة التي حققها الإنسان خلال القرن العشرين أن الإنسان قد بلغ في هذا القرن رشده ، وأنه قد حقّق أخيرًا حلمه المنشود بالسعادة والسلام ؟ إننا بكل المرارة نقول : لا ، ففي مقابل تلك الإنجازات العلمية الكبيرة التي شهدها القرن العشرون فقد شهد أيضًا ما لا يحصى من المآسي والنكبات والنكسات التي تجاوزت في بعض الأحيان أشد عصور التاريخ ظلامًا وهمجيةً ، ويكفي هذا القرن سمعةً سيئةً أنه كان أول قرن في التاريخ البشري يشهد حروبًا عالمية امتد شررها من أقصى الأرض إلى أقصاها ، وقضت في سنوات معدودات على ملايين لا تُعَدُّ ولا تحصى من البشر ، ودمَّرت آلاف المدن والمدارس والمصانع ، وخلفت ملايين لا تحصى من المعاقين والمشوهين والمشردين واليتامى والأرامل والمفقودين ، وأنفقت فيها أموال طائلة كانت تكفي للارتقاء بالبشرية إلى مستوى عال من التقدم والرقي والسعادة والسلام ، وصدق المؤرخ البريطاني (أريك هابزباوم) حين وصف القرن العشرين بمرارة وحسرة قائلًا : (إنه قرن الحربين العالميتين ، والفواجع الكبرى ، والنفي والتهجير ، وقرن استخدام أسلحة التدمير الشامل) ، وقد قدر الخبراء العسكريون أن الحروب والصراعات والانقلابات السياسية التي شهدها القرن العشرون أودت بحياة (٢٠٠ مليون نفس) بمعدل (٥٠٠٠ نفس/ يوميًّا) على مدار القرن .

أجل .. لقد حقق الإنسان في حقول العلم خلال هذا القرن الفريد معظم الأحلام الكبيرة التي دارت في خيال أجداده ، أمَّا في شؤونه الأخرى فقد ظلَّ يحمل في أعماقه تلك البذرة الشقية التي ورثها عن جده القاتل (قابيل) مؤسِّس الصراع والحروب في الأرض .

ملامح التحولات الاجتماعية في القرن العشرين :

لقد رأينا فيما قدمناه حتى الآن أن الثورات العلمية التي شهدها القرن العشرون قد غيَّرت وجه العالم وأضفت عليه سماتها الخاصة ، وكذلك فعلت الثورات الاجتماعية التي جرت خلال هذا القرن ، ولكن باتجاه آخر يختلف عن الأول كل الاختلاف ما جعل شخصية القرن العشرين تتسم بالازدواجية الغريبة ، ما بين وجه علمي مشرق ، ووجه اجتماعي مغرق في المأساوية والسوداوية .

وإذا كان التقدم العلمي والتقني خلال القرن العشرين قد جعلنا نصحو كل يوم على الجديد والغريب والعجيب ، فإن التغيُّرات الاجتماعية والسياسية التي شهدها هذا

القرن أيضًا جعلتنا في كل يوم نصحو على نقلةٍ اجتماعيةٍ أو سياسيةٍ جديدةٍ ، لا سيما وأن دورات الحضارة قد أصبحت ابتداءً من هذا القرن قصيرة جدًّا ، لا تتعدى جيلًا أو جيلين من الزمان ، على النقيض من الدورات الحضارية الغابرة التي دام بعضها آلاف السنين (انظر فصل : تاريخ الحضارة) .

ففي مطلع القرن العشرين بدأت تلوح في الأفق إرهاصات تنذر بأحداث جسام ، وكانت الأرض على موعد مع مسرحية عالمية مغرقة في دراميتها [١] ، توزعت أدوارها الرئيسة بين فرنسا وبريطانيا وألمانيا في أوروبا ، ثم اليابان التي دخلت المسرح على عجل من هناك من أقاصي الشرق فيما دخلت الولايات المتحدة من أقاصي الغرب قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٧م) ، وراحت على الفور تستعرض قدراتها المسرحية في محاولة جادة لتستأثر بدور البطولة .

وفي الوقت نفسه دخل الاتحاد السوفيتي من أعالي آسيا رافعًا راياته الحمراء باحثًا له عن دور سياسي يليق بحجم ثورته الشيوعية التي كلفته ملايين الأرواح ، أمَّا في القلب من العالم فإن (الرجل المريض) الذي تربع على عرش الخلافة العثمانية لعدة قرون كان يلفظ كلماته الأخيرة استعدادًا لمغادرة الخشبة .

إلَّا أن فصول المسرحية لم تمض إلى النهاية كما تخيلها الزعماء مؤلفو السيناريو [٢] ، فقد خرج الأبطال عن النَّص ، وحدث في الصالة جَلَبَةٌ وصَخَب ، وجاءت كارثة الحرب العالمية الثانية في أواسط القرن العشرين (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) لتخلط الأوراق بعنف ، وتُجري على الإخراج تعديلات مثيرة ، فأسندت دور البطولة للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وتركت أدوار الكومبارس [٣] ، لكلٍّ من فرنسا وبريطانيا ، فيما خرجت ألمانيا واليابان إلى الكواليس [٤] بحالة مأساوية يرثى لها ، أمَّا بقية الخلق فقد غرقوا في عتمة الصالة ، واكتفوا بدور المتفرج ، وكانوا بين الحين والآخر يعبِّرون عن إعجابهم بالتصفيق ، أو يرفعون عقيرتهم بالتنديد والاستياء .

---

(١) الدراما : المسرحية التي تنطوي على تضارب شديد في الأحداث .

(٢) السيناريو : الملاحظات التي يضعها المؤلف حول المشاهد ودور كل شخصية في المسرحية .

(٣) الكومبارس : الممثلون الذين يؤدون الأدوار الثانوية .

(٤) الكواليس : دهاليز تمتد خلف المسرح لاستراحة الممثلين وإعداد أنفسهم للدور المقبل .

ويبدو أن أصداء هذه الأحداث الصاخبة قد وصلت أخيرًا إلى النمر الصيني الذي طال انتظاره خلف الكواليس ، فقام بحذر ، يتلصص على المشهد ، ليعرف ما الذي حصل في غيابه ؟! وكذلك فَعَل العالم الإسلامي الذي هزته الأحداث المفجعة بإلغاء الخلافة ، وسقوط فلسطين ، وتقسيم الوطن العربي إلى دويلات ضعيفة متناحرة فقام يراقب المشهد باهتمام ويعيد ترتيب أوراقه استعدادًا للدور المقبل .

ومرة أخرى ، وقبل أن تُسْدَل الستارة لتختتم فصول القرن العشرين ، عاد الصخب والضجيج وعلت الأصوات في الصالة محتجة على الأداء ، وتخلل الفصل الأخير من القرن العشرين مواقف تراجيدية [1] ، جعلت المشاهدين في حيرة من أمرهم ، فقد فشل الاتحاد السوفيتي فشلًا ذريعًا في لعب دور البطولة بالرغم من محاولاته الثورية الجادة التي خَلَبَت ألبابَ (الرفاق) عشاق الثورات ، وانسحب من المسرح بأسرع مما توقع عشاقه ، وتوارى خلف الكواليس مكسور الخاطر يداري دموع الهزيمة المنكرة ، بينما عادت ألمانيا واليابان فاقتحمتا المسرح في محاولة جادة للمطالبة بدور البطولة ، فيما ظلت فرنسا وبريطانيا تراوحان بين بين .

أمّا الولايات المتحدة فيبدو أن استديوهات هوليود السينمائية [2] ، قد زودتها بخبرات متميزة مكنتها من لعب دور البطولة بجدارة حتى كادت تنفرد بأداء بقية الفصول ، لولا أن تعديلات جديدة أدخلت على السيناريو والإخراج في اللحظات الأخيرة من القرن العشرين وبزغ نجم الاتحاد الأوروبي (*European Union*) [3] ، لينازع الولايات المتحدة دور البطولة ، فيما ظلّ النمرُ الصيني يتابع المشهد من خلف الستارة ، ويعيد قراءة السيناريو بهدوء متحيّنًا الفرصة المناسبة ليعتلي الخشبة .

---

(١) التراجيديا : المسرحية المأساوية .

(٢) سبق التعريف بها .

(٣) الاتحاد الأوروبي : هو اتحاد يضم معظم الدول الأوروبية ، يضم ٢٧ دولة ، ويبلغ تعداده حوالي ٣٠٠ مليون نسمة ، تأسس بناء على معاهدة ماستريخت التي وقعت عام (١٩٩٢م) ، إلّا أن فكرته طرحت منذ خمسينات القرن العشرين ، من أهم مبادئه نقل صلاحيات الدول القومية إلى المؤسسات الدولية الأوروبية ، لكن تظل هذه المؤسسات محكومة بمقدار الصلاحيات الممنوحة من كل دولة على حدة ؛ لهذا لا يمكن اعتبار الاتحاد فيدراليًّا ؛ لأنه يتفرد بنظام سياسي فريد من نوعه في العالم ، وللاتحاد الأوروبي نشاطات عديدة ، فهو سوق موحد ، ذو عملة واحدة هي (اليورو) الذي تبنت استخدامه ١٣ دولة من دول الاتحاد ، وله سياسة زراعية مشتركة ، وسياسة صيد بحري موحدة ، وقد احتفل الاتحاد في آذار (٢٠٠٧م) بمرور خمسين عامًا على إنشائه بتوقيع اتفاقية روما .





(خارطة وعَلَم الاتحاد الأوروبي)

أمّا العالم الإسلامي الذي طال انتظاره خلف الكواليس حتى أخذته سِنة من النوم ، فقد دبَّت فيه (صحوةٌ !) مفاجئةٌ ، وتذكر أمجاده الغابرة ، وأدوار البطولة التي ظلَّ يمثلها لعدة قرون ، فقام متنفضًا ، وألقى الألواح ، وأطلَّ على المشاهدين دون استئذان ، وراح يرتجل الدور كما يريده هو ، لا كما يريده المخرِج .. وما زال العرض مستمرًّا .

أجل .. هذه هي صورة العالم كما بدت لنا ، ونحن نودع القرن العشرين وندخل رحاب القرن الجديد ، وهي كما نرى صورة حافلة بالمتناقضات ، حُبلى بالتوقعات التي تنطوي على احتمالات كثيرة سنحاول في الفصل القادم استشراف ملامحها بقدر ما يسعفنا العلم والعقل والخيال ، وأيضًا بقدر ما يموج بين جوانحنا من آمال عريضة بأن يكون مستقبل البشرية خيرًا من ماضيها ، لا سيما بعد أن تزايد الوعي العام بقضايانا المصيرية ، وتعزَّزت لدينا القناعة بضرورة الاحتكام إلى العقل والمنطق والحكمة في إدارة شؤوننا المختلفة .

***

الفَصْلُ العِشْرُونَ

على بوابة عالم جديد

- إن زهرة واحدة لا تصنع حديقة .

تحدثنا في الفصل الماضي عما حصل من تغيُّرات واسعة خلال القرن العشرين وضعت العالم أجمع على بوابة عالم جديد ، وأدخلتنا مرحلة العولمة (*Globalization*) بكل قوة ، والعولمة هي إحدى المصطلحات التي ذاعت واشتهرت كثيرًا في أواخر القرن العشرين ، على مختلف المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية ، وباتت تطلق على هذا التوجه العالمي لضم العالم تحت سقف نظام عالمي واحد ، وقد جاء هذا التوجه تتويجًا لمراحل عدة مرّت بها البشرية ، وبدأت ملامحه تتضح أكثر فأكثر في العصور الحديثة في أعقاب تطور الحداثة الأوروبية ابتداءً من القرن السادس عشر ، وقد حققت حتى الآن الكثير من التقدم العلمي والتكنولوجي والانتشار الثقافي ، وضاعفت من حجم القوى المادية المتاحة ، وأتاحت الفرصة لسيطرة رأس المال على الحياة العامة .

ويبدو لنا أن العولمة هي الوريث الشرعي للحداثة الأوروبية التي بدأت في القرن السادس عشر وأثرت تأثيرًا لا ينكر في بقية الثقافات العالمية خلال الحملات الاستعمارية التي شنتها طيلة القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، أمّا ملامح العولمة فقد بدأت بالظهور ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين بعد أن تحول مركز التأثير العالمي إلى الغرب باتجاه الولايات المتحدة التي كادت تنفرد بالقيادة السياسية والثقافية للعالم قبيل ختام القرن العشرين .

وربّما كان المظهر الاقتصادي للعولمة هو الأكثر حضورًا على الساحة ، وقد تمثل بفتح الأبواب أمام التجارة العالمية لتمرير السلع والخدمات التجارية المتنوعة ما ضاعف حجم التجارة العالمية ، وحرية انتقال رأس المال عبر الدول بحماية الاتفاقيات الدولية ما ساعد على تضخم الثروات واتساع النشاط الاقتصادي ، إلى جانب التكنولوجيا المتطورة التي ساعدت على سرعة ووفرة الإنتاج وبلوغ مواصفات عالية أصبحت أقدر على المنافسة والسيطرة على الأسواق العالمية ، بالإضافة إلى قيام الشركات العملاقة متعددة الجنسيات التي تجاوزت حدود الدول وعبَرت القارات ، وتجاوزت قدراتها ميزانيات بعض الدول ، وراحت تتوجه نحو التكتل من أجل مضاعفة إمكانياتها التجارية ، وإحكام قبضتها على السوق .

وفي الواقع فإن العولمة ليست اقتصادية فحسب ، وإنَّما هي ثقافيةٌ أيضًا ، فالسلع التجارية لا تصل إلينا بريئة من الأفكار التي صنعتها ، كما أن وسائل الاتصال الحديثة جعلت الأفكار تنتقل عبر القارات بلمح البصر لتغير الكثير من المفاهيم والعادات والتقاليد لدى مختلف الشعوب والمجتمعات والأمم ، وهذا ما يضع الثقافات القديمة على اختلافها في امتحان صعب ؛ لأنها لم تعد قادرة على إغلاق أبوابها في وجه هذا التحول العالمي نحو العولمة كما كانت تصنع في الماضي لحماية نفسها من الثقافات الوافدة ، بل بات لزامًا عليها التفاعل مع هذه الثقافات مهما وجدت فيها من تعارض أو تضاد .

ومع تسليمنا بالمخاوف والمحاذير الكثيرة التي تنطوي عليها العولمة بمعطياتها الاقتصادية والثقافية ، ومع تعاظم المخاطر من أن تستغل العولمة من قِبَلِ بعض الدول الكبرى لفرض سيطرتها وهيمنتها على العالم من خلال الشركات العملاقة ، فإننا في الوقت نفسه ندعو للتعامل الرشيد الواعي مع هذه الظاهرة ، لا سيما وأنها أصبحت واقعًا فعليًّا على الساحة العالمية ، وهي مع كل السلبيات التي تقال فيها فإنها لا تخلو من بعض الإيجابيات (فقد فتحت العولمة آفاقًا إيجابية ، وميادين للتنافس ، ويسرت وسائل للوصول إلى (الآخر) ومكنت من فتح آفاق ومجالات للحوار ، وقدمت فرصًا وإمكانات سوف تخرج الكثير من الأمم الراكدة من رقدتها ، وتسهم بحراكها واستفزازها وتحريضها ، وتمكنها من الاستجابة للتحدي والنهوض ، إمَّا بشكلٍ مستقلٍّ ، أو من خلال الدخول في دوائر مجتمعات العولمة وإثبات الوجود بعقيدتها وثقافتها .. والعولمة يمكن أن تعتبر من بعض الوجوه محرضًا حضاريًّا ومنبهًا للحماية الثقافية ، والتشبث بالذات ، وتحقيق الاندماج في العولمة بعيدًا عن الذوبان ، وتأكيدًا لسنة المدافعة الحضارية ، وإثرائها بالتنوع .. وعلى أية حال فلعلَّنا نبصر في ظاهرة العولمة وفلسفتها ومنتجاتها وأدواتها ووسائلها التقنية فرصة أو لحظة تاريخية أصبحت واقعًا يحيط بحركتنا على الأصعدة المختلفة ، ولم يدع لنا خيارًا للقبول أو الرفض ، فكيف نحسن قراءتها ، ونعرف كيف نتعامل معها ؟ بل وندرك دوائر الخير ، والجوانب الإيجابية ، فنعرف كيف نوظفها ونفيد منها)[1] .

وهذا لا يعني الرضوخ لسياسة الأمر الواقع ، بمقدار ما يعني النظر إلى الواقع بعيونٍ فاحصةٍ ، وبصيرةٍ نافذةٍ وعقل متفتح قادر على تمييز الحق من الباطل ، والاستفادة مما عند

---

(١) د. بركات محمد مراد : ظاهرة العولمة ، رؤية نقدية ، (ص ٤٥) .

الآخرين من خير ، ورفض ما دون ذلك ، لا سيما وأن الثقافة التي تنطوي عليها العولمة المعاصرة تختلف عن بقية الثقافات التي عرفتها البشرية على مدار تاريخها ؛ فالعولمة تنطوي على مفاهيم عالمية يمكن أن تشكل أرضية مشتركة للحوار والتفاعل بين الثقافات الراهنة ، بما تنادي به العولمة من ضرورة القبول بالآخر مهما كان بيننا وبينه من اختلافات ، وتدعو للتسامح ، والتعددية ، وحرية الفكر ، مما يمنح العولمة قدرة كبيرة على التأثير ، بينما لم تستطع أي من الحضارات الغابرة التي ادعت إيمانها بهذه القيم أن تجعل هذه القيم واقعًا حقيقيًّا تتعامل من خلاله مع الآخرين ، ولم تستطع أي من تلك الحضارات أن تتقبل الآخر بالصورة المنفتحة على مداها كما هو حال العولمة المعاصرة ، بل ظلّ كل منها يحيط نفسه بسياج شائك من الأفكار والمعتقدات عزلها بدرجة أو بأخرى عن الآخر ، وأدّى بها في النهاية إلى الانحسار ثم الغياب عن الساحة ، بينما نتوقع أن تشكل العولمة المعاصرة نقلة نوعية في التاريخ البشري تنتهي لأول مرة في التاريخ بتشكيل حضارة ذات صبغة عالميّة تتماشى مع الوصايا الأساسية التي نادت بها مختلف الأديان على مر العصور ، ولا سيما منها حرمة الروح الإنسانية ، ومراعاة حقوق الإنسان ، وتسيير المجتمع بواسطة ممثلين حقيقيين منتخبين انتخابًا حرًّا وفق قواعد الشورى (أو الديمقراطية) ، وفتح الباب للحوار وحرية الفكر والمعتقد ، ومن الجدير بالملاحظة أن هذه المفاهيم التي اختلف الناس عليها كثيرًا فيما مضى قد أصبحت اليوم مطلب غالبية البشر في مختلف بقاع الأرض ، وهذا ما ينقلنا من الحديث عن العولمة إلى الحديث عن (العالَمية) .

وفي سبيل تحقيق هذه النقلة الجديدة نحو العالمية (*Universality*) ، وابتداءً من أوائل التسعينيات من القرن العشرين ، بدأت بالفعل تتعالى الدعوات في الساحة الدولية لتوحيد العالم على مفاهيم وقيم وقوانين تنزع نحو العالمية ، وليس العولمة ، وتدعو إلى قيام (نظام عالمي جديد) يستهدف التقريب بين البشر ، وتوحيد جهودهم لحلّ المشكلات الكثيرة التي باتت تهدد كوكبنا الجميل بأخطار عديدة ، في محاولة جادة لتحقيق تلك الأحلام الوردية التي ظلت تداعب جفون البشر على مدار تاريخهم الطويل المثخن بجراح التفرق والتمزق واستعباد بعضهم لبعضهم ، والموسوم بالصراع على الأرض والثروة والزعامة !

وكما هي حال مختلف الدعوات المماثلة عبر التاريخ فقد أصبح لهذه الدعوة إلى (نظام عالمي جديد) مؤيِّدون متحمِّسون أخذوا يروجون لها بشتى الوسائل ، وكان لها

بالمقابل معارضون كثيرون راحوا يفنِّدون دوافعها المعلنة وغير المعلنة ، ويحذِّرون من مآلاتها الخطيرة التي يرون أنها سوف تجرُّ العالم أجمع إلى كوارث ونزاعات ومشكلات عالمية لا حصر لها قد تنتهي بتدميرٍ شاملٍ لكل ما حققته البشرية حتى اليوم من مكاسب حضارية .

وقد ضاعف من حجم المعارضة الحادة للنظام العالمي الجديد أن الدعوة لقيامه جاءت هذه المرة من قِبَلِ المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة التي لم يعد يخفى على أحد أطماعها وأطماع حلفائها من أجل فرض الهيمنة التامة على العالم ، لا سيما بعد سقوط المعسكر الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفيتي في أوائل التسعينيات من القرن العشرين ، وانفراد الولايات المتحدة بقيادة المعسكر الرأسمالي الغربي (حتى ليبدو الأمر وكأنه أمركة للعالم ، وفرض للذوق الغربي عليه) [1] ، ولهذا راح معظم الباحثين ينظرون إلى العولمة على أنها قادمة بالفعل من أمريكا ، وأنها ليست سوى واحدة من تلك البضائع الموسومة بعبارة : صُنع في أمريكا (Made in USA) ، وكأن الهدف الأول والأخير من العولمة أن يصبح العالم كله شبيهًا بأمريكا خيرًا وشرًّا [2] .

ولا نريد هنا أن نخوض في الجدال الساخن حول مفهوم العولمة ، ولا حول هذا (النظام العالمي الجديد) الذي يدعون إليه ، ولا نريد كذلك أن نفنِّد أهدافه ومراميه وأبعاده السياسية وغير السياسية ، القريبة والبعيدة ، فليس هناك من دعوة تخلو من مثل هذه الأهداف والمرامي والأبعاد مهما ادَّعت لنفسها النزاهة والعصمة والبراءة والطهر ، بل نكتفي في إطار هذه القراءة الشاملة لتاريخ الوجود أن نشير إلى موقف الإسلام من هذا التوجه ؛ فنقول : إن التوجه نحو (العالمية) هو مقصد أساسي من مقاصد الإسلام كما جاء في العديد من نصوص الكتاب والسنة التي تذكر بأن أصل البشر واحد ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقول النبي ﷺ في آخر خطبة خطبها في الناس قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى : « يا أيها الناس ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ ، وإنَّ أباكم واحدٌ ، ألا لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ ، ولا عجميٍّ على عربيٍّ ، ولا لأحمرَ على أسودَ ، ولا أسودَ على أحمرَ ، إلَّا بالتقوى » [3] .

---

(١) أحمد شهاب : نحو تناول علمي لمفهوم العولمة ، مجلة الكلمة ، العدد ٢٥ ، (ص ٥٥) ، عام (١٩٩٩م) .

(٢) انظر كتاب ميشيل كلوغ (عولمة أمريكا) مجلة الثقافة العالمية ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، (نوفمبر ٢٠٠٠م) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٣٩١) ، من حديث أبي هريرة ﷺ .

فالإسلام يقرر صراحة أن أصل البشر واحد ، وأنهم يشكلون معًا أسرة واحدة ، وليس تفرقهم في دول وجماعات وشعوب وقبائل ، واختلاف بعضهم عن بعض ، إلّا من أجل التعارف والتعاون والتفاعل ، وهم في ميزان الإسلام متساوون ابتداءً بالكرامة الإنسانية ، فلا يجوز التمييز بينهم لأي سبب كان ، أمّا التمييز بالتقوى الذي ورد في النصوص السابقة فهو أمرٌ غيبيٌّ لا يعلمه إلّا خالقهم سبحانه ، وهو سبحانه صاحب الحق في محاسبتهم عليه ، وهذه مسألة دقيقة جدًّا تحتاج إلى الكثير من التأمل وبُعد النظر ، ولا سيما من قبل أولئك الذين يتذرعون بنصوص أخرى لتمييز أنفسهم عن الآخرين ، والادعاء بأنهم هم دون سائر البشر (شعب الله المختار) أو (المُخلَّصين) أو (الطائفة الناجية) ، وقد أدى مثل هذا الخلط بين النصوص في مناسبات عديدة إلى معارك مفتعلة ما بين النصوص وبين الواقع ، وأظهر الإسلام على غير حقيقته ، وجرَّده من أخصّ خصائصه ألا وهي نزعته نحو (العالمية) التي قال الله تعالى عنها مخاطبًا رسوله الكريم ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨] ، وقال عن كتاب الرسالة الخاتمة : ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [ص : ٨٧] .

وإنه لمن المؤسف حقًّا أن نتجاهل أو نتناسى ـ نحن المسلمين ـ هذه الخاصية الأساسية في الإسلام ، وأن نحوِّل ديننا العالمي إلى دين طوائف وفِرَق وجماعات وأحزاب ، وأن نَدَع الآخرين يسبقوننا للدعوة إلى لَمِّ شمل العالم تحت سقف (نظام عالمي جديد) قد يقودنا إلى متاهات لا أول لها ولا آخر إذا ما استسلمنا لقوته العاتية ، بل قد يأتي علينا يوم نمسي فيه عاجزين تمامًا عن الفكاك من أسر هذا النظام ، ونجد أنفسنا مرغمين على الرضوخ لمتطلباته مهما كانت مخالفة لديننا وأعرافنا وتقاليدنا (تراه لم يأتِ هذا اليوم بعد !؟) علمًا بأن في النصوص المؤسسة للإسلام من الرحابة والقدرة على التفاعل مع تبدل الأحوال والأزمان ما يوفر لنا قدرةً هائلةً على الانخراط الخلاق مع روح العصر الجديد ، كما أن هذه النصوص يمكن أن تضفي على النظام الجديد روحًا إنسانية نبيلة بات في أمسِّ الحاجة إليها بعد أن كادت موجة التجارة والربح السريع والاستهلاك تطغى عليه وتحرفه عن خطه الصحيح لتدخله في النفق المظلم الذي لا يدري أحد منتهاه .

النظام العالمي الجديد :

من خلال تأملاته العميقة في التاريخ وما وصلت إليه البشرية حتى أواخر القرن التاسع عشر ، كتب (ماكيندر) وهو أحد رواد الجغرافيا السياسية (*Political Geography*) :

(من الآن فصاعدًا ، بعد أن ولى عصر كولومبوس ، بات علينا أن نتعامل مع نظام سياسي مُحْكَم ، يتَّسم بنظرة شمولية تغطي الكرة الأرضية كلها ، ذلك أن كل إرهاصة للقوى الاجتماعية ، في أي ركن من أركان المعمورة ، لن يقتصر صداها على مدار محيط نقطة انفجارها ، وإنَّما سوف يتجاوزها إلى أقاصي الأرض)[1] .

وقد تأكدت هذه النظرة للتحولات السياسية والاجتماعية في العالم خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين تحت وطأة التحولات الواسعة التي عرضنا بعض ملامحها فيما مضى من فصول هذا الكتاب ، ولا سيما منها ذلك التأثير القوي لوسائل الاتصال والمواصلات التي قرَّبت دول العالم بعضها من بعض حتى كادت الحدود فيما بينها تمحي ، مما حوَّل كوكبنا إلى قرية صغيرة بات يتأثر أقصاها بما يحدث في أدناها بسرعة البرق ، وهذا ما أسبغ على المشكلات البشرية صبغة العالمية ، وأظهر الحاجة الماسة للمزيد من التعاون والتنسيق بين البشر من أجل صياغة نظام عالمي جديد ينظم علاقات الدول والمجتمعات والأمم بعضها مع بعض على ضوء هذه التحولات ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن تتم الصياغة المطلوبة بالتفاهم والتراضي ، دون قهر ولا قسر ولا طمس للهويات ، ودون تجاهل لخصوصيات كل أمة من أمم الأرض ، على الأقل في العصر الراهن ؛ لأننا نتوقع أن هذه الخصوصيات لن تلبث أن تتلاشى في غضون قرن من الزمان ، وربما أقل ، ليصبح المجتمع البشري أكثر انسجامًا وتشابهًا .

وإن المتتبع لمسيرة التاريخ البشري ليدرك دون عناءٍ أن العناية الإلهية قد قدَّرت أن يكون بين البشر شيء من الاختلاف لكي تتكامل أعضاء الأسرة البشرية كما تتكامل أعضاء الجنين في بطن أمه ليخرج آخر المطاف خلقًا سويًّا قابلًا للحياة ، وعلى هذه الشاكلة جرى تطور للمجتمع البشري الذي بدأ برجل وامرأة ، ثم بثَّ الله منهما رجالًا كثيرًا ونساءً ، فتشكلت الأسر الصغيرة ، ثم العائلات الكبيرة فالعشائر فالقبائل فالأمم ، وتبع ذلك تكوين الدول ، وتأسيس الممالك والإمبراطوريات ، وقد شاءت عناية الله ﷻ أن يسير المجتمع البشري عبر هذه الطريق الطويلة من التطور لكي تتكامل أعضاؤه ويصبح قادرًا على القيام بأمانة الاستخلاف في هذا الوجود .

---

[1] بيتر تيلور ، كولن فلنت : الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر ، (ص ٢١) .

وكما أن تكامل أعضاء الجنين ضروري لحياته ، فإن تكامل أعضاء الأسرة الدولية ضروري أيضًا لاستقرارها وقيامها بمسؤولياتها ، وهذا ما ينبغي أن يكون حاضرًا بصورة خاصة في أذهان الذين يحاولون اليوم صياغة (نظام عالمي جديد) فعلى هؤلاء أن يعوا جيدًا أن الأسرة الدولية اليوم أحوج من أي يوم مضى لأن يُعَبِّر كلٌّ منها عن انتمائه الإنساني ، ليس من خلال الاعتقاد بأنه وحده القادر عن تحقيق المستقبل المنشود للبشرية ، بل من خلال الاعتقاد بأن هذا المستقبل لا يمكن أن يتحقق إلَّا بتعاون أعضاء الأسرة الدولية بعضهم مع بعض كما تتعاون الأعضاء في تكوين الجنين ، وكما لا يسوغ لأي عضو من أعضاء الجسد أن يدعي أنه قادر وحده على تكوين الجنين حتى وإن كان هو أشرف الأعضاء ؛ كالقلب أو الدماغ ، فليس لأي عضوٍ من أعضاء الأسرة الدولية بالمقابل أن يدَّعي قدرته وحده على القيام بأمانة الاستخلاف في الأرض مهما بلغ من الغنى أو العلم أو القوة .

وبالرغم مما يعتري فكرة (النظام العالمي الجديد) من احتمالات غير سارة ، كأن يستغلها بعضهم للسيطرة على العالم تحت هذا الشعار البراق ، ومع تسليمنا بأن الوضع الدولي الراهن ليس هو الوضع الأسمى الذي تتوق إليه البشرية المحبة للعدل والسلام ، فإننا نعتقد بأن ما أنجزته البشرية حتى الآن في سبيل صياغة قانونها الدولي يمثل تطورًا مهمًا في تاريخ الاجتماع البشري ، ونعتقد أيضًا أن البشرية لن تلبث طويلًا حتى تستكمل النقص الحاصل حاليًا في تجربتها هذه ، وبخاصة بعد أن أقيمت في أنحاء متعددة من العالم عشرات الهيئات والمنظمات والمؤسسات العالمية التي تهتم بالقضايا الإنسانية ، وبعد أن أصبح لهذه الهيئات والمنظمات والمؤسسات تأثير قوي في تشكيل رأي عام عالمي يؤمن بضرورة التقارب بين الأمم ، ويؤمن بأهمية العدل والسلام في الاستقرار الاجتماعي والسياسي في العالم ، وقد بلغ هذا الرأي اليوم درجة مؤثرة لا يستطيع أن يتجاهلها أي نظام من الأنظمة السياسية القائمة في شتى أنحاء العالم مهما بالغ هذا النظام في ممارسة طغيانه وجبروته .

وأغلب الظن أن المواقف السلبية التي يقفها بعضهم من التغيرات التي طرأت على الدنيا خلال العقود القليلة الماضية تعود إلى حالة عدم الفعالية التي يعيشها هؤلاء ، ما يجعلهم في شكٍّ دائم مما يحدث حولهم حتى وإن كان في صالحهم ، وأعتقد أنه لو كان لهؤلاء مواقف فعالة فيما يجري حولهم لتبدلت مواقفهم ، وانتفى شكهم ، ولكانوا أعضاء

فاعلين في تصحيح المسار ، والتفاعل الخلاق مع روح العالم الجديد ، والمشاركة الفعالة في صياغة نظام عالمي ينفع البلاد والعباد ، فهل هم فاعلون .

تشكيل العالم الجديد :

وإن مما يضاعف مخاطر المرحلة المقبلة علينا نحن المسلمين خاصةً ، وعلى العالم عامةً ، أن الدعوة لإقامة نظام عالمي جديد لم تعد مجرد أحلام ، أو أمنيات ، أو اقتراحات معروضة للقبول أو الرفض أو المناقشة ، بل كاد هذا النظام العالمي أن يصبح واقعًا ملموسًا ، بعد أن وضعت من أجله العديد من المعاهدات والاتفاقيات الدولية التي وقّعتها معظم دول العالم راضية أو مضطرة أو مكرهة ، وبعد أن تأسست منظمات وهيئات ومؤسسات عالمية ذات سطوة قوية تنطق باسمه ، وتعمل جاهدة للإمساك بالخيوط كلها .

وقد تأكد هذا التوجه الحثيث لإقامة نظام عالمي جديد في العام (١٩٨٩م) في أعقاب الأحداث الكبيرة التي انتهت بإسدال الستارة على (الحرب الباردة) بين المعسكرين الغربي والشرقي ، ففي ذلك العام برزت على الساحة الدولية فكرة تشكيل (لجنة لإدارة شؤون المجتمع العالمي) [(١)] ، بمبادرة من مستشار ألمانيا الغربية السابق (فيلي برانت) [(٢)] ، الذي عبر عن شعوره حينذاك بأن العالم قد أضحى على أعتاب عهد جديد ، ودعا في حينها أعضاء لجنته المعنية بقضايا التنمية العالمية لاجتماع موسع عُقد في ألمانيا مع مختصين آخرين عملوا في لجان أخرى ذات علاقة بالموضوع مثل (لجنة أولف بالم) المعنية بالأمن ونزع السلاح ، و (لجنة غروهارلم بروتلند) المعنية بالبيئة والتنمية ، و (لجنة الجنوب) التي ترأسها الرئيس الأفريقي السابق جوليوس نيريري ، وقد أفضت أعمال هذه اللجان لعقد اجتماع في السويد عام (١٩٩١م) قدمت فيه وثيقة مهمة صدرت بعنوان (المسؤولية المشتركة في التسعينات : مبادرة ستوكهولم حول الأمن العالمي ، وإدارة شؤون المجتمع

---

(١) انظر : جيران في عالم واحد ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (٢٠١) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت (١٩٩٥م).

(٢) فيلي برانت (١٩١٣ - ١٩٩٢م) : سياسي ألماني ، عضو الحزب الديمقراطي الاجتماعي ، تولى منصب مستشار ألمانيا بين عامي (١٩٦٩ ـ ١٩٧٤م) حصل على جائزة نوبل للسلام عام(١٩٧١م) ؛ تقديرًا لسياسته نحو الشرق التي عمل فيها على تخفيف حدة التوتر ، والاحترام المتبادل مع دول أوروبا الشرقية ، وأطلق عليها (سياسة الخطوة خطوة) ، وكانت عاملًا مهمًّا في انعقاد مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا(KSZE) .

العالمي) وكانت بمثابة الولادة الرسمية لتشكيل (لجنة إدارة شؤون المجتمع) التي ترأسها رئيسان مناوبان ، وأمين عام ، و ٢٦ عضوًا من مختلف قارات العالم .

وخلال السنوات التالية ، وبعد اجتماعات ومداولات مطولة بدأت شيئًا فشيئًا تتبلور رؤية مشتركة للطريق الذي ينبغي للعالم أن يمضي فيه لتدبير رحلة آمنة إلى رحاب القرن الحادي والعشرين وفق رؤية مفادها (أن نشوء إدارة لشؤون المجتمع العالمي هو جزء من تطور الجهود الإنسانية لتنظيم الحياة على هذا الكوكب ، وأن تعبير : إدارة شؤون المجتمع العالمي ، لا يعني إقامة حكومة للعالم ، ويجب ألّا يحدث سوء فهم من جراء التشابه بين التعبيرين ، فنحن لا نقترح تحركًا نحو إقامة حكومة عالمية ؛ لأننا لو سرنا في هذا الاتجاه فقد نجد أنفسنا في عالمٍ أقل ديمقراطية حتى من عالم اليوم ، عالم أكثر مسايرة للسلطة ، وأكثر ترحيبًا بمطامع الهيمنة ، وأكثر تدعيمًا لأدوار الدول والحكومات منه لحقوق الشعوب) .

وقد نوّهت اللجنة بأن تقريرها هذا ليس دليل عمل للشؤون العالمية ، بل هو دعوة للعمل تمليها المرحلة الحرجة التي وصل إليها العالم الذي بات على أعتاب قرن جديد حافل بالمفاجآت ، وقد بذلت اللجنة جهدًا واضحًا لتحديد ما ينبغي عمله في المرحلة القادمة من أجل تحسين الطريقة التي يدير بها مجتمعنا البشري شؤونه المختلفة ، ولا سيما كيفية إدارة الاعتماد المتبادل بين الدول في الميدان الاقتصادي ، وإصلاح الأمم المتحدة بطريقة تسمح بمشاركة أوسع من قبل شعوب الأرض قاطبة عبر منظمات المجتمع المدني ، وقد أكدت اللجنة مرارًا على الحاجة الملحّة لترسيخ مبدأ (سيادة القانون) ليشمل الساحة العالمية انطلاقًا من الدور الحضاري الذي أداه هذا المبدأ في حياة البشر عبر التاريخ ، ومن أبرز المقترحات والتوصيات والنتائج التي انتهت إليها اللجنة :

أ ـ أن إدارة شؤون المجتمع العالمي التي كان ينظر إليها في الماضي على أنها أمر يتعلق بالعلاقات الحكومية الدولية في المحل الأول ، لم تعد تقتصر على الحكومات والمؤسسات الحكومية فحسب ، بل أصبحت تشمل المنظّمات غير الحكومية وحركات المواطنين ، والشركات عبر القومية ، والدوائر الأكاديمية ، ووسائل الإعلام ، ما يقوي الإحساس بالتضامن الإنساني ويزيد قدرة الناس واستعدادهم للسيطرة على شؤون حياتهم ، ومع أن الدول تظل هي القوى الفاعلة الأساسية إلّا أن عليها العمل مع الآخرين ليكون العمل أكثر فاعلية ، وينطبق هذا على الأمم المتحدة التي تتزايد مسؤولياتها يومًا بعد يوم ، ولكنها أيضًا لا تستطيع وحدها أن تقوم بكل شيء ، ولذا تدعو اللجنة إلى التزام مشترك بالقيم

الأساسية التي تستطيع البشرية كلها أن تتبناها ومنها : احترام حق الحياة ، والحرية ، والعدل والإنصاف ، والاحترام المتبادل ، ومراعاة الغير ، والنزاهة .

ب ـ ومع أن مبدأ السيادة هو حَجَرُ الزاوية في النظام العالمي القائم اليوم فإن مفاهيم الإقليمية والاستقلال وعدم التدخل قد فقدت بعض معناها ، وأصبح من اللازم ممارسة السيادة بصورة جماعية ، وينبغي تطويع مبدأ السيادة وعدم التدخل بطريقة توازن بين حقوق الدول وحقوق الشعوب ، وبين مصالح الدول ومصالح العالم ، وبناءً على هذه النظرة بحثت اللجنة أربعة مجالات محددة لإدارة الشؤون العالمية ، هي : الأمن ، والاعتماد المتبادل في الميدان الاقتصادي ، والأمم المتحدة ، وسيادة القانون .

جـ ـ تعترف اللجنة أن نجاح مقترحاتها وتوصياتها حول إدارة شؤون المجتمع العالمي تتوقف على وجود قيادة رفيعة الطراز على كل المستويات داخل المجتمعات وفيما وراءها ، وتعبر اللجنة عن قلقها لافتقار العالم اليوم إلى قيادة تحظى بالمصداقية على الأصعدة الوطنية والإقليمية والدولية وداخل المجتمعات وفي المنظمات الدولية وفي الحكومات والهيئات غير الحكومية ، تلك القيادة التي يؤمل منها ألَّا تكتفي بردود الأفعال وأداء وظائفها الروتينية فحسب ، بل تتطلع للأجيال المقبلة ، وتستمد قوتها من نفاذ البصيرة إلى المستقبل والأخلاق الفاضلة ، وليس من التفكير بالانتخابات المقبلة .

د ـ وقد نوهت اللجنة في ختام توصياتها بالدور الكبير للقطاع غير الحكومي في عملية التغيير ، هذا الدور الذي يمكن أن يتفوق به على الحكومات ؛ لأن هذا القطاع هو الأداة الأساسية للتغيير ، مع التذكير بأن دفع الحكومات للتغيير ممكن إذا طالب الناس به .

وهذا في رأينا صحيح ، فالتغيير الحقيقي يبدأ دومًا من الإنسان ، من داخل نفسه وضميره وتفكيره وشعوره ، كما عبَّر عن ذلك قول الحق تبارك تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، فلن يتغير حال عالمنا إلَّا أن نغير ما بأنفسنا ، وأن نعزم أمرنا على تغيير ما حولنا ، وعندئذ سوف يتحقق حلمنا المنشود بعالم واحد تسوده روح المحبة والحرية والعدالة والمساواة والسلام .

● ● ●

الفصل الحادي والعشرون

آفاق المستقبل

• يُروى عن الفيلسوف محمد إقبال أنه كان يقول في مناجاته : يا ربِّ إن هذا الكون الذي صنعته لم يعجبني ؟! فكان الجواب : يا إقبال ، اهدمْهُ وابْنِ أفضلَ منهُ .

• لقد درس الإنسان الماضي ليلقي الضوء على الحاضر ، ولكنني قلبت مرآة الزمن ، مقتنعًا بأن صورة واضحة للمستقبل يمكن أيضًا أن تمدَّ حاضرنا بالعديد من البصائر التي لا غنى عنها ؛ لأننا سنواجه مصاعب متزايدة في فهم مشكلاتنا الشخصية والعامة ، إذا لم نستعن بالمستقبل أداة للفهم والإدراك .

ألفين توفلر (صدمة المستقبل)

• إن عالمًا جُرِّد من الحدس والتوقُّع لَهُوَ عالَم كئيب بارد .

الأديب برتولد بريخت

لقد حاولنا خلال الفصول الماضية أن نقرأ صفحات الوجود عبر الزمن الماضي ، حتى وصل بنا المطاف إلى اللحظة الراهنة ، ولكي تكتمل قراءتنا لصورة هذا الوجود دعونا الآن نمد أبصارنا نحو المستقبل لكي نستشرف آفاقه القادمة ، ونرى إلامَ سينتهي المسير بهذا الوجود .. بعد عمر طويل .

استشراف المستقبل :

ولكن دعونا منذ البداية نعترف بالحقيقة التالية ، وهي أن محاولتنا لاستشراف المستقبل ليست بالأمر اليسير كما قد يتبادر للذهن في الوهلة الأولى ؛ لأن هذه المحاولة تتطلب درجة عالية من بُعد النظر ، وفهمًا صحيحًا للسنن الإلهية التي تُنَظِّمُ مسيرة هذا الوجود ، وخبرة واسعة بمنحنيات التغير والتحول والصعود والهبوط في شتى حقول المعرفة والأنشطة البشرية ، وإلَّا كان استشرافنا للمستقبل ضربًا من الظن ، أو التخمين ، أو الرجم بالغيب .

وينبغي أن يكون واضحًا لنا منذ البداية أيضًا أننا حتى وإن أعددنا لهذه المحاولة كل ما في حوزتنا من خبرة ومعرفة وبُعد نظر فإن استشراف المستقبل - حتى القريب منه - يظل محفوفًا بقدرٍ كبير من المجازفة ، ويظل استشرافنا أقرب إلى الظن منه إلى اليقين ، وإن اختلفت

درجات الظن واليقين من حالة لأخرى ، وصدق الله العظيم الذي يشير إلى هذا القصور الذي سيبقى ملازمًا للعلم البشري حتى آخر الزمان مهما بلغ شأوه فيقول تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، لا سيما في ظلّ الحقيقة الإلهية التي تقرر أن معرفة الغيب معرفة يقينية ليست من شأن البشر : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، بل هو من شأن الخالق ﷻ الذي استأثر وحده بمعرفة الغيب ، ومنه معرفة المستقبل ، معرفة عيانية تامة لا يشوبها نقص ولا قصور ، وهو سبحانه الذي لا تخفى عنه خافية : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام : ٥٩] .

وبصرف النظر عن أي مدى يمكننا فيه مطالعة المستقبل فسوف تكون هناك دائمًا أشياء جديدة تحدث ، ومعلومات جديدة تأتي ، وعوالم جديدة تستكشف ، ومجالات حياة آخذة دائمًا بالتوسع [1] ، إلى جانب أننا مهما حاولنا الفكاك من حاضرنا والنظر إلى المستقبل بعيون محايدة ، فإننا نظل محكومين بالتجارب التي خضناها ، والخبرات التي تراكمت في وعينا الفردي والجماعي والتاريخي ، ومن العسير علينا أن نتوقع أو نتخيل عالمًا آخر لا تكون مكوناته شبيهة أو متولدة من مخزون تجاربنا وخبراتنا السابقة ؛ ولهذا نجد أن أكثر روايات وأفلام الخيال العلمي التي حاولت أن تتخيل شكلًا آخر للحياة والأحياء على كواكب أخرى غير كوكبنا لم تستطع أن تنفك عن تصوُّر حياة شبيهة بحياة البشر المألوفة ، وكلُّ ما استطاع الخيال البشري التلاعب به هو أشكال أولئك الأفراد الذين يفترض أنهم يعيشون على تلك الكواكب ، وطريقة كلامهم وتصرفاتهم ، أو مدى تقدمهم العلمي ، أو وداعتهم ، أو وحشيتهم ، وكل ذلك لا يخرج عن إطار الخبرة البشرية المألوفة التي نحياها نحن البشر على سطح الأرض [2] .

ويقدّم لنا التاريخ أدلة عديدة دامغة على هذا القصور البشري لاستشراف المستقبل ، نذكر منها بعض المفارقات الطريفة العجيبة التي سجلها التاريخ لأناسٍ ليسوا جهلة ، بل علماء وخبراء على أعلى درجات العلم والخبرة والمعرفة ، حاولوا استشراف المستقبل ، حتى القريب منه ، ولكنهم فشلوا بالمحاولة فشلًا ذريعًا [3] :

---

(١) فريمان دايسون : اللانهاية في كل الاتجاهات .

(٢) Jonathan Marjelius: "*A Prief History of Tomorrow*" Bloomspry, London, (2001).

(٣) انظر : كتاب ألفين توفلر (صدمة المستقبل) فصل (إنكار التغير) ، (ص ٢٢٤) وما بعدها .

• ففي عام (١٨٦٥م) كتب أحد المحررين في جريدة يومية في الولايات المتحدة يقول : (إن أناسًا من ذوي المعرفة يعلمون جيدًا أن من المستحيل نقل الأصوات عبر الأسلاك ، وحتى لو كان ذلك ممكنًا فسوف يكون شيئًا لا قيمة عملية له) ولم تكد تمضي عشر سنوات على هذا التصريح حتى خرج الهاتف من مختبر (ألكسندر غراهام بيل)[1] ، ليغير وجه الدنيا .



(المخترع الأمريكي ألكسندر غراهام بل)

• وفي عام (١٩٠٩م) في أعقاب ظهور النماذج الأولى من الطائرات وطرح فكرة نقل المسافرين والبضائع بالطائرات استهزأ موظفو الجمارك البريطانيون من هذه الفكرة قائلين : (يجب إهمال هذه التَّخَرُّصات تمامًا ؛ لأنها لو حدثت فإن معناها إغلاق مكاتب الجمارك وإقفال الدائرة برمَّتها) ، ولكن لم تمض سنوات قليلة حتى تحققت تلك (التخرصات) وبدأ البشر يتنقلون بالطائرات عبر المدن والدول والقارات ، واليوم يتجاوز حجم أسطول الطيران التجاري ١١٤٠٠ طائرة ، وينفذ سنويًّا ١٦ مليون رحلة ، تنقل ١,٤ مليار مسافر ، و ٤١ مليون طن من الشحنات ، قاطعة مسافة ٢٢ مليار كلم خلال ٣٥ مليون ساعة طيران[2] .

(١) ألكسندر غراهام بيل (١٨٤٧ ـ ١٩٢٢م) : عالم أمريكي ، اخترع الهاتف في عام (١٨٧٦م) ، والمخترع للصوت الضوئي (الفونوفون) الذي يرسل الصوت عبر الأشعة الضوئية ، أسس شركة بيل للهاتف عام (١٨٧٧م) ، ومجلة العلوم الأمريكية عام (١٨٨٠م) التي ما زالت تصدر إلى الآن من قبل الجمعية الأمريكية للعلوم وهي تعد من أهم المجلات العلمية في العالم .

(٢) الخطوط العربية السعودية : مجلة أهلًا وسهلًا ، (ص٣٢) ، مقالة د. عبد الله الجهني (الاحتفال بمئوية الطيران) .

• وفي عام (١٩٢٠م) في الولايات المتحدة قدّم مسؤول مكتب براءات الاختراع تشارلز ديول اقتراحات ملحّة لإقفال الباب أمام منح براءات اختراع جديدة بحجة أن كل ما يمكن اختراعه قد تم اختراعه فعلًا .. ترى كم سيضحك على نفسه ذلك المدير العبقري لو عاد اليوم إلى الحياة ليرى هذا العدد الهائل من المخترعات التي أنجزت منذ تصريحه العجيب وحتى الآن؟! بل كم سيعجب من سطحية خياله حين يعلم أن الولايات المتحدة وحدها في أواخر القرن العشرين أصبحت تسجل (١٥٠,٠٠٠ اختراع/ سنويًّا)[1] ، أي بمعدل (٤٠٠ اختراع / يوميًّا) على أقل تقدير .

• وفي عام (١٩٣٣م) صرح عالم الذّرّة البريطاني الشهير (رذفورد)[2] قائلًا : (إن الطاقة المخزونة داخل نواة الذرة لن يتاح لها مطلقًا أن تخرج من عقالها) ، ولكن بعد تسع سنوات فقط حدَث ما ظنّ هذا العالِمُ الفذُّ أنه لن يحدث مطلقًا ، ونجح العلماء بتفتيت الذرة ، وبعد ثلاث سنوات أخرى (عام ١٩٤٥م) فجّروا أول قنبلة ذرية في التاريخ .



(عالم الذرة البريطاني رذرفورد)

• وإلى وقت قريب ظل بعض المتخصصين في علوم الجو يعتقدون أنه يستحيل على الإنسان أن يجتاز الغلاف الجوي المحيط بالأرض ؛ كالسقف المحفوظ ، ويستحيل عليه أيضًا أن يسبر أغوار الفضاء الخارجي ، ومنهم عالم الجو البريطاني (السير هارولد سبنسر) الذي صرح عام (١٩٥٧م) قائلًا : (*إن فكرة سفن الفضاء ليست سوى خيالات*

---

(١) انظر : جريدة الخليج ، عدد ١٦/ ١/ ١٩٩٩م .

(٢) أرنست رذرفورد (١٨٧١ - ١٩٣٧م) : فيزيائي بريطاني ، عمل أستاذًا للفيزياء بجامعة ماك جيل ، ثم جامعة مانشستر ، وجامعة كامبردج ، أجرى بحوثًا مهمة في تكوين الذرة ، ونال جائزة نوبل في الكيمياء عام (١٩٠٨م) على بحوثه في النشاط الإشعاعي .

وأوهام) ولسوء حظ هذا الخبير الجوي أن السوفيات قد أطلقوا أول سفينة فضاء (سبوتنيك ١) بعد أسبوعين فقط من إطلاقه ذلك التصريح العجيب .

- وفي أواخر الأربعينات من القرن العشرين ، عندما فكرت شركة (IBM) الأمريكية المتخصصة بصناعة الكمبيوتر بإنتاج كمبيوترات تجارية لتبيعها في السوق ، تنبأ مديرها آنذاك (توماس واطسون) أن السوق لا يستوعب أكثر من خمسة أجهزة على الأكثر ، ولكن لم تمض سنوات قليلة على تلك النبوءة حتى انتشر الكمبيوتر في شتى أنحاء العالم ، وأصبحت بعض البيوت اليوم تضم عددًا من الكمبيوترات أكثر من العدد الذي استكثره صاحبنا .

غير أن هذه المفارقات الغريبة حول استشراف المستقبل ، لا تعني بالضرورة أن استشرافنا للمستقبل عمل غير مجدٍ ، أو لا طائل منه ، فإن تسارع الأحداث ـ على الصورة التي ألمحنا إليها قبل قليل ـ جعل استشراف المستقبل أمرًا لا مندوحة عنه ، على ما فيه من مجازفة واحتمالات غير متوقعة ، وإلّا كنا كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال .

وعلى الرغم من أن استشرافنا للمستقبل لن يفضي بالضرورة إلى توقعات يقينية مهما كان لدينا من علم وخبرة وبعد نظر ، فإن استشراف المستقبل على أية حال يمكن أن يجنبنا بعض الصدمات والمفاجآت ، بشرط أن نكون واعين لطبيعة العصر الذي نعيش فيه ، وأن تكون لدينا المعرفة الكافية بمنحنيات التغير والتطور في الحقل الذي نريد استشراف مستقبله ، واضعين بالحسبان أن حقائق اليوم هي أحلام الماضي ، وأحلام اليوم هي حقائق المستقبل ، فلم ثمة شيء بعيد عن التحقيق كما يعدنا علماء اليوم .. وإن غدًا لناظره قريب .

وقد قطعت بعض الشركات العملاقة في أنحاء متفرقة من العالم شوطًا بعيدًا في برامجها المستقبلية ، وأصبح لديها خبراء مستقبليون ، ومراكز ومؤسسات متخصصة بالخيال العلمي (وهذه الشركات لا تلجأ إلى مثل هؤلاء المُحَلِّقين أو الطيور البرية ، من أجل التنبؤ العلمي باحتمالات المستقبل فحسب ، ولكن أيضًا من أجل المزيد من الحدس وتحريض الذهن لارتياد الآفاق المستقبلية المحتملة)[1] ، ومن أجل هذه الغاية نفسها سنحاول بعد قليل استجلاء آفاق التحولات القادمة ، ليس بعيدًا في المستقبل ، بل على الأقل خلال قرننا الحالي .. غير متناسين ما تنطوي عليه هذه المحاولة من احتمالات أخرى غير التي نتوقعها ، وغير مصادرين كذلك محاولات الآخرين الذين قد يرون في آفاق المستقبل غير ما نرى .

---

(١) ألفين توفلر : صدمة المستقبل ، (ص ٤٨٩) .

اللحظة الراهنة :

على بوابة القرن الحادي والعشرين ، الذي بزغت شمسه قبل قليل ، تقف البشرية على موعد مع قَدَرٍ جديد يتوقع مستشرفو المستقبل أن يشكل نقلة كبيرة على مختلف الأصعدة العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وقد مهّد لهذه النقلة عدد كبير من التطورات المهمة التي شهدها القرن العشرون ، وبخاصة منه النصف الأخير الذي شهد تطورات عميقة حاسمة لم تكن لتخطر حتى على بال أكثر المنظّرين المستقبليين إغراقًا في الأحلام المجنحة .

فالحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي بقيادة الاتحاد السوفيتي سابقًا ، والغربي بقيادة الولايات المتحدة ، وضعت أوزارها أخيرًا بعد خمسين عامًا من التهديد النووي المرعب الذي أوصل البشرية أكثر من مرة إلى شفير حربٍ كونيةٍ لا تبقي ولا تذر .

وفي الوقت نفسه ، نما على الساحة الدولية رأي عام عالمي يشجب الصراع ، ويطالب بالحدّ من التسلُّح بكافَّة أشكاله وأدواته ووسائله التقليديَّة وغير التقليديَّة .

وبرز على الساحة السياسية نجم عالمي جديد هو (الاتحاد الأوروبي) [1] ، الذي شكّل قوة جديدة بدأت تبحث لها عن مكان في صنع القرار العالمي ، إلى جانب قوى أخرى عديدة ظلت إلى وقت قريب تعيش في الظلّ أو تحت الوصاية لكنها مع العصر الجديد برزت إلى النور ، ونفضت عن نفسها نير الوصاية ، وراحت تطالب بإلحاح أن يكون لها دور فاعل بصنع القرار العالمي ، وقد قطع العديد منها حتى الآن شوطًا غير قليل بهذا الاتجاه .

وإلى جانب هذه التحولات الواسعة التي تشكل تحدِّيات حقيقية للاستقرار العالمي ، برز على الساحة الدولية عدد من التحديات الأخرى التي باتت تؤرق أصحاب القرار ، وتحثهم على العمل المشترك لمواجهتها وإيجاد الحلول العملية لها ، قبل أن تستفحل وتخرج عن نطاق السيطرة ؛ منها على سبيل المثال لا الحصر :

- مشكلات البيئة التي أصبحت تهدِّد كافة أشكال الحياة على سطح كوكبنا الجميل ، ولا سيما منها التلوث البيئي ، وارتفاع درجة حرارة سطح الأرض ، وتراجع الغطاء النباتي واتساع نطاق التصحر ، وانقراض أنواع عديدة من الحيوان في البر والبحر ، وقد

---

(١) سبق التعريف به .

بلغ هذا التهديد البيئي حدًّا خطيرًا جعل أحد علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين الكبار [1] يقول بألمٍ وحسرةٍ : (لقد أصبحنا أشبه بناقلة بترول ضخمة تسودها الغفلة إلى حدٍّ شاذٍّ ؛ إذ لا يوجد إلا عدد قليل من أفرادها يشاركون في العناية بالمحركات ، أمَّا بقية الأفراد فقد انشغلوا بالبيع والشراء واللهو والتسلية ، أمَّا الممسكون بدفة القيادة فليست لديهم خرائط ولا تنبؤات جوية ، بل هم مختلفون حول أهميتها والحاجة إليها ، ويعتقد أكثرهم أن الأمور تجري بصورةٍ طيبةٍ ، فلا عواصف متوقعة ، وحتى إن وجدت فإن تأثيراتها ستكون حيدة تمامًا ، أمَّا الأمواج التي تزداد انحدارًا ، وطيور البحر الهاربة ، فلا يمكن أن تؤخذ إلَّا كعلامة للرعاية الإلهية ، وليس سوى قلة من بين أولئك القواد الذين يعتقدون أن السحب المتجمعة لها أية علاقة بمصيرهم ، أو يدركون أن عدد قوارب النجاة يكفي فقط لمسافر واحد من كل عشرة ركاب ، ولا أحد يجرؤ أن يهمس في أذن الربان أن عليه إعادة النظر في تغيير اتجاه العجلة) [2] .

- النمو السكاني السريع الذي ينطوي على مشكلات اجتماعية فادحة ، منها البطالة ، وانتشار الجرائم ، وتفاقم الفقر ، وقائمة طويلة من الكوارث التي هي بانتظارنا في المستقبل القريب إذا ما استمر هذا التضخم السكاني .

- هجرة البشر من المدينة إلى الريف ، والعزوف عن الزراعة ، مما يهدد بشح الثروة الزراعية ، وحدوث المزيد من المجاعات والأمراض والأوبئة ، ويقدر العلماء أن نسبة عدد الذين يزرعون قد انخفض من (٩٠٪) من قوة العمل في أوروبا منذ خمسمائة عام ، ليصل الآن في الولايات المتحدة إلى (٣٪) فقط [3] ، ما يعني أن الزراعات الغذائية على وشك النفاد .

- انتشار المخدرات هنا وهناك ، وعدم القدرة (وربَّما عدم الرغبة !) على ضبطها ، وقد راحت كل يوم تحرق في أتونها الرهيب ملايين الشباب في طول الأرض وعرضها .

---

(١) براين فاغان : عالم أمريكي معاصر ، أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة سنتا بربارة في ولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة ، يدير تحرير عدة مجلات علمية ؛ منها : مجلة جنتلمان الفصلية (GQ) ، والمجلة العلمية الأمريكية (*Scientific America*) .

(٢) براين فاغان : الصيف الطويل ، دور المناخ في تغيير الحضارة ، (ص ٣٠٩) ، مصدر سابق (بتصرف) .

(٣) المصدر السابق .

• ظهور أمراض فتاكة جديدة لا عهد للأطباء بها من قبل (الإيدز ، جنون البقر ، سارس ، إنفلونزا الطيور ..) ، وعودة بعض الأمراض التي ظن الأطباء أنهم قد تخلصوا منها إلى غير رجعة (السلُّ ، الملاريا ، الكوليرا ، الطاعون ، الإيبولا ..) .

• الفقر المدقع الذي بات يرزح تحت وطأته الشديدة أكثر من ثلث سكان المعمورة ، إلى جانب البطالة التي ستلقي إلى شوارع التسكع والتشرد والجريمة أكثر من مليار عاطل عن العمل ، خلال العقود القليلة المقبلة [١] .

• شُحُّ المياه الصالحة للاستخدام الآدمي الذي بدأ يعاني منه أكثر من نصف سكان العالم .

• أضف إلى هذا كله ما شهده عصرنا الراهن من ثورات اجتماعية وفكرية وتقنية واسعة نتج عنها تحولات عميقة في علاقات المجتمع البشري بعضه ببعض ، وأحدثت صدمة عنيفة للذين ما زالوا يعيشون في أفياء الماضي ، ويتمسكون بالأعراف والتقاليد والمعتقدات التي تجاوزها الزمن ، غافلين عن أن العالم أصبح اليوم قرية صغيرة باتت فيها الأفكار وأنماط المعيشة متشابهة إلى حد التطابق بين مختلف البلدان والشعوب .

آفاق التحولات المستقبلية :

إن هذه التحولات الكبيرة وما تنطوي عليه من احتمالات خطيرة ، إلى جانب التطور العلمي والتقني المتسارع الذي دبَّ في أوصال عالمنا المعاصر في العقود الأخيرة ، جعل الناس ـ ولا سيما منهم أصحاب القرار وأرباب المصالح ـ يتحولون بأنظارهم عن الماضي والحاضر إلى المستقبل لاستشراف معالمه ، والتعرف على منحنيات التحولات المختلفة التي يمكن أن تحصل فيه ، استعدادًا لمواجهتها ، وتوظيف نتائجها لصالحهم قدر المستطاع .

إلَّا أن (استشراف المستقبل) كما أسلفنا من قبل ينطوي على الكثير من المجازفة ، ولا سيما منه استشراف التحولات الاجتماعية ، لا لأن هذه المحاولة لا تقوم على أساس من العلم أو الخبرة ؛ بل لأن العلم والخبرة اللذين سوف نستخدمها في هذه المحاولة ما زالا حتى اليوم قاصرين عن استشراف المستقبل البشري بالدقة العلمية المطلوبة التي يكون فيها هامش الخطأ مقبولًا ، ونعتقد أن هذا القصور في استشراف المستقبل يرجع أساسًا إلى

---

(١) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب : مجلة العربي ، العدد (٣٣٣) ، (ص ٤٤) ، الكويت (١٩٨٦م).

أن معرفتنا بالسنن أو القوانين الإلهية التي تحكم المجتمعات البشرية ما زالت حتى اليوم دون الحد الذي يمكننا من رؤية المستقبل بصورة واضحة إلى الحد المقبول (انظر فصل : سنن الوجود) .

ونعتقد أيضًا أن هذا المأزق يعود إلى طبيعة السلوك البشري الذي تتداخل فيه عوامل شتى معقدة تجعل رؤية مساراته النهائية عصية على الإدراك ؛ فالسلوك البشري يختلف عن سلوك بقية المخلوقات الحية التي تتصرف عادة بدوافع من غرائزها الفطرية دون وعي ولا قدرة على الاختيار بين البدائل الكثيرة المحتملة ، أمَّا الإنسان فإنه بما حباه الخالق ﷻ من قدرة على التفكير ، والتميز ، وتسخير ظواهر الكون ، فإن ساحة الاختيار أمامه تظلُّ مفتوحةً على احتمالات كثيرة تكاد تكون بلا حدود ، وهذا ما يجعل التنبؤ بتصرفات الإنسان المستقبلية محفوفة بالكثير من المجازفة .

ولتقريب هذه الفكرة إلى الأذهان يمكن أن نشبه سلوك الحيوان بسلوك القطار الذي لا يستطيع الخروج عن السكة التي وضع عليها ، ولهذا يسهل علينا معرفة ردود فعله المسبقة ومساراته المستقبلية ، أمَّا الإنسان فهو أشبه براكب السيارة الذي يسير في شارع عريض ، فهو يستطيع أن يتحرك بحرية بين طرفي الطريق ، وقد يستبدُّ به الهوى فيشتط ويجمح ويخرج عن الطريق نفسه ، فينتهي إلى نهايات غير متوقعة على الإطلاق ، وهذا ما يجعل التنبؤ بسلوك الإنسان والجماعات البشرية محفوفًا بالمزالق والمفاجآت .

غير أننا بالرغم من كل هذه الإشكاليات التي ألمحنا إليها سوف نقبل التحدي ونجازف بمحاولة استشراف المستقبل ، القريب منه على أقل تقدير ، عُدَّتنا في هذه المحاولة بعض ما أصبحنا نعرفه من سنن الاجتماع البشري ، وبعض ما يختلج في جوانحنا من آمال عريضة بأن يكون مستقبل البشرية خيرًا من ماضيها ، ولنا في تفاؤلنا هذا حُجَّةٌ من قول الحقِّ تبارك وتعالى للملائكة المقرَّبين الذين عندما أخبرهم سبحانه أنه جاعل في الأرض خليفة ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة : ٣٠] فردَّ عليهم سبحانه بنبرة العليم الخبير : ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠] ، ونلمح في هذا الردِّ الإلهيِّ الكريم تباشير نبوءة مُبْهجة توحي بأن الإنسان الذي ظَنَّ الملائكة أن سيرته في هذا الوجود سوف تمضي مثخنة بالفساد وسفك الدماء ، لن يستمر على هذه الحال ، بل سيؤوب يومًا ما إلى رشده ، ويعمر الأرض ، ويفعل الخير ، ويبسط جناح العدل والأمن والسلام ، ليس في الأرض وحدها ، بل ربَّما أيضًا في بعض الكواكب الأخرى .. والله تعالى أعلم .

وانطلاقًا من هذه البشارة الإلهية التي نأمل أن تتحقق على الصورة التي نرجوها ، سوف نحاول استقراء آفاق التحولات المستقبلية القادمة ، مع الإقرار مرة أخرى بأننا لا نصادر القراءات الأخرى المحتملة للمستقبل ، فقد يرى الآخرون صورة للمستقبل غير الصورة التي نراها .

١- في حقول العلم : نظرًا للسرعة الهائلة التي أصبحت من أبرز سمات الإنجازات والكشوف العلمية المعاصرة ، فقد يتعذر علينا أن نستشرف بالقدر المقبول آفاق الإنجازات العلمية الجزئية التي قد تحصل في غضون القرن الحالي ، أمّا الإنجازات العلمية الكبيرة فإن ما سوف يحصل منها قبيل نهاية هذا القرن سوف يفوق كل التوقعات .

وبصورةٍ عامة ، فإننا ـ بكثير من الحذر ـ نتفاءل أن تختلف وجهة العلوم والبحوث العلمية خلال هذا القرن ، وأن تتوقف عن اهتماماتها العسكرية وتتوجه بصدق نحو كوكبنا العزيز الذي بدأ يفقد الكثير من جماله وبهائه من جراء المخاطر الشديدة التي أصبح متعرضًا لها اليوم وباتت تهدد مستقبله ، وفي مقدمتها المخاطر التي ألمحنا لها آنفًا (التضخم السكاني ، التلوث البيئي ، نضوب مصادر الطاقة ، ظهور أمراض وبائية قاتلة جديدة ، انتشار الفقر والمرض والبطالة ..) وغيرها من المشكلات البيئية والصحية والاجتماعية التي باتت تقض مضاجع المسؤولين عن مصير هذا الكوكب ومصيرنا نحن البشر المسافرين على ذرة رمل في غياهب هذا الكون الوسيع .

أمّا على مستوى الكشوف العلمية والتطبيقات العملية فالأمل كبير لدى كثير من العلماء أن يشهد القرن الحالي إنجازات كبيرة في حقول الفيزياء الذرية ، والتمكن أخيرًا من اصطياد المادة المضادة (*Anti Material*) [1] ، وتدجين الحالة الرابعة للمادة التي تسمى البلازما (*Plasma*) [2] ، والاستفادة من ذلك في الكثير من التطبيقات العملية

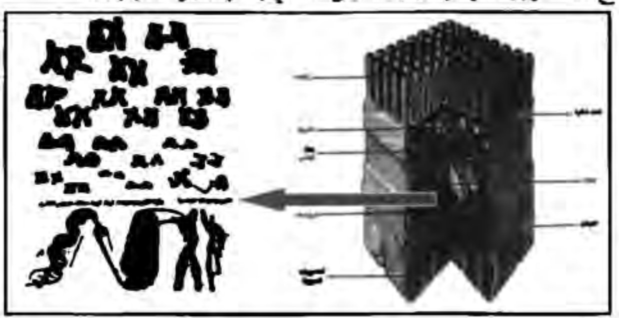
---

(١) لكل جسيم دون النووي توجد صورة مرآة لجسيم مضاد ، له نفس الكتلة ولكن له شحنة كهربائية مضادة ومجال مغناطيسي معكوس ، وعندما يقابل جسيم من المادة العادية جسيمًا من مضاد المادة يتحول كلاهما فورًا إلى طاقة هائلة تشكل أعنف الانفجارات المعروفة في الفيزياء (الخمسمائة عام القادمة ، ص ٢١٦) .

(٢) الحالة الرابعة للمادة : هي الحالة التي تمر بها المادة عندما ترتفع درجة حرارتها إلى مستوى عالٍ جدًا أو تنخفض إلى درجة الصفر المطلق (- ٢٧٣,١٥ درجة مئوية) وفي هذه الحالة تندمج مكونات الذرة وتصبح كأنها ذرة واحدة ضخمة تتحرك في كيان واحد ، وبهذا تكتسب المادة صفات جديدة تفيد في أغراض عديدة ، منها تطوير أجهزة الليزر النووية ، وإنتاج رقائق ومحركات مجهرية ، وإنتاج موصلات كهربائية فائقة التوصيل ، وقد تمكن عالما الفيزياء الذرية الأمريكيان كارل وِيمان وأريك كورنيل في شهر تموز من عام (١٩٩٥م) من تحقيق هذه الحالة عندما تمكنا من تبريد مادة الروبيديوم إلى أقل من ٢٠ مليار جزء من الدرجة فوق الصفر المطلق .

التي تفوق الخيال ، ومنها على سبيل المثال تحريك المواد والأشخاص بسرعات تقارب ١٠٪ من سرعة الضوء ، وبهذا سوف نتمكن لأول مرة في التاريخ من السفر عبر الفضاء الرحيب لنصل إلى بعض (جيراننا) في الكواكب الأخرى خارج مجموعتنا الشمسية ، وربَّما خارج مجرتنا أيضًا ، ومن يدري .. فربَّما نفاجأ حين نصل إلى بعض تلك السماوات بأن بعض أحفادنا أو أحفاد أحفادنا قد سبقونا إلى هناك ! وذلك لأن التقنيات المتطورة ووسائل السفر التي ستتوفر لهم ستكون أسرع بكثير من التي توفرت لنا ، وهذا ما يجعل وصولهم إلى هناك أسرع من وصولنا .

أمَّا في حقول الطب وعلوم الحياة فمن المتوقع قبيل نهاية القرن الحالي أن نكون قد استكملنا فك رموز المجين البشري (*Human Genome*) وأسراره الدفينة ، وعرفنا كيف نتحكم به من خلال تقنيات الهندسة الوراثية وغيرها من التقنيات المبتكرة ، وهذا ما سوف يغير أساليبنا في التشخيص والعلاج تغييرًا جذريًّا ، ويمكننا كذلك من القضاء على معظم الأمراض المستعصية الوراثية وغير الوراثية ، وإطالة معدَّلات الأعمار إلى حدود (١٥٠ عامًا) أو تزيد [١] ، إلى جانب توفير الأعضاء البشرية البديلة لكلِّ شخصٍ يحتاج إليها ، والتحكم التام بجنس الجنين وصفاته ، وإنتاج سلالات بشرية متفوقة (*Super Man*) قادرة على مواجهة الظروف الصعبة التي سنصادفها في المرحلة القادمة من حياتنا عندما يتاح لنا السفر إلى الكواكب البعيدة لنعيش هناك في رحاب المجرات البعيدة .



(في الأيمن رسم للخلية البشرية ، وفي مركزها النواة وفيها الجين الوراثي ، والسهم يشير إلى تفاصيل الصبغيات التي تضمها كل خلية من خلايانا البشرية وعددها ٤٦ صبغيًّا) .

(١) أدريان بيري : الخمسمائة عام القادمة ، (ص ٢٥١) .

بل يتوقع بعض العلماء ما هو أبعد وأعجب من هذا ؛ فالعالم (جون بروكمان) في كتابه الشيّق (الخمسون سنة القادمة ، العلم في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين) يتوقع أن يتطور علم الهندسة الوراثية ويستخدم الاستنساخ بشكل تجاري لإنتاج أطفال سعداء من أجل تكوين مجتمع سعيد ، وربَّما نصل إلى زمنٍ عجيب جدًّا تحدد فيه الحاسبات العملاقة التي سوف تصبح هي المتحكمة بمصيرنا عدد المحاربين والعمال وحتى العاطلين عن العمل الذين نحتاج لهم في المستقبل [١] .

أمَّا التقدم الهائل المنتظر في حقل الذكاء الاصطناعي فسوف يحقق نقلات واسعةً جدًّا ستعطي دفعة قوية للتقدم في مختلف حقول العلم والمعرفة ، ويومها سيصبح كل شيء من حولنا قابلًا للتوجيه عن بُعْدٍ ، وكأننا تمكنا أخيرًا من تسخير الجن والعفاريت ، وقد نصل إلى تطوير كمبيوترات تصل قدرتها إلى أرقام فلكية تستغني بها عن العقل البشري وتصبح قادرة على التفكير المستقل .. ومن يدري .. فقد نقف بعد جيل أو جيلين من الآن لنتجادل فيما إذا كان يحق للكمبيوترات أن تشاركنا التصويت في الانتخابات العامة ، كما يتنبأ (د.سافرلاند) البروفيسور في قسم علم النفس بجامعة ساسيكس ، وهو يذهب إلى أبعد من هذا فيتنبأ أننا سوف نصل في يوم من الأيام إلى تصميم نوع من الذكاء الاصطناعي المتفوق الذي قد يتغلب علينا آخر الأمر ، ويحل محلنا ، ويتسلم السيادة والقيادة فوق هذا الكوكب [٢] ، وقد بدأت بوادر هذا التحول العجيب ما بين الإنسان والآلة في عام (١٩٩٧م) عندما هُزِم (كاسباروف) بطل العالم الروسي في الشطرنج بمواجهة الكمبيوتر الخارق المسمى (*Deep Blue*) الذي صممته شركة (*IBM*) ، وكانت المواجهة قد بدأت في عام (١٩٩٦م) عندما نازل كاسباروف هذا الكمبيوتر وفاز عليه بالرغم من أن الكمبيوتر كان قادرًا على إجراء (١٨٠ مليون نقلة / في الثانية الواحدة) .

---

(١) BROCKMAN, J. (2002) *The Next Fifty Years: Science in the First Half of the Twenty-First Century*. London: Weidenfeld & Nicholson . pp. 98.

(٢) جون لويس : الإنسان ذلك الكائن الفريد ، (ص ١٦٦) .



(كاسباروف ، بطل العالم في الشطرنج)

وفي عام (١٩٩٧م) التقى كاسباروف مرة أخرى مع نسخة متطورة من الكمبيوتر (ديب بلو ٢) فانهزم كاسباروف وسجلت الآلة لأول مرة في التاريخ تفوقها على الإنسان ، والطريف أن كاسباروف بعد هزيمته قرر اعتزال لعبة الذكاء هذه وتوجّه إلى العمل السياسي ، ربّما لأن السياسة لا تتطلب الكثير من الذكاء .

أمّا على المستوى الشخصي فسوف يكون كلُّ شخص في هذا الكوكب قد زرعت في إبهام يده شريحة إلكترونية ذكية (*Smart Cards*) مبرمجة حاسوبيًّا تحمل رمزه الشخصي (*Code Number*) ، وتحتوي كافة المعلومات المتعلقة به ، وسوف تكون كل تعاملاته من خلال هذه الشريحة ، في الدوائر الحكومية والرسمية ، وفي البنوك والصرافات الآلية ، وفي تشغيل سيارته الخاصة ، وفي فتح باب منزله .. إلى غير ذلك من الأغراض .



(لقد أصبحت أجهزة الذكاء الاصطناعي جزءًا لا يتجزأ من حياتنا اليومية المعاصرة)

كما أن هذه الشرائح الشخصية ستصبح وسيلةً أساسيةً من وسائل الحفاظ على أمن الكوكب ؛ لأنها ستمكننا من ملاحقة المطلوبين للعدالة ومراقبة المشتبهين واللصوص وغيرهم من أصحاب النوايا السيئة ، وذلك بواسطة الأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض والتي خصصت لهذا الغرض ، لا سيما وأن عدد سكان الكوكب سيصل عمّا قريب إلى أرقام فلكية يتعذر معها تعقب الأشخاص بغير هذه الوسائل المتطورة ، وسوف تستخدم الوسيلة نفسها أيضًا بعد تطويرها لتعقب البشر في تنقلاتهم بين الكواكب ؛ لأن بعض المطلوبين قد يفكرون باللجوء إلى الكواكب البعيدة هربًا من قبضة العدالة في الأرض (ترى .. هل ستحقق العدالة فعلًا في هذه الأرض ؟!).

٢- في الحقول الاجتماعية والسياسية : نتوقع أن يشهد القرن القادم تغييراتٍ واسعةٍ في المظاهر الحضارية التي سادت العالم خلال القرن العشرين ، واتّسم أغلبها بطابع مادي طغى على القيم الروحية ، وأساء إلى الكثير من القيم الأخلاقية النبيلة التي تواضع عليها البشر عبر تاريخهم الطويل ، مما دفع المؤرخ البريطاني توينبي إلى القول : (لقد أغرت فنون الصناعة ضحاياها ، وجعلتهم يُسلمونها قياد أنفسهم ببيعها المصابيح الجديدة لهم مقابل المصابيح القديمة ، لقد أغوتهم فباعوها أرواحهم وأخذوا بدلًا منها السينما والراديو ، وكانت النتيجة هذا الدمار الحضاري الذي سببته تلك الصفقة الجديدة افقرارًا روحيًا وصفه أفلاطون بأنه مجتمع الخنازير ، بينما وصفه الدوس هكسلي بأنه عالم زاهٍ جديد)[1] ، وشتان ما بين الوصفين .

والذي يحملنا على التفاؤل بمستقبل حضاري زاهٍ حقًا للبشرية هو تلك البوادر التي أخذت تظهر هنا وهناك ، ابتداء من العقود الأخيرة من القرن العشرين ، وهي تنطوي على رغبة الكثيرين من أتباع الديانات والطوائف والجماعات والأحزاب والساسة لمراجعة الحساب وممارسة نقد ذاتي علني صريح لحصيلة الماضي ، إلى جانب الدعوات المتزايدة من هنا وهناك للاتفاق على خطة جماعية لمستقبل البشرية ، ومما يبشر بالتغيير المنشود أن الكثيرين أيضًا قد بدؤوا يتخلون عن النظرة المثالية (= الطوباوية) للعالم التي كانت تزين لكل منهم أنه هو وحده ، دون سائر البشر ، جدير بالعيش الكريم في هذا العالم ، وأن طريقته هي وحدها دون غيرها ، الطريقة المثلى الجديرة بالاتباع ، كما قال فرعون من قبل : ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر : ٢٩] .

---

(١) كولن ولسون : سقوط الحضارة ، (ص ١٦٤) ، مصدر سابق .

وانطلاقًا من هذه الملاحظات نتوقع أن يشهد القرن القادم ميلاد حضارة عالمية جديدة ، تتأسس على القيم الإنسانية النبيلة التي نادت بها الأديان السماوية قاطبة ، بعدما وصل البشر إلى قناعة راسخة بأن شتى القيم والنظريات والعقائد والمذاهب التي ابتدعوها عبر تاريخهم الطويل وأحلُّوها محل القيم السماوية لم تزدهم إلا شقاءً فوق شقائهم .

ونتوقع أن تسفر هذه النقلة المنشودة عن تطوير أنموذج حضاري موحد ، يشارك الجميع في صياغته ، بعد أن أدركوا في ظل التطورات العلمية والتحولات الاجتماعية الأخيرة التي حوَّلت كوكب الأرض إلى قرية صغيرة ، وفي ظل التهديدات الخطيرة التي باتت تحيط بنا ، أن هذه التهديدات لو حصلت ـ لا قدَّر الله تعالى ـ فإنها لن تفرِّق بين بعيد وقريب من سكان هذه القرية ، وأن أحدًا منهم لن ينجوَ من الكارثة مهما ادَّعى لنفسه العصمة ، ومهما ظنَّ في نفسه القدرة على النجاة .

ونتيجة للجهود الدولية الحثيثة ، وتحت ضغط الظروف والمشكلات العالمية الملحة ، ومع ازدياد الوعي بوحدة هذا الكوكب الذي حولته الوسائل التقنية الحديثة إلى قرية صغيرة ، سوف ينضوي أهل الأرض في (نظام عالمي) موحد تقوم على رعايته وتنفيذه مجموعة كبيرة من المؤسسات الدولية متعددة الجنسيات ستكون موزعة في بقاع عديدة من الأرض ، وليس حكومة مركزية عالمية تترأسها الدولة الأقوى ؛ لأن فكرة الحكومة المركزية لم يعد لها مبرر في ظل تطور نظم الاتصال والتوجيه عن بعد ، أمَّا الحكومات الوطنية فسوف تكون مجرد فروع ثانوية لتنفيذ التوجيهات التي ستصدر عن تلك المؤسسات .

وأمَّا الحدود السياسية المصطنعة بين دول العالم فسوف تكون قد زالت نهائيًّا وأصبح عبور البشر والبضائع وانتقالهم من مكان إلى مكان حول هذا الكوكب سهلًا ميسورًا بعد زوال نقاط الحدود والجمارك ، وفي مقابل هذا الوضع السياسي الذي يجري على الأرض سيكون هناك وضع آخر في الفضاء ؛ فالحكومة العالمية التي على الأرض ستكون مجرد حكومة من مجموعة الحكومات الأخرى التي ستكون قد استوطنت بعض الكواكب في مجموعتنا الشمسية أو خارجها ، وعندئذ ستدخل البشرية مرحلة جديدة من الصراعات التي ستدور رحاها ليس على الأرض ، بل في الفضاء الرحب بين النجوم والكواكب .

٣- في الحقول الاقتصادية : نتوقع أن تشهد العقود القليلة القادمة تحولًا اقتصاديًّا واسعًا من عصر الدول الصغيرة المنفردة ، والأسواق المحلية ، والمجموعات الإقليمية المحدودة ،

إلى عصر (العولمة) الذي سيجمع العالم كله في سوق تجارية واحدة ، تحت ضغط الشركات التجارية العملاقة التي أصبحت اليوم هي صاحبة القرار في العالم ، يدعمها في هذه السيطرة التجارية المحكمة على مقدرات العالم ما هيأته خلال القرن الماضي من مؤسسات ومنظمات اقتصادية وتجارية وسياسية عالمية عملاقة باتت تمسك من خلالها بخناق الشعوب - بل خناق الحكام أيضًا - ويأتي على رأس هذه المنظمات الدولية المسيطرة : الثالوث الاقتصادي العالمي الرهيب الذي يضم : صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية .

إلَّا أن هذه النزعة للسيطرة على العالم من خلال التجارة والاقتصاد ما هي في اعتقادنا إلَّا مرحلة مؤقتة لن تدوم طويلًا ، وهي محكومة مقدمًا بالإخفاق والفشل ؛ لأنها لن تلبث أن تصطدم بعقبات اجتماعية وسياسية كثيرة معقدة سوف تتولد عن العولمة نفسها ؛ مثل : البطالة ، والكساد العالمي ، والتنازع الحاد بين الشركات العملاقة على تقاسم الأسواق العالمية ، وتقلبات السوق المالية الحادة السريعة التي لن تسلم من ضرباتها الموجعة حتى أعتى الشركات وأقواها .

وبناءً عليه نتوقع أن تتضافر هذه العوامل الخطيرة خلال العقود القليلة القادمة لتجبر الشركات العملاقة على إعادة حساباتها من جديد ، وتعديل برامجها وأهدافها لتكون أقرب إلى تحقيق مصالح العباد والبلاد ، مع إعادة فسح المجال للآخرين حتى يشاركوا بدفع السفينة بأمان نحو المستقبل المنشود الذي لن يتوقف عند حدود الأرض وبضعة مليارات من البشر ، بل سيمتد إلى الكواكب الأخرى ليشمل مليارات لا تُعَدُّ ولا تُحصى من البشر .

ومن جهة أخرى ، سوف يستغني البشر عن تداول العملات النقدية ، ويكتفون بالتعامل الإلكتروني بواسطة البطاقات الذكية المدمجة أو المبرمجة حاسوبيًّا كما ذكرنا آنفًا ؛ فالصفقات التجارية سوف تبرم عبر شبكات الاتصالات العالمية (مثل الإنترنت وغيرها) وعندئذ لا تعود ثمة حاجة بكثير من الخلق للتحرك خارج المنزل سعيًا وراء الرزق ، بل سيعكف معظمهم على شبكات الكمبيوتر لساعات طويلة كل يوم لمتابعة أعمالهم وهم في منازلهم ، وهذه الأوضاع الجديدة ستخلق بعض المشكلات والأمراض النفسية والاجتماعية الجديدة الناجمة عن العزلة شبه الدائمة التي يتطلبها هذا النمط المغلق من الحياة داخل المنازل .

وسوف يحصل تغير جذري في كثير من أوجه النشاط التجاري والصناعي بعد وصول البشر إلى بعض الكواكب والكويكبات الغنية بالثروات المعدنية (وسوف تكون هناك بصورة عامة طبقتان من العمال ، واحدة تكسب عيشها من إصدار الأوامر للأجهزة ، والثانية قوامها أولئك الذين يوغلون السفر في الفضاء بحثًا عن الكويكبات الثمينة ، ولن يكون ثمة سبب للتنافر المتبادل مثلما كان الحال بين الرأسماليين والعمال في القرنين الماضيين ، إذ إن العمال أنفسهم سيكونون رأسماليين ، وسيكون مشروع تعدين الكويكبات قطاعًا خاصًا بكامله)[1] .

ومع تطور طرائق الصناعة وتسارع الإنتاج ـ بفعل الوسائل الحديثة المبرمجة إلكترونيًا ـ سوف تختفي المتاجر الكبيرة والمخازن والمستودعات لتحل محلها أجهزة كمبيوتر تضم نماذج معدة سلفًا للبضائع المطلوبة من كل صنف ونوع ، وما على الشخص الراغب بالشراء سوى تحديد الكمية واختيار المواصفات التي يريدها ، وبمجرد ضغطه على زر الكمبيوتر سوف تدور الآلات تلقائيًا لتنتج البضاعة المطلوبة بالكميات المطلوبة ، وهكذا سوف تنخفض معدلات البضائع التالفة التي كانت في الماضي تتلف في المخازن والمستودعات ؛ لأنها لا تجد من يشتريها .

٤ - في الحقل الفكري والإعلامي : مع انتشار وسائل الاتصال الإلكترونية وتطويرها سوف نستغني نهائيًا عن الوسائل القديمة في الكتابة والطباعة والنشر والإعلام وتبادل الأفكار ، وسوف يختفي الورق من التداول ، وتختفي الصحف والمجلات والمكتبات التقليدية التي تضم مجموعات كبيرة من الكتب لتحل محلها المكتبات الإلكترونية التي سوف تعتمد اعتمادًا كليًا على أقراص الكمبيوتر المدمجة الصغيرة جدًا التي لا يزيد حجم الواحد منها عن حجم عقلة الإصبع ، ولكنه يحتوي على كمية من المعلومات تفوق كمية المعلومات التي تحتويها أكبر مكتبة معروفة اليوم في العالم .

أما الكمبيوتر الشخصي فسوف يصبح جزءًا لا يتجزأ من أشيائنا الشخصية التي نرتديها كما نرتدي القميص أو السترة ، ولن يبقى مجرد كمبيوتر لتخزين المعلومات أو عرضها فحسب ، بل سيكون أيضًا جهاز تلفزيون يستقبل آلاف المحطات الفضائية ، وسيكون أيضًا هاتفًا جوالًا ، وكاميرا رقمية قادرة على استقبال الصور وإرسالها عبر الهاتف ، وهذا

---

(١) أدريان بيري : الخمسمائة عام القادمة ، (ص ٢٤٨) ، مصدر سابق .

ما يجعل العالم كله بين يديك ويضع تحت تصرفك كمية هائلة من المعلومات التي يمكنك الحصول عليها بمجرد الضغط على الزر ، ويمكّنك كذلك من إرسال المعلومات التي تريد إلى أية جهة في العالم ، ليس إلى شخص واحد ، بل إلى مليارات الأشخاص في وقت واحد ، ومما لا ريب فيه أن هذا التحول سوف يشكل ثورة كبيرة في طرائق التفكير والإعلام ونشر المعرفة ، وتوحيد الثقافة البشرية ضمن إطار عالمي إنساني موحد .

٥- مستقبل العالم الإسلامي : أمّا العالم الإسلامي فإنه خلال النصف الأول من القرن الحالي على أقل تقدير سوف يظل يعاني من تبعات القرن العشرين الذي أصيبت فيه الأمة بخطوب كثيرة ، في مقدمتها سقوط الخلافة الإسلامية في عام (١٩٢٤م) ، ثم الهجمة الاستعمارية التي لم يَسْلم من أذاها قطر من الأقطار العربية والإسلامية ، وإقامة دولة إسرائيل في قلب العالم العربي في عام (١٩٤٨م) .

وقد خلفت هذه الضربات القاسية المتالية ندوبًا عميقةً في البنية الفكرية والسياسية والاجتماعية للأمة الإسلامية قاطبة ، والأمة العربية على وجه الخصوص ، حتى وصلت حالها إلى درجة حرجة جدًّا من التخلف في شتى المجالات الاجتماعية والسياسية والعلمية والتقنية دفعتها إلى آخر القائمة .

وقد زاد الطين بلة ما فعله بعض زعماء العروبة الذين لم تثمر أفكارهم (الملهمة !) إلّا المرّ والعلقم والإخفاق والمزيد من التبعية لأعداء هذه الأمة ، ناهيك عما عانت منه الأمة العربية والإسلامية خلال القرن العشرين من اضطراب فكري عقائدي شديد أسفر عن تفريخ الكثير من التيارات الفكرية والأحزاب والجماعات والطوائف المتناحرة ، ودفع بالأمة إلى معارك جانبية مزّقت وحدتها ، واستنزفت طاقاتها ، واستهلكت مواردها الجبارة ، وأضاعت عليها قرنًا ثمينًا من العطاء الخير الذي كان يفترض أن تُقَدّمه للبشرية .

وأملنا كبير بأن تنتهي هذه الحالة آخر المطاف إلى بلورة نظرية عربية إسلامية تجمع شمل الأمة العربية والإسلامية من جديد ، وتُدْخِلها بجدارة في دورة حضارية ثانية ، وإن ممّا يدفعنا لهذا القدر الكبير من التفاؤل أن مختلف التيارات الفكرية والدينية على الساحة العربية والإسلامية بدأت بالفعل عملية مراجعة شاملة لأفكارها وممارساتها الماضية ، وأخذت تعدل المسار ، ويقترب بعضها من بعض ، وبدأت الجهود تتضافر لتحقيق الأهداف المشتركة في سبيل نهضة حضارية جديدة .

وممّا يدفعنا للتفاؤل كثيرًا كذلك وجود أعداد هائلة اليوم من العلماء العرب والمسلمين ، الذين حصلوا على أعلى الدرجات العلمية في شتى حقول المعرفة وحازوا أرفع الأوسمة والجوائز العالمية [١] ، فهؤلاء يشكلون القاعدة التحتية التي يمكن أن تنطلق الأمة منها نحو تسطير تاريخ جديد يعيد لها أمجادها الغابرة ، ويعيد لها دورها المنوط بها في الشهادة على العصر ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ الأمريكي الشهير بول كنيدي (*Paul Kennedy*) المحاضر في جامعة ييل نشر كتابًا في أوائل التسعينيات من القرن العشرين بعنوان التحضير للقرن الحادي والعشرين (*Preparation for The Twenty First Century*) لقي رواجًا كبيرًا في حينه ، وأفرد فيه فصلًا مستفيضًا للحديث عن الحضارة الإسلامية وآفاقها المستقبلية ، وبيَّن كيف أن الأمة الإسلامية تمتلك قدرة كامنة كبيرة سوف تمكنها من كسب رهان القرن الحادي والعشرين ، وبعد أن استعرض عناصر القوة التي تتمتع بها الأمة العربية والإسلامية ، ومواطن ضعفها والصراعات الداخلية والخارجية التي تتعرض لها ، انتهى إلى نتيجة مهمة ينبغي الانتباه لها جيدًا ، وهي أن الأمة الإسلامية ما زالت تفتقر إلى (ثقافة المشروع) ، أي أنها تفتقر إلى الرؤية المصيرية المتكاملة لتنمية بلدانها تربويًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا .

وهذا في اعتقادنا هو محور الأزمة التي تعصف اليوم بالأمة العربية والإسلامية ، لكننا على أمل كبير أن تهتدي الأمة إلى مشروعها المستقبلي في غضون العقود القليلة القادمة ، وأن تعمل جاهدةً على تنفيذه لكي تدخل في دورة حضارية إسلامية ثانية باتت البشرية في أمسِّ الحاجة إليها .. وما ذلك على الله بعزيز .

---

(١) تشير الإحصائيات إلى الحجم الكبير لهذه الكفاءات المُهْدَرة ، ففي مؤسسات ومراكز البحوث الغربية يعمل اليوم زهاء مليون عالم مسلم في شتى حقول العلم ، ويعمل (٢٠٪) من الأطباء العرب و (٢٥٪) من المهندسين العرب خارج أوطانهم ، واستلم (١٥٪) من خريجي الأقسام العلمية المختلفة للهجرة النهائية خارج أوطانهم ، و (٣٠٪) من الطلاب العرب المبتعثين للدراسة في الخارج لا يعودون إلى بلدانهم ، وأرقام المهاجرين تنذر بتفاقم الأزمة عامًا بعد عام ، ففي عام (١٩٨٠م) غادر ٢٧ ألف عربي من حملة الدكتوراه إلى أوروبا وأمريكا ، وفي عام (٢٠٠٠م) ارتفع العدد إلى ٣٢ ألف مهاجر [النجار والنعمي والسبري : البعد الحضاري لهجرة الكفاءات ، ص ٣١ وما بعدها] .



(المؤرخ الأمريكي المعاصر بول كينيدي)

٦- نظرة شاملة : ولكن .. بالرغم من كل ما قدمناه ، وبالرغم مما تنطوي عليه صورة المستقبل من احتمالات قاتمة ، وبالرغم من التناقضات الحادة التي ما زالت تسيطر على ممارسات الدول الكبرى صاحبة القرار وما أدت إليه هذه الممارسات حتى اليوم من إحباطات وخيبات أمل ومآس وكوارث فادحة ، فإننا ما زلنا نأمل بتطورات إيجابية على المستوى العالمي خلال القرن الحالي على أقل تقدير ، منها : أن الهيئات الدولية التي أسسها البشر خلال القرن العشرين وعلى رأسها (هيئة الأمم المتحدة) ولم تستطع أن تحقق الآمال التي أنشئت من أجلها حتى اليوم ، سوف تكون لها فرصة أكبر في القرن الحادي والعشرين لأن تقترب من تحقيق بعض الأهداف الإنسانية النبيلة ؛ لأن نفوذ الدول الكبرى التي ظلت طويلًا تحول دون ذلك في القرن الماضي سوف يتقلص تحت ضغط الرأي العام العالمي الذي سيكون له في القرن الحالي مؤسسات قادرة على التأثير الفعال في صياغة القرارات العالمية ، وتسيير عجلة التطور الاجتماعي باتزان أكبر ، وبأساليب أقدر على تحقيق مصالح العباد والبلاد .

وفي غضون القرن الحالي أيضًا نأمل أن يتحقق المزيد من العدالة بين بني البشر ، وأن تخمد نار الحرب والصراع والتدمير في البقاع التي ظلت ملتهبةً خلال القرن العشرين ، وسوف ترفرف راية السلام أخيرًا في معظم بقاع الأرض ، اللّهم إلّا تلك البقاع التي ما زالت تصرُّ على التعامل مع القرن الجديد بعقلية القرون التي خلت ، فهذه المجتمعات سوف تعاني لبعض الوقت من كوارث اجتماعية مدمرة ستخرجها آخر المطاف من خارطة العصر ؛ لأن سرعة إيقاع القرن القادم لن تدع للأمم المتخلفة أية فرصة لمراجعة الحساب .

ونتوقع خلال القرن الجديد أيضًا حصول تغيرات واسعة في مواقع القرار العالمي ، فبعد أن كان القرن العشرون هو قرن القرار (الأوروبي / الأمريكي) سوف يصبح القرار في القرن الحادي والعشرين أكثر عالمية ؛ لأن دولًا أخرى عديدة سوف تشارك فيه بعد أن أحرزت مواقع متقدمة جدًّا في المجالات العلمية والاقتصادية والسياسية ، وفي مقدمة الدول المرشحة للقيام بهذا الدور في القرن القادم : اليابان ، والصين ، وربَّما بعض الدول الإسلامية .

● ● ●

الفصل الثاني والعشرون

عِبَرُ التَّاريخ

● ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف : ١١١] .

● لو وضع الله الحقيقة في يمناه ، والشوق الخالد للبحث عنها في يسراه ، إذن لجثونا بضراعة على ركبنا نطلب ما في يسراه ؛ لأن الحقيقة النهائية ملك له وحده .

الأديب الفيلسوف الألماني ليسنج

عبر التاريخ كثيرة وعظيمة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وانطلاقًا مما عرضناه من تاريخ البشرية الماضي ، وما توقعناه في مقبل الأيام ، يمكن أن نخرج بجملة من الملاحظات العامة ، والعبر البليغة ، التي نستخلصها من نظرتنا إلى تاريخ هذا الوجود ، لنقف عندها وقفة تأمل وتدبر في ختام هذه الرحلة ، ولتكون دليلًا عامًّا لكل من أراد أن يتفكر بسنن التاريخ ويستفيد من دروسه وعبره التي لا تنفد :

الملاحظة (١) :

أن هذا الوجود على عظمته واتساعه يتكون من أبجديات بسيطة جدًّا ، فهو ماديًّا يتكون من أبجدية لا تزيد عن ثلاثة أحرف (إلكترونات ، بروتونات ، نترونات) وهي المكونات الأساسية للذرات التي يتكون منها كل شيء في هذا العالم ، أما مخلوقاته الحية فلا تزيد أبجديتها عن بضع وعشرين حامضًا أمينيًّا منها تتكوّن البروتينات التي هي المادة الأساسية في تكوين أجسام سائر المخلوقات الحية ، أمّا لغات البشر التي تزيد عن عشرات الآلاف فتتكون من بضع وعشرين حرفًا منها تتألف سائر اللغات واللهجات التي يتواصل بها البشر ، والتي بها أبدعوا روائع الأدب والفكر والفن والفلسفة ، أمّا الإنجازات العظيمة التي أنجزها البشر عبر تاريخهم فقد جرت على أيدي عدد ضئيل من العباقرة هم الذين وهبهم الخالق ﷻ مواهب عقلية متميزة فوهبوا البشرية تلك الإنجازات التي كانت وراء كل الحضارات التي شهدها التاريخ .

الملاحظة (٢) :

أن الحوادث التي وقعت فعلًا في التاريخ هي في الأعم الأغلب غير الحوادث المدونة في كتب التاريخ ، ولا سيما منها ما يتعلق بالتاريخ البشري ؛ لأن عملية التأريخ تنفذ عادة من

خلال الوثائق التي تصل إلى المؤرخ الذي لا يتورع غالبًا عن صياغتها بالطريقة التي تروق له ، ويقدمها إلى القارئ بحلتها الجديدة التي لا يكاد يجمع بينها وبين الأصل في معظم الحالات إلَّا العناوين ، وهذا يعني أن نقرأ كتب التاريخ بحذر شديد ، ولا نسلِّم بما جاء فيها تسليمًا مطلقًا ، إلَّا بعد التمحيص والمراجعة والنقد الرصين ، كما يعني من جهة أخرى أن على المؤرخين واجبًا أخلاقيًّا يحتم عليهم الالتزام بأعلى درجات الحياد حتى يمكن أن نستفيد ممَّا دوَّنوه .

الملاحظة (٣) :

أن الحدث التاريخي يتكون من معطيات عديدة ، منها الحدث نفسه ، ومنها الانطباع الذي يخلفه الحدث فيمن عاشوه وتأثروا به ، ومنها الأشخاص المشاركون بالحدث ، ومنها التوظيف الإعلامي للحدث ، ولهذا نرى أن حدثًا معينًا يحدث لأشخاص هامشيين يمكن أن يمضي بهدوء دون أن يحس به أحد ، ويمكن للحدث نفسه أن يثير ضجة إعلامية صاخبة ، وقد يثير حروبًا طاحنة إذا تعلق بأشخاص لهم مكانة خاصة في المجتمع ، كما أن إعصارًا يودي بحياة مئات الآلاف من البشر يمكن أن لا يثير من الاهتمام والذعر ما يثيره انفجار تافه يودي بحياة شخصية عامة مثل زعيم من الزعماء ، ولهذا فإن تقييم الحدث التاريخي لا يتوقف على الحدث نفسه فقط ، بل يتوقف على جملة من الظروف التي تحيط به ، ناهيك عن التوظيف الإعلامي للحدث ، فإن القدرة الإعلامية الهائلة التي أصبحت اليوم لدى بعض الدول والهيئات والمؤسسات يمكن أن تجعل من الحدث التافه حدثًا مدويًّا قادرًا على تحريك الرأي العام العالمي .

الملاحظة (٤) :

أن الخالق العظيم أبدع هذا الكون على منهج من السنن المطردة الثابتة التي لا تتبدل ولا تتحول ، وهي سنن تسري على المخلوقات كلها ، المادية منها وغير المادية ، بما فيها حياة الأمم والجماعات والأفراد ، ولهذا يوجهنا القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا إلى النظر في قصص الأمم الغابرة لاستنباط تلك السنن التي على أساسها تنهض الأمم أو تنحط أو تبيد ؛ وذلك لأن التاريخ بمنظور الإسلام هو المختبر الحقيقي لصواب الفعل البشري ، ومن ثم فإن العودة إلى صفحات التاريخ ، وفهم سنن الاجتماع البشري فهمًا موضوعيًّا صحيحًا ، يمنحنا القدرة على تسخير هذه السنن لبناء المجتمع الفاضل الذي نادت به

الرسالات السماوية جميعًا ، وبهذا المنهج القرآني الفريد تغدو دراسة التاريخ علمًا للحاضر والمستقبل ، لا علمًا للماضي وحده .

الملاحظة (٥) :

أن الأحداث عبر التاريخ يأخذ بعضها برقاب بعض ؛ فالحاضرُ هو غَرْسُ الماضي ، والمستقبل جَنْيُ الحاضر ، وكلُّ حدث هو نتيجة للحدث الذي سبقه ، وهو في الوقت نفسه مقدمة للحدث الذي سوف يليه ، وهكذا تتلاحق الأحداث تباعًا ، حدثًا في إثر حدث ، بما يشبه الانفجار الذري المتسلسل الذي ينتشر في كل الاتجاهات ، ولو قُدِّر لنا أن نرى في وقت واحد كل ما حدث في الماضي وحتى يومنا الحاضر لرأينا تلك الشبكة الخفية المعقدة من العلاقات التي تربط أحداث التاريخ بعضها ببعض ، وعندها سوف نرى أن تاريخ البشرية أشبه بشجرة عملاقة متشابكة الفروع والأغصان والأوراق ، نبتت من تلك الحبة الشهية التي اختلسها آدم وحواء في لحظةٍ فريدةٍ من لحظات الضعف البشري .. تلك الحبة التي ما زلنا نسدد ثمنها حتى اليوم .

الملاحظة (٦) :

أن الحدث التاريخي لا يمكن تكراره أبدًا ، فهو بمجرد أن ينجز يكون قد عبر بوابة الحاضر إلى الماضي ، وأمسى خبرًا في سجلات التاريخ ، وَمِنْ ثَمَّ فإن العبارة التي تقول : (إن التاريخ يعيد نفسه) هي في الحقيقة عبارة شاعرية لا تمتُّ للواقع بأية صلة ، إلَّا إذا أريد بها السنن الإلهية التي تتحكم بمسيرة التاريخ ، فما من شكٍّ بأن تاريخ الوجود يخضع لسنن صارمة لا تتبدل ولا تتحول ، وهذه السنن قد تتيح الفرصة لوقوع أحداث تتشابه في خطوطها العريضة ، وأمَّا الحدث نفسه فلا يمكن أن يستعاد إلى يوم القيامة .

الملاحظة (٧) :

أن التاريخ البشري يسير باستمرار في خطٍّ صاعد من التطور ، وهذا ما نلاحظه بوضوح في مضمار الكشوف العلمية والاختراعات والإنجازات المادية ، أمَّا على الصعيد الاجتماعي فليست الصورة بالوضوح نفسه ؛ لأن التحسن الفعلي على هذا الصعيد بطيء جدًّا إذا ما قورن بالتقدم المذهل المتسارع على الصعيد المادي ، ولكن هذا لا ينفي أن البشرية قد أحرزت تقدمًا عظيمًا على الصعيد الاجتماعي ، فقد حصل تحسن ملموس في

ظروف المعيشة للبشرية بعامة ، والتنظيم الإداري والقانوني والسياسي للمجتمع البشري أصبح أفضل بكثير مما كان عليه في الماضي ، والحروب التي كانت في الماضي هي المحرك الأهم للأحداث خمدت في معظم أرجاء المعمورة ، ويبدو أنها ماضية إلى الخمود نهائيًا ، بعد أن أدرك البشر فداحة الضريبة التي يدفعونها في الحروب ، وبعد أن أمست الأرض مهددة بكوارث بيئية ماحقة تهدد الجميع بالفناء ، وتحتّم عليهم تناسي خلافاتهم التافهة ، والالتفات إلى مصيرهم المهدد ، والعمل معًا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .. قبل فوات الأوان .

الملاحظة (٨) :

أن أحداث الوجود ظلّت تمضي بإيقاع متسارع ، عصرًا بعد عصر ، مما يدل على أن التسارع سنة من سنن الله في الخلق ، وإن من يتتبع الأحداث على مدار التاريخ ليلاحظ هذه الظاهرة بوضوح تام ، سواء منها تسارع العصور الجيولوجية ، أو تسارع التطورات البيولوجية التي تفتقت عنها بذرة الحياة ، أو تسارع إنجازات الإنسان نفسه ، فإن الأحداث المختلفة ظلت على مَرّ العصور تجري بسرعة أكبر فأكبر ، مما يحتم علينا تعديل برامجنا الزمنية لتساير هذا الإيقاع ، وإلّا فاتنا القطار ، وطوانا الزمن في هامش من هوامش صفحاته المنسية .

الملاحظة (٩) :

إن التسارع في الأحداث بلغ في أواخر القرن العشرين حدًّا مذهلًا أصاب الكثيرين بالدوار ، وأصاب آخرين بصدمة نفسية عنيفة أجبرتهم على التنحي جانبًا والاكتفاء بمشاهدة ما يحدث عن بعد ، وبخاصة منه ذلك التسارع المحموم في ميادين العلم المختلفة التي راحت كل يوم تفاجئنا بالجديد والغريب والعجيب ، وقد أجبر هذا التسارع مراكز البحث العلمي والشركات الكبرى وأصحاب القرار السياسي وغير السياسي أن يتحولوا بأبصارهم إلى المستقبل خشية أن تفاجئهم الأحداث المقبلة فتقلب مشاريعهم رأسًا على عقب ، وبخاصة منهم أولئك الذين وعوا الدرس الأهم من دروس التاريخ ، وهو أنك بمقدار ما تتمتع به من بُعد نظر وحدس مستقبلي دقيق بمقدار ما تجيد توظيف المستقبل لصالحك وتتجنب كوارثه المدمرة ، على النقيض من حال الذين يتجاهلون المستقبل ، ويؤثرون القيلولة في ظلال الماضي على أمل الفوز ببعض أحلامه الوردية (التي لن تتحقق !)

فإن الضريبة التي سوف يدفعونها هم وذراريهم من بعدهم سوف تتضاعف أضعافًا كثيرة ، وذاكرة التاريخ ملأى بقصص هؤلاء الحالمين .. الحمقى .

الملاحظة (١٠) :

أن استشراف المستقبل ليس بالأمر اليسير كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، بل هو يتطلب درجة عالية من بُعد النظر ، وفهمًا صحيحًا لسنن الله في خلقه ، وإلّا كان ضربًا من الرجم بالغيب ، ولكن حتى لو أعددنا لهذا الاستشراف كل ما في حوزتنا من خبرة ومعرفة وبعد نظر فإن استشراف المستقبل - حتى القريب منه - يظل محفوفًا بقدر غير قليل من المجازفة ، وقد سجل التاريخ وقائع طريفة عديدة لأناس ليسوا جهلة ، بل علماء وخبراء بارزين ، حاولوا استشراف المستقبل لكنهم فشلوا في ذلك فشلًا ذريعًا ، غير أن هذه العلة لا تعني أن استشراف المستقبل عمل غير مجدٍ ، فإن تسارع الأحداث في عصرنا الراهن جعل استشراف المستقبل أمرًا لا مندوحة عنه ، ومع أن معرفتنا بالمستقبل تظلُّ نسبية ، ويمكن أن تعرضنا لبعض الأخطاء ، فإنها بالمقابل تجنبنا الكثير من الصدمات والمفاجآت ، ولكن بشرط أن نكون واعين لطبيعة عصرنا ، وأن تكون لدينا المعرفة الكافية بمنحنيات التغير والتطور في الحقل الذي نريد استشراف مستقبله .

الملاحظة (١١) :

إن معظم الإنجازات العلمية التي أبدعها الإنسان كانت حاضرة في المخيِّلة البشرية منذ وقت مبكرٍ من التاريخ ، وذلك بفضل المعجزات الخارقة للعادة التي شاهدها البشر وهي تجري على أيدي الأنبياء عليهم السلام ، أو من خلال الكتب السماوية التي حفلت بالحديث عن عناصر الكون وظواهره ومخلوقاته وسنن الله في خلقه ، فإن هذه الكتب وتلك المعجزات حرَّضت المخيلة البشرية على السباحة في ملكوت الله ، ودفعت العقل البشري للتأمل والتفكر والتدبر ، وبهذا شكّلت الأديان السماوية للعقل البشري قاعدة علمية غنية ساعدته في البحث والدراسة والكشف ، ومكنته آخر المطاف من الإبداع والابتكار والاختراع .

الملاحظة (١٢) :

إن الاكتشافات والاختراعات والأحداث الكبرى التي شهدها التاريخ البشري كانت دومًا من نصيب الأمة التي تعيش (حالة حضارة) ، فعندما كان السومريون يعيشون

حالة حضارة كانوا هم المحركون للأحداث العالمية ، وكانوا أصحاب السبق في العلم ، وهكذا كان حال الفراعنة في مصر القديمة ، ثم الرومان والإغريق ، والصينيون ، وعندما بزغت شمس الإسلام في قلب العالم صارت الأحداث الكبرى والاكتشافات والاختراعات من نصيبهم ، وظلوا كذلك زهاء عشرة قرون متتاليات ، وحين سطع نجم الإمبراطوريات الأوروبية في العصور الحديثة صاروا هم بؤرة الأحداث .. وهكذا هو حال الدنيا .. وتلك الأيام نداولها بين الناس .

الملاحظة (١٣) :

إن التقدم الحضاري ليس حكرًا على أمة من أمم الأرض دون غيرها ، كما زعمت بعض النظريات العنصرية ؛ كالنازية والفاشية والصهيونية ، وكما يزعم اليوم دعاة الغرب الذين يعتقدون أن التاريخ قد انتهى عند نموذجهم الليبرالي [(١)] ، فقد قضت حكمة الخالق ﷻ أن لا تستأثر أمة من أمم الأرض بمشعل الحضارة حتى آخر الزمان ، وقد تناوب على حمل مشعل الحضارة حتى الآن أمم كثيرة ، وهكذا هي سنة الله في خلقه ، فليس لأمة من أمم الأرض مهما أوتيت من جبروت سياسي أو تقدم علمي أو قوة اقتصادية أن تبقى في القمة حتى آخر الزمان ، بل الكل إلى انحدار أو هلاك أو عذاب مدمِّر .. قبل يوم القيامة .

الملاحظة (١٤) :

إن الحضارة ليست حكرًا على المؤمنين دون الكافرين ، كما يخيل لبعضهم ممن يحسبون أنهم (شعب الله المختار) أو أنهم (أولياء الله وأحباؤه) ، فالحالة الحضارية بمعناها المادي قد تقوم على قيم إيمانية وأسس أخلاقية ، وقد تقوم على قيم وأسس غير هذه ، إلَّا أن العاقبة بميزان الله ﷻ تبقى آخر الأمر للمتقين .

الملاحظة (١٥) :

إن البنيان الحضاري غالبًا ما ينهار حين يعتقد أهل الحضارة أنهم بلغوا القمة ، وحين تدور برؤوسهم خمرة النشوة والانتصار والفرح ، فإذا ما ظنت أمة من الأمم أنها بلغت أوج مجدها وملكت زمام الأمور ، أتاها أمرُ الله فنحَّاها عن دفة القيادة ، وأحَلَّ في ديارها

---

(١) الليبرالية (*Liberalism*) : فلسفة سياسية تقوم على الإيمان بالتقدم ، والاستقلال الذاتي لكل إنسان ، وتنادي بحماية الحريات السياسية والمدنية ، وفي المجال الاقتصادي تقوم على المنافسة الحرة في التجارة .

الخراب ، وهذه السنة في الدمار نجد شواهدها في صفحات التاريخ ، وفي أطلال الحضارات البائدة التي تملأ الأرض .

الملاحظة (١٦) :

أن حكمة الخالق ﷻ اقتضت أن يقوم بين البشر شيء من التدافع والتنافس والصراع الذي يجعل الميزان يميل في النهاية لصالح الخير .. ولو بمقدار .. وذلك منعًا لاستشراء الشر واستفحال أذاه الذي يمكن أن يفضي آخر المطاف إلى فساد الخليقة ، وهذه أيضًا سنة إلهية ماضية في الخلق إلى يوم القيامة كما جاء في العديد من آيات الذِّكْر الحكيم ، وقد تهدأ حدة الصراع بين البشر حينًا من الدهر حتى ليخيل إليك أن البشرية بلغت أخيرًا سِنَّ الرشدِ وآمنت بأن الصلح خير ، إلَّا أن الأحداث اللاحقة سريعًا ما تكشف خطأ هذه النظرة ، وتؤكد أن فترات الهدوء ليست سوى وقفات عابرة كاستراحة المحارب بين معركتين ، والظاهر أن هذه العلة سوف تظل تنخر في الجسد البشري حتى آخر الزمان .. ولكن على الأغلب بوتيرة أخف .. لكنها لن تختفي نهائيًّا كما يحلم الفلاسفة المحلقون في عالم الـمُثُل الذين تعوزهم القراءة الواقعية للتاريخ ، والإدراك الصحيح لسنن الله في الخلق ، فقد شاءت حكمة الخالق سبحانه أن يقوم بين الناس شيء من التدافع ليكون هو المحك الواقعي للخير والشر ، كما أن هذا التدافع يحمي المجتمع البشري من استشراء الشر ، ويعين البشر على مواصلة رحلة الحياة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الملاحظة (١٧) :

على الرغم من أن الصراعات والحروب كانت أبشع الآفات التي ابتليت بها العقلية البشرية منذ مطلع تاريخها ، فإن تلك الصراعات والحروب كانت المحرك الأهم للتطور العلمي الذي أحرزته البشرية عبر تاريخها ، فقد ظلَّ الزعماء على مدار التاريخ يجندون خيرة العلماء والخبراء لتطوير آلة الحرب ، ومع تطوير هذه الآلة الرهيبة ، وتطوير الوسائل المضادة لها ، ظهر الكثير من المخترعات والمكتشفات التي عادت على البشرية بالكثير من الفوائد ، وبهذا تتكشف لنا جوانب جديدة للحكمة الإلهية من خلال سنة التدافع بين الناس .

الملاحظة (١٨) :

أن التاريخ البشري حافل بالمفارقات العجيبة ، ولعل من أكثرها غرابة ومأساوية أن الكثير من الأفكار والمفاهيم التي آمن بها البشر ردحًا طويلًا من الزمن ، واعتقدوا أنها حقائق نهائية مطلقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وبذلوا في الدفاع عنها أرواحهم رخيصة ، وقتلوا ملايين الأنفس من أجل إقناع الآخرين بها أو فرضها عليهم ، لم يلبث التاريخ أن خيب ظنهم فيها ، وافترّ ثغره عن ضحكة عريضة شامتة تفضح زيف ما آمنوا به ، ولعل الدرس الأهم الذي نستخلصه من مثل هذا الطيش الفكري أن يظل عقلنا منفتحًا دومًا على المستقبل ، مستعدًا للمراجعة والتصويب في كل حين وإلّا كان جزاؤنا شماتة التاريخ .. والويل لمن يشمت به التاريخ .

الملاحظة (١٩) :

إن تغير أحوال المجتمعات نحو الحضارة ، أو نحو الانحدار والانحطاط ، يتوقف على المعاناة أكثر مما يتوقف على الأفكار التي يؤمن بها المجتمع ؛ فالحروب والنزاعات والصراعات ، وتسلط بعض الناس على بعض ، والمآسي التي تنتج عن ذلك كله ، كانت وما زالت هي المحرك الأهم الذي يدفع عجلة المجتمع باتجاه أحد طرفي المعادلة ، أي نحو الارتقاء في سلم الحضارة والرخاء والرفاهية والتمكين في الأرض ، أو نحو السقوط في منحدر التخلف والانحطاط والتبعية وربما الخروج نهائيًا من خارطة الوجود ، ومن الملاحظات التي تستحق التأمل طويلًا في هذا الإطار أن الأفكار الفلسفية ـ على كثرتها عبر التاريخ ـ فإنها نادرًا ما أدت إلى تغيير ملموس في أحوال الناس ، على النقيض من حال الأفكار الدينية التي كان لها تأثير أعمق وأوسع مما كان للأفكار الفلسفية .

الملاحظة (٢٠) :

أن التاريخ البشري قد حفل بالكثير من أسماء الأشخاص العظماء الذين طبّقت أخبارهم الآفاق ، وما زالوا إلى اليوم ملء السمع والبصر ، إلّا أن الذين تركوا بصمات واضحة في مسيرة التاريخ لم يكونوا سوى ندرة نادرة من هؤلاء ، ولا جدال بأن الأنبياء عليهم السلام كانوا أعظم العظماء بلا منازع ، فهم الذين أرسوا قواعد الإيمان في المجتمع البشري ، وهم الذين تركوا أعمق الأثر في مسيرة التاريخ ، وكان أتباعهم دومًا أكثر الأتباع ، كما أن

معظم الأحداث العالمية الكبرى قد ارتبطت بشكل أو بآخر بهؤلاء الأنبياء وبرسالاتهم السماوية (انظر فصل : تاريخ الأديان) .

الملاحظة (٢١) :

أن عظماء التاريخ لم يكونوا كلهم صالحين مصلحين ، بل إن بعضهم كان يمثل أنموذجًا رهيبًا للشر ، ولا سيما منهم السياسيون وأصحاب الكراسي والزعامة الذين لم تثمر أيديهم الآثمة وأفكارهم الشيطانية إلّا المرّ والعلقم ، لكنهم بالرغم من هذا يعدهم المؤرخون من عظماء التاريخ لما كان لهم من تأثير واضح في مجريات الأحداث ، سواء في عصورهم أو في العصور اللاحقة وربما إلى اليوم .

الملاحظة (٢٢) :

ومن الملفت للنظر أن كثيرًا من الشخصيات التي أحرزت شهرة واسعة في التاريخ لم يحرز أصحابها هذه الشهرة من خلال ما قدموه من إنجازات عظيمة ، بل من خلال مخالفتهم لما هو سائد أو مألوف ومعروف في مجتمعاتهم ، سواء كان هذا المألوف والمعروف حقًّا أم باطلًا ، وهذا يعني أن علينا حين نطالع قصص المشاهير في التاريخ أن نميز بين من كان همُّه المخالفة لمجرد المخالفة حتى ولو كانت ضد أمر طيب أو مقبول ، وبين من كانت مخالفته لأمر سلبي أو مفهوم خاطئ ، وشتان ما بين الموقفين .

الملاحظة (٢٣) :

أن تاريخ العلم ارتبط بأسماء كثير من العلماء الذين اشتغلوا بفكِّ طلاسم الطبيعة وأحرزوا اكتشافات كبيرة واختراعات جليلة ساهمت مساهمة عظيمة في تطور الحياة البشرية ، وقد ذكرنا في الفصول الماضية الكثيرين من هؤلاء ، لكن الطريف في تاريخ العلم أن الكثير من الاكتشافات والاختراعات العلمية التي كان لها أثر حاسم في التقدم البشري لا يعرف اسم (العالِم) الذي أنجزها ، ومنها على سبيل المثال اكتشاف النار ومعرفة كيفية إشعالها وتسخيرها في خدمة البشر ، فمن هو أول (عالم) تجرأ واقترب من النار واستطاع أن يروضها ويجعلها رهن إشارته ؟ لا أحد يعلم .. ومن هو (العالم) الذي زرع أول شتلة في الأرض مدشنًا بذلك عصر الزراعة الذي نقل البشرية من عصر الترحال والتشرد في الآفاق إلى الاستقرار والبدء الفعلي ببناء الحضارات ؟ أيضًا لا أحد

يعرف .. ومن هو (العالم) الذي خطَّ أول حرف من حروف الهجاء ، وصاغ أول أبجدية ، وكان وراء أعظم اكتشاف في تاريخ العلم والتعلم والمعرفة ؟ لا أحد يعرف .. ومن هو (العالم) الذي اخترع العجلة (الدولاب) التي أصبحت الركيزة الأساسية في وسائل النقل وفي معظم الأجهزة التي أحدثت الثورات الصناعية المتلاحقة ؟ أيضًا لا أحد يعرف .. ومن هو (العالم) الذي فكر بتقسيم الزمن إلى أقسام متساوية وساهم باختراع أول ساعة في تاريخ الزمن ؟ لا أحد يعرف .. وهكذا نجد الكثير من الاكتشافات والاختراعات التي سجلت باسم مجهول ، وهي لا تقل أهمية أبدًا عن أعظم الاكتشافات والاختراعات التي شهدها عصرنا ، عصر الذرة وغزو الفضاء ، بل قد تزيد أهميتها عن معظم هذه الاكتشافات والاختراعات التي ارتبطت في عصرنا بأسماء لامعة ، ونال أصحابها الجوائز العالمية ، وسجلت أسماؤهم بمداد من ذهب .

الملاحظة (٢٤) :

أن صورة الوجود لا تكتمل برؤية الماضي وحده ، بل لا بد من رؤية المستقبل أيضًا حتى تكمل الصورة ويكون استنباطنا لسنن التاريخ أقرب إلى الصحة ، ولهذا حفل القرآن الكريم والأحاديث النبوية بالقصص والروايات التي تتحدث عما سوف يحدث في المستقبل ، بهدف وضع البشر في إطار الصورة الشاملة لأحداث الوجود ، وكأنها بهذا تهيئ العقل البشري للتعامل الإيجابي مع المستقبل ، وما ينطوي عليه من تغيرات وتطورات هائلة .. قبل يوم الحساب .

الملاحظة (٢٥) :

أن هذا الكون على عظمته لا يعدو أن يكون دارًا مؤقتة مهما طال به البقاء ، وقد قدَّر الله ﷻ خلق هذا الكون لكي تتعرف المخلوقات على ربها ومبدعها ، وفي يوم ما ، قريب أو بعيد ، سوف تطوي كفُّ القَدَر هذا الكون ، وتستبدل به كونًا آخر لا يعلم شكله ومكانه وزمانه وطبيعته إلَّا الله ﷻ ، ويومئذ يقضي الله ﷻ بين الخلائق ، ويفتح لهم دار البقاء والخلود ، فإمَّا إلى جنة ونعيم مقيم ، وإمَّا إلى نار وعذاب مقيم .. ويومئذٍ تبدأ المرحلة الأهم من تاريخ هذا الوجود .

وبعد ..

فإن الحديث عن مسيرة الوجود ، وسنن التاريخ ، واستشراف المستقبل ، يحتاج منا إلى الكثير من التدقيق والتمحيص والتفكر والتأمل ، ولكننا نكتفي بما قدمناه تاركين للقارئ الكريم الفرصة ليتفكر بسنن الله في خلقه ، على ضوء الملاحظات التي أفضنا في عرضها وشرحها خلال فصول هذا الكتاب ، سائلين المولى ﷻ أن يجعلنا من أصحاب البصيرة النافذة ، الذين لا يتوقفون عند الإعجاب بالزهرة الفواحة وهي تتمايل نشوانة على غصنها الريان ، بل يسبِّحون خالقها ويتفكرون بحكمته من خَلْقها .. وتلك قصة أخرى نسأل الله ﷻ أن يمنحنا الفرصة لروايتها في كتاب قادم ، إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه .

((وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين))

(الجدول ـ ٢٣) مفكرة أحداث الوجود

التاريخ	الحدث	الموقع	ملاحظات
(٢٠ مليار ق.م)	خلق الكون .	شامل .	قطر الكون ١٠٠ مليار سنة ضوئية ، يضم ١٠٠ مليار مجرة في كل منها ١٠٠ مليار نجم .
(٤,٦ مليار ق.م)	خلق المجموعة الشمسية .	مجرة درب اللبانة .	٩ كواكب + ٦١ قمرًا أو تابعًا .
(٣,٧ مليار ق.م)	بداية ظاهرة الحياة في الأرض .	أفريقيا (؟) .	نشأت على ضفاف بعض البحيرات .
(٦٠٠ مليون ق.م)	الانفجار الحيوي .	أفريقيا (؟) .	مع بداية العصر الكمبري حصل انتشار واسع لشتى أنواع المخلوقات الحية .
(٢٢٥ مليون ق.م)	الثدييات .	أفريقيا (؟) .	يصنف الإنسان منها لكنه ظهر في آخر القائمة .
(٦٥ مليون ق.م)	الرئيسات .	أفريقيا (؟) .	أقرب الحيوانات شبهًا بالإنسان .
(٢ مليون ق.م)	العصر الحجري .		بدأ الإنسان فيه يستخدم الحجارة .
(٨٠٠,٠٠٠ ق.م)	النار .	؟	بدأ الإنسان يستخدمها في بعض شؤونه .

(٥٠٠,٠٠٠ق.م)	الحراب والرماح الخشبية .	أفريقيا .	بدأ الإنسان يستخدمها ضد الحيوانات .
(٤٥٠,٠٠٠ق.م)	أدوات الحياكة البدائية .		صنعها الإنسان من الحجارة وأعواد الشجر .
(٤٠٠,٠٠٠ق.م)	البيوت البدائية .		بناها الإنسان من أغصان الشجر .
(٢٠٠,٠٠٠ق.م)	اللغة .		بدأ التخاطب بين البشر بلغة رمزية مجردة .
(٤٥,٠٠٠ق.م)	الكتابة والرموز البدائية .		وجدت على جدران بعض الكهوف .
(٤٠,٠٠٠ق.م)	ركوب الماء (الملاحة) .	أستراليا .	
(٣٠,٠٠٠ق.م)	تدجين الحيوانات .	أفريقيا .	
(٣٠,٠٠٠ق.م)	القوس والسهم .	أفريقيا .	استخدمها الإنسان في الصيد والقنص .
(١٤,٠٠٠ق.م)	نبي الله آدم .	؟	
(١٠,٠٠٠ق.م)	الفخار .	اليابان .	
(٩٠٠٠ ق.م)	النحاس .	ما بين النهرين .	
(٨٠٠٠ ق.م)	بداية العصر الزراعي .	أريحا (فلسطين) .	أول مجتمع بشري يستقر في الأرض .
(٨٠٠٠ ق.م)	أول أبجدية .	سوريا .	الكتابة المسمارية .
(٧٦٠٠ ق.م)	الخزف .	الصين .	
(٧٠٠٠ ق.م)	الأدوات الحجرية .	؟	
(٦٠٠٠ ق.م)	أقدم مدينة .	أريحا (فلسطين) .	لم تسكن باستمرار .
(٥٠٠٠ ق.م)	أقدم عاصمة .	دمشق (سوريا) .	ظلت مأهولة باستمرار .
(٥٠٠٠ ق.م)	العجلة (الدولاب).	؟	
(٥٠٠٠ ق.م)	الحضارة السومرية .	بلاد ما بين النهرين .	

(٤٢٤٠ ق.م)	الحضارة الفرعونية .	بلاد النيل .	أطول الحضارات البشرية عمرًا (٣٣ قرنًا) تعاقب عليها ٣٠٠ أسرة حاكمة .
(٤٠٠٠ ق.م)	الميزان .	بلاد ما بين النهرين .	السومريون .
(٣٩٠٠ ق.م)	نبي الله نوح .	المنطقة العربية .	أبو البشر الثاني بعد آدم .
(٣٥٠٠ ق.م)	السيف .	بلاد ما بين النهرين .	السومريون .
(٣٠٠٠ ق.م)	صهر المعادن .	بلاد ما بين النهرين .	السومريون .
(٣٠٠٠ ق.م)	الحضارة الرومانية .	روما (إيطاليا) .	
(٣٠٠٠ ق.م)	الزجاج .	سوريا .	الفينيقيون .
(٢٩٠٠ ق.م)	البرونز .	بلاد ما بين النهرين .	السومريون .
(٢٨٠٠ ق.م)	الحديد .	الفراعنة (مصر) .	استخدم في الصناعة .
(٢١٠٠ ق.م)	الحضارة البابلية .	بلاد ما بين النهرين .	
(٢١٠٠ ق.م)	عصر الرقيق .	بلاد ما بين النهرين .	البابليون .
(٢٠٠٠ ق.م)	الحضارة الفينيقية .	سوريا .	
(٢٠٠٠ ق.م)	الساعة الشمسية .	مصر .	المصريون القدماء .
(١٨٦١ ق.م)	نبي الله إبراهيم .	ما بين النهرين وفلسطين .	أبو الأنبياء .
(١٧٨١ ق.م)	نبي الله إسماعيل .	جزيرة العرب .	ابن إبراهيم الخليل .
(١٥٠٠ ق.م)	الحضارة الهندية .	الهند .	
(١٤٢٦ ق.م)	نبي الله موسى .	مصر ، فلسطين .	
(١٤٠٠ ق.م)	الحضارة الصينية .	الصين .	
(١٤٠٠ ق.م)	الساعة المائية	مصر .	المصريون القدماء .
(١٣٠٠ ق.م)	الحضارة الآرامية .	ما بين النهرين والشام .	
(١١٥٠ ق.م)	الحضارة الآشورية .	بلاد ما بين النهرين .	
(١١٠٠ ق.م)	الحضارة الآرامية .	ما بين النهرين والشام .	

(٨٥٠ ق.م)	البارود .	الصين .	
(٧٧٦ ق.م)	الألعاب الأولمبية .	اليونان .	
(٧٠٠ ق.م)	سك النقود .	آسيا الصغرى (تركيا) .	
(٦٠٠ ق.م)	الفلسفة .	اليونان .	أسسها : طاليس .
(٥٠٠ ق.م)	المغناطيس .	اليونان .	
(٥٠٠ ق.م)	المنجنيق .	اليونان .	
(٧٠ ق.م)	الطاحونة .	إيطاليا .	الرومان .
(١ م)	ميلاد السيد المسيح .	بيت لحم (فلسطين) .	وبه بدأ التاريخ الميلادي .
(١٠٠م)	الساعة الرملية .	إيطاليا .	الرومان .
(٢٥٠م)	العربة .	الصين .	
(٢٦٢م)	المستشفى .	إيطاليا .	الرومان .
(٥٧٠م)	مولد نبي الله محمد .	مكة المكرمة .	خاتم الأنبياء .
(٦١٢م)	ظهور الإسلام .	مكة المكرمة .	خاتم الأديان .
(٨٨٧م)	أول محاولة بشرية للطيران .	الأندلس .	عباس بن فرناس .
(١٠٠٠م)	الحضارة الغربية .	الأوروبية/ الأمريكية .	ربيبة الحضارة الإغريقية الرومانية .
(١٠٧١ – ١٢٩١م)	الحروب الصليبية .	بلاد الشام .	قادتها أوروبا ضد الخلافة الإسلامية .
(١٠٣٠م)	العدسات .	العرب .	الحسن بن الهيثم .
(١٢٨٠م)	النظارات .	إيطاليا .	س . دي بوبوزو .
(١٢٥٠م)	المدفع .	العرب .	أفريقيا الشمالية .
(١٣٥٠م)	البندقية .	أوروبا .	
(١٤٥٠م)	المطبعة .	ألمانيا .	يوهانس جوتنبرج .
(١٥٠٠م)	العملية القيصرية .	سويسرا .	الطبيب خ. نوفر .
(١٥٩٠م)	المجهر (الميكروسكوب) .	هولندا .	زخارياس يانسن .

(١٥٩٣م)	ميزان الحرارة .	إيطاليا .	جاليليو جاليلي .
(١٦٠٨م)	المقراب (التليسكوب) .	إيطاليا .	جوهانس ليبرشاي .
(١٦٢٥م)	الغواصة .	هولندا .	فون دريبل .
(١٦٤٢م)	الآلة الحاسبة .	فرنسا .	بليز باسكال .
(١٧١٤م)	الآلة الكاتبة .	إنكلترا .	هنري مل .
(١٧٥٢م)	الكهرباء .	الولايات المتحدة .	بنيامين فرانكلين .
(١٧٥٨م)	القطار .	إنكلترا .	
(١٧٦٩م)	المحرك البخاري .	أسكتلندا .	جيمس واط .
(١٧٧٠م)	السيارة .	فرنسا .	نيكولا كونيو .
(١٧٨٣م)	الهبوط بالمظلة .	فرنسا .	لويس لونورمان .
(١٧٩٠م)	ساعة المعصم .	سويسرا .	شركة جاك ـ دروز وليشوت .
(١٧٩٨م)	اللقاحات ضد الأمراض السارية .	إنكلترا .	الطبيب إدوارد جنّر .
(١٨١٦م)	الدراجة الهوائية .	ألمانيا .	كارل فون ساوربرون .
(١٨٢٢م)	التصوير الفوتوغرافي .	فرنسا .	
(١٨٥٩م)	البترول .	الولايات المتحدة .	أول بئر بترول تجاري .
(١٨٦٢م)	البلاستيك .	إنكلترا .	أ . باركس .
(١٨٧٥م)	الهاتف .	الولايات المتحدة .	غراهام بل .
(١٨٧٩م)	المصباح الكهربائي .	الولايات المتحدة .	توماس أديسون .
(١٨٩٤م)	المبرقة (تلغراف) .	إيطاليا .	غوليلمو ماركيز ماركوني .
(١٨٩٥م)	السينما .	فرنسا .	الإخوة لوميه .
	اللاسلكي .	إيطاليا .	غوليلمو ماركيز ماركوني .

(١٩٠٠م)	جائزة نوبل .	السويد .	ألفريد نوبل .
	اكتشاف الزمر الدموية .	النمسا .	ك . لاندشتاينر .
	اكتشاف البروتينات .	بريطانيا .	فيشر .
(١٩٠١م)	الدراجة النارية .	فرنسا .	م.وي وردنر .
	المكنسة الكهربائية .	بريطانيا .	هـ . بوث .
(١٩٠٢م)	الهرمونات .	بريطانيا .	و . بيليس ، إ . ستارلنج .
	مكيف الهواء .	الولايات المتحدة .	و . كارير .
(١٩٠٣م)	الطائرة .	الولايات المتحدة .	الأخوان رايت .
	جهاز تخطيط القلب .	هولندا .	ف . أينتهوفن .
(١٩٠٤م)	الخلية الكهروضوئية .	ألمانيا .	أ . كورن .
(١٩٠٦م)	المذياع (الراديو) .	الولايات المتحدة .	فيسندن .
	الغسالة الكهربائية .	الولايات المتحدة .	أ . فيشر .
(١٩١٠م)	مصابيح النيون .	فرنسا .	ج . كلود .
(١٩١١م)	الاحتلال الإيطالي لليبيا .	بدأ باحتلال طرابلس .	بداية الاستعمار الأوروبي الحديث للوطن العربي .
(١٩١٢م)	قطار الديزل .	ألمانيا .	
(١٩١٣م)	الروبوت .	الولايات المتحدة .	إي سبري .
(١٩١٤م)	الصاروخ .	ألمانيا .	هنشنز هودار .
(١٩١٤ – ١٩١٨م)	الحرب العالمية الأولى .	معظم دول العالم .	انطلقت من أوروبا .
(١٩١٥م)	استخدام الطائرات في الحروب .	ألمانيا .	الطائرة فوكر – ي ١ .

(١٩١٧م)	الثورة الشيوعية .	روسيا .	قادها لينين .
	السفن حاملة الطائرات .	بريطانيا .	السفينة أرجوس .
	الدبابة الحديثة .	فرنسا .	الدبابة رينو.ف. ت ــ ١٧ .
(١٩١٩م)	منظمة العمل الدولية .	عصبة الأمم .	(١٩٤٦م) تبعت الأمم المتحدة .
(١٩٢٢م)	ساعة المعصم .	بريطانيا .	ج . هارووود .
(١٩٢٣م)	الثلاجة الكهربائية .	السويد .	ب. فون بلاتن ، س. مونترز .
(١٩٢٤م)	إلغاء الخلافة الإسلامية .	إستانبول .	أعلنه مصطفى كمال أتاتورك .
(١٩٢٦م)	التلفزيون .	إنكلترا .	المخترع : جون لوجي بيرد .
(١٩٢٩م)	الرئة الصناعية .	الولايات المتحدة .	ب. دونكروس ، س. مكهان .
	جهاز تخطيط الدماغ .	ألمانيا .	هـ . برجر .
(١٩٣٠م)	المحرك النفاث .	بريطانيا .	فرانك ويتل .
(١٩٣٢م)	المؤتمر العالمي الأول لنزع السلاح .	جنيف (سويسرا) .	برعاية عصبة الأمم .
	بدأ العرب تصدير البترول .	البحرين .	
(١٩٣٨م)	النايلون .	الولايات المتحدة .	
(١٩٣٩ - ١٩٤٥م)	الحرب العالمية الثانية .	معظم دول العالم .	انطلقت من ألمانيا .
(١٩٣٩م)	المجهر الإلكتروني .	ألمانيا .	م. كنول ، وي. روسكا .
(١٩٤٣م)	الكمبيوتر .	إنكلترا .	مانشستر (١) .
	الكلية الصناعية .	هولندا .	و. كولف .
	منظمة الإغاثة والتعمير .	عصبة الأمم .	انتهى عملها عام (١٩٤٩م) وأحيلت مهامها لوكالات الأمم المتحدة .

(١٩٤٤م)	اكتشاف الحامض النووي DNA .	الولايات المتحدة .	و . أفري .
(١٩٤٥م)	منظمة الأمم المتحدة .	عالمية .	مقرها الولايات المتحدة .
	جامعة الدول العربية .	عربية .	مقرها الرئيسي (مصر) .
	منظمة الأغذية والزراعة .	الأمم المتحدة .	
	صندوق النقد الدولي .	الأمم المتحدة .	المقر : واشنطون .
	أول تفجير ذري .	الولايات المتحدة .	ج . روبيرت أوبنهايمر .
(١٩٤٦م)	حرب فيتنام .	بدأتها فرنسا ، ثم الولايات المتحدة .	استمرت حوالي أواخر الستينات من القرن ٢٠ .
	أول مؤتمر قمة عربي .	الإسكندرية (مصر) .	المطالبة بوقف هجرة الصهاينة إلى فلسطين .
	منظمة اليونسكو .	الأمم المتحدة .	المقر : باريس .
(١٩٤٧م)	الترانزستور .	الولايات المتحدة .	ج . باردين ، و . بارتين ، و . شوكلي .
	طائرات أسرع من الصوت .	الولايات المتحدة .	الكابتن تشاك ياغر .
	منظمة الطيران الدولية .		المقر : مونتريال ، كندا .
(١٩٤٨م)	منظمة الصحة العالمية .	الأمم المتحدة .	المقر : جنيف ، سويسرا .
	إعلان قيام دولة إسرائيل .	فلسطين .	قرار هيئة الأمم المتحدة .
	بداية الحرب الباردة .	بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الغربي .	الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة .

(١٩٤٨م)	الإعلان العالمي لحقوق الإنسان .	الجمعية العامة للأمم المتحدة .	
(١٩٤٩م)	الثورة الشيوعية .	الصين .	قادها الزعيم ماوتسي تونغ .
(١٩٥٠م)	زراعة الكلى في البشر .	الولايات المتحدة .	الجراح : ر . لولر .
	عمليات القلب المفتوح .	الولايات المتحدة .	ج . جيبون .
(١٩٥٢م)	ثورة يوليو .	مصر .	قادها جمال عبد الناصر .
(١٩٥٣م)	فرن الميكروويف .	الولايات المتحدة .	
(١٩٥٤م)	استخدام الطاقة النووية في الأغراض السلمية .	الاتحاد السوفياتي .	توليد الكهرباء .
(١٩٥٥م)	الغواصات النووية .	الولايات المتحدة .	الغواصة نوتيلس .
	طائرات التجسس .	الولايات المتحدة .	الطائرة يو تو .
(١٩٥٦م)	الفيديو .	الولايات المتحدة .	ألكسندر بونياتوف .
	أول حركة ضد النظام الشيوعي .	بودابست (هنغاريا) .	
(١٩٥٧م)	ارتياد الفضاء .	الاتحاد السوفياتي .	أول مركبة فضائية تخرج للفضاء الخارجي .
	أول مخلوق حي يرتاد الفضاء .	الاتحاد السوفياتي .	الكلبة (لايكا) .
(١٩٥٨م)	أشعة الليزر .	الولايات المتحدة .	ش . تاونس ، أ . شاولو .
	الوحدة السورية المصرية .	مصر وسوريا .	انفصلت عام(١٩٦١م) .
(١٩٦٠م)	منظمة البلدان المصدرة للبترول (أوبك) .		
	حبوب منع الحمل .	الولايات المتحدة .	شركة سيرك .

(١٩٦١م)	أول إنسان يرتاد الفضاء الخارجي .	الاتحاد السوفيتي .	الرائد (يوري غاغارين) .
(١٩٦٣م)	معاهدة حظر التجارب النووية .	الاتحاد السوفيتي ، الولايات المتحدة ، بريطانيا .	
	منظمة الوحدة الأفريقية .		
(١٩٦٦م)	معاهدة استخدام الفضاء الخارجي للأغراض السلمية .	الأمم المتحدة .	
(١٩٦٩م)	هبوط أول إنسان على سطح القمر .	الولايات المتحدة .	نيل آرمسترونغ .
(١٩٧٤م)	المؤتمر العالمي الأول للسكان والتنمية .	بوخارست (رومانيا) .	
(١٩٧٥م)	المؤتمر العالمي الأول للمرأة .	الأمم المتحدة .	
(١٩٧٨م)	ولادة أول طفل الأنابيب .	إيطاليا .	الطفلة (لويزا براون) .
(١٩٧٩م)	القضاء على داء الجدري .	كل العالم .	منظمة الصحة العالمية .
	الثورة الإسلامية في إيران .	بقيادة آية الله الخميني .	أول ثورة إسلامية في العصر الحديث تصل إلى السلطة .
(١٩٨٠م)	الموجة الثانية من حركات التمرد ضد النظام الشيوعي .	بولندا ، المجر ، تشيكوسلوفاكيا ، رومانيا .	
(١٩٩٠م)	أول مؤتمر قمة عالمي للطفولة .	اليونيسيف (الأمم المتحدة) .	

(١٩٩١م)	تفكك الاتحاد السوفيتي .	قيام الكومنولث .	روسيا ، بيلوروسيا ، أوكرانيا .
(١٩٩٢م)	المؤتمر العالمي الأول للبيئة .	ريو دي جانيرو (البرازيل) .	
(١٩٩٤م)	المنظمة العالمية للتجارة (O.M.S) .		لتحكم بالاقتصاد العالمي مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي .
(١٩٩٥م)	أول مؤتمر قمة عالمي للتنمية الاجتماعية .	كوبنهاجن .	
	زراعة عين صناعية .	الولايات المتحدة .	هيئة الصحة الأمريكية .
(١٩٩٦م)	أول مؤتمر عالمي لمكافحة استغلال الأطفال والمراهقين .	ستوكهولم (السويد) .	اليونيسيف (الأمم المتحدة) .
(١٩٩٨م)	استنساخ الثدييات .	أسكوتلندا .	النعجة دوللي .
(٢٠٠١م)	السياحة في الفضاء .	روسيا .	الخطوة الأولى نحو إعمار الفضاء .
؟	؟	؟	؟

***

المصادر والمراجع العربية

١- ابن خلدون (٢٠٠٢م) المقدمة ، تحقيق د. درويش جويدي ، المكتبة العصرية ، صيدا/ بيروت .

٢- ابن كثير (١٩٨٥م) البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، ط ٦ ، بيروت .

٣- ابن هشام (د.ت) السيرة النبوية ، مؤسسة علوم القرآن .

٤- إحسان محاسنة (١٩٩٢م) العلوم الحياتية ، ١/ ٢٥ ، ٢٦ ، دار الشروق ، عمان .

٥- أحلام مستغانمي (٢٠٠٣م) عابر سرير ، منشورات أحلام مستغانمي ، بيروت .

٦- أحمد فؤاد رسلان (١٩٨٦ م) نظرية الصراع الدولي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

٧- أحمد محمد كنعان (١٩٩٠م) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، قطر .

٨- أحمد محمد كنعان (١٩٩٩م) ذاكرة القرن العشرين ، دار النفائس ، بيروت .

٩- أحمد محمد كنعان (٢٠٠٢م) الموسوعة الطبية الفقهية ، دار النفائس ، بيروت .

١٠- أحمد نبيل أبو خطوة (١٩٩٢م) موسوعة أبو خطوة لعلوم الأحياء والكيمياء الحيوية ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدة .

١١- أدريان بيري (٢٠٠٠م) الخمسمائة عام القادمة ، ترجمة عثمان أحمد عبد الرحيم ، المجمع الثقافي أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة .

١٢- إدوارد كار (١٩٨٦م) ما هو التاريخ ؟ ترجمة ماهر الكيالي وبيار عقل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ٣ .

١٣- أرنولد توينبي (١٩٦٦م) مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد محمد شبل ، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، القاهرة .

١٤- أفلاطون (د. ت) آخر أيام سقراط ، ترجمة أحمد الشيباني ، دار الكاتب العربي ، بيروت .

١٥- ألبرت أشفيتزر (١٩٨٣م) فلسفة الحضارة ، ترجمة د.عبد الرحمن بدوي ، دار الأندلس ، ط ٣ ، بيروت .

١٦- ألفين توفلر (١٩٩٠م) صدمة المستقبل ، ترجمة محمد علي ناصف ، نهضة مصر ، القاهرة ، ط٢ .

١٧- أمين معلوف (١٩٩٨م) الحروب الصليبية كما رآها العرب ، ترجمة وتحقيق عفيف دمشقية ، دار الفارابي ، بيروت .

١٨- براين فاغان (٢٠٠٧م) الصيف الطويل ، دور المناخ في تغيير الحضارة ، ترجمة د.مصطفى فهمي ، عالم المعرفة ، العدد (٣٤٠) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

١٩- بركات محمد مراد (٢٠٠١م) ظاهرة العولمة ، رؤية نقدية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر سلسلة كتاب الأمة العدد (٨٦) .

٢٠- بهاء الدين الأبيشي (٢٠٠١م) المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق صلاح الدين الهواري ، دار ومكتبة الهلال ، القاهرة .

٢١- بيتر تيلور ، كولن فلنت (٢٠٠٢م) الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر ، ترجمة عبد السلام رضوان وإسحق عبيد ، عالم المعرفة ، العدد (٢٨٢) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

٢٢- تراون ريد (١٩٩٠م) قاموس الاختراعات والاكتشافات ، ترجمة محمود أحمد عويضة ، حيدر عبد المجيد المومني ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

٢٣- تشارلز داروين (١٩٧٣م) أصل الأنواع ، مكتبة النهضة ، بيروت / بغداد .

٢٤- ج. د. برنال (١٩٨١م) العلم في التاريخ ، ترجمة د. علي علي ناصف ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

٢٥- جان غيتون (١٩٩٢م) الله والعلم ، تعريب د. خليل أحمد خليل ، دار عويدات الدولية ، بيروت ، باريس .

٢٦- جان وليام لابيار (١٩٨٣م) السلطة السياسية ، ترجمة إلياس حنًا إلياس ، منشورات عويدات ، بيروت/ باريس .

٢٧- جنَس (١٩٨٧م) موسوعة المعلومات العامة للأرقام القياسية ، مؤسسة نوفل ، بيروت .

٢٨- جون لويس (١٩٨٦م) الإنسان ذلك الكائن الفريد ، ترجمة د .صالح جواد الكاظم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، القاهرة / بغداد .

٢٩- جيم هانكنسون (١٩٩٠م) المرشد إلى الفلسفة ، ترجمة جورج خوري ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

٣٠- دار الاستشارات الطبية والتأهيلية (١٩٩٦م) التطعيم ، إعداد الهيئة الاستشارية الطبية ، الرياض .

٣١- دار الشروق (١٩٨٦م) المنجد في اللغة والأعلام ، بيروت .

٣٢- دار الشعب ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر (١٩٦٥م) الموسوعة العربية الميسرة ، القاهرة .

٣٣- دين كيث سايمنتن (١٩٩٣م) العبقرية والإبداع والقيادة ، ترجمة د.شاكر عبد الحميد ، عالم المعرفة ، العدد (١٧٦) ، الكويت .

٣٤- دينيس لويد (١٩٨١م) فكرة القانون ، عالم المعرفة ، العدد (٤٧) ، الكويت .

٣٥- راسل جاكوبي (٢٠٠١ م) نهاية اليوتوبيا ، ترجمة فاروق عبد القادر ، عالم المعرفة ، العدد (٢٦٩) ، الكويت .

٣٦- روبرت ليرمان (١٩٦٣م) الطريق الطويل إلى الإنسان ، ترجمة د. ثابت جرجس قصبجي ، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ، ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بيروت / نيويورك .

٣٧- ريتشارد هرير دكمجيان (١٩٨٩م) الأصولية في العالم الإسلامي ، ترجمة عبد الوارث سعيد ، دار الوفاء ، مصر .

٣٨- ستيفن هوكنغ (١٩٩٠م) موجز في تاريخ الزمن ، ترجمة عبد الله حيدر ، أكاديميا ، بيروت .

٣٩- ستيفن هوكنغ (٢٠٠٣م) الكون في قشرة جوز ، ترجمة د.مصطفى إبراهيم فهمي ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (٢٩١) ، المجلس الوطني للفنون والثقافة والآداب ، الكويت .

٤٠- سيد قطب (١٩٨٢م) في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت / القاهرة .

٤١- شركة الزيت العربية السعودية (٢٠٠٧م) : مجلة القافلة ، الظهران .

٤٢- الطيب صالح (١٩٦٩م) موسم الهجرة إلى الشمال ، دار العودة ، بيروت .

٤٣- عبد الحليم عويس (١٩٨٩م) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ، دار الصحوة ، دار الوفاء ، القاهرة .

٤٤- عبد السلام الترمانيني (١٩٧٩م) الرق ، ماضيه وحاضره ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (٢٣) ، الكويت .

٤٥- عبد المحسن صالح (١٩٨٤م) التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان ، عالم المعرفة ، العدد (٤٨) ، الكويت ، ط٢ .

٤٦- عبد الرحمن بدوي (١٩٨٤م) موسوعة الفلسفة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

٤٧- عبد الستار إبراهيم (٢٠٠٢م) الحكمة الضائعة ، عالم المعرفة ، العدد ٢٨٠ ، الكويت .

٤٨- عبد الله العروي (١٩٨٨م) مفهوم الأيديولوجيا ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط٤ .

٤٩- عبد الوهاب المسيري : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية .

٥٠- علي عبد الرازق (١٩٦٦م) الإسلام وأصول الحكم ، مكتبة الحياة ، بيروت .

٥١- عماد الدين خليل (١٩٨١م) التفسير الإسلامي للتاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣ .

٥٢- عمر سليمان الأشقر (١٩٨٥م) الرسل والرسالات ، مكتبة الفلاح ، الكويت .

٥٣- غاستون بوتول (١٩٨١م) هذه هي الحرب ، ترجمة مروان القنواتي ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس .

٥٤- فاخر عاقل (١٩٨٨م) معجم العلوم النفسية ، دار الرائد العربي ، بيروت .

٥٥- فاطمة المرنيسي (٢٠٠٠م) سلطانات منسيات ، ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل ، المركز الثقافي العربي بيروت نشر الفنك ، الدار البيضاء .

٥٦- فاطمة المرنيسي (٢٠٠٠م) هل أنتم محصنون ضد الحريم ؟ ترجمة نهلة بيضون ، المركز الثقافي العربي بيروت .

٥٧- فرنسيس كريك (١٩٨٨م) طبيعة الحياة ، ترجمة د . أحمد مستجير ، عالم المعرفة (١٢٥) الكويت .

٥٨- فرانك كيلش (٢٠٠٠م) ثورة الإنفوميديا ، ترجمة : حسام الدين زكريا ، عالم المعرفة (٢٥٣) الكويت .

٥٩- فرانك كلوز (١٩٩٤م) النهاية ، الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون . ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي ، عالم المعرفة ، الكويت .

٦٠- فلانجان فيرجين (١٩٩٠م) دليل المواطن في العلم الحديث عشية القرن الحادي والعشرين ، مركز الكتب الأردني ، عمّان .

٦١- فؤاد زكريا (١٩٨٩م) التفكير العلمي ، منشورات ذات السلاسل ، ط٣ ، الكويت .

٦٢- فيكتور فرنر (١٩٨٨م) الحرب العالمية الثالثة ، ترجمة هيثم الكيلاني ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

٦٣- كاتي كوب ، هارولد جولد وايت (٢٠٠١م) إبداعات النار ، ترجمة د.فتح الله الشيخ ، عالم المعرفة ، العدد (٢٦٦) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

٦٤- كارل ساجان (٢٠٠٠م) كوكب الأرض ، نقطة زرقاء باهتة ، رؤية لمستقبل الإنسان في الفضاء ، ترجمة د. شهرت العالم ، عالم المعرفة ، العدد (٢٥٤) ، الكويت .

٦٥- كتاب المعرفة (١٩٨٥م) الأرض والكون ، شركة إنماء للنشر والتوزيع ، بيروت .

٦٦- كولن ولسون (١٩٨٧م) سقوط الحضارة ، ترجمة أنيس زكي حسن ، دار الآداب ، ط ٤ ، بيروت .

٦٧- ماجد موريس إبراهيم (١٩٩٩م) سيكولوجية القهر والإبداع ، دار الفارابي ، بيروت .

٦٨- ماريا لويزا برنيري (١٩٩٧م) المدينة الفاضلة عبر التاريخ ، ترجمة د.عطيات أبو السعود ، عالم المعرفة ، العدد (٢٢٥) ، الكويت .

٦٩- ماكس بيروتز (١٩٩٩م) ضرورة العلم ، ترجمة وائل أتاسي ، د.بسام معصراني ، عالم المعرفة ، العدد (٢٤٥) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

٧٠- مالك بن نبي (١٩٦٠م) شروط النهضة ، دار الفكر ، بيروت .

٧١- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (١٩٨٦م) مجلة العربي ، العدد (٣٣٣) ، الكويت .

٧٢- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (٢٠٠٣م) مجلة الثقافة العالمية ، الأعداد (١١٦ ، ١١٧ ، ١٢١) ، الكويت .

٧٣- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (٢٠٠٣م) مجلة عالم الفكر ، المجلد (٣١) ، العدد (٤) ، الكويت .

٧٤- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (٢٠٠٦م) مجلة عالم الفكر ، المجلد (٣٥) ، أكتوبر ديسمبر ، الكويت .

٧٥- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (١٩٩٥م) جبران في عالم واحد ، مجموعة من المترجمين ، مراجعة : عبد السلام رضوان ، عالم المعرفة ، العدد (٢٠١) ، الكويت .

٧٦- محمد باسل الطائي (١٩٩٩م) خلق الكون بين العلم والإيمان ، دار النفائس ، بيروت .

٧٧- محمد جلال كشك (١٩٩٤م) قراءة في فكر التبعية ، مكتبة التراث ، مصر .

٧٨- محمد عابد الجابري (١٩٩٨م) مدخل إلى فلسفة العلوم ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت .

٧٩- محمد عبد الرحمن مرحبا (١٩٨٨م) : المسألة الفلسفية ، منشورات عويدات ، بيروت / باريس (١٩٨٨م) .

٨٠- محمد قطب (١٩٨٨م) مذاهب فكرية معاصرة ، دار الشروق ، القاهرة / بيروت ، ط٤ .

٨١- محمد قطب (١٩٩٢م) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ، دار الوطن للنشر ، الرياض .

٨٢- مرايا (٢٠٠٣ م) إعادة كتابة التاريخ ، مؤسسة الأيام للنشر ، مملكة البحرين .

٨٣- مركز دراسات الوحدة العربية (١٩٩١م) المستقبل العربي ، بيروت .

٨٤- مصطفى الزرقا (٢٠٠١ م) فتاوى مصطفى الزرقا ، دار القلم ، دمشق .

٨٥- ملحم قربان (١٩٨٢م) قضايا الفكر السياسي ، القانون الطبيعي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت .

٨٦- المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، أيسيسكو (٢٠٠٢م) لغات الرسل وأصول الرسالات .

٨٧- مؤسسة عبد الحميد شومان (١٩٩١م) آفاق علمية ، آذار / نيسان ، قبرص .

٨٨- مؤسسة المسلم المعاصر (١٩٩٥م) مجلة المسلم المعاصر ، العدد (٧٧) ، قطر .

٨٩- موريس بوكاي (١٩٨٥م) ما أصل الإنسان ؟ مكتب التربية لدول الخليج العربي .

٩٠- ميخائيل زابوروف (١٩٨٦م) الصليبيون في الشرق ، دار التقدم ، موسكو .

٩١- النجار والغمقي والمستيري (٢٠٠٢ م) البعد الحضاري لهجرة الكفاءات ، كتاب الأمة (٨٩) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر .

٩٢- نجيب محفوظ (١٩٦٥م) : ثرثرة فوق النيل ، مكتبة مصر ، القاهرة .

٩٣- نزار قباني (٢٠٠٠ م) قصتي مع الشعر ، منشورات نزار قباني ، بيروت .

٩٤- نعمان عبد الرزاق السامرائي (٢٠٠١م) نحن والحضارة والشهود ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية كتاب الأمة ، العدد (٨٠) ، قطر .

٩٥- نورمان بريل (١٩٦٤م) بزوغ العقل البشري ، ترجمة إسماعيل حقي ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة ونيويورك .

٩٦- نيل غرانت وتركي ضاهر (٢٠٠٠ م) صراعات القرن العشرين ، تعريب إياد ملحم ، دار الحسام للطباعة ، بيروت .

٩٧- هاشم صالح (٢٠٠٥ م) مدخل إلى التنوير الأوروبي ، دار الطليعة ، بيروت .

٩٨- هاني رزق وخالص جلبي. (٢٠٠٠م) الإيمان والتقدم العلمي ، دار الفكر (دمشق) دار الفكر المعاصر ، بيروت .

٩٩- هيئة الإعجاز العلمي برابطة العالم الإسلامي (٢٠٠٠ م) مجلة الإعجاز العلمي ، العدد الخامس ، يناير .

١٠٠- وزارة الصحة السعودية (٢٠٠٦م) الأمراض المعدية ومستجداتها العالمية ، الرياض .

١٠١- ويل ديورانت (١٩٨٣م) قصة الحضارة ، مكتبة المعارف ، بيروت .

١٠٢- ويل ديورانت (١٩٨٢م) قصة الفلسفة ، مكتبة المعارف ، بيروت .

١٠٣- يحي غوت ، فويتشيخ هامان (١٩٩٦م) احترام الصراع ، ترجمة د. مطاع بركات ، دار الآفاق والأنفس ، دمشق .

***

المصادر والمراجع الأجنبية

1- Arnold Toynbee (1968) : *"The Listener"*, *March* 7.

2- Brockman, J. (2002) : *"The Next Fifty Years: Science in the First Half of the Twenty-First Century"*, London: Weidenfeld & Nicholson.

3- Guiness (1994) : *"Book of Records"*.

4- Jonathan Marjelius (2001) : *"A Brief History of Tomorrow"* Bloomspry, London.

5- Medlevant AG (1989) : *"Science Dictionary"*, Austria.

6- *National Geographic*, Sep (2001).

7- Stewart, I (1997) : *"Does God Play Dice, the Mathematics of Chaos"*, Penguin Books Ltd. London.

8- Weinberg, S (1993) : *"The First Three Minutes, Modern View of the Origin of the Universe"*, Basic Books New York.

***

المواقع الإلكترونية

1- http://www.almwsoaa.com/

2- http://alnoor-world.com/scientists

3- http://www.atlapedia.com/

4- http://www.arab-ency.com/

5- http://www.ascssf.org.sy/conf-falyoun1.htm

6- http://www.biography.com

7- http://www.britannica.com

8- http://www.cdc.gov

9- http://www.c4arab.com

10- http://www.countryreports.org

11- http://www.google.com

12-http://www.guinnessworldrecords.com

13- http://www.mawsoah.com/

14- http://www.mawsoah.net

15- http://www.nasa.gov/

16- http://www.pcwebopaedia.com

17- http://www.psychology.org

18- http://www.probert-encyclopaedia.co.uk

19- http://www.thecanadianencyclopedia.com/

20- http://www.who.int.org

21- http://www.wikipedia.org

22- http://www.ya3mri.com/vb/showthread.php?t=36478

السيرة الذاتية للمؤلف



- د. أحمد محمد كنعان .
- من مواليد دمشق (١٩٤٨م).
- إجازة دكتور في الطب البشري ، جامعة دمشق (١٩٧٣م).
- زميل الجمعية الدولية لتاريخ الطب الإسلامي (ISHIM) .
- زميل الجمعية السعودية لطب الأسرة والمجتمع .
- عضو في رابطة الأدب الإسلامي العالمية .
- عضو في نادي المنطقة الشرقية الأدبي (السعودية) .
- عضو الهيئة الاستشارية لتحرير مجلة الجمعية الدولية لتاريخ الطب الإسلامي (JISHIM) .
- عضو هيئة التحرير في مجلة (صحة الشرقية) بالمملكة العربية السعودية .
- متعاون مع منظمة الصحة العالمية (WHO) بمراجعة البحوث العلمية المرشحة للنشر في مجلة (Eastern Mediterranean Health Journal) .
- حاضَر في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية والفكرية المحلية والدولية .

● كتبه المنشورة :

١- النشأة الأولى (بالاشتراك) ، بيروت ، دمشق (١٩٧٧ ، ١٩٧٩م) .

٢- الألم .. طبيعته وعلاجه ، بيروت ، دمشق (١٩٨٦م) .

٣- دفاع عن الإيدز ، السعودية (١٩٨٩م) .

٤- أمراض يمكن الوقاية منها ، السعودية (١٩٨٩م) .

٥- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ، قطر ، مصر ، المغرب (١٩٩٠م) / بيروت (١٩٩٧م) .

٦- الإنسان والأمراض المعدية (بالاشتراك) ، السعودية (١٩٩١م) .

٧- العقلية الإسلامية بين إشكالات الماضي وتحديات المستقبل ، دمشق (١٩٩٥م) .

٨- موسوعة جسم الإنسان ، بيروت (١٩٩٦م) .

٩- الحمى والحرارة في الطبيعة والإنسان ، بيروت (١٩٩٦م) .

١٠- ذاكرة القرن العشرين ، بيروت (٢٠٠٠ م) .

١١- الموسوعة الطبية الفقهية ، بيروت (٢٠٠٠ / ٢٠٠٢ م) .

١٢- عقل الإنسان في الفلسفة والطب والقرآن (بالاشتراك) ، بيروت (٢٠٠٢ م) .

١٣- الحب والجنس والزواج ، الدمّام (٢٠٠٥ م) .

* نشر عدة بحوث علمية وأدبية في المجلات والصحف العربية والأجنبية .

* مسجل باسمه اكتشاف نوع جديد من جراثيم السالمونيلا (سالمونيلا الدمام) التي تسبب التهابات معوية بالاشتراك مع فريق من صحة الشرقية بالمملكة العربية السعودية .

رقم الإيداع

٢٠٠٨/١١٦٤٧

الترقيم الدولي ISBN

977-342-646-7

هَذَا الكِتَابُ

إنجاز جديد لموسوعة تضم أخبار الأوّلين والآخرين نتيجة لحركة فكرية محلقة عبر فضاءات معرفية متجددة بالسّير في وديان معرفة لا تنضب، والتحليق في سماء التاريخ وقوانينه لاستنطاق روحه؛ فبرزت تلك الموسوعة التاريخية العظيمة التي انصبّ أغلبها على الأحداث الكونية الكبرى التي شكّلت المفاصل الأساسية لتاريخ هذا الوجود، مدعومة بنصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومزوّدة بالجداول والإحصائيات والصور التوضيحية؛ مما جعلها بحقٍّ إضافة جديدة للمكتبة العربية الإسلامية.

الناشر



القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

